سارة سيف الدين

Nobian Sara

اخترتكَ وأنت



اخترتُكَ أنت

بقلم

سارة سيف الدين

Nobian sara

سارة سيف الدين

مراجعة

داليا محمد

ألفت سلام

المقدمة

كان العمل يسير على قدم وساق، الحفل كبير والمدعوون يملاؤون المكان، ويخدم كل هذا مطبخ كبير يتحرك فيه الجميع كالنحل، هذا يحمل كؤوس المشروبات بكل أنواعها، وآخر يحمل المقبلات ليمر بين المدعوين ليسمح لهم بتذوق ما يريدون .أما هي فوقفت تتابع ما يحدث من خلف نافذة صغيرة تطل على الحديقة، لم يكن اهتمامها بكل هذه الوجوه التي تملاؤها المساحيق ,ولا الأعناق التي يتلألأ عليها كل أنواع المجوهرات، ولا هؤلاء الشباب الذين يريدون أن ينافسوا الفتيات في الأناقة .فهمها كله مُنصب عليه فقط، تراقبه كالصقر ما إن يلتفت لهذه أو لتلك حتى تتسع عيناها أكثر وأكثر، تحاول قراءة شفتيه، تريد أن تعرف ماذا يقول؟، هل سيغازلها مثلًا؟ !أم مجرد مجاملة لطيفة؟ !!

زفرت وهي تفشل من محاولة لأخرى إلى أن سمعت من يناديها، أسرعت لصاحبة النداء:

- حاضر ماما ..أنا جاية

- يالا يا بوسي ...الشغل كتير.

ساعدت أمها في تفريغ الأكواب النصف ممتلئة لغسلها سريعًا وتجفيفها ليعاد ملؤها ثانية وتعود للخروج لجموع المدعوين، استمر هذا المجهود المضني لساعتين إلى أن وصلت كعكة عيد الميلاد الخاصة بالابن المدلل للعائلة، فالليلة هي ليلة ميلاده التاسع عشر.

- ماما ..أنا هطلع ابص من فوق ...من هنا مش شايفة حاجه.

الأم بتذمر:

-أنتِ اتجننتي يا بوسي تطلعي فين ...خليكي هنا.

ربتت إحداهن على كتف الأم:

- ماتسيبيها يا فاطمة ...روحي يا بوسي ..بس تعالي على طول أول ما يطفوا الشمع ..لسه الشغل كتير.

هزت فاطمة رأسها بيأس بينما انطلقت بسمة إلى أعلى القصر الفسيح لتشاهد لحظة إطفاء شموع الكعكة المكونة من ثلاثة طوابق.
بسمة الفتاة ذات الثامنة عشر ربيعًا، تخطو عالم الأنوثة على استحياء، بملامح جميلة ورثتها عن أمها التي كان يتحسر الجميع على جمالها الذي دفن في المطابخ والخدمة، شعر أسود فاحم، بشرة خمرية، أنف دقيق، شفاه وكأنها رسمت بدقة، وعينان رماديتان، تحتل مساحة كبيرة من عينيها فلم يغفل عنهما أحد .ولكنها لم ترث فقط جمال أمها الباهي وإنما اضطرت إلى أن ترث عملها أيضًا، فأمها كبيرة في السن وهذا هو المكان الوحيد الذي تعمل فيه وفي نفس الوقت لا يدري أحد شيء عنها . وحين قلت قدرتها على أداء المطلوب؛ أصبح لابد من الاستعانة بابنتها المراهقة في العمل، ولم يكن هذا غريب على بسمة التي تربت تقريبًا في هذا المكان، فطالما صحِبتها أمها أثناء العمل في القصر، ولم تكن تتغيب إلا أثناء الدراسة والامتحانات.
وصلت بسمة للمكان الذي نوت الوقوف فيه، فأصبحت في مواجهة الجموع تمامًا، ولكن على مسافة لا تجعلها واضحة تمامًا للعيان إلا من يهتم ويرفع رأسه لأعلى القصر فيراها.
أما هي فقط ركزت عيناها على وجهه بينما يتلقى التهاني وعبارات التشجيع كي يتمكن من إطفاء شموع ميلاده التاسع عشر دفعة واحدة.
أخذ نفسًا عميقًا، ليميل ناحية الشموع وفي اللحظة التالية وجه بصره نحوها، ليغمز بعينه قبل أن يبدأ في إطفاء الشموع، ونجح فيها بالفعل، لتتعالى صيحات رفاقه ويستقبل التهاني مجددًا.
"أنتِ آخر واحده هشوفها قبل ما اطفي الشمع ..اتفقنا"
اتسعت ابتسامتها وأصداء عبارته تتردد في عقلها، بالفعل كانت آخر من رآها قبل أن يطفي شمعاته، وكالعادة حقق وعد جديد لها، وإن كان بسيطًا.
لتردد بقلبها ولسانها معا :
- كل سنة وأنت حبيبي.

الفصل الأول

مع إن كل الخلق من أصل طين
وكلهم بينزلوا مغمضين
بعد الدقايق والشهور والسنين
تلاقي ناس أشرار وناس طيبين
وعجبي!!
رباعيات جاهين

من منا لم يعش حلمًا حتى وإن لم يتحقق أبدًا، هل استحالة تحوله لحقيقة منعتنا من الحلم، بل كنا نحلم ونعيش هذا الحلم بكل تفاصيله، نبكي ...نضحك ... نصرخ ...وأحيانًا نتشاجر ونتصالح، ومازال الأمر مجرد حلم.
وكذلك هي، حلمت وعاشت حلمها، لكنه أضحى واقعاً، بشكل ما، واقع لا يعلم أحد عنه شيء، واقع يجب أن يظل في الخفاء وإلا سيعد مجرد حلم بل وربما سيتحول لكابوس.
بدأت الحركة تهدأ في المطبخ لانشغال المدعوين بتناول طعامهم، بعد تقطيع كعكة عيد الميلاد، تحركت بسمة للخروج لتوقفها أمها:
-على فين يا بوسي؟
زفرت بسمة:
-هطلع اقعد بره ياماما ...هياخدوا وقت على ما يخلصوا اكل.
-بوسي ..أنتِ عارفه إننا مش بنطلع بره.
-عارفه ياماما عارفه ...ماحدش هيشوفني ..هقعد بعيد ..هتفرج من بعيد ... زي ما كل حاجه بنشوفها من بعيد.
بدت نبرة التذمر واضحة مع حروف كلماتها الأخيرة وهي تبتعد عن أمها .

زفرت فاطمة بحزن، كم تشعر بالآسى على ابنتها مما تعانيه معها، كم كانت حياتهما ستكون مختلفة لو بقي زوجها معها، كان قويًا، يجيد معاندة واقعه يحارب من أجل تحقيق مبتغاه، لكن القدر لم يمهله، فقدته سريعًا كما حظت به سريعًا، شهور قليلة عاشتها معه أنعم عليها بكل حبه وحنانه، رغم كل المأسي التي أحاطت ظروف زواجهما لكنه كان يجيد جعلها تبتسم أيًا كانت المشكلة وتصورت أن الباقي سيكون أفضل خاصة أنها حملت سريعًا فأضحت حياتهما أكثر بهجة، لكن لم يعد هناك باقي ، فقدته في لحظات كانت الأسوأ في حياتها، لا ليس هذا فحسب بل الأسوأ فعلا هو ظهور تلك الشمطاء لتكمل عقابها على أنها تجرأت وتزوجت به.

حاربت دمعات تعاند للظهور في مقلتيها لتقترب منها المرأة الوحيدة التي تتحدث معها بأريحية:

- مالك بس يا فاطمة؟!

أشاحت بوجهها بعيدًا ثم وقفت لتقترب من النافذة المطلة على الحديقة حيث يمكنها رؤية وجوه المدعوين، تفحصتهم للمرة العاشرة بحثًا عن غايتها وكالعادة لم تظهر.

- لسه بتدوري على الست اللي قلتيلي عليها واللي مش عايزة تقوليلي بتدوري عليها ليه.

- ماقلتلك يا سميرة ..ليا حق عندها ونفسي الاقيها.

هزت سميرة رأسها، فهذا ما تكتفي فاطمة بقوله كلما حدثتها عن تلك المرأة التي تبحث عنها منذ التحقت بالعمل معهم.

وقد مرت عشر سنوات ولم تستطع سميرة أن تعرف أكثر عن تلك الفاطمة الكتومة، غير أنها فقدت زوجها في حادث وأن عليها العمل لتنفق على طفلتها الوحيدة والتي ترافقها معظم الوقت، ولكنها انتبهت إلى بحثها الدائم أثناء أي حفل ضخم يضمه القصر، وبعد العديد من التساؤلات صرحت أنها تبحث عن امرأة من تلك الطبقة الراقية لديها شيء يخصها وفي نفس الوقت لا يمكنها

كشف نفسها أمامها، عليها فقط المراقبة من بعيد، ورغم مرور تلك السنوات لم تيأس ولم تكِل من البحث عن ذلك الوجه.

....

انشغل معظم المدعوين بالطعام، بينما استمرت سيدة القصر " سما " في تحية ضيوفها إلى أن انتبهت إلى إحداهن لتناديها بحماس:

-نيرمين ..نيري ..يا وحشة.

اقتربت منها الفتاة ضاحكة لتضمها إلى صدرها معتذرة عن تأخرها فضربتها سما على كتفها برفق:

-أيوة اضحكي عليا بكلمتين ...جيتي من أمريكا وما ظهرتيش ..ويوم الحفلة كمان جاية متأخرة.

- سامحيني يا طنط ..الطريق والله ..أنا نسيت خالص حكاية الزحمة دي.

جاءها صوته من الخلف:

-كم سنة في أمريكا هينسوكي بلدك ..يا خسارة.

التفتت له ضاحكة وقد ابتهج وجهها مرددة:

-معاذ ..كل سنة وأنت طيب ..وحشتني أوي.

قالتها وهي تضمه إلى صدرها ليبادلها ذلك وهو يربت على ظهرها ليرفع رأسه قائلًا:

-وأنتِ كمان ...عاملة إيه يا نيري؟.

أجابته وهي تملأ عيناها بملامح وجهه التي افتقدتها كثيرًا بسفرها للدراسة، لاحظ تأملها له فرفع أحد حاجبيه قائلًا:

-اممممممممم ...باين عليا وحشتك أوي.

أصبتها حمرة الخجل بينما وكزته أمه في كتفه بلوم، لتسألها عن حال والديها وكيف دراستها وحياتها بالولايات المتحدة، طمأنتهما على والديها وأن الأمور معها جيدة هناك، لتلتفت لمعاذ قائلة:

-مش ناوي تيجي الجامعة عندنا ...هتستفيد جدا هناك والله.

لوح بكفه:

-ماليش أنا في موضوع السفر ده؟!
زمت أمه شفتيها قائلة:
-لسه ماقررناش.
أشاح بوجهه بعيدًا فاليوم ليس يوم جدال، دست نرمين يديها في حقيبتها لتخرج علبة كرتونية مستطيلة وتمنحها لمعاذ قائلة:
-هدية عيد ميلادك.
شكرها كثيرًا، وأراد وضعها جانبًا لكنها أوقفته وأصرت على فتحها، ففعل، ليفتح العلبة فيستقر في كفيه جهاز أشبه بالهاتف المحمول لكنه كان كبير وله شاشة لمس عريضة، عقد حاجبيه وهو يدقق النظر فيه ثم اتسعت عيناه فرحًا لتضحك وهي تأخذه منه وتضغط زر التشغيل قائلة:
- بالظبط ...أيباد ..لسه نازل جديد في السوق الامريكي ...حتى مانزلش لسه السوق المصري وانا عارفه إنك غاوي تكنولوجيا ..فقلت أكيد هتحب تكون أول واحد يجربه ...أنا طبعا مش ضامنة أوي إنك أول واحد في كتير عرب اشتروه من أمريكا أول ما نزل.
برقت عيناه وهو يطالعه بينما تقوم هي بتصفحه أمامه لتخبره عن تطبيقات الجهاز العديدة ما يمكنه أن يتصفحه فيه، من كتب وبرامج وفيديوهات وغيرها، بدا أنه نسى كل ما حوله وهو يداعب شاشة ذلك الشيء في يديه فهزت سما رأسها:
-كده برضو يا نيري ...طب ادهوله في آخر الحفلة مش دلوقت.
ضحكت وهي تربت على كتفه:
- كنت عارفه إنه هيعجبه أوي.
ضمها إلى صدره فجأه مرددًا:
-بجد عجبني جدًا ..بحبك نيريييييي...
ليبتعد عنها ملوحًا لها ومذكرًا إياها بتناول الكثير من الطعام حتى عودته، تابعته بعينيها وقد توردت وجنتيها بحمرة خفيفة وبرغم أنها لم تتفاجأ من فعلته إلا أن مشاعرها نحوه دومًا تدفعها للخجل حين يلمسها حتى ولو مصافحة

بسيطة وتكفي دقات قلبها المتعالية لتدرك ذلك وهو ما لم تنكره يومًا، هي تحبه بل ربما تعشقه فقط تنتظر أن يبادلها نفس الشعور وما يطمئنها حديث جانبي سمعته مرة بين أمه وأمها أن تتم خطبتهما فور انتهاء الدراسة، حينها دخلت غرفتها تقفز فرحًا، لتلقي بنفسها على فراشها تصاحبها صيحات البهجة التي أطلقتها بلا ملل.

معاذ ..الذي ربما لا يبدو أوسم من شباب كثيرين في هذا الحفل لكنه يمتك وجه جذاب وروح طيبة .لطالما كانت روح معاذ الطيبة وعدم تعاليه على أحد من صفاته المحبوبة والتي جعلته قريب من الجميع سواء من تلك الطبقة الراقية أو ممن هم دونها .

....

وفي مكان آخر في الجوار، زفرت بضيق وهي تنقر بأصابعها على ركبتيها وقد عقدت رجليها معًا جالسة أرضًا مستندة إلى شجرة ضخمة تحيطها الكثير من الأشجار الكثيفة مما جعل رؤيتها شبه مستحيلة من خلف تلك السدود الطبيعية، إلى أن سمعت صوت خشيش تلك الأشجار فعقدت حاجبيها في انتظار هذا الزائر المتوقع، ليندفع ناحيتها قائلًا:

"بخ"

منحته تعبيرًا متجهمًا وشفاه ملتوية ووجه يشيح بعيدًا، فجلس أمامها على ركبيته قائلًا:

-في إيه يا بوسي؟!

تأوه فور أن ضربت صدره بكفها لتبدأ في تأنيبه لكن بصوت خفيض لا يسمعه سواهما:

-أنت بتهزر ...مافيش فايدة فيك ...كل ماتشوف واحدة تحتضنها ...أنت مش هتبطل بقى ..عملي فيها عيل عنده عشر سنين عمال يحضن في البنات.

هز رأسه في يأس:

- احنا مش هنخلص من الموضوع ده.

قالت باصرار:

-لأ مش هنخلص يا معاذ ..إلا لما تبطل.
-يا حبيبتي ...قلنا مييييييت مرة ...ده مجرد سلام ...سلام زي سلام الإيد ... مش زي ما أنتِ فاكرة أبدًا.
زفرت بضيق وعدم صبر، فابتسم وهو يتأمل عينيها التي تتوهج كلما فرحت أو غضبت، تلك الفتاة الغاضبة كثيرًا والهادئة قليلًا، تفكر كثيرًا، تحسب لكل تصرف وقول، من يستمع إليها يمنحها أكثر من عمرها، معه فقط تتصرف كالأطفال ...تتذمر ...تغضب ..تلوم ..وتنتظر المصالحة، والتي تَعَلَّم كيف يجيدها معها.
مال ناحيتها هامسًا:
- تعرفي ..أحلى حاجه شوفتها قبل ما اطفي الشمع ..كانت عيونك.
- يا سلام ...شوفت عيوني من المسافة دي كلها.
تجاهل سخريتها التي يعي سببها ليميل نحوها:
-مش هتقوليلي كل سنة وأنت حبيبي؟!
لوت شفتيها وهي ترمقه بنظرة ما بين غيظ وحب:
- ما أنا قلتلك الصبح.
- وماله ...الصبح والضهر والعصر ..وبالليل كمان ....
التفتت إليه باستعلاء، انتهى ببسمة صافية على شفتيها وهي تهمس:
-كل سنة وأنت حبيبي.
فدنا منها أكثر فأكثر:
-وكل سنة وأنتِ حبيبتي ومعايا ..وجنبي.
شعرت بقربه فأزاحت نفسها قليلًا وقد غلبها توترها، فطالما كان قربه منه يوترها رغم إنه قريب منها منذ سنوات .وهو يعلم هذا جيدًا، يعلم تأثيره عليها، التأثير الذي يحبه ويعشق رؤيته على ملامحها .
اعتدل ليمنحها مساحة تتخلص بها من توترها ليقول:
-شوفتي نيري جابتلي ايه؟!
التفاته حادة ونظرة غضب ولوم تطلق شراراً من عينيها ليستدرك بقوله:

-أقصد نرمين ...نرمين صديقة العيلة ..شوفتي جابتلي أيباد ...حاجه كده تحفة ....كنت ناوي اشتريه أول ما ينزل مصر.
نظرت لما في يده والذي أخذ يتعامل معه بيسر وكأنه معه منذ مدة، وهو يسرد لها ما فيه من أشياء فهمت بعضها ولم تفهم معظمها، لم تكون تلك الاشياء تثير اهتمامها يومًا رغم محاولاته العديدة في أن يجعلها مثله، استمر في الشرح ثم رفعه أمامها قائلًا:
-وأهم حاجه بقى أن فيه كاميرا ...ياله اضحكي ..علشان نحط فيه أول صورة لينا.
دفعت الجهاز بعيدًا حتى كاد أن يسقط من يديه ليلتقطه بصعوبة قائلًا بذهول:
-إيه يا مجنونة ده؟!
-أنت اللي مجنون !!صور إيه اللي هنخدها ..ماينفعش حد يعرف عننا أي حاجه ..أنت عارف كده كويس ...افرض حد شاف الصورة دي.
- يا ربي يا بوسي ...أنا ساعات بنسى إن أنا ليا حبيبة ...ماحدش يعرف عنك حاجه ... اسمك ماينفعش يجي على لساني بالغلط ...رافضة تاخدي موبيل اكلمك منه وقت ما أحب ..مابنخرجش مع بعض ..أنتِ ماتعبتيش من العيشة دي .
صمت وهو يرى الحزن يرتسم على ملامحها ..لترتجف شفتاها:
-تعبت ..بس هتعب أكتر لو خسرتك ..أنا خوفي أكبر من خوفك ..أنت البية مش أنا اللي هانم ..أنا هخسرك وهخسر كل حاجه ...ومش هخسر لوحدي ... علشان كده أنا بخاف أكتر منك ...بخاف يا معاذ.
احتضن أناملها بين كفيه، هو يعلم جيدًا أنها تفعل هذا لأنها تخشى خسارته، فلو علمت أمه بالأمر سيكون مصيرها وأمها الطرد من المكان وربما أكثر من ذلك، هو حتى لا يتخيل كيف سيكون رد فعل أمه حين تعلم أنه يحب ابنة خادمة من خادمات المنزل.

-خلاص معلش ...أنا أسف ..بلاها الصورة ...بكرة لما نحقق اللي احنا عاوزينه لما نوصل لمرحلة تخلينا نعلن عن نفسنا من غير ما نضر نفسنا أو اللي حوالينا ...ساعتها مافيش حاجه هتمنعنا نعمل كل اللي احنا نفسنا فيه.
رفعت بصرها نحوه، لترى انعكاس وجهها في عينيه ، عيناه السوداوان، أنفه المستقيم، فمه الواسع، بشرته القمحية، وشعره البني .ترسم صورة تلو صورة ..بكل التعبيرات الممكنة ...ضحكته، غضبه، حبه، استفزازه، هدوءه، عصبيته، ونظرته لها .
فلطالما شعرت أنها ستفارقه يومًا، لطالما علمت أن حلم قربها منه سينتهي وتستيقظ لتجد نفسها وحيدة، لكنها أبدًا لا تستطع منع نفسها عن البقاء معه، عن النظر إليه، عن حبه، عن شعور الغبطة الذي يملئها حين تتذكر أنه اختارها هي دونًا عن كل الفتيات الأخريات، الأجمل، الأغنى، والأكثر أناقة.
انتبهت إلى صمتهما وعيناهما تتأمل بعضها الآخر لتتنحنح وهي تسحب يديها من بين أصابعه:
-أحم....طيب يالا ..قوم ..دقايق وسيبدأ البحث عن أمير الحفل.
اعتدل ليقف قائلًا:
-ماشي ..بس أنتوا اكيد هتباتوا هنا علشان الحفلة هتخلص متأخر ...لما كلهم يناموا ابقي اطلعي الجنينة الورانيه ...أنا هخليهم يرتبوا هدايا عيد ميلادي هناك علشان نفتحها سوا ...اوعي تروح عليكي نومه ...وماتقوليش حد هيشوفنا ...مافيش غير أوضة سامر بس اللي بتطل على الجنينة دي..وأكيد هينام قتيل بعد الحفلة ما تخلص ...عنده اجتماعات مهمة بكرة الصبح.
أومأت برأسها إيجابا ليلوح لها مرسلا قبلة في الهواء، وهو يزيح الشجيرات مغادرًا فأوقفته:
-خلي بالك ..اوعى حد يشوفك.
رد بصوتٍ أجش:
-ماتقلقش يا ريس ...وكلمة السر بطن الزير.

ضحكت وهي تهز رأسها بينما اختفى هو من أمامها .عادت لجلستها تستنشق عبير عطره الذي غمر المكان .
هذا المكان الذي بحث عنه كثيرًا حتى توصل إليه ..وبعد عدة تجارب تأكدا أنه الأءمن لهما، فهما هنا بالفعل غير مرئيان ولا ينتبه لهما أحد.
مدت يديها تجذب علبة صغيرة من جيبها الامامي، فتحتها تطالع خاتم فضي رجولي .
الهدية التي وفرت الكثير من مصروفها الشخصي حتى تتمكن من شراءه .
زفرت وهي تعيده لجيبها متذكرة رد فعله حين تسلم هدية تلك النرمين التي لا تطيقها على الأطلاق، بالتأكيد لن يسعده هذا الخاتم كما أسعده ذلك الجهاز المتطور، لكنها تعلم أنه سيرسم السعادة جيدًا على ملامحه حين يراه، فهكذا هو دائمًا يفاجأها بأفعاله معها ومشاعره ناحيتها.
أحياناً لا تصدق أنها تعيش ذلك الحلم، حلم بدأ بلعب أطفال منذ عشر سنوات وانتهى بقصة حب .
كانت في السابعة حين دخلت هذا المكان، الذي بدا لها بحجم مدينة مقارنة بالغرفة التي تعيش بها مع أمها فوق سطح إحدي البنايات، حديقة شاسعة بها طرق متفرعة تدل على كبر مساحتها، يتوسطها منزل كبير بل قصرًا، بتصميم قديم لكن أنيق .على بعد أمتار يمكن رؤية مسبحين أحدهما أصغر من الآخر، ربما هذا للأطفال والآخر للكبار، مقاعد من الخيزران موزعة بتناسق في المكان، مساحة خضراء مغطاة بلعب أطفال ضخمة، أرجوحات، منازل من البالون
بدا وكأنها أمام مدينة ترفيهية مصغرة للأطفال، فلم تستطع إلا العدو إلى هناك، ولم يمنعها أحد .مرحت قليلًا، لكنها توقفت حين رأته يحاول قيادة دراجته مرة بعد مرة ويفشل لكنه كان عنيدًا وعصبيًا ، تسألت لما يتدرب وحده، طفل مثله بالتأكيد له الكثير من الاصدقاء، يبدو من ثيابه وهيئته أنه من سكان هذا المنزل الضخم .

استمرت في مراقبته وهو يكرر محاولاته الفاشلة إلى أن سقط أرضًا وتخضبت ركبته بالدماء ليتأوه بألم، أسرعت نحوه قائلة:
-أنت كويس!!
نظر لها مندهشًا لم يرَها من قبل ظل يحدق بوجهها فأخذت تتلفت حولها حتى وجدت صنبور ماء في ركن من الأركان ذهبت إليه لتخرج منديلًا من جيبها وتبلله بالماء لتعود إليه تنظف جرحه وهي تطيب خاطره.
-أنتِ مين؟!
سألها وهو يبعد يدها عنه، لكنها عادت تمسح الجرح قائلة:
- أنا بوسي ..أنت بتتعلم تركب عجله لوحدك ليه؟ ..ليه مش معاك حد؟.
-أخويا عنده امتحانات ..مش فاضيلي.
-أسندك أنا.
قالتها بحماس ثم اردفت:
-بس أنت اتعورت ...لما تخف.
- أنتِ هتفضلي هنا لحد أما أخف.
أشارت ناحية الدور الارضي:
-ماما هنا ..وأنا هاجي معاها على طول.
"بوسي..بوسي تعالي"
جاءها نداء أمها.
-ماما بتنده ...صحيح أنت اسمك ايه؟!
-معاذ.
-سلام يا معاذ.
....

انضم معاذ لرفاقه ليتابع معهم أجواء الحفل الذي كان فيه فقرات فنية أيضًا .. رقصات وغناء وعزف .
التفت معاذ لنداء من أخيه ليقترب منه:

-سام حبيبي ...مش باين ليه؟
ابتسم سامر أخاه الاكبر والوحيد:
-هو أنت فاضيلي يا عم ...تعال عايزك تسلم على حد بنشتغل معاه.
جذب أخاه من ذراعه إلى أن وصل لشاب تجاوره فتاة:
-معاذ ..الباشمهندس جاهين ودي الآنسة لوجي أخته.
حياهم معاذ بلطف ليتلقى منهما التهاني على عيد ميلاده ويقدمان له الهدايا، شكرهما كثيرًا على حضورهما وهديتهما .
تبادلا التعارف ليوضح سامر له أن جاهين هو المسئول التنفيذي عن شركة الشربيني للمقاولات وبينهما بعض الأعمال المشتركة التي يتوقع أن تزداد مستقبلًا ليصبحا شريكان فعليان في العديد من المناقصات.
وجه معاذ حديثه للوجي قائلًا:
-أنتِ ليكي في جو المناقصات ده؟!
لوحت بكفها نافية:
-أبدًا أبدًا ...ولا اعرفه.
- زيي بالظبط على فكرة.
تعالت ضحكاتهم جميعًا ليطوق سامر عنق أخاه بذراعه:
-مش هتفضل كده كتير على فكرة.
-طيب استأذن بقى قبل مايدبسني في مناقصة.
صاحبته تهانيهما ثانية وابتساماتهم ليقول جاهين:
-لذيذ أوي أخوك ده.
منح أخيه نظرة حانيه قبل أن يقول:
-وطيب أوي.

....

انتهى الحفل وأطفأت الأنوار وخيم الهدوء على المكان، ليستقبل الأسرة بكل أنواعها الفاخرة والمهترءة أجساد أنهكها التعب من حفل تم الإعداد له لأيام لينتهي بعد ساعات من العمل المضني.
ومن بين تلك الاجساد جسدين أحدهما على سرير فاخر والآخر على سرير متواضع، باتفاق مسبق لم يغمض لهما جفن، استمر بقاؤهما ساكنان حتى تأكدا أن الكل قد نام ...لتبدأ رحلة تسرب مجنونة ومعتاده منهما؛ ليلتقيا على باب المنزل الفخم وكلاهما يكتم ضحكته خلف أصابعه.
حتى خرجا إلى الحديقة الشاسعة لتستمر ضحكتهما المكتومة، إلى أن وصلا لوجهتهما ...وقفا يتطلعا لهذه التلة الصغيرة من الهدايا المتراصة فوق بعضها لتضع بسمة يديها على خصرها مرددة:
-كل دي هدايا.
وكزها بكتفها:
-أنتِ هتؤري ...يالا نفتحهم.
التفتت حولها تطالع نوافذ المنزل المظلمة فجذبها ليجلسا أرضًا مطمئنا إياها أن لا يمكن أن يكون هناك مستيقظ الكل تَعِب كفاية لينام، هما فقد مجنونان كفاية ليبقيا مستيقظان.
بدءا في فتح الهدايا وسط همسات إعجاب ببعض ما يلاقوه من ساعات أنيقة وعطور فاخرة وأطقم جلدية للمكاتب وغيرها.
"يا لهوووييييييي"
صرخت بها بسمة دون أي اهتمام بصوتها العالي وهي تضرب كفها على صدرها فانتفض معاذ وهو يتلفت حوله:
-إيه؟ ..!في إيه؟ ..!احد صحي.
ودون الاهتمام لإجابته رفعت شيء ما أمام عينيه وقد احمر وجهها غضبًا:
-مين قللت الحيا اللي بعتالك الهدية المهببة دي؟!
عقد حاجبيه لينتبه إلى أنها تحمل بين يديها غلالة نسائية، لتطرحها بعيدًا عن عينيه مرددة:

-أنت بتبص لها اوي كده ليه!!
-ما أنا مش عارف ايه ده؟!
-أنت هتستعبط.
انفجر ضاحكا على وجهها الغاضب بشدة فأرادت الوقوف معلنه الرحيل فأمسك رسغها ليعيدها إلى جواره:
-خلاص بقى ...واحدة تافهة اعملها إيه يعني.
لوت شفتيها في ضيق ليضرب كف بكف:
-ده إيه عيد الميلاد اللي ما يعلم بيه إلا ربنا ده سيبك يا ستي من كل الهدايا دي ما تهمنيش، أنا نفسي في هدية منك أنتِ بس أنا مش هكلفك كتير ...أنا هديتي بسيطة جدًا.
نظرت له ليميل نحوها بخده مشيرًا إليه قائلًا:
-شوفتي ...هديه بسيطة أوي ...يالا هاتيها.
لكمته في وجنته لتطيح برأسه بعيدًا ليتأوه:
-سناني يا مفترية ...!!مش هتبطلي الحركة دي وتعملي حاجه مختلفة ... ده عيد ميلادي.
وضعت أمام عينيه علبة صغيرة ليحدق بها لثواني قبل أن يمسكها ويقلبها بين أصابعه:
-ماتقوليش جبتيلي هدية بجد.
تعلق بصرها بملامح وجهه، تريد أن تقراها، هل سيكون سعيدًا حقًا أم ستصيبه خيبة الأمل، هل سيدعي الفرح أم ستراه جليا في عينيه؟ .
اتسعت ابتسامتها حين رأت عيناه تفيض سرور وهو يتأمل ذلك الخاتم الفضي ويضعه في بنصره الايمن وينظر له قائلًا:
-جامد أوي الخاتم ده، تحسي رجولي كده.
-عجبك ؟.
التفت لها مستنكرًا سؤالها، لتخفض بصرها قائلة:
-أصله ما يجيش حاجه جنب الهدايا دي.

اعتدل ناظرا لعينيها:
-الهدايا دي مش ليا على فكرة ...دي مجاملة لمامي.
-طب والايباد ...ده بقى جايلك مخصوص.
أومأ برأسه:
-فعلًا ..وفرحت به جدًا ..بس قيمته من قيمة نرمين عندي ..صديقة للعيلة لكن الخاتم ده قيمته من قيمتك عندي ...عقلي وروحي ..وقلبي.
توردت وجنتيها في الحال وهي تخفي وجهها بعيدًا، ليهمس هو:
- دخيلوه أنا ها الوش المكسوف.
ضحكت ليضحك معها إلا أن ضحكتهما انقطعت فجأة مع إضاءة أضيئت خلفهما لتفزع بسمة هاربة دون أن تنظر خلفها، بينما استدار معاذ ليعرف مصدر الضوء، إنها غرفة سامر .
التفت باحثا عنها ليجدها قد اختفت تمامًا عن الانظار ليبتسم متمتمًا:
-يخرب عقلك ...اختفت في ثانية.
عاد يطالع خاتمها الذي زين كفه الأيسر ثم هم واقفًا ليعود أدراجه إلى المنزل . صعدها وهو يدندن بسعادة.
فلحظاته تلك التي يسرقها من عمره معها تعني له الكثير، في البداية كان دائم الشكوى من تخفيهما لكنه اعتاد الأمر بل أصبح أكثر متعة وهي تجعله كذلك دومًا، لو فقط تغامر معه أكثر ...لو تتخلى عن خوفها قليلًا وتمنحه وقتًا أطول .. عليه الصبر كما وعدها، المهم أن يكونا معًا في النهاية.
"معاذ"
انتفض ملتفتًا لصاحب النداء واتسعت عيناه وهو يحدق بأخيه المستند على باب حجرته ...وأول ما خطر بعقله .. هل رآه مع بسمة أم لا؟!!

الفصل الثاني

عجبتني كلمة من كلام الورق.
النور شرق من بين حروفها وبرق.
حبيت أشيلها ف قلبي.. قالت حرام.
ده أنا كل قلب دخلت فيه اتحرق.
عجبي!!
رباعيات جاهين

انتفض ملتفتًا لصاحب النداء، اتسعت عيناه وهو يحدق بأخيه المُستنِد على بابِ حجرته، لم يتوقع أن يبقى أحدًا مستيقظًا، وأول ماخطر بعقله، هل رآهُ مع بسمة أم لا؟!!

تماسك أكثر كي لايبدو عليه كمن قُبض بالجُرمِ المشهود، فظل ينظرله فحسب.

ليُردِفَ أخاه:

-تعالى... عايز أتكلم معاك شوية.
نظر معاذ في ساعة يديهِ قائلًا في محاولةٍ للهرب:
-بس ياسامر ياحبيبي الوقت اتأخر ...قصدي يعني... أنا هموت وأنام ... صحيح إنتَ إيه اللي صحاك من النوم... ولا إنتَ منمتش؟!
ابتسم أخيه في سخرية قائلًا وهو يعود لغرفته:
-مانمتش... ثُم إنتَ كنت مصحصح معاها تحت... تعال.
تصلب جسده للحظةٍ ليبتلع ريقِه بصعوبة، "معاها" يتحدث عن بسمة بالتأكيد!! خوفه كان بمحله، كيف له أن يظل مستيقظًا... تبًا إنه خطأه... ستقتله بسمة بكلِ تأكيد، فليهدأ ويترك لسامر الكلام.

أخذ نفسًا عميقًا ليدخل غرفة أخيه "خير ان شاء الله " طمأن نفسه بترديد تلك الكلمات، سامر أخ طيب لطالما كان طيب معه كما أنه يعرف الحب، صحيح أنه خسر حبه لكنه سيتفهمه.

وجد أخاهُ جالسًا على كرسيه الخاص بأريحية ليقول له:

-اقعد يامعاذ.

جلس على الكرسي المقابل واكتفى بالتحديق بأخيه، هو ليس لديه مايقوله ولن يبدأ بالدفاع كي لا يشعر أنه في موقفٍ يستدعي أن يُدافع عن نفسه... إنه يحب... أين المشكلة؟!

رمقه أخيه لثوانٍ قبل أن يقول:

-إنتَ هتخلص اللعبة دي إمتى؟!!

عقد حاجبيه متسائلًا:

- لعبة؟! لعبة إيه؟!

اعتدل سامرفي جلسته وبدا أكثر جدية:

- لعبة الحب اللي بتلعبها مع بنت فاطمة.

تملكه الغضب، لكنه سيطرعليه وقرر لَعب دور المغفل:

-حب... وبنت فاطمة... إنتَ بتتكلم عن إيه؟!!

بَسْمَةٍ ماكرة ارتسمت على طرف شفتيْ أخيه:

- إنتَ هتعمل فيها عبيط، إنتَ فاكر أول مرة أشوفكم الليلة دي... لا ياحبيبي؛ أنا عارف كويس إنكم ماسيبتوش بعض بعد ما سما هانم حذرتك من استمرار مقابلتك للبنت دي، وعارف إن لعب العيال بتاعكم قلبتوه على فيلم رومانسي، وكنت سايبك، قلت مراهق وبكرة يفوق... بس واضح كده إنك مش ناوي تجِيبها البر.

ابتلع ريقه بصعوبة وقد بدا أنه لا مفر من المواجهة، لكنه أراد أن يعرف:

- إنتَ بس اللي عارف، ولا..

ضحك مستهزءًا:

-هو إنتَ فاكر لو سما هانم عرفت، كنت أنا اللي هكون قاعد بكلمك بمنتهى الهدوء تبقى مش عارف قدرات الست الوالدة كويس.
هدأ روعه قليلًا بمعرفته أن أمه خارج الأمر، فسامر أبسط منها بالتأكيد في التعامل لذا قال في محاولة لفهم مايدور برأس أخيه:
-طيب إنتَ عايز إيه دلوقت؟!!
-ماأنا قلتلك؛ هتخلص لعبتك مع بنت فاطمة إمتى؟!
مازال يحاول السيطرة على أعصابه فليس من مصلحته تحويل سامر للجبهةِ المُضادة:
-أنا مش بلعب معاها، واسمها بسمة مش بنت فاطمة.
-ماشي ياسيدي ...وإنتَ عايز إيه من بسمة؟.
عقد ذراعيه أمام صدره قائلًا:
- بحبها وهتجوزها.
رفع سامر حاجبيه معيدًا كلماته:
- بحبها... وهتجوزها.
ليبتسم ثم تتحول بسمته لضحكةٍ هِستيرية استمرت للحظاتٍ تابعها معاذ في صمت ليتنفس بعمقٍ بعدها:
- بقالي مده مضحكتش أوي كده.
رد معاذ بسخرية:
-والله... طيب الحمد لله إني عرفت أضحكك.
وقف سامر مقتربًا منه:
-إنتَ متصور إن سما هانم هتناسب فاطمة الخدامة.
دار معاذ على عقبيه ليوليه ظهره قائلًا:
-أكيد مش بالسهولة دي..، وعمومًا إحنا مش هنتجوز دلوقتِ، إحنا مستنين لحد أما نعتمد على نفسينا وساعتها كل شيء هيكون هين، بسمة آخر سنة ثانوية عامة ...وان شاء الله هتدخل إقتصاد وعلوم سياسية علشان تتخصص إقتصاد وهخليها تشتغل في الشركة بتاعتنا وهي هتثبت نفسها لماما كويس

لأنـها ذكية وشاطرة، وأنا كمان هكون شغال في الشركة وهثبتلها نفسي ... صحيح كل ده هياخد وقت بس مش مهم، بسمة معايا وده كفاية.
-يااه... دانتوا مخططين بقى، وكمان خطط بعيدة المدى، بس يامعاذ ياحبيبي ...إنتَ متعرفش سما هانم؟!
قصرعلى نفسك وعليها الطريق الطويل اللي إنتوا راسمينه ده، وانهي الموضوع.
إلتفت لأخيه صائحًا بعناد:
-مستحيل... أنا مش هسيبها أبدًا... عارف إن ماما مش هتوافق بسهولة، لكن أنا مش هستسلم ..مش هستسلم زيك، مش هتنازل عن حبي لأي سبب.
غضب... حزن... ألم!!
تعبيرات ملئت وجه أخيه في لحظات وهو يرمقه صامتًا، شعر بالندم لتلك الكلمات التي قالها له فأطبق فمه ليصل له صوت أخيه يحمل نبرات الحزن العميق:
-نصيحة من أخوك الكبير؛ سيبها يامعاذ، سيبها قبل ماهي تقولهالك، سيبها قبل ماتكرهك وتكره اليوم اللي حَبِتك فيه، قبل ماتسمعك الكلام ده بلسانها وتقولك كرهتك، إنتَ مش عارف حاجه عني ولا عن اللي خسرته، ويارتنا فضلنا قريبين من بعض زي ماكنا زمان... تصبح على خير يامعاذ.
أنهى جملته وهو يعود لكرسيهِ المفضل ليرمقه معاذ لبرهةٍ قبل أن يستدير مغادرًا ليأتيه صوت أخيه:
-اقفل الباب وراك.
نفذ ماقاله أخوه ليذهب لغرفته، ألقى بنفسِه على فراشه وعقله يستعيد كلمات سامر، الذي لا يعرف كيف انتهت قصة حبه، كُل مايعرفه أن أمهما لم تكن راضيه أبدًا ولهذا القصة انتهت.
تُرى هل أسمعته حبيبته تلك الكلمات؟ هل أخبرته أنها أصبحت تكرهه؟!

هز رأسه بعناد، هذا لن يحدث معه، بسمة لن تفعل هذا، لقد تعاهدا على أن يحاربا معًا، المشكلة الآن أن هذا ليس الوقت الذي من المفترض أن يعرف أحد بالأمر، هل سيخفي سامر الأمر عن أمهما أم قد يخبرها؟.

زفر في ضيقٍ معتدلًا ومتمتمًا:

- ماكنش وقتك خالص ياسامر، أقولها ولا لأ؟!!

هز رأسه باصرارٍ، لن يفعل، لو علمت ربما تتصرف بجنونٍ كعادتها ربما تطلب منه ألا يلتقيا أبدًا، حتى يصلا للمرحلةِ التي اتفقا عليها للإعلان عن نفسيهما.

شهق وهو يفكر في هذا الاحتمال، يحرم منها كل هذه المدة، مستحيل، لن يسمح بهذا، سامر لن يخبر أمه وهو لن يخبر بسمة وسيبقى الأمرعلى ما هو عليه.

****

بزغَ الفجر وأعلن عن وقته بأذانٍ وصل إلى مسامعه بينما كان منهمكًا في الاستذكار وضع قلمه على المكتب ومط ذراعيه وجسده لنفض إرهاق المذاكرة عنهما، دخل إلى حمامه الملحق بغرفته ليتوضأ ويؤدي الفريضة وما إن انتهى حتى أنصت لحركةٍ ما خارج غرفته طوى سِجادة صلاته وخطا نحو باب غرفته ليفتحه ليجد أمامه ابن عمه الذي ابتسم له قائلاَ:

-وافي... إنتَ لسه صاحي.

جاءت من خلفهما فتاة قائلة:

-أنا هموت من التعب، هدخل أنام تصبحوا على خير.

رد إليها التحية ليقول وافي:

-إيه يا جاهين ده؟ ..كل ده في العيد ميلاد ...اتأخرتوا أوي وإزاي تسيب لوجي أختك تسهر كل ده وهي عندها إمتحانات قريب.

دلف جاهين لغرفة ابن عمه ليجلس على فراشه قائلًا:

-هي أدرى بمصلحتها ومن ساعة ما إتخطبت الموضوع مبقاش فارق معاها وأُسكت ده كان حتة عيد ميلاد، ولا المزز اللي شفتهم هناك، فاتك نص عمرك، ياريتك كنت جيت.

هز وافي رأسه ساخرًا:
- مزز، الله يهديك، أنا فاضي ياعم للكلام الفارغ ده، أنا عندي إمتحانات، ولا أعرف معاذ صاحب العيد ميلاد ولا عمري شوفته.
-يعني أنا اللي أعرفه، أنا أعرف أخوه سامر بسبب الشغل بس مش مهم المهم إنه كان عيد ميلاد جاااامد.
إتجه وافي لمكتبه جالسًا أمامه لينظر لهُ جاهين لثوانٍ قبل أن يقول:
- السهر الكتير مش كويس علشانك.
-أعمل إيه يعني، لازم أعوض الفترة اللي قضيتها في المستشفى.
وقف جاهين:
- ربنا يوفقك، أنا هروح أنام بقى أحسن أنا كمان هموت من التعب، وإنتَ كمان نام شوية وبعدين إبقى كمل مذاكرة.
أومأ برأسهِ إيجابًا، لكنه أوقفه قبل أن يخرج:
-الفجر أدن صلي الأول.
-ان شاء الله.
بدا من رده أنه لن يفعل، ابتسم وافي بحسرة وهو يدعو له بالهداية، فجاهين بالنسبة له ليس ابن عم وحسب بل هو أخٌ وصديق، منذ أن أدرك ماحوله وجاهين إلى جواره، برغم فارق السن الذي يصل إلى ثمانِ سنوات إلا أنهما مقربان جدًا، وربما أيضًا لأنهما العنصر الذكوري الوحيد في العائلة فكان من الطبيعي أن يقضيا معظم الوقت معًا وكان الكثيرين يعتقدون أنهما أخوين بسبب ملامح وجهيهما التي تعبرعن صلة الدم التي تربطهما، فكلاهما يملك نفس البشرة الخمرية، الأنف الدقيق، الذقن المُدبب، والشعرالأسود الناعم، الفرق الوحيد بينهما لون عينيهما، فعينيْ جاهين بُنية بينما عينيه هو رمادية....
"وافي أحلى من جاهين"
ابتسم وهو يتذكر تذمر جاهين على هذا التعليق ثم اعتياده على الأمر، هو ليس اعتياد أكثر منه إثباتًا لشيءٍ آخر، فربما وافي أكثر وسامة لكن جاهين هو الأشهر بين الجنس الناعم.

نظر لكتبه ثم تذكر طلب جاهين له بالراحةِ قليلًا ثم المتابعة، فقرر أن يرتاح قليلًا ...استلقى على فراشه وضع يده على جانبه الأيمن وارتسم على وجهه ملامح ألم بسيطة اختفت فجأة كما أتت فجأة.

****

أشرقت الشمس سريعًا فلقد دخل المعظم إلى فراشه في وقت متأخر جدًا ليلًا، ومن الطبيعي أن يكون أول المستيقظين هم العاملين، ومنهم الخادمات اللاتي بدأن عملهن في الحال.

أنهت بسمة ارتداء ملابسها لتقترب من أمها قائلة:

-أنا همشي بقى ياماما.

ربتت على كتفها:

-ماشي ياحبيبتي، خدي بالك من الطريق.

-حاضر ...متتأخريش النهاردة.

أومأت برأسها مبتسمة لتلوح بسمة للجميعِ مودعة ليردوا لها التحية.

وإن أوقفتها سميرة لتتناول افطارها أولًا لكن بسمة اعتذرت بلطفٍ وغادرت لتأخذ طريقها عبر الحديقة لتلتفت ناحية نافذة غرفته مبتسمة:

-طبعًا في سابع نومه.

لتعود وتأخذ طريقها التقليدي للعودة والخروج من منطقة المعادي الفاخرة إلى حيث تسكن هي وأمها، ذاك الطريق الذي يبدأ بمترو الأنفاق، وينتهي به عند منطقة السيدة زينب تلك المنطقة التي تربت وترعرت فيها منذ نعومة أظافرها.

ونظرًا لأنها اختارت وقتًا مبكرًا جدًا كانت عربات القطار شاغرة فأصبحت رحلتها ميسورة .

كانت من أسعد الناس حين تم دخول ذلك المشروع العملاق إلى منطقتها وسهل عليها وأمها الكثير من التعب في الذهاب والعودة.

ربما بلادها بها الكثير من المساوئ لكن بها أيضًا بعض الحسنات التي تجعل حياتها أفضل، أو بمعنىً آخر أقل عذابًا... فكلمة أفضل لا يمكن أن تُطلقها على الحياة التي تعيشها مع أمها، لكنها تعلمت منها أن تتحمل وتتقبل وترضى،

لكنها أحيانًا كثيرة تفشل في هذا، وأول أساليب اعتراضها من وجهة نظرها هو بقائها مع معاذ، حُلم الطفولة والشباب، والذي لا تعلم هل سيتحقق أم سيبقى مُجرد حُلم؟!

معاذ؛ هذا الطفل الذي استطاع أن يجعلها جزءٌ ثابتٌ في حياته وجعل من نفسه أيضًا جزءٌ ثابت في حياتها، مَرِحا معًا، وكبرا معًا.

نفذت وعدها وساعدته في تعلم قيادة الدراجات وهو أيضًا علمها إياها، كانت أوقاتٌ ممتعة، ولم يشعرا أبدًا باعتراض أحد، هو طفلٌ يقضي معظم وقته في المنزل وعلى مايبدو قبل والديه بصحبته لتلك الطفلة بدلًا من أن يبقى وحيدًا، فهما بالتأكيد لم يتصورا أن تتحول لفتاةٍ جميلة تأسر قلب ابنهما الأصغر.

انتهت رحلة المترو لتصل إلى منزلها سيرًا على الأقدام، فالمشي من هواياتها المفضلة فلا بأس من المشي لنصفِ ساعةٍ أخرى توفيرًا لمصروفها الذي لم تعد تملكه لتتمكن من شراء الخاتم الفضي.

صعدت الأدوار الخمسة لتصل إلى سطح البناية حيث سكنها المكون من غرفتين للنوم، واحدةً لها والأخرى لأمها، وما إن خطت عليه حتى وقع بصرها على فتاتان يتناولان إفطارهما في منتصف الساحة التي بين غرفتها مع أمها وغرفتيهما، فهاتان الفتاتان شقيقتان وهما جارتيها ورفيقتيها منذ الصغر، وما إن لمحتها الأكبر سنًا فيهما حتى قالت:

-بوسي؛ حماتك بتحبك ولو إني أشك إن سماهانم دي ممكن تحبك أبدًا، تعالي إفطري.

زمت شقيقتها الصغرى شفتيها محذرة:

-ماتسكتي يانانا.

اقتربت بسمة من المائدة المستديرة البدائية والتي يستخدموها لتناول الطعام لتجلس أرضًا قائلة:

- سيبيها يامها، هو أنا هتوه عن نانا ورخامتها.

بدت كلماتها باهتة فمدت مها يدها أمامها متسائلة:

- مال صوتك يابوسي.

أمسكت بسمة بكفها لتربت عليه:
-لا أبدًا... أنابخير... ماتقلقيش.
مالت نانا ناحيتها:
- إيييييه ...هو العيد ميلاد كان المنافسة فيه شديدة... طبعًا اتركنتي على الرف ومابنلكيش صاحب.
- نانا بطلي بقى.
صاحت بها مها بغضب لتقول بسمة:
-مين دي اللي تتركن على الرف... ده سابهم كلهم وجه عندي، ومارضيش يفتح ولاهدية إلا وأنا معاه.
ارتكنت نانا بذقنها على كفيها متمتمة:
-هيييييييييح ...أنا أكبر واحده فيكم ولسه ماقبلتش فارس الأحلام، نفسي أعيش قصة حب مثيرة وكلها مغامرة.
- الحمد لله الذي عافانا.
قالتها مها بصوتٍ مسموعٍ لتوكزها بسمة بكتفها:
-كده برضو يامها.
عقدت حاجبيها قائلة باصرار:
-إنتِ عارفه رأيي في الموضوع ده كويس، ده حاجه ماترضيش ربنا وأنا لايمكن أوافق عليها، وكفاية أوي كذبك على أبلة بطة.
مطت بسمة شفتيها، فهي من داخلها تعلم خطأها وتدركه، لكنها فقط أضعف من أن تصححه، فتصحيحه يعني ببساطة أن تبتعد عن معاذ وهو ما لا تتصور حدوثه، وأكثر ما يؤلمها بحق هو خداعها لأمها، أملها الوحيد أن تتمكن من إخبارها بكلِ شيءٍ في الوقت المناسب.
جاء صوت ناناساخرًا:
- إنتِ هتعمليلنا شيخة يا ست مها، إنتِ لولا اللي حصلك كان زمانك زيينا ... ولا كنتي روحتي جوامع ولا حفظتي قرءان.

انقبضت ملامح مها وقفزت العبرات سريعًا لعينيها لتقف على عجلٍ مبتعدة عن مجلسهما لتقول بسمة:

- إيه الكلام ده يانانا، مها استني ..مها.

أسرعت للحاقِ بها لتتعلق بذراعها بينما مها تخبط بعصاها الذي استبدلته ببصرها الذي فقدته منذ سنوات، تعلقت بسمة بذراعها قائلة:

-حاسبي يامها طيب.

-ماتخافيش يابوسي، أنا صحيح عامية، بس دول خطوتين حفظاهم زي إسمي.

قالتها بصوتٍ مختنق لتضيف بصوتٍ أعلى لتسمع أختها:

-على فكرة أنا كنت بروح الجامع من قبل ما نظري يروح، وإنتِ كمان كنتي بتيجي معايا وإنتِ اللي كنتي بتكسليني، وبعد ما نظري راح التزمت أكتر، إيه المشكلة،، إيه المشكلة لوصبرت على الإبتلاء بالقرب من ربنا، لولا ده كان زماني موت نفسي.

أنهت جملتها لتجذب ذراعها من بين أصابع بسمة وتتجه للغرفةِ المقابلة التي هي مسكنها مع أختها، لتعود بسمة إلى نانا وتلكمها بقوةٍ في ذراعها:

- إنتِ إيه ياشيخة، حرام عليكِ، هي كانت نقصاكي، ..إنتِ بتعملي فيها كده ليه.

هزت نانا كتفيها بلا مبالاة قائلة:

-خليها تبطل تعمل شيخة علينا ..قلتلها كده ميت مرة ...وهي اللي مش بتسمع الكلام.

هزت بسمة رأسها بيأس:

- أنا داخله أنام، وهقوم علشان عندي مذاكرة، الإمتحانات قربت وياريت لما أصحى ألاقيكي صالحتيها ...يا أخت على ما تُفرَج.

تطلعت نانا لإفطارهن الذي تقريبًا بقيَ على حاله ليرتسم الضيق على ملامحها وهي تنظر لطبق الفول أمامها متمتمة:

- رضينا بالهم... قصدي بالفول، والفول مش راضي بينا.

****

امتدت مائدة إفطار أُخرى لكنها كانت فاخرة عن تلك التي كانت أمام بسمة وجارتيها، ربما العجيب هو اشتراكهما في طبق الفول!!
كان صباح يوم الجمعة فانضم جميع عائلة الشربيني إلى مائدة الإفطار، لتتزعم المائدة السيدة سميحة وهي العضو الأكبر في العائلة وآخر أبناء محي الشربيني، يجاورها وافي وجاهين وعلى الناحية الأخرى تجلس ميادة والدة جاهين وبجانبها ابنتها لوجي.
كان الحديث المسيطر على الأجواء حفل الأمس الخاص بمعاذ شاكر وكيف أنه تم الإعداد له جيدًا فكان مميزًا كالعادة، لتعلق سميحة:
-سما دايمًا تحب المظاهر.
نظروا لها جميعًا نظرةً جانبية، فهم يعرفون أنها أيضًا تحب المظاهر وكثيرًا ما تقلد المدعوة سما فيما تفعل، الغريب لهم هو سبب كرهها لسما تلك رُغم أن بينهما أعمالًا مشتركة لكون شركة الشربيني وشركة الهيثم تعملان في المقاولات وعلى مايبدو أن هذه المشاعر السلبية متبادلة لذا فجاهين الابن الأكبر لعائلتهم هوالذي يتولى تلك الأعمال مع سامر الابن الأكبر لعائلة الهيثم.
لينتقل الحديث بعد ذلك عن استعدادات لوجي لإمتحاناتها ومن ثُم انتقالها لإكمال دراستها بكندا حيث ستستقر مع خطيبها بعد الزواج.
- وإنتَ ياوافي ...أخبار مذاكرتك إيه؟!
أجابها مبتسمًا:
-تمام ياماما ..تمام.
ابتسمت له لتربت على خده بحنوٍ لتقول:
- ربنا معاك ...شد حيلك علشان بعد الثانوية تسافر كندا عند لوجي وتكمل في الجامعة هناك.
التفت إليها الجميع وبدت المفاجأة عليهم، فهذه أول مرة يتم الحديث فيها عن سفر وافي، خاصة أن حالته المرضية لا تسمح له بالبقاءِ وحيدًا .
جاهين هو أول من علق على ذلك قائلًا:
-كندا ...أول مرة أعرف إن وافي هيسافر كندا.

ثم التفت لوافي الذي هز كتفيه قائلًا:
-وأنا كمان.
ثم نظر لسميحة:
- سفر إيه ياماما؛ أنا مش ناوي أسافر والموضوع مش في دماغي.
- ولا كان في دماغي ياحبيبي، بس بقى لما جات فرصة سفر لوجي واستقرارها في كندا قلت ليه لأ، تسافر، تقعد معاهم، وتكمل دراستك بره زي ما كله بيعمل دلوقت وفي نفس الوقت نكون مطمنين إنك مش لوحدك.
بدا الضيق على وجه وافي:
- إيه ياماما اللي بتقوليه ده...أنا إيه اللي يخليني أطبق على نفسهم في أول جوازهم، وإيه اللي يجبر جوزها إنه يوافق.
-ماتقلقش... أنا اتكلمت معاه أول ما الفكرة جت في بالي، وهو مش معترض، هما هيسكنوا في فيلا، إنتَ هتستقر في الدور الأرضي وهما في الدور التاني، يعني كله هيبقى براحته، وفيه واحده هي اللي هتكون مسئولة عن الطبخ والتنضيف،..فين المشكلة بقى؟!
نهض وافي غاضبًا:
- يعني كمان كلمتي فايز خطيب لوجي، وأنا آخر من يعلم... أنا مش هسافر.
قالها بحزمٍ مبتعدًا ليصعد لغرفته يتبعه صوت سميحة حاملًا اسمه لكنه لم يُجب، ساد الصمت على باقي أفراد الأسرة إلى أن قال جاهين:
-عمتو؛... صحة وافي عايزه متابعة على طول، والدكتور بتاعه هنا، ليه نسفره وهو تعبان.
عقدت كفيها مستندة على المائدة بمرفقيها:
- وأنا مش هسفره وهو تعبان، أنا كلمت الدكتور بتاعه وهو هيدور على متبرع وأول مايلاقيه هعمله عملية نقل الكلية فورًا، وساعتها هيكون شخص طبيعي تمامًا وهيقدر يسافر.
تبادل ثلاثتهم النظرات لتدخل ميادة الحوار قائلة:

- بس إنتِ عارفه ياسميحة إنْ وافي منشف راسه ورافض عملية نقل الكلية دي.
نهضت لتضرب المائدة بكفيها:
-وأنا مش هستنى لحد أما يروح مني لأنه منشف راسه، لازم نقنعه يعملها.
غادرت المائدة لكنها التفت قائلة:
-جاهين عايزاك.

جلس أمامها على مكتبها الخاص والذي كان المكتب الرئيسي لرجال العائلة الذين فقدوهم واحدًا تلو الآخر، صمت ليترك لها الحديث:
-جاهين ...أنا عايزاك تقابل الداعية ده اللي وافي متعلق بيه، وتقوله لازم يقنع وافي بموضوع العملية.
-ماهو لما سأل الداعية ده قاله إن في رأي بيجيز عمليات نقل الأعضاء اللي من النوع ده، وفي رأي تاني بيحرمه، وهو خد بالرأي التاني.
- ماتنرفزنيش ياجاهين، ماأنا عارفه الكلام ده ..أنا عايزاك تقنع الداعية ده إنه يتكلم معاه ياخد بالرأي الأول، أنتَ عارف إن الدكتور قايلنا إنه في مرحلة هيوصلها بعد كام سنة كليته هتفشل تمامًا، وساعتها هيكون بينه وبين الموت أيام ...إحنا هنفضل قاعدين مستنين اللحظة دي ولاإيه.
صمت جاهين مفكرًا:
-معاكِ حق ياعمتو، أنا هتكلم مع الداعية وان شاء الله يقنع وافي بالموضوع.
-لازم يقنعه ياجاهين لازم، وافي ممكن يروح مننا في أي لحظة.
-لا قدر الله ياعمتو، ربنا يشفيه ويخليه لينا.
قالها بصدق وخوف أيضًا، أراحت ظهرها على كرسيها متمتمة:
-آمين ..آمين.
****
جلست تستذكر دروسها في مكانهما الخفي والمفضل، لدى معاذ محاضرات اليوم في جامعته فلن تتمكن من رؤيته، لذا تفضل المذاكرة في مكانهما السري

دومًا... هو أيضًا حين يكون وحيدًا كثيرًا ما يذاكر هنا، ليبدأ لعبةٍ ما معها ..ففي مرة جلست هنا لتلمح ورقه مطوية موضوعه بعناية لتفتحها وتجد منه رسالة " ذاكري كويس، إوعي تنسي هدفنا، بحبك جداااااااا"
أخرجت هي الأخرى ورقة من دفترها.
"حاضر ...وإنتَ كمان ذاكر كويس، وأنا بحبك جدًا ...جدًااااااااا"
تلتها عدة رسائل حتى أصبحت عادة في كل مرةٍ يجلس إحدهما هنا يجد رسالة ويكتب أخرى.
ألقت نظرة على رسالته الأخيرة.
"كل ماتوحشيني ببص للخاتم" ..
أخرجت ورقة لتكتب رسالتها هي، إلا أن يدها تصلبت مكانها ودق قلبها بعنفٍ حين وصل لأذنها صوت خشخشة الشجيرات، فاتسعت عيناها بذعرٍ واضح، معاذ في الجامعة هذا ماتعرفه، إلا أن قلبها ارتاح على الفور حين طالعها وجهه مبتسمًا:
- إيه يابنتي، عينك مبرقة كده ليه؟!
- حرام عليك وقعت قلبي ...إنتَ مش في الجامعة ليه؟؟.
-حضرت محاضرة واحدة والتانية اتلغت والتالتة لسه قدامها ساعتين، قلت أخطفهم وأجيلك.
هزت رأسها غير راضية:
- ولازمتها إيه اللف والمشاوير، المسافة من جامعتك لهنا بعيدة.
-بقى ده رد ده، يعني مضايقة إنك شوفتيني.
-لأ طبعًا.
لتبتسم بعدها:
- مبسوطة، بس إنتَ كده هتعطلني.
جلس القرفصاء ليعقد ذراعيه أمام صدره:
-أنا هقعد ساكت خالص ولا هتحسي بيا، المهم إنك قدامي.

منحته إبتسامة رقيقة ليهبها نظرةً مليئة بالحب لتعود تطالع دفاترها، ظل بصره عليها لم يحيد عنها للحظة وكلمات أخاه تتردد في عقله..
"سيبها .. سيبها قبل ماتكرهك"...
تكرهه...! مستحيل هي لن تكرهه، كيف لمن يحب مثل حبها له أن يكره، لكنه لا يستطيع أن يتوقف عن التفكير في تلك الكلمات، يخشاها، يخافها.
"بوسي"
قاله بخفوتٍ وبنبرةٍ مرتعشة لم تنتبه لها لترد بهمهمةٍ فقط، فأردف:
- إنتِ ممكن تكرهيني؟!!
رفعت بصرها نحوه بدهشة:
- إيه السؤال الغريب ده؟!
ضحك ضحكة مرتبكة وهو يردد:
-لأعاادي ..أ..أنا بس بسأل يعني ...فضول.
-إممممممممممم
همهمت وقد أطرقت رأسها مُفكرة لتنظر له بتحدٍ:
- طبعًا ممكن أكرهك.
لم يتصور أن وقع كلمتها سيكون مؤلمًا هكذا، حدق بها مذهولًا، لم يتصور أن تقولها بهذه البساطة:
- إيه ...قولتي إيه؟!
بدا وجهه في حالة صدمة مما دفعها للإبتسامِ لتقول:
- لو خنتني، أو لعبت بديلك، أو سيبتني... طبعًا هكرهك، أنا مش هبلة علشان أحب واحد سابني.
صمت ليستوعب كلماتها ثم حك رأسه قائلًا:
- ليه؟ ..إنتِ معاكِ محول، حاجه كده تدوسي عليها تخليكي تكرهي اللي بتحبيه.
هزت كتفيها:

-مش بالظبط؛... بس أكيد هكره نفسي وهكرهك ويمكن أكره كل حاجه لو سيبتني.
- طيب لو إنتِ اللي سيبتيني، المفروض أنا أكرهك.
رمقته لوهلةٍ، كلماته غريبة وأسالته أغرب، لكنها جارته فيما يتحدث:
- أنا لايمكن أسيبك، أنتَ ممكن تسيبني ..لكن أنا لأ؟!
مال ناحيتها هامسًا:
-وأنا كمان لايمكن أسيبك.
- توعدني.
ابتسم قائلًا بثقة:
-أوعدك.
اتسعت إبتسامتها وهربت من عينيه التي ترمقانها بنظرةٍ لطالما أربكتها لتقول:
-يالا بقى، أنا مش عارفه أركز خالص، إلحق المحاضرة التالته بتاعتك.
-حاضر ...أشوفك بعدين.
****
وقف جاهين باحثًا عن مُبتغاه، لم يكن النادي الإجتماعي الذي يقضون فيه أوقات فراغهم مزدحمًا لاقترابِ موسم الإمتحانات، لذا لم يكن صعبًا عليه أن يجد من يريد.
اقترب منه مبتسمًا ليستقبله الآخر بنفس الإبتسامةِ الودودة ليتصافحا:
- أستاذ أنس إزي حضرتك؟!
-الحمد لله بخير، إزيك إنتَ ياباشمهندس ...وأخبار وافي إيه؟.
- مشغول في المذاكرة، حتى أنا مش بعرف أشوفه لازم أدخله أوضته.
اتسعت إبتسامة أنس:
- ربنا يوفقه وييسر له كل صعب.
- آمين ...ممكن أتكلم مع حضرتك شوية.
أومأ بالإيجاب مُرحِبًا، فأشار له جاهين ليجلسا، إتجها إلى أقربِ مقعدين ليجلسا عليهما وانتظر أنس ليبدأ جاهين الكلام:

- أنا عارف وافي بيحب حضرتك أد إيه؟ ..وعلشان كده أنا قاصدك في معروف.
- لو بإمكاني مش هتأخر.
- إن شاء الله بإمكانك، فاكر لما وافي سأل حضرتك على موضوع رأي الدين في نقل الأعضاء.
أومأ أنس برأسِه إيجابًا فأردف جاهين:
- حضرتك قلتله رأيين، هو بقى خد بالرأي التاني اللي بيحرمه، وده ببساطة معناه الإنتحار ليه.
عقد أنس حاجبيه:
-مش فاهم!!
- اللي حضرتك متعرفوش، إن وافي اتولد بمشكلة في كليته، ودخل في موضوع غسيل الكلى من زمان.
بدا التأثر على ملامح أنس لكنه لم يقاطع جاهين.
-الكليتين عنده تعبانين، ونقل الكلية هو الحل الأفضل والأنسب ليه قبل مانوصل لمرحلة أسوأ من اللي إحنا فيها، لكن وافي رافض الموضوع تمامًا ... ومصر إنه مش هيعيش أكتر من اللي مكتوب له ولا أقل مستحمل مضاعفات المرض وبيهون على نفسه كل حاجه .أرجوك أستاذ أنس اقنعه إنه لازم يقبل بموضوع نقل الكلية ده، لأنه الأفضل ليه أما الرأي التاني ده إنتحار.
صمت أنس مفكرًا ليقول:
- كنت معتقد إنه جسمه الهزيل وضعفه، طبيعة فيه، مكنتش أعرف إنه مريض.
- ياريتها كانت مجرد طبيعة، وهو عمومًا مابيحبش يحكي عن مرضه لحد.
-حاضر ياباشمهندس، أنا هتكلم معاه ..وان شاء الله هقنعه إنه يقبل بالعمليه، بس أنا مش هشوفه إلا بعد الإمتحانات.
ارتسمت عبارات الإمتنان على وجه جاهين:
- فاهم ...متشكر جدًا.

-العفو؛.. المهم إنه يقتنع ويتعافى ان شاء الله.
-ان شاء الله ...إدعيله.
- أكيد، ربنا يديم بينكم المحبة، ويعافيه ويخليه ليكم.
أمنَّ جاهين على دعائه واستأذنه للإنصراف.
****
بدأت الإمتحانات، لينشغل بها أصحابها في محاولةٍ لتحقيق بعض أهدافهم التي تتعلق بشكلٍ أو بآخر بنتائجهم.
وكعادةِ معاذ وبسمة حين يبدأ موسم الإمتحانات لايلتقيان، حيث تتوقف بسمة عن الذهاب للعمل مع أمها وتبقى في بيتها للإستذكار.
جلست في ركنها المعتاد والذي أعدته خصيصًا لنفسها، اختارت أكثر الأماكن ظل في النهار وإضاءة في الليل لتضع بها مائدة مستديرة صغيرة أمامها كرسي من البامبو حصلت عليهما من مخلفات حديقة منزل سما هانم، فلقد كانا بحالةٍ جيدة ففضلت الإحتفاظ بهما لنفسها ولم يمانع أحد.
وضعت أوراقها جانبًا وأغلقت عينيها تنعم ببعضِ الهدوء النادر في تلك المنطقة السكنية لكنها تكون هادئة في ذلك الوقت من الفجر، داعبت وجهها نسمات الفجر الرقيقة لتبتسم مستمتعة بهذه الأجواء ليقتحم خلوتها صوت أشبه بالبكاء، اعتدلت وقد عقدت حاجبيها منصته بتركيز لتحدد مصدر الصوت، تصورت أنه من غرفة جارتيها نانا ومها، لكنها اكتشفت أنه من غرفتها هي وأمها.
أمها تبكي!!
أسرعت إليها وما إن شعرت بها فاطمة حتى حاولت مسح دموعها التي ترطب وجنتيها بسخاء، اقتربت بسمة من أمها:
- مالك يا أمي؟
هزت رأسها وكأنها تنفي حالتها الواضحة للعِيان:
- مفيش ...كنت بدعي لأبوكِ.
ابتسمت بسمة في حنو وهي تجلس أمام أمها وتحتضن كفيها بيديها قائلة:

-طيب وليه الدموع دي ياست الكل؟...تعرفي ياماما، كان نفسي أشوف بابا وأعيش معاه وأعرف إنتِ حبتيه أوي كده ليه؟!
منحتها ابتسامة حزينة مليئةٍ بالحسرة لتمسح على شعرها الذي ورثته منها:
- وأنا كمان، كان نفسي تشوفيه وتشبعي من حنيته، وأكيد كنتي هتحبيه أوي.
-ما أنا بحبه ياماما، من كُتر حبك ليه حبيته، مع إنك ياماما مش بتتكلمي عنه كتير.
-هو إحنا لحقنايابنتي، ده مات في الحادثة بعد الجواز بكام شهر، كان مطحون فيهم بأكل العيش لأنه وعدني بعيشة مرتاحة.
تنهدت بحرارة مُرددة:
- الحمد لله على كل حال ...الحمدلله.
رددتها ابنتها معها مربته على كف أمها قائلة:
-وأنا كمان ياماما أوعدك ...إني هذاكر كويس وان شاء الله أنجح وأدخل كلية كبيرة وأول ما أشتغل هخليكي تبطلي الشغل المتعب ده وترتاحي.
مسدت وجنتي ابنتها بكفيها داعيه لها بالنجاح والتوفيق، لتربت بسمة على كتِفِها واعتدلت واقفة لتعود لإكمال استذكارها، لكنها التفتت لأمها قائلة:
-ماما هو كان شعور حلو أما كنتي بتحسي بالحب ناحية بابا.
-أكيد.
-يعني أنا لو في يوم حبيت وجيت قلتلك ماما أنا بحب هتعملي إيه؟!
رمقت ابنتها بحذر إلا أن ملامح بسمة منحتها شعور بأنها تمزح فحسب فقالت:
-هعمل زي ما أمي عملت.
عقدت بسمة حاجبيها متسائلة:
-وستي عملت إيه؟!
- ضربتني بالألم على وشي.
رفعت بسمة حاجبيها متمتمة:
- إمممممممم ...أنا أروح أذاكر أحسن، بلا حب بلا كلام فارغ.
رسمت أمها على شفتيها وأزاحتها سريعًا قائلة:

-بوسي؛ أوعي تعملي حاجه من ورايا ...فاهمة.
ضحكت بسمة وإن بدت ضحكتها متوترة:
- إيه يابطة، أنا بهزر، تصبحي على خير بقى، أنا هراجع شوية وهنزل بدري علشان أكمل مراجعة مع أصحابي قبل الإمتحان.
صاحبتها دعوات أمها بالتيسير والنجاح وما إن خرجت بسمة حتى عادت النظرة الحزينة تكسو وجه أمها..
الحب...
تلك الكلمة بل المشاعرالتي قلبت حياتها البسيطة رأسًاعلى عقب، لتنال من أمها مانالت حينها لكنها لم تهتم فإيمانها بحبه لها منحها القوة المناسبة لتخوض تلك المُغامرة معه والتي انتهت بزواجهما.
تذكُر جيدًا صفعات أمها المتتالية على وجهها حين أخبرتها صراحةً أنها تحبه وستتزوج به، حينها صاحت:
"إنتِ إتجننتي يافاطمة مين ده اللي هيتجوزك، وهيتجوزك إنتِ؛... إنتِ مصدقاه"
ردت بعناد
"أيوة ياأماه مصدقاه، هو بيحبني وهيتجوزني ومش هيتخلى عني أبدًا، ده كلامه"
عادت وجنتيها المسكينتان في استقبال المزيد من الصفعات حتى أصبحا حمارِهما يكاد يكون داميًا، وأمها تصرخ:
"يعني إيه مش هيتخلى عنك دي، حصل إيه بينك وبينه يافاطمة، مرمغتي راسي وراس أبوكي في الطين يافاطمة"
صراخًا بصراخ ونفي حاد:
"لا..لااا ..والله ياأماه مَلمسني، ده أنضف حد ممكن تعرفيه في حياتك"
كتمت شهقاتها لتخرج من ذكرى آخرى أليمة تطوف فيها دومًا ليلًا وعادت عبراتها في الهطول لكنها حرصت على أن تكون بلا صوت فلا داعي لإزعاج

ابنتها التي تستعد لإمتحاناتها ...فرحتها التي نالتها في النهاية لتتمكن من العيشِ بسعادةٍ بعض الشيء.

سارة سيف الدين

الفصل الثالث

وأنا في الضلام..من غير شعاع يهتكه
أقف مكاني بخوف ولا أتركه
ولما ييجي النور واشوف الدروب
أحتار زيادة ...أيهم أسلكه؟!
عجبي!!
رباعيات جاهين

حب مع إيقاف التنفيذ..
هكذا كان يطلق على علاقتهما، فبسمة وضعت العديد من الموانع والتي اضطر الالتزام بها كي لا يخسرها.
خوفها
خوفها هو ما يجبره على القبول ...لا يريد أن يضاعف هذا الخوف فتنتهي سعادته، يتمنى أن يكسر قيود خوفها من كل ما يخصهما .
حبهما مقيد وهو يريده حرًا ..طليقًا ...معلنًا .
وما أقسى أمنية بعيدة المنال!!
لا يمكنهما الإعلان عن نفسيهما الآن بل ولفترة من الزمان، فقط الصبر والصبر مر ومع خوفها الزائد أصبح كالعلقم.
تحايل ..وتدلل ..وابتسم ...وعَشِق ...وأخيرًا قبلت.
ستخرج معه في نزهة بعد نهاية امتحانها الأخير، سيلتقي بها أخيرًا في مكان بعيدًا عن حيزهما الصغير.
انتظرها بسيارته في مكان اتفقا عليه مسبقًا، رآها تسير نحوه بخطوات سريعة تتلفت يمينًا ويسارًا .هز رأسه بيأس ضاحكًا، وكأنها تعلن عن ارتكابها لجريمة منكرة ...لتركب السيارة، ترمقه، فقرأت بسهولة تعبير وجهه الساخر منها فاعتدلت في جلستها محاولة ادعاء شجاعة لا تملك ربعها قائلة:

-هتودينا على فين؟؟.
- أكيد جعانة تعالي ناكل الأول.
أومأت برأسها مبتسمة في محاولة لتتغلب على دقات قلبها المرتعبة من تصرفها الذي تقدم عليه لأول مرة، هي نفسها لا تصدق أنها ظلت معه كل تلك السنوات ولم يخرجا معًا قط، وكم تمنت أن تفعلها كلما طلبها منها ويمنعها خوفها كالعادة.
داؤها الدائم ولا تجد له ترياق .
متى ستخطو خطواتها نحوه دون خوف؟ !دون تردد؟ دون قلق؟!!
تكره أن تفكر هكذا فتفسد لحظاتها معه دومًا، لكن ما بيديها حيلة، هي من سيخسر كل شيء، ولهذا دوما تسعى للحفاظ على نفسها ....وتمنع ...وتتمنع.
هي واثقة أنه لن يؤذِها، لكن هل في الحب أذى؟ !هل اقتراب المحبوب من محبوبته موجع؟ !بالطبع لا ...فقط ما يدريها أن الأمور بينهما لا تخرج عن السيطرة وحينها لن تخسره هو فقط إذا ضاع منها، بل ستخسر نفسها ومستقبلها وهذا فقط ما يدفعها للاستمرار في وضع القيود.
....
اتسعت ابتسامة وافي وهو ينظر إلى جاهين الذي ينتظره بعد انتهاء امتحانه الأخير ليقترب منه سريعًا فيسأله جاهين:
-ها؟ !إيه الأخبار؟ ...تمام.
أشار له بابهامه تأكيدًا على اتمامه الامتحان على خير، احتضنه جاهين مهنئًا إياه:
-الحمدلله ..مبروك ...ده آخر امتحان .. تحاول ترتاح بقى لحد ما تطلع النتيجة.
- إن شاء الله ...أنا متفائل.
اتخذا طريقهما وقد دعاه جاهين لتناول الغداء في الخارج فاتصل ببقية العائلة ليطمئنهم على أداءه في امتحانه الاخير.

اختارا أحد المطاعم الهادئة ليتناولا وجبتهما معًا ويتبادلا الحديث عن الدراسة التي يفضل وافي دراستها والتي قد قررها مسبقًا وهي دراسة الهندسة مثل جاهين ليتمكن من مساعدته في متابعة الأعمال الخاصة بشركتهما، فهو لم يحلم يومًا بشيء مختلف، لطالما نادته أمه منذ صغره بلقب مهندس ..حتى أضحى حلمه هو الآخر ولم يفكر في غيره يومًا، ولكن النقاش الدائر الآن هل يدرس هنا أم في كندا وهو أبدى رأيه النهائي أنه لن يدرس في الخارج قط، إلا أن سميحة لم تقبل بهذا بعد.

- وهتقتنع عمتي سميحة إزاي بقى بالموضوع ده وهي رافضة حتى تتناقش فيه.

ابتسم وافي مجيبًا:

- ماما كل اللي يهمها مصلحتي أنا عارف ..وهي عادة مابترفضليش طلب ... إن شاء الله تقتنع لما تلاقيني مُصر.

- طب والعملية؟!

عقد حاجبيه وبدا الضيق على وجهه في لحظات ليقول بتحفز:

-دي أمرها نهائي بالنسبة لي وعمري ما هغير رأيي ..ليا عمر هعيشه وبعدين خلاص.

- بس ربنا ماقلش كده ...لازم تسعى للعلاج"لا تلقوا بايديكم إلى التهلكة"

- وهو علشان أعيش أنا أموت غيري.

ضرب جاهين كف بكف:

- يا ربي ..يا ربي على المخ ..يا بني مين قالك كده بس.

- أنا مش محتاج حد يقولي أنا شوفت بنفسي ...حسام مات بعد ما سرقوا كليته يا جاهين.

ارتسم التأثر على ملامح جاهين وهو يرمق وافي الذي بدت العبرات بزيارة مقلتيه تلك الزيارة الخاطفة كلما ذكر حسام صديقه الوحيد والذي كان نهايته مأساوية ومؤلمة له جدًا.

لكنه تماسك ليردف:

- ماتقلقش عليا ..أنا بخير والدكتور بيقولي إن حالتي مستقرة ومستجيبة للأدوية الجديدة ...عمر الشقي بقي.
منحه بسمة باهتة لكنها حملت معها كل مخاوفه على ابن عمه وأخيه الصغير الذي هم واقفًا:
- يالا بينا مش عايزين نتأخر عليهم في البيت لسه عندي مناقشة طويـــــلة مع ماما.
أومأ جاهين رأسه مؤيدًا ليغادرا المكان إلا أن جاهين توقف حين لمح من ظن أنه يعرفه وبالفعل تأكد له أنه معاذ الذي حضر حفل عيد ميلاده.
فتوقف لينادي عليه وانتبه إلى انتفاضة معاذ غير المبررة وتحركه وكأنه يخفي شخصًا خلفه ثم أشار بعيدًا لتتجه الفتاة التي معه إلى حيث أشار ولمحها جاهين بصعوبة إلى أن اقترب منه معاذ قائلًا:
- أهلا ...أنا فكرك.
ابتسم جاهين:
- وأنا كمان.
- فرصة سعيدة مرة تانية.
- أنا الأسعد ...أعرفك ده وافي ابن عمي وتقدر تقول عليه أخويا.
تصافحا مُرحبا كلًا بالآخر ، وتبادلوا بعض الكلمات التي تعلقت بحفل ميلاد معاذ الذي اثنى عليه جاهين كثيرًا، ليتصافحوا مرة أخرى مودعين بعضهم البعض.
ليتركهما معاذ متجهًا إلى حيث تنتظره الفتاة على مائدة مترامية عن الأعين تقريبًا ابتسم جاهين وهو يضع التخمينات حول تلك الفتاة قائلًا:
- باين عليها البت بتاعته ...حاسس إن شكلها مش غريب عليا.
رد وافي مستنكرًا:
- إيه البت بتاعته دي ...دع الخلق للخالق وتلاقيك شوفتها في عيد الميلاد.
أومأ جاهين:
- اه صحيح أكيد شوفتها هناك ...ياله بينا ...أنا كمان هقابل الحتة بتاعتي.
هز وافي رأسه يأسًا:

- ربنا يهديكم.

....

اقترب معاذ منها ولم يخفَ عليه ما قرأه على ملامحها بسهولة، ستلوم وتعاتب وتحمله الذنب فقط لأن اثنان لا تعرفهما التقيا به.

- شوفت ... شوفت ...مش قلتلك ...أنا مش هخرج معاك تاني أول وأخر مرة اقتنع بكلامك.

جلس أمامها هامسًا:

-اهدي يا بوسي ماحصلش حاجه ...دول مايعرفوكيش مافيش قلق منهم.

- وافرض كانوا يعرفوني ...يالهوي دي كانت تبقى مصيبة.

-خلاص بقى يا بوسي ...هتبوظلي الخروجة اللي بتحايل عليكي ساعة نعملها.

زفرت باستسلام:

- خلاص يا سيدي ...ربنا يستر على اليوم لحد ما يخلص.

- إن شاء الله يا حب عمري.

اتسعت ابتسامتها في الحال، لطالما تسعدها كلمات حبه لها، فكلماته هي البلسم الشافي لداء خوفها الدائم.

- أيوة كده اثبتي بقى على الضحكة دي ...ها تحبي تاكلي ايه؟!!

-من اللي هتاكل منه.

ضحك قائلًا:

- تمام ...أنا هجبلك أحلى حاجه في المطعم ده ...مكافأة ليكي بمناسبة النجاح.

- نجاح إيه؟؟ هي لسه النتيجة طلعت.

-أنا واثق فيكي يا حبي ...هانت إن شاء الله تدخلي الكلية اللي متفقين عليها ...يااااه امتى بقى تخشي الجامعة علشان نتقابل براحتنا.

-أنت فكرني هضيع وقتي ولا إيه ...أنا هذاكر كويس علشان اجيب امتياز كل سنة.

-وماله ...وأنا هشجعك على كده ..أنا مش هعطلك هما خمس ..ست ساعات بس نقضيهم مع بعض كل يوم.
ضحكت ملء فيها مرددة:
-مجنون !!
تعلقت عيناه ببسمة، عينيها التي آسرت قلبه منذ أن كانت فتاة صغيرة، الآسر الذي لم يستوعب معناه لكنه لم يهتم بالتفسير وما إن خط عالم المراهقة فهم أن الفتاة الصغيرة والتي كان يلعب معها في حديقة منزله لم تعد مجرد صديقة يلهو معها بل هي حبيبته بلا منازع، يكفي شعوره حين كان يلتقي بها سرًا دون معرفة والديه ...كان في الخامسة عشر بينما هي في الرابعة عشر ولأول مرة يدق قلبه بعنف واحمرت وجنتيه حين أمسك يديها كما كان يفعلان وعلى ما يبدو هذا ما أصابها هي الأخرى فلقد سحبت كفها من بين أصابعه بخجل.
حينها فقط أدرك كل شيء لقد كبرا ولم يعودا طفلان ومع مرور الوقت وتكرار تلك المشاعر الهائجة المراهقة قرر إخبارها باكتشافه المذهل هذا.
اتسعت بسمته وهو يذكر كيف قالها حينها وكيف كان رد فعلها، ليخرج من ذكرياته محدقًا بها فحسب لاحظت نظراته المتعلقة بها، لتتورد وجنتيها خجلًا .
استطاعت بالفعل تناسي كل مخاوفها في أن يراهما أحد وقررت فقط الاستمتاع بصحبته فهي المرة الأولى التي يلتقيان فيها خارج المنزل، وبعد محاولات اقناع مستميته من معاذ قبلت بالأمر وكانت متخوفه جدًا لكنها الآن سعيدة بموافقتها، فكل لحظة تقضيها معه هي بالفعل لحظات لا تُنسى من حلمها الجميل الذي تعيشه معه هو فقط.
انهيا وجبتهما ليستقل سيارته وهي تجاوره ليتجولا بها قليلًا إلى أن قالت:
-كفاية يا معاذ عايزة أروح بقى .
-استني دا أنا هوريكي حاجه جامده.
نظرت له متسائلة ليجيب:
- هوريكي مشهد خرافي ...على المقطم.
انتفضت فزعه:

-إيـــــه ...مقطم إيه يا معاذ؟.
اصابته الدهشة لانتفاضها:
- ومالك اتخضيتي كده؟ ...أنتِ تعرفي حد هناك.
-هناك مين ...أنا ماليش في الأماكن دي أساسًا.
انفجر ضاحكًا لتنعقد حاجباها غضبًا:
- أنت بتضحك على إيه؟
شهق ليتنفس مهدئا ضحكه:
-الأماكن دي ...محسساني إني هوديكي كبارية ...يا بنتي ده في هناك كافتريات ومطاعم وناس كتيرة بتروحه ... وعائلات وزفات عرايس.
لازال الضيق والغضب على وجهها:
-ماعرفش .. بس دايما اسمع إنه مش كويس.
- لا ماتقلقيش أنا معاكي.
- يا معاذ أنا كده هتأخر.
- يا ستي هنشوف الغروب وهروحك على طول.
- تروحني فين؟؟
- قصدي هنزلك عند أقرب محطة مترو ...خلاص حفظت ...هتشليني.
وصلا لوجهتهما على جبل المقطم واختار معاذ منطقة هادئة جدًا، كي تشعر هي بالراحه أكثر .ترجلا من السيارة ليستندا على مقدمتها بجوار بعضهما البعض.
- هتشوفي منظر مش هتنسيه.
اتسعت بسمتها أكثر ,بالفعل كان المشهد رائعًا، مشهد من مشاهد أحلامها الكثيرة التي تراودها ولا يشاركها فيها غيره.
حيث تقف على ربوة عالية خلفهما منزل ذو جدران زجاجية، يشاهدان لحظات الغروب معًا، وقد أحاطها معاذ بين ذراعيه وهو يغدق أذنيها بكلام عشقه، وقد تركا كل ما قد يؤرقهما بعيدًا فقط ليبقيا معًا.
"بووسي"
انتفضت على صرخته في أذنها لتستيقظ من حلمها ..وتستدير إليه صائحة:

- في إيه؟!!
-هو أنا بكلم نفسي ..سرحتي في إيه؟.
ابتسمت برقة:
- فيك.
-بجد.
قالها مشاكسًا لتقول:
-أيوة ...نفسي أنا وأنت نكون في مكان عالي ونشوف كل مشاكلنا زي البيوت الصغيرة دي ...لا يمكن تأثر فينا.
علق بصره بها للحظات فتاته الجميلة لا يشغلها إلا بقائهما معًا وهو ما سيحارب لأجله أيًا كانت الظروف.
أحاط كتفيها بكفيه ليديرها إليه وقد ركز عينيه على عينيها:
- أوعدك يا بوسي ...أوعدك إني ماسمحش لحد يضيعك مني أوعدك إني اعمل المستحيل علشان نفضل مع بعض ولبعض.
"تصدق شكلكم حلو أوي ...ماتصورهم يا نملة"
انتفضت بسمة فزعة ليتحرك معاذ ويحجبها تمامًا خلفه ناظرًا لتلك الصحبة التي ظهرت من العدم، كانا شابان أحدهما يحمل كاميرا بالفعل، والاخر يستند عليه بذراعه مبتسمًا ببلاهة، ليقول معاذ بصرامة:
- لا ..شكرًا مش عايزين نتصور.
فعلق صاحب الكاميرا:
- مش عايزين تتصوروا ازاي ..دي هتبقى ذكرى حلوة واحنا النهاردة ماستفتحناش وشكلكوا انتوا اللي هتكرمونا.
تعلقت بسمة لا شعوريًا بذراع معاذ وهي تراقب من خلفه ما يحدث وقد واتاها شعورًا بالخوف ربت معاذ على كفها هامسًا بحذر قلق:
- اركبي العربية.
دارت من خلفه لتأخذ مكانها إلا أن أحدهما تحرك نحوهما مناديًا عليها:
- استني بس.

وقبل أن يقترب أكثر أمسك معاذ بذراعه وحركه بطريقة مدروسة أجبرت الأخير على الدوران في الهواء قبل السقوط على ظهره متأوهًا.
ليقول رفيقه صائحًا:
- طب بتضربه ليه هو عملك حاجه.!!
توتر معاذ كثيرًا وصرخ ببسمة:
-اركبي.
قفزت داخل السيارة مرتجفة، لتنتبه لمعاذ يكاد يفقد توازنه لأن من أسقطه أرضًا تعلق بقدمه بينما اندفع رفيقه نحوه ليكيل لكمة قوية لفك معاذ أجبرته على السقوط، لتصرخ بسمة داخل السيارة باسمه برعب شديد.
التصقت بنافذة السيارة في محاولة لرؤية ما يحدث، لترى معاذ ينهض بالفعل بعد أن ركل من تعلق بقدمه، واستعد لدفاع عن نفسه بشكل أفضل ليوجه ضربات بدت مدروسة لخصميه ، ليجدا أنهما أمام شخص يجيد الدفاع عن نفسه فقرارا الانسحاب.
ليقف معاذ لاهثًا وهو يسترد سيطرته على أعصابه متجها لسيارته وانطلق بها في الحال لتحدق به بسمة لحظات وكأنها تتأكد أنه بخير .لتبدأ وصلة بكاء قوية، ابتعد عن المكان وعاد للطريق العام ليلتفت لها للحظة قبل أن يواصل طريقه:
-أنتِ بتعيطي ليه يا بنتي احنا اللي ضربناهم ...أكتر حاجه هشكر عليها سما هانم اصرارها على تدريب الدفاع عن النفس سواء ليا ولسامر، كانت دايما تقول"كده هطمن عليكم اكتر "شاطرة مامي أوي صح؟؟.
لم تعلق بسمة فلقد وصل رعبها إلى حد أفقدها أعصابها فافرغت شحنة خوفها ورعبها في البكاء، أوقف معاذ سيارته والتفت لها ثم مد يده ناحيتها فانتفضت منكمشة على نفسها، عقد حاجبيه وتسرب له الغضب من رد فعلها المبالغ فيه من وجهة نظره:
- في إيه يا بوسي ..أنتِ بتعيطي كده ليه؟!
أخيرًا قررت مشاركته أفكارها التي عصفت بعقلها وتزيد لديها رغبتها بالبكاء:

- مها ..مها كان.. عندها ...حق.
قالت كلماتها المتقطعة بسبب نشيج بكاءها، لم يفهم قصدها ليردد:
- مش فاهم ...عندها حق في إيه؟!
التفتت اليه لتصيح:
- تفتكر كان ايه اللي ممكن يحصل لو كانوا ضربوك ..أو ..أو فكروا يئذوني أنا كمان ...احنا بنعمل حاجه غلط وعلشان كده بتعاقب أنا خرجت معاك وكذبت على أمي، كل ده غلط ...وأكيد لازم تحصل مصيبة زي اللي كانت هتحصل دي ..أنا مش هخرج معاك تاني مش هسمع كلامك تاني مش هكذب على أمي تاني.لأ والاحسن مانتقبلش تا...
- بوسي.
انتفضت على صرخته ناظرة له لتراه يرمقها بغضب شديد:
-إيه اللي بتقوليه ده؟؟ ...وكل ده ليه ...عيال هايفة وضربتهم عملتيها قضية ليه؟؟ ...وإن كان على كذبك على مامتك ...فده غصب عنا وأنتِ عارفه ما أنا في مقدروي إني أخطبك واتجوزك كمان ..لكن أنتِ عارفه إنه ماينفعش ماما لا يمكن هتوافق ولا معتقده إنها هتسبني اتجوز بنت الخدامة.!!
اتسعت عيناها محدقة به بذهول وبدت كلمته مؤلمة جدًا لكنه تغاضى عما بدا على وجهها مردفًا:
-مش هي دي الحقيقة اللي مخليانا نتقابل في الضل وماحدش عارف عننا حاجه ولا هنضحك على بعض.
تحول بكاءها إلى فيلم صامت، دموع تغادر مقالتيها دون صوت ليتسمر حديثه الغاضب:
- المشكلة مش فيا ولا فيكي ولا حتى في مامتك ..المشكلة في المجتمع الطبقي اللي عايشين فيه ومضطرين نلتزم بقواعده وقواعده بتقول إني علشان ارتبط بيكي لازم تكوني حاجه مهمة، مش مهم بقى مامتك مين ...هننسى ده هنتناساه ..أي حاجه ..المهم ننفذ اللي احنا مخططينه من الأول.
ساد الصمت عليهما للحظات قطعته هي بقولها:

-نزلني عند أقرب مترو.
قالتها بجمود ليرمقها بنظراته التي لازالت تحمل غضبه ثم اعتدل مديرًا محرك السيارة دون رد.
....
وصلت بسمة لمسكنها وكلمات معاذ تتردد في عقلها"ولا معتقده إنها هتسبني اتجوز بنت الخدامة " ....".مش مهم بقى مامتك مين ...هننسى ده ..هنتناساه "
إنه يخجل من أمها، لم يبدو عليه هذا قبلًا ..كان يشجعها ويؤكد لها أن عمل أمها لا يخجله أبدًا، فلولا ذلك العمل ما التقى بها أبدًا ولطالما مدح جهد أمها في تربيتها ورعايتها بعمل حلال، فكيف استطاع ترديد تلك الكلمات؟ هذا هو ما يشعر به حقًا !!هل سيطلب منها يومًا أن تنسى أمها وتتبرأ منها؟؟.
استمرت دموعها في الجريان دون شعور منها ودون اهتمام بنظرات الناس، إلى أن أوقفها أحدهم فالتفتت لتجد شاب يكبرها بعدة سنوات ينظر لها في دهشة:
- مالك يا بوسي ... بتعيطي كده ليه؟!
مسحت وجهها مرددة:
-لا أبدًا يا محمد مش بعيط ..ده عربيه عفرت تراب جامد جه في عيني.
بدا تفسير غير مقنع فمط شفتيه قائلًا:
-طب اطلعي اغسلي وشك ..وشوفيليك حجه غيرها دي مش مقنعة بالمرة.
رمقته للحظات وثم استدارت لتدخل مبناها السكني، تعلم أن أمها ليست هنا وهي لا تحتاج لتفسيرات لمها أو نانا هما يعلمان ما تفعل، ولكن عن أي شيء ستحدثهما عن اكتشافها الأحمق بأن معاذ يخجل من أمها بالفعل رغم أنها قاومت تلك الفكرة كثيرًا ولم تحدثه عنها مطلقًا.
كيف لم تنتبه لهذا مسبقًا؟ !لطالما كان كلامه عنهما فقط، هما الاثنان ..حبهما ..حياتهما ..مستقبلها ..وهي كذلك كل أحلامها لا تحمل غير صورة معاذ، فأين

أمها؟ ..هل ستتناسها بالفعل؟ بعد كل ما عانته من أجلها، بعد أن وعدتها أن ترعاها حتى تنهي تعليمها وتعمل فيصبح عليها هي رعايتها.
وصلت لسطح البناية، لم تنتبه لأحد في الخارج فخمنت أن الفتاتين بغرفتهما، دخلت لغرفتها وقد انكفأت بوجهها على فراشها مستمرة بالبكاء، لا تعرف لمَ تبكي تحديدًا؟ ..ربما الضغط العصبي الذي تعرضت له مع معاذ، ربما كلمات معاذ في حق أمها والتي كانت واقعية ومؤلمة.

....

انتهت نانا من عملها في محل الملابس التي التحقت للعمل به منذ شهور قليلة، بدلت ملابس العمل لترتدي ملابسها العادية وقبل أن تخرج من المحل سمعت من ينادي:
-نادرة ...نادرة.
التفتت بعصبية لتقول:
-قولتلك مييت مرة ماتنادنيش بالاسم ده.
اقترب مبتسمًا:
- ليه بس ...ده اسم جميل ...أنتِ فعلًا بالنسبة لي نادرة.
مطت شفتيها قائلة باستهزاء:
- ليه يا خويا اللي زيي متلقح في كل حتة.
تجهم وجهه وارتسم عليه الاحباط قائلًا:
-بالنسبة لي لأ .. عمومًا كنت عايز أقولك وأنا جاي قابلت بوسي وكانت معيطة.
انتبهت له أكثر سائلة بجدية:
- إيه ...ليه؟!
-مش عارف سألتها قالت تراب دخل عينيها ...طبعا سبب مش مقنع واضح إنها كانت معيطة وكتير.

شردت مفكرة للحظة، المفترض أنها خرجت لقضاء بعض الوقت مع معاذ، فلمَ تعود باكية؟ ملأها القلق على رفيقتها والتي هي بمثابة شقيقة أخرى لها كمها لتسرع قائلة:

- شكرًا يا محمد هروح اشوف مالها ...ادخل أنت خلص حسابات المحل قبل أستاذ مراد ما ييجي ويقلب عليك.

ابتسم ..كم يسعده أن يشعر بقلقها عليه ..حتى ولو من باب الزمالة:

-ماشي يا نادرة.

زمت شفتيها لتمنحه نظرة غاضبة لتتسع ابتسامته قائلًا:

- مش هناديكي غير بيه ..أشوفك بعدين.

واستدار مبتعدًا، لتزفر في ضيق وأسرعت الخطا إلى مسكنها الذي لم يكن بعيدًا عن مكان عملها.

دخلت مباشرة لغرفة بسمة لتجدها تغط في النوم وبدى واضحًا أنها نامت باكية .ظلت ترمقها للحظات ثم نادتها بصوت منخفض فلم تتحرك فضلت أن تتركها للصباح لتعرف ما الذي حدث، فاقتربت منها لتمسح وجهها عما علق به من عبرات كي لا تنتبه أمها لذلك ثم تركتها وذهبت لغرفتها.

وجدت أختها كعادتها تمسك بمصحفها، جلست على طرف فراشها لتزفر بضيق، فتركت مها مصحفها قائلة:

-بتنفخي كده ليه؟ !مالك؟!

التفتت لها سائلة:

- ماشوفتيش بوسي لما جات؟!!

ردت ساخرة:

-أشوفها ازاي يعني؟؟.

-مهاا!!

صاحت بها بنفاذ صبر، لترد أختها:

-سمعتها لما دخلت ولما ماجتش على هنا قلت تلاقيها تعبانه ومحتاجة تنام .. من ساعة الامتحانات ما بدأت وهي مش بتنام أربع ساعات على بعض.

ألقت بجسدها على الفراش تحدق بسقف غرفتهما الصغيرة الخانقة لها كثيرًا من الأحيان، الفضول يعصف بها .

ما سبب بكاءها هكذا؟

ليس أداءها في الامتحانات، هي أكثر من واثقة أن اجتهاد بسمة يعني نجاحها ...فإذا كانت تبكي فمعاذ السبب بكل تأكيد.

عضت على شفتيها حنقًا، يجب أن تحتفظ بسمة بهذا الشاب بأي وسيلة، هو ليس حلم بسمة فقط بل أصبح المنقذ الوحيد لها هي أيضًا لو نجحت مخططاتهما وتزوج بسمة ..فستدخل معها عالمهم الثري .

الثراء!!

تلك الكلمة التي كانت حلمها ليل نهار وكم أسعدها خبر ارتباط بسمة ومعاذ، فرحت لصديقتها ولنفسها، فطموحها سيصبح مشروع لو أصبحت بسمة زوجة الوريث الثاني لعائلة ثرية.

تركت فراشها لتقف أمام مرآتها المثلثة الشكل نظرًا لتحطمها من قبل في إحدى معاركها مع أختها الوحيدة مها.

سحبت وشاح رأسها القصير الذي يحيط رأسها وعنقها بالكاد، حررت خصلات شعرها الكستنائي الذي تنتهي أطرافه فوق كتفيها، ناعم ..أملس ...يبرق بصحة وعافية، أمنيتها الوحيدة والتي لا يمكن تحقيقها أن يكون في طول شعر بسمة ...لم تغبط بسمة على شيء أكثر من طول شعرها الأسود الكثيف.

فهي لم يحرمها الله من جمال الخلقة، ربما ليست من النوع الملفت للانظار لكن دومًا من ينظر لها مليًا يقول أنها جميلة، حانت التفاته منها لشقيقتها الصغرى التي تمت عامها السادس عشر منذ شهور قليلة والتي كانت أجمل منها ولا تحتاج لكثير من الوقت أو حتى التحديق ليدرك الناظر لها ذلك .

لكنها فقدت بصرها !! فأصبحت معاقة في نظر من حولها وبالطبع لم يشفع لها جمالها.

عادت تتأمل ملامح وجهها في مرآتها، بشرة قمحية ...عينان بنية تقليدية، كما تصفها دومًا مقارنة بعيني بسمة الملفتة للأنظار ...شفاه مكتنزة ..أكثر ما تحب النظر إليه في ملامح وجهها .

تكره مقارنة نفسها ببسمة التي تصغرها بأربع سنوات ..ومع ذلك تشعر أنها أصبح لديها الكثير في وقتٍ قصير ...هي تؤمن أنها ليس حاقدة أبدًا .

لكن جانبها المظلم، هذا الجانب الباطن الذي يسكن كل شخصٍ فينا لطالما سألها لو لم تكن في الثانية والعشرين من عمرها وكانت في عمر بسمة، هل كانت لتحاول الحصول على معاذ لنفسها؟!

وكعادتها كلما وصلت لهذه النقطة، تهز رأسها بعنف ...نفيًا ..أو بغضًا ..أو إنكارًا لما تحدثها بها نفسها الامارة بالسوء ولهذا تحاول جاهدة إنجاح الامر، على بسمة أن تنجح بالزواج من معاذ ...وهي لا تريد أكثر من ذلك .

فقط باب ...

نافذة صغيرة..

تطل منها على هذا العالم الفسيح وحتمًا ستخرج منه بما تريد.

أليس من حقها أن تحلم بالحياة الأفضل؟ !بعيدًا عن هذا الفقر الذي تتمنى موته كل لحظة !!

الفقر الذي أفقدها الكثير مرة بعد مرة ...فأضحى عدوها اللدود.

-كل ده بتتفرجي على نفسك في المراية ...هتتجنني يا بنتي ...هيجي يوم وهتتجنني.

مطت شفتيها رامقة أختها بنظرة استنكار تعلم انها لن ترَها فأظهرتها في صوتها:

-أنتِ بترقبيني؟!!

وبدلا من استفزازها ضحكت مها:

-حلوة الكلمة دي ...ضحكتني.

ابتسمت هي الأخرى على أختها التي يبدو وكأنها لا تعاني من أي شيء.

مها..

الرقيقة ...الطيبة ...الصالحة ...هي الشيء الوحيد الذي يشعرها بأن الله ادخر لها شيئًا جميلًا بها برغم اختلافاتهما الدائمة وقدرة مها الخارقة في إثارة غيظها، لكنها تعلم من داخلها أن مها تحبها ربما أكثر من نفسها.
فحتي مع وجود فاطمة التي كانت أم بديلة لهما وبسمة كأخت ثالثة، هما يعلمان أن يومًا ما سيأتي ولن يتبقى للواحدة منهما إلا الأخرى .
الأخت الشقيقة ...والتي لا تعوض أو تستبدل وهما تحاولان الحفاظ على هذا طوال الوقت.
عادت للجلوس على فراشها قائلة:
- محمد شاف بوسي وهي راجعة وكانت بتعيط!!..
اعتدلت مها قائلة:
-إيه؟ !!بتعيط ...ليه؟ !طب ما نروحلها.
-أنا عديت عليها قبل ما أجي وكانت نامت خلاص.
هزت مها رأسها بحيرة:
-وبتعيط ليه؟ !!مش ممكن يكون الامتحان كان وحش !!دي آخر مادة قالت انها سهلة ليها جدًا أنا لما لاقتها اتأخرت قلت يمكن بتفرح مع صحابها.
نظرة حذر مفعمة بالتردد قبل أن تقول نانا:
-هي خرجت مع معاذ ...مش مع صحابها ...يمكن يكونوا اتخانقوا.
هبت مها واقفة:
- إيه ...خرجت معاه؟ !!هي كمان بقت بتخرج معاه.
لوت شفتيها ورأسها تتحرك تأيدًا:
- كنت واثقة إن ده هيكون ردك ...مش كنت سكت أحسن.
زاد احمرار وجه مها غضبًا:
-لازم تفهمي إنك بتشيلي ذنب أي حاجه بتحصل بينها وبين الولد ده لأنك بتشجعيها دايمًا ...وعمرك ما فكرتي تحظريها ولا تمنعيها عنه.
استرخت نانا على فراشها ليست في حاله تسمح بالعراك لذا من الأفضل تجنب تلك المزعجة الان.

والتي أردفت غير عابئة بتجاهل شقيقتها المعتاد:
-أنا عارفة كويس أنتِ بتفكري في إيه ...انتِ لا فارق معاكي بوسي ولا حبها المراهق ده أنتِ بس عايزة توصلي ...عملاها سكة ليكي علشان تهربي من الفقر اللي أنتِ مش طايقاه وناسية إنها زي أختنا ...وأمها ..أبلة بطة مافكرتيش فيها أبدًا ...دي هي اللي فضلت تصرف علينا لما اتيتمنا أم وأب في لحظة ويادوب شغلك رفع عنها شوية من مصارفنا ..مع إن اكلنا كله لسه على حسابها ...مش بيصعب عليكي أنك بتستغلي بنتها عملاها وسيلة ليكي لغاية واحدة بس...
"مهااا"
انتفضت مها رغمًا عنها لصيحة أختها التي يبدو أنها تركت فراشها واقتربت منها دون أن تشعر، رفعت كفيها أمام وجهها حماية من أي لطمة محتملة .
-أنتِ اتجننتي ...أنتِ ازاي ...ازاي؟!!
صرخت قهر صدرت من قلبها قبل شفتيها لتستدير مندفعة خارج الغرفة فتحاول مها اللحاق بها وسط ظلمتها الدائمة ...منادية اسمها مرة بعد مرة.
التفتت نانا لها وسحبت كرسيًا لتضعه في طريقها وهرعت على السلم لمغادرة السطح ...ليصلها صوت ارتطام اختها بالكرسي وسقوطها أراضًا مع صوت تأوه مكتوم ..فأغلقت عينيها وأعادت فتحهما مرددة:
- تستاهلي!!

....
حك جبهته بضيق انتهى الامر بشكل سيء، المرة الاولى التي أراد أن يجعلها مميزة لها فيتمكن من تكرار الامر دون أن ترفض باصرار كعادتها، المرة الاولى
التي يبدو فعلًا أنها ستكون الاخيرة حتى اشعار آخر ، كل شيء انتهى ببكائها وليس هذا فقط بل وكلمات جارحة منه.
ضرب رأسه عدة مرات مرددًا:
- غبي ..غبي ..غبي.!!

هي من دفعته للحديث بتلك الطريقة، هل ينقصهما عقبات في طريقهما لتضف هي المزيد؟؟
فلتصبر ...فلتكمل كما أرادا أن يفعلا، قصة أمها ستنتهي بشكل أو بأخر .
هو لم يضعها في حسبانه كثيرًا، أراد أن يقدم لأمه فتاة تعرفها ومعجبة بقدراتها وهذا كفيل بكل شيء ولتحقيق هذا عليهما أن ينتظرا أكثر لكنه لا يستطع أن يبتعد عنها أثناء هذا الانتظار لم يقبل بهذا حين أصرت أمه على أن يتوقف عن رؤيتها..
"أنت كبرت يا معاذ كفاية لعب مع بنت الخدامة"
"بنت الخدامة "هي الصفة الوحيدة التي منحتها أمه لحبيبته وقتها، سيكذب إن قال أنه لا يكره كونها ابنة الخادمة، ليتها كانت أي شيء آخر ...جارتهم مثلًا .. ابنة صديقة من صديقات أمه ..لكنها لا هذا ولا ذاك.
هي فقط حبيبته ...وابنة الخادمة!!
وعليه التعامل مع هذا المسمى بأي طريقة، المهم أن تكون معه في النهاية.
عندما تأتي سيتحدث معها، يجب أن تعرف كيف يفكر بدلًا من أن تفسر الامور على هواها.
رنين مميز وصل إليه ليعرف مصدره التفت إلى الجهاز اللوحي الذي أهدته إياه نرمين لينبأه باتصال، التقطه بلامبالاة فحالته لا تسمح له بخوض حديث خاصة معها ...هو يعلم أنها هي المتصلة، هي فقط من تتصل به عن طريق الشبكة العنكبوتية" الانترنت."
حدق بالجهاز حتى انقطع الاتصال إلا أنه سرعان ما عاد للصياح بالحاح ..
استسلم زافرًا ليجيب:
-أهلا نرمين.
-هاي معاذ ...ازيك ...وحشتيني.
ابتسامة باهتة رسمت على وجهه دون قصد منه مجيبًا:
- وأنتِ كمان ...أخبار دراستك؟!
- تمام ...كله تمام ...وأنت؟!!

-أنا كمان تمام.
- امممممم ...صوتك ماله ..أنت مضايق.
صمت هنية قبل أن يرد:
-يعني ..شوية ..ماتشغليش بالك ...سلمي على ماما وبابا كتير ...معلش لازم أنزل أكلمك بعدين.
وقبل حتى أن ترد له تحيته أغلق الجهاز ليلقي به جانبًا، مستلقيًا على فراشه وعقله لا يدور إلا في فلك فتاة واحدة".بوسي"

سارة سيف الدين

الفصل الرابع

يا مشرط الجراح أمانة عليك
وإنت ف حشايا تبص من حواليك
فيه نقطة سوده في قلبي بدأت تبان
شيلها كمان ..والفضل يرجع إليك
عجبي!!
رباعيات جاهين

جلست في ركنها المفضل تستند برأسها على مسند الكرسي ناظرةً إلى السماء السوداء التي يُزينها القليل من النجوم، حالة من عدم الثقة تجتاحها
عدم الثقة في حبه، عدم الثقة في نجاح علاقتهما، عدم الثقة في نفسها وولائِها لأمها.
كما أنها غاضبه، غاضبةً منه ومن كلماتِه لها، كيف أمكنه الحديث معها بتلك الطريقة، ستعاقبه، ستحرمه من رؤيتها، يجب أن يستشعر افتقادها ولترى كيف سيتصرف بعد ذلك.
خطواتٌ مألوفة تقترب منها لتقف صاحبتها بجوارها، نظرت لها بسمة قائلة:
- مها ...عملتي إيه في إمتحان القرءان؟.
- الحمد لله.
- ربنا يوفقك دايمًا.
لتعود وتطالع السماء بينما ظلت مها مكانها لتعلق بسمة:
- ركبتك عاملة إيه؟! لسه بتوجعك؟!
نفت برأسها وهي تربت على ركبتها المنكوبة لمجرد كلماتٍ قالتها ولم تعجب شقيقتها.

- إبقي خلي بالك يا مها ...ده إحنا حتى مش بنحرك أي حاجه من مكانها علشانك ...بس برضو خلي عصايتك معاكي على طول.
- حاضر.
قالتها مها باستكانة، فهي لم تخبر بسمة أن ما حدث لها بسبب أختها التي أحيانا تفقد أدنى مشاعر الإنسانية وتتسبب في إيلامها بهذا الشكل.
ساد الصمت عليهما للحظاتٍ قبل أن تقول مها:
- عايزة أقولك حاجه.
استنتجت بسمة ما الذي يتبع تلك الجملة فقالت بنزق:
- لو عن معاذ يبقى بلاش يا مها... أنا مش ناقصة.
لم تُعرها اهتمامًا فأردفت:
- ماتسمعيش كلام نانا... نانا أفكارها كلها غلط، هتوديكوا في داهية.
لم تُعلق بسمة فهي تعرف النهاية المكررة لمثل هذا الحوار والذي لا تمل منه مها أبدًا، غريب أنهما اختان !! هكذا دومًا تفكر.
الإختلاف بينهما كبير يكادا يكونان النقيض لبعضهما البعض ومع ذلك هي تحبهما كثيرًا، هما الأختان الوحيدتان في حياتها منذ أن تعرفت عليهما حين كنَّ أطفال وهنَّ معًا، لم يفترقا.
خاصةً بعد تهدم البيت الذي كُنَّ يسكنَّهُ معًا ومات فيه والديهما بينما هي وأمها كانتا بالعمل ليعودا ويجدا تلك المصيبة، فتصر أمها على أن تبقى الفتاتان معهما وبالفعل ظللنَ معًا ولم يفترِقْنَ منذ تلك اللحظة.
وبرغم أنها أقرب في العمر من مها لكنها كانت أقرب صداقة لنانا، صحيح أنها بدأت بالصداقة مع مها لكن منذ فقدت بصرها وأصبح التعامل معها أصعب لفترة ليست بالقصيرة.
رفعت بصرها لمها قائلة:
- ماتخافيش يا مها، مهما كانت أفكارنا أنا ونانا،... مش هنودي نفسنا في داهية.
مطت مها شفتيها:

- واثقين من نفسيكم زيادة عن اللزوم!!
أنهت جملتها لتستدير متجهةً لغرفتها، تابعتها بسمة حتى اختفت في الداخل هامسة:
- لا يا مها... أنا مش واثقة من أي حاجه ولا حتى من نفسي.
كلمات معاذ الأخيرة معها أفقدتها الثقة في كل شيء، حبهما، أحلامهما، ومستقبلِهما. فأمها لن تكون خارج المعادلة أبدًا ..لن تسمح بهذا.
هي تدين لأمها بالكثير فلن تُقصيها من حياتها لمجرد أنها تعمل خادمة وعليه أن يفهم هذا جيدًا.
....
جلس جاهين بأريحية على أريكة مكتبه في الشركة ...يحادث إحداهن على الهاتف، كان حديثاً مازحًا كعادته، ولم ينتبه لوافي الذي كان يرمقه بغضبٍ، إلى أن لاحت منه التفاته ليراه فاعتدل جالسًا واعتذر لمحدثتِه:
- معلش ...هضطر أقفل دلوقتي، آه طبعًا هشوفك في النادي، هو أنا أقدر ماشوفش القمر ده.
قال كلماتِه الأخيرة وهو يرمق وافي بنظراتٍ جانبية ليمط الأخير شفتيه بازدراء ..أنهى الإتصال ليقف متجهًا لمكتبه قائلًا:
- مش تخبط؟!!
رد وافي بعصبية:
- ماأنا خبطت بس حضرتك كنت هيمان في التليفون.
جلس خلف مكتبه مرددًا بهدوء:
- ولا هيمان ولا حاجه، دي مجرد صديقة.
- مش مهم ..مش موضوعي.
- أومال إيه موضوعك؟!!
بدت علامات غضب على وجهه ليقترب جالسًا أمامه، فمال جاهين بجزعه قائلًا:
- مالك؟.

- إنت إيه اللي خلاك تكلم أستاذ أنس عن مرضي؟.
فهم سر غضبه عاد بظهره ليستريح على كرسيه:
- حاجات كتير بس أهمها حبي ليك ...مش كفاية.
- إنتوا مش شايفين إنكم بدأتوا تخنقوني بحبكوا ده.
زفر جاهين مجيبًا:
- ماعندناش مانع نخنقك بحبنا بدل ما تموت إنتَ نفسك.
هب واقفًا ليضرب المكتب بكفه:
- أنا مش بموت نفسي ...والأعمار بيدِ الله، هتتدخلوا فيها دي كمان، أنا عمري مكتوب من قبل ما أنتَ أو أنا أو أي حد فينا يكون مخلوق مافيش حاجه هتقدمه أو هتأخره... إفهموا بقى.
هز جاهين رأسه بعدم اقتناع:
- فعلًا ...مافيش حاجه هتقدمه ولا هتأخره ومع ذلك في ناس بتنتحر وبتموت ليه بيتعاقبوا ...مدام مكتوبلهم كده.
رمقه وافي دون ردٍ، يعلم أنه يقول هذا ليثبت وجهة نظره، ليردف جاهين:
-لأنهم اختاروا الطريقة الغلط، اختاروا الطريق المحرم للموت، رغم إن أجلهم ثابت ومتحدد لكن هما اللي اختاروا الطريقة دي... زي ما أنتَ عايز تختار نفس الطريقة... وبتتحجج بحقيقة إن الأجال ثابتة ومش بتتغير، لكنك قررت الإنتحار زيهم بالظبط.
جاءَه صوته عنيدًا وهو يقول:
- لأ ..أنا مش منتحر ...أنا مش هقتل نفسي.
وقف جاهين ليقترب منه أكثر ليحاوط كتفيه لتتلاقى أعينهما:
- لما تكون عارف ومتأكد إن كليتك هتوصل لمرحلة الفشل التام والحل الوحيد في عملية النقل وترفضها تبقى بتنتحر،... لما نكون متأكدين إن اللحظة دي بتقرب كل يوم منك ونسكت يبقى بنوافقك على إنتحارك، وافي ...اسمعني كويس ..أنا مش هسيبك تضيع مننا من غير ما نعمل كل اللي نقدر عليه، سامعني؛... مش هسيبك تموت نفسك ... مش هسمحلك يا وافي.

حرره من كفيه ليعود لمكتبه مردفًا:
- إعمل اللي يريح ضميرك يا وافي ...وإحنا برضو هيجي وقت نعمل اللي يريح ضميرنا.
طالت نظرات وافي لجاهين قبل أن يستدير مغادرًا تتابعه نظرات جاهين الحزينة والقلقة، رن هاتف مكتبه الداخلي فعلم أنه اتصال من سميحة أجابه على الفور لتطلب حضوره لمكتبها.
جلس أمامها لترفع له ملف مغلق، تصور أنه مناقصةٍ ما ، فتحه ليطالع محتواه ليعقد حاجبيه متسائلًا:
- ايه ده يا عمتي؟!!
- ده الورق اللي هتبعته للجامعة الكندية اللي هتدرس فيها لوجي.
دقق في الأوراق ثانية ليقول:
- بس ده مش ورق لوجي، ده ورق وافي.
بسمة جانبية استقرت على طرف شفتيها:
-مأنا عارفه، ورق لوجي اتبعت من زمان وإنتَ عارف...وافي هيدرس في الجامعة دي إن شاء الله.
هز رأسه بغير فهم:
- أنا مش فاهم حاجه كنتي عايزاني أقنعه بالعملية.. نسيتيها دلوقتي ونقلتي لموضوع السفر ليه وإنتِ عارفه إنه رافضه تمامًا وكمان مرضه وصحته اللي مش كويسة ...إنا مش فاهم عايزة إيه بالظبط يا عمتي؟.
استندت بساعديها على مكتبها قائلة:
- عايزة الإتنين ...علاجه وسفره، ودلوقتي الحمدلله هنحقق الإتنين.
لم يُعلق فهي بالتأكيد من سيتابع الكلام وبالفعل أردفت:
- فايز خطيب لوجي قالي إن في مركز في تورنتو متخصص في أمراض الكلى ومتطور جدًا وأبحاثهم مركزة في الحالات اللي شبه وافي وإنه هيستفيد أوي لو زار المركز ده وتابع معاهم ...وكمان هيدوروا على المتبرع المناسب تحسبًا للظروف ..وافي حاليًا مش محركه غير مشاعره ناحية صاحبه اللي مات بعد ما

سرقوا كليته، فاكر إن هو كمان لو عمل العملية حد هيموت مكانه، بس لما يسافر ويعيش في وسط جديد هيرجع بعقلية مختلفة .. تكون أكثر عملية ويوافق بعد كده على اللي ينفعه مش اللي يرضي أفكاره العاطفية.

صمت مفكرًا في كلماتها، هو يعلم علم اليقين أنها لا يهمها في هذا العالم غير وافي، لذا بالتأكيد ستختار له الأفضل وهو أيضًا يهمه أن تتحسن صحة وافي.

- ماشي يا عمتي ...اللي تشوفيه كده أنا فهمت.

- إبعت بقى الورق ده وأول ما الجامعة ترد هاتلي الرد فورًا.

- ووافي؟!!

- سيبه عليا ...ما تقولوش أي حاجه لحد ما الجامعة ترد.

أومأ برأسه إيجابًا، ليحمل الملف معه مغادرًا، أغلق باب مكتبها خلفه ليحدق بذلك الملف الذي بيده وصوته الراجي يتسلل لعقله:

"- عمتي أرجوكي أنا عايز أسافر... هكمل تعليمي بره ..هرجع أحسن وهفيد الشغل أكتر.

- مش هينفع يا جاهين ...أنا مش هشيل الشغل لوحدي لحد ما ترجع ..إنتَ معايا بقالك سنة وخلاص بدأت تفهم الشغل ...كمل تعليمك هنا عادي مفيش سفر ..وماتفتحنيش فالموضوع ده تاني أنا محتجالك هنا"

كلمات أنهت حلمه قبل أن يبدأ، وتقبل الأمر كما يفعل على الدوام، فرغبات السيدة سميحة إذا تعارضت مع رغباتهم فلا سبيل لإقناعها وها هي الآن كما توقع مسبقًا وكما قالت له أمه.

"- يعني إيه ترفض سفرك هي مالها؟!

- مالها إزاي يا ماما؟ ما هي اللي بتصرف.

- بتصرف إيه يا ابني ...ده ميراثك من أبوك .. وحتى لو هي اللي بتصرف ده مايدِيهاش الحق إنها تدمر مستقبلك.

- ماما خلاص هي محتجاني هنا... وأنا مش هسافر كفاية كلام في الموضوع ده.

- بقى كده ..براحتك ...بس خليك فاكر إن وافي ده هيسافر أنا متأكده إنها هتخليه يكمل تعليمه بره وخليك أنتَ هنا لحد ما هو يتعلم أحسن..ويبقى الكل في الكل زي ما سميحة راسمه"
هز رأسه طاردًا تلك الأصوات التي تتصارع في عقلِه عائدًا لمكتبه لينفذ ما طلبته بإرسال أوراق وافي للجامعة.
....

نقر معاذ بأصابعه على ركبته بعصبية، كان يجلس القرفصاء في مخبئهما المعتاد لكنها لم تظهر، لا يصدق أنها استطاعت أن تمنع نفسها عنه طوال هذه المدة.
أسبوع كامل مر منذ خروجهِما معًا الذي انتهى بمأساة وهو لم يرَها .
كما أنه لا يستطع الذهاب للمطبخ أبدًا هكذا القوانين التي وضعتها السيدة سما، فقط يضربون الجرس ويطلبون ما يريدون دون أن يذهب أيًا منهم بنفسه، لكنه لم يعد يحتمل!!
سيراها، وعليها أن تتحمل نتيجة فعلتها، هو حتى الآن لا يعرف لمَ هي غاضبة؟ بماذا أخطأ؟!
هل كلماته الغاضبة هي التي ضايقتها، لكنه لم يعني ما ظنت، هو لم يقصد إهانة أمها هو فقط يذكرها بما سيسمعاه وعليهما التأقلم معه، ربما قالها بالطريقة الخاطئة وفي الوقت الخطأ لكنها لم تسمح له بالتفسير بل قررت معاقبته في الحال.

دخل القصر ليذهب إلى الدور السُفلي حيث يوجد المطبخ، بدا المكان غريب فعلًا، هو لا يذكر متى آخر مرة دخل هذا المكان، وصلت لأذناه أصوات يتبعها ضحكات، يبدو أنهم يتسامرون، فتح الباب ليظهر لهم ليحدق به الجميع وكأن على رؤوسهم الطير، لا يعرف كم مر من الوقت على هذ الوضع فحك رأسه باسمًا بتوتر:

- يظهر إن أنا فعلًا مابجيش هنا أبدًا.
كان أول المنتبهين سميرة التي تحركت نحوه بترحاب:
- معاذ بيه ..أهلا بحضرتك ..هو الجرس عند حضرتك مش شغال.
هز رأسه نافيًا:
-لا شغال ...بس أنا كنت قريب قلت أما أشوف مطبخنا ده شكله إيه؟.
تبادل الجميع النظرات بغيرِ فهمٍ، بينما دارت عيناه هو في المكان إلى أن تلاقت مع عينيها المتسعتين في ذهولٍ، أدار بصره عنها، فلو استمر ينظر نحوها سينفضح أمرهما في الحال ..ليردف:
- المهم أنا عايز كوباية نسكافية ..وسمعت إن في حد هنا شاطر أوي في عمايل النسكافية.
ابتسمت سميرة مجيبة:
- أيوة طبعًا ...مفيش غيرها بوسي ...بس حضرتك سمعت منين؟.
قالتها ضاحكة ليبتسم بدوره:
- مش فاكر بس سمعت ...ممكن بوسي تعملي نسكافية وتجبهولي أنا قاعد في الجنينة.
أجابت سميرة:
- طبعا يافندم حضرتك تؤمر ...دقايق وهيكون عندك.
قاوم رغبة شديدة في النظر إليها مجددًا لكنه خشيَ أن يلاحظ أحد ذلك فالتفت مغادرًا إلا أنه عاد ينظر إليهم قائلًا:
- إنتوا طبعًا عارفين إن قوانين سما هانم بتقول مجيش هنا ...فياريت زيارتي دي ..أو اللي جاية ماتعرفش عنها حاجه ...خلوه سرنا الصغير.
ليشير لهم مودعًا ويغادر وعلى شفتيه ابتسامةٍ كبيرة وهو يذكر نظرة الدهشة التي رآها في عينيها وهي تحدق به.
....

كان الحديث الدائر في اللحظات التالية كلها عن معاذ، هذه تمدح فيه، والأخرى تتحدث عن أناقته، وهذه تتكلم عن تواضعه واحترامه للجميع، بينما هي تشطاط غضبًا.
كيف أمكنه أن يفعل هذا؟ ماذا لو إنتبه لهما أحد؟ ...
أمها هنا!!
هل فقد عقله؟!!
صحيح أنه لم ينظر لها غير مرة لكن هذا جنون، وبالطبع سيتسائلون من أخبره عن براعتها في عمل ذلك المشروب، هي من فعلت، الأحمق سيفضح أمرهما.
كل هذا لم يمنعها من الابتسام في النهاية، هو فعل هذا لأنه اشتاق إليها كثيرًا، هذا ما تثق به.
هو السبب، لقد أغضبها كثيرًا ولهذا لم تُرد أن تراه، وكل يوم يمر كانت تتصور أنه سيظهر لها في أي مكان ليراها، وعندما لم يظهر زاد عنادها، ألا تهمه؟ ... ألم يفتقدها؟ ...فقررت الاستمرار في التجاهل، ليستسلم هو أخيرًا ويظهر بالفعل، لكن لم يخطر بعقلها أبدًا أن يأتي إلى مقر عملها داخل المنزل.
"يالا يا بوسي"
جاءها نداء سميرة لتنهي ما تفعل حامله مشروبه المفضل والتي قررت أن تتقن صنعه من أجله، بدت بسمة رقيقة على شفتيها.
- استني ...هاتي هوديه أنا.
لا تعرف لما دق قلبها بعنف كالمتلبس بجريمة، حين سمعت كلمات أمها لكنها تداركت ذلك قائلة:
- حاضر.
أوقفتها سميرة:
- ماتسيبيها توديه يا فاطمة وركزي معانا إحنا هنا ...روحي إنتِ يا بوسي وتعالي على طول.
أومأت بسمة برأسها لتذهب قبل أن توقفها أمها ثانيةً، وصلت للحديقة لتجده جالسًا على أحد المقاعد الخشبية العريضة اقتربت منه فلمحها في الحال، رفع

رأسه نحوها وفي عينيه نظرة تحذيرية ردت له نفس النظرة بغيظ أكبر وهي ترفع له الكوب قائلة:

- مش عايزة جنان ...أمي ممكن تكون شيفانا.

أمسك بالكوب وابتسم كمن يشكر أحدهم ليقول من بين أسنانه:

- لو ماجيتيش النهاردة قبل ما تمشي هعملك مصيبة.

أخرجت لسانها لتغيظه قبل أن تستدير مبتعدة لتتسع بسمته أكتر وهو يتابعها، ليقرب قدح القهوة الخاصة التي يحبها ويشتم رائحتها المحببة له قبل أن يرشف منها ببطء وتلذذ، ليشعر بمن يراقبه فرفع عينيه ليجد أخاه سامر يقف في شرفته مانحًا إياه نظرة لم يفهم معناها، انزوت بسمته في الحال لتتعلق أعينهما ببعض للحظات قبل أن يعود شقيقه لغرفته ويغيب عن نظره.

عقد معاذ حاجبيه متمتمًا:

- مالك بقيت مخيف كده ليه يا سامر؟!!

....

انتظر في مخبئهما، يعلم أنها ستأتي بكل تأكيد، هي تعرف جنونه أين يمكن أن يصل به، وهي لن تغامر، هو فقط من يغامر!!

وصدق حدسه حين وصل له خشيش الشجيرات لتطل عليه بوجهها الجميل الذي يحبه حتى وهو غاضب كالآن.

-جنانك ده ماتعملوش معايا تاني ...افرض كان حد خد باله كنا هنعمل إيه ولا أمي لو كانت حسِت دي كانت تبقى مصيبة ...إنتَ بتبصلي كده ليه .. إياك تعمل كده تاني ..أحسن المرة الجا...

"وحشتيني"

صمتت حين وصلتها كلمته المليئة بشوقِه لها، لتنظر له للحظاتٍ وقد تسارعت ضربات قلبها تلقائيًا:

- ده مش هيغير رأيي ..اللي عملته ده جنان.

- وحشتيني أوي.

كررها بإصرارٍ.

فزفرت باستسلامٍ جالسة بجواره:
- وأنتَ كمان.
هز رأسه نافيًا:
- كدابة.
- نعم!!
قالتها بغضبٍ، ليردف:
- لو كنت وحشتك مكنتش عملتي فيا كده، علشان لما أقولك إني أنا اللي بحبك أكتر ..تبقي تصدقيني.
طالت نظراتها الصامته له وكذلك هو، دومًا يؤكد لها أن حبه أكبر من حبها، هو لا يعاني ما تعانيه ولا تصارعه الأفكار عن كل شيء وأي شيء كما تصارعها، لا وجه للمقارنة، عليه أن يفهم هذا.
- ممكن أسألك سؤال؟!
أومأ برأسه لتكمل:
- أنت بتبص لأمي إزاي؟ ...شايفها إيه؟!
أخفض بصره عنها، انتظرت إجابته فلم تأتيها، اشتعلت من داخلها مجددًا:
- هو السؤال صعب أوي كده؟!
منحها نظرة لم تستطع تفسيرها إلا أنه قال:
-لا مش صعب ...بس ماعتقدش إجابته هتريحك.
اتسعت عيناها وامتلأ صدرها ألمًا ارتسم على ملامحها، همت بالمغادرة فأمسك بها ليديرها نحوه:
-أنا لسه ماجاوبتش، مامتك ست عظيمة ..استحملت كتير علشان تربيكي وأصرت يكون بالحلال ...تعبت وشقيت لحد ما ربتك وكبرتك ولسه تعبانه علشانك كل ده جميل وأنا مصدقه وشايفه،.. وبعدين ...هو ده اللي هنسمعه، تفتكري هو ده اللي هنسمعه ...إحنا متأكدين إن مش ده اللي هيتقال... كل ده هيمسحوه من دماغهم ومش هيقولوا إلا كلمة واحدة... أقولها ولا عرفاها

تقدري تقوليلي ليه مصرة مايكونش ليكي أصحاب في مدرستك؟؟!! علشان ماحدش يعرف عنك وعن شغلة مامتك ..خايفة من لحظة ممكن يعايروكي بيها.
قاطعته دموعها التي تساقطت تباعًا على وجنتيها يصحبها نشيج مكتوم ..هز رأسه قائلًا بعصبية:
- أنا مش بقولك كده علشان تعيطي ...أنا بقولك كده علشان تكوني مستعدة .. إنتِ عارفه كويس أوي إنك هتسمعي أسوأ من كده بكتير ولازم تكوني مستعدة لكل ده مهما وجعوكي ...مامتك على راسي من فوق لكن هما لأ ...هما مش هيكونوا كده ...وأنا مش فدماغي إننا نسافر ونبعد ونسيب الناس ..ده مش من الحلول اللي في راسي ..أنا اللي فراسي ..إننا نواجه مع بعض كل ده ...كل كلمة ممكن تتقال وتجرحنا من مجتمع طبقي بيقسم كل حاجه حتى الكلام ده كلام بيئة وده كلام راقي.
نظرت له وقد امتلأت عيناها حزنًا كما قلبها:
- طيب وعلى إيه العذاب؟ماننهي أحلامنا من دلوقت ..ما نصحى بقى قبل ما حلمنا يبقى كابوس.
عقد حاجبيه قائلًا بعزم:
- حتى لو في لحظة اتحول لكابوس مادام هنفضل مع بعض يبقى مش مهم ... هنستحمل وهنعدي ..أنا عايزك تبقي أقوى بلاش الحساسية دي وبلاش تفهميني غلط بوسي إنتِ ما تعرفيش أنا بحبك قد إيه ..خليكِ معايا يا بوسي ... مهما حصل ...خليكِ معايا.
تعلقت عيناها بعينه، نقل لها عزيمته، تتمنى حقًا أن تكون واثقة مثله لكنها فقط لا تستطيع ..هي الطرف الأضعف، أيًا ما سيحدث مستقبلًا ستبقى هي وأمها الطرف الأضعف في ذلك الصراع القادم ربما هو لازال بعيدًا فما زال أمامها أربع سنوات في الجامعة، فلِمَ تشغل بالها من الآن؟؟ .. رسمت ابتسامةً بصعوبةٍ على شفاها وهي تجفف دموعها:
- وأنا معاك يا معاذ.

- دي أهم حاجه عندي بس تعالي هنا ...إيه كوباية النسكافيه الجامدة اللي عملتيهالي دي.
ليتها تملك بساطته ..لا تعلم أيهما على حق؟!
هي وقلقها من كل ما هو قادم؟!! أم هو وثقته بقدرتهِما على المثابرةِ والبقاء معًا؟!
شاركته محاولة الفرار من ذلك الجو القاتم:
- مش بعملها لحبيبي ..لازم تبقى جامدة.
أمسك كفها يجذبها نحوه:
- حبيبك ...أنا حبيبك.
سحبت كفها وقد اعتلاها توترها المعتاد:
- بس يا معاذ بقى ..لازم أمشي قبل ما أمي تدور عليا.
تركها تهرب من أمامه لتتسع بسمته أكثر وأكثر، دومًا تحب الهرب كما فعلت حين اعترف بمشاعره نحوها.
ما إن قال لها أنه يحبها حتى فرت هاربة من أمامه، فقبلها كان القرار صدر بالتوقف عن لقاءِها لكن كلاهما رفض القرار واستمرت لقاءاتهما في غفلةٍ من الجميع وإن قَلَت كثيرًا وأصبحت محدودة الوقت، ظل يبحث عن المكان الأنسب ليلتقيا دون أن يراهما أحد، بحث كثيرًا حتى عثُرَ على هذا المكان، الذي ما إن أخذها إليه حتى فرحت به كثيرًا وحينها سألته لمَ يصر على أن يلتقي بها فأجابها ببساطة ودون تفكير.
"بحبك"
يذكر جيدًا النظرة التي تألقت في عينيها، كانت سعادة مع دهشة مع خجل ليفوز الأخير وتتملكها حمرته وتفر من أمامه.
يشعر براحةٍ كبيرةٍ الآن، لقد أصلح الأمور معها وهذا يكفيه لا يُرِد أن يخسرها، سيحافظ عليها مادام في مقدوره ذلك، ستبقى بسمة معه وله.
انتبه أن الوقت مر دون شعورًا منه، تحرك ليغادر وما إن ترك مخبأه حتى اصطدم بأحدهم ليجد سامر أمامه:

- إيه يا سام؟ !!إنتَ ناوي تموتني بأزمةٍ قلبية !! بتخضني كتير ليه اليومين دول.
ضاقت عينا سامر ليزيحه جانبًا دافعًا الشجيرات لتظهر له مساحة صغيرة فارغة فالتفت قائلًا:
- بتقابلها هنا.
أشاح معاذ بوجهه بعيدًا دون رد فاعتدل سامر ليقف في مواجهته:
- بس المكان ده صغير أوي ...إنت واصل معاها لحد فين بالظبط وبتعملوا إيه هنا؟!!
انتفضت خلايا معاذ بجسده ليحدق في أخيه بعينين متسعتين:
- إنت بتقول إيه؟!!
- إيه؟ ...قلت حاجه غلط عايز تقنعني إن كل السنين دي والموضوع واقف بينكم عند الحب والرومانسية وخلاص.
جز معاذ أسنانه بشدة قائلًا:
- وإنت يعني كنت واصل لفين مع حبيبتك ...كنت بتقابلها في فنادق ولا إيه؟؟
لم يشعر سامر بنفسه وهو يتعلق بقميصِ أخيه ينهره:
- إنتَ اتجننت!!
- يبقى إنت كمان اتجننت.
حرره سامر ليضم قبضته بقوة محاولًا التماسك:
- إنت مش ناوي تجيبها البر.
عقد معاذ حاجبيه قائلًا:
- هو أنا مضايقك في إيه؟ ...أنا مش فاهم ماتسيبني في حالي أنا مشكلتي مع ماما مش معاك.
- ياه ...للدرجة دي ماليش قيمة عندك.
- إنت بتفسر الكلام بمزاجك أنا قصدي إن إنت المفروض تكون فاهمني ..يعني تساعدني مش تقف قصادي.
مط سامر شفتيه:

- ومين قالك إني هكون فاهمك أو هساعدك.
ضاقت عينا معاذ قائلًا:
-لأنك في يوم من الأيام كنت زيي ولا إنت ناوي إنتقامك من اللي حصل من أمنا يوصلي أنا كمان ...طيب هي وضيعت حبك أنا بقى عملت إيه؟! ولا تكونش شايف إن مش لازم إنت بس اللي تكون خسران ونا كمان لازم أخسر زيك.
تجهمت ملامح سامر يصاحبها صوتٌ يحمل نبرة حزن واضحة:
- افهم اللي تفهمه.!!
أنهى جملته ليلتفت فتعلق معاذ بذراعه راجيًا:
- سامر ...أرجوك سيبنا في حالنا دلوقتِ إحنا لسه بدري أوي علينا على ما نقدر نواجه ماما... علشان خاطري لو ليا خاطر عندك لو ليا أي قيمة عندك... سيبنا ولما يجي وقت المواجهة يبقى أقف في صفها زي ما تحب بس استنى لما نبقى أد مواجهتكم ...أرجوك.
ظل يرمقه بنظراتٍ جافة قبل أن يسحب ذراعه مبتعدًا تتبعه نداءات معاذ الراجية لكنه لم يُجِبها.
....
استلقت بسمة على فراشها بجوارها نانا يحدقان بالسقف لتسرد كل منهما للأخرى ما لديها، وفي جانبٍ قريب تجلس مها تلامس بأناملها صفحات كتاب مخصص للمكفوفين.
"يعني اتصالحتوا؟"
سألتها نانا فأومأت برأسها:
- أيوة ...بيقول إنه ماكنش قصده وإني فهمت غلط ..هو بيحترم أمي مش بيستعر منها زي ما أنا افتكرت .
- امممممممممم ...عموما يا بوسي أنا يهمني إن موضوعك مع معاذ ده يكمل ...الواد ده لقطة لوحده زيينا إوعي تسيبيه ده فرصة لينا كلنا نخرج من الفقر اللي إحنا فيه ده.
- نانا ..كفاية بقى إنتِ صديقة سوء.

صاحت بها مها لتعتدل نانا قاعدة وهي ترمق أختها بغضبٍ:
- نعم يا أختي... صديقة سوء.
التفتت مها ناحية صوتها لتضيف:
- أيوة طبعًا بوسي نصيحة مني أنا بقى إبعدي عن الولد ده ...لو عايزاه إبعدي عنه وإدعي ربنا يردهولك بالطريقة الصح.
أنهت جملتها لتحمل كتابها وتتركهما إلى خارج الغرفة، ظلت بسمة تحدق بالباب الذي أغلقته خلفها لتجذبها نانا للخلف وتستلقي بجوارها على الفراش قائلة:
- سيبك منها ...دي عندها عُقد الدنيا إحكيلي بقى قالك إيه علشان يصالحك.
تناست كلمات مها لتَعُد وتندمج مع نانا التي تريحها دومًا وتسمعها ما تريد كانت سعادة نانا بهذا الصلح ربما أكبر من سعادة بسمة نفسها.
مازال الأمل موجود، لازالت تلك النافذة أمامها وقد تُشرع في أي وقت وحينها لن تضيع تلك الفرصة قط .
....
جلس سامر أمام سما ينتظر ردها، كانت تراجع بعض الأوراق وتستمع له في نفس الوقت، العمل لها يعني كل شيء، ربما أكثر منه أو أخيه، صحيح أن هذا تغيير للحظة حين قلبت الأمور كلها على رأسِه لاعتراضها على الفتاة التي اختارها وظن أن هذا لحبها وحِرصها الشديد عليه لكن ما إن إنتهت القصة وقدمت له عروس لديهما مع والدها أعمالٌ كبيرة، فهم القصة كلها ...هي لم تهتمِ لأمرِه أبدًا ..القصة تتلخص في المصلحة وحبيبته ليس من ورائِها أي مصلحة وسعادته لا تحمل ذاك المدلول، فكان من الطبيعي إنهاء العلاقة.
قلبت سما الأوراق التي أمامها لتضعها جانبًا ورفعت رأسها لتنظر إلى محدثها قائلة:
- بس إيه سر التغيير المفاجيء ده؟ ..بعد ما كنت رافض سفره دلوقتي عايز تسفره.

-أنا بقول إن سفره مش فكره وحشه، كده كده إحنا اللي شايفين الشغل حاليًا .. خلاص ..نسفره أمريكا مع نرمين يكمل في جامعتها، وهو والد نرمين راجل معروف هناك يمكن يزود معارف معاذ وكله في مصلحة الشغل يعني دراسه ومصلحة.
أومأت سما برأسها باقتناع:
- عندك حق والمصلحة الأكبر بقى إنه يتجوز نرمين ...أبوها ساعتها مش هيأخر لنا طلب وهينفعنا أوي.
منحها ابتسامةٌ مصطنعة قائلًا:
- ماتفوتكيش فوتة يا سما هانم.
- ياريتك أنت كمان تعقل بقى وتوافق على فريدة...أمها لمحت أكتر من مرة بس أنا مش مجنونة علشان أديها وعد أنا نفسي ماضمنوش.
وقف سامر قائلًا:
- خليكي مركزة مع معاذ وسيبك مني.
امتلاء وجهها غضبًا وحنقًا:
- أنا مش فاهمة إنت هتفضل غبي كده لحد إمتى ماتفوق بقى ..الهانم إتجوزت وخلفت وإنت هتفضل قاعد كده.
اعتصر قبضتيه حتى ابيضتا ليلتفتَ مغادرًا دون تعليق ليلحقه صوتها:
- إنت فاكر إنك بتعاقبني ...إنت بتعاقب نفسك.
أغلق باب مكتبها بعنف حتى أن سكرتيرتها هبت منتفضة من كرسيها تحدق به بذهول، استمر في سيره حتى وصل لمكتبه ولم يجرؤ أحد على توجيه أي سؤال له فقد كانت نيران الغضب تتراقص على وجهه .
جلس خلف مكتبه والشرر يتطاير من عينيه، لطالما تجيد إغضابه وتعكير مزاجه، المرأة التي من المفترض أن تكون أحن القلوب عليه، نزع وبقوة لقب أمي من قاموسه بعد فعلتها معه، لم يعد يناديها إلا بسما هانم ...وحتى هذا لم يؤثر بها، لم تعلق أبدًا على ذلك وكأنه لا يعنيها أن يناديها باسمها لا بصفتها.

تنفس بعمق مرارًا ليهديء من غضبه وعصبيته التي تستعر داخل صدره، وكلماتها تتردد في عقله وليست كلماتها فقط بل كلمات أخرى، كانت الأكثر قسوة وإيلامًا له، كلمات سقطت في أذنه كحممٍ بركانيه تمنى ألف مرة لو استطاع إطفاء تأججها المستعر باستمرارٍ داخلّه.
صوت صراخها فيه لا يزال صداه يترددٍ في عقله لم يفقد قوته للحظة، دومًا يتذكره بكل تفاصيله ..بكل قسوته ..وبكل ألم سببه له.
"كفاية بقى كفاية ...أُمك مش سيبانا في حالنا حتى أخويا دمرتله حياته هي عايزة إيه؟ أُمي هتموت بحسرتها على أخويا واللي حصله بسبب أمك، أنا خلاص ..كرهتك ...كرهتك وكرهت اللحظة اللي حبيتك فيه ...ياريتني ما عرفتك يا أخي ...إبعد عن حياتي بقى سيبنا نعيش قبل والدتك المصونة ما تدفنا بالحياة ...انساني لأني هنساك ..هنساك وهمسحك من حياتي ..سيبني في حالي ...سيبني"
دفن أذنيه تحت كفيه يضغطهما بقوة، تنفسه فقط توازنه، ليته يسكت ذاك الصوت للأبد، ليته يُمحيه من ذاكرته فيتوقف هذا الوجع الذي يعود ويضرب قلبه بقوة، قلبه الذي من كثرةِ ألمه كرِهَ الحب وكل ما يتعلق به وسيحمي أخاه الوحيد منه، فالحب في قاموسِ سما لعنة وعليه أن ينقذ أخاه قبل أن يصل لما وصل هو إليه، على الأقل هو لا يزال يناديها بأمي.
....
وقف خارج مدرستها على مسافةٍ ليست بالقريبة كي لا ينتبه له أحد، كاد القلق أن يقتله.
لمَ تأخرت؟!
ولمَ لم تحاول أن تعرف النتيجة من على الإنترنت كما يفعل الجميع؟!!
نظر لساعته ربما كل دقيقتين وكأنه أصيب بزهايمر مفاجيء ينسيه كم الوقت، وأخيرًا ظهرت، سقط قلبه بين قدميه لرؤيته لها في حالة غير ما توقع، هي كانت تدرس جيدًا المفترض أن تنجح بل وبتقديرٍ عالٍ، لكن هذا الوجه المتجهم الحزين لا يدل على هذا قط.

كان إتفاقها معه أن ينتظرها في مخبأهما وستأتي لتخبره بالنتيجة لكنه لم يستطع الإنتظار فتلك النتائج جزء لا يتجزء من خططهما المستقبلية وهو لا يريدها أن تعطل أو تفشل.
تمالك نفسه ..فقط لـ 3 ثواني ثم اندفع نحوها غير مبالٍ بزميلاتها اللاتي بجوارها ليقول:
-عملتي إيه؟!!
اتسعت عيناها في ذهولٍ وهي تحدق به غير مصدقة أنه هنا بالفعل، ولم تكن هي فقط كذلك زميلاتها اللاتي حدقن به بدهشةٍ فلأول مرة يرين هذا الوجه أمام مدرستهن ناهيك عن حديثه لإحدى زميلاتهن التي من المفترض أنهن يعرفن أنها ليست من هذا النوع من الفتيات، فانتقلت نظراتهن لها في الحال وهي تحمل طن من الأسئلة ، فحاولت التماسك وهي تقول:
- أستاذ معاذ ..مانا كنت هتصل بحضرتك وأقولك عملت إيه؟!
ضغط على شفتيه فأعصابه لم تعد تحتمل فالتفتت لصديقاتها:
- طب سلام يا بنات ...ومبروك على النجاح ....سلام.
تركتهما لتسير لينطلق خلفها مكررًا سؤاله:
-عملتي إيه يا بوسي إخلصي؟
زفرت بضيق:
- أنتَ أكيد مجنون مش هترتاح إلا لما تجيبلي مصيبة.
جذبها من ذراعها متجهًا لسيارته حاولت التملص منه:
- معاذ إنت إتجننت زمايلي لسه شايفيني.
- قلتلي قبل كده زمايلك مايعرفوش عنك حاجه ...ولا حتى إنتِ ساكنه فين يعني مش هتفرق.
استجابت له في النهاية لتركب السيارة بهدوء وتتركه يقودها مبتعدًا، حتى توقف بها ليلتفت لها:
- عملتي إيه يا بوسي ...إرحميني.
ظلت على وجهها نفس الملامح المتجهمة، فزفر بنفاذ صبر:

- يعني أنا فهمت إيه من الوش ده؟... إنتِ كنتِ بتذاكري كويس مش ممكن تكوني سقطتي.
- نجحت.
قالتها برتابة فضاقت عيناه:
- طيب زعلانه ليه المجموع وحش؟
- جبت 94%.
اتسعت عيناه وهو يحدق بها ليطلق ضحكة فرح عالية:
- يخرب عقلك، إيه الهزار السخيف ده ...وعاملة زعلانه ليه بقى.
نظرت له بفتور لتقول:
- أنا مش بهزر، أنا فعلا زعلانه، أنا كنت عايزة أجيب أكتر من كده.
- يا سلام ومالك بتقوليها كده إنتِ بتحبي النكد بطريقة غريبة.
عقدت حاجبيها تنظر له بضيق:
- أكنك مش عارف إحنا حلمنا بإيه كده ممكن مادخلش إقتصاد وعلوم سياسية.
هز رأسه مبتسمًا:
-يا حبيبتي ولا يهمك مش لازم إقتصاد ...ممكن ألسن وتجارة إنجليش المهم إن وظيفتك محجوزة وانتِ وشطارتك بقى في الشغل وإنتِ ذكية وبتفهمي بسرعة ..يبقى نفرح بقى ونضحك في حد يبقى جايب 94 في المية ويقلبها نكد.
قالت بعناد:
- في واحدة جايبة أكتر مني وبتعيط علشان نفسها تدخل طب.
-طب إحنا مالنا ومالها، دي علمي ..إحنا أدبي أصلًا ...سيبك من كل ده هديتك عندي ...ومش مسموح الرفض .
دار بجزعه ليلتقط علبة أنيقة من على المقعد الخلفي، ويمد ذراعه بها أمام عينيها قائلًا:
- مبروك النجاح ياحبيبتي.

لم يمكنها أن تستمر في حزنها للحظةٍ أخرى، لترتسم ابتسامة سعادة على شفتيها وتلتقط العلبة وتحل عقدتها الحمراء التي تمنحها مظهرًا رائعًا، وما إن ألقت نظرة على محتوها حتى تجهم وجهها للحظةٍ ودارت لتعيد العلبة على المقعد الخلفي ليعقد حاجباه قائلًا:

- ده معناه إيه ده؟! انا قلتلك الرفض ممنوع.

- وأنا قلتلك فكرة الموبايل دي مرفوضة تمامًا ..وإنت عارف ليه.

- يابنتي ده مصر كلها شايلة موبايل ...أنا بيتهيألي إن إنتِ ومامتك بس اللي مش معاهم موبيل.

- ماما بتكرهه ..وكمان بتقول إحنا مش لازم نفتح علينا مصاريف تانيه وبعد مناقشة طويلة وافقت يكون معايا موبيل بس بعد ما أخلص دراستي وأساسًا الموبايل اللي أنت جايبه ده غالي جدًا ...يعني بالعربي كده بتقول لأمي يا حد جابهولي يا أنا سارقاه.

-هو يعني ماينفعش تخبيه ..ماتطلعهوش إلا وقت معين نحدده إحنا.

-لأ مينفعش ...ده هيفضحنا في أي لحظة اصبر يا معاذ لما أدخل الجامعة أنا هبقى أقنع ماما وأجيب واحد أو ابقى هاتلي إنت واحد بس أكيد مش زي ده ... حاجه في حدود إمكانياتي.

مط شفتيه في ضيق:

- ماحدش قالك إنك أكتر واحدة تفسدي اللحظات السعيدة:

ضحكت قائلة:

-أه ...أنت ...معاذ أنا جعانة.

ابتهل وجهه:

-إيه .. هنخرج مع بعض ..هناكل سوا.

-لا طبعًا ..أنا قصدي يالا بسرعة نزلني جنب أقرب محطة مترو ...عايزة أطمن أمي والبنات وأكل أحسن هموت من الجوع.

مزيد من الإحباط ارتسم على وجهه لينفذ لها طلبها المعتاد بألا يوصلها لمكان أقرب لمسكنها فقط عند محطة مترو وقبل أن تتركه:

-إمتى هتسمحيلي اعرف سكنك.
هزت رأسها قائلة بملل من تكرر الكلمات:
- تاني ...أصلًا عربيتك دي مش هتعرف تدخل بيها شوارع المنطقة ... مفيش داعي تتعب نفسك.
-إفرضي كنت محتاجك ضروري.
- ماهو علشان جنانك ده لا يمكن أعرفك أنا ساكنة فين لأني ممكن ألاقيك فوق دماغي وتبقى مصيبة.
- مصيبة... مصيبة.. مصيبة ...زهقتيني من الكلمة دي!! هشوفك إمتى؟!!
- يومين راحه كده وهتلاقيني في الفيلا ...هتوحشني لحد ما أشوفك ياحبيبي.
لوحت له مودعة ليتابعها بعينه وهز رأسه مبتسمًا.
....
وصلت أخيرًا لمنزلها تحملها نسمات سعادتها بما حققته إلى الآن، إنها تقترب ...تقترب أكثر وأكثر من الوصول لهدفها، نتائج تلك المرحلة تُهيئها أكثر للمرحلةِ القادمة والأخيرة قبل أن تلتحق بالعمل مع معاذ وحينها لن يتبقى غير خطوةٌ واحدة، التقرب من سما هانم وإذا حققت هذا لن يكون وجودها مع معاذ مجرد حلم تعيشه بل سيكون واقع تحياه بكل تفاصيله.
صعدت درجات السلم بلهفة لتوصل أخبارها السعيدة لعائلتها وما إن وصلت لنهايته حتى صاحت:
- يا صحابي يا أهلي يا جيراني ...انا نجاااااااحت.
كانت أول الواصلات لها نانا التي ضمتها لصدرها مهنئة وإن شعرت بأن تهنئتها مبتورة بشكلٍ ما وكذلك سمعت صوت مها تهنئها من مكانها أمام غرفتهما، فرمقتهما قليلًا:
- مالكم ...مش تسألوني جبت كام طيب؟!
- جيبتي كام؟!!
قالتها أمها من الجانب الآخر فالتفتت لها لتقترب منها وتضمها لصدرها:
- جبت 94 يا ماما ...ماعرفش ده هيدخلني اللي بحلم بيه ولا لأ ...دعواتك.

ظهرت بسمة حسرة على شفتيْ أمها أصابتها بدهشةٍ لتردد:
- بتحلمي بيه،... بتحلمي بيه إنتِ ومين؟!!
عقدت حاجبيها وهي صامته لتلتفت لجارتيها وكأنها تبحث عن تفسيرٍ لحالة أمها بل وحالتهما أيضًا، وعندما عادت ببصرها لأمها تفاجأت بلطمةٍ نزلت على خدها أطاحت برأسها لتلقي بها أرضًا من المفاجأة.

الفصل الخامس

أنا قلبي كان شخشيخة أصبح جرس
جلجلت به صحيوا الخدم والحرس
أنا المهرج ..قمتوا ليه خفتوا ليه
لا ف ايدي سيف ولا تحت مني فرس
وعجبي!!
رباعيات جاهين

القهر ...الذل ...الأهانة.
هذا ما شعرت به أمها بكل تأكيد، وها هي ابنتها تُهديها نفس المشاعر.
لم تصدق حقًا أن نبوءة أمها ستتحقق.
لطالما تسألت هل ما فعلت واختارت كان الصواب أم الخطأ؟
هل زواجها به كان العمل الصالح في حياتها أم العمل الطالح؟
والان تشعر أنه ما كان يجب أن تقبل، تلك المشاعر التي تملأ صدرها تخبرها ببساطة أن أمها تألمت وتعذبت وأدمت كرامتها والسبب حبها الشاب الغض الذي تمسكت به كما تمسك بها، حينها أكدت لها أمها ألا تأمل الكثير، أنه لن يتحمل حياة الشقاء وسرعان ما سيتركها وستستمر هي فقط بالخسارة.
لكن قدره لم يمهله ليختار، فلقد سبق عليه القلم ورحل.
اعتصرت بقبضتيها المرتكنة على ركبتيها ملابسها بقوة، تخرج فيهما كل غضب يستعر داخلها لكنها لم تنجح ولم تمنحها ابنتها الوقت، فلقد وصل لها صوتها السعيد المبهج بخبر نجاحها.
الخائنة؛ تتصرف وكأن أمها عمياء لا ترى، تستخف بها وترافق شاب لن يكون لها يومًا وهي لن تكرر خطأ الماضي، لن تسمح لها بهذا.
غادرت غرفتها محاوله التماسك أكثر وأكثر وابنتها تحتضنها معلنة نجاحها وقرب تحقيق حلمها، لتسألها بهدوء تدعيه:

- بتحلمي بيه ...بتحلمي بيه أنتِ ومين؟!!
ولم تستطع أن تتماسك أكثر .
صفعة أهدتها لخد ابنتها حملت غضب الماضي والحاضر، قهر عاشته سنوات وها هي ستعيشه مجددًا، لترتطم بسمة بالأرض وترفع رأسها تحدق بأمها بذهول.
لتسرع إليها نانا:
- ليه كده يا أبلة بطة؟.
وقبل أن تستوعب بسمة ما حدث داهمتها ألام رهيبة برأسها نتيجة جذب فاطمة بقوة من ناصيتها متعلقة بشعر رأسها وهي تصيح:
-بعد تعب السنين ده كله يا بنت بطني تعملي فيا كده بتستغفليني ...أنا اسمع كلام زي السم بسببك ماشيالي مع البيه الصغير ...كم مرة كدبتي عليا علشان تقابليه كام مرة ...وكنتي بتقابليه فين ...كم مرة طلعتيله أوضته وووصلتي معاه لحد فيييييين ...يا خسارة تربيتي...يا خسااارة.
كانت صرخات بسمة تتخلل كلمات أمها فلم تكن مسموعة بشكل واضح لها وكذلك نداءات نانا ومها في محاولة لتخليص بسمة من براثن أصابع فاطمة التي تعلقت بشعرها وكأنها جزء منها، فاستفذا جهد أكبر حتى تمكنت نانا من فك ذلك الاشتباك القائم بينهما، لتجذب بسمة بعيدًا فاصطدمت فاطمة بمها فسقطت الأخيرة أرضًا لتتعلق بأقدام فاطمة راجيه منها التوقف.
دفعت نانا بسمة لغرفتهما لتنكفيء بسمة أرضًا وهي تبكي قهرًا ولم تشعر بأظافرها التي تنحت في الأرض حتى أدمتها.
وعقلها يتسائل، كيف عرفت أمها؟!!
وهل معاذ الآن يتعرض لنفس الهجوم الضاري؟!!

....
اتسعت عينا معاذ وكلمات أخوه تصب في أذنيه صبا، للحظة تصور أنه يمزح، لكن الجدية التي يتحدث بها منحته شعورًا آخر، إنه حقًا يعني ما يقول، لتصل إلى أذنيه آخر كلماته:

- السفر نهاية الاسبوع ده يعني بعد أربعة أيام ... وأنت مش محتاج غير إنك تجهز شنطتك.
ارتجفت شفتاه وهو يقول:
- أنت ..أنت بتتكلم جد.
ضحك ساخرًا:
-كل اللي قلته ده وفي الآخر تسأل السؤال ده؟ !أنا هقف اهزر معاك عن مستقبلك يا معاذ.
نهض معاذ عن كرسيه وقد تملكه الغضب وانتشرت حمرته على وجهه:
- مستقبلي !!هو فعلا مستقبلي؟ !ولما هو مستقبلي بتحدده أنت وترسمه مع نفسك ليه؟ أنا فين؟ اللي أنا عايزه فين؟؟
مط سامر شفتيه مرددا:
- اللي أنت عايزه هو اللي احنا عايزنه إن مستقبلك يكون احسن.
ضاقت عينا معاذ بتحد واضح:
- مش هسافر.
رفع سامر إحدى حاجبيه قائلًا:
- أنا عندي اللي لو قلته لسما هانم أنت مش بس هتسافر ..أنت هتسافر وحبيبة القلب وأمها هيختفوا!!
صدمة ارتسمت على ملامحه وبدت في صوته:
-بتهددني يا سامر.
-وليه ماتقولش إني بساعدك.
-بتساعدني؟!
قالها ساخرًا ومندهشًا، فأردف سامر:
- اعتبرها فترة دراسة إجباريه ...هي تركز في دارستها وأنت كمان وترجع بعد سنتين ..تلاتة تكون هي كمان قربت تخلص وتكملوا بقى في مخططكم الجهنمي اللي انتوا راسمينه وتجيبها الشركة تشتغل معاك وممكن تخليها

سكرتيرتك ..يعني مش هتفارقك طول أيام الشغل وغيرها لو عايز مش فكرة حلوة.
تسارعت أنفاس معاذ وشعور بالعجز يجتاح كل أوصاله، حتى تصور أنه ربما سيعجز عن أخذ تلك النفحات من الهواء.
دار سامر على عقبيه لينهي الحوار بجملة واحدة:
- السفر في نهاية الاسبوع يا معاذ رتب نفسك على كده.
وغادر غرفة أخيه تاركًا إياه بعينين زائغتين وقلة حيلة، ليغلق بابها عليه هامسًا:
- أنا بعمل كده علشانك ياريت يجي يوم وتفهم.
ومن الجانب الأخر للباب تحرك معاذ لشرفة غرفته لتتجه عيناه إلى البقعة الخاصة التي شهدت لحظات حبه وهو ينمو، سيبتعد عن هذا المكان طوال تلك المدة لن يراها طوال تلك السنوات، حرك رأسه نفيًا ، معترضًا، مستهجنًا، ليهمس بحروف اسمها ويرددها بلا كلل.
-بوسي ...بوسي ...لازم اشوفك.

....
جلست ضامة ركبتيها إلى صدرها وقد استندت بظهرها على أحد أركان الغرفة الصغيرة لازالت دموعها تغرق وجنتيها واحمرار عينيها ينبأ بطول فترة البكاء، تجاورها نانا وقد هدأت العاصفة أخيرًا، لتنضم لهما مها باكية:
-أبلة بطة مش عايزة تكلمني ولا ترد عليا ماقلتش غير جملة واحدة ...حتى أنتِ يا مها.
-مها احنا مش ناقصينك.
قالتها أختها بعصبية، لتصيح بها:
- أنتِ السبب ...عمرك ما قتلي حاجه كويسة دايما كنتي بتوديها للسكة الغلط.
هبت نانا من مكانها واقفة وقبل أن تصب غضبها على أختها جاءهم صوت بسمة الباكي:
-هو إيه اللي حصل؟ مين قالها؟؟ ...عرفت منين؟!!

التفتت لها نانا لتعود جالسة بجوارها:
-مش عارفه عرفت منين !!بس هي كانت متأكدة ماكنتش بتسألنا علشان تتأكد ..كانت بس عايزة تعرف إحنا كنا عارفين ولا لأ وطبعا الخايبة مها ماتوصتش اتلجلجت وتهتهت وفضحتنا صرخت في وشنا وقالت انها هتربينا كلنا من أول وجديد وفضلت قاعدة مستنياكي.
لم تضف أيهن شيء ولم يبقى غير صوت بكاء مها وبسمة.
....
"هيجي يوم وبنتك هتعمل اللي عملتيه فيا يا فاطمة"
كلمات احتفظت بها بذاكرتها طوال سنوات عمرها، كانت تخشى أن تتحقق تلك النبوءة التي سمعتها من أمها، تصورت أنها ستحمي ابنتها بشكل جيد، أنها تحت سيطرتها بالفعل .إلى أن سمعت ما لم تتصور أن تسمعه يومًا، حين ذهبت لعملها كالمعتاد، ليأتي طلب بقدح من القهوة ولتحضره فاطمة، هكذا طلب السيد سامر ..ولم يكن أمر غير اعتيادي فأحيانا يطلب من يحضر قهوته بالاسم، ربما اسم فاطمة كان أقلهم لكنها فعلت وذهبت بما طلب السيد سامر الذي طلب منها إغلاق الباب خلفها لأنه يود محادثتها بشأنٍ ما .تسارعت دقات قلبها بالفعل فهذا يحدث للمرة الاولى وهي دومًا تتجنب التعامل المباشر مع أصحاب القصر. تسمرت مكانها للحظة بينما رمقها سامر قبل أن يفتح شفتيه أخيرًا ويصب على رأسها دلوًا من الماء البارد بجملة واحدة.
"بنتك على علاقة بمعاذ"
تجمد قلبها للحظة، عدلت من وضعية رأسها وكأنها تمنح لأذنها مساحة أكبر لتستمع لما يقول:
"حضرتك قلت إيه؟"
أجابها بنفس الهدوء البارد:
"هتعملي اللي هقولك عليه بالظبط مش عايز أكتر من كده وكل حاجه هتخلص آخر الاسبوع ..طبعا عارفة إن علاقة زي دي مش ممكن تنجح وكمان رد فعل سما هانم لو عرفت مش هيكون ظريف أبدًا"

وكأنها لم تسمع ما قاله لتردد:
"سامر بيه حضرتك غلطان ...مش ممكن بنتي تكون"
"فاطمة"
انتفض جسدها وارتعشت أصابعها، فلم يكن نداء عاديًا وإنما صرخة غضب صاحبتها ضربة بيده على سطح مكتبه مضيفًا بنفس النبرة الغاضبة:
"أنا مش باخد رأيك أنا عارف أنا بقول إيه وجايبك هنا علشان ننهي المهزلة دي ...هتسمعي اللي هقولك عليه بالحرف الواحد وتنفذيه زي ما طلبت بالظبط لا تزودي من عندك ولا تنقصي ...فاهمة يا فاطمة؟"
"فاهمة يا فاطمة؟ ...فاهمة يا فاطمة؟"
كم مرة سمعت تلك العبارة السخيفة، ودوما يسبقها أو يليها العديد من الامور والاهانات لها ولكونها فاطمة، مجرد فتاة كانت أمها تمتهن العمل في البيوت الفارهة، فأصبحت هي الآخرى لا تتقن غير ذلك لكنها لم ترد لابنتها نفس المصير، همها الوحيد أن تعلمها، تمنحها ما لم يمنحها أحد إياه، أن تكون هي الآمرة في وقت من الأوقات لا فقط من تتلقى الأوامر، أن تملك زمام أمرها لكن تلك الغبية بدل من أن تهتم بتعليمها فحسب فعلت ما فعلته هي في الماضي،هل حقًا الماضي يعيد نفسه؟!!
لكنها لم تفعل أي شيء خطأ، لم تتجاوب معه، حتى أنه جاء خلفها سعيًا للزواج بها، فهل هذا ما سيحدث لابنتها أيضًا؟؟.
هزت رأسها بعنف:
-لأ ...بنتي كمان لأ كفاية اللي حصلي أنا كفاية.

....
دار ببصره في المكان يتأمل كل شبرًا فيه، ذاك الحيز الصغير الذي شهد لحظات حبه معها.
تخيُل أنه سيبتعد عن هذا المكان لسنوات أمر غير قابل للتصديق، بل هو المستحيل بعينه وبما أننا في عصر المستحيلات فسفره قادم لا محاله.

لكن، دون رؤيتها لا لن يتحمل هذا، لن يخطو بقدمه من تلك البلاد قبل أن يراها، وإذا أصر أخوه فليحضرها له أولًا ..أليس هو السبب من البداية في كل تلك المهاترات التي يعيشها الآن؟؟!!

"منك لله يا سامر"

الجملة التي يهمس بها كلما شعر بالعجز وعدم القدرة على التصرف.

عنوان لا يعرفه وحبيبة سرية لا يعلم عنها أحد شيئًا، كيف الوصول إليها إذن.

الجنون سيحتل عقله لا محالة، إختفاؤها غير المبرر سيقتله كمدًا، يعيد تذكر كل شيء حدث لكن لا غريب في الأمر.

لقد افترقا على أن تعد له بعد يومين، مر اليومان، بل أربعة ولم تظهر.

ما الذي يعنيه هذا؟ أمريضة هي؟ أم هناك مشكلة لا يعلم شيء عنها؟!

فرك رأسه بعصبية واضحة وهو يزفر نارًا من صدره، آخر ما توصل له هو دخوله للمطبخ ليعلن أمر سفره، أمها كانت هناك، ربما توصل لها الخبر من باب الثرثرة لا أكثر.

ومنذ تلك اللحظة وهو يتضرع ويدعو ويرجو أن تأتي، لم يعد هناك وقت، سيلقون به في تلك الطائرة مساء اليوم، هذا النهار فرصته الأخيرة وبدلًا من أن يصل لها بنفسه عليه فقط المكوث هنا كطفل لا يجيد الحركة أو البحث، كل هذا بسبب عندها الأحمق بألا يعرف مكان سكنها ليته فكر في تتبعها دون علمها، ليته ضربها حتى يجبرها على الاحتفاظ بالهاتف المحمول، ليته أصر على وجود أي صله بها حين يحتاجها لا أن يبقى هكذا خائب الرجا.

انتفض قلبه داخل ضلوعه مع وصول ذلك الصوت المميز للشجيرات المحيطة به، أحدهم يحركها ليعبر إليه، ستكون هي، يجب أن تكون هي.

ظهر وجهها أمامه، لتدفع جسدها وتجلس بجواره وهي تحدق به، أغلق عينيه ليفتحهما مجددًا، يريد التأكد من أنه لا يحلم.

ليأتيه صوتها حزينًا باهتًا:

- أنت هتسافر فعلًا؟!!

شهيقًا عميقًا يخترق صدره وكأنه كان تحت الماء لفترة وفي اللحظة التالية كان يحتجزها بين ذراعيه، متعلقًا بها بقوة، ملصقًا رأسها بكتفه، وقد اختفا كفيه بين خصلات شعرها وهو يضمها له أكثر وأكثر.
شلتها المفاجأة للحظة، لم يحدث أن ضمها إليه هكذا من قبل، حاولت التملص من بين ذراعيه اللتان كانتا ككبلاتان من فولاذ...
- معاذ بتعمل إيه؟ ...سبني!!
زفر بحرارة راجيًا:
- لحظة ...لحظة واحدة.
لم تقاوم أكثر، استكانت بين ذراعيه وقد استقر كفها على صدره ولأول مرة أيضًا تشعر بضربات قلبه القوية المتسارعة وكأنه يخوض سباق كاد أن يبلغ نهايته.
أغلقت عيناها ولم تمنع نفسها من تحرير دموعها التي صاحبتها كثيرًا الايام الماضية .
فليكن، ستتركه يضمها ...هي تعلم أنها المرة الأولى والأخيرة، سمحت لنفسها أن تتعلق بقميصه بقبضتيها كي لا يسرع ويحررها ومن قلبها طلبت المغفرة وسخرت من حالها.
لكن هكذا البشر، طماعون، يتمنون فعل ما يريدون ومعه الصفح على ما يرتكبون.
تسربت لأذانها همساته:
- اتأخرتي كده ليه؟ كنت هتجنن.
غصة حارقة في حلقها قاومتها باستماته، حررها أخيرًا لينظر إليها، مد أنامله يلتقط دمعاتها وبسمة حزينة على شفتيه:
-ماتعيطيش خلاص ...المهم إنك هنا إني شايفك ...الحمدلله ..الحمدلله إنك جيتي.
أطرقت رأسها تزيح دمعاتها عن خدها، لتبدأ تمثيل دورها السخيف الذي أُمرت بأداءه:

-هتسافر ليه؟!!

سألته برغم أنها تعلم وهو لا يعلم!!

يبعدونه عنها، كي ينقطع الاتصال بشكل أفضل ودائم ..لهذه الدرجة وجودها معه مقلق !!ألم يكن كافيًا أن يطردوها وأمها؟ لمَ يرسلونه بعيدًا؟ يذهب لبلد آخر فقط ليبتعد عنها أم أن الأمر يشمل مزايا أخرى لا تعلمها بعد؟.

دون دراية بأفكارها أجاب:

- مستقبلي ...فجأة بقى مستقبلي محتاج السفر والدراسة في أمريكا.

كتمت بسمة ساخرة عن شفتيها لكنها ارتسمت بيسر على روحها، لتسبح فوق عينيها دون أن ينتبه لها.

مستقبله؛ بالتأكيد ...أصبح مستقبله في خطر بسببها وعليهم انقاذ ما يمكن انقاذه.

زفرت بيأس واضح:

- مادام حاجه مفيدة يبقى كويس.

هز رأسه بعدم اقتناع، ليخرج هاتفه من جيبه ويضعه في يديها حدقت به للحظات ليمنحها الإجابة قبل السؤال:

-خلي تليفوني معاكِ أنا شيلت الخط بتاعي وحاطط فيه خط جديد مسجل فيه رقمي بس ...أول ما أوصل هشتري تليفون من هناك وهكلمك.

كتمت آهة أرادت أن تصرخ بها، فليذهبوا جميعًا إلى الجحيم، ستخبره بكل شيء، لمَ عليها تحمل الامر بمفردها؟ !ألم يتعاهدا على عدم الفراق ومحاربة كل شيء سويًا؟ لمَ أصبحت فجأة وحدها تقاتل؟ بل لا تقدر حتى أن تقاتل هي فقط استسلمت ومن أول جولة.

ومن ستقاتل من الأساس، هي لم ترَ غير أمها، لم تواجه إلا أمها، فهل من المفترض الآن أن تحاربها؟ لم تفكر يومًا أن أمها ستكون في الجبهة المضادة، تصورت أنها ستدعمها إذا ما حدثها معاذ بنفسه كما كان مخطط بينهما.

لكنهم، أيًا كانوا وضعوا أمها على الخطوط الأمامية ولم يسمحوا حتى لأنفسهم بالوقوف في الخلف ...سما ...سامر ...أم من؟

حتى الآن لم تعرف كيف عرفت أمها ومن هو خلف كل ما يحدث؟
ظلت ترمق هاتفه بصمت وهي تقاتل لتمنع عبراتها من الهروب ثانية ليأتيها صوته حازمًا:
-بوسي ماتفكريش إنك تقولي لأ ...مافيش طريقة تانية أقدر أوصلك بيها أنا هكون في بلد تانية لو ماعرفتش اسمع صوتك هيجرالي حاجه ...ولا أنتِ مش فارق معاكِ.
رفعت بصرها نحوه ترمقه بعتاب، تمنت أن تخبره أن وجعه لا يضاهي وجعها، هي تعلم أن تلك اللحظات هي الأخيرة وهو يعتقد أنه سيصل لها بكل يسر.
وأكثر ما يؤلمها هي الاتهامات التي ربما ستملأ عقله حين تختفي فجأة من حياته، ربما سيظن أنها لم تحبه يومًا أو أنها عثرت على شخص آخر فتركته وكأنه مجرد نزوة عابرة في حياتها.
الآلام تحاوط قلبها، تعتصره عصرًا، وما بيدها حيلة، أي ظلمٍ هذا الذي تتعرض له لمجرد أنها حلمت حلمًا جميلًا، أجمل من أن يتحقق وكما توقعت انتهى على أسوأ كوابيسها لكنه انتهى أسرع مما توقعت بكثير.
أغلق أصابعها على الهاتف:
- خليه قريب منك وأنا عاملُه صامت لازم تردي عليا يا بوسي ...لازم.
أومات إيماءة لا حياة فيها، تدس الهاتف في حقيبتها الصغيرة، تتأمل ملامح وجهه للحظات قبل أن تقول:
-لو مارديتش علطول ما تقلقش اديني وقت.
أومأ برأسه متفهمًا لتضيف:
- أنت هتعيش لوحدك؟!
سؤال بسيط حمل له قلقها عليه ليبتسم:
-هفضل في بيت عمي جلال شوية.
عقدت حاجبيها فلم تكن على علم بوجود عم له في أمريكا، لتتساءل:
-عمك؟!!
هز رأسه نفيًا:

- مش عمي اخو بابا- الله يرحمه - ده صديق العيلة وبينا وبينه شغل كمان ... عمي جلال أبو نرمين.
قال الجملة الاخيرة لإيضاح أكثر، إيضاح لم تتمنى أن تسمعه وبدا هذا جليًا على وجهها الذي ارتسم عليه المزيد من الحزن والضيق، وقرأ هذا سريعًا ليقول:
- أنا مش هفضل معاهم انا هحجز مكان في سكن الطلبة حتى لو هما أصروا برضو همشي.
لتتسع بسمته مؤكدًا:
- ماتقلقيش.
لم تستطع إلا أن ترتسم ملامح أكثر راحة على وجهها .
حبيبها يعرف جيدًا ما يقلقها.
حبيبها يفكر فيها وكيف ستكون حياته هناك بما يريحها هي لا هو .
حبيبها سيفارقها لا محالة ولن تستطيع حتى أن تقول وداعًا.
لقد اختاروا له نرمين، هذا منطقيًا؛ هي الأنسب والأفضل والأجمل والأكثر ثراءًا، لا مقارنة بينها وبين تلك النرمين غريمتها التقليدية حسب ما سمعت أثناء عملها بالمطبخ.
"دي أمورة أوي ...سمعت سما هانم بتقول إنها عروسة معاذ مستقبلًا"
خطوبة لم تعلن، فقط كلمات هنا وهناك وصلت لاذان معاذ وأذانها، حينها أسرع إليها يطمئنها.
"ماتشغليش بالك ...مامي عايزة تجوزني تبع المصلحة وأنا مش هتجوز غيييرك هي مش هتجوزني غصب عني"!!
ستفعل !!أمه ترتب لهذا وقد بدأت في التنفيذ بالفعل .سترسله ليكون بجوارها، بقربها وتلك الفتاة المتحررة التي عاشت نصف حياتها في بلد لا تحمل أي قيود على الفتيات قد تفعل الأفاعيل في سبيل الوصول إليه، هي تريده، قرأت هذا كثيرًا في نظراتها له وبعد أن تختفي من حياته ستكون الامور أيسر.
وسيتقنع ويتزوج بها.
النهاية!!

هكذا وضعتها له ...لكن كيف ستكون النهاية لها هي؟!!
خرجت من أفكارها على لمسات أنامله لمقدمة شعرها نزولًا إلى نهايته التي تكاد تقارب الأرض أثناء جلوسها.
عقد حاجبيه مصطنع الغضب:
-حاولي تلمي شعرك ده ...ملفت للعين صدقيني.
رفع بعضًا من خصلاته في يديه قائلًا بلهجة يشوبها الكثير من الحب والشوق:
- بيحرك قلبي معاه ومش عايزه يحرك قلوب غيري.
خفق قلبها لكلماته، خفقات كانت تتراقص من الفرح أما الأن فهي تتأرجح من الألم!!
ادعت التعجل وهي تستعيد خصلات شعرها من بين أصابعه:
- لازم أروح.
أمسك كفها بقوة، نظرت له.
لم يقل شيئًا فقط يضغط على كفها بأصابعه، لا يريدها أن تذهب بينما عقله يحدثه بأنه هو من سيرحل !سيبتعد عنها ألاف الأميال !!بعد أن كان يراها بشكل شبه يومي، سيحرم منها لشهور، يجب أن يجد أي حجة ليعود إلى هنا في أجازاته ويراها.
كم يتمنى أن يرفض كل هذا السخف لكنه يخشى أن يتحول تهديد سامر غير المفهوم سببه إلى حقيقة .هو حائر فعلًا من تصرفات أخيه ولم يكن يتصور أن يكون هو من يبعده عن حبيبته، عليه الصبر فحسب، هذا أفضل من أن يخسرها تمامًا ...سيعود لها بكل تأكيد.
- استنيني ...هرجعلك.
لم تنجح في استمرار المقاومة، حررت عبراتها لتتهادى على وجنتيها بسخاء ...فتوردتا ليس خجلًا بل ألمًا، ألمًا ضاري في أعماقها لا يمكنها حتى أن تودعه كما يجب، المفترض أنه سيعود ليجدها هنا بانتظاره وعليها اقناعه بهذا أيضًا.
أومأت برأسها:

- ربنا يوفقك.
محاولة أخرى للفرار كي لا تلقي بنفسها بين ذراعيه معترفة بكل شيء، تخبره عن المؤامرة التي تساعد في تنفذيها بمهارة لتخسره إلى الأبد، إلا أن الثمن حينها ستدفعه أمها وهي لا تستطيع أن تفعل بها هذا.
سحبت يدها لتغادر فمنعها مرة أخرى:
- استني أنتِ مستعجلة كده ليه أنا مش عارف هشوفك تاني امتى.
لم تجِبه فلم يعد لديها ما تقوله، هي فقط تدخر كل قواها للصمت وعدم فضح الأمر.
وهو أيضًا لم يضف شيء، فقط نظرات متبادلة وكأنه اتفاق مشترك لكي يحفظ ملامح أحدهما الأخر عن ظهر قلب.
طالت رمقاته لها، يتأكد من لون عينيها ...اتساعهما ...جمالهما.
أنفها الدقيق المستقيم.
شفاهها التي بهما حمرة طبيعية، تجعله يشتهيها ولكنها ظلت كالفاكهة المحرمة ولم تسمح له أبدًا بلمسها.
شعر أسود طويل كشلال ليل يتدفق من وجه القمر.
انتهى من درس ملامحها لتتسع بسمته التي هي أبعد ما يكون عن السعادة ويدير خده لها:
- يالا ... البوكس بتاع كل مرة هو كمان هيوحشني.
ضمت قبضتها فأغلق عينيه لتلقيها.
كانت دومًا قبضتها قوية ومؤلمة لكن هذه المرة لم تكن كذلك!!
بل شعر بلكمة رطبة ....رقيقة!!
فتح عينيه ليعي ما حدث ليجدها تتراجع برأسها.
قبلة!!
منحته قبلة ...بدلًا من لكمة!!
رفع أنامله يتحسس خده الرطب بدمعاتها التي كانت تغرق وجهها.
يتأكد !!إنها السابقة الأولى، لذا هو يتأكد!!

وقبل أن يدير بصره لها كانت غادرت، فرت كعادتها.
ضحكة قصيرة غادرت شفتيه ولازلت أنامله تتبع أثر قبلتها الخاطفة.
الحمقاء ...لماذا فرت؟ كان ليضمها إلى صدره قليلًا.
ما كان ليفعل أي شيء آخر أو ربما كان ليفعل!!
- أنانية يا بوسي ...أنانية.
فعلت ما تريد ولم تسمح له بالمزيد!!

....

لا تعلم كيف لم تخونها خطواتها وهي في طريق عودتها وأين هربت عبراتها التي تصورت أنها ستشوش رؤيتها طوال الطريق.
هل هي بخير حقًا؟!!
هي لا تشعر بأي شيء ...لا ألم ....لا وجع ...لا راحه.
فقط فراغ كبير بداخلها يتسع تدريجيًا، لا تعلم إلى أين سيصل؟.
وكما توقعت لدى وصولها، أمها تجلس في مكانها على أريكة مهترئة تستقر بجوار باب غرفتيهما وما إن رأت ابنتها حتى وقفت تراقبها بصمت حزين.
أمها حزينة؟ علامَ بالضبط؟!!
لا يهم، هل سيختلف شيء إذا عرفت؟؟ ...لقد نفذت دورها ببراعها، سيكافئونها بالتأكيد.
تسخر من نفسها وحالها، حتى وصلت لأمها بدون أي نظرات متبادلة دست يدها بحقيبتها الصغيرة لتخرج هاتفه، حلقة الوصل الوحيدة والتي أكدت أمها عليها أن تخبرها عنها.
رفعت الهاتف لعيني أمها ثم مدت يدها به لتلتقطه منها بصمت مستمر.
مرت ثواني أو ربما أكثر لتنهي الابنة حالة السكون:
- ممكن أنام عند نانا ومها.
وكأنها ستبتعد أو ستهرب، هي فقط ستسير عشر خطوات لتصل لهما.
اكتفت الأم بإيماءة برأسها لتدور هي باتجاه غرفة الفتاتان.

ولم تلاحظ الدمعة التي ظهرت أخيرًا لتخرج حالة أمها من صمت الشفاه إلى كلام العيون.

نهضت نانا من مكانها فور رؤيتها لبسمة التي حملت وجه شاحب، حزين، لم تقترب منها .هي لم تجرؤ حتى، بسمة تتألم وبشدة، هي تعلم أنها تحب هذا الفتى بحق، كان طموحًا لكلتاهما لكن بسمة أحبته حقًا.
ظلت بسمة مكانها بدون حراك لتقطع مها الهدوء المتوتر هذا:
- بوسي ...أنتِ كويسة.
سؤال أحمق، هكذا فكرت نانا، بالتأكيد هي ليست بخير وكانت اللحظة التالية هي المعبرة عن هذا بصدق.
فتحت بسمة شفتيها مرددة بصوت بدأ همسًا وانتهى عويلًا وبكاءًا:
- خلاص ...خلاص ...معاذ سافر ...مش هشوفه تاني ...سافر ...ساااافر.
انهارت على ركبتيها وهي تدفن وجهها بين كفيها لتسرع لها الفتاتان ووصلت نانا أولًا لتضمها إلى صدرها لتلحق بها مها وهي تربت على كتف صديقتها:
- اهدي يا بوسي ...اهدي.
رددتها الأولى لتضيف الثانية:
- استهدي بالله واللي ربنا كاتبُه هيكون.
لكن بدى أنها لم تسمع منهما شيء، استمر صراخها الباكي:
- حلم عمري رااااح ....حلم عمري رااح.
ضمتها نانا أكثر وبدأت الرغبة في البكاء تعتريها فبكاء بسمة كان مؤلم:
- بس يا بوسي صوتك عالي.
قاومتها غاضبة:
- إيه يعني ...كمان مش عايزيني اعيط مش عايزيني أحزن على اللي خسرته.
وضعت كفها على قلبها، الالم الذي كانت تنتظره وصل لها أخيرًا، شوكة .. شوكة تمر ببطء شديد في قلبها لتعبر للنهاية الأخرى وما هي إلا ثواني وتعيد الكرة.

تكررت شهقاتها وصياحها الذي بدا مكتومًا وهي تدفن وجهها بكتف نانا التي شاركتها البكاء لتنضم لهما مها، فصوت بكاء بسمة، كلماتها، جعلتها تشفق عليها ولم تستطع إلا أن تشاركها بكاءها.

استقرت فاطمة على اريكتها المهترءة، آلام ابنتها تصلها عبر نشيجها الصاخب والذي صار مكتومًا بعد دقائق.

رفعت كفها تمسح دموعها .لن تضعف !!وعلى ابنتها أن تصبح أقوى.

ستتألم لأيام أو أسابيع أو ربما شهور لكنها في النهاية ستنسى!!

ستتعلم أن تنسى!!

وستكمل حياتها، ستلتقي بشخص آخر وتتزوج وتنجب لكن دون مشاكل.

الأهم من أي شيء، هو زواج دون مشاكل.

لتتمتم:

- دموعك مسيرها هتقف ووجعك هيخف أحسن ما تعيشي عمرك كله في وجع زي أمك!!

....

سارة سيف الدين

الفصل السادس

ازاي شبابنا يقوم وياخد دوره
من غير صراخ يئذيه ويجرح زوره
يا هل ترى أحسن له يقعد ساكت
أو ينترك ولو خرج عن طوره؟!
عجبي!!
رباعيات جاهين

سارة شريف الدين

"الهاتف المطلوب مغلق أو غير متاح"
ألقى هاتفه غاضبًا على فراشه، يفرك رأسه بعصبية بالغة، يدور في غرفته كالنمر الجريح.
هذه الفتاة تريد أن تفقده عقله بكل تأكيد!!
هل يقلق؟ !أم يتفهم؟!!
يتفهم ماذا؟!!
الهاتف على حاله منذ وطأت قدمه تلك البلاد ...
"مغلق"
ربما تشعر بالخوف من كشف أمرهما لهذا تغلقه ولم يحدث أن اتصل أثناء فتحها له.
مستحيل !!لقد جرب كل الاوقات ليلًا ونهارًا ولا فائدة، مر الاسبوع ولم يسمع صوتها أو يعرف أي شيء عنها، نفس الرد الألي الانثوي السخيف حتى أنه سبها كثيرًا وكأنها السبب.
لم يتوقع هذا أبدًا ولا في أسوأ الاحتمالات، لقد تصور أنها ستظل ممسكة بالهاتف تحدق بشاشته إلى أن يضيء باسمه فتجيب على الفور.

فهذا ما يفعله المحبين !!
فلمَ هي لا تفعل هذا؟ !دوما يخبرها أنه يحبها أكثر مما تحبه وتُكذبه!!
فور أن يسمع صوتها سيصرخ بها، سيصيبها بالصمم.
ذات القلب المتحجر!!
طرقات على باب غرفته أجابها على مضض، ليظهر وجهها أمامه، نفس النظرة المشرقة المحبة.
هل تحبه حقًا؟ !هل من حق بسمة أن تغار عليه منها؟!!
-صباح الخير معاذ.
حاول الابتسام متجاهلًا ما يعتمل بصدره من غضب وقلق على محبوبته ليرد تحيتها بلهجة أرادها لطيفة فوصلت لها بغير ذلك لتقترب منه قائلة:
-مالك؟ !في حاجه مضايقاك؟!
هز رأسه معللًا:
-لا ..بس تقريبًا لسه مش واخد على المكان.
وضعت كفها على كتفه:
-ولا يهمك شوية ...شوية ...هتعمل صداقات في الجامعة وهتندمج جدًا هنا.
ابتسم مؤيدًا ليتجه إلى فراشه جالسًا على طرفه، يلتقط هاتفه يداعب شاشته بأنامله.
ظلت ترمقه بصمت بدى حزين، مكتئب.
لوت شفتيها بضيق ليس هذا ما أرادته، كانت سعادتها بالغة حين أخبروها أنه سيأتي ليدرس هنا أخيرًا ظلت تحلم وتتخيل كيف سيقضون الاوقات معًا؟ !!
فهو ليس من النوع الذي يخالط الكثير من الناس وأصدقاءه قليلون جدًا وستصبح هي صديقته الوحيدة هُنا ويالها من فرصة ذهبية.
سيذهبان للجامعة سويًا أو يتجولان صباحًا على دراجة ، ستريه أماكن كثيرة لم يرَها من قبل وحتى الآن لم يحدث أيًا من هذا.
اقتربت منه لتجلس بجواره:

- ماتيجي نقضي اليوم بره النهاردة انت ماشوفتش حاجه في البلد من يوم ما جيت.

رفع بصره لها.

نرمين تملك وجهًا طفوليًا بعض الشيء، تختلف كثيرًا عن محبوبته، بعينيها العسليتين التي تناسب شعرها البني المموج القصير، تصفيفتها المفضلة منذ سنوات هي بالفعل لا تضاهي بسمة في أي شيء!!

وللحظة خيل إليه وجه محبوبته لتسبح بسمة خاطفة على شفتيه.

كم يشتاق إليها؟!!

أطول مدة ابتعد فيها عنها كانت عشرة أيام!!

يذهب مع عائلته للمصيف ثم يتركهم متحججًا بالملل ويعود ليجدها في انتظاره بمكانهما السري.

"كنت عارف إني حاجي ألاقيكي.

بسمة خجولة ..ونظرة حب وشوق على عينيها:

-وأنا عارفة إنك مش هتبعد عني أكتر من كده".

همهمة بصوت مختلف تعيده من ذكرياته إلى أرض الواقع وصوت خجول يردد:

- معاذ بتبصلي كده ليه؟ !أنت سرحان.

انتبه لخطأه غير المقصود مع آخر شخص يجب أن يمنحه أفكار خاطئة، شعر بالضيق مع حمرة وجنتيها الواضحة فأشاح بوجهه بعيدًا:

-معلش نرمين أنا مش في المود اخرجي أنتِ وصحابك.

لم يهتم بسؤالها الأخير فقفز للسؤال الذي يسبقه.

احباط سريع ارتسم على ملامحها لم يلبث أن تحول إلى تساؤل:

- أنت ليه بطلت تقولي نيري؟!!

رفع حاجبيه بغير توقع لسؤال كهذا وبماذا يجيب؟

أن حبيبته تغضب، تغار من هذا التدليل!!

ابتسم محرجًا:

-لا ابدًا ..بس يعني مش كبرتي على الاسم ده؟!!

هبت واقفة بغضب طفولي تردد:

- ليه بقى؟ عندي خمسين سنة؟!!

ضحكة صادقة خرجت من قلبه لم يضحك مثلها منذ قرروا أمر سفره.

وفي محاولة لإدارة دفت الحديث وضع يده على بطنه:

-على فكرة أنا لسه ما فطرتش وجعاان جدًا.

ضربت رأسها بكفها:

-أوووه المفروض إني جايه أقولك يالا علشان تفطر مامي مستنية تحت.

أمسكت بكفه تجذبه خلفها تحثه على الإسراع كي لا يزيد جوعه أكثر، تتبعها مبتسمًا ليعود بعقله إلى من شغلته حد الثمالة.

....

شرارات الغضب تقرقع على وجهه، حاجباه المعقودان يكادان أن يلتحما، بينما الأخر على النقيض، ابتسامة بلهاء على شفتيه، نظرة استعطاف تملأ عيناه.

ليهب الغاضب واقفًا:

- أنت ازاي تعمل كده من غير ما تقولي؟!!

زفر جاهين:

- عمتي سميحة قالتلي ما قولش.

لوح وافي بكفه:

- أنت معايا ولا معاها.

حك جاهين رأسه مفكرًا:

-هو أنتوا دلوقتي بقيتوا فريقين.!!

صرخ وافي:

-مش هسافر ...مش هسااااافر.

أشار له جاهين أن يهدأ:

- وطي صوتك!!

أراد وافي الاندفاع خارجًا فأمسك جاهين بذراعه:

- أنت قالب الدنيا ليه من دلوقت ..سفرك لسه قدامه شهرين ودلوقتي احنا مشغولين بفرح لوجي مادخلناش في مشاكل تانيه أحسن لوجي تقلب عليك.
رمقه للحظات قبل أن يستسلم بصمت، سيتمهل، ما أن تتزوج ابنة عمه سيتحدث لأمه بوضوح.

وبدون أن يتحدث أو يثير الأمر بالفعل كانت لوجي غير عادية .لم يتوقع أحد أن تكون الايام التي تسبق زفافها بهذا التوتر والإزعاج.
كانت تصرخ طوال الوقت وإذا تأخر أي شيء طلبته كأنها نهاية العالم تبكي كما لم تبكِ أبدًا.
كان جاهين ووافي يراقبنها وكأنهما يرونها للمرة الأولى، لم يفهما ما بها قط، بدى لهما أن ميادة وسميحة فقط من تتعاملان معها بصدر رحب وكأن كل هذا متوقع وطبيعي.

وبعد معركة جديدة من صياحها المتبادل مع من تساعدها في فستان زفافها عادت للبكاء مجددًا، ليهرب كلًا من جاهين ووافي إلى حجرة الاول الذي قال:
-هي البنت دي ايه اللي جرالها أنا قربت أفقد حاسة السمع.
جلس وافي على مكتب جاهين الصغير قائلًا:
- هو ده طبيعي لكل واحده بتتجوز؟!!
هز جاهين كتفيه بعدم فهم:
- ماعرفش ...مافيش حد اتجوز في البيت ده غيرها هعرف منين؟!!
-طيب ما تتكلم معاها.
- اقولها إيه؟!!
- أي حاجه ...هي مش أختك ماتعرف مالها؟!!
ربما عليه بالفعل أن يتحدث إليها، هناك شيء غريب بأخته، تصرفاتها العصبية مبالغ فيها وبرغم حديثه مع أمه عنها إلا أنها طمئنته بقولها.
"هما البنات كده قبل الفرح مش بعيد تلاقيها داخلة تقولك مش عايزة اتجوز؟"

فقرر التغاضي عن الامر هو يعتقد أن الوضع سيكون محرج له ولها إن حاول الحديث عما قد يقلقها ويثير عصبيتها ولكن لا بأس فليحاول.

لم يعتقد أنه سيكون بهذه الصعوبة، ممارسة دور الأخ الأكبر للأخت ليس سهلًا كما يتصوره البعض أو لعله يظن ذلك؟!!
طرق باب غرفتها برفق، هي تشتاط من أي شيء، فلن يبدأها بايقاظها بفزع، فتحت له الباب وما إن رأى وجهها حتى ابتسم ليقول:
- ازيك يا عروسة ولو إن ده مش وش عروسة أبدًا.
اتسعت عيناها وأسرعت إلى مرآتها تحدق بوجهها:
- ليه؟ ماله وشي؟ ماله؟!!
ضحك ليغلق باب غرفتها مقتربًا منها يربت على كتفها:
- زي القمر انا بهزر.
دفعت ذراعه عن كتفها:
- هزار بايخ.
تركته متجه لنافذتها تطالع لا شيء وقف بجوارها مستندًا بكتفه على إطار النافذة العريضة ليرمقها للحظات قائلًا:
-مالك؟!!
-ماليش.
هز رأسه:
-لوجي ...اتكلمي مش ممكن كل اللي انتِ فيه ده بس توتر ما قبل الزواج ليكي أخ غيري تفضفضي معاه.
نظرة طلت من عينيها لم يستطع تفسيرها، طالت إلى أن قالت ما لم يتوقع سماعه:
- هو أنا هوحشك؟!!
ضاقت عيناه ولم يعرف ما الذي ارتسم على وجهه حينها لكنه كان حقًا مندهشًا:

- ليه السؤال ده؟ طبعًا هتوحشيني.
عادت تنظر عبر نافذتها هامسة:
- الرد التقليدي.
تصوُر أنه سيفتقدها أم لا؟؟ ..لم يتوقع أن يشغل عقلها للحظة، ليعود له صوتها باهتًا:
-هسافر بلد تانيه ومش فارق مع حد فيكم وكأن مش مهم تشوفوني أو ماتشوفنيش.
بسمة استنكار ملأت شفتيه:
- إيه يا لوجي ده احنا ...احنا مبسوطين علشان أنتِ مبسوطة أنتِ اللي اختارتي فايز وقلتي إنك هتسافري معاه لأي مكان ماكنش معقول يعني نقول لأ لمجرد إننا عايزنك تفضلي معانا احنا فرحانين علشان فرحتك تكمل مش علشان هتسيبنا ومش فارق معانا ...أنتِ ازاي تفكري كده!!
- علشان محدش قال غير كده.
انهت جملتها ناظرة له لتتسع عينيه وهو يرى العبرات تملأ عينيها مردفة:
-ماحدش فكر يقولي ماتخليكي معانا ...هتوحشينا أوي ماتقلقيش هنيجي نزورك على طول ...كلكوا بتضحكوا بتتريقوا على عصبيتي وعياطي وكأني مش فارقه معاكم.
رفعت إصبعها تشير إليه:
- وانت اخويا الوحيد مش عارفه ليه كان نفسي تقولي مابلاش تسافري دا أنتِ أختي الوحيدة ..أنا هاجي أزورك لأنك هتوحشيني أوي ...ولا أي حاجه ماقلتش ولا أي حاجة.
عادت لنوبة من نوبات بكاءها وقد أخفت وجهها خلف كفيها، شعر بالعجز وهو يرمقها بنظرات صامتة، أخته رومانسية التفكير، تربط كل شيء بالمشاعر، تصنف من حولها إلى محب و كاره، لا تحب أن تنظر للأمور بعقلانية وبرغم ذلك لم يتصور أن يكون هذا تفكيرها فيما يخصه.

مرر أصابعه في شعر رأسه ليقترب منها ورفع ذراعيه يضمها إلى صدره وهو يمسد شعرها:
- طيب ماتعيطيش أنا فعلًا فكرت في كل اللي أنتِ قلتيه ده بس ما فكرتش أقوله خُفت أضايقك ..الأيام اللي فاتت سألت نفسي كتير هعرف اتعود على غيابك من البيت هيوحشني صوت زعقيك علشان أوصلك لأنك متأخرة ...يابنتي دا أنتِ بسمة البيت ده أزاي تفكري إنك مش فارقة معانا.
ابعدها عنه لينظر لها:
-أنتِ هتوحشيني جدا دا أنتِ أختي الوحيدة وماتفتكريش أبدًا إننا هنسيبك تبعدي كده ونقف نتفرج ...لأ كل سنه لازم نشوفك ياحنا هنروحك يا أنتِ هتيجي.
مسحت عبراتها وقد بدت بسمة خاطفة على شفتيها لتتسع بسمته هو مردفًا:
- الف مبرووووك يا احلى أخت ف الدنيا لو فايز زعلك في أي وقت كلميني على طووول وأنا هنط فوق دماغه بس ماتبقيش تزعلي بقى لو دماغه وجعته.
ضحكت من قلبها وهي تضمه لصدرها مجددًا مرددة:
-هتوحشني أوي ...كلكم هتوحشوني أوي.
اكتفى بضمها إليه أكثر وهو يربت على ظهرها بحنان.

....
كان زفافًا رائعًا، لائقًا بعائلتي العروسين" لوجي من عائلة الشربيني صاحبة إحدى شركات المقاولات المعتبرة والطبيب فايز ابن الطبيب أحمد منير صاحب إحدى المشافي الكبرى بكندا"
قاعة زفاف ضخمة في أرقى فنادق البلاد، مدعوون كثر لا تستطيع تخمين عددهم، صفقات تعقد هنا وجلسات نميمة تدار هناك، شباب يمرحون وفتيات يتراقصون.
وكان على رجلي العائلة الوحيدين الاهتمام بالأمور واستقبال المدعوين بجانب سميحة إلى أن بدى الارهاق على وافي ليربت جاهين على كتفه طالبًا منه الحصول على بعض الراحة وهو سيهتم بالأمر.

ليتنحى وافي جالسًا بينما ظل جاهين يحيي ذاك ويبتسم لتلك مع تعليمات صارمة من سميحة بمراعاة كل المدعوين خاصة من لديهم أعمال معهم.
ليقترب من أحدهم:
- سامر بيه...نورتنا.
ابتسم سامر له رادًا التحية ومباركًا ليتبادلا حوارًا قصيرًا عن الحفل ومن ثم الانتقال للحديث عن العمل وقبل أن ينتهي سأله سامر:
- سمعت عن شهاب الأبيض؟.
ابتسم جاهين مازحًا:
- لأ سمعت عن شهاب الأحمر ...مين الأبيض ده؟!!
ضحك سامر:
-يا أخي بتكلم جد ...ده رجل أعمال جديد كده داخل في تخصصنا مناقصات الحكومة بس طرقه كده مش عجباني.
- اممممممم ....هتشتغل معاه يعني؟.
-لأ طبعًا انا بس بقولك خلي بالك منه وبلاش تشتغل معاه.
هز كتفيه بلا مبالاة:
-مش بتقول جديد يعني أكيد مش هسمع عنه بسهولة.
-ماهو مش هيفضل جديد لو فضل في سكته دي هيوصل بسرعة.
ربت جاهين على كتفه:
- ماتقلقش ...أنت عارفنا نحب نمشي في السليم ونشتغل برضو مع السليم.
-أكيد امال احنا بنشتغل مع بعض ليه؟!!
تلفت جاهين حوله ليقول:
- اومال أخوك معاذ فين؟ مش بيحب يحضر أفراح؟!!
-لا أبدًا هو سافر أمريكا هيكمل دراسته هناك.
-فعلًا ...كويس وافي ابن عمي كمان هيسافر بس هيروح كندا.
- ربنا يوفقهم.
آمن جاهين على دعائه وتصافحا قبل أن يفترقا على وعد بلقاء قريب.

ليعود جاهين لمتابعة حفل الزفاف الذي قارب على نهايته، واستعد العروسين للصعود إلى جناحهما الخاص في الفندق الذي ضم الحفل.

....

وصلت العائلة للمنزل أخيرًا بعد تعب مضني لهذا اليوم الذي تم الإعداد له من شهور / منذ شهور ، وما إن دخلت سميحة حتى خلعت حذائها عالي الكعبين قائلة:

- رجلي خلاااص ...تصبحوا على خير.

ودون انتظار الرد اختفت في حجرتها في الدور الأرضي لتلحق بها ميادة في الحجرة المجاورة بينما صعد جاهين ووافي إلى حجرتيهما في الدور العلوي ليدخل جاهين مع وافي حجرته ليجلس الأخير على أول مقعد قابله يتبعه جاهين متأوهًا:

- اااه ...تعبت يا ناس.

ابتسم وافي مربتًا على فخذه:

- طب ما تروح تنام ..داخل أوضتي ليه.

-هرووووح ...تصدق البت دي هتوحشني.

ضحك وافي:

- لو كانت هنا كانت زمانها بتصرخ ...ماتقولش بت.

شاركه جاهين الضحك قائلًا:

-لو كانت أصغر منك ماكنتش جوزتها لحد غيرك علشان تفضلوا معايا.

عقد وافي حاجبيه متخيلًا وضعه مع لوجي وعصبيتها وصراخها ليتمتم:

-الحمدلله ...ربنا ستر.

-هااا ..قلت إيه؟!

أراد الضحك مدافعًا لكن يده التصقت بجنبه متأوهًا، اعتدل جاهين سائلًا:

-في إيه؟ !جنبك بيوجعك.

أومأ برأسه مشيرًا إلى مكتبه:

-نسيت أخد الدوا النهاردة ...هاتهولي.

-انت مجنون يا وافي.
صاح جاهين مستنكرًا، أسرع ليحضر له دوائه ، فتح العلبة الاسطوانية لكنه تفاجأ بها خالية.
- دي فاضية يا بني.!!
- معقولة ..ماخدتش بالي.
لميل بجذعه وقد اشتد عليه الألم:
- أنا باين داخل على أزمة ..هاتلي الدوا بسرعة يا جاهين.
لم ينتظر جاهين بل أسرع يأخذ درجات السلم قفزًا مستقلًا سيارته لأقرب صيدلية ليعود سريعًا وتتسع عيناه رعبًا على وافي الملقى أرضًا، اندفع نحوه:
- وافي ...وااافي مالك؟.
أمسك بهاتفه متصلًا بطبيبه الذي لم يجب إلا مع الاتصال الثاني ليخبره بقدومه فورًا.

فتح وافي عينيه ليجد وجوه عائلته ترمقه بقلق، دار بعينيه في المكان وشعر بالراحة أنه في حجرته وليس في المشفى مجددًا ليأتيه صوت سميحة:
-أنت ازاي تهمل دواك.!
اكتفى بكلمة اعتذار، لتتنهد سميحة حزنًا وراحة في الوقت نفسه أنه أصبح بخير فضمت رأسه لصدرها مقبلة إياه، راجية من الله أن يحفظه من كل سوء.
ليقترب جاهين طالبًا منها تركه ليرتاح كما أمر الطبيب بعد تناول دواءه، فتغادره سميحة ويتبعها جاهين لكنه توقف ملتفتًا إلى وافي الذي أغلق عينيه مستكينًا.
كم يخشى على هذا الفتى !!ويرتعب من استمرار عناده!!
الموت سيزحف إليه حتمًا إذا ظل على حاله رافضًا القبول بمنح أحدهم له كليته، هو يعلم هذا لكنه يصر على أنه لن يحيا أكثر مما قد كتب له.
هو منطق، لكنه لا يستطيع الاستسلام له دون حتى المحاولة، وافي ليس فقط شخص من الاقارب، إنه اخيه الصغير وصديقه، إنه مخبأ أسراره ومصدر

سعادته ومرحه، لا يمكنه الصمت والسكون لهذا العند المتحكم فيه، سيجبره على الانصياع لما فيه مصلحته حتى لو اضطر لادخاله إلى غرفة العمليات عنوة.

....

كثيرا ما نقرر أمورًا ونعتقد أن تحقيقها لا يحتاج إلا لبعض الوقت.
أن نبقى في مكانٍ ما.
أن نلتقي بشخصٍ ما.
أن نحيا بطريقةٍ ما.
ثم يأتي ما قد لا نحسب حسابه، فيتغير كل شيء ولا نجد حتى الوقت لاستدراك الأمر، إنه القدر...
الذي يسير بنا نحو أمورٍ لا نخير فيها، بل فقط نكون مسيرين.
قد نغضب، نتذمر، نندم، لكننا في النهاية نتعايش معه.
فهو ببساطة قدرنا وقدرهم!!

صوت محرك الطائرة يزعجه حقًا، دوما كره السفر بعكس بقية عائلته وفي الوقت الذي أراد أن يقاوم فكرة السفر ويرفض حدث ما أجبره على الرحيل مع الجميع.
فلمَ سيبقى؟ فبجواره يجلس جاهين وأمامهما أمه سميحة وزوجة عمه ميادة، والوجهة كما خُطط له وحده لكنهم انضموا للرحلة، سيذهبون إلى كندا ويقضون بعض الوقت عند لوجي وزوجها برغم أن زواجهما لم يمر عليه شهران، لكن زوج لوجي أصر على أن يبقوا عندهما بدلا من البقاء في أحد الفنادق.
تابع من نافذته تلك المباني القليلة الواضحة لبلاده من هذا الارتفاع، لم يشعر بالسعادة أبدًا بالابتعاد عنها في هذا الوقت، وكأنه يهرب كالبقية رغم أن ماحدث وافق هواه كثيرًا، فبلاده حقًا بحاجة للتغيير.

عاش طفولته ومراهقته دون أي مشاكل تذكر باستثناء مرضه المزمن وكأن بلاده من أفضل بلاد العالم إلا أن حسام علمه غير ذلك.
موت حسام المأساوي أعلمه إلى أي درجة من الانحطاط والفساد وصلت بلاده، ومهما صرخ لم يلبي نداءه أحد فحسام يتيم لا أهل له، فمن سيهتم بأمره؟!!
لذا حين تجمع هؤلاء الناس مطالبين بحقوق معيشية أفضل أراد أن ينضم لهم ، أن يكون صوت حسام الذي قتلوه في ريعان صباه وبالطبع لم تسمح له أمه بل ظلت تصرخ أن هؤلاء مجرد مخربين سيعيثون في الارض فساداً وأن مصيرهم هو السجون عاجلًا أو أجلًا لكن هؤلاء المخربين انضم لهم الملايين، لتتحول مسيرة احتجاجية في يوم الشرطة إلى ثروة تجذب أنظار العالم.

حاله من الاختناق تجتاحه كلما تذكر إصراره على البقاء وصراخ أمه بالسفر ولأن حالته الصحية لم تكن لتسمح له بأي شيء مما يريد، اضطر للاستسلام، أسِفًا لصديقه الذي لم يستطع أن يأخذ بثأره إلى الآن ولكنه لن يتنازل عنه أبدًا.
ربت جاهين على كفه فالتفت له ومازالت ملامحه تحمل ما يعتمل بصدره من ضيق ليقول الاول:
- إن شاء الله دراستك هناك تكون مفيدة أكتر.
عقد حاجبيه زافرًا بنزق:
- أنت مش مضايق إنك هربان.
رفع حاجبيه للحظة قبل أن يسأل:
-هربااان ...هربان من إيه؟!
ضاقت عينا وافي:
-هو كده مش هربانين ....خايفين من اللي بيحصل في بلادنا وبدل مانفضل فيها ونساعد قررنا نهرب كأننا في الطرف العدو.
أغلق جاهين عينيه وأراح ظهره وكأنه يستعد للنوم، غضبًا سريعًا اشتعل على وجه وافي وقبل أن ينطق قال جاهين:

- ما احنا فعلا في نظر البعض الطرف العدو ...مش احنا الاغنيا اللى واكلين خير البلد لوحدينا وحارمين الفقرا منها.
استوعب كلماته للحظة ليقول:
- بس احنا مش كده!!
-وهتقدر تقنعهم ازاي؟
وقبل أن يجيبه أردف:
-أنا برضو ماكنتش عايز امشي على فكرة أنا مشيت علشان ماما وعمتي زيك بالظبط ..سيبني انام بقى الرحلة لسه طويلة وأنا بقالي يومين مانمتش.
وكأنه غط في النوم بثواني، لتظل عيني وافي على وجهه المرهق؛ من تعب الايام الماضية، ما بين السفر من عدمه وفور أن تقرر السفر وأصبح لازمًا، كان اليومان الاخريين أشقاهما عليه، طوال النهار في العمل مع سميحة لترتيب الأوضاع وفي المساء يقف مع حارسي أمن تم تأجيرهما خصيصًا بعد أن انتشرت أخبار بهجمات نهب غير منظمة في الانحاء لكنه كان يصر على البقاء مستيقظًا معهما خوفًا على أهل بيته.
جاهين؛ رجل العائلة الأول أو ربما الوحيد، فصحة وافي كانت دومًا تضعه في الخانة الأضعف في أمور كثيرة، فكان على جاهين تحمل كل شيء.
وكأن وافي فتاة لا شاب ...!!
زفرة حارة تركت صدره قبل أن يدير وجهه للنافذة ولم يعُد يرى غيرالسحاب.
يفكر أنه ربما من الأفضل أن يقبل بعملية نقل الكلى ليستعيد قوته ويكون رجلًا بجوار ابن عمه بدلا من ترك الحمل عليه هو وحده.
لكن قناعاته شيئًا آخر، لن يمت قبل أجله ولن يعيش أكثر من وقته، فلمَ يجبر شخص آخر على التخلي عن جزء من جسده ليمنحها له؟؟.
فكرة لا يستسِغها على الأطلاق ولا يعلم إلى أي مدى سيتمسك بالرفض.

....
حمل حقيبته ليلقي بها على الفراش، يعبئها بما تصل له يده؛ سيسافر، سيعود إلى بلده حالًا لن يحتمل لحظة أخرى من الجهل؛ الجهل بمصيرها بل وبمصير

أمه وأخيه فالاتصالات انعدمت منذ يومين وأخر ما سمعه هو هجمات البلطجة على القصور والبيوت الفارهة ونشرات الأخبار لا تبشر بخير أبدًا وكأن بلاده تحولت إلى ساحة قتال غوغائية.

كان يتابع ما يحدث بعدم تصديق، لم يتصور أن يرى شيئًا كهذا في بلاده قط، مما الناس غاضبون؟ !!وهل هذا الخراب هو الحل؟ أم أن الأمور خرجت عن السيطرة ولم يعد بالأمكان التوقف؟ من المصيب ومن المخطيء من المذنب ومن الضحية؟!!

لم يستطع تفسير ما يحدث والحقيقة إنه لم يشغل باله بالأمر كثيرًا فما يشغله الآن هو أمران لا ثالث لهما!!

بسمة؟ أين هي الآن وهل هي بخير؟!!

وأمه وأخيه الذي فقد الاتصال بهما؟!!

ولا حل إلا بذهابه هو إليهم.

طرقات على باباه لم يهتم بالرد عليها لتدخل نرمين الغرفة محدقة به بذهول:

-أنت بتعمل إيه؟!!

- لازم أسافر انا لو فضلت هنا هتجنن.

اندفعت نحوه تمسك ذراعه:

- تسافر فين يا مجنون الناس بتمشي من هناك وأنت عايز ترجع.

جذب ذراعه بقوة لا شعوريًا فشهقت وهي ترتد للخلف فالتفت لها شاعرًا بسخافة ما فعل فرفع كفه:

- أسف نرمين مش قصدي ..أنا بجد أعصابي تعبت.

بدى صوته بائسًا فاقتربت منه ثانية تربت على كتفه:

- طيب ممكن تهدى وتقعد بابي بيحاول يكلمهم أول ما يوصلهم هيطمنا.

جز شفتيه بقوة سببها أعصابه المحترقة، لا أحد يفهمه حتى لو طمئنوه على أمه وأخيه فمن سيطمئنه عليها هي، هذه المعتوهة.

كيف تفعل به هذا؟!!

رددها كثيرًا ولم يجد إجابة.

جلس بجوار حقيبته مستندًا بمرفقيه على ركبتيه يبحث عن أي حل، مخرج لتلك الحيرة وللأسف لا يجد.
- اصبر شوية يا معاذ يومين تلاتة كمان ولو ماوصلناش لحاجه ابقى أنزل.
أغلق عينيه بيأس ليقول:
- سيبيني يا نرمين لوحدي لو سمحتي.
دومًا يبعدها عنه، لا يقبل بأن يجعلها جزء من حياته .كم حاولت هي أن تقص عليه كل ما يخصها، أرادت أن تخبره بشكل غير مباشر أنه الوحيد الذي تريد أن تشاركه كل أسرار حياتها، لكنه في المقابل يستمع فقط وهو مستمع جيد وأبدًا لم يفعل المثل معها، لم يرد لها ولو لمرة من باب التشجيع على الاستمرار فقط يستمع.
خرجت أفكارها على لسانها:
- أمتى هتعتبرني حد ممكن تكلمه ويفضل جنبك وأنت مضايق؟!!
توقف الزمن عنده للحظة قبل أن يرفع بصره لها، تفرك أصابعها بقوة وتوتر، تتجنب النظر لعينيه مباشرة، بقى صامتًا فأرادت أن تنقذ ما يمكن إنقاذه:
-أقصد ..مش احنا صحاب والمفروض نكون سند لبعض.
أشاح ببصره بعيدًا مع تنهيدة خافضة، هذا ما كان ينقصه فليكن قاسيًا ويخبرها ببساطة أن كل ما هو فيه قلقه على حبه الوحيد فصمته يمنحها الأمل وهذه هي القسوة بعينها.
الغضب يستعر داخله على أخيه، هو السبب في كل ما يعانيه الأن، قرَّبه ممن يجب أن يبتعد عنها وبعده عن من يرد البقاء بجوارها.
يخشى أن تزداد الأمور سوءًا لو اعترفت له بمشاعرها التي يعيها جيدًا، لن يجد مفر من الأفصاح عن مشاعره هو أيضًا، لا يريد جرحها لكنه حينها سيكون مضطرًا.
لم تجد منه أي رد فقط شرود جديد كعادته، لو أمكنها فقط سبر أغوار عقله هذا بما يفكر؟ ...لمَ لا يشاركها ما يفكر به؟ ...فصمته يزيد داخلها خوفها مما يخفيه، هناك أخرى!!

تلك الفكرة مسيطرة على عقلها وبشدة، هي تعلم أنه يعرف نية أمه في خطبته لها وصمته وتعامله معها بتلك الطريقة يبدي عكس ذلك تمامًا.
ومع ذلك لا يعنيها أن يبقى هكذا، تظن قربها منه يمنحها الفرصة للوصول لقلبه، لا مكان للكرامة في الحب، هذا ما تؤمن به وهي تحبه، حب غير قابل للاعتراف، فالطرف الأخر يبدو في عالم آخر، عالم تخاف بشدة أن يكون عامر بأخرى، حينها ستفقد كل فرصها في الاقتراب.
استدارت مبتعدة في صمت وتابعها هو في صمت مماثل حتى أغلقت باب غرفته خلفها.

....

اتكأن الفتيات الثلاث على سور السطح الذي يقطنونه لسنوات معًا، كان الليل في منتصفه تقريبًا ومع برودة الجو في هذا الوقت من العام اكتفين بالالتصاق بأكتاف بعضهن البعض وهن يتابعن الشارع الضيق الفارغ تقريبًا.
فالاجواء تزداد سوءًا ولا بُشريات بالتحسن ولا توقعات لما هو آت.
وبرغم أن كل واحدة منهن مختلفة الفكر عما يحدث لكن المشترك بينهن قلقهن على مستقبل بلدهن.
أطالت نانا عنقها تترقب أول الطريق المؤدي لشارعهن، القلق يعصف بها حتى لو ادعت العكس، حين أخبرها أنه سينضم للجان الشعبية لحماية منطقتهم تسائلت بقلق لم تستطع اخفاءه:
- ليه يا محمد ...ده خطر.
ابتسم لقلقها الذي تحاول اخفاءه بفشل واضح:
-ماهو علشان خطر لازم أقف علشان أحمي اللي بحبهم.
كلمات واضحة تحمل حبه لها المعلن في كل وقت، المرفوض من جانبها على الدوام.
ترفضه رغم أنه يعجبها، تعلم ..بل تشعر به يتسلل لقلبها رغم مقاومتها لكنها ستستمر بالرفض.
والسبب ببساطة شعارها الدائم" لا للفقر."

أليس من الأفضل أن تنضم لهؤلاء الثائرين رافعة ذاك الشعار؟.!!
لكنها ليست بتلك الشجاعة هي تريد أن تخرج من تلك الدائرة التي عاشت بها لسنوات حتى كادت تخنقها ومحمد من أهل تلك الدائرة لذا ليس خيارًا متاحًا.
لن تستجب لحبه ليس هو من سيساعدها وينقذها من تلك الحياة الشاقة التي سئمت منها ولهذا أعلنتها له دون خجل، طلبها للزواج فرفضت صراحة لكنه ببساطة قال أنه لن ييأس، لو كان قلبها مرئي حينها لرأى بوضح سعادتها من رده ذاك وهذا ما لم يعكسه وجهها الذي بدا عليه الغضب قبل أن تتركه وتبتعد، فهو يمنحها الشعور الأناني بأنها مرغوبة وهي تستمتع بهذا حتى لو كانت لا تريده معها، هو فقط من يسعى خلفها رغم رفضها المتكرر هو فقط من يرضي غرورها كأنثى ولا تعلم متى سيسأم ويتركها وطموحاتها التي لا حدود لها.

لاحت التفاته لها من بسمة ولاحظت حرصها على متابعة الطريق، شبح بسمة باهتة ظهر على ركن شفتيها، نانا تُحب ولكنها تكابر، محمد ليس سيء ..هو فقط لن يحقق أحلامها التي أبعد ما تكون عن قدرة أي شاب بمنطقتهن تلك وجاءت تلك الأحداث لتزيد الطين بله، فالبلد متوقفة عن العمل، بل تكاد تتوقف عن الحياة حتى دراستها التي ما أن بدأت حتى توقفت، هل الامور تسير في غير صالحها أكثر ؟ !أم كما سمعت أن نجاح تلك الثورة سيحقق لها أحلامها في الحصول على حياة أفضل.!!
عادت ببصرها لنجوم السماء التي حلمت أنها ستطالها إذا بقت بجواره والآن كل شيء انتهى، مرت ثلاثة أشهر كانت البداية هي الأسوأ.
هكذا الحزن؛ يبدأ كماءٍ في قدرِ مغلي تتقافز فيه المياه وكأنها تصارع بعضها ثم مع مرور الوقت يبرد ويهدأ وكأنه دومًا كان هكذا ساكنًا مكانه.
ولم يعد للحزن مكان، إنما الفقد هو ما تشعر به الأن، هي تفتقده، تتمنى رؤيته، سماع صوته لكن في مثل هذه الظروف ، من الجيد أنه خارج البلاد هو في أمان إذن.
انتفضت وكذلك كلتا الفتاتان مع صوت طلق ناري لم يعرفن أقريب أم بعيد؟!!

فأمسكت نانا بذراع بسمة المجاورة لها:
-يا لهوي ...ضرب نار تاني يا رب استر.
ربتت بسمة على كفها مهدءة:
-إن شاء الله مافيش حد يكون جراله حاجة.
كانت أصابع نانا ترتعش قليلًا وقد عادت تعلق بصرها بمدخل الشارع الهاديء المظلم بينما وصلت لها همسات أختها مها بالدعاء لله بالنجاة.
لتردد نانا:
-كان علينا بإيه ده كله ما كنا عايشين وخلاص.
زمت بسمة شفتيها:
- وهي دي كانت عيشة فقر وجهل وطبقات الفرق بينها وصل للفرق بين السما والأرض.
التفتت لها نانا ساخطة:
- واللي بيحصل ده هو اللي هيقرب الفرق هو اللي هيحل مشاكلنا.
دافعت بسمة:
- لكل قضية ضحايا ودي مش قضية سهلة ده مستقبل بلد والتغيير تمنه غالي.
لم تقتنع نانا بكلماتها فاكتفت بهز رأسها وعادت تطالع الطريق في انتظار ظهوره ليطمئن قلبها الذي كاد يقفز خارج صدرها فور سماع الطلق الناري.
لتلتفت بسمة لمها قائلة:
-وأنتِ رأيك إيه في اللي بيحصل يا مها؟؟
هزت كتفيها:
-هو أنا شايفة حاجه علشان أقول رأي.
- بلاش حجج ...ما أنتِ بتسمعي الاخبار زينا.
صمتت هُنية لتقول:
- أي أخبار ..أخباربلدنا ولا أخبارنا من البلاد التانية.
انضمت نانا لحوارهما:

- اخبار بلدنا كلها كدب علشان ماتشوفيش اللي بيحصل انما التانين بيقولوا الحقيقة.
أمسكت بعصاها التي تدلها على الطريق:
- لواخبار بلدنا كدب فده لأن مصلحتهم كده ولو التانين حقيقة برضو علشان مصلحتهم كده فين الأخبار اللي عايزة مصلحتي أنا؟.
انهت جملتها لتتركهما ذاهبة لغرفتهما، لتراقبها الفتاتان، اختها مبتسمة وبسمة معقودة الحاجبين مرددة:
- أختك بتقول حكمٍ أهو يا نانا انا كمان هخش أنام ...أنتِ هتفضلي واقفة.
أومأت برأسها لتتسع ابتسامة بسمة:
- مش هيجي مش هتشوفيه غير الصبح ...ريحي نفسك.
ردت باستنكار:
-هو مين ده؟!!
سخرت قائلة:
- اللي بالي بالك!!
وتركتها هاربة قبل أن تندفع إليها ضاربة رأسها كعادتها حين تغتاظ منها.
....

الفصل السابع

ليه يا حبيبتي ما بيننا دايمًا سفر
ده البعد ذنب كبير لا يغتفر
ليه يا حبيبتي ما بينا دايمًا بحور
أعدي بحر ألاقي غيره اتحفر
عجبي!!
رباعيات جاهين

طال وقوفه في شرفته، يشعر أن قلبه يكاد يغادر قفصه.
أمه وأخيه في طريقهما إلى هنا، فليتماسك لبعض الوقت، سيراهما، سيطمئن عليهما وسيسأل سامر عنها.
وماذا لو لم يعرف؟!
لن يتوقع الأسوأ الأن بعض الصبر فليتحمل قليلًا.
وما إن لمح سيارة الاجرة تقف أمام باب المنزل وميز أخاه بداخلها حتى هرع مثيرًا زوبعة من الهواء بسرعته حتى أن نرمين صاحت:
- حاسب يا معاذ ...في إيه؟!!
لم يهتم بالرد ليفتح باب المنزل لتنتبه له والدته:
-ميزو حبيبي.
فتحت ذراعيها لتستقبله بينهما بشوق وهو كذلك ضمها إليه مرددًا:
- حمدلله على السلامة كنت قلقان عليكم.
ربتت على ظهره مطمئنة:
-احنا قدامك بخير أهو.
تركته ليضم أخيه إلى صدره:
-حمدلله على السلامة يا سام ...وحشتني.
- أنت كمان.

ظهرت نرمين لتحيتهما وكذلك والدتها أما والدها فكان في عمله، دلف الجميع للمنزل ليتبادلوا الحديث عن أوضاع البلاد وكيف ألت الامور إلى تلك المرحلة، لم يهتم معاذ كثيرًا بتلك الأخبار فهو يسمع مثلها على شاشات التلفاز، كان همه السؤال عنها فوقف قائلًا:

-أنتوا ما تعبتوش من الرحلة ياله علشان تستريحوا شوية ...وانت يا سام تعال نام في اوضتي السرير كبير.

لم ينتظر رد من أحد بل أسرع بجذب أخاه الذي تحرك معه مودعًا الجالسين لنيل بعض الراحة، أدخله معاذ غرفته وما إن أغلق الباب حتى قال:

- سامر ..هما الناس اللي في الفيلا مشوا.

رمقه سامر للحظات قبل أن يفتح حقيبته ليشرع في تبديل ثيابه:

-ناس مين؟!

زم معاذ شفتيه:

-يعني هيكون مين اللي شغالين فيها.

-أيوة إدناهم أجازة لحد أما نرجع.

حك معاذ ذقنه مهمهمًا:

- اممممممم ...طيب بوسي كنت بتشوفها.

لم يجِبه حتى انتهى من تبديل ثيابه ليكرر معاذ سؤاله بلهفة أكبر، اتجه للفراش ليريح جسده المنهك عليه ويشد عليه الغطاء قائلًا:

- أنت مطلعني علشان أرتاح ولا علشان تفتحلي تحقيق.

قفز معاذ بجواره ليقول برجاء:

- سام علشان خاطري أنا هاتجنن ...من ساعة ما جيت هنا وانا مش عارف أوصلها خالص.

تنهيدة حاره خرجت من صدر أخيه ليجيب:

-لأ ماشوفتهاش.

معاذ بقلق:

-ليه هي بطلت تيجي الفيلا؟.

التفت له سامر بنظرة غضب:
- يعني انت متخيل اني هدور عليها ولا هعرف بتيجي ولا ما بتجيش.
انتقل غضبه لمعاذ ليزعق:
- انت اللي جبتني هنا ..انت اللي بعدتني عنها كمان مش عايزني أسأل.
اعتدل سامر ليضع كفه على فم شقيقه:
- صوتك انت اتجننت.
دفع كفه بعيدًا ليقول بحزن واضح:
- أنا حاسس اني بخسرها مش هسامحك يا سامر ..مش هسامحك لو خسرتها.
اكتسى قلب سامر الآلم وهو يرى ملامح أخيه تتنقل بين حزن ويأس وحيرة، هو سيخسرها بل خسرها بالفعل، لكنه مازال مقتنعًا أنه يفعل ما فيه المصلحة.
- ماتقلقش ...إن شاء الله تكون بخير.
رد بصوت بالكاد مسموع:
- ازاي والدنيا مقلوبة كده.
ابتسم سامر ليربت على كفه:
- الناس اللي عايشة في المناطق الشعبية بيحموا نفسهم بنفسهم عندهم أمان أكتر من اللي كان عندنا ماتخفش عليها وممكن تسيبني أنام أنا بجد تعبان.
- ماتنام يا عم هو أنا مسكك.
لوى سامر شفتيه ليسحب وسادة ضاربًا بها وجه أخيه:
-طب اخرج من هنا ياله ...بره.
دفع معاذ الوسادة جانبًا:
-خلاص..هقوم.
وغادر الغرفة ليستلقي سامر هامسًا:
- سامحني يا معاذ.
أغلق عينيه باحثًا عن النوم لكن كلمات أخيه لم تسمح له بذلك.
"التليفون أهو ...دي وسيلة الاتصال الوحيدة اللي اداها لبنتي"

كلمات فاطمة له وهي تعيد هاتف معاذ الذي منحه لابنتها ليرد الجميل من وجهة نظره بمنحها بطاقة ائتمانية.
"الكارت ده هينزل فيه مرتبك كل شهر كلمة السر بتاعته أهي ...ابقي اسحبي منه كل أول شهر"
لم ينسَ النظرة التي ملأت عيناها حينها.
غضب ...استنكار ...حزن ...فاستسلام.
ليس لها أن ترفض.
في هذا العمر أين ستجد عمل آخر، ستبيع قلب ابنتها وحبها من أجل مستقبلها.
لكن تأنيب الضمير الشعور بأنه مخطيء يسبب له الكثير من الارق.
هل فعل ما فعلته أمه به منذ سنوات؟!!
هل كانت على حق إذن؟ والمفترض أن يسامحها بل ويشكرها على حرصها عليه.
فتح عينيه والنكران يرتسم عليهما،الأمر مختلف.
أحلام كانت مختلفة لم تكن فقيرة إلى هذا الحد، كانت أمها ربة منزل وأبيها موظف حكومي، عملت معلمة في مدرسة حكومية.
لم تكن بهذا السوء ومع ذلك رفضتها، نبذتها بل أجبرتها على كرهه لأنها كانت تعلم أنه لن يتركها، لن يتنازل عنها، فالحل الامثل أن تتركه هي.
وهو أراد أن يحمي أخاه من أن يمر بنفس مراحل عذابه، يقيه من مشاعر كره وبغض قد يحملها لأمه رغمًا عنه.
سيتحمل هو تلك المشاعر قليلًا، معاذ لازال صغيرًا، حبه مرتبط بمراهقته، حتمًا سينضج أكثر وسيتفهم أن تلك الزيجة ما كانت لتنجح.
مد يده باحثًا عن هاتفه، عبث به إلى أن ظهرت الصورة التي يبحث عنها .
بسمة حزينة ارتسمت على شفتيها.
أحلام وعائلتها.
أخر صورة وصلت له من الرجل الذي خصصه لذلك الأمر فحسب.
"تابع أخبارها ..وابعتلي كل فترة صورة ليها توضح حالها"

كانت تسير بعباءة سوداء أنيقة كحال أهل تلك البلد في الخليج تحمل طفلة على ذراعها وأخر متعلق بكف رجل بجوارها.
مد أنامله يمررها على ملامح وجهها هي وطفليها.
عائلته الافتراضيه!!
كأي عالم افتراضي يعيش فيه الكثيرون يتغاضى عن هذا الرجل الواقف بجوارها، حتي أنه لا يذكر ملامحه فلم يدقق فيها يومًا.
"ماتعرفش سمت ولادها إيه؟؟"!
سؤال ألقاه بحماس فمنذ علم بانجابها للطفل الأول لم يسأل عن اسمه لكن بعد انجابها الطفلة لم يستطع منع فضوله أكثر لتأتيه الإجابة الذي جعلت السعادة تتسلل لقلبه المكلوم.
كما خططا معًا ..كما اختارا معًا.
-"لو جبنا ولد هنسميه إيه؟!!
سألها بلهجته الودودة المحبة لتبتسم برقة:
- يوسف.
-اشمعنا ...انا كنت بفكر في اسم بابا ...شاكر ...حلو مش كده؟!!
مطت شفتيها:
- حلو يا حبيبي ...بس لا باباك ولا بابايا اسم يوسف جمييييل وانا بحبه أوي.
-امممممممممم ...ماشي ...هتنزل المرة دي.
ضحكت:
- طب انت اختار اسم البنت.
- البنت ...هنسميها ...كنزي ...لانها هتكون كنزي منك يا أحلى حلم بعيشه.
توردت وجنتيها خجلًا من كلمات حبه التي يرددها على مسامعها وكم كان يسعده رؤية ذاك الخجل"
وصدقت فيما وعدت، احتفظت بتلك الاسماء فالاجابة جاءت موافقة لكل ما خططا له، الابن الأكبر سمي يوسف والطفلة سميت كنزي، لم ينسَ تلك الرعشة التي أصابت جسده وصدرت من قلبه حين علم بأسماءهما.

هي لم تكرهه، أحلام لم تكرهه ما كانت لتسمي طفليها بما اختاراه ،هي تذكره، ربما لازال قلبها يحتفظ بالذكرى الطيبة عنه قاهرًا الذكرى السيئة.
دومًا يريد اقناع نفسه بهذا، صحيح أنها استطاعت تناسيه وأكملت حياتها، تزوجت وانجبت، أصبح لها عائلتها.
أما هو فلم يستطع، ليس الأمر أنه لم ينسَها فحسب؛ هو يعرف أنه يخشى تكرار ما حدث، أمه لن تقبل بمن يحب.
فما الداعي للحب؟
أمه ستعيد عليه الكره وستعذبه وتمزق حبه إلى أشلاء.
كم فكر في الانفصال عن عائلته والابتعاد عنهم، إلا أن وصية أبيه وتعلقه بأخيه ابقياه مكانه.
تنهيدة مريرة تركت صدره، ليغلق هاتفه متدثرًا بغطائه باحثًا عن نوم عزيز لا يأتيه بسهولة.
....

انتظر الكثيرون النتائج .من في البلاد انتظر ومن خارج البلاد انتظر ومر عام يليه / يلو عام، يعود البعض ويسافرون مجددًا.
قتل ، هرج، هدنات، ترضيات، اعتصامات، قتل، هرج، عودة للاتفاقات، مجلس ينتخب وبعدها يحل ورئيس مؤقت يله آخر مؤقت لينتخب مجلس جديد.
ودارت البلاد في دائرة دامت بضع سنوات.
سنوات مرت على الجميع، لتتغير أشياء وتبقى أشياء، لتنضج عقول وتتأقلم قلوب.

وقفت أمام مرآة نانا تهندم حجابها قبل أن تلتفت للفتاتان قائلة:
- شكلي تمام.
أشارت لها نانا بنعم لتقول مها:
- مش لابسه حجابك ..تبقي تمام.

ضحكن معًا قبل أن تعاود النظر للمرآة، اليوم يوم المقابلة العام الذي سيقام في الجامعة للخريجين، تأمل أن تنجح في الحصول على وظيفة، لقد انتهت دراستها أخيرًا بشق الأنفس واستطاعت الحفاظ على تقدير جيد جدًا كل عام.

والخطوة الأهم في الحياة العملية تريد أن تخطوها، تريد أن تشعر أنها نجحت في الشيء الوحيد الذي تمسكت به، تعليمها ومستقبلها، خسرت حبها، لكن من الجيد أنها تماسكت لتكسب نفسها.

قاومت حزنها، فقدها، تحملت ألمها وأنين قلبها، هواجسها فيما يخص تفسيره لتصرفها، كان عليها أن تتناسى كل هذا.

تحيا، تضحك، تأكل، تعيش وكأن شيئًا لم يكن وكم كان هذا صعبًا.

وسادتها فقط هي التي كانت تعرف حقيقتها، حين تبللها بدموع قهر ليلية بلا صوت يصاحبها وبلا أمل يرفق بها.

زفير يتبعه شهيق، تُخرج أي طاقة سلبية داخلها.

خرجت من غرفة الفتاتين تتبعها نانا لتجد أمها جالسة على أريكتها المفضلة بجوار غرفتها، اقتربت منها تقبل رأسها:

-ادعيلي يا أمي.

ضمتها أمها داعيه لها وأوقفتها تمنحها البطاقة الائتمانية:

- اسحبي فلوس الشهر.

تسرب الحزن لعينيها ككل مرة وهي تتسلم صك هزيمتها، الثمن الذي قبلت به أمها وهي أيضًا قبلت به بدورها، فمن المستحيل أن تجبر أمها على الشقاء، هي من الاساس من تسبب لها في كل هذا فلتقبل بالمال بصمت وتكمل حياتها وتترك أمها تنال بعض الراحة.

وأكثر ما كان يمزق قلبها، لو علم معاذ بهذا؛ باعت حبه ببطاقة ائتمانية تحوي فقط راتب أمها التقليدي، بلا أي زيادات، باستثناء أن أمها أصبحت لا تبذل مجهود مقابل هذا المال.

دست البطاقة في حقيبتها مغادرة لتتابعها عيني أمها التي أصبح الحزن ساكنها الدائم ولا أحد يعلم بالضبط سبب حزنها، لا أحد يعلم أن فرصتها في مقابلة تلك المرأة ضاعت.

أين يمكن أن تبحث عنها الآن ؟؟ ...إنها لا تترك منزلها ولم يعد لديها مكان يمكن أن تلتقي فيه بأمثالها من النساء.

ببساطة ضاع ما لديها عند تلك السيدة وهذه المرة ضاع إلى الأبد.

قاومت رغبة جديدة في البكاء وصوت تلك الشمطاء يتردد في عقلها:

"خدي القرشين دول وعيشي بيهم لحد ما تلاقي شغلانه ولا تشوفيلك جوازه ... وانتِ عموما مش شاطرة غير في الخدمة ...وإياكي يا فاطمة تفكري تدوري علينا أو تقربي ناحيتنا تاني .....فاهمة يا فاطمة ...فاهمة؟"

وكالعادة فهمت فاطمة، لكن قلبها لم يفهم، لم يستوعب، لم يرتاح للحظة.

....

كان يجمع حاجياته بسعادة مفرطة وتوتر بالغ، إحساسان يجتمعان معًا في قلبه، سيرى محبوبته وسيتعارك معها.

بل سيصرخ ويعنف ويزعق.

وربما سيحطم ضلوعها بين ذراعيه!!

كل عام مر عليه كان يشعل داخله الكثير من التساؤلات والاحتمالات المخيفة.

كم أراد السفر إليها.!!

لكن بقاء أمه معه وذهاب سامر وعودته له واخباره بأنها وأمها بخير هما فقط من أبقياه مكانه، علم أنها التحقت بالجامعة وأكملت دراستها وهو كذلك أكمل دراسته ولم يعد هناك داعي لبقائه.

فليكن، ابتعد عنها لسنوات لكن حلمهما أصبح وشيكًا قريبًا، سيشرعان في تنفيذ الجزء الاخير من الخطة، إلحاقها بالعمل في شركته والبدء من جديد.

جلس بجوار حقيبته يلتقط أنفاسه من فرط الحماسة، يتخيل ملامح وجهها كيف ستصبح بعد أربع سنوات، ستكون أجمل بالتأكيد أضحت أنثى مكتلمة الأن بعيدًا عن ملامح طفولتها ومراهقتها التي عاشها معها.
ابتسامة تتسل إلى شفتيه، كتمها بزمهما معًا.
لا، لن يلاقيها ببسمة بل بنظرة غضب ولوم.
أين ألقت بهاتفه تلك الجاحدة؟
حتى في المرات التي سمع رنينه فيها لا إجابة ثم يعود للغلق ثانية لكن رنينه هذا كان يمنحه شعورًا خفيًا بأنها هناك، تسمعه ..حتى لو لم تجبه إلا أن رنينه أيضًا توقف تماما في العام الأخير.
زفرة تُخرج من صدره توتره وتمنحه بعض الهدوء، رفع كفه يتأمل خاتمه الفضي المميز لتستقر البسمة هذه المرة دون مقاومة على شفتيه بل على ملامح وجهه كلها.
لم يخلعه من يده مرة أخرى حين كاد أن يفقده، جن جنونه وهو يبحث عنه هنا وهناك حتى أن أمه اندهشت من حرصه البالغ على هذا الخاتم غير النفيس من وجهة نظرها ولم يهدأ باله حتى دخلت نرمين غرفته تحمل الخاتم معها قائلة:
-لاقيته في الجنينة.
انقض على الخاتم ليتأكد أنه هو ...ليزفر براحة:
-أخيرًا.
شاكرًا لها جدًا عثورها عليه ...كان لديه احساس أن فقد الخاتم أيضا يعني نهاية كل شيء، هذا الخاتم هو الصلة الوحيدة التي يملكها بها وحينها سألته:
-هو الخاتم ده مهم عندك أوي كده؟!!
-أيوة.
كان يريد الاكتفاء بتلك الكلمة لكنها سألته:
- ليه؟!!

ربما لن يجد فرصة أفضل من تلك سيخبرها، سيجعلها تعلم أنه لن يكون لها يومًا، محاولتها الدائمة للتقرب منه أصبحت تؤلم قلبه عليها وصمته دومًا يمنحها الأمل.

- ده هدية من أعز مخلوقة على قلبي.

اتساع عينيها، الحمرة التي ملأت وجنتيها.

ليس خجلًا !!هو واثق من هذا.

هو غضب ..أم استنكار ...أم ألم تصاعد من قلبها؟!!

لن يبحث عن تفسير.

هكذا هو الحب!!

يجعلك مضحيًا في سبيل طرف وأنانيًا في سبيل طرف آخر.

وهو مارس معها قمة الأنانية حين أنهى كلامه طالبًا منها الحفاظ على هذا السر فلن يعلن عن حبيبته الآن، ورجاء منه على استمرار صداقتهما التي لا يريد خسرتها.

لتكتمل صورة الألم التي ارتسمت ببسمة بائسة على شفتيها مع وعد بفعل ما يريد.

بسمة تكررت رؤيته لها كثيرًا بعدها كما هي الآن تقف على باب غرفته ليتبادلا النظرات لبرهة قبل أن يقف قائلًا:

-نيرمين ...أنا خلاص جهزت ماما خلصت.

أومأت برأسها وهي تشير للأسفل:

- ومستنياك تحت.

حمل حقيبته ليلمح نظرة الحزن التي لم تقاوم ظهورها على عينيها أكثر، ثبت للحظة قائلًا:

-نرمين شكرًا على كل حاجه ...وأسف ..أسف جدًا.

يعتذر عن ماذا؟!!

تسألت .!!

عن حبها الأحمق وحيد الاتجاه أم عدم تجاوبه معها وقتلها بكلمة حميمية ليست لها بل لأخرى.
وكأن قلبها تعرض لنوبة صقيع مفاجئة لتنتقل رجفته لكل أوصالها.
منذ أن لاحظت اهتمامه بخاتمه ذاك وقررت أن تخفيه عنه لترى ردت فعله وكما توقعت، أصابه الجنون وهو يبحث هنا وهناك.
حينها عادت لغرفتها وظلت تحدق بهذا الخاتم الفضي فتشته جيدًا لعلها تجد اسم، حرف، أي شيء يدل عن من أهداه إياه لكنها لم تجد.
تملكتها الانانية للحظة، أنانية كانت تدفعها للتخلص من هذا الخاتم إلى الأبد.
ألا تعيده له أبدًا.
لكنها لم تستطع، حملته عائدة به، وليتها لم تفعل فلقد قالها بكل بساطة.
"ده هدية من أعز مخلوقة على قلبي".
والغريب ما سمعته بعد ذلك، حبيبته دون المستوى، لن تقبل بها أمه الان، لا يستطيع الوصول إليها منذ سفره.
أحُبه قويًا لهذه الدرجة؟!!
مرت أعوام ومازال يتحدث ويفكر فيها وكأنه لم يفارقها للحظة، أي نوع من الفتيات تلك التي سرقت قلب حبيبها بل وختمته باسمها إلى الأبد.
- ليه معتقد إنك هترجع تلاقيها زي ما سيبتها.
وكأنها تريد تنبيه لن تجدها، أنت فقط من يعيش هذا الحب.!!
كان يود التحرك لكن سؤالها أوقفه رمقها بعدم فهم لتضيف:
- دول سنين ماتعرفش عنها حاجه ...تفتكر مستنياك؟!
ابتسم ليقول بثقة:
-طبعًا.
من أين له هذه الثقة؟
زفرت بحرارة:
-مش بتقول إن هي اللي قطعت الاتصال ده مش معناه أي حاجه؟.

كلمات قالها لنفسه كثيرًا لتفسير سبب عدم ردها على الهاتف الذي منحه لها، لكن المعاني التي تصل له لا يقبلها عقله على الإطلاق هي لن تتركه، لن تتخلى عنه، لديها عذرها وسيسمعه حين يلقاها.
ابتسم قائلًا بلطف:
-معناه هسمعه منها لما أشوفها ماتقلقيش..سلام وماتتأخريش علينا فِ الزيارة.
لم يرد الانتظار أكثر ورؤية المزيد من الاحباط على وجهها والذي تنقله له بكلماتها وتساؤلاتها عن بسمة.
وبدأت رحلته التي مرت عليه كسنوات فراقهما الأربع وما إن وصل لقصره الذي افتقده كثيرًا حتى أسرع بالصعود لغرفته تحمم وبدل ثيابه تأكد أن أمه دخلت لغرفتها.
كل من في القصر علموا برجوعه وبالطبع هي أيضًا، ستكون في مخبأهما الخاص الآن، اتسعت بسمته وقلبه يسابق خطواته إلى حيث حبيبته.
وتوقف كل شيء في لحظة حتى قلبه يعتقد أنه توقف بالفعل للحظة قبل أن يعود للنبض وهو يحدق بتلك البقعة الشاسعة الخالية من أي شيء وكل شيء فقط مساحة خضراء عريضة كغيرها في الحديقة الفسيحة، تلفت حوله لعل غيابه انساه المكان، مستحيل ...لن ينسَه أبدًا.!
أين؟!!
أين مكانهما السري؟.!!
رفع صوته صائحًا:
-عم صبحي ...عم صبحيييي.
أسرع رجل تعدى الخمسين إليه مجيبًا ليرفع معاذ كفه مشيرًا بسبابته لمكانه المفقود:
-كان .. كان في هنا ...شجر كتيبير ...قصير كده انتو شيلتوه.
ضيق الرجل عيناه متذكرًا وعيني معاذ تكاد تغادر مقلتيه محدقًا به مترقبًا رده ليقول الرجل:

-اااه ...أيام الضرب والبهدله سامر بيه قالنا نشيل كل الحاجات اللي في الجنينة اللي ممكن حد يستخبى وراها ومانشوفوش بس ده من مدة يا بيه.
ظل يحدق في تلك البقعة العراء وكأن أحدهم هدم منزله الخاص أو ربما سلب متنفسه الوحيد . ظل الرجل بجواره لا يعرف ما الذي عليه فعله حتى تحرك معاذ مغادرًا.
بدأ قلبه يشعر بالقلق، أول شيء أراد العثورعليه لم يعد له وجود.
ما التالي؟!!
بسمة ستختفي أيضًا.
توقفت قدماه أمام باب مطبخ القصر، لم يتردد في الدخول وكالمرة السابقة صمت خيم على المكان.
هل يسأل عنها أمام الجميع؟.!!
"حمدلله على السلامة يا معاذ بيه ...نورت البيت من تاني ...محتاج حاجه؟"!!
التفت إلى سميرة التي ألقت تحيتها للتو ليحاول الابتسام قائلًا:
-الله يسلمك..فاكرة البنت اللي كانت بتعمل النسكافية اللي بحبه ...نفسي فيه.
لم يغب عن بصره نظرة الخيبة وربما الحزن التي ظهرت في عينيها وهي تدور بهما في المكان.
- يااه ..بوسي ...دي مشيت هي وأمها من زمان ...تقريبا بعد ما حضرتك سافرت بيومين تلاتة.
وانقطع الحبل الأخير الذي كان يتمسك به قلبه، ليهوي من مكانه.
لا ..هو لا يزال مكانه، لكن شيئًا هوى منه الآن، شيء مؤلم ..جدًا.
لم يعد للوقت قيمة أو معني ولم يستفق من وقفته إلا على صوت سميرة:
-أنا بعرف اعمله كويس برضو ...أعملك واحد يا معاذ بيه.
لم يجِبها بما سألت وإنما بسؤال آخر:
- ماتعرفيش عنوانهم؟!!
هذه المرة الصمت حلق على الجميع وهم يحدقون به في دهشة، ليس فقط لسؤاله الغريب بل للنبرة التي غلفت كلماته.

-لا يا معاذ بيه فاطمة ماكنتش معرفه حد عنوانها.
عقدت حاجبيها لرؤية تلك البسمة الساخرة الحزينة التي ارتسمت على شفتيه قبل أن يتركهم مغادرًا، لتقترب إحداهن من سميرة بفضول قاتل:
-هو في إيه ...هو بيسأل عليهم كده ليه؟!
زمت سميرة شفتيها:
- ولا أكنكم سمعتم حاجه احنا مالناش دعوة ..اللي بيسأل عنهم مشوا من أربع سنين ومش هيرجعوا كل واحده تخليها في شغلها.

وصل غرفته ليدخلها ولم يجد القوة ليصل لأقصى من ذلك فجلس أرضًا.
عدم استيعاب ...
عدم فهم...
التية، ربما هذا هو التعبيرالأفضل.
كيف تصف شعور شخص يقف في نقطة ما ولا يرى أي شيء بعدها، كل الاتجاهات اختفت، كل الدروب أظلمت، والأكثر حيرة أن عليه التحرك، يجب أن يتحرك في أي اتجاه لكنه فقط عاجز.
كيف تختار طريق لا تراه؟!
ودون أن يشعر أو يختار قررت عيناه عنه الاختيار بعبرات تغادرها بصمت.
حبيبته اختفت، لقد خسرها بالفعل، سنواته الماضية كانت وهم لا أكثر.
بسمة غادرت حياته وكأنها لم تكن فيها يومًا.
لا يدري كم مر من الوقت عليه جالسًا مكانه حتى طرقات سميرة على بابه ليسمح لها بالدخول بكوب قهوته المفضلة لم يجبها فرحلت في صمت.
حتى سمع طرقات مختلفة لم تنتظر الاذن ليفتح باب غرفته مع صوت أخيه:
- معاذ ...حمدلله على السلامة.
لم يتحرك قيد أنملة فاقترب سامر منه:
-انت قاعد كده ليه؟.!
رفع رأسه إليه ليرتفع حاجبا سامر مرددًا:

- في إيه؟ ...!مالك؟!

- انت كذبت عليا!!

قالها بصوت خانق، هز سامر رأسه:

-مش فاهم ...كذبت عليك في ايه؟!

اعتدل بصعوبة واقفًا على قدميه:

-قلت انها دخلت الجامعة قلت انها بتكمل دراستها عادي وهي أصلا سايبه المكان من ساعة ما سيبته ...كذبت عليا ليه؟!

خرجت الأخيرة بصياح، فعقد سامر حاجبيه:

-وطي صوتك وانت كنت عايزني اقولك إيه أنها مشت علشان الاقيك ناططلي في أي طيارة تدور على حبيبة القلب.

فاجأه بأن تعلق بقميصه يهزه بعنف:

-أنت اللي عملت كده أنت اللي مشتهم ...أنت اللي رتبت كل حاجه ..أنت صح؟.

أمسك ذراعيّ أخاه يدفعه عنه قائلًا بضيق:

-أنت جايب الكلام الفارغ ده منين؟ معاذ فوووق بقى ...بقالك أربع سنين بعيد عنها ازاي لسه متعلق بيها لحد دلوقت.

رمقه للحظات بنظرات غضب عارمة حلت مكانها سخرية مريرة:

- طالعلك ..أنا على الاقل عدى أربع سنين بس لكن انت بقالك تمن سنين عايش في الأحلام بتاعتك اللي ماتحققتش.

تصلبت ملامح سامر للحظة قبل أن يجيبه بهدوء:

- بس عايش بشتغل وبحقق طموحاتي وعايش ...مش قاعد على الأرض وبنزل دمعة على خدي زي البنات فوووق يا بني أنت.

كانت نيرانه تشتعل رويدًا رويدًا وما إن أنهى سامر جملته حتى وصلت لأوجها ليصيح:

-عملت فيا كده ليه؟ ...قلتلك اصبر سيبنا وبعد ما نوصل اعمل اللي انت عايزه حرام عليك.

-قلتلك ماليش دعوة ...واضح إن الكلام معاك حاليًا مش هيفيد ريحلك يومين وبعدين هتنزل الشغل معايا.
جز أسنانه بعند واضح:
-هلاقيها يا سامر هلاقيها ...بسمة دي بتاعتي أنا ومحدش هياخدها مني.
- مش لو فعلا لسه ماحدش خدها!!
انتفض قلبه بين ضلوعه ليعاود التعلق بقميص أخيه:
- أنت عارف هي فين أنت عارف عنها حاجه ..بسمة فين ...بسمة فيين؟!!
حرر سامر نفسه مجددًا ليكون صوته هذه المرة أعلى وأكثر حازمًا:
-أنا ماعرفش عنها حاجه وإياك تتعامل معايا كده تاني ...فاهم!!
التفت مغادرًا ساحبًا الباب خلفه لينغلق بعنف بينما عيني معاذ قد اشتعلت غضبًا بدى واضحًا في احمرارهما وهو يردد:
-هلاقيها وهتشوف.
لينهار مرة أخرى على ركبتيه مرددًا بألم قاتل:
-بسمة ...أنتِ فين؟!!

....
وعلى مائدة الغداء البسيطة جلست فاطمة مع الفتاتين بينما لم تعد بسمة بعد من مقابلة جديدة في محاولة أخرى لايجاد وظيفة ملائمة.
وبينما يتناولن الطعام قالت فاطمة:
- نانا ...هتنشفي راسك لحد أمتى حرام عليكي ...الواد شاركي وطلبك اكتر من مرة ماتريحيه بقى .
زفرت بضيق :
-هو مش بيزهق ليه؟ مييبت مرة هقول لأ ...دي كلمة من حرفين مش قادر يفهمها ليه؟!!
قالت مها بسخرية:
-لأن في كلمة تانية برضو من حرفين مش مخلياه فاهم كلمتك الغريب بقى ... هو بيحبك أوي كده ليه علشان يفضل مستني موفقتك طول السنين دي.

لوت شفتيها:
- نعم يا ختي ...قصدك إيه؟ ماشبهش ولا ماشبهش.
- يا سلام ...يعني انتِ عايزة تفضلي تقوليله لأ وفي نفس الوقت مبسوطه وفرحانه إنه شابط فيكي ...هو أكيد حاسس بده أنتِ دايمًا مدياله أمل بقى بيشتغل شغلتين علشان يقنعك إنك هتعيشي معاه كويس ومافيش فايدة ثم أنتِ هتضحكي على نفسك لحد امتى كلنا عارفين إنك بتحبيه بس بتكابري.
صمتت نانا، مها على حق هي تحبه، نجح باصراره وبراعة في الاستقرار داخل جنبات قلبها وأغلق على نفسه .
ولكن هل الحب يكفي؟!
إنها مجرد مشاعر مقيته لا تغني ولا تسمن من وجوع، ليس لديها أي استعداد لمعايشة نفس الحياة بل وإضافة أسرة وأطفال لها، إذا كانت ستحيا فقيرة فلتحيا وحيدة، هذا أفضل لديها من أن تشعر بما قد يشعر ابناؤها به من حياة عاشت مثلها مع والديها.
تسلل لعقلها صوت فاطمة:
- يا نانا محمد راجل بمعني راجل ودي أهم حاجه تتمناها أي واحدة ثم اللي بتتمنيه ده صعب ...هيجيلك منين اللي يعيشك في فيلا ولا يحققلك كل أحلامك هي الناس دي يا بنتي بتقرب مننا ولا حتى بتشوفنا خاليكي مع اللي شاريكي ومع بعض تحققوا أحلامكم واحدة واحدة وربنا يكرمكم.
هزت رأسها بعنف:
- أنتوا مش فاهمني ليه ..أنا مش عايزة واحد غني وخلاص أنا بس ...أنا مش عايزة اصحى من نومي على صرخة بنتي اللي نظرها راح علشان ماعيش فلوس علاجها.
اتسعت عينا فاطمة محدقة بها لتنتقل ببصرها لمها التي امتلاء وجهها بل وقلبها حزنًا، لتكمل نانا بنفس الاسى والعصبية:
- مش عايزة عيالي يرجعوا يلاقوا البيت اتهد على راسي وراس ابوهم لأننا ماعرفناش نسكن في بيت مش ماليان شقوق وآيل للسقوط ...أعيش لوحدي

بقية عمري أحسن ميت مرة من أني أشوف في عينهم نفس الحرمان والعوزة والحاجة اللي تربيت بيهم.
هبت واقفة مرددة:
-حرام؟ !حرام اللي بقوله؟ !أنا مش معترضة على قدري وحياتي عشتها وبعيشها ..بس مش ربنا إدانا عقل ...ليه لازم نفضل نتجوز ونخلف وخلاص واحنا مش عارفين هنعرف نصرف عليهم ولا هنموتهم من الجوع لازم نفكر مرة واتنين وعشرة قبل ما نقرر نعمل عيلة.
عبرات مها هي ما تحدثت بعد أن توقفت نانا عن الكلام، تنهدت فاطمة بصمت، لم يعد لديها ما تقوله للفتاة لقد عاشت حياة صعبة وهي شاركتها تلك الحياة ربما عليها فقط أن تعي أن الدنيا ليست جنتنا وأن الابتلاءات فيها أكثر من المنح وهذا هو الطبيعي فهي دنيا ولن تكون غير ذلك.
ولكن مها كان لديها ما تقوله:
-أنا عمري ما لومت أبويا أو أمي على اللي حصلي ومش كل يتيم في الدنيا أهله ماتوا بسبب الفقر أنتِ مش باصه غير على ظروفك جربي تبصي على ظروف غيرك ...عمر الفقر ما كان سبب كل حزن ولا الغنى سبب كل سعادة جربي ترضي وبس يا نانا ترضي وبس.
لا أحد يفهمها، زفرت نانا بيأس لتدخل غرفتها، لا داعي للاستمرار في حوار تُحدث فيه نفسها.
ربتت فاطمة على كف مها:
- ربنا يكملك بعقلك يا بنتي.
انتزعت بسمة من بين آلامها لتستقر على شفتيها:
- نانا صعبانه عليا ساعات بحس إني السبب في كل عقدها واحنا صغيرين وقبل ما نظري يروح كانت بتقولي بابا هيجب فلوس وهيعالجني كانت بتطمني على طول ...وفجأة نظري راح وفضلت ماسكة فيها بعيط واقولها قولتيلي بابا هيعالجني كنت عَيلة ومش فاهمة اني بحملها ذنب مالهاش علاقة بيه ومن ساعتها نانا اتغيرت بطلت تاخدني في حضنها زي ما كانت بتعمل ..أنا متأكدة

انها ماكرهتنيش هي يمكن كرهت عجزها مع عجزي وطول الوقت بقنعها اني مش معترضة واني راضية باللي انا فيه بس نانا مارجعتش أبدا زي الاول.
-معلش يا بنتي ...نانا محتاجة تفوق بس خوفي من إن الحاجه اللي تفوقها توجعها أوي.
- أنا مش هسيبها أبدًا يا أبلة بطة أنا هحميها حتى من نفسها.
- وأنا يعني يا مها روحت فين دا أنتوا بناتي ربنا يخليكم ليا.
مدت ذراعها تجذب مها إلى حضنها لتستكين مها على صدرها الدفيء الذي عوضها كثيرًا عن حضن أمها الذي فقدته صغيرة.
مسدت رأسها برفق، هاتان الفتاتان أمانه بعنقها لم تتخلى عنهما للحظة برغم حاجتها وفقرها لكن كيف كانت ستتركهما للشارع .
كارثة انهيار العقار القديم الذي سكنوه جميعا وموت والديهما جعلها تقف في حالة صدمة حقيقية.
الفتاتان في الشارع، نانا تجلس مستندة إلى بقايا جدار ومها نائمة على فخذها والاتربة تغطيهما، اندفعت إليهما تضمهما إلى صدرها مرددة:
- ماتخافوش يا بنات ...ماتخافوش حمدلله على سلامتكم.
وبالفعل ظلتا معها حتى هذه اللحظة ولن تفارقهما إلا وقد زوجتهما ...
"أبلة بطة ...أبلة بطة ...أنا محمد أجي"
هبت مها واقفة لتسرع لغرفتها لتبتسم فاطمة وانتظرت حتى اختفت الفتاة لتقول:
-تعالى يا محمد.
اندفعت مها لغرفتها تبحث عن حجابها، اعتدلت نانا التي كانت مستلقية على فراشها:
- في إية؟!!
- ده محمد ..جه برة.
عقدت حاجبيها وارتسم الغضب على ملامحها:

- كويس إنه جه أنا بقى هطلع اقوله يشيلني من دماغه ويشوفله واحدة تعيش معاه بدل ما هو موقف نفسه علشاني.
همست مها:
- أنتِ اتجننتي يا نانا حرام عليك ..ثم أنتِ قلتيله قبل كده وهو ماسمعش الكلام.
- كنت بقوله بيني وبينه لكن دلوقتي هقول قدامكم يمكن كرامته توجعه ويشلني من دماغه.
أمسكت بكف اختها:
- تعالي معايا.
أرادت مها سحب كفها بقوة:
-لا يا نانا محمد مايستاهلش منك كده.
- تعاااالي
جذبتها بقوة أكبر لتندفع معها للخارج بينما كان محمد يقف أمام السلم مناديًا أحدهم ولم تهتم نانا بذلك لتقول:
-محمد.
التفت لها لتقول:
- شيلني من دماغك بقى علشان أنا زهقت.
تغضنت ملامح وجهه وإن أضيف لها بعض الدهشة لتنهرها فاطمة التي وقفت:
- نانا ...انتِ اتجننتي ...بتتكلمي كده ليه؟.
صاحت:
-لأنه مش عايز يفهم.
عادت ببصرها له لكنها صدمت بعينين مختلفتين بل بوجه لم ترَه من قبل، عقدت حاجبيها وهي ترمق هذا الغريب الذي ظهر فجأة بينما قال محمد محافظًا على ما تبقى له من أعصاب:
-أنا مش جاي ليكي الاستاذ ده عايز أبلة بطة.

وكأن دلو الماء البارد الذي أرادت قذفه في وجه محمد قد رد لها بنفس القوة لترمق ذلك الغريب الذي كان ينظر لوجههم بغير فهم لكنه ركز بصره على فاطمة ليخطو نحوها:

- حضرتك ...الست فاطمة.

كان شابًا وسيما وأنيقًا جدًا يرتدي ملابس توحي بمستواه المالي الرفيع.

تعلق بصر فاطمة به لا تذكر أنها رأته من قبل، مالت مها على أذن اختها هامسة:

-مين ده يا نانا؟!

- مش عارفة ..شكله واحد مبسوط بس ابلة بطة باين ماتعرفوش.

اقترب منها أكثر لتتسائل:

-أنا أعرفك يا بني ..اتقبلنا قبل كده.

هز رأسه نفيًا:

- لأ احنا ماتقبلناش قبل كده.

-أنت مين؟!!

سألته ولا تعلم لما بدأ قلبها بالدق بعنف وقلق زاد أضعافًا حين قال:

-حضرتك كنتي متجوزة من عمي ...زمان ...مش كده؟!!

فرغت فاها بشهقة قوية وأناملها تلتصق بشفاهها محدقة فيه بذهول.

خانتها قدميها لتتهاوى أرضًا فأسرعت لها نانا ومعها محمد لتمسك نانا بكتفيها وتجلس معها أرضًا متسائلة بقلق:

-مالك يا أبلة بطة؟

لم تمنحها إجابة فقط تحدق بهذا الغريب بعينين جاحظتين.

وقلب ينتفض بين الضلوع.

ها هو الماضي ..الذي تبحث عنه وتفر منه في نفس الوقت.

ها قد جاءت اللحظة التي تصورتها قريبة وتمنتها بعيدة.

الجرح القديم الذي كان ولا يزال ينزف.

سيزداد ألمًا وسيتضاعف نزيفه.

الفصل الثامن

أنا شاب لكن عمري ولا ألف عام
وحيد ولكن بين ضلوعي زحام
خايف ولكن خوفي مني أنا
أخرس ولكن قلبي مليان كلام
عجبي!!
رباعيات جاهين

أحداث تمر بنا، قد ندرك شرها قبل خيرها، وأحيانا لا ندرك خيرها قط ، ولكن المؤكد أننا نعايشها بكل تفاصيلها، أما حكمتها فهو ما قد نحتاج الكثير من الوقت لفهمها.

استغرقا وقتًا أطول في إنهاء تلك الأوراق وتحديد المطلوب لكسب تلك المناقصة فرك جاهين مؤخرة عنقه قائلًا:
- متهيألي كده تمام ...وفينا كل الشروط.
أومأ وافي برأسه بهمهمة، رمقه جاهين للحظات قبل أن يقول:
-احنا اتأخرنا ..ياله بينا.
نظر وافي للساعة التي تعدت منتصف الليل فعلًا:
-روح أنت يا جاهين أنا ورايا مشوار هخلصه وأروح.
عقد جاهين حاجبيه قائلًا بعصبية:
- مشوار إيه يا وافي؟؟ ..الوقت اتأخر جدًا .
-يا عم احنا في الصيف والناس مابتنمش إلا بعد الفجر.
- يا وافي الدنيا لسه مش أمان وماينفعش اللي أنت بتعمله ده.
وقف وافي حاملًا هاتفه ومفاتيح سيارته:

- كلها ساعة وهروح لو هتأخر هبقى أكلمك.
أمسك جاهين بذراعه:
- وبعدين معاك يا وافي اللي بتعمله ده خطر هتستفيد إيه من مراقبة المستشفى دي ...الناس دي عارفه هي بتعمل إيه مش ممكن تفضح نفسها قدام أي حد.
صمت وافي للحظات ينهيها بقوله:
- في حد في المستشفى قالي إنهم ناوين على عمليتين من اياهم الليلة ...يعني فرصة وجات لحد عندي.
زفر جاهين بنفاذ صبر:
- يابني أنت هتعمل فيها بوليس ما تبلغ عنهم وتسيب القانون يتصرف معاهم.
-ما أنا بلغت قبل كده يعني كانوا عملوا إيه ...لا دليل أنا بقى هجيب الدليل وبعدين هبلغ.
جذب ذراعه قائلًا:
- ثم أنت مالك محسسني إني هخش في حرب ..أنا بقف بالعربية بعيد وبصور بالكاميرا وخلاص على كده هما أساسًا مش بيشوفوني.
- طب أنا هاجي معاك.
- مش هينفع ...كده الحركة في العربية هتكون واضحة أكتر وكمان لو اتأخرنا احنا الاتنين ماما هتعمل دوشة ..أنت روح وقولها إني قابلت أصحابي وهرجع بعد شوية ..وأنا هخلي تليفوني مفتوح علشان لو حبيتوا تتصلوا يالا سلام بقى.
أسرع بالفرار قبل اعترضات أخرى من ابن عمه.
انطلق بسيارته إلى طريقها المعتاد لعدة ليالي منذ عودته من كندا، لن ولم ينسَ ثأر حسام، سيبقى خلف هذا المشفى إلى أن يفضح جرائمهم للجميع.
وأكثر ما يؤلمه أنه من سلم رفيقه لهم، فقد كان يعتقد أنها مشفى جيد لم يفهم أبدًا الأسئلة التي طرحوها عليه حينها، عن عائلته وأهله، وأخبرهم بحسن نية أنه يتيم ولا أهل له وأنه هو من سينفق على عملية الزائدة الدودية التي عاني من التهاباتها كثيرًا في الفترة الأخيرة.

ودخل رفيقه العمليات وخرج منها مع بسمة زائفة من سفاح يحمل رخصة طبيب.
وبعد الخروج من المشفى بأيام بسيطة شعر حسام بالاعياء والارهاق ليعود به لنفس المشفى ويخبرونه أن كل شيء على ما يرام وبرغم إصرار حسام على عدم الاهتمام إلا أنه أصر عليه أن يذهب به لمشفى أخر ليكتشفا الكارثة، لم يزيلوا الزائدة الدودية فحسب بل حصلوا على الكلية اليمنى كعرض مجاني.
صرخات حسام لم تفارق اذناه حينها وهو يتعلق به مرددًا:
- دول سرقوا كليتي يا وافي ...تصدق سرقوا كليتي.
حتى أعضاء البشر أصبحت محل للنهب والسرقة ...ولمَ لا؟!!
إذا كانت أرواحهم لا قيمة لها هنا، فهل أعضائهم البشرية سيكون لها أدنى قيمة؟!!
معاني كثيرة ترددت على لسان حسام وهو يحملق فيه بعجز لطالما سمع عن آكلي لحوم البشر ولم يتخيل أن يلتقي يومًا بسارقي أعضاء البشر.
ولم تحتمل الكلية الوحيدة التي تُركت لصديقه، فهي كانت في الاصل متعبة وكانت سبب صداقته مع رفيقه في المرض
لتكتمل المأساة ويتحول من شخص مريض إلى محتضر يبحث عن متبرع، ولم يظهر المتبرع، ولم ينتظر حسام، فارق الحياة تاركًا جزء منه يحيا في جسد أخر.
وأقسم وافي أن يثأر له، أن يظهر حقيقة هؤلاء السفاحين وجاءته فرصة ولن يضيعها.
أوقف سيارته في مكانها المعتاد بما يظهر له ما يحدث عند الباب الخلفي للمشفى والمسمى بالطواريء لكن كل الحالات تدخل من الباب الأمامي وتحول الباب الخلفي إلى منفذ لما هو غير قانوني.
جلس يراقب في هدوء وصبر، لتمر ثواني ..ودقائق ..بل وساعتين حتى انتفض على صوت رنين هاتفه، أجاب سريعًا:
- الو.

جاءه صوت جاهين القلق:
-وافي أنت فين؟؟ ..قلت ساعة وراجع اتأخرت ليه؟!!
- أنا كويس ماتقلقش...بس مافيش حاجه لسه حصلت.
وصلته زفرة جاهين الحارة قائلًا:
- وافي ماتجننيش ارجع بقى ...يا إما هتلقيني فوق دماغك.
انتبه لحركة على الباب فقال بسرعة:
- حد ظهر اقفل دلوقتي هكلمك بعدين.
وأغلق الخط سريعًا ليضبط كاميراته مرة أخرى ليسجل كل ما قد يحدث في اللحظات القادمة.
وقف أحدهم على باب الطوريء وبدا منتظرًا لشيء ما وبعد لحظات ظهرت سيارة
إسعاف لتقف أمامه ليختفي الرجل بالداخل لثواني ثم يعد ومعه آخران يحملان محفة استلقى عليها أحد ما بدى على قيد الحياة فالغطاء ترك رأسه حرًا.
دفعت تلك المحفاة في سيارة الاسعاف وانطلقت في الحال لتأتي أخرى بعدها تحمل جسم أخر.
عقد وافي حاجبيه محللًا ما يرى، شخصان دخلا إلى عربتي اسعاف، هل هما مريضان بحاجة لنقل كلى أم ضحيتين تم سرقة كليتهما؟!
فكر في اللحاق بعربتي الاسعاف الا أنه توقف عندما لمح امرأة تحمل في كلتا يديها صندوقي تبريد صغيرين وهو ما يتم حفظ اكياس الدم بها أو الاعضاء البشرية للحفاظ عليها قبل النقل.
لكن المرأة لم تتبع سيارتي الاسعاف ولا حتى ركبت إحداها إنما اتجهت بثبات إلى سيارة دفع رباعي ضخمة توحي بالثراء، لتركبها وتبدأ السيارة بالتحرك.
قرر وافي تتبع تلك السيارة وقبل أن يتحرك فوجيء بضوء كشاف سيارة أضيء أمامه فجأة لينتبه إلى رجلان يقفان بجوار سيارة ما لم ينتبه لها يحدقان فيه مباشرة ليشير أحدهما للأخر بالذهاب اليه، كان لا يزال ينقل كل ما يحدث

على هاتفه فألقاه بجواره ليشعل محرك سيارته وانطلق بها بسرعة وبالطبع أسرع الرجلان إلى سيارتهما لتتبعه.

....

ظل جاهين مستيقظًا ولم يتمكن من النوم لقلقه على وافي، عاد رنين هاتفه ليمسك به ويبتسم في سخرية:

-هو انتِ!!

لم يجد مانع من تمضية بعض الوقت في الكلام معها فقد يخفف هذا من توتره فأجاب:

-حبيبي وحشتيني ...عاملة أيه؟!!

جاءه صوتها الحامل لكل اللوم والعتاب على تجاهله لها في الفترة الأخيرة وكأنه سأم صحبتها ليدافع عن نفسه بكلماته المرحة، الحانية التي دومًا تجد صداها عند الفتيات.

تلك المخلوقات التي لم يستطع منع نفسه من التقرب لهن وقضاء الوقت معهن، وهو ما يلاقيه وافي بكل استياء، لكنه مختلف عن وافي بل أحيانا يندهش من كون ابن عمه هكذا فهو أوسم منه وكذلك أصغر سنًا، فالمفترض أن يشغله الفتيات لا ثأره لصديقه، إلا أن مرضه السبب في شخصيته تلك فقد مرت عليه فترة طويلة في طفولته يسأل ..لمَ أصابه الله بهذا المرض؟ بماذا أخطأ؟!!

حينها شعر والد جاهين بالقلق على وافي وأخبر سميحة أنه سيأخذه ليجلسه مع عالم من علوم الدين لعله يفهم قبل أن يسبب له مرضه مشاكل في عقيدته وبرغم أن سميحة لم تقبل تدخل يحيى في الامر فوافي يخصها وحدها ولا تحب لأحد أن يتدخل في شئونه، حينها صرخ أباه أن الفتى يسأل أسئلة يجب أن تمنحه إجابة مناسبة وإلا ضاع منهم.

وجلوسه مع ذلك العالم تكرر كثيرًا وأثر بشكل كبير على أفكار وافي.

عاد من أفكاره على صوت تدللها له للقاء قريب، اتسعت بسمته مع وعدًا منه باتصال في نهاية الاسبوع ليقضيا وقتًا معًا.

وقبل أن تنتهي مكالمته وصل لهاتفه رسالة، اعتذر منها ليرى تلك الرسالة فوجدها رسالة مرئية من وافي، عاد للفتاة لينهى الاتصال تمامًا.
ليفتح تلك الرسالة وكان تسجيل مرئي ليهز رأسه قائلًا:
-مش قادر يصبر لما يجي باعتلي الفيديو.
تابع جاهين المشهد الذي انتهى على إشارة أحد الرجلين للامساك بمصور المشهد.
لينتهي التسجيل عن هذه النقطة، عقد جاهين حاجبيه وبدأ قلبه في التحرك بوتيرة أسرع، لقد تم اكتشاف أمره.
أسرع بالاتصال بهاتف وافي ليصطدم بالرسالة المسجلة.
"الهاتف المطلوب مغلق أو غير متاح"
أعاد مشاهدة التسجيل، ليندفع بعدها خارجًا بملابسه البيتية مستقلًا سيارته وانطلق بها.
تعددت مرات محاولات الاتصال بوافي ولا مجيب، نفس الرسالة الآلية، هز رأسه بقلق:
- رد يا وافي ابوس ايديك ...رد.
كان يعلم مسبقًا أين تقع تلك المشفى، فذهب إلى هناك في الحال وهي لم تكن بعيدة عن مسكنهما فكلاهما بنفس المنطقة إلا أن المشفى تقع على مشارفها وتحيطها العديد من المباني حديثة البناء والخالية وتفصلها عن الطرق العامة منطقة صحراوية واسعة.
مر منذ غادر منزله إلى أن وصل للمشفى 20 دقيقة بالضبط، ساعده على ذلك تأخر الوقت وخلو الطرق من السيارات تقريبًا.
غادر سيارته ومازال يكرر اتصاله بوافي، التف حول المشفى الهادىء ولم يظهر أي شيء غير طبيعي، كما أن سيارة وافي ليست هنا.
فرك رأسه بعصبية:
-اعمل إيه يا رب ..اعمل إيه؟؟

عاد لسيارته شاهد التسجيل مجددًا، ليقود سيارته للنقطة التي بدى أن المشهد صور منها.
هنا كانت تقف سيارة وافي وإذا أراد الفرار من هؤلاء سيأخذ هذا الطريق بالتأكيد.
عمل عقله بالسرعة المناسبة ليحدد وجهته التالية.
انطلق مجددًا في الاتجاه الذي يظن أن سيارة وافي سلكته، كان الطريق هاديء وخالي تمامًا.
استمرت حركة جاهين بسيارته لبعض الوقت قبل أن يتوقف بشكل مفاجيء وقد اتسعت عيناه عن أخرهما، فأمامه على بعد عدة أمتار استقرت سيارة وافي مقلوبة رأسًا على عقب.
مشهد تجمد له قلبه وعقله معًا.
ليصبح بقاءه واعيًا هو أسوأ كوابيسه، تمنى حقًا أن يكون في غيبوبة ما بدلًا مما يراه الآن!
لا يعرف كيف استطاع التحرك والتوجه للسيارة المنكوبة، أطرافه ترتعش، بصره مشوش ولسانه يتذبذب مرددًا حروف مبعثرة.
سقط على ركبيته ينظر داخل السيارة، يصرخ باسم صاحبها الذي غطت الدماء ملامح وجهه والكثير من ملابسه.

....
جلس مستندًا بظهره على الحائط البارد بالقرب من غرفة العمليات في حالة مزرية جدًا، أنفاسه تغادر رئتيه بشكل متقطع وسريع، دماء وافي تلطخ مساحة كبيرة من ملابسه.
بدا في حالة صدمة وعدم تصديق، لا يذكر كيف استطاع إخراج وافي من السيارة المحطمة والإسراع به إلى مشفى أبعد عن تلك التي كان يقف أمامها يراقبها، كل ما يذكره هو صوته الصارخ باسمه طوال الوقت.
أغلق عينيه متمتمًا بكلمة رددها كثيرًا:
- يارب.

اقتربت منه إحداهن شعرت بالشفقة عليه وعلى حاله:
- أستاذ ..مش هتتصل بحد يكون معاك أو حتى يجبلك هدوم بدل اللي مليانه دم دي.
فتح عينيه دون أن ينظر لها وأعاد غلقهما مجددًا وقفت مكانها للحظة قبل أن تتركه لحاله.
فليطمئن عليه أولًا قبل أن يتصل بأحد، ستموت عمته إذا أصاب هذا الشاب مكروه بل هو نفسه لا يعرف كيف يمكن أن تكون حياته إذا لم يكتب له النجاة.
أخ ...ابن عم ...صديق ..شريك عمل.
كيف يمكن أن يفقد كل تلك المعاني من حياته فجأه، أغلق جفنيه بقوة يستحثها لإخراج أي عبرة تريح قلبه ولم يفلح!!
تماسك ..قوة ...صلابة ..لا يعرف كيف يفسر تماسكه هكذا!!
لكنه يشعر بقلبه، أنه مرتاع ...خائف ...متوجس ومذنب!!
يشعر بالذنب.!!
لو منعه من الذهاب، لو أصر على الذهاب معه، لو ...لو ...لو؟؟!!
كلمة قصيرة نرددها دومًا عند الحزن، الخطأ، الندم ولكنها لا تُصلح أي شيء.
ردد عقله صوته الملهوف على حقيقة يسعى لها وبدلًا من أن يساعده جلس يسامر فتاة ما.
ضم قبضتيه بقوة مرددًا:
- سامحني يارب ...هاحاول أرضيك .. بس خليهولي يا رب ...خليهولي.
....
انتفضت سميحة فزعة على طرقات على غرفتها لتصيح:
-في إيـــــه؟؟!
اندفعت ميادة للغرفة قائلة:
-الحقي يا سميحة ..الولاد مابتوش في البيت وعربياتهم مش بره.
اعتدلت سميحة لتستوعب ما سمعت:

-ازاي يعني؟ مش جاهين رجع قبل ما انام وقال إن وافي مع اصحابه وهيرجع متأخر.
- أيوة بس انا قلقت من النوم قمت اعمل كوباية لبن دافي وطلعت البلكونة مالقيتش عربياتهم ..روحت لأوضة جاهين لاقتها فاضية وبعدين أوضة وافي كمان فاضية.
- كلمتي حد؟!!
-جاهين مابيردش ووافي تليفونه مقفول أنا قلقانه أوي.
هو شيء يدعو للقلق، فليس من عادة الشابين قضاء الليلة خارج المنزل ألا لسفر.
تسرب شعور ما لقلبها، شعور بأن الامر متعلق بوافي، فما الذي يدفع جاهين للمغادرة ثانية إلا لو أن وافي ... ؟
هبت واقفة هامسة باسمه:
-وافي ...ابني جراله حاجه يا ميادة.
لم تستطع ميادة انكار ذلك بل هي تشعر أن كلاهما تعرض لاذى ما، ظلتا مكانهما حتى صاحت سميحة:
-احنا هنفضل واقفين كده!!
-هنعمل إيه طيب؟.
لم تجد الاجابة المناسبة لسؤالها إلى أن قالت:
- خليكي ورا تليفون جاهين لحد ما يرد.
تركتها لتعود للاتصال بابنها بينما تحاول هي الاتصال بوافي وقلبيهما يردد رجاء واحد .
"استر يا رب"

....
هب من مكانه حين رأى أحد ألاطباء يخرج من قسم العمليات ليسرع نحوه سائلًا عن وافي، ربت الطبيب على كتفه قائلًا:
- الحالة صعبة أوي.

انهيار جديد داخله، آلام تتزايد في جسده وعينين تكاد تزيغ عنها الرؤية.
ليكمل الطبيب:
-أنت قلت انه مريض كلي.
أومأ جاهين برأسه فزم الطبيب شفتيه للحظة:
-لو في دكتور معين بيتابعه ياريت تخليه يجي، كليته تقريبًا وقفت عن العمل، والتانية مساعداه شوية وهيحتاج نقل كليه في أسرع وقت، هو هيتنقل للعناية الحرجة وممنوع الزيارة طبعًا ربنا معاه.
كلمات لم تسكن قلبه المرتاع بل زادت من فزعه وهمه.
من أين الأن لهم بذلك المتبرع المناسب؟ وهو يعلم جيدًا أن حالة وافي من الحالات الصعبة لإيجاد متبرع؟.
"وافي هيموت ...هيموت"
رددها عقله قبل لسانه لتخرج أمام عينيه المحفة المتنقلة تحمل وافي عليها كان وجهه محاط بالضمادات حتى أن رؤية ملامحه لم تكن سهلة لكنه بدا شاحبًا جدًا، أراد الاندفاع نحوه، ضمه إلى صدره، رجاءه أن يتماسك ويتمسك بالحياة لأجله، لكنه لم يفعل أيًا من هذا.
عاد خطوات للخلف ملتصقًا بالجدار وشعور تام بالعجز يتملكه، أهذه نهاية الأمر؟ !سيفقده دون حتى محاولة السعي لانقاذه.!!
أغلق عينيه ومرارة حلقه تتزايد، واعتصار قلبه لا يتوقف وإحساس يجبره على البقاء حيث هو وفقط ينتظر الخبر الأخير.
لا!!
هب معتدلًا بعد لحظات، ليس هذا وقت العجز، يحب أن يفعل شيئًا، أولها اخبار طبيبه وعمته وأمه.
اتجه إلى سيارته حيث ألقى هاتفه ونسيه تمامًا، فتح بابها يحدق بأثار الدماء التي جفت عليها، مد يده ليجد الهاتف يهتز بين أصابعه، تنفس بعمق للحظة قبل أن يعتدل مجيبًا لتخترق أذنه صرخة أمه:
-جاااهين ...حرام عليك ..أنا مُت من الرعب ...انت فين؟!!

جفاف حلق مفاجيء منعه من الرد، ثقل على لسانه أنساه النطق.
تعالي صياح أمه مجددًا ليتحول الصوت لصوت عمته التي يبدوأنها اختطفت الهاتف من أمه لتسأله عن وافي، ابتلع ريقه بصعوبة ليخرج كلماته بشق الأنفس:
- احنا في المستشفى وافي عمل حادثة.
صرخات سميحة المتوقعة أثقلت أذنه بالمزيد من الاحساس بالذنب، حاول تفادي ذلك الشعور المقيت ليخبرها بمكانهما وأغلق هاتفه ليتصل بطبيب وافي ليحضر لمساعدته.

كانت لحظة وصول عائلته هي الأسوأ عليه حاليًا، هرعت أمه تتفحص جسده بارتياع من كمية الدماء التي عليها متسائلة أهذه دماؤه أم ماذا؟!!
أما عمته فقد ألمت قلبه قبل أذنيه بصراخها لتضاعف حجم الشعور بالذنب.
"مارجعتوش معااك ليييه؟ !وافي هيضيع مني زي ابوه ما ضاااع ...سيبتوه ليه يا جاهين ...طول الوقت كنت بقولك ده امانه في رقبتك سيبتوه ليييه؟"!!
وأخيرا أطلقت عيناه العنان لكل دمعة حبيسة بحث عنها منذ شاهد سيارة وافي المحطمة وربما هي ثواني معدودة ليتخطى حاجز البكاء الصامت وينتقل سريعًا لبكاء عنيف وجسد ينتفض مرددًا:
- أنا أسف ...أسف.
لوم سميحة وتقريعها وصراخها المستمر،الذي لم يوقفه غير جذب أمه لها وهي تعنفها على تلك الكلمات:
- كفاية يا سميحة!!
فجاهين لا ذنب له ووافي لم يعد طفلًا ليتحكم ابنها بتصرفاته وأن عليهم الآن التركيز في كيفية انقاذه.
ذهبت تحتضن رأس ابنها تهدأ من روعه، تطالبه بالتماسك فهو الان عليه مسئولية مساعدة وافي، عليه أن يفكر في الطريقة التي تنقذه مما هو فيه بدلًا من الاستسلام للوم والعتاب والبكاء.

- اهدى يا جاهين يا حبيبي لما انت تبقى كده اومال احنا نعمل ايه وافي محتاجلك يا جاهين ...محتاجلك.
"باشمهندس جاهين"
رفع رأسه لينتبه لطبيب وافي قادمًا هب من مكانه مزيحًا عبراته التي أغرقت وجنتيه ليقترب من الطبيب سريعًا ويطلب منه تتبعه لملاقة الطبيب الجراح بينما جلست سميحة تندب وتبكي بهمس وميادة تربت على كتفها مواسية وإن لم تتوقف هي أيضًا عن البكاء.

حوار طبي يدور على مسامعه يحاول فهم ما فيه، كل ما وصل إليه أن ايجاد متبرع أمر عاجل وحيوي ليتمكن جسد وافي من المقاومة واسترداد عافيته، فلقد كانت أصابة عظامه بسيطة بسبب حزام الامان، لكن الترضخ والنزيف الداخلي قد دمرا كليته تمامًا ولابد من زرع كلية جديدة.
والأمر المعروف له مسبقًا أن وافي من أصحاب النسيج الخلوي النادر فإيجاد متبرع له ليس بتلك السهولة ويفضل أن يكون من أقارب الدرجة الاولى وحاول جاهين منذ مدة ولم تتوافق انسجتهما وكذلك سميحة وبالطبع ميادة.
ليسأل الطبيب الجراح:
-يعني هو والده ووالدته متوفين وكمان معندوش اخوات.
أومأ جاهين برأسه:
-ماتوا في حادثة وهو لسه رضيع ومالوش اخوات.
فهز الطبيب رأسه بيأس:
- ده هيصعب الموضوع جدًا ومافيش وقت عموما أنا نزلت اسمه في حالات التبرع الضرورية وربنا معاه وأنتوا برضو حاولوا تجربوا مع كل قرايبه تاني أو هنجرب بقى ادوية منع رفض الجسم المزروع رغم إن جسمه مش حمل تجربة زي دي.

خطواته التي اتخذها للعودة بدت أبعد من المتوقع أو لعله فقد القدرة على الشعور بالمكان والوقت فعقله مشغول بشيء أخر، ايجاد متبرع في الحال.
متبرع!!
من أين؟.!!
أسرعت له أمه فور رؤيته لتسأله عما عرف، اقترب من عمته وخلفه أمه تترقب كلماته، أوصل لهما كلمات الطبيبين بشكل شبه آلي، يتمنى أن تمنحه أيًا منهما الحل .ظلت سميحة تهز رأسها بيأس بينما ضاقت عينا ميادة لتقول:
- يعني هو قالك لو أمه أو أبوه موجودين الفرصة أحسن.
أومأ برأسه يائسًا، فمن أين لهم بالأموات؟!!
-يبقى نجيبها!!
رفع رأسه يحدق بأمه وهو يستوعب عبارتها ليجدها تنظر لسميحة بعينين ثاقبتين بينما سميحة تنظر لها بهلع.
عمته كانت فزعة من كلمة أمه.!!
-ماما ...انتِ بتقولي ايه؟ !نجيب مين؟!!
وقبل أن تفتح ميادة فمها صرخت سميحة:
- ميادة انتِ اتجننتي ...اسكتي.
ارتسم الغضب على ملامح ميادة:
- اسكت ...يعني انتِ ناوية تسكتي هتسيبيه يموت يا سميحة.
هزت رأسها بعنف:
-لأ...لأ ...هاديله كليتي خدوها.
- انتِ عارفه انهماينفعش ..كلنا عملنا التحاليل ومانفعناش يبقى مافيش غيرها.
تدخل جاهين ممسكًا بذارع أمه:
-ماما ..فاهميني انتِ قصدك ايه؟!!
-هفهمك.
-اسكتي يا ميادة.

رددتها سميحة باصرار ليصرخ جاهين بعمته ربما للمرة الاولى في حياته:
- اسكتي انتِ يا عمتو.
اتسعت عيناها تحدق به بذهول وكذلك أمه التي تفاجأت من ردت فعله، أما هو فقد كان غاضبًا جدًا، أيتلاعبون بحياة وافي أم ماذا؟!
- ماما فهميني ...يعني ايه اللي قلتيه بالظبط؟.!
قالها بنفاذ صبر لتردد أمه على مسامعه ما لم يتوقع سماعه قط، أُم وافي ربما على قيد الحياة، انفصل عنها وافي بعد مولده بأسبوع لأسباب كثيرة ليس هناك وقت لسردها.
حدق بكلتاهما بعدم تصديق:
- ازاي؟ ...!ازاي عملتوا كده؟ كلكم كنتوا عارفين وبابا كمان أنا مش قادر أصدق ...ازاي تحرموا وافي من أمه ...ازاااي؟!!
تنهيدة مكتومة من صدر أمه لتجيب:
- مش واقته يا جاهين دي قصة طويلة وقديمة أوي دلوقتي لازم نلاقيها ونجبها .. يارب تكون لسه عايشة أكيد ممكن تنقله كليتها وتنقذه.
التفتت لسميحة تسألها:
- ها يا سميحة ممكن يلاقيها فين؟ !انتِ الوحيدة اللي روحتلها ...عايشة فين؟!!
لم ترفع سميحة بصرها ناحيتهما.
فلتعترض، فلترفض، لن تعيد فتح تلك القصة، أبعد كل تلك السنوات هي من ستحضرها إليه؟
ووافي، ستتركه يموت لأنها لا تريد أن يعرف حقيقة كذبها عليه !!أيهما أكثر إيلامًا؟ بقاؤه حيًا مع خسارة حبه واحترامه لها أم رحيله ومازال يحمل لها الحب؟
زاد بكاءها لتقترب ميادة منها:
-وافي يا سميحة ...مش عايزين نفكر غير في وافي وان شاء الله كله هيبقى كويس.

جاهين يراقبهما وكأنه يطالع فيلم خيالي، وافي له أم لا يعلم عنها شيئًا، من كان ليصدق هذا؟ هل عدنا فجأة لأفلام الأبيض والأسود؟ !أم تلك الأفلام الهندية التي دومًا تظهر في نهايتها علاقة قرابة غير متوقعة؟.

هزت ميادة كتف سميحة تستحثها على الحديث والاكتفاء من هذا الصمت لتنطق سميحة أخيرًا:

- السيدة زينب ...كانت عايشة هناك بس ده من عمر وافي ماعرفش هي فين دلوقت.

- مش مشكلة ..جاهين يبدأ من هناك.

قالت سميحة ومازالت مطرقة الرأس تشعر كمن يحكم على نفسه بالاعدام:

- في درج مكتبي الأخير أجندة صفرا ..فيها ورقة قديمة عليها العنوان اسأل هناك.

ظل جاهين مكانه يرمقهما فحسب، حقًا استطاعا إخراجه من صدمته ليغرقاه بصدمة أخرى.

عليه الآن أن يبحث عن امرأة لم يهتموا لأمرها سنوات ويطالبها بالتبرع بكلية وكأنه سيطالبها بقطعة أثاث أو ببعض المال.

-جاهين ياله واقف كده ليه ...كل لحظة خطر على حياة وافي روح استحمى وغير هدومك دي احنا لسه الصبح ربنا يعينك تلاقيها بسرعة وماتكونش غيرت مكانها.

....

استند بكفيه على الحائط ليترك رأسه تحت تدفق الماء البارد بحثًا عما يطفيء تلك النيران التي تشتعل بعقله، الذي يكاد يطيش من الافكار التي تتزاحم به.

وافي بين الحياة والموت!!

أُم لوافي ظهرت من العدم!!

وعليه أن يذهب لها بعد كل تلك السنوات والهجر ليطلب منها مساعدة غير عادية.!!

إلى أي نوع من العائلات ينتمي !أمه ...عمته ...جده ..بل وحتى أباه؛ أباه الذي رباه دومًا على عدم الاستهانة بالأخرين، أباه الذي علمه أن صناعة الأصدقاء ليست بالمال وإنما بالقلوب، لا يصدق أنه شاركهم تلك الجريمة النكراء.
جريمة لا يعلم سببها؛ فأمه لم تمنحه مزيدًا من الشرح فالوقت غير مناسب!!
زفر ناثرًا الماء المنساب على وجهه، قرر أخيرًا إنهاء حمامِه البارد.
عدل ثيابه التي اختارها بعناية، تأمل وجهه الذي امتلأ بجمود غير متوقع لما قد تحمله اللحظات القادمة له، كل ما يأمله هو نجاة وافي.
فليكن هذا شغله الشاغل الآن.
ظل يرمق الورقة المتهالكة بعينيه والتي خط عليها عنوان قصير في منطقة ما بالسيدة زينب، لتبدأ رحلته البحثية عن امرأة المفترض أنها زوجة عمه وأم وافي.
أوقف سيارته ليستمر بالسؤال عن العنوان، فاضطر لترك سيارته بالخارج فالشوارع ضيقة ولن تتحمل سير سيارته بها، فهو من محبي السيارات الرياضية الضخمة التي يستخدمها أحيانًا في سفاري الصحراء.
وصل أخيرًا لأخر نقطة يشير لها العنوان، ظل يرمق المباني المتهالكة من حوله،
منطقة قديمة بالفعل، وشعبية جدًا، ضوضاء ...زعيق ...صراخ أطفال.
كل الأصوات التي كان يسمعها على فترات سمعها في وقت واحد، كما داعبت أنفه أنواع مختلفة من الروائح الطيب منها والسيء.
وبدا هو كصورة شاذة وسط كل ذلك، بهيئته الدالة على خلفيته المادية.
ظل مكانه يحملق فيما حوله فحسب إلى أن اقترب منه أحدهم:
-خير يا باشا؟ ...!أي خدمة!!
التفت لمحدثه ليرى شابًا يقارب وافي عمرًا:
-أيوة بدور على ست كانت ساكنه هنا من زمان ...من 22 سنة.
-يااااه .. ده زمان أوي ...هي لسه ساكنة هنا يعني؟!
ليته يمكنه تأكيد ذلك أو نفيه فاكتفى بهز كتفيه:

- بصراحة مش عارف.
همهم الشاب للحظات ليقول:
-مافيش غير الحاج حسن ..ده أكبر واحد هنا وممكن يساعدك.

تجول ببصره في تلك المنطقة الشعبية، بازدحام شوارعها الضيقة بالمارة الذين كانوا يتطلعون له للحظة قبل أن يكملوا طريقهم، ربما كان من الافضل أن يرتدي شيئًا بسيطًا، هو حتى الآن لا يعرف ما هو الانطباع الذي يريد تركه في عيون زوجة عمه حين تراه للمرة الأولى.
انتبه للشاب الذي معه وهو يشير له بالاقتراب، كان يتحدث لرجل كبير في السن يجلس على كرسي أمام محل صغير يحوي أشياء تخص الأطفال من مشتريات مصنعة أو لعب أطفال صغيرة.
فهم العجوز أنه يبحث عن أحد قاطني تلك المنطقة من سنوات فرفع رأسه إليه يعدل منظارة الغليظ الذي يخفي ملامح عينيه تقريبًا.
-بتدور على مين يا بني؟!!
اقترب جاهين منه محاولا الابتسام بود:
-كان ساكن هنا اتنين متجوزين من22 سنه ...وافي الشربيني ومراته بس وافي اتوفى في حادثة عربية من زمان والمفروض مراته كانت لسه عايشة هنا؟.!!
أطرق العجوز برأسه مرددًا:
- وافي ...وافي؟.!
تعلق قلب جاهين بتمتمات الرجل في انتظار الجواب الذي يتمناه لكن الرجل هز رأسه بيأس:
-مش فاكرُه يابني.
اقترب منه جاهين أكثر مرددا بلهجة راجية:

-لا ..أرجووك ...حاول تفتكر جه هنا وهو شاب صغير يعني هو كان 21 سنه تقريبًا واشتغل سواق عربيات نقل وعمل حادثة وهو في شغله ...وافي يا حاج أرجوك افتكر.
قرأ نبرة الصدق والشفقة في كلمات العجوز:
-يابني يا ريت اقدر أساعدك ...أنا مش قادر افتكر ده من زمن يابني وزي مانت شايف انا كبرت وأكيد بنسى.
تهدل كتفيه واليأس يستقر أكثر وأكثر داخل قلبه ليحدثه الشاب الذي حضر معه:
-طيب ما نسأل الحاجه سعدية دي مابتنشاش ابدًا دي لحد دلوقتي بتحكيلي عن يوم ما مات جمال عبد الناصر.
ضحك العجوز مؤيدًا:
- صحيح يا واد ...سعدية ..أيوة روح لسعدية أكيد هتعرف.
عاد الأمل يزاحم يأسه من جديد ليتبع الشاب في رحلة أخرى قصيرة باحثًا عن إبرة في كومة قش.
ووصل لسعدية التي تقف بشرفتها بالدور الأرضي تعارك طفلين يمرحان أمامها صارخة:
- ماشي يا واد انت وهو ...والله لأنا قايلة لأمكم.
اقترب منها الشاب صائحًا بصوت مرتفع فعلى ما يبدو سمعها ضعيف فسنها كان كبير:
-حاجه سعدية ...عاملة ايه النهاردة؟!
نظرت له بازدراء:
- كويسة يا خويا ..مابتسألش عليا ليه يا واد انت.
-الشغل بقى يا حاجه ... أكل العيش مر كنا قصدينك في خدمة.
- خدمة ايه؟
- بندور على واحد كان ساكن هنا مع مراته من سنين طويلة وقولنا مافيش غيرك اللي هيجيب لنا الخبر الاكيد.

نجح في جذب انتباهها ليشير لجاهين ليتحدث هو وأشار له أن يرفع صوته، أخبرها جاهين بما أخبر به العجوز صمتت لحظات طالت وهي ترمقه بتركيز وتتفحصه من رأسه حتى أخمص قدميه كاد يفقد أعصابه من الانتظار فقال ليحثها على الحديث:

- ها يا حاجه ...عارفاهم.

مطت شفتيها لتقول:

- وانت مين بقى؟!!

ليس هنا لتسأله بل ليسمع إجابتها، فقال:

-يعني انتِ تعرفيهم ...افتكرتيهم.

- انت مين؟؟!

سألت باصرار استفزه فوكزه الشاب:

-ريحها علشان تريحك.

زفر بضيق ليقول:

- يا حاجه يخصوني ...مسألة حياة أو موت.

صمتت لحظات وبدت غير راضية بتلك الإجابة، لكنها أشارت إلى مبنى على بعد أمتار منهما:

- مراته فضلت عايشة في البيت اللي كان هنا قبل ما يقع.

ومع أخر كلمة سقط قلبه بين قدميه ليردد بارتياع:

- يقع ..ماتت ...ماتت.!!

-لااا ...ماكنتش فيه لما وقع اتكتبلها عمر جديد.

تنفس الصعداء ليرمقها بغيظ، هذه العجوز تريد قتله أم ماذا؟ .!

- طيب هيا فين دلوقتي؟!!

أشارت بيدها أشارة مبهمة:

- نقلت كده في حته في المنطقة برضو انا ماعرفش فين بالظبط ..كانت بتيجي تشقر عليا بس بطلت من زمان قولها خالتك سعدية زعلانه منك.

مرر أصابعه بعنف في خصلات شعر رأسه وأحس الشاب بحالته فأراد مساعدته:

- طب هي فين؟ ..نوصلها ازاي؟!

همهمت مفكرة لتقول:

-عارف محمد اللي شغال في المول الجديد بتاع الهدوم ده أهو هو اللي عارف مكانها وبيروحلها على طول.

ما أن سمع جملتها حتى أمسك بكف جاهين:

- متشكرين أوي يا حاجه ...كنت عارف ان مافيش حد هيجيب قرارهم غيرك.

- ابقي اسأل عليا يا وااااد.

سحب جاهين معه قائلًا:

- يالا هوديك لمحمد وهو بقى يوصلك.

- انا متشكر أوي ...تعبتك.

- ولا تعب ولا حاجه؟!

شعر براحه كبيرة تضاعفت بعد وصوله للمدعو محمد الذي أكد أنه يعرفها بالفعل وتتبع محمد حتى وصل لمبنى لم يكن أفضل حالًا من مجاوريه وزادت صدمته حين علم أن زوجة عمه تقطن في سطح تلك البناية.

قلبه يعتصر شفقة وألمًا، يرتب كلماته في رأسه ولا سبيل للبداية الصحيحة وتحول الأمل وفرحته إلى حمل أثقل قلبه قبل جسده وهو يخطو على السلم إلى أن وصل لمبتغاه ليسمع كلمات محمد وهو يشير لامرأة يحدثها عنه.

ليقترب منها ويسألها السؤال الذي يعلم إجابته:

-حضرتك كنتي متجوزة من عمي ...زمان ..مش كده؟!!

لم يعلم كيف وقع السؤال عليها ..لكنه لم يكن سهلًا ...فلقد تهاوت أمامه أرضًا ..وهي تحدق به في ذهول وخوف.

....

الفصل التاسع

عجبي على العجب العجيب العجاب
لما الحقيقة تطل بعد احتجاب
وتروق وتحلا وفجأة تصبح مافيش
كمثل طراطيش بحر ياما خد وجاب
عجبي!!
رباعيات جاهين

قلبها ينتفض بين الضلوع، تحدق به بذهول، قلق وترقب.
إنه يشبههم، هؤلاء الذين طالما بحثت عنهم لتقترب ولو شبرًا من حقها المسلوب، حقها الذي كانت ستكتفي برؤيته من بعيد، لتريح قلبها الملكوم.
لم يساعدها لسانها على النطق بشيء فقط تحدق به في انتظارما سيقول وهو يرمقها بعينين قرأت فيهما الكثير من الحزن والاسى.
لينطق أخيرًا:
- أنا أسف ماعنديش وقت للمقدمات أرجوكِ ...تعالي معايا وافي محتاجلك أوي.
همس الواقفين جميعًا بنفس الاسم حتى هي لتضيف بلهجة يشوبها الألم والغضب أيضًا:
-وافي مات.
أغلق عينيه ليعيد فتحهما ..عليه استخدام اسمه الحقيقي:
-قصدي ..بسام ..ابنك.
هذه المرة الشهقة كانت من أفواه الأخرين لتميل نانا على فاطمة:
- ابنك ...انتِ .. انتِ عندك ابن يا ابلة بطة.
لم تكن في حاجه لسماع ذلك السؤال وليس هذا وقت الاجابة، فعقلها معلق مع شفتي هذا الشاب في انتظار البقية.

ما الذي يعنيه أنه بحاجتها، سميحة ما كانت لتخبره عنها قط، فكيف عرف إذن؟!!
لكنها سرعان ما تناست ذلك وتلفتت عيناها مع قلبها الملهوف لرؤية الغائب الحاضر، الغائب عن ناظريها لسنوات، الحاضر في قلبها على الدوام.
لاحظ نظراتها الباحثة لتزداد الغصة الحارقة بحلقه فلا تسعفه للكلام.
لتعود ببصرها إليه بلهجة تحمل شوق ورهبة لقاء:
-هو فين؟ جه معاك؟!!
بلل شفتيه بريقه ليساعدهما على التحرك مجددًا ليخرج صوته حاملًا كل ألم عايشه الساعات الماضية:
-لأ ماجاش ..بـ ... بسام ...عمل حادثة وحالته صعبه أوي.
انتفض على صرختها التي رجت الأجواء حوله وهي تلطم خديها بقوة.

أن تعيش على أمل تخيطه بكل ما هو جميل، ترسمه بدقة، وَهم حلمته وتمنيت أن يصبح واقع، واسيت قلبك وعقلك بسراب في انتظار تحوله لحقيقة.
لتفاجأ بعد كل هذا أن حلمك مجرد فقاعات هواء جاء أحدهم ليفرغها لك.
أن الأمل صار معدوم وتحول إلى صفحات من الألم.
وهكذا كان حالها.
توالت ضرباتها على صدرها بلوعة وكلماتها قاربت الهذيان لتتمسك بها نانا مهدئة ولحقت بها مها تتبع الصوت حتى وصلت إليهما ومحمد يتابع بذهول وجاهين ألجمه الألم .
- بيموت ..حرام عليكم ...حرمتوني منه ودلوقتي جايبن لي خبره.
صاح جاهين:
-لأ بسام لسه عايش ومحتاجلك أوي بس محتاج نقل كلية فورًا وانتِ .. انتِ أقرب حد ممكن يساعده لازم تيجي وتتبرعيله بكليـ...
انقطع صوته مع جذبه قوية من بدلته الصيفية وهدير صوت محمد يخترق أذنيه:

- بقى كده ...أنا ماكنتش مرتحلك من الاول انت عايز تاخد كليتها ...انت مجنون يا عم انت.
دفع جاهين محمد عنه ليعود بحديثه لفاطمة:
- يا ست فاطمة ..مافيش وقت ...كل لحظة تمنها غالي عند واف ...قصدي بسام.
كانت كلماته تصب في أذني فاطمة مسردًا لها حادثه وحالته لتهبط على قلبها كجمرات مشتعلة، تحاول أن تعي ما يقول ولا تستطع تصديقه.
ما الذي يهذي به هذا الشاب؟!
حادث سيارة، نزيف داخلي، دماء فقدت وجسد بحاجه إلى إعادة بناء، كُلية توقفت عن العمل ويجب زرع أخرى في أسرع وقت.
تصلبت دمعاتها وهي تستمع لكلماته، تحدق في وجهه.
الوجه الذي تمنت أن تلتقي به يومًا، وجه من عائلة الشربيني لكنها لم تعد كذلك، لا تريد أن تراهم، لا تريد أن تعرفهم، يكفي أنها تطمئن نفسها أن ابنها بالتأكيد يُربى بشكل جيد ربما أفضل مما كانت ستقدم له هي.
هكذا كانت تسكت قلبها المتألم الصارخ بالشوق لنبضات التحمت معه لتسعة أشهر قبل أن تغادر رحمها بل وحضنها أيضًا في أيام قليلة.
تواسيه بالنعيم الذي يحياه هذا الصغير الآن، تطيب خاطره بمأكل وملبس ما كانت لتحلم بمثله له.
لكن هيهات أن يعي القلب تلك الأمور المادية، هو قلب أُم وسيظل كذلك.
لم تنجح مواستها، ولم تفلح محاولتها .ظل القلب يأن، ويطلب الوصال بفلذة الكبد الذي حرم منه على حين غرة.
وها قد تحقق مراده لكن مابال الأنين تضاعف والألم ازداد، كيف لا والقرب الآن أصبح على حافة هاوية لا أكثر، فلذة كبدها يموت، لن تراه إلا في نعش محمول على الاعناق.
أفاقت من إعصار أفكارها على صوت الغريب:

-أرجوكِ مافيش وقت ...هتسيبي ابنك يموت أكيد لأ ...مش نفسك تشوفيه تعيشي معاه زي ما المفروض كان يحصل ساعديه علشان خاطره هو.

أغلقت عيناها على دمعات تفر من مقائيها دون توقف تردد كمن يهلوس:

-ابني ...ابني.!!

نانا تربت عليها باستمرار في محاولة لتهدئة فاشلة إلى الآن وتسألها:

-ابنك ...انتِ فعلا ليكي ابن ...أزاي؟!!

بدأ جاهين يفقد أخر ذرات تماسكه ليصيح بهم جميعًا:

-احنا هنفضل نسأل ازاي لحد أمتى بسام هيموت واحنا واقفين هنا نفسر لبعض اللي حصل زمان.

ضرب محمد كف بكف:

- أنا عايز افهم ...انتوا جنسكم إيه؟ بني أدمين زيينا يعني؟ انت لو كلامك ده صحيح يبقى بقى انتوا مش بشر ...جاي بعد سنين من حرمان الست من ابنها علشان ببساطة تقولها هاتي كليتك علشان ننقذه.

التفت له جاهين مدافعًا بعصبية:

-انا ماكنتش اعرف ...بسام نفسه مايعرفش.

ضحك محمد هازءًا:

-وعرفوك ليه ...علشان تقطعوا من جسمها وتاخدوا امشي من هنا أحسنلك ...انا مش مرتاحلك ومش مصدقك.

ليميل ناحية فاطمة:

-ممكن يكون كداب يا ابلة بطة ...وبيضحك عليكي.

-أنا مش كدااااب.

صرخ مرة أخرى ليندفع محمد نحوه.

-طب امشي من هنا بقى.

كان يدفعه بقوة بالفعل ناحية السلم ونانا تناديه ليتوقف عن ذاك التصرف.

"في ايــــه؟؟"!

هتاف جاءهم، لتظهر بسمة محدقة بالجميع في دهشة زادت وهي ترمق ذلك الغريب الذي لم ترَه من قبل والذي كان محمد متعلق بقميصه وكأنهما في عراك ما ..لتردف:
-مين ده؟ ..انتو بتتخانقوا.
دفع محمد عنه ليعدل هندامه ولم يهتم بتلك الوافدة الجديدة ليقترب من فاطمة الباقية على الأرض كما هي:
-أرجوكِ ...مافيش وقت يالا بينا.

وكأن القلب في حاجه للمزيد، هو من الأصل قلب مريض، مرض حزنًا وفراقًا ولوعةً حتى أصبح مريضًا عضويًا .تعلق بصرها بابنتها التي تقترب منها محدقة بهذا الغريب الذي يحدث أمها لتميل ناحيتها:
-مالك ..قاعدة كده ليه؟ ...ومين ده؟!!
زفر جاهين بضيق إلى متى عليه الشرح وإجابة ذلك السؤال السخيف، وهل يملك الوقت لهذا؟ .
هل لدى وافي الوقت، الطريق لازال طويلًا؛ تحليلات ونتائج عليهم انتظارها قبل أن تتم العملية وبدلًا من اختصار الوقت، فقط يجيب على المزيد من الاسئلة.
"ماما في ايه ...ما تفهميني"
هذه المرة الصدمة من نصيبه هو ...
"ماما"
ردد عقله كلمتها، لينتقل ببصره لها يرمقها بحاجبين معقودين.
زوجة عمه لديها ابنة، تزوجت بعد عمه وانجبت ابنة ...هل زوجها هنا أيضًا؟ !!لمَ الامور تزداد تعقيدًا؟!
- بنتك؟ حضرتك اتجوزتي بعد عمي؟!!
الذهول، الدهشة البطل الرئيسي في المشهد منذ بدايته لتردد بسمة:
-عمك؟!

شهقة ألم ولوعة صدرت من شفتي فاطمة وهي تضع كفها على قلبها، كم من مرة أرادت أن تخبر ابنتها بسرها الدفين وفي كل مرة تتعلل لنفسها بصغر سنها وعدم ادراكها للأمر ونسيت أنها ستظل صغيرة في عينيها .وكبرت الفتاة ولم تخبرها شيئًا والآن عليها أن تبوح بالسر، ليس لمجرد المعرفة بل لأن الامر أصبح يتعلق بحياة ابنها، وكأن قلبها سينشطر نصفين أو ربما هو كذلك، فالألم يتصاعد ويزداد لتشهق بقوة أفزعت بسمة:

-ماما ...ماما مالك؟!

همست بحشرجة:

- دوايا يا بنتي.

أسرعت بسمة لاحضار الدواء ولاتزال نانا ممسكة بفاطمة تدعم جلوسها كي لا تسقط . ليعود جاهين خطوات للخلف ليسأل محمد:

-هي عيانة؟!!

نظرة ازدراء وبغض مع إجابة تحمل مثلهما من مشاعر:

-ايوة ...عندها القلب.

الاحتمال الأول والوحيد سقط من الحساب، بهذه البساطة رتب عقله الامر متناسيًا المأساة الانسانية التي تحدث أمامه، وكل ما فكر فيها حينها، فاطمة لن يمكنها مساعدة وافي.

مهلا، تلك الفتاة أخت غير شقيقة لوافي، هل يمكن أن تساعده؟ هل انتقل الامل لها؟!!

الله رحيم به وبوافي، ظهرت تلك الأخت الآن لتكون وسيلة الانقاذ الوحيدة.

عادت بسمة تحمل دواء أمها تمنحها إياه، وتطلب من نانا ومها مساعدتها لإدخالها لغرفتها ليختفين جميعًا داخل تلك الغرفة المتواضعة.

حسنًا،هدنة فقط لدقائق.

زوجة عمه مريضة وابنتها معها الآن، ستخبرها بالأمر، لتخرج إليه ويذهبون جميعًا للمشفى، عليه فقط الانتظار .

هل يبسط الامور أكثر من اللازم؟
أن تمنح الام جزء من جسدها لابنها أمر لا يحتاج التفكير أو التردد، لكن أخت غير شقيقة، لمَ قد تفعلها؟ !!
ستفعلها من أجل أمها، يُطمئن قلبه بحجج واهية بالنسبة له، لكنه كالغريق المتعلق بقشة وسيتعلق بها إلى أخر رمق .
سيعرض عليها المال، حالتهم المادية متدهورة للغاية!!
فرك رأسه بعصبية، لهذه الدرجة من اليأس!!
يريد أن يشتريها منها، لتكتمل صورة العائلة البرجوازية السخيفة التي ألقت بزوجة عمه وحرمتها ميراثها لأنها لا تليق بهم بل وحرمتها ابنها أيضًا.
دارت رأسه بمزيد من الأحباط، انتبه لكرسي أنيق في زاوية المكان فاتجه اليه ليوقفه محمد:
-انت رايح فين؟!
- تعبت عايز أقعد شوية.
- لا يا شيخ ...هو بيت أبوك.
زفر جاهين يائسًا:
-أنا عايز أعرف أنا مضايقك في ايه ...أنت تعرفني ...أنا اذيتك قبل كده.
اكتفى محمد بملامح ممعتضة كإجابة له على سؤاله، ليكمل جاهين طريقه جالسًا على الكرسي، سيبقى إلى أن تقبلا بالمجيء، لن يعود خالي الوفاض، لن يستسلم عن محاولة انقاذ وافي مهما كلف الأمر.

....

بالكاد تفتح فاطمة عينيها لتنظر لابنتها القلقة عليها وبجوارها تجلس نانا ومها، ربتت بسمة على خد أمها:
- ماما انتِ كويسة ...نروح المستشفى.
هزت رأسها بضعف رافضة، لتلتفت بسمة للفتاتان:
-هو إيه اللي حصل؟ ..ومين اللي بره ده؟ !!وعمه مين ده اللي بيقول لماما إنها كانت متجوزاه.

ترددت نانا للحظة قبل أن تقول:
-ده ..بيقول ان..
- نانا!!
أسكتتها مها بحزم:
- سيبي ابلة بطة تفهمها.
زمت شفتيها مدافعة:
-ماهي مش قادرة تتكلم.
-برضو اسكتي.
أغلقت فاطمة عينيها هربًا من نظرات ابنتها المترقبة، لتقول الأخيرة بعصبية:
- قولي يا نانا ...ماما باين عليها مش هتتكلم.
لتسكتهن فاطمة بقولها:
-هأقولك ..بس اوعدني.
- أوعدك بإيه؟!!
- إنك تسامحيني.
ضاقت عيناها وهي ترمق أمها باستغراب، بينما كسا الحزن وجه الفتاتين، ربما لم يفهما الكثير لكن واضح أن جزء من ماضي فاطمة الذي من المفترض أن تكون بسمة على علم به لا تدري عنه شيئًا.
- اتكملي يا ماما ...في إيه؟!!
فليكن ستتكلم لم يعد يمكن السكوت، الهروب خلف حجج واهية، ستخبرها بكل شيء وعليها فقط أن تستعد للعاصفة، لغضب ابنتها الذي سيتطاير عليها ولها كل الحق.
فرجت شفتيها أخيرًا لتقول ما جعل الفتيات يحدقن فيها بذهول:
- أنا ماتجوزتش غير أبوكِ ..ولدتك انتِ وولد فِ بطن واحدة ..انتِ لكي أخ توأم .
اتسعت عينا بسمة وعقلها يردد ما سمعت للتو"أخ توأم"
-أ..أنا ليا أخ توأم.!!

عادت عبرات فاطمة تجري على خديها مجددًا لتسرد لها بما أوتيت من قوة عن قصتها الأليمة، ماضيها الموجع.
وكقصة تشبه قصتها التي لم تكتمل، ابن صاحب القصر الصغير الذي سقط في غرام ابنة الخادمة، وتحدى العائلة والنتيجة الطرد.
ليتبعها الشاب الحبيب الغر غير عابيء بتهديدات أبوه ولا أخته الكبرى التي كانت بمثابة أمه، وتزوج بها رغم كل شيء واعدًا إياها بالعمل والكد من أجلها، وفرحة دخلت قلوبهما بحمل حدث سريعًا، وقبل أن يكتمل رحل حبيبها، لتستقبل يوم ولادتها طفلين لا طفل واحد، ولد وبنت حملتهما وزاد همها همين .
وبعد أيام ظهرت الأخت الكبرى لتحمل الرضيع، فالرضيعة كانت غائبة عند جارة ما ولم تخبرها فاطمة عنها، فهي لم تكن تعلم أنها أنجبت توأم واختفت الأخت بالولد وانتهت القصة.
هكذا ظنت، لولا ظهور ابن العم القادم بحثًا عن النجاة لتوأمها المزعوم الذي لم ترَه قط والطلب هذه المرة كُلية وكأنه لم يكتفي بما أخذوه منها حتى الآن.!!
ظلت تحدق بوجه أمها بغير وعي ليزداد بكاء فاطمة وأنينها، مدت يدها تمسك بكف ابنتها ترجوها المسامحة دون أن تنطق بحرف، فلا توجد كلمات قد توفي تلك المسكينة حقها المسلوب ولا ما يريدون أن يسلوبها إياه الآن.
وكانت أول من نطق نانا :
- معقولة يا أبلة بطة اللي قلتيه ده.!!
- بس يا نانا.
اسكتتها أختها مرة أخرى وهي تشعر أن كلامهما الان لا داعي له فبسمة وأمها في موقف لا تحسدان عليه!!
لتهمس فاطمة باسم ابنتها:
-بوسي!!
لتنفرج شفاه بسمة وتعيد إطباقهما ثانية وكأنها تعجز عن الكلام، التعبير عن صدمتها في ماضيها بأكمله، ماضيها الذي حمل الكثير من المأسي والضنك

والحاجة، ماضيها الذي خسرت فيه حبها الوحيد بسبب ما هي وأمها عليه، ماضيها الذي حطمته أمها بأنانية تحسد عليها.
وحولت أفكارها إلى كلمات، كلمات دوت رغم خفوتها في أذان أمها بصخبٍ هادرٍ:
- انتِ يا امي ...انتِ السبب في كل اللي انا فيه ده أيام الشقا ..الحرمان .. الوجع ..الفقر ...كل ده علشان اتنازلتي عن حقي ببساطة بجُبن.
أغلقت فاطمة عينيها لتغمر خديها بالمزيد والمزيد من الدموع لتستمع للمزيد من سياط ابنتها التي تتقبلها بصدر رحب فهي تستحق، والعقاب بدأ للتو:
- أنا ليا أخ توأم ..أنا بنت عيلة غنية ولما أنا كده سيبتهم ياخدوه هو وخبتيني أنا ليه ...طيب بعد ماخبتيني ماطلبتيش حقي ليه ولا علشان هو الولد وأنا البنت بس علشان أنا البنت عيشت في العذاب ده كله ..اتحرمت من حقي في الحياة في العيشة زي الناس علشان أنا البنت وهو اللي خد كل حاجه سيبتبه يبقى معاهم علشان ياخد كل حاجه!!
شحنات الكره التي حملتها كلمات ابنتها وصلت لقلبها بسهولة، لتضاعف الألم وتمزق المزيد من نياط القلب، وبصوت حمل كل يأس همست:
-هو مالوش ذنب.
خرجت بسمة من هدوءها الوهمي لتصيح:
- أومال مين اللي ليه؟!
أمسكت أمها بذراعها تجذبها لتلقيها على صدرها تضمها إليه باكية:
-أنا كنت خايفة ..سميحة كان ممكن تاخدك مني انتِ كمان كنت هموت لو خسرتكم انتم الاتنين انا ماسبتهوش بمزاجي قلتلك هي اللي جات وخادته وانتِ كنتي مع جارتي ..حمدت ربنا كل يوم كنت بشكره أنك كنتي بعيدة انتِ الوحيدة اللي خالتيني أستحمل عيشتي بمرارها.
قبضت بأصابعها على ملابس أمها وهي لا تزال بين ذراعيها:

- مرارها اللي اختارتي تدوقيهولي نقطة نقطة حرام عليكي ...ذنبي ايه انا اتحرم من حقي اتحرم من كل حاجه حلوة كان ممكن اعيشها ..ليه يا امي ليه عملتي فيا كده؟!
كان بكاءهما المتواصل يمزق قلبيِّ الفتاتين اللاتي شاركتهما البكاء في صمت.
أبعدت فاطمة ابنتها تنظر اليها:
- سامحيني يا بنتي ..بس ده مش وقته احنا لازم نساعده ده ممكن يموت.
تصلب وجه بسمة في لحظة وهي تحدق بأمها وعبراتها قررت الارتكان في جفنيها لتكمل مشهد التجمد الذي أصابها.
أهذا ما يشغل تفكير أمها الان؟ !هو ... هو فقط واكتفت بكلمة" سامحيني "لها.
وماذا عن حياتها؟ !
حياتها السابقة كلها والتي عانت فيها الامرين بينما هذا التوأم ينعم بنصيبها في السعادة ...في المتعة ..في الحياة كهؤلاء البشر الذين طالما رأتهم من خلف زجاج وقضبان حديدية من قبو قصر فارهٍ.
لتستقر على ثغرها شبة ابتسامة قبل أن تقولها ببرود تام:
- ما كفاية عليه ..هياخد ايه أكتر من اللي خده.
شهقة فزع صدرت من فم أمها لتهز رأسها بعنف أكبر:
-ماتقوليش كده ده اخوكي اللي اتحرمت منه ...اللي نفسي اخده في حضني انا مش هعرف اديله حاجه ...هيعرفوا اني عيانه ومش هياخدوا مني حاجه ياريتهم ياخدوها مني.
رددت كلماتها الأخيرة بعويل مؤلم، لتقف بسمة تمسح بكفيها وجهها لتمحي من عليه أثار بكاءها قائلة بعند:
- مش هيحصل وحقنا هعرف ارجعه منهم كلهم.
اندفعت للخارج تصاحبها نداءات أمها المتوسلة وتبعتها نانا أما مها فاقتربت من فاطمة تحاول مواساتها.

وقف جاهين حين رأى الفتاة تخرج من تلك الغرفة، للحظة شعر أن عيناها تحمل نفس الغضب الذي كان يراه في عيني وافي حين لا يعجبه أمرًا ما، هي أخته غير الشقيقة لكنها تشبه حقًا.
تحرك نحوها مترقبًا ليسأل عن حال أمها:
-والدتك كويسة دلوقتي ...أنا أسف ماكنش قصدي اتعبها ...هي حكتلك.
كتفت ذراعيها أمام صدرها قائلة:
- امشي من هنا.
عقد حاجبيه وبدا وكأنه لم يسمعها جيدًا:
-نعم ..بتقولي ايه؟!!
-اللي سمعته اتفضل من غير مطرود وأمي مش هتروح في أي حته!!
انتقل غضبها لوجهه في لحظات وهو يرمقها بغيظ شديد تماسك قدر استطاعته ليقول:
- مافيش وقت للسخافات دي هو صحيح مش شقيقك ..بس يعني ده برضو أخوكي وهو بين الحياة والموت ...مش وقته خالص اللي بتعمليه ده والدتك مريضة ومش هتقدر تساعده ..أعتقد دلوقتي الامل متعلق بيكِ انتِ.
اتسعت عيناه ذهولا حين فرجت شفتيها عن ضحكة سخرية واضحة، بينما الفتاة التي تجاورها تحاول اسكاتها بهمساتها لتتوقف:
- اخويا مين ...اخويا اللي مافتكرناش الا علشان عايز يعيش في النعيم شوية كمان مش قادر يسيب المال اللي كان غرقان فيه من حقه الصراحة.
حاول جاهدًا أن يفهم ما الذي تهذي به تلك الفتاة ولمَ تتحدث عن وافي بتلك الطريقة؟ فيما تحدثت مع أمها بالضبط؟!!
-انتِ بتتكلمي كده ليه؟ وافي مالوش ذنب في أي حاجه هو انتو مش عايزين تفهموا ليه ...وافي بيمووووت.
هدر بكلمته الأخيرة لترد عليه بنفس النبرة الزاعقة:
- وانا مااااللي !!أروح أموت بداله.

زفرات من عدم التصديق خرجت متتالية من صدره، ما بالها؟ بشرية مثلهم؟ !!
أم هو الذي جعل سقف توقعاته أعلى من اللازم.
-انتِ مش ممكن تكوني أخته ..انتِ مافيكيش أي حاجه منه وافي لو حد غريب مايعرفوش قصده ده مش ممكن يرده.
- يااه !!ده طيب بقى ..مش كان الاولى يساعد أمه!!
لازالت السخرية اللاذعة تغلف كلماتها،ضغط جاهين أسنانه في محاولة أخيرة للتماسك:
-وافي مايعرفش عنها حاجه ولا أنا ..وافي في غيبوبة اقسم بالله ما يعرف اني هنا ...مش عايزة تصدقيني ليه؟
رفعت إحدى حاجبيها:
- إديني أمارة علشان أصدقك.
فرك رأسه بعصبية، لا يصدق أنه يخوض حوار كهذا في وقت كهذا، مع تلك الفتاة العنيدة والتي ويبدو أنها فاقدة الثقة بالغرباء.
وصل لهم صوت فاطمة من الغرفة منكسرًا:
-كفاية يا بنتي أنا هروح أشوفه ..أنا عايزه أشوفه.
نظرات غريبة استقرت في مقلتيها، نظرات جعلته يرتاب من تلك الفتاة ومما تفكر به وهي تقول بنبرة حملت الكثير من المشاعر السلبية التي لم يستطع حتى تحديدها:
-تشوفيه ...مايمكن كل ده فيلم جاين يعلموه عليكي علشان ياخدوا اللي هما عايزينه وبعدين يرموكي زي ما رموكي قبل كده.
ضرب جاهين كف بكف:
-والله أبدا ....أنا أسف هنعوضكم عن كل حاجه ومش إحسان ولا عطف ده حقها ولازم تاخدوه ..أوعدك انا هضمنلك حقها.
ظلت ترمقه للحظات قبل أن تقول بنفس البرود:
-نفكر ..وهنبقى نرد عليك.

اتسعت عينا جاهين ليفقد أخر ذرة صبر على لوح الثلج تلك بينما تدور على عاقبيها ناوية العودة لغرفتها لكنها تفاجأت بمن يجرها بقوة من ذراعها ليعيدها حيث كانت وفي اللحظة التالية رأت جاهين يسقط أرضًا بعد أن وجه محمد لكمة لوجهه مباشرة صارخًا:

-انت اتجننت ...اياك تمد ايدك عليها تاني.

اعتدل جاهين يحدق بكل تلك الوجوه التي تراقبه بصمت فبعد أن ظن أنه صار قاب قوسين أو أدنى من طوق نجاة ابن عمه يقف هكذا عاجزًا.

عاجزًا عن الكلام ...عن الاقناع ..عن حتى الاجبار!!

وكيف يجبرهم على شيء لا يريدونه، هم لا يعرفون شيئًا عن وافي، بالنسبة لهم مجرد اسم يذكر لأول مرة في عقولهم، ما أهميته؟ ما الذي سيفقدوه بدونه؟!

لا شيء!!

فقط لو يعلمون من هو وأي نوع من البشر يكون ما كانوا ليتأخروا عنه لحظة.!

-انتو ماتعرفوش بسام ...ماتعرفوهوش.

كلمات قليلة هي كل ما يملكه هذه اللحظة مع الكثير من مشاعر الاحباط واليأس، لتتركه بسمة وتعود لغرفتها خلفها نانا وبقي محمد على حاله يراقب ذلك الغريب ..الذي فجأة أصبح له صلة دم مع بسمة وأمها.

....

اتخذت بسمة ركن الغرفة لتجلس فيه بصمت، صمت احترمه الجميع لكنه لم يستمر لتقول فاطمة:

- ليه يا بوسي كده ...ماتوجعيش قلبي أكتر ما هو موجوع.

لم تجِبها ابنتها ولم تضف هي شيئًا، فقط تراقبها وقلبها يرجو ويتمنى بل يقلق ويترقب.

يرجو وقوفها بجوار أخيها ويقلق قبولها ودخلوها غرفة عمليات.

أي حيرة تلك؟ وأي مشاعر يمكن أن تتحملها كأم؟.

ابنتها يمكنها منح الحياة لأبنها، بينما هي اختارت أن تحرم تلك الابنة من حياة كانت من حقها، فكيف يمكنها أن ترجوها بتكرار الأمر، وكأنه كتب على ابنتها أن تمنح فقط ولا تنال شيئًا.

وليدها الذي حرمت منه دون حتى أن تُخير، وهي الان تتمنى أن تراه معافًا، سلميًا، وحينها كما طلبت من ابنتها ستطلب منه، أن يسامحها لأنها لم تحارب لاستعادته واستعادة حقها في تربيته والبقاء بجواره.

وكأنك يا فاطمة مهما فعلتي أو قلتي ستبقين المذنبة في عيون طفليكِ.

"انتِ بتفكري في إيه بالظبط؟"!!

همست بها نانا في أذن بسمة.

تفكر،هي حقًا لا تملك تلك القدرة الآن

التفكير ...اتخاذ القرار ..عزم الامر، أصبحت أمور لا يعيها عقلها في الوقت الحالي وشعرت نانا بذلك فقررت أن تقوم هذا بالنيابة عنها لتميل ناحيتها:

- اسمعي يا بوسي ...واضح كده ان عيلة أبوكي دي كبيرة وغنية مش من مصلحتك تبقي عدوتهم انتِ ليه مافهمتيهوش انك مش بس أخته وانك توأمه انتِ خايفة من العملية ..في كتير بيعملوها وبيعيشوا كويس انتِ لو عملتيها هتبقى جِميلة في رقبة أخوكي ورقبة اللي بره ده ..اللي باين عليه بيحب اخوكي أوي وساعتها اللي عايزه تاخديه بالقوة ...هيجيلك لحد عندك وانتِ حاطه رجل على رجل.

رفيقتها تتحدث بمنطق لن تقبل به أبدًا، أن تصبح من تلك العائلة أمر لا يعنيها كثيرًا، لديها عائلتها التي تعرفها وتحبها، ما تريده هو حقها، مالها والانتقام. ستجبرهم على منحها كل ما تريد ولكنها أيضًا ستمزق أوصال تلك العائلة بكل تأكيد.

رفعت عينيها لأمها التي تنظر لها بحسرة واضحة وما قرأته فاطمة في عيني ابنتها لم يكن يبشر بأي خير.

أشاحت بوجهها بعيدًا، لن تقول شيء، ستترك لها حرية الأختيار، لا تملك أكثر من ذلك، ليس من حقها أن تأخذ عنها هذا القرار، يكفي ما أتخذته من قرارات دمرت حياة ابنتها.

لكن ...قلبها.

قلبها يكاد ينشطر نصفين، نصف يريد تركها وشأنها والأخر يصرخ بها أن تأمرها بالمساعدة !

أتكون حقًا بتلك القسوة؟!!

تطلب منها أن تشق جسدها لتمنح أخاها جزء منه بينما هي حرمت من كل شيء.

ليتها تفهمها، تدرك ما كانت تشعر به حينها.

- "انتِ بتشيلي ابني ليه ....سيبيه.

استهزاء ..استنكار وصوت كاره:

-اسيبه ...اسيب ابن وافي هنا ...في الخرابة اللي انتِ عايشه فيها دي ..اسيب ابن اخويا اللي خسرتهولي وخليتيه يبعد عني لا يا فاطمة ...زي ما وجعتي قلبي على اخويا وحرمتيني منه ومات قبل حتى ما نشوف بعض تاني ..هوجع قلبك على ابنك ...بس ماتقلقيش انا هربيه احسن منك ميت مرة زي ما ربيت أبوه بس مش هخليه زيه ..مش هسمح لواحدة زيك تضحك عليه وتاخده مني ...ومن مصلحتك انه يكون معايا ..حق ابوه هو بس اللي هيتمتع بيه .. مش انتِ".

مر الوقت ببطء وكلًا في مكانه.

فاطمة على فراشها لا تملك غير البكاء.

وفتاة تراقب ما يحدث بحاسة السمع فقط مع علمهما أن الكثير من القادم سيتغير وربما جاءت اللحظة التي كانت تتوقعها دائمًا، الافتراق عن فاطمة وابنتها والاكتفاء بأختها.

أختها التي كانت في عالم أخر، كانت لا زالت تهمس لبسمة بالقبول ونيل حقها الذي حرمت منه، تناسي الماضي بما فيه والتركيز على المستقبل وما يحمله من خير ..فالامر عند نانا لن ينتهي هنا كما تتصور أختها ...بل سيبدأ.!!

....

سارة سيف الدين

الفصل العاشر

قالوا الشقيق بيمص دم الشقيق
والناس ماهياش ناس بحق وحقيق
قلبي رميته وجبت غيره حجر
داب الحجر ...ورجعت قلبي رقيق
عجبي!!
رباعيات جاهين

المشاعر...
مصطلح يعني للبعض كل شيء، قرارات على أساس المشاعر، صداقات ومعارف على أساس المشاعر، زواج على أساس المشاعر ..بل حياة كاملة قد تتوقف فقط على تلك المشاعر.
وفريق ثاني يراها بلا قيمة، مجرد كلمات جوفاء لا تسمن ولا تغني من جوع، الفريق الأول يتهم الثاني بغياب القلب، والثاني يتهم الاول بدثر العقل!!
ليأتي فريق ثالث يدعوهم إلى الاعتدال، إلى أن الحياة تحتاج القلب والعقل، نحتاج عقولنا لنميز بها المشاعر الزائفة والكلمات المنافقة ونحتاج القلب كي نتلقى المشاعر الصادقة والحب الحقيقي.
وكان هو من الفريق الثالث، أما أمه كانت بكل تأكيد من الفريق الثاني لكن اكتشافه لحقيقة أن أخاه من الفريق الأول كان مفاجيء جدًا.

وقفت تصرخ وتتذمر كعادتها حين لا يتم الأمر كما تريد، استمع لها بصمت معتاد، وبروح ساخرة على أم من أمهات هذا الزمان.
- شوفلي أخوك ده حكايته إيه؟ !من ساعات مارجعنا وهو قاعدلي في أوضته ومش عايز ينزل الشركة معانا ولما أكلمه مايردش ..أنا مافياش دماغ لشغل العيال ده اتصرف.

أجابها بصوت حمل سخريته المريرة:
- ومن امتى كنتي فاضيه لعيالك؟.
رمقته بحنق قبل أن تستدير مبتعدة دون رد، هز رأسه ليصعد درجات السلم برتابة وصل لغرفة أخيه التي أصبحت صومعته منذ عودته واكتشاف فراق الحبيبة، هو حقيقة مندهش، تصور أن ابتعاده عن تلك الفتاة لسنوات سيخفف من وطأة الفراق وسيتقبله أخاه بشكل أفضل، لكن النتيجة جاءت عكسية تمامًا، فأخيه صار يحمل ملامح الحزن بشكل دائم، صام عن الكلام وكاد أن يصوم عن الطعام لولا إجباره على ذلك، يسير في الحديقة كروح هائمة تبحث عن مأوى، يقف لفترة طويلة في مكان كان هو مخبأ حبه ومأوى سعادته، ثم يغادره عائدًا لصومعته من جديد .
وهو يراقبه من بعيد بألم في القلب.
هل أخطأ؟.!
مازال يبحث عن الاجابة، ومازال على قناعة أنه اختار بين سيء وأسوأ، وهو اختار السيء، فالأسوأ كان ليدمر أخاه تمامًا.
ويأتيه جواب من داخله.
أكثر مما هو عليه، إنه مدمر بالفعل.!!
زفرة حارة غادرت صدره قبل أن يطرق باب غرفة أخيه ليطأ للداخل، وكما هو متوقع، أخوه على الفراش يداعب خاتمه الفضي بين أصابعه، هذا الخاتم الذي يتمسك به وكأنه يتمسك بأخر شعره تفصله عن حبيبته، رفيقته، صديقته ..وأي معنى يجمعه بأحد على هذه الأرض كان لها منه نصيب.
اقترب بروية ليجلس على طرف الفراش:
-كان في اجتماع مهم النهاردة، قُلتلك تعالى وبعدين معاك هتفضل كده كتير.
استمر في مداعبة خاتمه دون اهتمام، عقد سامر حاجبيه ضيقًا لينزع الخاتم من بين أصابع أخيه، وفي اللحظة التالية انتفض معاذ وانقض باصابعه على يد سامر ليضغطها بقوة ألمت سامر بالفعل قائلًا بتحذير:
-هات الخاتم؟!

رمقه سامر للحظات قبل أن يفتح كفه ليسترد أخاه الخاتم ويضعه في إصبعه بإحكام.
وقد استقر على جنبات وجهه الكثير من الغضب والحنق.
تنهد سامر بيأس ليقول:
-انت قررت توقف حياتك على كده!!
-مش ده اللي انت عايزه.
التفت له باستنكار:
-أنا عايزك تبقى كده.!!
أجابه بغضب مكتوم:
-مش انت اللي ضيعتها مني.
هز رأسه نفيًا:
- قلتلك ماليش دعوة.
انتفض مغادرًا فراشه لينظر لسامر بحنق:
- اثبتلي ...ساعدني الاقيها وهصدق انك مالكش دعوة وهسمع كلامك وهعمل كل اللي انت عايزه بس ساعدني.
اتسعت عيناه بغير تصديق، أهذه الخطة؟ يريد أن يجبره على مساعدته، هو الذي أضاعها منه وعليه الان أن يردها له.
وفي محاولة يائسة للفرار:
-هو احنا خلاص ...مش مهمين عندك هي وبس اللي تهمك.
أجابه بعناد:
-بسمة دي عيلتي.
كانت إجابة مقتضبه لكنها مؤلمة بشكل لم يتوقعه ليقف محدقًا بأخيه الصغير، الذي تراجع ألف مرة عن تركه وبدأ حياته التي يريد بعيدًا عن أمه وتسلطها، دوما كان يفكر بمعاذ المراهق الغر، لم ينسَ وصية أبيه أبدًا.

"ماتسبش معاذ لسما يا سامر ...ماتخليهاش تحوله لمجرد أله حاسبة وعداد للفلوس ..أنا ماعرفتش اخده في حضني زيك واربيه والمرض تعابني زيادة وماعتقدتش فاضلي كتير ..أخوك أمانة في رقبتك "
وبقي، لم يرحل، أراد أن يكون بجواره لحمايته وقت اللزوم، أراد أن ينفذ وصية أبيه، لكنه لم يتوقع أن تكون مكافئته هي إقصاء معاذ له بمجرد عبارة مقتضبة!!
-عيلتك ...وانا!!
ولشدة غضب معاذ لم ينتبه للنبرة المؤلمة التي ردد بها سامر كلمته، ليضيف له المزيد من الألم:
-انت ...زيك زي ماما دايما كنت مشغول بدراستك وبعدين بالشغل، وماما طول الوقت كلامها وأفكارها عن شغلها وصفقاتها وبس ..وبابا ..الله يرحمه ..أنا كنت دايما لوحدي لدرجة إني ماحولتش يبقى لي أصحاب ..لحد ما جات بسمة وماسبتنيش أبدًا ...بسمة عرفت تبقى أمي وأختي وصاحبتي وحبيبتي أيام وشهور وسنين ..متخيل إني أفضل مسافر وفاكرها هنا وارجع مالقهاش ... متخيل احساسي ..الفراغ اللي ملا قلبي.
عاد للجلوس على فراشه ليحرر عبرات كتمها لفترة طويلة في عينيه وهو يردد:
-بسمة ساعات كانت بضايقني بغيرتها ...بعقلها ..بقلبها الجامد عليا أوقات لكن هي بس الوحيدة اللي كانت بتعرف تطبطب على قلبي وتفرحه بجد انت ماتعرفش بسمة بالنسبة لي ايه .!!
هذا الأحمق الضعيف ..يبكي!!
معاذ كأبيه يملك قلب رقيق للغاية، القلب الذي لم يعجب سما فحولت حياة أبيهما إلى جحيم.
اقترب منه مد كفه يمسح عبراته التى تمر على وجنتيه ببطء وصمت:
-في راجل يعيط ...دا انت رومانسي بزيادة.
أشاح معاذ بوجهه مغاضبًا:

- لما تخسر عيلتك أكيد هتعيط.
الغبي يكررها !عليه الان أن يثبت له أنه عائلته الوحيدة بالفعل، أنه أراد أن يكون له الاب والأخ الاكبر، ربما أخطأ بالمراقبة من بعيد، لكن ما أصابه من صدع لقلبه ومشاعره مع أول صفعة تلقها من حقيقة أمه الخالية من المشاعر، جعلته يبتعد عن أخيه قليلًا ولم يتصور أن النتيجة هي شعور معاذ بأن لا عائلة له إلا تلك الفتاة!!
ليزفر سامر في استسلام:
-خلاص ...هساعدك.
قفز معاذ والسعادة التي فارقت وجهه لأيام وأسابيع تستقر عليه ثانية:
- بجد يا سامر.
لم تنتقل سعادته لوجه أخيه الذي يعلم أن هذا خطأ وأن النتيجة لن تكون في صالحهما، عليه الآن أن يترك لأخيه الفرصة والمحاولة لحماية نفسه وحبه، فليكن سيقف معه ضد سما، لكن قلبه لم يريحه وهو يخبره أن المعركة مع سما دومًا خاسرة.
ربت على كتف أخيه:
- في ناس بتعرف تدور وتلاقي ...بس هنبدأ منين؟!!
- السيدة زينب ..هي عايشة هناك.
-مش لو لسه عايشة هناك!!
عقد معاذ حاجبيه، أيلعب به أم ماذا؟!
- انت هتقفلها من قبل ما نبدأ؟!
-لأ ..بس عايزك تتوقع كل الاحتمالات حتى الأسوأ ..ومن بكرة هتنزل معايا الشغل أو هرجع في كلامي.
-لأ هنزل ..من بكرة.
زفر ببعض الراحة، على الأقل سيشغله بالعمل، فربما تكون الفتاة بالفعل تزوجت وأكملت حياتها، وعليه تصور كل الاحتمالات، في الحقيقة هو يتمنى أن يجدها قد تزوجت لتنتهي الحرب قبل أن تبدأ.

....

الصمت بات مقيتًا لكنه أفضل من صراخ بالرفض.
يدعو ... يتضرع ...يرجو بعض الرحمة تهبط على قلب تلك الفتاة، القليل من الرحمة لتنقذ شخص يستحق الحياة.
ومازال السؤال الذي يؤرقه، إذا رفضت كيف السيبل للاقناع؟!!
المال!!
يستحقر نفسه حين يفكر بتلك الطريقة، ولكن هل لديه بديل؟!
الوقت، هذا العنصر الاهم والذي لا يملكه من الأساس، فلا وقت حتى لحساب المشاعر، فقط قرار يجب أن يتم اتخاذه وفي أسرع وقت ..فهناك حياة على وشك الموت.
انتهى الصمت برنين هاتفه، ليضيء بلقب" ماما "على شاشته، القلق عصف بها وتريد أن تطمئن.
بماذا يطمئنها؟ !فليطمئن نفسه أولًا، تذكر وافي.
أجاب بلهفة:
-ماما وافي كويس.
جاءه صوتها المضطرب:
- زي ما هو يا بني...قولي انت عملت ايه؟ ..لاقيتها ...قلتلها ...هتتبرعله؟!!
زفر بألم واضح:
-لاقيتها ..قلتلها ..ماعتقدتش هتتبرعله.
- ليه يا بني؟!!
-مريضة قلب.
كلمتين تغني عن أي شرح، حتى أمه التي لا علم لها بالطب ستفهم أن مريضة قلب لا يمكن أن تخضع لعملية نقل كلى لأخر.
-طب وبعدين ..يعني روحنا لحد عندها وبرضو مش هينفع.
-هوده المهم دلوقتي إننا روحنا ومانفعش.

قالها بعصبية فصمتت.
أيخبرها عن الاخت غير الشقيقة والتي تتعامل مع الامر بمنتهى الجفاء، يهديها أمل لا يملكه، يمنحها سراب جديد كسراب العثور على الأم والذي تبخر فور عثوره عليها.
حركة أمامه جعلته ينتبه، الاخت غير الشقيقة تقف، تحدق به بصمت وكأنها تراقبه.
- ماما ...اقفلي دلوقتي ...هكلمك تاني.
اعتدل واقفًا يبادلها النظرات، وكل منهما يحاول تفسير نظرة الأخر.
القبول ...الطاعة!!
الرفض ..العصيان!!
إشارات تضادت مع بعضها.
- أمي عايزه تشوفوه.
اكتفت بتلك العبارة المقتضبة وهذا أفضل من لا شيء، أومأ برأسه مؤيدًا بترقب، وبعض التفاؤل، ربما نظرة منها لأخيها تحرك قلبها المتجمد، كالعادة يرسم لنفسه الأمال.
لم ينتظر كثيرًا خرجت الابنه تدعم أمها من ناحية وفتاة من الناحية الأخرى ليقول محمد:
- نانا ...انتِ هتيجي ليه ...أنا رايح معاهم.
ردت بعصبية:
- يعني أسيبهم لوحدهم ..أكيد لازم أجي.
فرك أسنانه ببعضها غضبًا ليقول من بينها:
- ماتخليكي مع أختك أحسن.
-أختي بخير ...ايه اللي هيحصل يعني؟!!
أشار جاهين:
-عربيتي بره ... هنتمشلها شوية ماعرفتش ادخل بيها هنا.
شبح بسمة ارتسم على شفتي نانا هامسة:

-واااو ...عربيته كبيرة أكيد غاليه اوي.
سمعتها مها التي كانت خلفها لتوكزها بلوم:
- احنا في ايه ولا في ايه؟!!!
تحركت نانا مع فاطمة وابنتها وأمامهن محمد الذي يتبع جاهين بينما بقيت مها في مكانها تدعو بصلاح الحال.

كانت الرحلة لتلك السيارة رحلة صامتة، تتجول الافكار رغم اختلافها الشديد في العقول الخمسة.
عقل يرتب الأحداث ...يخمن القادم ويضع الخطط.
وعقل يبحث له عن مكان فيما هو قادم.
وعقل يترقب بتوجس يوافق دقات القلب المتلهفة.
وعقل يرجو ويأمل أن النجاة صارت قريبة.
وعقل أخير ..تتملكه شهوة لم يصادفها من قبل، شهوة الأنتقام واسترداد الحق المسلوب.

-عربيتي أهي ...اتفضلوا.
فغرت نانا فاها فعليًا، وهي ترمق تلك السيارة الفارهة الضخمة السوداء بعينين متسعتين، ربما غير مصدقة أنها ستركبها حقًا.
ودون شعور منها أو مقدمات مدت يدها للباب الامامي للسيارة فجذبها محمد صائحًا:
-انتِ رايحه فين؟ ..اقعدي ورا مع ابلة بطة.
الأحمق ..هادم اللذات.
مطت شفتيها بضيق لكنها استوعبت أنه ليس من اللائق جلوسها في المقعد الأمامي وأن الطبيعي جلوسها بجانب بسمة وفاطمة في المقعد الخلفي.

عاد الصمت يخيم على الجميع مع بعض النظرات والتأمل لتلك السيارة من الداخل ..حزن شاب عيني بسمة تتذكر الايام الخوالي والتي كانت مرتين فحسب حين جالست معاذ في سيارة ربما أصغر من تلك لكنها تشبهها من الداخل.
أما نانا ومحمد فلم يستطيعا أن يمنعا أعينهما من النظر بعجب لتلك المأهولة بالعجيب من الأزرار والشاشات الصغيرة.
لتقطع نانا الصمت بسؤال يحمل الكثير من الاعجاب:
-عربيتك حلوة أوي.
استجاب جاهين لمحاولة تصورها لا بأس بها لتخفيف التوتر:
-شكرًا ...أنا عربيتي الشخصية قدام المستشفى محتاجه تنضيف دي عربية مشتركة مع وافي ...قصدي بسام للسفر وكمان فسح السفاري.
أطلقت نانا صفيرًا جعل محمد ينظر لها بضيق بالغ وتحذير واضح لكنها لم تبالي لتميل على بسمة:
- عندهم عربية غير عربيتهم الشخصية يا أيامك الحلوة يا بوسي.
بينما يتمتم محمد:
-ماعندكوش عربية تطلعوا بها السلم.!!
لم يسمعه جاهين جيدًا:
-افندم!!
-لا ماتشغلش بالك.
رددها بابتسامة صفراء.
لم تتجاوب بسمة أو أمها مع ذلك الحوار.
فنظرات فاطمة كانت مستقرة بثبات على ملامح ابنتها المتجهمة الصامتة، تتمنى أن تدخل إلى عقلها، تقرأه .
هي أمها لكن ابنتها بين لحظة وأخرى تغيرت، ترى هذا بوضوح، لم تمتلك ابنتها تلك النظرة من قبل، لم تحمل نبراتها تلك القسوة أبدًا حتى في أحلك لحظاتها قهرًا حين أبعدتها عن ابن العائلة الثرية، ظلت هي بسمة ابنتها التي تعرفها جيدًا والتي تفتقد رؤيتها الان!!

وتخشى ..تخشى عليها ومنها.

توقفت السيارة أمام مشفى يبدو أنها أنيقة واستثمارية للغاية.
بالنسبة لأشخاص لم يحالفهم الحظ إلا في المشافي الحكومية فالفرق واضح
وكالعادة كانت هي البادئة:
- دي مستشفى ولا فندق خمس نجوم.
وكالعادة أيضًا كان هو أول من امتعض غضبًا.

رهبة تملكت قلبها رغمًا عنها، إنها تقترب من توأمها.
كلمة لها وقع غريب لكنها لا تحمل أي معاني سعيدة بل على العكس ...هي غاضبة ..حانقة ...مغدورة .
عائلة بأكملها غدرت بها بل وأم أيضًا لم تحارب لرد حقها المسلوب وكأنها منحت قلبها مُسكن عام بابن ينال بعض النعيم بل كل النعيم وهي لم تمنح إلا النقم.
ومازالت تتسائل كيف تمكنت أمها من الصمت طوال تلك السنوات، أي رعب وقع عليها لتخشى الحقيقة لهذه الدرجة؟.!
سميحة، تلك العمة وذاك اللقب الجديد أيضا ككل لقب ظهر مع ظهور هذا الشاب، أي نوع من النساء هي؟ !مخيفة لتلك الدرجة، متسلطة، معدومة قلب، تريد أن تراها، لتبدأ ..تبدأ في رد الحق.

وعلى العكس تمامًا.
قلب أم يرتجف شوقًا، يصبو للقاء تأخر دهرًا، سِقاء للعين العطشى من فراق فلذة الكبد وأمل بدعاء مستجاب منها بأن ينجيه ربه ويرده لها سالمًا، فالله رحيم لن يعيده لها في لحظة ويحرمها منه في اللحظة التالية.
كم كانت تدعو بتلك الكلمات، متذكرة قصة النبي يوسف وأبيه يعقوب
"رودهولي يارب ..زي ما رديت يوسف لأبوه"

ولم تتصور أن يعود لها بتلك الطريقة، لكنها اعتادت دوما أن تقول" ..لعله خير"
هذا اللقاء لن يحمل لها الأسى فحسب، سيحمل لها أيضًا الفرح، الفرح بلقاء الرضيع الذي أضحى شابًا، وهذا ما تطمئن بها قلبها المرتعد.

وعلى بعد أمتار منهم .
هناك قلب ثالث، يرتجف أيضًا رهبًا خوفًا من حقيقة أخفيت لسنوات وحان وقت ظهورها، حبال الكذب قصيرة مهما طالت السنوات، كذبتها التي تفننت في حيَّاكَة خيوطها له، الأب والأم المفقودان في حادث طريق حتى أنها أعطته صورة وهمية لفتاة شابة جميلة تقف بجوار والده لتقول مبتسمة بحزن:
-هي دي ماما يا وافي.
ولطفل لم يتعلم لفظ" ماما "إلا لها منذ أن نطق لسانه، أمسك بيدها مرددًا بصوته الطفولي المحبب إلى قلبها:
- انتِ ماما.
وجاءت من تحمل اللقب فعليًا، فكيف النجاة من ذلك المأزق؟!
حتى لو استخدمت سطوتها مرة أخرى لإخفاءها، جاهين لن يصمت، لن يشارك في ذلك الأمر، لقد خدعت والده من قبله حين أخبرته أن فاطمة هي من تنازلت عن الولد بحجة أنها لن تقوى على تربيته وهكذا اقتنع الجميع واختفت فاطمة عن الألسن والعقول لتصبح ذكرى سيئة لعائلة الشربيني وأبنائها.
وعادت الذكرى السيئة لتنقذ السعادة الوحيدة التي تملكها في حياتها ...وافي.

رفعت كفها ليستقر على حاجز زجاجي يفصلها عنه ...ابنها ...لن يتغير أي شيء في هذا، الشاب الراقد هناك هو ابنها، هي من سهرت لتربيته، رفضت أن تتولى شئونه الخاصة خادمة فلقد كرهت الخادمات بحجم كرها لفاطمة، بل خسرت خطبتها التي رتب والدها لها لأن الخاطب رفض أن ينتقل هذا الطفل الصغير لمنزله الكبير، فما كان منها إلا أن تخلت عن خاتم خطبته الماسي

فوافي لديها أثمن من هذا، إنه تعويض الله لها عن وافي أخيها الصغير الذي أيضا كانت بمثابة الأم له إلى أن تعرفت عليه فاطمة وافسدته عليها، لم يعد يصغي لها، صرخ في وجهها للمرة الأولى في حياته متحديًا إياها:

-لا يا سميحة ..مش هبعد عن فاطمة.

وكانت المرة الاولى أيضًا التي نال منها صفعة، تبعها بنظرة حملت الدهشة وانتهت بحزن صادم، كانت النظرة الاخيرة قبل أن يهرع خلف تلك التي لا تساوي شيئا في حساباتها الخاصة ولم ترَه بعدها، فقط خبر باكي وفقد مؤلم وغير متوقع.

"وافي عمل حادثة ومات"!!

صُراخ ..عَويل ...نَدم ...رجاء أخير بأن يسمعها مرة واحدة.

"ماكنش قصدي اضربه ...ماكنش قصدي"

هذيان صاحبها لأيام قبل أن تعي وتفيق من صدمتها، لكن غضب قلبها لم ينطفيء، مع معلومات وصلت لها بأن زوجة أخيها الصغير ظهرت ببطن منتفخ وقرار صارم، لن تنال تلك الحقيرة أي شيء منه أو من عائلتها ولا حتى طفل، وتلتها معلومة أخرى الخادمة أنجبت، لتهرع دون المزيد من الأسئلة، لتصل لبيت قديم تبارز فيه الشقوق بعضها وصعدت درجات سلم بتوجس السقوط والانهيار بها

لتصل إلى سطح المبني المتهالك، لتجد غرفة متواضعة مفتوح بابها على مصرعيه، لتدلف إليها.

فاطمة تجلس أرضًا على فراش مهتريء ترضع طفلها وعلى ما يبدو باكية . انتبهت لسميحة فضمت رضيعها لا إراديًا لصدرها وكأنها تريد إخفاؤه عنها، اقتربت سميحة غير مبالية لكلمات فاطمة المهتزة عن سبب حضورها لتمد يدها منتزعة الصغير من حضنها وقد ألجمها الرعب وهي ترجوها الحرص على رضيعها الضعيف جسديًا .كشفت سميحة عنه مرددة براحة غريبة:

- ولد ..وافي.

رفعت فاطمة ذراعيها طالبه منها رد ولدها لها وأنها لا تريد منهم شيء ولن تطالب بأي شيء لكن سميحة ضمت الصغير لصدرها قائلة بحزم وغل واضحان:

-خدتي مني وافي ومات وحرمتيني منه .. جه وقت الحساب .. ده تعويض لوافي اللي سرقتيه ..خدتي ابني واخويا وهاخد ابنك يا فاطمة ..كده نبقى خالصين.

صرخت فاطمة:

-حرام عليكي ..انتِ بتقولي ايه؟ ..هاتي ابني!!

أرادت الاندفاع نحوها غير عابئة بجرح بطنها الذي ألمها بشدة لحركتها القوية، فدفعتها سميحة لتعيدها أرضًا وتأوهت فاطمة بألم شديد وهي تضع يدها على بطنها، لتدس سميحة يدها في حقيبتها مخرجة بعض المال وألقته أرضًا أمامها، محذرة إياها من محاولة الاقتراب منهم وذهبت مسرعة تتبعها فاطمة زحفًا لكن ألمها وضعفها الذي لازمها أثناء الحمل وحتى الولادة لم يسعفها للمزيد ، دوار شديد أصاب رأسها ورؤية مشوشة لسميحة وهي تسير مبتعدة حاملة معها ابنها الرضيع.

ذكريات خالطت قلبين لا قلب واحد، لتقف فاطمة أمام باب عريض كتب عليه "العناية الحرجة "

ليدلف جاهين بالداخل مطالبًا إياهم بالانتظار للحظات، وأول من لقاها كانت أمه التي أسرعت نحوه:

-جاهين ..عملت ايه؟ ..انت لوحدك.

أخبرها بجمل قصيرة أنه جاء بالأم وأنه وجد لها ابنة وعليهم إقناعها بمساعدته، لكن الان فليسمحون لهما برؤية وافي، نظرت ميادة لساعتها لتقول:

-فاضل ربع ساعة وينتهي وقت الزيارة الصباحية ...خليها تدخل بسرعة وأنا هجيب سميحة من جوه.

أسرعت إلى سميحة تناديها لتخبرها بقدوم من انتظرتها وتمنت للحظة لو كانت متوفاة فحسب، عادت ترمق وافي للحظات قبل أن تتحرك بروح منكسرة لكنها رفعت رأسها عاليًا، لن تراها فاطمة كخاسرة أبدًا، لازالت الأقوى وستبقى.

وكان اللقاء الذي دام لثواني معدودة تبادلت فيهما المرأتان النظرات، نظرات حملت لعقولهما الكثير والكثير من الذكريات التي كانت سعيدة وختمت لكلتاهما بأسوأ حال.

لتستدير سميحة مبتعدة عن هذا الجمع غير مبالية بتوجية كلمه واحدة لأحد، هي لم تنتبه إلا لفاطمة ولا تعرف من هؤلاء المحيطين بها ولا يعنيها أن تعرف، الأهم الآن نجاة وافي.

لم تهتم فاطمة أيضًا بسميحة فعلقها وقلبها يشتاقان لعبور ذلك الباب الذي فتح أخيرًا وظهرت ميادة لتحيي فاطمة قائلة:

- تعالي ..ادخلي علشان تشوفيه.

تبعتها فاطمة ليقترب جاهين من بسمة قائلًا:

-مش هتدخلي تشوفيه.

كان بصرها معلق بالممر الذي اختفت فيه سميحة لتقول:

- بعد ماما ..هي دي سميحة؟!!

انتبه لاتجاه بصرها فعلم أنها تسأل عن عمته ليجيب:

- أيوة.

وبدون سؤال أخر اتجهت إلى حيث ذهبت ليتبعها جاهين بينما بقي محمد ونانا مكانهما ليسأل:

-تفتكري بوسي هتعمل العملية؟!!

ابتسمت بنشوة:

-هتعملها إن شاء الله وأكيد التعويض هيكون كبيييير.

رمقها محمد للحظات ليعي قصدها ، زفر بضيق وشعر وكأن التطورات القادمة ستطوله ونانا لا محالة، لكنه قرر منذ زمن ألا يستسلم، لطالما وصل لأذنه

كلمات تدفعه للتخلي عن حب تلك الفتاة، فهي تريد ما لا يستطيع تقديمه لها، تعاليها عليه رفضها الدائم، علم به الكثيرون لكنه في المقابل كان دومًا يردد أنها زوجته المستقبلية ويحذر أي من شباب المنطقة من محاولة، مجرد محاولة التقرب لها، وانصاع الجميع للامر.

"ابعد عن دي ..دي تخص محمد "

لتتعالى داخله نفس العبارة بعناد ...

"انتِ تخصيني أنا وبس يا نادرة"

لا أحد يعرفها قدره، هو فقط من يعلم ما الذي يدور بعقلها وأيضًا كونه قد نجح وبجدارة في الاستقرار بقلبها برغم انكارها المستمر.

- ايًا كان قرارهم خاليكي في حالك.

قال كلماته بنبرة تحذيرية، فالتفتت له بعصبية:

- نعم ..قصدك إيه؟!!

- انتِ عارفه قصدي كويس يا نادرة.

قالها باصرار، لتضع يدها على خصرها:

- نانا ..اسمي نانا...وبقولك إيه بطل تعمل آمر عليا أنا حرة ..وأبلة بطة وبوسي يخصوني أنا أكتر منك وياريت بقى تحل عن سمانا لإن اللي جاي ماعتقدتش هيكون ليك فيه مكان.

رجفة أصابت عيناه وهو يرمقها بصمت، قبل أن يبتلع غصة الألم التي أصابته ويتناسها كما اعتاد منها، ويميل نحوها بعينين صارمتين:

- أنا دايما ليا مكان جنبك مش هبعد ولا هحل عن سماكي.

لوحت بكفها:

- اوووف ..يا أخي مش عايزاك ولا عايزة فقرك ماتفهم بقى.

أرادت أن تستدير فأوقفها وهو يمسك بذراعها ليعيد نظرها إليه:

-هو ده ..فقري انتِ بتحبيني بس مابتحبيش فقري.

سخرية هازئة مع همهمة صدرت منها:

- بحبك ...أنا بحبك!!

- ايوة ولو قلتي لأ ألف مرة ..شوفتها في عينك يا نادرة شوفتها كتير وكل مرة كنت بكدب نفسي بس خلاص بطلت ...ماحدش فاهمك قدي عارف إنك باصه لفوق أوي ..هسيبك تتشعلقي لكن لما تقعي ...هتلاقيني ..وهلحقك قبل ما تقعي ...عارفه ليه؟ ..!لأني بحبك ومش عايز غيرك.

رجفت قلبها انتقلت لجسدها لتصل إليه عبر أصابعه التي لازلت تمسك بذراعها، التأثير المكرر والذي جعلها تدرك أنها به مغرمة رغم محاولاتها المستميتة للنفي، ولكن قلبها لم يعد يستمع لعقلها، قلبها اختار وقرر.

هذا هو من أريد!!

لكنها لن تقبل، سيبقى صوت العقل هو محركها الأول والأخير.

بسمة النصر استقرت على شفتيه وهو يحررها ويتأمل ملامحها التي حملت الكثير من التوتر والخجل الذي قلما يراه عليها قبل أن تتهرب بنظرها بعيدًا .

وهي تتمتم باسم بسمة:

- هي بوسي راحت فين؟!

اعتدل ليستند بظهره على الحائط ولازالت بسمته تعتلي ثغره بثبات، ولم يهتم أن يمنحها إجابة فهي تعرف أين من تسأل عنها؟

انكري كما تريدي يا فتاة ..أنتِ عاشقة لي رغم أنفك!!

....

جلست سميحة في الاستراحة الخاصة بزوار العناية الحرجة، رؤيتها لفاطمة أعاد لها كل شيء بتفاصيله المقيتة .

تبًا...إنها حية وربما تزوجت وأكملت حياتها وأخيها فقط من ضاع منه كل شيء، أسرته، ثروته وأخيرًا حياته بسبب تلك اللعنة المسماة فاطمة.

وقد عادت اللعنة وهذه المرة ضحيتها بسام وافي ..الابن.

وهذا ما لن تسمح به أيًا كانت النتائج!!

عليها أن تفكر في التبرير المناسب والملائم لكذبتها عليه، أن تختار كلماتها بعناية كي لا تخسره، ولكن حتى هذا غير مضمون، كلمات فاطمة له ستفسد كل شيء وستقلب المائدة على رأسها، لا لن تنتظر ...ستبادر هي بالهجوم.

ما الذي منعها من السعي خلف ابنها بعد أن خسرته، هذه ستكون حجتها، لن تكون أبدًا في موقف دفاع.
"انتِ بقى سميحة؟"!!
عقدت سميحة حاجبيها لترفع بصرها إلى محدثتها والتي شعرت من لهجتها بالكثير من الوقاحة والاستخفاف، وزادت دهشتها حين رأت شابة صغيرة في السن لم ترَها من قبل، ولكنها شعرت أنها تحمل ملامح مألوفة لها.
-انتِ مين؟ !
كتفت بسمة ذراعيها وقد رفعت إحدى حاجبيها، ترمق سميحة بغيظ شديد، فهذه هي الشمطاء التي حرمتها كل شيء، فلولا سطوتها وجبروتها على أمها ما كان حدث كل هذا، لولا بغضها لأمها ووضعها في الخانة السفلية للحياة لكانت تمكنت من النجاة من فقر مدقع ومعيشة ذليلة، وحب ضائع، كلماتها خرجت تحمل عناء كل تلك السنوات:
-أنا عملك الاسود يا سميحة ...انا اللي هخلص منك القديم والجديد ان شاء الله.
اتسعت عينا سميحة ذهولًا لتهب واقفة لتنتبه لجاهين الذي يحدق ببسمة مندهشًا من حديثها لعمته التي قالت بغضب:
-مين دي يا جاهين؟ ...وبتكلمني كده ليه؟!!
حاول جاهين تهدئة عمته ليقترب منها هامسًا:
- اهدي يا عمتو ...دي بنت مرات عمي وافي واحتمال هي اللي تنقذ وافي..لو بس...
- بنت مين؟!!
صاحت به سميحة مقاطعة، كما توقعت، الحقيرة تزوجت وانجبت، منحت نفسها لرجل أخر بعد أن نالت أخاها وعمره كله:
-بنت فاطمة هي اتجوزت وخلفت ...طبعًا عمر أخويا كله راح هدر بسبب واحدة ماتستاهلش.

اعتصرت بسمة قبضتيها بقوة حتى ابيضت مفاصلها، رصيد تلك المرأة في تزايد ورؤيتها أمام عينيها الآن رفع معدلاتها إلى السماء، وستجبرها على دفع الثمن ..والذي سيبدأ من الأن:

-اتكلمي عن أمي كويس ...انتِ فاهمة.

-اخرسي وامشي من قدامي.

الامور تزداد سوءًا وتخرج عن السيطرة، المفترض أن تقتنع الفتاة بالمساعدة لا أن تتراشق وعمته الكلمات، وقف بينهما:

-ممكن نهدى لو سمحتوا ...مش وقته اللي بتعملوه ده هنقعد ونتكلم في كل حاجه بس دلوقتي يا...

انتبه إلى أنه الى الآن لم يعرف اسمها فنظر لها قائلًا:

-هو انتِ اسمك ايه؟!!

لم تهتم بالاجابة لتصيح سميحة:

- انت بتكلمها بهدوء كده ليه ..ابعدها عن وشي.

رمق عمته بضيق:

- يا عمتي اهدي ...دي الوحيدة اللي ممكن تساعد وافي ..والدته مريضة ومش هتعرف تتبرعله نجاة وافي مرتبطة بالبنت اللي عماله تصرخي في وشها دي.

رفعت إصبعها مشيرة لها باحتقار:

- دي ...دي اللي هتساعد ابني

ضحكة ساخرة صدرت من بسمة:

-ابنك ...هو انتِ بتكدبي الكدبة وبتصدقيها .

أردت الصراخ عليها مرة آخرى فأوقفها جاهين:

- ارجوكم كفاية كده ..احنا مش جايين نتكلم في اللي فات.

ضاقت عينا بسمة:

-بس انا هنا علشان اتكلم في اللي فات.

نظرات تلك الفتاة تحمل أكثر من معنى، وللأسف لا يستطيع تفسير أيًا منها.

- وانتِ مالك أصلا يخصك في ايه؟!!
صاحت بها سميحة وأرادت تركها مغادرة لكن بسمة أوقفتها قائلة:
-يخصني ...ويخصني اوي يا عمتووو.
ضغطت حروف كلماتها الاخيرة لتحدق بها سميحة بضيق واضح وغضب متصاعد لتدس بسمة يدها في حقيبتها الصغيرة لتخرج بطاقة وترفعها أمام أعينهما قائلة:
- دي بطاقتي ..وده اسمي ...مش بيفكركم بحد.
"بسمة وافي محي الشربيني"
همس بها جاهين بغير تصديق لتنتفض سميحة:
- ايه الجنان ده ...ده نصب انتِ ازاي تسمحي لنفسك تنسبي اسمك لعيلتنا ... انا هوديكوا في ستين داهية.
أمسك جاهين بيد عمته ليوقفها محدقًا ببسمة:
-ازاي؟ ...عمي اتوفى ومراته حامل في وافي!!
- وفيا.
قالتها بثبات وتشفي:
-أنا ابقى توأم المحروس بتاعكم.
تعالى صياح سميحة المستنكر مجددًا بينما يفكر جاهين، هل هذا تطور جيد أم سيء؟ !بالتأكيد جيد، توأمه، ستساعده حتمًا.
أخرج أفكاره إلى كلمات:
- يعني أنتِ توأمه فعلًا ...يعني أكيد هتساعديه.
اتخذت مقعد مجلسًا لها وهي تضع ساق على أخرى قائلة باستخفاف:
- بالبساطة دي ...هقطع من جسمي واديله!!
عقد جاهين حاجبيه، غير منتبه لسميحة التي تزفر نارًا وهي ترمق تلك الغريبة بغضب بالغ لتقول:
- انتِ عايزة إيه بالظبط؟!
اعتدلت لتضغط حروف كلماتها:

-حقي وحق أمي ..وبعدها نبقى نفكر في المساعدة.
فغرت سميحة فاها لتنتقل لها دهشة جاهين وتمنحه غضبها قائلًا:
- انتِ بتقولي ايه؟ ده وقته الكلام ده.
هبت واقفة صائحة:
- وقته ونص أنا مش هدخل عمليات وافتح لكم بطني علشان ناس ماعرفهمش من أصله اضمن حقي وحق أمي الاول وبعديها افكر اللي زيكم مايتأمنلهومش.
هدرت سميحة:
- جاهين خد البنت دي ومشيها من قدامي ..بتخرف بتقول ايه دي أنا أساسًا هطعن بالتزوير في بطاقتك دي.
عادت للجلوس تتحدث بثقة بالغة:
-وماله ..اطعني براحتك والحكم هيطلع لصالحنا من أول جلسة أنا مش مستعجلة ..حقي هاخده هاخده أعتقد انتوا اللي ماعندكوش وقت في واحد يهمك بيموت.
ضاقت عينا جاهين وهو يرمقها بنظرات الدهشة والألم!!
أتساومهما الآن؟ !تريد ثمن مساعدة تقدمها لمن خلق معها في رحم واحد، تقدم المال على حياة شقيق بل توأم .!!
وكأنها لا تملك قلبًا، ربما منحته كله لوافي قبل ميلاده، فحب وافي وعطفه على من حوله كان دومًا زائد عن الحد من وجهة نظره.
قشعريرة سرت في جسده حملت الكثير من الاشمئزاز والبغض لتلك المخلوقة ليعبر عن احساسه قائلًا بازدراء واضح:
-انتِ كده ازاي؟ ...!!تصدقي انك واط...
-اخرس.
صاحت بها مشيرة بسبابتها :
-اياك تفكر تقل أدبك عليا يابن عمي
لتخرج كلمتها الاخيرة بطابع الكثير من كلماتها الساخرة .

جذب ذراعها بعنف مبالغ فيه ليجبرها على الوقوف على قدميها، وأنفاسه الغاضبة تضرب وجهها بعنف:
- بتساومي على حياة أخوكي اللي من دمك!!
أرادت جذب ذراعها من أصابعه التي التحمت بها بقوة ألمتها لكنها فشلت، فأجابت بغيظ مساوٍ:
-الدم اللي انتو خليتوه مايه!!
صك أسنانه بقوة وهو يحررها،فليكن سيلعب بطريقتها الحقيرة إذن، لكنها بهذا جعلته وبكل تأكيد في خانة الأعداء:
-عايزه كام؟!!
عقدت حاجبيها بينما سميحة تصيح:
- انت بتقول ايه؟!!
كرر سؤاله عليها بزعيق لتجيب بهدوء مستعار:
- كام ...انت فاكرني ببيع نفسي أنا عايزة حقي ...ميرااثي أنا وأمي.
هز رأسه بعصبية واضحة:
-ميراث ايه؟ ...انتِ عارفه يعني ايه نقسم ميراث دلوقتي أسهم شركة كبيرة وعقارات وفلوس في البنك ...وافي هيستنى كل ده؟!!
عقدت ذراعيها أمام صدرها:
- يبقى الاحسن تبدأ من دلوقت مادام مافيش وقت.
اشتعلت عيناه غضبًا أكثر وأكثر، وبذل جهدًا خرافيًا للتحكم في أعصابه ومقاومة شعور عارم لضرب تلك المستغلة.
-طيب ياريت نقبل بحل وسط اكتبلك شيك بالمبلغ اللي انتِ عايزه مؤقتًا ..لحد ما نشوف موضوع الميراث ده ..بس لازم نبدأ فورًا في التحاليل.
همهمت مفكرة بينا أمسكت سميحة بكف جاهين لينظر لها فتخبره بنظراتها استنكارها لما يفعل وعدم قبولها له، ليربت على كفها بهدوء مطمئن، فتصمت على أمل أن لديه خطة ما وأنه يدري ما يفعل.

لينتظر قرار بسمة التي خفضت بصرها مفكرة، ربما تحسب المكاسب والخسائر.
بينما هو يفكر في وافي الذي سيصدم بكل تأكيد إذا وصل له أن توأمه المفاجئة تساوم ..على حياته!!

ورقة بنكية ربما لن تكون ذا قيمة إذا طالبوا بوقف صرفها، لكنهم أيضًا لن ينتظروا حتى تقسيم الميراث فعلى ما يبدو أن الفتى حقًا يحتضر ...أتقبل؟!!
هي بحاجه للمال لتقاتل به عند الحاجة، لتجعل محمد ونانا يسحبون المبلغ ويبدأون في تكوين أول حساب بنكي لها، هذا لن يأخذ الكثير من الوقت، حتى تظهر النتائج سيتم إنهاء الأمر.
وإذا خدعوها وألقوا بها خارجًا بعد الحصول على كليتها ستستخدم ذلك المال في السعي خلفهم بأفضل المحامين وستنال منهم كل ما تريد وأكثر.
افرجت شفتيها قائلة:
- موافقة ...نفسي أشوف الست اصفار دول شكلهم إيه؟!
اتسعت عينا سميحة لاستيعابها قصدها، وهمس جاهين بغير تصديق:
-عايزة شيك بمليون جنية!!
هزت كتفيها:
-ده نقطة في بحر اللي ليا عندكم مش كده ولا إيه؟!!
هدرت سميحة:
-مش ممكن ..دي اتجننت!!
نظر لها جاهين راجيًا منها الصمت:
-عمتو وافي دلوقتي أهم من أي حد ..حتى احنا.
ليعود ببصره لبسمة قائلًا:
-موافق ...دفتر الشيكات في عربيتي هنزل أجيبلك الشيك وبعدها هنعمل التحاليل على طول.
- تمام ...هروح أشوف ماما.

تركتهما مبتعدة، فنظرت سميحة له متسائلة:
-افرض كل ده كذب، افرض مش هتساعده هتديها مليون جنية.
ضاقت عينا جاهين قائلًا بتصميم :
- ماتقلقيش يا عمتو ..مش هتاخد حاجه غصب عننا.
ترك عمته ليذهب لأحضار دفتر الاوراق البنكية، وداخله نيران تغلي من تلك الفتاة، هي بالفعل تشبه وافي لكن ماذا لو كانت خدعة فعلًا؟ وكانت أخته بالام فقط وتم تغير اسمها زورًا، فعقله لا يستوعب أن تساوم على حياة من تعلم أنه توأمها .
هناك خطأ ما بكل تأكيد وعليه اكتشافه؟!!

....

اقتربت حيث تركت نانا ومحمد لتفاجأ بأمها تفترش الأرض منهارة باكية، ونانا تنادي طلبًا للمساعدة اندفعت نحو أمها بهلع:
-ماما ...مالك؟ ..انتِ تعبتي تاني.
كان وجهها شاحبًا والدموع تغرق وجنتيها بغزارة أمسكت بكف ابنتها وبصوت باهت متألم:
- ماكنتش هطلبها منك بس مش قادرة ..أبوس ايديك يا بنتي ساعدي اخوكي .. ابوس رجلك سامحيني وساعديه ...علشان خاطر أمك أخوكي بيموت.
ضمت أمها إلى صدرها، تهديء من روعها، تحاول مواستها بأن كل شيء سيكون على ما يرام.
عقل يصارع قلب..
انتقام يقاوم شوق..
فلمن الغلبة؟!!

....

الفصل الحادي عشر

إيه اللي خدته من مرور السنين
يا قلبي إلا دمعتك والأنين
بتئن وبتفرح وترجع تحن
مع إن مش كل البشر فرحانين
عجبي!!
رباعيات جاهين

خطوات بدت بعيدة، تحرك قدميها بصعوبة، ترجوها التماسك وعدم الاستسلام لتخاذل يسري في الضلوع والحشايا، أصبحت قاب قوسين أو أدنى، من حلم بات حقيقة، لكنها حقيقة تحوطها الكوابيس من كل جانب.

أوقفتها مرافقتها - التي تعلم أنها زوجة شقيق وافي الاكبر -أمام حاجز زجاجي مشيرة لها:

- أهو ..نايم هنا.

ليقع بصرها على حلمها الضائع، وللأسف لم ترَ منه الكثير، وجه شاحب تحيطه الضمادات، أسلاك تحيط جسده وأنبوب قد حشر بفمه أو بالأحرى بقلبها الذي انتفض ألمًا لتلك الوخزة الشديدة التي استقرت فيه ليتردد صداها في جنبات روحها، وضعت قبضتها المضمومة موضع قلبها الذي عاد له الآلم العضوي ليباري الألم الوجداني في القوة، وكأنهما يتصارعان من سيلقي بها أرضًا أولًا.

تهمهم بحسرة وصوت يتمزق من قسوة مشهد:

- ابني ...ابني!!

ألصقت جبهتها بزجاج عازل، تمنيت لو تخطته فقط لتضمه، لتهمس بأذنه أنها هنا، أنها عادت ولن تتركه ثانية، أنها أسفة وحتمًا لن تعيد الكره، تريد أن تخبره بالكثير والكثير، ترغب أن تختبر معه كل ما خسرته مسبقًا، ضمة صدر حلمت بها يومًا، ضحكة عالية لطفلها المدلل، صراع على إطعامه أو غضب

أحمق لمراهق معاند، ابتسامة حانية من شاب قارب الرجال طولًا، مراحل عديدة فقدتها وكانت فقط تتخيلها بل ترددها أحيانًا في أحلام يقظتها.
"بسام ..كُل كويس"
"ماتضربش أختك ..دي أكبر منك"
"مالكش دعوة بالبنات ..ابعد عن اللي مايرضيش ربك"
زاد بكاءها وصار مسموع، وانتفض جسدها وهي تحك رأسها بالزجاج العازل .
أغمضت عينيها وكأن هذا سيخفف من آلامها وذكرياتها التي خلقتها معه دون أن تراه، بل كانت تراها في وجه كل طفل كبر أمامها في حارتها، كل فتى صرخ بأمه غضبًا، حتى أنها تخيلت معاركها مع فتاها المراهق لتبتسم بعدها وهو يصالحها، أحلام يقظة عاشتها على الدوام، فقط بسمة من كانت تمنحها القوة لتتماسك، تستمر، تقاوم حزنها وإحساس الفقد المؤذي لها جسديًا ونفسيًا، والان فقط بسمة من يمكنها إنقاذه لتبقى هي جسرها الدائم للنجاة، في الماضي كانت نجاة من موت بطيء ينالها كلما ذكرت رضيعها المفقود، ونجاة الآن من موت قد ينال هذا الرضيع الذي صار رجلًا.
صوت أزيز مفاجيء أفزعها لتتسع عيناها وهي ترى شخصان يندفعان لغرفة ابنها وفي لحظات يكشفان عن صدره ليلصقا به شيئًا ما، شيئ يجعله ينتفض في فراشه بقوة، انتفاضة أصابت قلبها في مقتل.
نداء مكتوم سمعته من ميادة وهي تراقب ما يحدث بفزع شديد:
- وافي ...وافي لأ.
وكأن جسد طفلها تحت التعذيب، أرادت أن تسرع إليه لتوقف ما يفعلونه، لكنها تعلم أنهما يحاولان مساعدته، قلب ابنها توقف عن العمل.
انتفاضة ثانية...
وثالثة...
ورابعة...
وأزيز متقطع عاد للحياة فتوقف كل شيء.
توقف عندها لكن المطمئن أن قلبه هو عاد للعمل.

أخيرًا أعلن قلبها الاستسلام، وتشاركت قدميها معه لتتخاذل وقفتها فاندفعت ميادة نحوها:

-اهدي ...الحمدلله ربنا ستر.

لكن ثقلها على ذراعيها جعلها تدرك أنها بالفعل لا تحتمل، طلبت المساعدة من ممرضة قريبة لتعتمد على كلتاهما وهي تقاوم دوار يهاجم عقلها مع تصاعد آلام صدرها من منبع قلبها .وما إن وصلا بها للخارج اندفعت إليها نانا وكذلك محمد لكنها لم تنتظر تهالكت أرضًا ونانا تتعلق بها صارخة، وفاطمة تنادي ابنتها بعينين لا تبصر ما أمامها من كثرة الدموع.

-بوسي ...بنتي فين ...بنتي؟!!

وبرغم أن صوتها بالكاد مسموع لكنها انتبهت لصوت ابنتها الذي اقترب منها كثيرًا حتى سقطت على ركبتيها بجوارها تتسائل بفزع عما أصابها، تعلقت بابنتها، بطوق نجاتها الدائم، ولم تستطع منع نفسها أكثر:

-ماكنتش هطلبها منك بس مش قادرة ..أبوس ايديك يا بنتي ساعدي اخوكي .. ابوس رجلك ..سامحيني وساعديه ...علشان خاطر أمك أخوكي بيموت.

تزايد نشيج بكاءها لتضمها ابنتها إلى صدرها مهدئة، راجية إياها بالتماسك فقلبها مريض ولن يحتمل، لكنها لم تهتم، قلبها لن يحتمل خسارة طفلها مرتين:

- ريحيني يا بنتي يا عمري ماهطلب منك حاجه تااااني ...ساعديه أبوس ايديك.

ربتت على كتف أمها لتستسلم لكلماتها وقد انتقلت لها حالة البكاء:

-حاضر ...اللي انتِ عايزه ..بس علشان خاطري أنا اهدي.

وكأن تلك الكلمة هي التي يبحث عنها قلبها وعقلها ليتقبل الظلام الذي يحوم حوله، فتثاقلت رأسها على كتف ابنتها لتغلق عينيها ويتوقف أخيرًا سيل الدموع لتنتفض بسمة وهي ترج أمها صارخة:

- ماما فوقي ...حاضر والله هديهاله ماماااا.

زعق محمد:

-يا جدعان دي مريضة قلب حد يساعدنا.

....

تأمل الورقة البنكية التي حملها عائدًا بعد أن خط عليها الرقم الذي حددته، رفع رأسه للافته التي تميز الغرفة التي يقف أمامها، دلف إليها ليحي الطبيب الذي يعرفه:

-ممكن خدمة يا دكتور.

أومأ بايجاب ليردف جاهين:

-هجبلك بنت دلوقتي المفروض انها توأم وافي بس انا عايز مع تحاليل الانسجة وخلافه نعمل تحليل.DNA

عقد الطبيب حاجبيه مستفسرًا:

-مش بتقول توأمه.

-اللي متأكدين منه أنها أخته من الأم عايزين بقى نتأكد من موضوع توأمه دي.

همهم مفكرًا ليضيف:

-لو أخته من الام يبقى تحليل DNA هيكون إيجابي وبنسبة عالية، مش هقدر أقولك هي توأمه ولا لأ.

- طب وبعدين ..عايزة أعرف هي من عيلتنا فعلًا ولا لأ؟!!

-أنت ليك قرابه بالأم.

- لا ..الأب بس يبقى عمي.

-خلاص ..يبقى التوافق ده معاك أنت لو هي بنت عمك هنعرف ولو ماتقربلكش خالص برضو هنعرف.

- ماشي خد مني عينة دلوقتي ..بس الموضوع ده ماحدش يعرفه غيري وماتكلمش حد غيري.

- مفهوم ...أكيد السرية في المواضيع دي مطلوبة.

اتخذ طريقة خارج المعمل، انتبه لأمه وعمته الجالستان بالاستراحة ليقترب منهما ليجدهما باكيتان، انتفض صائحًا:

- في ايه ...بتعيطوا ليه؟!!

خرجت الحروف من شفتي أمه مؤلمة له ولها:
-وافي كان هيروح مننا قلبه وقف ورجعوه تاني.
زاغ بصره للحظة قبل أن يدور في المكان بعينيه:
-هي راحت فين ...اللي اسمها بسمة دي فين؟!
- فاطمة كانت مع وافي ساعتها وماستحملتش اتحجزت في أوضة في الدور التالت ..أزمة قلبية.
أجابته أمه ليتركهما متجهًا إليهم، كان يخطو خطوات حملت الكثير من عصبيته وقلقه، وافي لن يحتمل، لا يوجد وقت سيأخذ تلك الفتاة إلى المعمل في الحال، سيلقي لها بالمال بل وأضعافه، فالمال لم يعد مهمًا واكتسابه ليس صعبًا ، لكن من أين سيكتسب أخ كوافي إن فقده.
وصل للغرفة بعد أن سأل عنها، طرق بخفة وسرعة ليأتيه صوت يسمح بالدخول، دلف إليها ليبصر فاطمة مستلقية على الفراش، مغمضة العينين، نائمة أو غائبة عن الوعي لا يعلم .اقترب منها هامسًا:
-هي عاملة إيه؟!!
أجابته نانا:
-الحمدلله كويسة ..دي نايمة.
أومأ برأسه براحة حقيقية، لينظر لها ممسكة بكف أمها مكفأه رأسها عليه، ساكنة صامتة وللحظة بدت أضعف مما كانت منذ رأها.
لم يهتم بذلك كثيرًا مد يده بالورقة البنكية قائلًا:
- الشيك أهو ..ممكن تقومي علشان نعمل التحاليل.
همهمت نانا بكلمات غير مفهومة، عقد محمد حاجباه في انتظار رد بسمة التي رفعت رأسها ترمق جاهين، الذي ارتجفت عيناه للحظة فالنظرة التي حملتها له لم تكن بنفس الندية والعند السابقين، بل نظرة استسلام ..أو خسارة لم يفهم!!
همت واقفة:
-اديه لمحمد ...خاليه معاك يا محمد لما أرجع هفهمك.
لتغادر الغرفة يتبعها جاهين الذي أعطى الورقة البنكية لمحمد.

حدق محمد ونانا بما في يدي الاول وما إن انتبهت للرقم حتى شهقت:
- هاااااا ...مليون جنية ..مش دي برضو مليون يا محمد ولا انا اتحولت.
لم يجبها بل استقر ببصره على وجه فاطمة الشاحب المستكين وراوده شعور غير مريح حيال هذا الأمر، وعقله يبحث عن تفسير أو استنتاج لما تنوي بسمة فعله بالضبط.

وجدت ممرضة تنتظرها خارج الغرفة ليقول جاهين موضحًا:
-خليكي معاها هتعملي تحاليل وكمان كشف على الكلى وشوية فحوصات ..هي هتفضل معاكي لحد ما تخلصي.
أومأت برأسها لتتبع الممرضة دون أي تعليق واكتفى هو بمراقبتها وهي تسير مبتعدة وقد ارتاح قلبه قليلًا، لازال وافي في خطر لكنه يسير قدمًا نحو انقاذه، ولا يمكنه أن يفعل أكثر من ذلك .تحرك إلى حيث يرقد ابن عمه فلم يتسنى له رؤيته منذ الصباح .

انتهت من الفحوص والتحاليل المطلوبة واتخذت طريقها للعودة، وصلت لغرفة أمها لتجد محمد يقف مستندا إلى الجدار اقتربت منه ليعتدل مطمئنًا عليها فطمأنته ليقول:
-إيه الشيك ده يا بوسي؟
أمسكت بالورقة تحدق بها، تراصت الاصفار الست التي طلبتها، ستحمل لقب مليونيرة في لحظات لكنها ليست سعيدة، لم يكن المال هدفها الوحيد في الحياة، صحيح أنها دومًا تبغى حياة أفضل وكانت تدرس لتعمل وتحقق لنفسها وأمها ما تتمنى، وما حدث صباح اليوم أفقدها عقلها بالفعل، وسقوط أمها المفاجيء أعاده لها قليلًا، والان هي لا تدري حقًا ما الذي عليها فعله، لكنها قررت أن تنفذ أخر ما فكرت فيه وتترك البقية فيما بعد.
أعادت له الورقة قائلة:

-انزل دلوقتي قبل البنوك ما تقفل، افتح حساب باسمي، ولو منفعش لاني مش معاك افتحه باسمك انت لحد اما ابقى احوله بعد ما نخلص اللي احنا فيه.
عقد حاجبيه وارتسم الغضب على ملامحه:
- فهميني الاول ..معناه ايه ده؟ !انتِ اتساومتي؟.
- انا اللي ساومت مش هما وده مش تمن كليتي ده بس ضمان وحقي وحق أمي هخده كله بس اطلع من العملية دي على خير ...لو لا قدر الله جرالي حاجه أنا مستأمناك على الفلوس دي ارعى ماما ومها ونانا بيها.
تملكته الشفقة عليها:
- ليه بتقولي كده ...دي عميلة بسيطة وان شاء الله تقومي بالسلامة.
- طيب روح يا محمد قبل ما البنوك ما تقفل خد بطاقتي معاك وشوف هتعمل ايه ..ومعلش هتعبك روح هات مها زمانها قلقانه وشكلنا مطولين هنا خاليها تيجي تقعد معانا.
أومأ برأسه إيجابًا، تركته لتدخل غرفة أمها لتجدها على حالها جلست بقربها هامسة:
-ماصحيتش؟!
أجابتها نانا القريبة بالنفي، لتسألها عن التحاليل التي أجرتها، لتجيبها بأنهم سينتظرون النتائج لتدخل العمليات بعدها .
مر الوقت ببطء، فاطمة تستيقظ للحظات ثم تعود لغفوتها التي تطول، محمد لم يعد بعد، ونانا قررت نيل غفوة على الاريكة العريضة بالغرفة، بينما بقيت بسمة بجوار أمها تمسك كفها حينًا وتربت على رأسها حينًا آخر.
طرقت خفيفة على الباب جعلتها تتجه له تفتحه لتجده يقف أمامها بوجه جامد ويقول بلهجة بدت باردة:
-ميعاد الزيارة المسائية بدأ، مش هتيجي تشوفيه.
رمقته لهنيهة لتفرج شفتيها قائلة باقتضاب:
-مافيش داعي.
لاحظت اتساع عينيه لثانية قبل أن يعود لجموده متمتمًا:

- براحتك ...مرات عمي عاملة إيه؟!
يلعب دور المهتم، فجارته لتجيب:
- الحمدلله ..بس لسه نايمة.
هز رأسه بتفهم ليضيف:
-لو احتاجتم حاجه انا هكون في استراحة العناية.
ابتسامة ساخرة ارتسمت على شفتيها لم يفهم سببها وهي تقول:
- شكرًا.
وأغلقت الباب بعدها دون تعليق أخر، ليرمق الباب للحظات قبل أن يهز كتفيه بيأس مبتعدًا

....
الظلام.
رفيقها الدائم لسنوات، سنوات طفولتها الأخيرة ومراهقتها الأولى ولازال يصاحبها.
تمتمت بكلمات لربها، تصبر نفسها كما اعتادت أن تفعل إذا اشتد بلاءها في عينيها.
لو كانت تبصر لأخذوها معهم من البداية بدلا من جلوسها هنا وحيدة، الفرد المعاق في العائلة والتي يفضل بقاءها في البيت فخروجها إلى أماكن جديدة يعني أن يصاحبها أحد طوال الوقت، وهم ليسوا في حاجه لمزيد من التشتت والقلق عليها وحمل همها، يكفي ما هم فيه.
أطبقت جفنيها لتحرر المزيد من العبرات المحتبسه في مقلتيها.
العبرات الشيء الوحيد الذي يشعرها أن عينيها لا زالت حية ترزق، ترزق بقطرات مالحة تريح قلبها أحيانًا لكنها لا تحب أن تشاركها مع أحد .
تكره الشفقة، لا تحب أن تسمعها أو تستشعرها في عبارات من حولها .
فاعتادت التماسك والتظاهر بالقوة اللازمة، وحينما تكون وحيدة وهذا يحدث كثيرًا تعوض كل لحظات تماسكها ببكاء مرير أغلبه يحوي مناجاة طويلة لربها، تتحدث معه ، تشكو وهو أعلم بهمها، ترجو الشفاء وأملها في رحمته لا

ينقطع .أما بكاءها هذه المرة كان لأمر مختلف، تخشى اليتم ثانية، فقدت أمها مرة ولا تريد أن تعاد الكره، فاطمة أمها البديلة والتي أدت الدور ببراعة، لا تتصور أن اللحظة التي خافتها على الدوام قد حان وقتها.
ستغادر فاطمة حتمًا لتلحق بوليدها الذي لم يعرف أحد عنه شيئًا وستأخذ بسمة بالطبع، ولن يبقى لها إلا نانا التي لم تستطع حتى الآن أن تعيدها لسابق عهدها.
هل يمكنها أن ترجومن فاطمة أن تبقيهما معها، لا ..ليس من حقها، يكفي أنها تحملتهما طوال تلك السنوات.
رفعت أناملها تمسح أثار بكاءها الذي لا يلبث أن يغرقها ثانية، إلا أنها انتبهت لصوت من الخارج.
إنه محمد.
هبت من مكانها لتهرع إليه ليقول حال رؤيتها:
- تعالي يا مها ...هنروح المستشفى بدل ما انتِ قاعدة لوحدك.
أومأت برأسها بسرعة لتعود إلى غرفتها فعلا صوته قائلًا:
- هستناكي تحت يا مها.

وقف أسفل المبنى وبدا منشغلًا بالأحداث الدائرة من حوله، وأهمها طبعا من تشغل تفكيره على الدوام ..نادرة.
هل سيحدث ما يخشاه؟!
لطالما اطمئن انها ستكون بخير مادامت تحت بصره وبالقرب منه، لكن الآن لا يعرف ما الذي تحمله لهما الأيام المقبلة، لديه شعور أن فاطمة وبسمة لن يتركا الفتاتين، وسيصحباهما معهما في حياتهما الجديدة والتي لن يجد له مكان فيها. هنا، كان الجار والسند والابن الذي لم تنجبه فاطمة، لكن هناك حيث العائلة الحقيقية والمال والثراء، فأي صفة سيحملها ليظل بقربهن.
فرك رقبته ببطء وقد ضاقت عيناه وفي رأسه فكرة واحدة، عليه أن يبقى معهن ويبحث عن الطريقة لذلك، المتهورة تلك يجب أن تبقى تحت مراقبته، نادرة

التي لا يعرفها أحد كما يعرفها، الطيبة الساذجة التي تتصور نفسها أذكى البشر وأكثرهن دهاءًا، لا تعلم أن عيناها دومًا تكشفها، وكم يخشى عليها أن تسقط بين براثن من لا يرحم ويستغل ساذجتها تلك.

خرج من دائرة أفكاره على ربتات على ظهره وصوت مألوف يبعثه السلام، التفت لشاب هو من رفاق الحارة:

-ازيك يا سعد عامل أيه؟!

ابتسم سعد بود:

- الحمدلله بخير ...ايه يا بني مين الأخ اللي جه ده وروحتوا كلكم معاه على فين؟ .بس باين عليه ايه مرتاح على الأخر.

صمت محمد مفكرًا، هل من حقه أن يخبره بالأمر، ولو علم سعد ستعلم الحارة كلها، فهو ماهر كثيرًا في نقل الأخبار وبسرعة.

همهم مجيبًا:

-ده واحد معرفة.

اكتفى بتلك الجملة المقتضبة التي بالطبع لم تشبع فضول سعد ليقول مستفسرًا أكثر:

-معرفة؟ تبع مين ابلة بطة ولا بوسي؟.!

طال صمته هذه المرة فمال سعد نحوه:

-انت هتخبي عليا ولا إيه ...ماهي باينه اهي؟!

التفت له محمد مستوضحًا ليردف سعد:

- شكلها كده بوسي وقعت واقفة ...ده عريس صح؟!

ضاقت عينا محمد للحظة وقد أعجبه ذالك التلميح، لمَ لا؟

فهما لن يعودا إلى هنا على كل حال، فلمَ لا يقول أنها بالفعل ستتزوج برجل ثري وستعيش في مكان أفضل مع أمها والفتاتين، ألن يكون هذا أكثر منطقية؟.

ابتسم محمد مؤيدًا:

-بس خليها في سرك ..الموضوع لسه على البر والحاجات دي بتتنظر.

استقرت الحماسة على ملامح سعد وهو يطمئنه:

- أكيد ما تقلقش ..وهما هيمشوا من هنا.
أومأ محمد ايجابًا:
- ايوة ...يمكن يجوا بس ياخدوا حاجتهم من هنا لكن خلاص هيعيشوا في مكان أحسن وارقى بكتيييير.
- وانت!!
نظر له محمد قائلًا:
- وانا مالي.
-أكيد هينوبك من الحب جانب انت كنت تعتبر ابن ابلة بطة وراجل العيلة دي سنين.
وكزه محمد بمرفقه باسمًا:
- هكدب يعني هو حد يكره ...ادعيلي.
وقبل أن يقول سعد المزيد ظهرت مها منادية على محمد ليقترب منها رافعًا ذراعه:
-هاتي ايديك.
لم ترفع يديها فنظر إلى وجهها الذي ارتسم عليه الارتباك والحرج، فابتسم قائلًا:
- طيب امسكي في القميص علشان نعرف نمشي ومانتأخرش عليهم.
لم تجد بدًا من الاستجابة لذلك الاقتراح فمدت يدها لتلتقي بقماش قميصه الذي مده ناحيتها ليبدأ التحرك معها.
وفي سيارة الأجرة فضلت مها الصمت حتى الوصول لوجهتهما.

وصلا للمشفى واستمر سيرهما لتقول مها:
- هي بوسي هتعمل العملية؟!
- أيوة ..بس لسه نتيجة التحاليل، وأبلة بطة تعبت وحجزوها في أوضة هنا.
قبضت على قميصه بقوة لا شعوريًا وهي تردد:
- ايه؟ ..!تعبت ..ازاي؟

أراد أن يربت على كفها مهدءًا لكنه تراجع قائلًا:
- هي بخير دلوقتي ماتقلقيش ..هتشوفيها.

كانت فاطمة استعادت كامل تركيزها، جلست معتدلة في فراشها تجاورها نانا وبسمة التي كانت تطعمها بضع لقيمات.
شُرع الباب ليظهر محمد ومن خلفه مها التي ما أن رأتها فاطمة حتى نادتها:
-مها حبيبتي ..تعالي.
اندفعت مها متعثرة لتسرع لها بسمة تلتقطها قبل السقوط وتأخذ بيدها لتوصلها إلى كف أمها الممدودة، لتلقي الفتاة الضريرة بنفسها في الحضن الذي طالما احتواها ويعني لها الكثير، تعلقت أصابعها بملابس فاطمة لتبدأ في بكاء مكتوم، عقدت نانا حاجبيها:
-مالها دي ...بتعيطي ليه؟!
ضمتها فاطمة اليها مهدئة:
- ايه يا مها يا حبيبتي ...انا كويسة أهو.
تعلقت مها بها أكثر وأقوى ولازالت عبراتها تغسل وجنتيها بكثرة، هي خائفة أن تبتعد عنها بالمكان، فكيف تستوعب أنها أيضًا مريضة وقد تبعد عنها بالجسد والروح.
ربتت بسمة على ظهر مها:
-اهدي يا بنتي ...ماما بخير أهي.
رفعت مها رأسها تمنت لو أبصرت للحظة لترى ملامحها وتطمئن بحق عليها، عادت لتستقر على صدرها تستمع لدقات قلب فاطمة لتطمئن قلبها هي أنها بخير.
....

وظهرت النتائج وهي أكثر من رائعة، نسبة التطابق كبيرة جدًا، الإعداد للعملية قد بدأ بالفعل.

انتقل الجمع من الغرفة التي استقرت فيها فاطمة ليومان إلى الغرفة التي سترقد بها بسمة قبل وبعد العملية.
لم يحدث أن التقوا بأحد إلا جاهين، الذي كان يطل عليهم من حين لأخر يخبرهم بالجديد وما هي الخطوة التالية.

جلست بوسي على طرف الفراش تجاورها فاطمة تحتضن كفها بينما تقول الممرضة.
- هتنامي هنا ..طبعا هتصومي من بعد الساعة 12 والعميلة ان شاء الله هتكون الساعة 9 الصبح، هجيلك قبلها علشان نجهز للعملية.
أومأت بسمة لها إيجابًا لتتركهن الممرضة مغادرة.
التفتت بسمة لأمها:
-نامي يا ماما ...افردي جسمك هتنامي جنبي الليلة دي صح؟.
زمت شفتيها تمنعها العبرات، لتجذب ابنتها تضمها لصدرها، تربت عليها بقلبها قبل كفها هامسة في أذنها:
- ربنا يحفظك يا بنتي ..ومايحرمنيش منك ...سامحيني.
تملصت من بين ذراعي أمها قائلة:
-مش كفاية بقى سامحيني دي ...خلاص ياماما اللي حصل حصل ادعيلي اطلع بالسلامة.
ربتت فاطمة على وجنة ابنتها مرددة بلهجة لامست قلبها:
-ربنا يرجعك ليا بالسلامة ..انتِ وهو.
هو!!
هو الذي لم ترَه إلى الآن، لا تعرف لمَ تخشي رؤيته؟ ..تتراجع دومًا عن الذهاب إليه أو إلقاء نظرة واحدة عليه؟.
توأمها ..الاخ الذي لم تعرفه يومًا ربما لا تريد أن تلين مشاعرها أكثر، مازال داخلها ذاك الجزء المستعر الغاضب وترغب في الاحتفاظ به.
طرق أحدهم الباب ليدلف محمد قائلًا:

-خلاص كله تمام ..أمشي أنا.
ابتسمت فاطمة بحنو:
- تعبت معانا اليومين دول يا بني.
- بتقولي ايه بس يا أبلة بطة ...مش أنا زي ابنك والله باعتبرك زي أمي هو انا ليا عيلة غيركم.
اتسعت بسمتها وهي تؤيد كلامه بإيماءة من رأسها ونظرة حب تحملها لهذا الشاب.
الذي أردف:
-هجيلكم بكرة بدري.
هزت نانا رأسها:
- أنت مش ملاحظ إنك سايب شغلك بقالك يومين ..هيستحمولك لحد أمتى في السنتر خليك في شغلك بدل ما تخسره.
رمقها للحظات، هل هو اهتمام أم محاولة أخرى للتخلص منه؟!
- طيب ما أنتِ كمان مش بتروحي الشغل مابقاش همك دلوقتي.
صمتت نانا ولم تجِب، في الحقيقة اتجهت عينيها إلى حيث تجلس فاطمة وابنتها، تريد منهما الاجابة.
وجاءت كما تمنت على لسان بسمة:
- شغل ايه بقى يا محمد ...نانا ومها معانا عالحلوة والمرة واحنا عيشنا مر كتيير أوي، تفتكر هنسيبهم لما نشوف الحلو.
ربتت فاطمة على كتف ابنتها لتبدي تأيدها لتلك الكلمات التي جعلت قلب نانا يقفز فرحًا بين ضلوعها، بينما كتمت مها رغبة عارمة بالبكاء.
أطرق محمد رأسه، تحققت أسوأ مخاوفه:
- أه طبعًا.
ليرفع رأسه مجدداً:
- صحيح في الحارة الناس معتقدة انك مشيتي علشان هتتجوزي جوازة كويسة وانا ما أنكرتش ...ماكنتش عارف أقولهم إيه؟!

ساد الصمت للحظات قبل أن تتدخل نانا قائلة:
-كده أحسن ..مافيش داعي يعرفوا حاجه وكده كده يا بوسي انتِ مش هترجعي الحارة تاني يبقى مش مهم.
ضاقت عيني بسمة مفكرة قبل ان تقول:
-معاكي حق ...خلاص يا محمد ماتعلقش سيبهم مش هتفرق.
أومأ برأسه متفهمًا والتفت ليغادر فأوقفته بسمة قائلة:
-محمد ..أنت كمان اعمل حسابك انك هتسيب شغلك ده وتشتغل معانا أنا لسه مش عارفه عيلتنا دي شغالة في إيه بالظبط بس أكيد هتلاقي مكان فيها.
حدق بها محمد بغير تصديق ودون شعور منه التقت عينيه بعيني نانا الرامقة له هي الاخرى بدهشة ليقول:
-بس مش بدري الكلام ده أنتِ لسه مش عارفه الحياة هيكون شكلها ايه بالظبط.
عقدت بسمة حاجبيها قائلة بحزم:
- احنا لينا شركة وأنا ليا فيها زيهم، مالهومش أنهم يرفضوا أنت يا محمد كنت راجلنا لسنين ..تفتكر يعني هتبعد عنا بسهولة كده.
ثم التفتت لنانا مردفة بلهجة ماكرة:
-مش أنت برضو عايز تفضل جنبنا.
قاوم ابتسامة فرح داعبت شفتيه قبل أن يقول:
-عمومًا أنا عمري ما هتخلى عنكم ولو حصل واشتغلت هثبتلك أن اختيارك في محله
عادت ببصرها له قائلة:
-وانا متأكده ..خد نانا ومها معاك بقالهم يومين هنا وتعالوا الصبح بدري عايزة أشوفكم كلكم قبل ما أدخل العمليات.
ضمت فاطمة كف ابنتها بحنان وهي تستشعر قلقها من تلك العملية لتقترب نانا قائلة:
-أنا مش همشي ..أنا هفضل معاكي.

-لا يا نانا انتِ ومها تعبتوا ..مافيش داعي تباتوا زي امبارح على الكنبة روحوا وتعالوا بدري ولو حد سألكم عني أو ماما، قولوا زي ما محمد عمل ,مشروع جواز وهيكمل على خير.
وبعقل أم تفكر في مستقبل ابنتها همهمت:
-هتوقفي حالك ليه يا بنتي؟.
ضحكت بسمة:
-ياماما الحارة بس اللي هيعرفوا كده ولا عايزة نقولهم اللي فيها ثم احنا داخلين دنيا تانية خالص ..بس اطلع من العملية على خير.
وخزة جديدة ومكررة تنتاب قلب فاطمة قلقًا على ابنتها، التي عليها أن تضحي من أجل رجاء مكلوم منها، للحظة تمنت ألا تفعلها، أرادت أن تقوم ابنتها بها دون أن ترجوها فيثقل قلبها بهم جديد وثقل أخر ومزيد من الرجاء بالمسامحة.
أمسكت نانا باختها لتأخذها معها بينما سبقهما محمد للخارج، وبدا الضيق على وجه نانا وهي تتمتم:
- أنتِ هتلزقي محمد معانا ليه ماتسيبيه يشوف حاله بعيد.
رفعت بسمة إحدى حاجبيها لتهمس:
-على ماما!!
ودون أن تتمالك نانا نفسها ارتسمت بسمة على شفتيها زمتها بصعوبة لتقول:
- طيب هنجيلكم بكرة بدري مش عايزين حاجه من البيت.
هزت فاطمة رأسها لتقول بسمة:
- بعدين نبقى نشوف هنحتاج ايه من هناك يالا محمد مستني.
لوت نانا شفتيها اعتراضًا لتقول باستسلام:
-يالا يا مها.

....
جلس جاهين مجاورًا لوافي متأملًا ملامح وجهه الشاحبة، لقد فقد الكثير من الوزن في يومين فحسب .
همس برفق:

- هانت يا وافي ..بكرة تعمل العملية وجسمك يتحسن مع الوقت.
لاحت ابتسامة على طرف شفتيه حملت من الحزن أكثر ما تحمل من تفاؤل.
يخشى أن يفقده، لقد فعل مابوسعه ولم يعد لديه المزيد، فقط الدعاء هذا كل ما يملكه.
سيكون يومًا طويلًا غدًا، أخبره الطبيب أن العملية تستغرق من ثلاث إلى خمس ساعات، يالها من مدة طويلة سيموت ويحيا فيها مائة مرة.
مال ناحيته أكثر:
-وافي اتمسك بالحياة علشان خاطري ماتسيبنيش.
تمنى منه إيماءة ...همسة ..ضمة أصابع.
أي شيء يخبره به أنه يسمعه وسيفعل كما يريد.
لكن لا شيء، صمت مطبق، سكون تام فقط ذلك الازيز المتقطع المزعج والمطمئن في حد ذاته أنه حي.
زفر بحرارة حملت توتره وقلقه وبعض الاحباط.
اعتدل في جلسته يتأمل ملامح الساكن أمامه، لتظهر شبة ابتسامة على ركن شفتيه، انها تشبهه حقًا .
- تصدق إن ليك توأم.
شخص ببصره يعيد لعقله كلماتها ...غضبها ...جمود قلبها ليردف:
- ومش أي توأم.
هي مختلفة عن وافي كثيرًا، بل يبدو أنهما لا يتشابهان في الطباع على الاطلاق.
عاد ببصره للراقد في فراشه:
-أختك شرانية يا وافي.
مهلًا ..لما يعتقد أنها تحمل الشر داخلها، هل وضع نفسه مكانها، فتاة عاشت حرمان وحياة بائسة لسنوات طويلة، حرمت فيها من أبسط حقوقها من حياة كريمة ليس شفقة وإنما حق مكتسب وبعد كل تلك السنوات تظهر عائلته وتطلب

منها ببساطة أن تتقبلهم بل وتمزق جسمها من أجل فرد منهم حتى لو كان توأم لها.
توأم لا تعرف عنه شيئًا، ويبدو أن أمها لم تخبرها عنه على الاطلاق.
فلمَ يعتقد أنها يجب أن تتعاطف لمجرد كلمة خرجت من فمه؟؛ ليس منطقيًا.!!
ما تفعله تلك الفتاة برغم أنه صعب عليه تقبله ولكن عليه على الأقل أن يتفهمه.
مال بجذعه ناحيته وقد انتقل بفكره له، كيف سيكون رد فعله هو عندما يعلم أن أمه عادت للحياة بل عادت بأخت توأم.
- يا ترى هتعمل ايه يا وافي ...هتتفهم ولا هتتصرف زي اختك بقسوة؟.
لم يتوقع إجابة بل جاءه صوت أخر:
- لو سمحت كفاية كده ..لازم تخرج.
التفت إلى إحدى الممرضات المسؤولة عن قسم العناية فأومأ لها شاكرًا ممتناً، وقف وقبل أن يخرج مال وقبل رأس وافي هامسًا:
-تقوملنا بكرة بالسلامة إن شاء الله.

....

الفصل الثاني عشر

كيف شوفت قلبي يا طبيب
همد ومات ولا سامع له دبيب
قاللي لاقيته مختنق بالدموع
ومالوش دوا غير لمسه من ايد حبيب
عجبي!!
رباعيات جاهين

انتهى الاجتماع الذي حضره معاذ رغمًا عنه .كأمور كثيرة يفعلها تلك الأيام، فعليه أن ينفذ الجزء الخاص به من الاتفاق، سيساعده سامر في العثور على بسمة وعليه هو أن يبدأ في الاهتمام بالعمل والتعرف على أمور الشركة.
هو يحاول جاهدًا أن يستوعب مجريات الأمور، لكن انشغال عقله بالعثور على بسمة يخرب عليه هذا وفي شرود جديد وصلت له همهمة انتبه لمحدثها فرأى سامر يقترب منه:
- سمعتني.
هز رأسه نفيًا:
-معلش ماخدتش بالي.
عقد سامر حاجبيه وبدا عليه الغضب:
- بالظبط ...على طول مش واخد بالك مش هينفع كده يا معاذ لازم تركز.
أخوه على حق، عليه أن ينتبه أكثر ويتوقف عن الشرود، طأطأ رأسه معتذرًا:
- أسف ..هركز أكتر.
جلس سامر جواره ليعيد ما تم الاتفاق عليه خلال الاجتماع،وما الذي سيتولى مسؤوليته فيما يخص المشاريع القادمة.
انتهى الأمر بشكل أفضل ليلتفت سامر لمعاذ قائلًا:

- معاك صورة لبسمة.
هز رأسه بحزن:
-لأ ..ماكنتش بترضى نتصور خالص.
صمت مفكرًا ثم قال:
- طيب هي اسمها بالكامل إيه؟
- بسمة وافي ..مش فاكر الباقي.
-اكتبلي في ورقة كل اللي تعرفه عنها أي تفاصيل ممكن تساعد الراجل اللي هيدور عليها ...وكمان أوصف شكلها شوية.
هب بحماس مغاير لحالة الخمول التي كان عليها قبل لحظات:
-حاضر ..حالًا.
شيعه أخوه بابتسامة تحمل شفقة أكثر منها سعادة، فكل ما يجري الآن لا شيء أمام المواجهات القادمة حين يعثران على تلك الفتاة.
الكذب وتشويه الحقائق، هو الحل الأمثل مع سما، لا داعي بأن تعرف من بسمة بالضبط ومن أهلها، لكن من أين سيأتي بالبطانة التي ستغطي كل هذا لييسر لأخيه زواجه منها، وهل ستقبل الفتاة أن تتنصل لكل ماضيها بل ويختلقون لها ماضي مغاير لخداع أمهما، وماذا عن أمها هي؟!!
هز رأسه بيأس الأمر ليس بتلك السهولة، لكن فليتوقف عن شغل باله الآن فليعثر عليها أولا ربما تتحقق أمنيته وتكون الفتاة تزوجت بالفعل وينتهي كل شيء.

عاد له سريعًا يرفع له ورقة خط عليها بضع عبارات، أمسكها سامر ليقرأها وبعد لحظات عقد حاجبيه لينظر لأخيه:
- ايه اللي انت كاتبه ده؟.
سأل معاذ:
- ايه؟!!
عاد سامر ببصره للورقة ليقرأ:

- فتاة جميلة جدًا ..شعر أسود حالك كالليل ووجه كالقمر ..انت عايزني ادي الكلام ده للراجل ..هو أنا بقولك حب فيها.
زم معاذ شفتيه:
-ماهو ده وصفها بالنسبة لي.
حدق به للحظات قبل أن يدخل في نوبة ضحك قائلًا:
-والله ...هم يضحك وهم يبكي.
مد معاذ يده:
-خلاص هاتها هغيرها.
رفع كفه مانعًا:
-لا شكرًا هكتبها أنا ..ماتتعبش نفسك.
التفت معاذ للمغادرة لكنه توقف للحظات حتى قال سامر:
- مالك؟!!
عاد له ببصره قائلًا:
- انت لسه بتحبها؟!
لم يحتاج ليسأل عن من يتحدث، فهو لم يحب غيرها ..أحلام.
أحلامه التي ظلت أحلام وأضحت ذكرى لا يرغب في نسيانها، وضع حولها السدود اللازمة لحمايتها، فهو لم يعد يملك منها غير لذة التفكير فيها.
-ماعتقدش ينفع اسميه حب ..هي ذكرى حلوة ومن حلاوتها مش عايز أنساها أو أسمح لذكرى تانية تخبيها.
قالها شاردًا ليطالعه أخوه بحزن:
-بس أنا مش عايز بسمة تبقى ذكرى ..أنا عايزها ترجعلي.
تأمله سامر للحظات قبل أن يمنحه ابتسامة هادئة:
-هترجعلك يا معاذ ...إن شاء الله هترجعلك.
اتسعت ابتسامة معاذ ومزيد من الاحساس بالثقة يتسلل إليه، ليمنح قلبه هدنة، هدنة يحتاجها ليكمل بحثه عنها.
وسؤال عقله الدائم..

"تعرفين أين أنا ..لمَ لا تأتين؟"!!

....

خطوات تعددت من أصحابها حملت بعضها رجفة حقيقية.

قدمان سارتا بتؤدة ليس لطمأنينة بل لرهبة ملأت جوارحها وهي تراقب الممر الذي تسير فيه ممسكة بكف أمها ترجو الأمان، لا تستطيع مقاومة ذلك الخوف الذي اجتاحها محتلًا كل جزء في عقلها.

عملية ...تخدير ..أمور ارتبطت في ذهنها بالخطر المحدق وربما الموت.

وتردد نفس التساؤل برأسها ...لمَ قبلت؟!

أي مال قد يعوض روحها التي قد تزهق بالداخل.

تصلبت قدميها فجأة ليتوقف الركب السائر معها ناظرًا لها لتحتضن أمها كفها هامسة:

- مالك يا بوسي ...انتِ كويسة يا بنتي؟.

أمامها كانت البوابة العريضة التي ستدخلها إلى غرفة العمليات اقترب جاهين منها وتوتره وقلقه لا يقل عن رعبها وخوفها .فوصل لأذنيه همسة متقطعة منها وهي تجيب أمها:

- خـ ا..يفـ..ـه.

ضمتها أمها لصدرها فهي كذلك أكثر منها رعبًا، ليس فقط على ابنتها التي ربتها وكبرت في كنفها بل أيضًا على الآخر الذي حرمت منه لسنوات.

تخشى عليها وعليه، ويالا لوعة القلب المستمرة بلا هوادة!.

وصلهما صوت جاهين الذي حاول أن يكون مطمئنًا:

-ماتخفيش ...العملية سهلة إن شاء الله.

اكتفى محمد ونانا ومها الملتصقة بأختها كطفلة تخشى التيه بالمتابعة بصمت، فلم يكن لديهم ما يضيفونه.

ظهرت ممرضة أمامهم لتقول:

-يالا اتفضلي ..كل حاجه جاهزة.

حررتها أمها وحررت معها المزيد من العبرات التي قاومتها كثيرًا، وقبل أن تفكر وخوفًا من تراجع غير مقبول تركتهم لتخطو خلف الممرضة إلى الباب الذي فصلها في لحظة عن الجميع لتشعر بمعنى مختلف عن الوحدة.
استلقت على فراش العمليات الصغير، قلبها يصدر نبضات شديدة القوة وصلت لأذنيها حال علقوا بإصبعها مشبك ما، لتسمع هدير دقات قلبها يتعالى بالتدريج مع رائحة أزكمت أنفها حتى كادت تصيبها بالغثيان .
أغلقت عينيها راجية الهدوء تتمتم ببضع أيات قرأنية تحفظها، ليقترب منها أحدهم مبتسمًا:
-انتِ قلقانة ولا إيه؟ ..ماتخافيش العملية بسيطة جدًا.
اكتفت بايماءة ليستمر في الحديث الودي ليرفع عنها توترها واستجابت معه قليلًا حين سألها عن اسمها ودراستها وجامعتها، بالاضافة لأسئلة طبية أخرى عن آخر عملية أجرتها وأشياء من هذا القبيل.
شعرت بحركة زادت حولها لتنتبه لمحفة متنقلة تُدفع برفق لتستقر على مسافة ما بجوارها ...إنه هو حتمًا ...أخوها.
لم تحرك رأسها لتراه، مازالت تخشى ذلك، حتى فضولها لرؤية وجهه لم يتمكن من التغلب على كل المشاعر السلبية الآخرى التي تقترن بظهور هذا الأخ.
بدأ الثقل يصل لعقلها، وحديث طبيب التخدير مستمر وهو يحثها على الاجابة، حتى صار لسانها ثقيلًا وحينها فقط أدارت رأسها إليه، لتتسع عيناها للحظة وهي تتأمل ملامحه للمرة الأولى، إنه حقًا يشبهها ..بعض الشيء وكان هذا أخر ما سجله عقلها قبل أن يغرق في الظلام.

....
دقائق كالساعات ..فكيف حساب الساعات نفسها.
مرت أربع منها ومازال كل شيء كما هو، لا أحد يعلم ما الذي يجري بالداخل، لا أحد يخرج ولا أحد يدخل.

عبرات فاطمة تتوقف لتهطل من جديد، مها تمسك بكتفها تربت حينًا وتهمس بكلمات الطمأنينة حينًا أخر، نانا تفرك كفيها بعصبية واضحة وقد أطرقت رأسها حيث هي وبجانبها يقف محمد حتى ينهكه التعب فيجلس أرضًا.
وعلى الجانب الأخر يجلس الفوج الثاني، سميحة وبجوارها ميادة يدور حولهما جاهين حتى تهمس له أمه أن يجلس قليلاً فهو يوترهما، فيستجيب لها لدقائق ليهب بعدها وكأنه جالس على الجمر ويظل يدور حولهما مجددًا.

أدارت فاطمة رأسها حولها للحظة قبل أن تعود تطالع الأرض ثانية، لا أحد هنا يشعر بها أو يفهم ما تعانيه، هما منقسمان، من بجوارها قلق على بسمة والمقابلين لها يرتعبون على بسام.
أما هي !!فهى تبارز كي تتماسك وتبقى هنا، فكلتا فلذتي كبدها بالداخل، الحاضرة معها والغائب عنها، والآلام تسلك مسلكها الدائم في الفؤاد، لتسكنه غير عابئة بضعف قلب.
والاحتمالات محدودة.
يعودان لها.
يعود واحد دون الاخر.
لا يعود أيًا منهما.
شهقت دون وعي لينتبه لها الجميع وهي تدفن وجهها بين كفيها وتجهش بالبكاء.
بينما تراقبها العيون بأسى ولازالت مها تذكرها بالله والرضا بقضائه وحسن الظن به.
لتتمتم فاطمة بتضرع:
-يارب ..نجيهم يا رب.
شرع باب الخروج لتظهر محفة تحمل جسمًا ما، ليهب الجميع وقوفًا ليظهر لهما وجه بسمة الغارقة في النوم بسبب المخدر .اندفعت فاطمة إلى المحفة تصيح باسم ابنتها لتقول الممرضة التي تصاحبها مع ممرض أخر:

- بخير الحمدلله ..لسه المريض التاني الدكتور بيقفل عمليته.
استمرا في دفع محفة بسمة تتبعها عائلتها الوحيدة التي تعرفها بينما يراقبها جاهين وأمه وعمته بصمت وقد عاد قلقهم على من يخصهم بالفعل والذي لا زال بالداخل.
لتهمس سميحة:
-هو مش هيخرج دلوقتي.
-البنت اتاخدت منها الكلية فطبيعي تخرج الاول ...الصبر يا سميحة.
أجابتها ميادة بصوت قلق، بينما لم يضف جاهين شيئًا وبصره معلق على باب العمليات، وبعد مرور بعض الوقت ظهر أخيرًا على محفته.
ليندفع الجميع نحوه لتهتف الممرضة:
- معلش يا جماعة لسه الحالة مش مستقره وهترجع الرعاية فورًا.
سقطت قلوبهم في أقدامهم ليظهر الطبيب فيهرع له جاهين:
- دكتور ..الحالة مش مستقر ليه؟ العملية مانجحتش؟.
ابتسم في ود:
-ازاي؟ ..الحمدلله العملية نجحت والتوافق اللي بينهم مخلينا مطمنين بس ماتنساش انه مش داخل هنا بس علشان العملية ده جسمه كان بينهار بسبب الحادثة واحنا ساعدناه باللي نقدر عليه لازم نصبر لحد ما جسمه يستجيب للتغيير ده.
تدخلت سميحة بصوت مرتعب:
-يعني ايه؟ ..هو عامل ايه دلوقت؟
طمئنها بقوله:
-هو بخير الحمدلله ...بس لازم يفضل في الرعاية علشان نكون مطمنين ...اول ما يفوق ومعادلاته الحيوية تستقر هيخرج من الرعاية.
غادرهم الطبيب ليذهبا إلى حيث مقام وافي لأيام آخرى لا يعلمون عددها.
....

باعدت بين جفنيها بتثاقل وأصوات متناثرة تتداخل في رأسها، وهمسات بالحمدلله على سلامتها، لتستعيد وعيها تدريجيًا وتنتبه للصور التي تراها عينيها.
أمها التي تُقبل وجهها بشوق جارف وكأنها غابت عنها لسنوات وليس ساعات .
نانا وسعادة صادقة على وجهها لسلامة رفيقتها تشاركها إياها مها برغم عدم قدرتها على الرؤية ولكن قلبها أبصر أجواء السعادة من حولها.
حتى محمد الذي وقف مكانه متمتمًا لها بالتهاني.
سألتهم بعض الماء فمنحتها أمها رشفات قليلة، لتعود لنومها من جديد.
طرقات على باب الغرفة أجابها محمد ليدخل جاهين باسمًا:
-ايه الاخبار؟ ...وحمدلله على سلامتها.
شكرته فاطمة وتعلق بصرها به، هي لم ترى ابنها بعد، كل ما عرفته أن العملية انتهت وأنه عاد للرعاية لكنها لم ترغب في الابتعاد عن ابنتها لا تريدها أن تستيقظ لتعلم أن أمها تركتها وذهبت للأخ الذي لم تستوعب ظهوره بعد، لا داعي لزرع المزيد من بذور الكره داخل صدر ابنتها.
عاودها صوت جاهين:
-مرات عمي ..لو حابه تعالي علشان تشوفي وافي.
عقدت حاجبيها لا يعجبها أنهم ينادون ابنها باسم غير ما اختارته له مع أبيه، حتى لو كان اسم أباه نفسه.
همست:
- اسمه بسام.
حك جاهين رأسه معتذرًا:
- احنا بنقوله وافي من سنين متهيألي صعب نغيره دلوقتي ..أقصد مش هنعرف.
صمتت برهة لتقول:
-هشوفه لما بنتي تفوق.

أومأ جاهين برأسه متفهمًا، ليترك الغرفة التي كلما دخلها شعر وكأنه شخص غير مرغوب فيه.
اقتربت مها من فاطمة:
- ابلة بطة ..روحي شوفيه احنا قاعدين أهو مع بوسي.
هزت رأسها بإصرار استشعرته مها في صوتها:
-لأ ..لما تفوق كويس ماينفعش تصحى تلاقيني مش معاها ..ماينفعش.
لن تتغير مرتبة ابنتها في قلبها ولا في واقع حياتها، صحيح أن حب الابناء أيضًا يتفاوت ولكنه في هذه اللحظة ليس حب موجه بل واجب مقدر، هذه الفتاة عانت وتعاني بسبب قرار يلو أخر حمل رائحة الفشل ليس إلا...وهي لن تمنحها المزيد.
لابن غائب عن الوعي لن يشعر بها وحتى لو فتح عينيه لن يعرفها وسيبحث عمن يعرفهم ..فما الفائدة؟ فلتبقى بجوار من كانت عائلتها الوحيدة منذ أن رأت هذا العالم.
....
انتهت العملية فما الخطوة التالية؟!
هذه الفتاة حين تستعيد قوتها هل ستبدأ في الطلب بحقها هي وأمها، المفترض أن تُمنح ما تريد، لكن يساوره شعور سيء حيال رد فعل عمته على هذا الأمر، يبدو أنها غير راغبة في انضمام هاتان المرأتان إلى حياتهم، بل ولا يستطيع تخمين كلماتها التي ستخبر وافي بها الحقيقة التي دفنت لسنوات، زفرة حارة حملت معها ضغوط مضت وأخرى قادمة قبل أن يأخذ طريقه خارج المشفى ليذهب إلى شركتهم التي أهمل الذهاب اليها منذ الحادث.
وصل لها وانهمك في العمل في الحال، الكثير من الأوراق والامضاءات المتأخرة، لحظات نسى فيها كل شيء وحاول التركيز فقط فيما اعتاد فعله لسنوات، ولكنه سرعان ما يعود بعقله لكل الامور المعقدة التي ستطفو على السطح مع عودة وافي لوعيه واسترداد أخته لعافيتها.
رفع سماعة الهاتف الداخلي طالبًا حضور محامي الشركة .

يجب أن يستعد من الآن ويعرف كيف سيتم الامر وما الأضرار والمكاسب التي قد ينالوها لو طلبت الفتاة حقها ونصيبها في الشركة وغيرها من الممتلكات والأموال.
لم يرِد حتى الانتظار لهذا التحليل الذي طلبه، شيء ما داخله يؤكد له صدق الفتاة، ربما درجة الشبة التي تربطها بوافي، التحاليل والتوافق الواضح بينهما، بل وثقة الفتاة أثناء حديثها وعدم خوفها من أي طعن.
ثقة محلها الصدق وهذا أمر تعلمه جيدًا أثناء عمله، يمكنه اكتشاف الشخص الكاذب من الصادق، الشخص المنافق من الصريح، وتلك الفتاة تعلم وتثق وتصدق كل ما تقوله لهم.
وصل المحامي ليخرجه من أتون أفكاره الهائج، والذي بدأ بسؤاله عن حالة وافي، وأن هناك تحقيق يجري بالفعل في الحادث.
عقد جاهين حاجبيه متذكرًا أمر تلك اللقطات التي صورها وافي والتي لم يخرجها من هاتفه حتى مع حديث الشرطة له عن ملابسات الحادث، وكل ما قاله أنه أصابه القلق على تأخر ابن عمه فخرج للبحث عنه فصادف سيارته المحطمة.
شعور يمقته لكنه يتملكه، خوفه على وافي يعيق قدرته على الدس بأنفه أكثر في ذلك الأمر، يريد أن يتم القبض على المسؤلين عن محاولة قتل ابن عمه، لكنه يخشى الدائرة التي قد يقتحمها معه.
أوقف المحامي قائلاً:
-سيب موضوع الحادثة دلوقتي يا أستاذ نظمي ..في مشكلة تانيه عايز أكلمك فيها.
اعتدل المحامي بحرص واهتمام ليستمع فأردف جاهين وقد عقد أصابعه أمامه مستندا بمرفقيه على سطح مكتبه:
-اللي هقولهولك ده ماحدش هيعرف عنه حاجه خالص إلا لما نعلن عنه بنفسنا.
أومأ نظمي متفهماً.

-والدة وافي مرات عمي ..طلعت لسه عايشة وكمان ليه منها أخت توأم.
اتسعت عينا الرجل بغير تصديق ليتمتم:
-ازاي ..اقصد!!..
لم يجد ما يكمل به جملته فأكمل جاهين:
- الأسباب مش هتفرق معانا كتير، دلوقتي مرات عمي وبنت عمي ليهم حق وميراث ..عايزك تعملي حصر بيه في أسرع وقت، علشان أعرف هما حقهم كام وايه بالظبط.
صمت نظمي لبرهة مستوعبًا ما سمعه لكنه عاد لعمليته المعهودة قائلًا:
-مافيش حاجه هتتغير غير نصيب الباشمهندس بسام .لانه هو ورث حق والده بالكامل باعتباره الابن الوحيد وماحدش ورث معاه لا أم ولا أخت ..لكن باللي حضرتك بتقوله ميراث والده هيعاد توزيعه على امه كزوجة واخته كأبنة.
هز رأسه إيجابًا قائلًا:
-أنت ادرى يا أستاذنا ...رتب الحسبة كده وقولي عليها.
-حاضر يا باشمهندس.
شيع المحامي بنظراته، أغلق عينيه مسرتخيًا في مقعده رغبة عارمة بالاستغراق في النوم تجتاح كل جوارحه .راحة تسربت لقلبه بمعرفته لتلك المعلومة، لن يقترب أحد من أسهم عمته ووافي ليس بشخص يقبل مال ليس له، يبدو ان الامر سيمر على خير.
....
راحة غمرت صدرها بعد سماع كلمات الطبيب عن تقبل جسد وافي الجيد للعضو المزروع وأن حالة جسده في تحسن ومن المتوقع استرداده للوعي في وقت قريب.
وشغلها الآن شيء واحد، فاطمة وابنتها كيف التصرف معهما؟!
وبالتأكيد لم تكن تلك نفس طريقة تفكير جاهين الذي اقترب منها:
-عمتي ...عايز اتكلم معاكي في موضوع.
التفتت له تنتظر حديثه فأردف:

-أخت وافي حالتها دلوقتي استقرت والمفروض تخرج بكره الصبح ..ومش هينفع نوديهم البيت كده على طول متهيألي نكلم وافي عنهم الأول ..فإيه رأيك أوديهم شقة المعادي يقعدوا فيها لحد ما نشوف هنقول لوافي امتى ونجبهم البيت.
عقدت حاجبيها وعدم القبول يرتسم على ملامحها لتقولها علنًا:
-شقة معادي ايه اللي هتوديهم فيها ...سيبهم يرجعوا مطرح ما كانوا.
مط جاهين شفتيه، هو يعلم أن هذا سيكون رد الفعل وربما توقع الأكثر فحافظ على هدوءه قائلًا:
-مطرح ما كانوا ...دول عايشين فوق السطوح لا يمكن وافي هيقبل اننا نرجعهم هناك تاني.
ابتسامة ساخرة علت شفتيها:
- وافي مايعرفش عنهم حاجه واعتقد الافضل مايعرفش.
هنا هب واقفًا:
-عمتي أنتِ بتقولي ايه؟ تاااني عايزة تحرميه منهم تاني ...يعني ايه؟ روحنا جبناهم وداخلنا اخته العمليات وخدنا كليتها وهنرميهم هو احنا زبالة أوي كده.
-احترم نفسك يا ولد.
زم فمه كاتمًا غضبه:
-عمتي ريحي نفسك ...يا أنتِ هتقولي لوافي يا أنا اللي هقوله وكمان حق مرات عمي وبنته في الميراث هيتشال من ميراث وافي ويتكتب باسمهم.
وقفت أمامه معاندة:
- ميراات ..أ،ت ماتجيش جنب ميراث وافي أبدًا ..فاطمة لايمكن تطول منه قرش ...على جثتي.
رمقها بصمت، عمته لن تمرر الأمر مرور الكرام وعليه التصرف وحده وبحذر حتى يستعيد وافي عافيته .يمكنه التصرف بشأنهم بعيدًا عنها على الاقل حتى معرفة وافي بالقصة وحينها سيتصرف وافي معها، هو أقدر عليها منه.
لتضيف باصرار:

-ثم مين قالك اني مصدقة حكاية التوأم دي أنا لما خدت وافي مانطقتش ولا فتحت بوءها بإن ليه أخت.
دس جاهين يده في جيبه ليخرج ورقة ما رفعها أمام عينيها:
-أنا اتأكدت من الموضوع ده ..ده تحليل DNA طلع النهاردة بسمة فعلا تقربلي واكيد يعني القرابة دي مش من أمها اللي ماعرفش هي مين ولا قصتها ايه علشان تبعدوها عن وافي لكن عمي هو أبوها والتحاليل دي بتأكد أن في صلة قرابه بينا ...بسمة أخت وافي التوأم وبنت عمي ومافيش حاجه هتغير ده.
ضاقت عيناها وهي ترمق تلك الورقة للحظات قبل أن تشع عيناها بفكرة لم تخطر ببالها مسبقًا، لعله طوق نجاتها الوحيد لتهمس:
- ومافكرتش في احساس وافي لما يعرف إن أمه اتنازلت عنه بسهولة كده وفضلت الاحتفاظ باخته!!
صمت جاهين، فالحكم على أمر لا يدرك أبعاده ليس بعادل، هو لا يعلم حتى الآن ما سبب فراق وافي عن أمه ما استنبطه من كلمات والدته أنها كانت دون المستوى وحسب.
زفر قائلاً:
- دي حاجه وافي اللي هيقررها بعد ما يتعرف على أمه ويسمع مبرراتها.
صكت أسنانها وهي ترمقه بغضب، علمت أن جاهين لن يصمت لكنها لن تسمح له أو لغيره بتغيير وافي عليها وتحويلها لخانة المغضوب عليهم.
-وافي ابني ...وهحميه منهم كلهم وحتى منك أنت كمان.
لتتركه مبتعدة ليتابعها وهو يهز رأسه في يأس، ثم اتخذ طريقه إلى الآخرين وقد قرر أن يفعل ما يمليه عليه ضميره وسيترك البقية لوافي.

....

ساد الصمت على الجميع انتظارًا وتفكيرًا في الخطوة التالية، أخبرهم الطبيب أن إذن الخروج سيكتب صباحًا ويمكنهم المغادرة.
حالة بسمة مستقرة ومرت فترة نقاهة قصيرة ستكملها في بيتها على حد كلمات الطبيب، لكن أين سيذهبون؟.

لقد قررت بسمة قبل حتى أن تعرف أنهم لن يعودوا للحارة وسيذهبون حتمًا للمكان الذي يستحقونه، لكن لا أحد ظهر ولم يخبرهم جاهين أي شيء.
فهل ستعود للحارة تجر أذيال الخيبة.
قطع أفكارها صوت محمد متسائلاً:
-هتعملوا إيه؟ ...هترجعوا الحارة.
ردت فاطمة" بنعم "بينما قالت بسمة" لا"
فالتفتت لها أمها متسائلة:
- لأ ليه يا بنتي أومال هنروح فين؟!!
قالت بنزق:
-ماطرح ما المفروض كنا نعيش من سنين.
هزت فاطمة رأسها بغير استيعاب:
-ازاي يعني ...ماحدش قالنا حاجه.
حاولت التحرك معتدلة لتدعمها أمها بينما تأوهت قليلًا لجرح العملية قبل أن تقول:
- نقول احنا ..محمد روح شوف جاهين ده فين خاليه يجي.
تبادل الجميع النظرات، لتردد بسمة بعصبية:
- في إيه ..يالا يا محمد روح شوفه.
وقبل أن يتحرك محمد تعالت دقات على الباب ليفتحه محمد فدخل جاهين محييًا الجميع وفي لحظة شعر بأن هناك أمر غريب ربما يدور هنا فنظراتهم كانت غير عادية، فتمتم:
- هو أنا جيت في وقت مش مناسب.
فرددت بسمة بلهجتها الباردة معه كعادتها:
-بالعكس ..انت جيت في وقتك تمام.
مالت فاطمة على ابنتها هامسة:
- بالراحة يا بوسي.
ضاقت عينا جاهين متسائلاً:

-خير؟.!
رمقته بنظرة صارمة:
-احنا خارجين بكرة.
بدا على لهجتها هجوم غير مبرر تجاهله كعادته هو الآخر:
-عارف ما أنا جاي علشان كده لو ماعندكوش مانع تنقلوا في شقة المعادي ... دي شقة مستقلة وفي حد بياخد باله منها بشكل دوري يعني جاهزة لاستقبال أي حد ولما وافي يتحسن ويتعرف عليكوا إن شاء الله تيجوا البيت الكبير.
تبادلت بسمة النظرات مع أمها لتقول الاخيرة:
-وماله يا بني.
لتمط بسمة شفتيها:
-أه وماله ..لازم برضو المريض يخف ويبقى تمام ونتأكد انه جاهر لاستقبال الخبر اللي الله أعلم هيفرحه ولا هيزعله.
تألم قلب فاطمة من لمحة السخرية التي تغلف كلمات ابنتها واكتفت بالصمت،أمامها الكثير لتفعله لكن قبل أن تحاول توفيق قلب ولديها عليها أن تمتلك قلب ابنها اولاً.
ابتسم جاهين:
-هيفرحه طبعًا ...في حد يزعل لما يعرف إن أمه موجودة وكمان عنده توأم ... زيك.
ضغط حروف كلمته الأخيرة، لتعلق بسمة بغيظ:
-قصدك ايه؟!
ضحكت نانا ضحكة مكتومة لتحدجها بسمة بغضب لتزيح بسمتها سريعًا عن شفتيها بينما يرمقها محمد بغيظ.
اتسعت بسمة جاهين ليقول:
- قصدي كل خير ...بكرة إن شاء الله هجلكم بدري علشان أوصلكم.
استدار مغادرًا لكنه توقف ليستدير إليها وكأنه تذكر شيئًا ما ليقول:

-أاه ..كان المفروض اقول كده من بدري شكرًا لكي ..شكرًا جدًا إنك ساعدتيه مع انك ماتعرفيهوش ..جميلك على راسي ودين في رقبتي مدى الحياة.
ساد الصمت والجميع يحدق به أما هي فلا تعلم لمَ انتفض قلبها لكلماته حتى أنها أدارت رأسها بعيدًا مع شعور غريب بالارتباك، هامسة بخفوت:
-العفو.
حياهم مجدداً ليغادر بينما كلماته تتردد صداها في عقلها ولأنها كلمات خرجت من القلب فاستقرت بالقلب وبثبات.

....

هذه المرة الثانية التي تراه فيها، لو اعتبرت أن المرة الأولى محسوبة فهي لا تكاد تذكر منها شيء غير شعور ما تسرب إلى قلبها، تمسكت بكف أمها التي اقنعتها بالدخول معها لرؤيته قبل المغادرة، وكأنهما تستمدان قوة ما لتخطوان إليه حيث انتقل إلى غرفة أخرى فسمح لهما بالدخول إليه مباشرة دون حواجز زجاجية .
تأملته أمه بحب يصاحبه الكثير من الألم والشوق، لم تقترب منه منذ البداية لم تجرؤ والآن هي خائفة ولا تعرف مما تحديدًا، همست في أذن ابنتها:
-هو انا ينفع أحضنه ولا هوجعه؟!!
-ماعرفش.
اكتفت بهذا الرد، فداخلها المزيد من الاضطربات التي عانت منها ولازالت، غريب أن ترى ملامح تشبه ملامحك ورغم ذلك تستغربها، لا تشعر بالألفة معها، هذا الشاب الذي خلق معها، كل الوقت الذي حظياه معًا كان في رحم أمهما فحسب ولكنها للأسف ليست كافية لتشعر نحوه بأي شيء.
اقتربت فاطمة منه، حررت ابنتها كفها لتترك لها المجال وظلت هي مكانها تحافظ على مسافة ما بينهما.
مالت فاطمة على وجهه رفعت أناملها تمررها على ملامحه، قلبها يتقاذف بنبضاته داخل صدرها، تهمس له:
-بسام ..حبيبي ..أنا أمك ..أنا!...

اختنقت الكلمات في حلقها مع غصة مؤلمة وإحساس حارق في صدرها، تسابقت العبرات على عينيها وقبل أن تلحقها فلتت منها عبرة استقرت على وجنته.
كتمت بكفها أصوات نشيج بكائها وهي ترفع رأسها بعيدًا عنه، لتمد يدها لتمسح تلك القطرة المالحة التي على وجهه، إلا أن يدها تصلبت بل وتقهقرت للخلف وهي تنظر له بعينين متسعتين فلقد كان ينظر لها مباشرة.
اصطدمت بجسم ابنتها التي أمسكت بها وهي تحدق فيه بذهول هي الآخرى وقد توقفا تقريبًا عن التنفس، ظل يحدق بهما لثواني مرت عليهما كساعات، ليغلق عينيه بعدها وعاد كل شيء كما كان.
تنفست فاطمة أخيرًا وهي تردد:
-هو ..هو فاق!!
زفرت بسمة هي الآخري لتخرج توترها:
-مش عارفه ..باين نام تاني ياله نمشي ..مش المفروض يشوفنا دلوقتي هو مايعرفناش.
ابنتها على حق، هل إذا فتح عينيه ثانية وسألها من أنتِ؟ !!ستجيب!!
سحبتها بسمة باصرار:
-يالا يا ماما نخرج ..ومش هنقول أنه فتح عينُه هما بيتابعوه على طول ..يالا.
استجابت لابنتها وهي تبتعد عنه وعيناها لا تكاد تريد فراقه.

كان الجميع ينتظرهما في الخارج, الفتاتان ومحمد وجاهين ولم تظهر المرأتان كالعادة.
وبرغم هيئتهما الغريبة التي خرجتا بها إلا أن الجميع أرجع الامر لحالتهما والموقف الذي يتعرضان له منذ ظهور جاهين في حياتهما ..فلم يعلق أحد.
لم يبقوا أكثر، تحرك الجميع للخارج للانتقال إلى شقة المعادي التي تحدث عنها جاهين إلا أنهم قبل أن يصعدوا للسيارة دار جاهين ببصره على وجه الجميع ليبتسم في حرج:

-هو احنا هنوصل البنتين الاول وبعدين نروح المعادي ولا نروح المعادي وبعدين أوصل البنتين.
رفعت بسمة حاجبيها:
- بنتين مين اللي هتوصلهم؟.
أشار ناحية نانا وأختها قائلاً:
- الآنسات.
ابتسمت نانا هامسة:
- حلوة الآنسات دي.
ضحكت بسمة قائلة:
-لاا ..الآنسات دول معانا على طول.
تحدثت فاطمة بهدوءها المعتاد:
-اصبري يا بوسي ماهو مايعرفش ...يابني البنتين دول تقريبًا بناتي مافرقونيش من صغرهم وأنا مش هسيبهم ومش عايزاك تتعب أو تشيل همهم .. دول يخصوني أنا وبس.
تدخلت بسمة:
-ويخصوني أنا كمان يا ماما ...اعتبرهم اخواتي ورجلهم على رجلنا في كل حاجه.
عقد حاجبيه في محاولة لاستيعاب هذا الأمر الجديد، وبالطبع قفز عقله لرد فعل عمته والذي لم يظهر فيه إلا المزيد من التعقيدات.
استمر صمته حتى شعرت مها بالحرج فهمست بتردد:
-خلاص يا أبلة بطة رجعونا الحارة.
وقبل أن يجيب أحد رد جاهين بسرعة:
-لا أبدا ..أسف ..هو مافيش مشكلة شقة المعادي كبيرة وهتقضيكم طبعًا أنا كنت بفكر في حاجه تانية ..عمومًا مش وقته يالابينا.
جلست بسمة في المقعد الأمامي والأكثر راحه لها بعد العملية بينما استقرت فاطمة والفتاتان في المقعد الخلفي.

بقي محمد يتابعهم من مكانه حتى أشارت له بسمة بالاقتراب والتفتت لجاهين:
-اكتب عنوان الشقة في ورقة علشان أديه لمحمد.
فعل كما طلبت ومنحها الورقة فمررتها إلى محمد عبرالنافذة:
-تعالى وارنا لو عايز ولو تعبان تعالى بكرة.
-انتوا كمان تعبنين ..روحوا وخدوا راحتكم وارتاحوا وانا هجيلكم بكرة.
-ماشي.
مال برأسه ليحي البقية قبل أن ينطلق جاهين بالسيارة ساد الصمت للحظات قبل أن يقول جاهين:
-هو محمد ده يقربلكم حاسس انه قريب منكم أوي.
رمقته للحظة قبل أن تعاود النظر للطريق:
-لأ مش قريبنا ...بس كان راجلنا لما ماكنش لينا راجل.
شعر بكلماتها وكأنها تقريع حاد له، فبدى وكأنه في حالة دفاع عن النفس:
- دلوقتي ليكم راجلين مش واحد لو احتاجتم حاجه ابقوا اطلبوها مني أو من وافي لما يخرج بالسلامة.
سخرية لاذعة غلفت ردها:
- لا والله فيكم الخير.
نظر لها بغضب فتدخلت فاطمة في الحوار:
- طبعا يابني ...ربنا يخليكم.
رفع بصره لها عبر المرأة الامامية:
- شكرا يا مرات عمي.
ابتسمت في حنو:
- ماتقولي أبلة بطة زي ما كلهم بيقولولي.
بادلها بسمتها الحانية:
-ماشي يا أبلة بطة.
أشاحت بسمة بوجهها بعيدًا إلا أنها عادت تنظر له قائلة:
- هي العيلة شغاله في ايه بالظبط؟!

-مش وقته يا بوسي.
قالتها أمها لترد:
-عادي يا ماما ..ادينا بنتعرف.
-في المقاولات ..عندنا شركة مقاولات.
أجابها جاهين بهدوء وهو منتبه لطريقه فقالت:
- كويس ..يعني ممكن تلاقي شغلانه كويسة لمحمد.
عقد حاجبيه مرددًا:
- محمد ...شغلانة زي ايه يعني؟!!
- محمد ده خريج تجارة أنت فاكرُه مش متعلم وبتقدير جيد جدًا كمان .. وللأسف ماكنش معاه كارت الواسطة اللي يشغله في شركة كويسه بس دلوقتي بقى معاه ..أنا.
صمت لحظات كاظمًا غيظًا يتصاعد داخله:
-وماله ..نشوفله شغلانه في قسم المحاسبة.
-أه بس تكون شغلانة كويسة ومرتبها حلو.
شعرت أمها بالحرج من الحاحها قائلة:
- خلاص يا بوسي.
"هو محمد ده مهم عندك أوي كده؟"!!
كلمات ترددت في عقله ولم تتجاوز شفتيه فليس من حقه أن يسأل حتى لو كانت ابنة عمه كما أن سؤاله قد يُساء فهمه.
اكتفى الجميع بالصمت بعدها خاصة أن السيارة انتقلت برحلتها إلى طريق الكورنيش لتتجه أنظار الراكبات إلى النيل حتى وصل جاهين لوجهته وأبطأ السيارة ليدور إلى إحدى البنايات الشاهقة المطلة على النيل مباشرة ويدخل إلى مرأبها.
هبطت نانا والبقية لتقول:
- الشقة على النيل ..واااو.
ابتسم جاهين لتعليقها قائلًا:

-في الدور الخمستاشر هتشوفوا منظر حلو أوي ...بالذات بالليل.
اتسعت عينا نانا هامسة:
- يالهوي ...الحمستاشر.
-ماتقلقيش العمارة فيها أربعة أسانسيرات اتنين شغالين على طول واتنين بيشتغلوا في حالات الطواريء ...مش هتستخدمي السلالم خالص إلا لا قدر الله في حالات الحريق.
أومأت برأسها تفهمًا وتتبعوه إلى أن وصلوا إلى الشقة والتي بدت مميزة من النظرة الأولى، كل شيء مرتب ونظيف، الأثاث فاخر يجمع ما بين الحديث والعريق.
أوضح لهن أماكن الغرف والمطبخ والحمام ليستأذن منهن مغادرًا تبعته بسمة إلى الباب فالتفت لها:
- ارتاحي ..أنا عارف الطريق كويس.
اخرج هاتفه النقال ليقول:
-نمرتك كام؟!!
رمقت هاتفه لثواني قائلة:
- ماعيش تليفون ماحدش معانا معاه تليفون.
اتسعت عيناه بدهشة حقيقة لم يصدق أنه في عام 2014 لازال هناك من لا يحمل واحدًا.
لاحظت دهشته فأضافت:
-كان ممكن نجيبه ...بس أنا قلت مش هشتريه إلا بفلوسي وأنا لسه ماشتغلتش.
- فهمت ...طيب أنا همر عليكم بكرة علشان أشوف طلباتكم.
هزت رأسها:
-مافيش داعي محمد هيجي وهو هيشوف احنا محتاجين ايه؟!

عقد ذراعيه أمام صدره قائلاً:
- متهيألي بقى ليكي عيلة تعتمدي عليها أكتر من أي حد غريب ...ثم محمد مش مسؤول يصرف؟!
- لا عادي هيصرف من المليون اللي اتكتبت باسمه.
انتفض جسده من المفاجأة وهو يحدق بها بذهول:
-أنتِ اتجننتي ...ازاي تعملي كده؟!
-على فكرة أنا بثق في محمد أكتر منك ومن عيلتك ...مع السلامه يا ابن عمي.
أغلقت الباب في وجهه ليحدق به ولا زالت الدهشة تغمره ليخالطها الغضب، الكثير من الغضب.

الفصل الثالث عشر

لو انضنيت وفنيت وعمري انفرط
مش عاوز ألجأ للحلول الوسط
وكمان شطط وجنون مانيش عاوز
يامين يقول لي الصح فين والغلط
عجبي!!
رباعيات جاهين

جلست في الشرفة تطالع المشهد أمامها من علو، ولكنه ليس كأي علو نالته يومًا، في السابق كان أقصى ما نالته نظرة على أسطح مجاورة من سطح منزلها، أما هنا فالأمر مختلف، مياة النيل السوداء بلون الليل الذي يغلفه والتي يتلألأ عليها انعكاس الأضواء البواخر المارة أو المراكب الصغيرة، دارت ببصرها في الاجواء، النظر من هنا إلى ما حولها ليلًا ممتع حقًا، فظلمة الليل التي تضيئها المصابيح المنتشرة في الشارع أو عبر المنازل تهبك مشهد لا تمل منه أبدًا.

ابتسمت حين تذكرت جمله قالها لها يومًا:

"نفسي نخرج سوا بالليل ...يابنتي مصر بليل حاجه فظيعه لو خرجتي فيها بليل مش هتخرجي بالنهار أبداً ..كفاية بس نتمشى بالعربية على الكورنيش"

تنفست بعمق ترجو من هواء النسيم البارد أن يطفي لهيب يستعر داخلها كلما تذكرته، لتعاودها نفس الفكرة التي قاومتها لشهور.

الذهاب إليه!!

كادت أن تنجح مرة حين استقلت قطار الانفاق واتخذت طريقها التقليدي لقصره لكنها عادت هاربة بارتعاد، ليس لديها ما تقوله عن خداعها له ومساعدتها لمن أرادوا أن يفرقوهما، كيف تخبره أنها تناست وعدهما بهذه السهولة بأنها ستقاوم معه كي لا يفترقا أيًا كانت العقبات.

وليس هذا فحسب فاحتمال أن تنجح مخططات أمه فتذهب لتجده تزوج بتلك النرمين كان يفزعها حقًا، ففضلت أن تعيش على وهم أنه يبحث عنها أو أنهما سيلتقيان يومًا وتكتمل قصتهما.

والآن بعد هذا التغير غير المتوقع، أصبحت فجأة جزء من عائلة كبيرة، عائلة لا تعرف شيء عن ماضيها وماضي أمها وتريد أن يبقى الوضع على ما هو عليه.

هل يمكنها أن تذهب له وتخبره أنها الآن من الأغنياء، أن اقترانهما ببعض لم يعد عقبة، أم أن معرفته لهذا الماضي سيبقى الحجر الجاثم دومًا على صدورهما.

"بوسي"

أخرجها صوت نانا من أفكارها وهي تقف بجوارها:

-ليكي حق ..المنظر تحفه ..أنا حاسه إني بحلم.

كانت تتكلم بحماس وحروفها تخرج ضاحكة من فرط سعادتها، سعادة انتقلت كالعدوى لبسمة:

-كلنا بنحلم.

احتضنت نانا رأسها:

- شكرا يا بوسي انكم ماسبتوناش.

- انتِ عبيطة ..نسيبكم ازاي يعني؟.

حررتها لتستند بكفيها على سور الشرفة وهي تنال شهيقًا قويًا:

- ياااه ...أخيرا ..هنعيش الحياة اللي بجد يا بوسي.

تجهم وجه بسمة للحظات قبل أن تقول:

-العيشة اللي بجد هعيشها بعد ما أخد حقي كويس واندم سميحة دي على كل حاجه عملتها فينا.

التفت لها نانا مستندة على حاجز الشرفة وقد ساورها القلق:

- بس دي تقريبا كبيرة العيلة المفروض تاخديها في صفك.

ضحكه هازئة تبعها قول صارم:
- صفي !دانا هخليها تندم على اليوم اللي شفتني فيه بس مش دلوقتي ..ادخل بس البيت الأول واشوف الدنيا ماشيه ازاي وبعدين احدد.
- بس أنتِ يا حلوة بتعادي الكل يعني مثلا جاهين واخوكي لازم يكونوا في صفك لو عايزة تنتقمي صح منها.
منطق يستحق الاحترام، رفيقتها على حق لن تنجح أبدا في مخططها الذي لا تعرف ماهيته بعد إلا إذا أصبح لها حلفاء، والحلفاء المحتملين هما فقط توأمها وابن عمها .
ولكنها لم تستسيغ وجودهما بعد فكيف ستجعلهما من حلفاءها، هل عليها الآن أن تتقبلهما بالفعل، تنسى غضبها وتحاول أن توجه لسميحة فقط ...أليس هذا أكثر منطقية، ما الخطأ الذي ارتكبه توأمها أو ابن عمها لتضعهما في دائرة انتقامها؟.
وقبل أن تؤكد لعقلها ما تردده، اشتعل قلبها في لحظة، وهو يمرر على عقلها كل لحظات ألمها التي تقابلها لحظات سعادة عاشها هذا التوأم دون اكتراث بها، وكأنه كان يجب أن يعرف عنها برغم أنها هي نفسها لم تستشعر وجوده في حياتها قط.
لكنها غاضبة جدًا ...ولا زالت .
وهذا سيدفعها لخصال لم تهواها أو تستخدمها يومًا ...النفاق.
فليكن ..الغاية تبرر الوسيلة وسميحة البادئة والباديء أظلم.

"بوسي ..ابن عمك جه"
قالتها مها من الداخل لتربت نانا على كتفها:
-والله وبقالك ابن عم يا بوسي.
ملامح متهكمة هي كل ما منحته لها قبل أن تقف وقد وضعت كفها على جرحها الذي يؤلمها مع الحركة لتتبعها نانا للداخل.

وقف يبتسم ويحادث فاطمة بود والتفت لها حين شعر باقترابها:
- أهلا ..أخبار العملية ايه؟
- بخير.
اكتفت بهذا الرد المقتضب، تراجع ليحضر حقيبة متوسطة الحجم يخرج منها عدة علب كارتونية ليرفع إحداها قائلًا:
- اتفضلي ده هيكون بتاعك.
حدقت في العلبة للحظات وبدا واضحًا ما تحويه، ظلت يده ممدودة حتى قال:
-ايدي هتبدأ توجعني.
ارتسم الجمود على ملامحها لتردد:
-قلتلك هجيب تليفون بفلوسي.
خفض يده لتهمس أمها بصوت مسموع:
-بوسي!!
بدت لهجة لائمة، فأشاحت بوجهها بعيدًا ليقول:
- ده هدية ..أول هدية لبنت عمي الوحيدة.
مطت شفتيها ساخرة ولم تعلق، تنفس بعمق ليقول:
- ياريت تعرفي ان احنا مالناش ذنب..لا أنا ولا وافي ..انا كان عندي 8 سنين لما وافي داخل البيت بابا حطه في ايدي وقالي ده هيكون أخوك الصغير.
فلتت منه ضحكة متذكرًا تلك اللحظات التي لم ينسَها ليردف:
- كنت بقولهم هو ماعندوش سنان ليه ..طيب بيطلع لسانه كده ليه كل حاجه كان بيعملها كنت بعلق عليها ...ولو اعرف ان ليا كمان بنت عم كنت أكيد هتمنى تكون معاه.
اقترب منها ليردد بلهجة تحمل أسف حقيقي:
- بسمة ارجوكي ..وبرغم عدم مسئوليتي برجوكي تسامحينا.
تلاقت نظراتهما رأى فيها بعض اللين ورأت هي فيه الصدق، رفع العلبة مرة أخرى باسمًا:
-اتفرجي على التليفون.

رمقته للحظات لتستجيب أخيرًا وتتقبل هديته، هاتف ذكى من أحدث الانواع، بدى أنيقًا جدًا وهي ترى انعكاس صورتها على شاشته السوداء.
وقبل أن تقول شيء وجدته يعطي نانا علبة مثلها وأخرى لفاطمة وثالثة لمها وهو يحثها على مد يديها ليضع الهاتف فيها.
أخرجت نانا هاتفها وكانت الأسعد به وعيناها تكاد تشع من الفرح به.
بينما اكتفت مها بالصمت وكذلك بسمة لتقول فاطمة:
- ليه التعب ده يابني ..كل دي تليفونات ماكان كفاية واحد وانا مش محتاجه.
- ازاي يا مرات ...أقصد يا ابلة بطة اكيد هتحتاجيه هتكلمي وافي وبسمة والبنات.
قطع كلماته ثم قال مازحًا:
-مشيها وافي بقى يا أبلة بطة ..أنا مش بنطق الاسم التاني ده خالص.
ضحكت فاطمة:
- ماشي يا بني.
تكلمت مها قائلة:
-وانا مش محتاجه برضو ..مش هعرف اتعامل معاه.
- لا ماتقلقيش انا خلتهم يظبطوا علشان تستعمليه ..فيه كل البرامج اللي تخليكي تقدري تستعمليه وكل حاجه ممكن تعمليها بالصوت.
بدت السعادة على وجهها وهي تتحسس الهاتف بيديها، هل حقًا ستتمكن من التعامل معه؟.
راقبت بسمة ما يحدث بوجه جامد، لينظر لها جاهين مبتسمًا:
- التليفونات شغاله ...انا فتحتها وسجلت فيها رقمي ورقم وافي جربوها.
وقبل أن تتحرك إحداهن تعالا رنين هاتفه:
- ثواني.
قالها بود ليرد على هاتفه ليصله صوت أمه متحمسًا، فانتفض جسمه وهو يردد:
- بجد يا ماما ...وافي صحي.

حاله من التجمد أصابت الجميع وهن يحدقن به أما فاطمة فهبت واقفة إلا أن قدماها لم تسعفها فعادت لترتمي على كرسيها وهي تردد اسمه.
أغلق جاهين هاتفه ليصيح بهن:
-وافي صحي ..فاق واتكلم كمان.
كان ينتظر تهاني أو صيحات حماسية كالتي سمعها من أمه لكنه وجد حالة من الصمت وربما الرهبة، خاصة مع انتفاض فاطمة في مكانها لتقترب منها بسمة:
- اهدي يا ماما.
ظل يحدق بهن وكذلك هن.
-طيب ..انا هروح أشوفه وهبقى اتصل اطمنكم.
وقبل أن يصل للباب:
-جاهين.
نداء مرتعش التقطته حواسه بسهولة ليلتفت إلى صاحبته:
- انت مش هتقوله عننا على طول صح؟!
شعر بألمها ولكن ليس بيده حيلة:
- ايوة ..متهيألي نصبر شوية لحد ما يخرج من المستشفى.
قاومت عبرات تبارز للظهور في مقلتيها.
- أكيد يا بني ..ربنا يقومه بالسلامة.
آمن على دعائها ليسارع بالخروج وما إن فَتح الباب اصطدم بأحدهم لينبته إلى محمد الذي يحمل بعض الاكياس، حدق به للحظات قائلاً:
- مستعجل ليه كده؟
رمقه هو وحاجياته:
- مش الوقت متأخر للزيارة.
رفع محمد حاجبيه بدهشة:
-أفندم ...الساعة لسه تسعة.
رد بحزم:

-صحيح ...بس دول ستات لوحدهم وماحدش لسه يعرفهم والمكان جديد.
ابتسامة ساخرة استقرت على شفتي محمد:
- تصدق فاجأتني ..كنت فاكركم مابتهتموش بالحاجات دي عموما سمعتهم تهمني أكتر منك ولا يمكن أضرهم.
جاءهما صوت بسمة من الخلف:
-انت مش هتروح المستشفى ..ادخل يا محمد.
تناسى الأمر سريعًا وهو يستسلم لفرحة تغمره بعودة شقيقه وافي هو كذلك له، ليس مجرد ابن عم ..هو شقيق وصديق.
وأخيرًا عاد وافي.
....

اندفع إلى الغرفة ووجهه يشع من الفرحة، تضاعفت فور أن رأى عينيه مفتوحتين
توقف لحظات، إلى أن وصل صوته لمسامعه:
-جاهين.
اتسعت بسمته أكثر وهو يقترب منه وضع كفه على رأس ابن عمه قائلًا:
- حمدلله على السلامة ...وحشتنا أوي.
بسمة باهتة تحمل إرهاق أيام وليالي مع همسة خافتة:
- شكرًا وأسف.
مال جاهين إليه:
-أسف ..على ايه بقى؟!
- قلقتكم كتير.
أومأ مؤيدًا:
- انت فعلا قلقتنا ...بس مش مهم المهم انك رجعت لينا يا بطل.
مسحت سميحة دموعها التي لم تتحكم بها فور أن رأته ينظر لها ويناديها " ماما"

- الحمدلله ..الحمدلله.
كانت ترددها بهمس مسموع لينظر لها وافي وقد ألمه ما سببه لها من قلق وخوف عليه:
- أسف ماما.
قبلته بين عينيه:
-خلاص يا حبيبي ...كفاية اعتذرات المهم انك بخير ورجعتلي ..رجعلت لماما.
نظرة ذات مغزى تبادلها جاهين مع أمه التي كانت تتابع المشهد بتأثر إلا أن كلمة سميحة الأخيرة ذكرتهما بما لم يعرفه وافي بعد والذي لا يعرفان كيف سيتصرف حياله.
لم يبقَ وافي مستيقظًا طويلًا فسرعان ما تركهما ليغط في النوم ثانية.
انزوى جاهين في ركن قصي، داعب هاتفه للحظات قبل أن يصله صوت الرنين ومن بعده صوتها:
- الو..
- وافي فاق وهو كويس الحمدلله.
صمت استمر لحظات قبل أن تقول:
- كلم ماما.
- ايوة يا بني طمني؟!
-الحمدلله يا ابلة بطة ..وافي زي الفل قريب إن شاء الله يخرج وتقابليه.
- يارب ..يارب.
صوتها الباكي نبأه أنها قضت اللحظات الماضية في البكاء، فواساها:
-معلش هانت استحملي شوية علشان خاطره.
خرجت حروفها مختنقة:
-هستحمل ...انا استحملت 22 سنه مش هستحمل كام يوم.
ابتسم جاهين مشجعًا:
-ان شاء الله وافي لما يتعرف عليكي هيحبك أوي وأكيد عندك مبرراتك اللي هتقوليها وهو هيستوعبها.

-أنت طيب أوي يا بني ....زي أبوك.
ضحك قائلاً:
-زي بابا ..لاااا ..الجملة دي عايزة حوار بس مش وقته أكيد هنتكلم كثير مع بعض بعدين ..حمدلله على سلامة وافي وأهلا بيكم في عيلتكم من تاني.
أغلق الاتصال وعقله يرتب وينظم كل الخطوات القادمة لكنه سرعان ما يوقفها فهناك فرد سيتوقف عليه الكثير مما هو قادم ..وافي.

....

حاولت مها تهدئة فاطمة لاستمرار بكاءها حتى بعد أن اطمأنت على ابنها، بينما جلست بسمة في ركن الغرفة، تطالع أمها حينًا وتشرد حينًا، تقلب هاتفها في يدها بلا وعي.
لقد اقتربت اللحظة التي تخشاها كثيرًا، ربما اللحظة التي ستحدد كيف ستكون علاقتها معه، التوأم الذي لم تعرف عنه إلا منذ أيام قليلة، تخيلات عديدة تمر في رأسها لأول لقاء بينهما، هل سيتصافحا؟ !أم سيتبادلان النظرات بصمت؟!! أول كلمة سينطق بها، شعوره الذي تريد أن تقرأه من اللحظة الأولى.
زادت التخيلات وزاد التوتر، لتفرك أصابعها بقوة وهي تذكر نفسها بكل معاناتها، الأمر الوحيد الذي يمنحها القوة لتظل المسيطرة على مشاعرها.
لن تكون الرقيقة التي تحنو على أخ امتلك حقها لأن من ربته أرادت ذلك، عليه أن يعرف كم عانت كم تألمت، عليه أن يعتذر لها حتى لو لم يكن المخطيء بحقها، عليه أن يعدها أن القادم أفضل وأنه سيعوضها عن كل شيء، عليه الكثير والكثير والكثير، ربما حينها فقط ستهدأ نارها وتقبل به وبعائلتها الجديدة.
زفرت بقوة في محاولة لإخراج كل تلك المشاعر التي تلهب عقلها وصدرها، دارت ببصرها لتسأل:
- مها ..محمد ونانا فين؟!
- في البلكونة.
- ماشي ...انا هقوم اريح في اوضتي جنبي وجعني.

أوقفتها أمها:
-خدي دواكي يا بنتي ..ماتنسيش.
أومأت لها:
-حاضر يا ماما ..واهدي شوية وسلموا على محمد بالنيابة عني تصبحوا على خير.

تبعتها نظرات أمها الحزينة.
هم على هم تحمله فاطمة داخلها، أولها حين أحبت من كان كنجم في السماء لا يحق لها أن تطاله، وعندما هبط لها النجم خسر مكانته واستقر على الارض معها، ولأن مكانه السماء عاد لها سريعًا ليترك فراغًا في قلبها كاد أن يُضم حين ضمت لها وليديها لكن الفراغ عاد وصار جرحاً نازفًا لفقدها أحدهما، وها قد عاد المفقود لكن الجرح لازال ينزف بل وكأن أحدهم يتكأ عليه بقوة ويضاعف ألمها، فما هو قادم مبهم وغير واضح، وخوفها مما قد تحاول سميحة فعله تُرهبها، إنها امرأة قوية صلبة، إذا أرادت أن تبعدهما ستفعل ما بوسعها، ليعود لها خوفها القديم على ابنتها التي أخفتها طوال تلك السنوات خشية ما قد تفعله سميحة بها.
وجل ماتخشاه نظرة بغض قد تزرعها سميحة في قلب وليدها قبل عينيه، أي كلمات ستسمعه إياها لتفسر له الأمر، بالتأكيد ستضع نفسها في خانة الضحية التي ربت وكبرت وتبقي فاطمة في خانة الغادرة التي ولت وتناست.
-أأأأأه
أهة آلم ووجع وخوف أطلقتها لتتعلق مها بها:
-مالك يا ابلة بطة.
رددتها بفزع لتربت فاطمة على كفها المتعلق بذراعها:
- مافيش يا بنتي ..انا كويسة هدخل انام انا كمان.
عقدت مها حاجبيها:
-بس يا ابلة بطة محمد لسه جوه ...ماينفعش تنامي وتسيبينا.

-اه صحيح نسيت ...طيب اندهي عليه كفاية بيتكلم مع نانا بقاله شوية.

قبلها بدقائق....
زفرت نانا بضيق وهي تستمع لعبارات التقريع المستمر منه لمجرد أنها قبلت بهاتف من جاهين، لا يتوقف عن التصرف وكأنه ولي أمرها، برغم أنها لم تسمح له بذلك ولم تتجاوب معه بشكل مباشر أبدًا، لكنه دومًا يتعامل مع أن كونها له أمر لا مفر منه وموافقتها أو عدمها تحصيل حاصل.
تحبه ...نعم ...ولكن ما الفائدة، لو قبلت به ستكرهه حتمًا، فهي تؤمن بمن قال "اذا دخل الفقر من الباب نط الحب من الشباك"
ومحمد لا يصاحبه إلا الفقر فحتمًا سيقفز الحب هربًا!!
وهي ليس لديها أي استعداد لتلك الحياة، وبعد أن كان الأمر مجرد حلم أضحى واقع تراه بعينيها، ها هي الأن ستصبح جزء من عائلة من الأغنياء.
وفرصتها في إيجاد ضالتها صار وشيكًا، عليها فقط أن تحسن الأختيار.
والحب سيأتي فيما بعد وستتمكن من اخراج محمد من قلبها.
هي تريد حياة مريحة.
فلمَ العتاب؟!!
عليه أن يتوقف ...ولكن كيف تقنعه بهذا؟!
-كفاية بقى ..أنا مش فاهمة ايه اللي مضايقك، هو جاب التليفون ليا لوحدي ده لينا كلنا ..يعني مش حاجه خاصة وأنا بقى مش هبلة علشان أرفض هدية زي دي ولا تكونش فاكر إنك ممكن تجبلي زيها.
لن يكترث، كلماتها تلك لم تعد تؤذيه، هي تتعمدها على الدوام لإبعاده وهو لم يعد يكترث.
-وليه لأ ..أنا هشتغل مع بسمة في شركتهم هثبت نفسي وإن شاء الله يكون ليا مكانة كويسة واحققلك كل اللي نفسك فيه.
مطت شفتيها:

- يا عالم ..بسمة نفسها لسه مش عارفه هتدخل الشركة دي ولا لأ وعموما ربنا يوفقك انا ماكرهش ليك الخير أبدًا.
أغلق عينيه للحظة قبل أن يعيد فتحهما:
-طيب اوعديني.
نظرت له بدهشة:
-أوعدك بإيه؟!
قال بتصميم يحمل نكهة الرجاء:
-انك تستنيني ...هتصبري عليا.
شخصت ببصرها بعيدًا، وساد الصمت عليهما بينما أصابعه تقبض بقوة على حاجز الشرفة وقلبه قبل عقله ينتظر ردها، راجيًا أن تستمع لقلبها ولو مرة واحدة.
همست بلهجة بدت حزينة:
-أسفة ماقدرش أوعدك ...أنا لو جاتلي الفرصة اللي بتمناها مش هسيبها.
انتفضت عروقه غضبًا وضيقًا، فاندفع الدم إلى رأسه بقوة، يراها تلتفت بنية الدخول فقبض على ذراعها بقوة ألمتها لتحدق به بغضب:
-سيب دراعي!!
ولأول مرة ربما ترى ذلك الغضب الذي تلون في عينيه بلون الدم:
-هسيب دراعك ...بس مش هسيبك انتِ.
حركت ذراعها بعنف تريد التخلص من قبضته التي لم تترفق بها للحظة مرددة:
-محمد ..سيبني حالًا.
وقبل أن ينطق بالمزيد ظهرت مها قائلة:
- محمد ..تعال كلم أبلة بطة.
ارتسمت معالم الآلم جلية على وجه نانا وهو لازال قابض عليها، ليحررها مندفعًا للداخل حتى إنه كاد أن يصطدم بمها، التي شعرت بحركته المندفعة بل ربما التقطت حواسها الآخرى كم الطاقة السلبية التي انتشرت في الأجواء لتهمس لأختها:

- أنتو اتخنقتوا!!
فركت نانا ذراعها في محاولة لتخفيف الألم ودون أن تراها أختها ذرفت عينيها الدموع، ولا تعرف مما بالضبط، من ذلك الألم الجسدي الذي سببه لها أم من الألم النفسي الذي سببته هي له.
اقترب بحالة غضبه الواضحه من فاطمة ليقول:
-انا همشي يا أبلة بطة.
نظرة واحدة لوجهه تُعرفها مما هو في ضيق، تغافلت عن الأمر:
- استنى اخليهم يحضرولك العشا.
- مانتو ضايفتوني وشبعتوني من أول مادخلت.
- خدت نمر تليفونات البنات.
اومأ وهو يرمق الشرفة التي لم يظهر منها أحد:
- أيوة خدتها ..هبقى اطمن عليكم بكرة تصبحي على خير.
- وأنت من اهله يا بني.
وما إن أغلق الباب خلفه حتى ظهرت نانا وخلفها مها لتقل الأولى:
-أنا داخله انام.
لمحت فاطمة وجهها الذي بدى حزينًا متألمًا فتمتمت:
- أمتى تريحي قلبك من الهم ده يا نانا؟!!
اقتربت مها من فاطمة التي وقفت لتمسك بكفها الممدودة:
-يالا احنا كمان ننام ...هتنامي جنبي زي امبارح.
احتضنت ذراعها هامسة:
-ايوة.
ابتسمت فاطمة وهي تربت على خدها، تلك الفتاة التي لا زالت كالطفلة المتعلقة بأمها وكأنها تخشى الفراق.

....

اعتدل وافي في فراشه بعد أن استعاد الكثير من طاقته منذ استعاد وعيه وصحته من تحسن لتحسن، لكن ما كان يدهشه هو ارهاقه المعتاد الذي لا

يشعر به حاليًا، وبدلا منه يشعر بألم في جانبه الأيسر لكنه ليس كالألم المعتاد، فظن السبب هو الحادث نفسه.
لم يأتي جاهين بعد من العمل ، وكانت سميحة تنال غفوة على فراش بجواره حين دخلت الممرضة تحمل له دواءه .رمقها للحظات ليقول:
- هو أنا ليه بحس بوجع في جنبي.
ابتسمت لترد:
- أكيد العملية يعني ..ماتقلقش دي أعراض أي جراحه.
عقد حاجبيه في محاولة لتفسير كلماتها:
-عملية ايه؟!
نظرت له لحظات بدهشة، كيف لا يعرف:
-عملية نقل الكلية حضرتك مش اتنقلتلك كلية وفي جرح وخياطة ..طبيعي يوجعك ....عموما..
لم يعد يستمع لما تلته من كلمات بل هي نفسها توقفت عن الحديث مع جحوظ عينيه المفاجيء وهو يردد بذهول:
-نقل كلية ..انا اتنقلتلي كلية.
صمتت وقد بدى لها أنها ارتكبت خطأ ما فاكتفت بإيماءة برأسها لتدور تاركه المكان.

دارت عينيه في محجريهما ورأسه معهما، وذكريات شتى تتصارع في رأسه.
حسام ...صراخه ..آلمه ...الغدر به ...وأخيرا موته.
لم يتصور أن يكون جانيًا على أحدهم كما جنوا علي رفيقه!!
أن يمنح نفسه حق الحياة ويسلبها من آخر!!
ليصرخ دون اهتمام بآلمه فانتفضت سميحة مهرعة إليه:
-مالك يا حبيبي في ايه؟!
نظر لها وقد امتلأت عيناه بالدموع:
- أنتو ازاي تعملوا كده ...ازاااي؟

أمسكت بكتفه تمنعه الحركة بعصبية:
-يابني اهدى الحركة دي مش كويسة ...عملنا ايه بس؟!
وفي تلك اللحظة دخل جاهين ليسمع كلماته الصارخة:
- مين اداكوا الحق تعملوا كده ..قلتلكم عندي أحسن ولا اني أخد حاجه مش بتاعتي ...موتوا مين علشان أنا اعيش.
أسرع جاهين إليه يساعد عمته في تثبيته:
- في ايه يا وافي؟.
دفعه وافي عنه زاعقًا:
- أنت السبب!!
عاد جاهين للخلف يحدق فيه بذهول وهو يردد:
-هو في ايه؟!!
رمقه وافي بغيظ شديد:
-أنت عارف كويس اني مش عايز كده ..مش عايز أخد كلية حد مش عايز أعيش على حسب موت حد ازاي تعمل كده؟
تنهيدة ساخرة مصحوبة بذهول وهو يهز رأسه يمنة ويسرة، بدى وكأنه لم يصدق أيًا مما سمع، أهذا كل ما فكر فيه منذ عاد إليهم وخرجت أفكاره على لسانه بعصبية واضحة:
- أنت بتقول ايه؟ أنت كنت بتموت.
-عمري ...قلتلكم ميت مرة عمري ملكوش دعوة أنا مش...
قطع حروف كلماته مع صرخة جاهين:
- يا أخي حرام عليك دا احنا كنا بنموت جنبك كل لحظة ..دا أنا كان عندي استعداد أبوس رجل الناس علشان اعرف اساعدك ..شوفنا رعب ماشوفناهوش في حياتنا كلها واحنا بنجري في كل مكان علشان تعيش وفي الآخر بتزعقلنا كأننا عقبناك مش ساعدناك ..هي دي شكرًا بس أنا مش هعاتبك لأنك لسه مش مستوعب وأكيد لو كنت مكاني كنت هتعمل أي حاجه علشان تساعدني.

انهى كلماته ليغادر الغرفة مغاضبًا، تتبعه نظرات وافي المتألمة وبرغم كلماته القوية إلا أن داخله آلم مختلف، آلم لا يعيه أحد منهم.

"حسام"

هز رأسه وكأنه يؤكد رفضه:

- خلتوني عملت اللي اتعمل في حسام ..مين مات مكاني.؟!

ربتت سميحة على رأسه:

-مافيش حد بيموت مكان حد ولو قصدك المتبرع كويس جدًا ..ومادخلش العمليات الا بعد ماخد شيك بمليون جنيه وهو اللي اختار الرقم بنفسه وجاهين متأخرش.

رمقها للحظات.

مليون ..حياته أصبح لها ثمن الآن، وهل مليون كافية؟!

لكنها ليست ثمن حياته هي الآن بل ثمن حياة شخص آخر، شخص تصور أن بضع أصفار ستكفيه، حتى لو قضى الكثير من أيام حياته مريضًا.

التفت لسميحة:

-عايز اقبله ..عايز اقبل المتبرع ده ..النهاردة.

رددها بتصميم.

انتفض قلب سميحة بين ضلوعها، وهي تفكر سريعًا في الكلمات التي تناسب هذا الأمر دون أن تثير شكوكه.

الفصل الرابع عشر

أنا اللي عمري اشتياق في اشتياق
وقطر داخل في محطة فراق
قصدت نبع السم وشربت السم
من كتر شوقي وعشمي في الترياق

عجبي!!
رباعيات جاهين

سخرية ما ترتسم على وجهه ولا يدري أحد سببها، يستند إلى الجدار البارد، بصره لا يهتدي لنقطة محددة، مما يوحي أنه شارد.
شرود يحمل في طياتهِ الألم.
عليه أن يتفهم، أن يصبر على رد الفعل هذا، فللحق هو كان يتوقعُه.
وافي عنيد، بل أكثر من عرف عندًا.
إذا آمن بفكرةٍ ما فإقناعه بعكسها ليس سهلًا أبدًا.
زفر ليخفض بصره أرضًا، أهذا ما يشغله الآن؟ !
سيتقبل الأمر الواقع في النهاية .
فماذا عن الصدمة القادمة لا محالة؟!
هل سيزيد غضبه حين يعلم أن عائلته التي لا يعلم عنها شيئًا أُجبرت على الظهور فقط لإنقاذه، أن الأخت التي لم يرَها يومًا منحته ما لم يقبل أن يناله من غريب.

وهو لا يفهم، لم يعلم حتى الآن السبب الحقيقي وراء إبعاد تلك العائلة، لا يذكر حتى أي كلمات كانت تقال من حوله حينها، لا يذكر إلا انضمام وافي لعائلته وفقط.

وما يثير حيرته حقًا، أن أباه سمح بهذا، بالتأكيد كان يعلم، فأي كلمات قالتها عمته لتقنعه بالصمت، وهذا يأخذه لنقطة أخرى مظلمة، أي كلمات ستسمعها لوافي لتفسر له الأمر، وهل ستتفق وكلمات فاطمة، وإذا اختلفت؟
من سيصدق وافي من ولدته أم من ربته؟.!
فرك رأسه بعصبية، التفكير يقتل أحيانًا، فليهدأ قليلًا.

"جاهين ..جاهين"
همسات باسمه أجبرته على الانتباه لصاحبها:
-عمتي ..خير هو كويس.
بدا عليها القلق وهو تجيبه:
-ايوة ..بس ده بيقول عايز يشوف المتبرع النهاردة.
رمقها للحظات ليتمتم:
-وماله نجيبها.
اتسعت عيناها غضبًا أو دهشةً لا يعلم:
- انت اتجننت مش شايف حالته عاملة ازاي كمان هنقوله على المصيبة دي .. وافي مش هيعرف حاجه إلا لما يخرج من هنا ونطمن عليه ..روح بقى اقنعه أنه يصبر اتحجج بأي حجه أنا أعصابي مش مستحمله وإياك يا جاهين تحكيله حاجه أو تقوله حاجه ماتخليش غضبي عليك يزيد ..اتفضل ادخله.

استسلم لمنطقها فهو الأوقع حاليًا، فليس من مصلحة وافي صحيًا إثارة المزيد من العصبية.
سار بتؤدة إلى أن وصل إليه، راقدًا ..شاردًا ..محدقًا بسقف الغرفة، اقترب منه على مهل ليجلس بجوار فراشه، يعلم أنه شعر به لكن كلاهما التزم الصمت لحظات حتى فرج وافي شفتيه وهو على حالته قائلًا:
- المليون اللي خدها المتبرع أخصمها من فلوسي أنا وبس.

رجفة ما سرت في أوصال جاهين وتلك الكلمات تخترق أذنيه، هل بدأت عمته اللعب بحقارة؟!!
حدق به بعينين متسعتين:
-مين قالك على الفلوس؟!
شيء ما بداخله تمنى أن يكون مخطئًا رغم استحالة الأمر، لا يريد أن يظن في عمته أسوأ من ذلك.
-ماما.
أغلق عينيه لثانية ليقول بثبات إنفعالي حققه بصعوبة:
-موضوع الفلوس ده مش زي ما أنت فاكر ...المتبرع ماخدهاش تمن لكليته.
نبرة ساخرة بدت واضحه في كلمات وافي:
-ماخدهاش تمن ..أومال خدها ايه ترضية؟!!
"ليه؟..ليه؟"!!
رددها عقله مرات ومرات دون القدرة على النطق بشيء، وغضبه يزداد على عمته وما تحاول فعله، وقلبه يرتاب على كل كلمة أخرى ستخبر وافي بها بعد ذلك.
-مش مهم ...انا عايز اقابل المتبرع ده النهاردة.
تنفس لتمسك بالهدوء:
-مش هينفع ..هي كمان تعبانه.
انتفض وافي في فراشه فعليًا وهو يرمق جاهين بذهول:
- هي ...بنت ..خدتوا التبرع من بنت.
هز جاهين كتفيه:
-هتفرق في ايه؟ ...بنت ولد كلنا زي بعض من جوه.
-أنت بتهزر.
هب جاهين ليكمم فمه:
-وطي صوتك ...وماتقولش لعمتي إني قلتلك إنها بنت هي ماكنتش عايزاك تعرف دلوقتي على الأقل.

وداخله تتردد كلمات أخرى.
"ماشي يا عمتي ...هتضربي تحت الحزام ..وماله كلنا بنعرف نعمل كده"
دفع وافي كفه بعيدًا عن فمه وقد خفض صوته:
- مالقتوش غير بنت؟!!
-وافي ..اسمعني كويس قصة المتبرع ده مش حد دورنا عليه يتبرعلك وخلاص لأ دي قصة أكبر من كده بكتير بس صدقني مش هينفع تشوفها دلوقتي ولا تعرف القصة إيه هي كمان تعبانه من العملية ومحتاجة فترة نقاهة زيك اخرج بالسلامة من هنا وأنا اوعدك تعرف كل حاجه وأكيد هتشوفها ... شوية صبر يا وافي وزي ما قلتلك ماتقولش لعمتي اللي قلتهولك ولا تتكلم معاها في الموضوع يكون أفضل.
استقر وافي في فراشه ثانية وساد الصمت المكان ليستريح جاهين في مقعده وفي عقله فكرة واحدة.
يجب أن يعرف ما الذي حدث بالظبط؟
فعمته ستغزل كذبة متقنة بكل تأكيد.
....

انتظار البلاء أسوأ من وقوعه.
كان هذا حالهم جميعًا.
الكل ينتظر ..يترقب ...يضع الاحتمالات التي تحمل بين طياتها دومًا أسوأ البدائل، ولهذا كان للإنتظار مساوئه
فوقوعه يحمل احتمال واحد أيًا كان، أما انتظاره فيعني العديد من الافكار والتخيلات والتي دومًا سلبية.
قلما غادرت فاطمة غرفتها منذ علمت بعودة وليدها للواقع الذي عاشه سنوات والآن بات قيد التغيير.
أم وأخت، علاقات وثيقة الصلة تحمل عمق دماء تربطهم، ومع ذلك سيسمعها لأول مرة.

كيف رد الفعل يا ترى؟؟
كانت لتأمل الأفضل إذا تنحت سميحة عن الصورة، لكنها في قلب الصورة بل تراها تقف أمام وليدها بينما هو في الخلف يحتمي بها من أُناس لا يعلم عنهم شيء.
كيف لا وهي الام والحامية والمربية طوالا ثنان وعشرون عامًا.
أطبقت عينيها لتحرر المزيد والمزيد من العبرات، خوفها وألمها يتصارعان كعادتهما داخلها .
وهي تبحث عن كلمات للدفاع، للتبرير، لتتسول الحب الذي هو حق لها من الأساس، فهل ستتمكن كلماتها من عبور حاجز الزمن.
لتعيد لطفلها أول ضمة منحته إياها لتسكت بكاءه، أول قطرات من لبنها لتسد جوعه.
رفعت كفها إلى وجهها، تتذكر لمسات نادرة، سرقتها من وجه طفلها، حين كان رضيعًا، وكيف استعادت كل ذلك فقط بلمسة واحده لوجنته وهو راقدًا فاقدًا للوعي.
نفس الاحساس عاد لها بشوقٍ أكبر وحبٍ أعمق.
فهل هذا ما سيشعر به هو أيضًا؟!
ولمَ لا؟!
ستضمه إلى صدرها فور رؤيته، ستجعل قلبه يستمع لنبضات قلبها عله يتعرف عليها، أليست تلك النبضات كانت تهويدة نومه منذ خُلق، ألم تكن مؤنسه الوحيد حين سمع ما حوله؟.
وستهمس في أذنه باسمه الذي اختارته له، الاسم الذي رددته طوال فترة حملها حين كانت تظن أنها تحمل طفل ذكر.
بسام.
سيخبره قلبه أنها هي ، هي أمه الحقيقية.
سيتعرف عليها!!
حتمًا سيتعرف عليها.!!

....

حتى التقلب في الفراش أصبح رفاهية لا تملكها.
عادة سيئة كانت تودي بعراكات بينها وبين نانا في الصباح حين يتشاركان الفراش، والان فقط تنتقل من جانب لآخر ببطء فالألم وإن خف إلا أنه لازال يُذكرها بما حدث.
والنتيجة الأكبر لم تنالها بعد.
أو ربما الترضية الأكبر لم تصلها بعد.
والغضب مع الحنق ولنضف عليه الانتظار المرير، فالأمير الشاب لن يحتمل خبر كهذا .
فعلى البقية الصبر..
فعلى البقية الانتظار..
أو حتى الموت لا يهم، فالأمير حيًا يرزق وبصحة جيدة .ضمت قبضتها على فراشها لا شعوريًا.
"وماله أدينا مستنين ...أما نشوف أخرتها"
اندفعت نانا للغرفة وبدى عليها الغضب لتلقي بنفسها على الفراش لتتأوه بسمة:
-آه ..ماتحاسبي.
-بطلي دلع بقى بقالك أسبوع.
-غوري من هنا.
زفرت في ضيق:
-محمد مابيجيش!!
مطت بسمة شفتيها لتخرج هذا الصوت المميز لمصمصة الشفاة والغرض منه التعجب:
- ويجي ليه بعد ما سممتي بدنه أخر مرة أنتِ إيه يا بنتي عايزة إيه بالظبط مش طلبتي يبعد ..أنتِ زي ما مها بتقول عايزاه ومش عايزاه عجبك حبُه

وجريُه وراكي وفي نفس الوقت عايزه واحد غيره يحققلك أحلامك اللي في الاخر هتجيبك الأرض.
سكتت نانا وعقلها يردد نفس السؤال.
مالذي تريده بالضبط؟ ..وهل المال سيغني عن الحب؟!
ولكن سعيها ليس للمال فحسب، فلنكن صادقين .
المال هو الوسيلة لكل غاية أخرى، فماذا عساها تفعل؟!
همست بصدق:
-مش عارفه ..مش عارفه أنا عايزه إيه؟
مسحت بسمة على رأسها برفق:
-اسمعي قلبك يا نانا.
أدارت رأسها لها قائلة في محاولة لتغيير دفة الحوار:
- ألا صحيح ...جاهين ماكلمكيش؟.
هزت رأسها نفيًا:
- بيكلم ماما بس.
فوكزتها برفق:
- طب ماتكلميه أنتِ.
ارتسم الغضب عليه لتضحك نانا لتضيف:
-وياسلام بقى لو قولتيله وحشتني.
رفعت بسمة وسادتها لتضربها على وجهها بينما الأخرى لازالت تتعالا ضحكاتها أسكتهما رنين هاتف بسمة لتمسك به هامسة:
- ده محمد.
التصقت نانا بها وبهاتفها لتسمع المكالمة.
-الو ...ازيك يا محمد؟
- الحمدلله انتوا عاملين ايه؟
- الحمدلله بخير.
أشارت لها نانا لتسأله المجيء، كتمت بسمة ضحكتها:

-ماجتش بقالك كام يوم ..عَدي علينا نتعشى سوا.
انفرجت أسارير نانا حين سمعته يقول بعد لحظات تردد:
-ماشي هاجي ..أشوفكم بليل.

....

بعض المرح لن يضر، حديث بسمة لنفسها وهي تتابع ردود فعل نانا ومحمد فور حضوره، ولم يخفى هذا عن البقية لتكتم فاطمة ضحكاتها حينًا وتنظر لهم ببسمة محببه حينًا آخر.
نانا تتودد ومحمد يتمنع، حاله من النادر رؤيتها .ويبدو أن محمد يريد أن يعلمها درسًا ما.
"ابتعادي عنكِ ليس مستحيلًا"
دفعت بطبق من الأرز باللبن المحلى بعد العشاء أمامه قائلة بلهجة أرادت أن تكون باردة لكنها خرجت متوترة:
- أتفضل ..الرز بلبن بتاعي اللي بتحبه.
رمق الطبق للحظات ليقول بنفس اللهجة الجامدة التي حافظ عليها معها تحديدًا منذ دخل:
- شبعت.
ارتسم الاحباط على ملامحها وهي ترمقه بضيق.
أليست السبب لمَ الحزن؟!، لقد اهانته حقًا المرة الأخيرة، أي رجل يتحمل ما تقول؟!
سيفعل ما تريدين ..عليكِ أنتِ تحمل النتائج.
تركت الطبق مكانه قائلة:
- يمكن تجوع خليه.
لتتركهم وتجلس في ركنٍ ما.
لم يجِبها، قاوم بشدة رغبة دفينة في النظر إلى وجهها الذي حرمه على نفسه منذ جاء .

نبضات قلبه المتسارعة كلما كان بقربها يفعل المستحيل لإسكاتها، سيجعلها تعلم أن ابتعاده عنها سيكون مؤلم لها ليس له فقط، لقد اعتادت وجوده، ملاحقته والآن سيستمع لنصيحة بسمة وينفذها.
ليتستعيد كلماتها له على الهاتف.
"نانا لازم تحس انك ممكن تبعد عنها فعلًا ..أنت دايمًا مديها الأمان جمد قلبك شوية وطنشها أنت نفسك هتحس أد ايه هي هتتضايق ومش بعيد تيجي تعتذرلك ..ماتسلمش بسهولة يا محمد .. انا عارفة نانا كويس وقلتلك قبل كده وهفضل أقولها ..نانا بتحبك وعمرها ما هتعرف تحب غيرك ..ماتسيبهاش يا محمد"
رفع بصره لبسمة وكأنه يرجو الدعم لتبتسم له وتمنحه غمزة صغيرة لم يلمحها سواه ليبتسم رغمًا عنه قبل أن يقول:
- هيخرج من المستشفى امتى؟!
أجابته فاطمة بحروف تحمل هم:
- بكره الصبح.
لتضيف بسمة بضيق:
- والله اعلم بقى هيقولوله بكره ولا هنستنى أسبوع كمان لحد ما حضرته يعرف.

ابنتها لازالت غاضبة، كلماتها تلك تؤلمها ربما أكثر من انتظار اللقاء، كيف ستنزع كم الغضب والحقد الذي ينمو داخل ابنتها دون توقف، وللأسف الانتظار لا يوقفه بل يثيره أكثر.
فقالت هامسة:
-جاهين قالي هو نفسه هيسأل أول ما يرجع البيت واحتمال كبير يجي ياخدنا نشوفه بكرة.
عقد محمد حاجبيه بعدم فهم:
- يسأل عن إيه؟ ...هما قالوله حاجه.

هزت رأسها نفيًا:
-لأ ..بس هو مصر يقابل المتبرع وهما قالوله هيقابلها أول ما يروح.
حكت بسمة رأسها:
-نفسي أعرف عايز يقابل المتبرع ليه؟؟
رأتها فاطمة فرصة سانحة لتجميل صورة الابن في عيون الابنة لتقول بود:
- باين عليه طيب ..عايز يشكرك أكيد لأنك ساعدتيه وكمان من غير حاجه لسه مايعرفش إنك أخته.
سقطت كلماتها على رأسها كدلو من الماء البارد لتتبادل النظرات مع محمد الذي ألجمه الصمت هو الآخر.
فاطمة لم تعلم شيء عن المبلغ الكبير الذي حصلت عليه بسمة قبل العملية، ولأول مرة تتسرب مشاعر ندم إلى قلب بسمة وتعيد التساؤل، هل أصابت بقرارٍ كهذا؟
لمَ تخشى البوح لأمها بالأمر إذن؟
لأنها ببساطة لن تتفهم والآن سيصير الأمر أكثر تعقيدًا ...فلتصمت فحسب.
استمرت نظرات محمد إليها وكأنه يحثها على الكلام فالآن أفضل من لا شيء.
لكن هروبها ببصرها بعيدًا أعطاه الإجابة التي تمنى ألا يراها.
ليتمتم:
- ربنا يستر.
لم تتمكن فاطمة من تفسير نظراتهما المتبادلة، فأردفت:
- أكيد ابني طيب ..زي أبوه.
- أبوه اللي ماربهوش وربته عقربة اسمها سميحة ...طيبة انتِ يا ماما.
تنجح تلك الفتاة دومًا في إثارة إحباطها وقلقها، هي تعلم جيدًا من ربته وهذا ما يرعبها،لكن ما باليد حلية، ستتكل على خالقها فهو حسُبها ووكيلُها.

....
هاجت وماجت ،زعقت وصاحت.

كعادتها حين تسمع ما لا يرضيها والأمر حقيقة ليس مقبول بما فيه الكفاية، أي فتاتان اللاتان سيتم ضمهما للعائلة لمجرد أن فاطمة تعدهما بناتها، ما شأنهم بالأمر؟.

- استوديو ايه اللي على الروف وعايز تظبطه ليهم احنا مالنا.

تكلم بهدوءه المعتاد حين غضبها:

-مرات عمي قالت إنها مش هتفارق البنات، فأكيد مش هتسيبهم يعيشوا لوحدهم، والاستوديو اللي على الروف مقفول ومالوش لزمة، وهو مناسب للبنتين ..أوضة نوم واحده ريسبشن صغير مطبخ وحمام مش هيحتاجوا حاجه تاني.

- أنت هتجنني يا بني أنت عايز تدخل البيت بنتين لا نعرف لهم أصل من فصل مش كفاية البلوة الكبيرة فاطمة وبنتها.

- مرات عمي اللي ربتهم يعني أحنا مدخلين الأصل نفسه فين بقى المشكلة؟.

-امشي يا جاهين من قدامي أنت ناوي تجبلي جلطة.

لابأس ...هدأ من نفسه، سيؤجل هذا الآن، لازال لديه وقت تعرف وافي على عائلته وتقبله للأمر ربما سيكون مناسبًا خلق وقت حتى وصول فاطمة والفتيات للمنزل، وافي من سينهي الأمر وسيجبر عمته على القبول.

- طيب يا عمتي ..بلاها السيرة دي أما نروح بكرة حضرتك بقى تحكي لوافي اللي حصل علشان بعدها هروح اجبهم واجي ..كفاية كده الناس مستنية بقالهم كتير.

نظرة ملأت عينيها لم يخطئها بصره، نظرة مكر، خدعة على وشك الظهور، عمته ستكذب ..ووافي سيصدق ومن غيرها هنا ليؤكد أو ينفي.

ستصبح القصة كلمة ضد كلمة أم أنجبت ضد أم ربت.

والنتيجة قلب وافي الذي سيعصره الألم.

-عمتي ..أرجوك ..حافظي على الرابط الوحيد اللي بيربطك بوافي ..وافتكري ان وجعه وجعك.

تجهمت ملامح وجهها لترمقه للحظات قبل أن تتركه عائدة لغرفة وافي هامسة:
-روح أنت وتعالى بكرة بدري.

وصل للمنزل منهك ككل ليلة...
لكنه لم يصعد لغرفته بل اتجه لغرفة والدته التي كانت على فراشها تمارس هوايتها الوحيدة التي جمعتها بوالده يومًا، القراءة.
وضعت الكتاب جانبًا وخلعت نظاراتها تفرك عينيها قائلة:
- ها كله تمام ..هيخرج بكرة.
جلس بجوارها على طرف الفراش.
- أيوة الحمدلله.
ثم اعتدل ناظرًا لها بتصميم:
- ماما ..ممكن تقوليلي عمتي قالت ايه بالظبط لما جابتلكم وافي هنا.

أطرقت رأسها للحظات قبل أن تستعيد ما تبقى في الذاكرة من تلك الأيام التي حملت الكثير من الحزن وقتها، خروج وافي من المنزل واصراره على الزواج بفاطمة، جنون سميحة المطبق وصراخها طول الوقت، حتى ظنوا أنها ستفقد عقلها، وفاة وافي المفاجئة والتي قلبت البيت همًا وحزنًا أكثر.
فوافي كان أخر العنقود كما يقولون، الطفل المدلل والمراهق الملبى الطلبات وأخيرًا الشاب الذي تمنع وعصى فخرج ليعود لهم جثة هامدة.
لحظات كانت الأسوأ على الجميع.
فرجت شفتيها هامسة بحزن حمل عبق ذكرى:
-كان البيت كله حزين وقتها على وفاة عمك وافي جدك مرضه زاد عليه ويحيى حزن عليه جدًا وكان بيبكي بالدموع ..سميحة كانت منهارة والزمن فعلًا أكبر دوا ...يوم ورا يوم بدأنا نهدى ونكمل حياتنا وبعد كام شهر لاقيناها راجعة وشايلة وافي في ايدها ..رضيع عمره أيام قالت أنه ابن وافي من فاطمة وأن أمه مش هتقدر تربيه وأنها اتنازلت عنه لعيلة أبوه ...يحيى ساعتها اقترح

نجبها هي كمان وتعيش معانا بنصيبها من الميراث طبعًا عمتك قلبت الدنيا ويحيى ماكنش ليه لا في الشغل ولا الفلوس ماكنش بيشغله غير الأدب والشعر وهي قالت أن نصيب فاطمة هيدخل في ميراث ابن وافي في الآخر أبوك سكت واحنا كمان ونسينا فاطمة ومشاكلها.

-طب وموضوع توأمه.

سألها بحرص فأجابت:

-مانعرفش عنها حاجه سميحة ماتكلمتش عنها خالص..تقريبا فعلا ماتعرفش حاجه وفاطمة كانت صغيرة قلنا اكيد هتتجوز تاني وتكمل حياتها موضوع التوأم ده كان مفاجأة لينا كلنا.

صمت جاهين مفكرًا، هناك حلقة مفقودة في تلك القصة، حلقة في يد أطرافها عمته وزوجة عمه.

ربتت أمه على كتفه وهي تشعر بهمه الذي لا يخف عن ظهره أبدًا.

- روح نام يا حبيبي ...بكرة يوم مش سهل نام وماتشغلش بالك كله في الاخر هيتعرف.

أوما برأسه مقبلًا رأسها ليذهب لغرفته حاملًا معه همومه التي لا تنفك تغادره.

نال حمامًا باردًا كان في حاجته ليستلقي على الفراش وعقله لا يتوقف عن التحليل والتفسير.

إذن فاطمة هي من تنازلت عن وافي لعمته، شيئًا ما خطأ هنا، كيف لامرأة تتنازل عن وليدها بينما تتمسك بفتاتين ليستا من صلبها، الأولى أن تتمسك بابنها لتربيه.

ولماذا أخفت الفتاة؟ ...عمته بالفعل تفاجأت بوجود بسمة وبعد التحاليل هو يثق أنها توأمه، فلمَ أخفتها وتركت عمته تنال وافي؟.

فرك رأسه متأوهًا، التفكير حقًا مضني، وهذا حاله هو فكيف سيكون حال وافي نفسه-.

سحب الوسادة يضعها على رأسه يرجو نيل بعض النوم هامسًا:

-كان الله في عونك يا وافي.

....

استأذن محمد للمغادرة لتتبعه نانا إلى الباب، فتحه ليغادر بصمت فأوقفته بندائها، لم يلتفت لها وقف مكانه دون رد، زمت شفتيها وشعرت أنها ترغب بالبكاء، تجاهله لها لم يعد يطاق.

أغبية هي حقًا؟!

كيف تحبه بهذا القدر وفي نفس الوقت تدفعه بعيدًا عنها؟!

طال صمته وصمتها فتحرك ثانية للمغادرة، لن تعتذر ...الغبية ..المتكبرة لن تعتذر!!

وهو لن يستسلم، لن يرجو ثانية، قالتها صريحة لن أنتظرك.

حسنًا !!هو لا يريد أن يتركها، لكن عليها أن تدرك أن لديه كرامة حتى لو كان عاشقًا لها.

أوقفه نداء أخر باسمه حملت حروفه رجاء واضح، ظل على حاله لم ينظر لها.

لو تعلم أن نظرة واحدة منه لها ستضعفها لا محالة، لو تعلم تلك المعتوهة كم يحبها؟!

فقط لو تعلم؟!!

- محمد ..لدرجة دي مش عايز تشوفني.

تلبس درع الصرامة ليحمي نفسه من تأثيرها:

- انا بنفذ طلبك.

- أنا طلبت كده ..أنا مقلتلكش اكرهني.

زفر وكأنه يطلق الدخان، فاض الكيل .التفت لها صائحًا غير مباليًا:

-حد قالك أن الكون ده بيدور حواليكي أنتِ بس اللي تطلبيه يتنفذ بالشكل اللي أنتِ عايزاه ومش مهم أي طرف تاني حد قالِك إني عبد عندك ..ولو كان على حبي اللي هيخليكي تتحكمي فيا فملعون ده حب يا شيخة.

قفزت العبرات إلى عينيها، ليلمحها على الفور، عبراتها والتي هي نقطة ضعفه الوحيدة، عليه الهرب الآن، سيكمل خطته للنهاية.

ليستدير مبتعدًا قبل أن يرى دمعات غادرت مقلتيها لأول مرة بسببه.

....

استقبال حار تلقاه وافي من الجميع فور وصوله منزله برغم التهاني التي تلقاها في المشفى عادت تلك الضمات العائلية الحميمية تجمعه معهم ثانية ابتسم ناظرًا لهم وقلبه يحمل لهم كل امتنان، عائلته التي طالما دعى الله أن يبقيها له وقد عوضه بهم عن والديه.

استقر في غرفته ليستريح وأمام بابها المغلق من الخارج وقف جاهين يتحدث بهمس:

-حضرتك كلميه وانا هروح اجبهم.

زفرت في ضيق:

- أنا مش عارفه انت مستعجل كده ليه.

ابتسم هازئًا:

-مستعجل ..احنا متأخرين اتنين وعشرين سنة يا عمتي فين الاستعجال ده؟!

رفعت بصرها إليه، كانت نظرة تحدي أكثر منها استسلام وهي تقول:

-ماشي هاتهم ..ريح نفسك وهاتهم بس لازم تعرف أن أي عذاب هيعيش وافي فيه هيكون بسببهم وسببك.

-في الأول يمكن ..لكن لازم يعرف ويقرر المهم يعرف الحقيقة يا عمتي ... الحقيقة.

ضغط حروف كلمته الأخيرة ليصل لها المعنى الذي يقصده، فاستدارت تواجه الباب قائلة:

- أنا داخله اكلمه ...تعالوا بعد ساعة يكون فاق شوية من الصدمة.

قلبه لم يرتاح وهي تغلق الباب خلفها، يشعر وكأن وافي في مصيدةٍ ما تريد أن تحكمها حوله، لم لا يدخل معها ويسمع كلماتها له.

لن تسمح ..!!يعلم هذا جيدًا.

نظر لساعته قبل أن يتجه لوجهته الأخرى والتي أيضًا يحمل همها كثيرًا خاصة تلك الفتاة العنيدة المسماة بسمة.

....

سارة سيف الدين

الفصل الخامس عشر

حاسب من الاحزان وحاسب لها
حاسب على رقابيك من حبلها
راح تنتهي ولابد راح تنتهي
مش انتهت احزان من قبلها
عجبي!!
رباعيات جاهين

الغاية تبرر الوسيلة!!
كلمات بسيطة، لا تحتاج تفسير، قائلها يبحث لنفسه عن عذر!!
عذر للتصرف بحقارة ..بدناءة ..بأنانية.
وهكذا قررت أن تفعل!!
والسبب حقها في الحفاظ على ما تملك، وهو كل ما تملك ولن تخسره مهما كلف الأمر.
والغاية ..هو ابنها وسيبقى كذلك.
أما الوسيلة ..هي من تخلت فليس لها أن تطالب بحق تنازلت عنه.
نظرة تملكية منحتها له، مستلقيًا على فراشه وقد أغلق عينيه، ابتسمت تتأمل طفلها الذي ربت، أيمكنها أن تغبط نفسها على أنه لها ..وسميًا ..هادئًا ..والأهم معافًا.
لم يعد مريضًا كما كان، سيعيش حياته دون أن تشعر بالقلق عليه في كل لحظة، لن تسمع تأوهاته المؤلمة لقلبها ولن تسمح لفاطمة أن تكون هي سبب قلقها الجديد.
ألم يأن لبالها أن ينسى الخوف من خسارته؟!

استشعر وجودها ليفتح عينيه مانحًا بسمة ود، لترد عليه بأخرى متوترة، اقتربت منه ببطء، بدى قلقها الواضح على ملامحها، ارتسم التساؤل على وجهه.
-مالك يا ماما؟!
جلست على طرف فراشه تجنبت النظر إلى وجهه:
-جاهين راح يجيب المتبرع.
أومأ برأسه:
-كويس ..أنا كنت لسه هسأله هَيروح امتى.
تنفست بعمق وكأنها تستعد للنزول إلى السباق الحامي، التفتت له بكل جوارحها أمسكت كفه لتحتضنه بين كفيها، ظل يرمقها باستغراب منتظرًا تفسيرًا لما تفعل، لتهمس أخيرًا بصوت متردد وَجل:
-وافي ..في حاجه لازم تعرفها قبل ما تشوف المتبرع ..بس عايزاك توعدني.
لتصمت في انتظار رده:
-اوعدك بإيه؟
ضغطت كفيه أكثر:
-إنك تسامحني وماتسبنيش أبدًا ..أنت حياتي كلها يا وافي من أول يوم شوفتك وخدتك في حضني وانت بقيت كل حاجه بالنسبة لي ..سامحني وماتسبنيش.
اعتدل أكثر في جلسته وقد تصاعد القلق إلى داخله:
-في إيه يا ماما قلقتيني؟
ألقت نظرة على صورة صغيرة استقرت على الكومود بجانب فراشه، صورة رافقت وافي طوال سنوات عمره، صورة حملت وجه والده ووجه آخر لامرأة شابة ظن أنها أمه كما أخبرته هي، والآن عليها أن تعترف بكذبتها تلك، لكنها أبدًا لن تخسره، عليها أن تنتقي كلماتها جيدًا، كي لا تتمكن فاطمة من تكذيبها، لن تسمح لتلك المتسولة بأن تسرق وافي منها كما سرقت والده.
-ماما!!
أخرجها صوته من أفكارها وهو يحثها على الكلام لتربت على كفه برفق:

-أنا كذبت عليك في حاجه مهمة بالنسبة لك بس في نفس الوقت كان لازم أحميك ..ماحبتش تعيش حاسس انك منبوذ لأنك غالي عندي أوي بس جه الوقت إنك تعرف فيه الحقيقة دي.
نظرت لعينيه المترقبة لكلماتها وصمته يخبرها أن تسرد كل ما لديها:
-وافي باباك هو بس اللي مات في حادثة عربية ..كان لوحده.
زاد انعقاد حاجبيه وشعر بشيء ما يتسلل لقلبه لتتضاعف ضرباته وهو يهمس:
-يعني إيه؟ ...وماما ماكنتش معاه؟!
خفضت بصرها فلم تستطع مواجهته وهي تقول تلك الكلمات:
-لأ ..مامتك عايشة.
شعرت بانقباض عضلاته وارتعاش كفه تحت أناملها لتكمل:
-سامحني كان لازم أقولك من زمان ..أنت كنت صغير ويوم جري ورا التاني لحد ما اقتنعت إنك مش لازم تعرف لأنها مش هتكون جزء من حياتك ..
اتصورت أنها هتحاول تشوفك أو تكلمك لكن اصرارها على البعد عنك اقنعني أنها خلاص كملت حياتها ..لكن الحادثة واحتياجنا لمتبرع بسرعة خلانا نفكر فيها تاني ..ولما قولنا لجاهين يدور عليها جابها.
جذب كفه من بين أصابعها بقوة وجسده ينتفض:
-هي اللي اتبرعتلي؟!!
هزت رأسها بالنفي:
-لأ ..بنتها .. أختك التوأم.
لمَ يشعر بالدوار؟، هل يمكن للكلمات أن يكون لها تأثير الضربات الموجعة على الرأس؟، كأن أحدهم انهال على رأسه بمطرقة ضخمة أفقدته التركيز، ليسقط رأسه فعليا للوراء وهو يردد:
-توأم ..ماما ايه اللي بتقوليه ده؟ ..!انتِ بتهزري.
اقتربت منه اكثر لتحتضن جسده المرتعش بين ذراعيها:
-أنا عارفه انه صعب يتصدق.
دفعها عنه برفق:

-ماما أنا عايز أفهم ..ازاي؟ ..وليه؟!
-حاضر هفهمك ...باباك اتجوز مامتك بغير إرادتنا كانت مش من مستوانا خالص وعمر ما باباك انتبه لها ...ماعرفش ازاي قدرت.....
قطعت كلماتها ليس وخزة ضمير بل لتترك لوافي الحرية لملأ الفراغ لتردف:
-المهم إنه أصر يتجوزها ولما ماوفقناش لا جدك ولا أنا اتجوزها من ورانا وبعِد عننا واجبرته يشتغل شغلانه مش بتاعته سواق عربيات نقل وبسبب الشغلانة دي عمل حادثة في الطريق ومات ..بعدها عرفت أنها ولدت روحت علشان أشوف المولود ..شوفتك أنت وماكنش معاها غيرك خدتك في حضني وفهمت من نظرة واحده ليها وللمكان اللي هي فيه أنها مش هتقدر تربيك وجدك ماكنش هيسمحلها تدخل البيت بعد ما تسببت في موت أصغر أولاده خدتك منها علشان تتربى معانا مع عيلة أبوك ..اللي مش قادرة أفهمه هي ليه خبت توأمك مع إني كان ممكن أربيها هي كمان معاك لكن هي تقريبا اختارت تحتفظ بالبنت لنفسها وسابتك أنت ليا ..واتأكدت من ده لما محاولتش أبدًا تيجي وتطمن عليك ولا مرة واحدة ولولا الحادثة بتاعتك وحاجتنا ليها أنت ماكنتش هتعرف عنها حاجه.
صمتت تترقب ردة فعله ولم يمنحها الكثير وجه متغضن وعينين شاردتين وأنفاس منتظمة.
ليلتفت لها وكأنه تذكر أمرًا ما:
-مش قلتلي إن المتبرع خد مليون جنية.
ولو أمكننا رؤية النفوس وما تخفيها لتمكنا بسهولة من رؤية تلك الابتسامة المتشفية التي اعتلت روحها وهي تفكر في الاجابة الأمثل، مهلًا ليست الأمثل من ناحية المصدقية إنما الأمثل من ناحية مصلحتها، تلك الفتاة الطامعة صورة مناسبة لمن تربت على يد فاطمة وكما كانت الأم ستصبح الابنة، أم طمعت في أبيه وعائلتها والآن ابنة لا تفكر إلا في المال وما يجب أن تناله من حقها الذي ضاع بدون قصد، فالأم هي من اختارت أن تخفيها فأين خطئها هي في ذلك،

على وافي أن يعلم أنها الطرف المضحي منذ البداية وأن كل شيء حدث وسيحدث نتيجة قرارات فاطمة الأنانية.
لترتسم على ملامحها الخيبة وتكتمل الصورة:
-للأسف أختك مش شايفة حاجه غير حقها اللي ضاع منها رغم إن ده مش بسببنا ده اختيار أمها ..مافيش على لسانها غير حقي حقي ..ولما جاهين تعب معاها قالها عايزة كام ..طلبت مليون جنيه علشان ترضى تعمل العملية وده بس مقدمة لحقها اللي عايزة تاخده كله.
-حق ايه؟!
-ميراثها اللي خدته بالكامل باعتبارك الابن الوحيد لوافي.
وضع يده على رأسه وأغلق عيني، راقبته لوهلة قبل أن تمسح على شعره:
-انت كويس يا حبيبي.
-سيبني لوحدي يا ماما لو سمحتي.
-زمانهم على وصول.
لم يمنحها رد، تمنت أن تخترق عقله وأفكاره وبالطبع لم تنجح، لتعتدل واقفة:
-هسيبك ترتاح قبل ما يوصلوا ..معلش يا وافي مش هقدر أكون معاك مش هقدر انسى اللي فاطمة عملته فيا وفِ أخويا ..وعلشان خاطري سامحني.
استدارت لتبتعد راجية من قلبها أن تكون نجحت، هي لا يعنيها أن يكره فاطمة هي فقط لا تريد خسارته، لقد خسرت حربها الأولى مع فاطمة ونالت الأخيرة ما أرادت وهذه المرة هي من ستفوز وسيبقى وافي معها.
-ماما.
نداء لها أوقفها لتستدير وقلبها يتقافز داخل صدرها، تأملها لحظات ليقول:
-شكرًا.
كلمة لم تتوقعها ولم تفهمها اقتربت منه بحرص متسائلة:
-شكرًا على إيه؟!
ابتسم والحزن يبدو عليه أكثر من أي معالم أخرى:
-شكراً إنك كنتي ماما ..وإنك ربتيني.

أوداع هذا أم ماذا؟!!
سقط قلبها بين قدميها وهي لا زالت حائرة في تفسير كلماته، أسيختار الذهاب مع فاطمة بهذه السهولة، أيشكرها استعدادًا لاستقبال أمه الحقيقية.
-أنت قصدك ايه؟ ...مش فاهمة!!
-قصدي أقولك شكرًا إنك كنتي موجودة معايا وإنك ماما وهتفضلي ماما.
لم تتمالك نفسها أسرعت نحوه تضمه لصدرها وقد فاضت عيناها بالعبرات، لتشعر بكفه يربت على ظهرها، لتضمه إليها أكثر وأكثر هامسة بنبرة باكية:
-وأنت ابني وهتفضل ابني.
تراجعت برأسها لتنظر لوجهه الباسم الحزين:
-يعني سامحتني.
مد أنامله يزيح عبرات أثقلت وجنتيها:
-في حد مايسمحش أمه.
أطبقت بشفتيها على جبهته تقبلها:
-ربنا ما يحرمني منك.
ردد بحب صادق:
-ولا منك يا ماما.
لتعيد ضمه إلى صدرها تؤكد لنفسها لا له أنه معها ولن يتركها، متجاهلة هذا النداء المزعج الصارخ داخلها.
لا تفرحي كثيرًا، فاطمة لم تأتي بعد، لم تقول كلمتها بعد، مازال الخطر يحوم حولك وعليكِ أن تقلقي بشأن هذا.
....

نظرت بسمة لساعتها للمرة الألف ربما، وهي تُعدل حجابها بعصبية وتتأكد من مظهرها الجديد بعد أن ذهبت مع نانا للتسوق سريعًا، عليها أن تدخل المنزل الكبير بهيئة تليق بنفسها، فهي الآن ابنة عائلة غنية.

فاختارت فستان طويل مزركش يعلوه جاكت قصير من خامة الجينز لتغطي رأسها بوشاح قطني أزرق.

عادت للشرفة كما تفعل كل خمس دقائق تقريبًا والتوتر يكاد يقتلها في انتظار ظهور سيارة جاهين كما أخبرهما لتستعدا حيث سيقلهما إلى المنزل.

لتعود مرة أخرى للمرآة تتأمل هيئتها وملامحها التي تشاركه فيها، تذكر جيدًا ملامحه التي رأتها وهو نائم بل وعينيه التي فتحهما محدقًا بهما، لتتأكد أنهما يملكان نفس العينين الرماديتين، عيني أمهما المميزة.

"حمدلله على السلامة"

كلمات ترددها كثيرًا كأول ما ستقوله له حين تراه، ثم تغير رأيها وتقرر الصمت منتظرة كلمته الأولى .

أما فاطمة فحالها لم يكن أهون، دقات قلبها تلاحق بعضها بهرولة، هذه المرة اللقاء مختلف، سيكون مستيقظًا، واعيًا، ستسمع صوته الذي حرمت منه سنوات طوال.

"بسام"

أول ما ستنطق به فور رؤيته، هذا الاسم الذي يشعرها بأنه ابنها هي وليس ابن سميحة كما تحاول اقناع نفسها.

كلمات كثيرة تعيد ترتيبها في رأسها لتخبره بها، وتعلم جيدًا أنها ستنساها فور رؤيته.

"ماما ...جه"

انتفضت فاطمة من مكانها:

-طب يالا علشان منتأخرش ..هو قال مش هيطلع.

أسرعت مها تمسك بملابس فاطمة لتوقفها فالتفتت لها:

-في ايه يا مها؟!

ابتسمت الفتاة بتوتر:

-ربنا معاكوا ..وماتزعليش من أي حاجه بكرة هيعرفك ويحبك.

اتسعت بسمة فاطمة وهي تمسد ذراعها:
-ربنا مايحرمني من طيبة قلبك يا بنتي.
"يالا يا ماما"
قالتها بسمة لتسرع فاطمة الخطى خلفها تراقبهما نانا ومها تتابع كل صوت يصدر منهما حتى اختفيتا.
أغلقت نانا الباب لتعود أدراجها تتبعها مها بقلق:
-تفتكري هيقابلهم كويس؟!
ألقت نانا بنفسها على الاريكة لتلتقط جهاز التحكم عن بعد لتشاهد التلفاز، لتجاورها مها قائلة:
-يا بنتي مش بكلمك!!
زفرت بضيق:
-يعني هعرف منين ..أهو لما يرجعوا هنعرف قابلهم ازاي.
-أبلة بطة صعبانه عليا مش هتستحمل لو قابلها وحش.
تمتت نانا بصدق:
-ربنا يستر ..أحسن بوسي مستحلفة.
-مستحلفة لمين؟!
استمرت في تبديل قنوات التلفاز لتقول:
-للكل كليلة.
استرخت مها في مكانها، تتمنى من قلبها أن تسير الأمور على ما يرام، بسمة لم تعد تتحدث إليها كما كانت تفعل، فقط نانا من يعرف فيما تفكر وهي تعرف أختها جيدًا ليست ناصحة جيدة أبدًا .ليت بسمة تعود وتحدثها أو على الأقل تتحدث لفاطمة، عقل آخر أكثر إتزانًا من أختها يجب أن يقدم لها النصيحة.
وكزتها نانا:
-بقولك ..ماتكلمي محمد تسألي عليه؟!
عقدت حاجبيها:
-اسأل عليه ازاي يعني؟!

-تطمني عليه يا ستي هو مش حد يهمنا.
فلتت ضحكة من مها:
-ضحكتني رغم أني مضيقة ..نانا أنا عمري ما كلمت محمد اطمن عليه وأنتِ عارفه كويس محمد عايز ايه ..يا توافقي يا تبطلي تسألي عليه.
ضربتها في كتفها لتتأوه:
-قومي من هنا ..قوومي.
حكت مكان الضربة وهي تتمتم:
-مفترية ..نفسي أعرف بيحب فيكِ ايه.
هبت من مكانها لتفر قبل أن تتلقى المزيد من الضربات.
....
لم يجد أيًا منهم ما يجب قوله، مجرد كلمات التحية في البداية ثم الصمت التام طوال الطريق، فالحمل كبير والموقف ليس هين ولا أحد يستطيع معرفة النتائج. مجرد تخمينات.

ما أن توقفت السيارة حتى أدارت فاطمة رأسها:
-هو ده البيت اللي نقلتوا فيه؟!
أجاب جاهين:
-أيوة ..بعد ما جدي مات اتعرضنا لأزمة مالية واضطرينا نبيع القصر وننقل لفيلا صغيرة ونستفيد بالسيولة، وفعلًا فادتنا كتير على حسب كلام عمتي أنا كنت لسه صغير.
أومأت برأسها تفهمًا، هذا كان سبب الرحيل إذن، تذكر كيف جذبها الحنين الضاري لرضيعها فذهبت تتقصى أحواله وكانت حريصة على ألا يراها أحد لكنها تفاجأت بوجوه لم ترَها من قبل وبعد سؤال بسيط عن قاطني القصر علمت أن سميحة حملت ابنها بل وكل من في القصر واختفت.
يومها بكت كما لم تبكي من قبل فهذه المرة تأكدت أنها لن تستطيع الوصول لوليدها قط، وعزمت على العمل في المنازل الفاخرة والقصور الكبيرة على أمل

أن تلتقي بسميحة يومًا ولم تتصور أن تسعى هي إليها لإنقاذ الرضيع الذي أخذته منها عنوة.

خطوات اتخذتها بسمة بتوجس لترى المنزل الذي كان المفترض أن تعيش به أعوام عمرها السابقة .منزل أنيق وعصري للغاية من الداخل، يتكون من ردهة واسعة تتوزع بها الأعمدة بانتظام يحيطها أثاث عصري مبهج الألوان.
وقفتا في المنتصف تقريبًا بينما أشار لهما جاهين:
-اتفضلوا اقعدوا.
التفت مناديًا:
-ماماا.
خرجت ميادة من غرفة قريبة لتقترب منهم بابتسامة هادئة:
-اهلا ..نورتوا.
ابتسمت فاطمة لترد بود:
-أهلا بيكي ست ميادة.
لو أمكن للنظرات أن تحرق لأصبحت فاطمة رمادًا من النظرة النارية التي منحتها لها ابنتها وهي تتمتم باستنكار:
-ست؟!!
لم يخفى على أحد رددت فعلها ليقول جاهين تفاديًا للموقف:
-انا هطلع أشوف وافي.
أشارت لهما ميادة للجلوس:
-اتفضلوا اقعدوا ....نوناا
خرجت فتاة لتلبي النداء قائلة بعربية ركيكة:
-نعم مدام.
عادت ببصرها لبسمة وفاطمة:
-تحبوا تشربوا إيه؟!
حدقت فاطمة بالخادمة الأسيوية بينما أفلتت ابنتها ضحكة ساخرة هامسة:

-سميحة بقت تخاف من المصريين جايبة خدامة من بره.
وكزتها أمها لتصمت بينما قالت للخادمة:
-هاتيماية بس.
لم تعترض بسمة فلم تكن ترغب في أي شيء فالتوتر يكاد يمزق عضلات معدتها .لتستدير الخادمة تلبي الطلب.
جلست ميادة وقد شابها التوتر الذي يستشعره الجميع قبل أن تقول لتهدئة الأجواء:
-عاملة ايه دلوقتي يا بسمة ..مش أحسن.
رمقتها لوهلة قبل أن تجيب ببرود:
-الحمدلله.
لم تتوقع ميادة جواب أكثر إريحية فالفتاة تكرههم بكل تأكيد، فآثارت الصمت في انتظار وافي.
....

وقف أمام بابه للحظات أطرق السمع فلم يلتقط شيء، طرق الباب بخفة ليدلف إليه، لم يكن في الغرفة غيره، مستلقيًا على فراشه ينظر له بصمت.
هل أخبرته؟!
ظل على صمته في انتظار كلماته هو وأخيرًا نطق:
-جبتهم.
أومأ برأسه إيجابًا:
-أيوة ..تحب أجبهم هنا لو تعبان.
أنزل ساقيه عن الفراش:
-لأ ..أنا هنزلهم.
-أنت كويس.
رفع بصره له واكتفى بالصمت!
بالطبع لا ..وهل هذا سؤال؟!

وقف بثبات ليخرج أمامه يتبعه جاهين بصمت، خطوات بدت أبعد مما تصور أو هكذا بدى له.
وأول ما انتبه له جسدان يستقران على الأريكة ثبت مكانه لحظة ليضع جاهين كفه على كتفه مؤازرًا.
قبض على حاجز الدرج وكأنه ينال بعضًا من صلابته، وكانت هي أول من شعر به لتستدير وتهب فور رؤيتها له تبعتها ميادة وبسمة التي وقفت بدروها تطالع رحلة هبوطه الصامتة إلى أن وقف في نهاية الدرج ويبدو أنه قرر البقاء حيث هو.
بينما أكمل جاهين بضعة خطوات ليقف بجوار أمه.

لتبدأ لحظات من النظرات المتبادلة.
صورتها تختلف كثيرًا عن تلك التي يراها طوال حياته، امرأة لم تبلغ من الكبر عتيا، لازالت تحتفظ برونق شباب كانت فيه الأجمل كما هو واضح، ترتدي عباءة سوداء ووشاح طويل بلون رمادي.
ولم يكن اختلاف صورتها فحسب بل هيئتها بالكامل تختلف عن نساء محيطة به، بسيطة جدًا ليست متكلفة في أي شيء لا يشوب وجهها أي مساحيق تجميل ولا يبدو أن المظهر من أولوياتها بعكس بقية أفراد عائلته أو الأصدقاء.
رأى في عينيها الكثير ..الكثير من العبرات التي لم تتوانى في إطلاقها وهي ترمقه بنظرة شوق واضحة لتتعدد الأسئلة في رأسه.
لمَ تركته إذن؟ ..!ولمَ لا زال يبدو عليها الفقر؟ !لم تستفيد شيء بالتنازل عنه فلمَ فعلتها؟!

وجهه أصبح أكثر اشراقًا، عادت له نضارته بعد أن كان شاحبًا، لازال يقف بعيدًا عنها ولا تعرف السبب، لم تحاول الاستفسار ..خطت هي نحوه.
لا مزيد من الوقت..
لا مزيد من البعد..

أخيرًا ستضم صغيرها إلى حضنها الدافيء، ستلبي نداء قلبها الصارخ بالقرب والسقاء من بعد ظمأ سنوات طوال.
وكان التنفيذ خير برهان.
مدت أناملها تمررها على وجنته، خشنة بعد الشيء، رضيعها صار رجلًا.
هبطت بها لتضع كفيها على كتفيه العريضين تضغطهما برفق وكأنها تتأكد أنه أمامها، طويل القامة كأبيه .مسدت صدره الصلب وهي تستكين موضع القلب، وكأنها بلمستها تلك ستوصل لقلبه الرسالة، عيناها الباكيتان تصولان وتجولان على ملامحه بينما يراقبها هو في صمت حذر وحاجبان منعقدان وعروق رقبته تكاد تنفجران غضبًا وصمتًا.
لن تطلب الاذن هو وليدها وكفى!!
ضمته غير مبالية بردته التي لم تتوافق ومشاعرها المتدفقة، تصلب جسمه بين ذراعيها وتوتره البالغ بينما تهمس باسمه:
-بسام ..بسام.
أهي من اختارته لهذا تناديه به؟!
ومن بعد الاسم رددت صفته لها، الصفة التي حرمت منها طويلًا:
-ابني ..ابني..
كررتها وكررتها على مسامعه.
أتريده أن يصدقها فقط بترديديها؟ !أتريد أن تقنعه أنها هي أمه؟!
أين كانت طوال عمره إذن .
نبضات قلبه تتسارع وتوتره يزداد، هل عليه أن يبعدها عنه، لكنه لا يستطيع، هي من ولدته وعليه أن يراعي هذا حتى لو أخطأت في حقه، فليتركها تفعل ما تشاء ولن يفعل شيء أدبًا لها، ليس أكثر.
-سامحني ...حقك عليا!!
تألم قلبه لتلك الكلمات، ليس استجابة بل إنكارًا، بعد كل تلك السنوات تطلب العفو والمفترض أن يمنحها إياه بهذه البساطة!!

صوت بكاء فاطمة هو المسيطر على المشهد الذي يتابعه جاهين ووالدته بتأثر واضح، وكذلك هي.
تكابح عبرات تريد الخروج من محبسها، هي لا تريد البكاء، فلمَ تجبرها عيناها على ذلك، ولم هذه القشعريرة الغبية التي سرت بجسمها، ومابال ضربات قلبها التي تتزايد باطراد، والأسوأ رغبتها في أن تكون جزء من تلك الضمة العائلية، حتى أنها خطت نحوهما خطوة أجبرت نفسها على التوقف والعودة خطوتين.
إنه أخاها.
الأخ الذي طالما حلمت به، كان من أحلامها المستحيلة أن يكون لها أخ، فمنذ وعت عاشت بلا رجل حامي لعائلتها الصغيرة، وكم كانت تتألم لتعب أمها وكانت تحلم بالأخ الذي يمكن أن يحمل هذا الهم عنهما ويمنحهما الامان، فلمَ لا تذهب إليه؟ ..تخبره أنها بحاجته، أنها تتمنى أن تقف خلفه تحتمي به من كل شيء وأي شيء.
مهلًا ..ما هذه الترهات!!
أنسيت أنه سالب حقها في الحياة؟ ..!وأن عليه أن يمنحها هذا الحق بل والتعويض المناسب على كل ما خسرته سابقًا فقط لأنها عاشت حياة لم تكن لها من الأساس .
وعادت قسوة القلب تغلف عينيها وهي تحدجه بنظراتها ومع القسوة ترى العين كل ما لا يعجبها وأولها رد فعله البارد الجامد لعبرات أمها، إنه حتى لم يضمها بدوره فقط يقف كالصنم الخالي من المشاعر.
والتقت عيناهما أخيرًا، وكما هو متوقع لقاء كالصقيع لا يحمل أي معنى للأخوة التي تجمعهما.
تشبهه حقًا، توأمه!!
لفظ غريب عليه بل كل ما حوله الآن غريب عليه.
امرأة لا يعلم من هي تضمه لصدرها، تردد اسمه الذي لم يستخدمه إلا في الدارسة والعمل ..والمفترض ... أنها أمه.

وفتاة تقف على مقربة منه تراقبه بصمت، ولا يشعر برغبة حتى في الحديث معها والمضحك أنها أخته، توأمه.
عائلة طالما تمناها برغم وجود عمته التي ربته كأم وجاهين الذي كان له أخ.
لكن نظرة منه حين طفولته لجلسة جمعت جاهين وأخته لوجي بوالديهما كانت كفيلة لتشعره باليتم، فينسحب إلى غرفته ضامًا صورة إلى صدره كان يظن أنها لوالديه ويبكي، يبكي دون أن يشعر أحد به، يبكي فقد أم وأب لم يتسنى حتى أن يراهما ولو للحظة، لا ذكريات على الاطلاق يملكها لهما، لا ابتسامة حب ..لا ضمة شوق ...ولا مسحت رأس.
مسحة رأس كالتي تفعلها تلك المرأة الآن، وهي لا زالت تتمتم باسمه ولقبه:
-بسام ..ابني
لا يستشعر منها أي شيء، بل هو يريد دفعها عنه لكنه لا يستطيع ولا يعرف السبب.

"ماما ..كفاية"!!
تريد أن تحمي أمها من الاهانة، هي ترى أنه لا يستجيب لما تفعله فلِمَ الاستمرار؟.!
التفت لها الجميع وهي لازالت مكانها، حاولت فاطمة الابتسام من بين شلالات عبراتها وهي تمسك بكف وليدها تجره معها قائلة:
-تعالى ..دي أختك ..اتولدت قبلك بدقايق بس.
لتنظر له ضاحكة باكية:
-يعني هي أختك الكبيرة .
أمسكت بكف ابنتها تضعها في كفه:
-سلموا على بعض ..انتو اتقبلتوا قبل ما اشوفكم أنا.
هل يسمى هذا سلامًا؟!، بالكاد تلامست أناملهما ليسحب كلا منهما يده من بين أصابع أمهما.
التي راقبت سلامهما الباهت بقلب يعتصره الألم لترفع بصرها لهما:

-بكره تعرفوا بعض واكيد هتحبوا بعض.
تبادل النظرات معها بصمت فعلم أنها تريده أن يبدأ:
-شكرًا.
-على إيه؟!
سألت فأجاب:
-على التبرع وانك انقذتي حياتي.
راقبته بتوجس، كلماته تحمل لكنة غير ودودة، قالت فاطمة في محاولة جديدة لتوطيد علاقات قطعتها سميحة لسنوات:
-دي أختك ..أكيد كان يهمها تساعدك.
ابتسامة ساخرة بدت واضحة وهو يقول:
-أه طبعًا ولازم تعرفي إن المليون جنية اللي خدتيها مش تمن لتبرعك لأن ببساطة جسم الانسان أغلى من أنه يتمن ولا حتى حقك اللي بدوري عليه .. اعتبريها كأنها لم تكُن وحقك هتخديه كله لسبب بسيط أنا مش بقبل فلوس حرام.
زمت شفتيها وهي ترمقه وقد اشتعل داخلها غضبًا مجهول السبب بينما فاطمة ترمقهما بدهشة قبل أن تهمس:
-مليون جنية ..مليون إيه؟!
لتمسك بذراع ابنتها:
-أنتِ خدتي مليون جنية؟!!
لمَ لم تفهم نظرات محمد حيناها وأن عليها أن تخبر أمها بدلا من هذا الموقف السخيف الذي وضعت نفسها وإياها به.
أجاب وافي عنها:
-مش مشكلة ...أكيد هي مش مضطرة تخاطر علشان حد ما تعرفوش.
عاد للوراء بخطوات ثابتة:
-أسف لازم اطلع ارتاح ..جاهين هيتابع موضوع نقلكم للبيت ..عن اذنكم.
التفت مبتعدًا تشيعه نظرات فاطمة الكسيرة ورمقات بسمة الغاضبة.

صعد الدرج فنادته بلوعة ألم تجتاح قلبها المريض:
-بسام.
التفت لها، فلم تضف شيئًا غير العبرات الهاطلة فأضاف هو:
-اسم بسام ده مش بيناديني بيه إلا الاغراب عني والقريبين بينادوني وافي .. لكن لو حابه تفضلي تقولي بسام ..براحتك.
تسرب الغضب إلى ملامحها الباكية لتقول بعند:
-بسام ده اسمك اللي اختارته مع أبوك.
هز كتفيه بلا رد ليكمل صعود الدرج .فأعادت نداءها لتوقفه ثانية وهذه المرة توقف دون النظر إليها لتقبض أصابعها تعتصر بهما لا شيء وتكتم نشيج بكاء يرجو التحرر من كبته:
-خالي بالك من نفسك ..احنا جايين قريب.
ورحمة بها لم تتسنى لها رؤية بسمته الساخرة وهو يرد:
-شكرًا على اهتمامك.
ليكمل بينه وبين نفسه"...المتأخر أوي"
اختفى من أمام الجمع الذي يراقب، لتضع فاطمة كفها على صدرها فالألم كالعادة اتخذ شكلًا عضويًا، لتفلت نشيجها المكتوم أخيرًا متمتمة:
-لازم أهتم ..أنت ابني.
كلمات لم يسمعها فأسرعت لها بسمة وقبل أن تلمسها قالت فاطمة بحزم:
-ابعدي عني!!
اتسعت عيني بسمة وهي تحدق في أمها بذهول .
ليتحرك من كان يتابع مع والدته المشهد بصمت يشوبه الحزن.
-أنتِ كويسة يا ابلة بطة.
نظرة واحدة لوجهها تمنحه الاجابة وهي ليست طيبة أبدًا، رفعت بصرها نحوه قائلة برجاء:
-رَوحني يا بني ربنا يباركلك.
أمسك ذراعها يدعم حركتها:

-حاضر ..زي ما تحبي.
تحركت معه للخارج تتابعهما ميادة بشفقة بينما تسمرت بسمة مكانها للحظات قبل أن تسير خلفها وقد أطرقت رأسها أرضًا.
لتعود السيارة في طريقها يغلفها نفس الصمت الذي حاول جاهين كسره هذه المرة بكلمات تشجيعية:
-وافي طيب أوي ...هو بس مصدوم ومحتاج شوية وقت وأكيد اجابات لكل سؤال ممكن يكون في باله ..تفسيراتك للي حصل زمان وأسبابه أكيد هتفرق معاه فمتسكتيش أبدًا.
لم تلقى كلماته أي رد، استمر صمتها وهي تطالع الطريق ودموعها لا تتوقف، فعاد لصمته ثانية.
وبين فينة وأخرى يسترق النظر لتلك القابعة في الخلف والتي تلبست كالعادة قناع الجمود ولكنه يثق أن بداخلها براكين ثائرة وستنفجر حين تختلي بأمها.
أوقف سيارته وقبل أن تغادرها فاطمة قال:
-انا هوضب الاستوديو اللي في الروف علشان البنات يقعدوا فيه ..كده هيكون ليهم مكانهم المنفصل وفي نفس الوقت قريبين منك جدًا.
نظرة واهنة منحتها له وأمنية قلب تبخرت في أن يتقبلها وليدها كما تقبلها هذا الشاب، لتبتسم له في حزن:
-تسلم يا بني من كل رضي.
غادرت السيارة تتبعها بسمه ليترجل هو أيضًا يتابعهما ببصره، ليلحظ ابتعاد فاطمة عن ابنتها ورفضها مساعدتها لتقف في مكانها وقد بدى الغضب على ملامحها وهي ترى ابتعاد أمها عنها لتلتفت له وعينيها تشع غضبًا وحقدًا.
لتقول بكلمات تقطر كرهًا:
-ماقدرتش تصبر على إنك تعرفه موضوع المليون جنية ...شاطر.
فتح فمه وقبل أن ينطق بحرف تركته مسرعة للداخل ليتمتم بينه وبين نفسه:
-مش أنا.

عاد ليجلس خلف مقوده محدقًا فيه شاردًا، الأمور تتعقد أكثر، تصور أن وافي سيتقبل الأمر بشكل أفضل وتصبح مواجهته مع عمته لصالح أمه، أما ما حدث جعل الأمر صعبًا، ولا يستطيع لوم وافي هو فقط بحاجه لبعض الوقت والأهم من ذلك أن يستمع لمبررات أمه، لا يجب أن يرتكن لصوت عمته فحسب .
ظل مكانه ولا يدري كم من الوقت مر .وأخيرًا أدار سيارته وفي نيته العودة للحديث إلى وافي وقبل أن تتحرك سيارته رأى من يندفع من البناية فانتبه لها، بسمة
كانت تبكي وتتحرك بسرعة، ترجل من السيارة ليتبعها حتى لحق بها، نادى عليها فلم ترد .. أمسك بذراعها:
-استني.
نزعت ذراعها من بين أصابعه بقوة زاعقة:
-ابعد عن وشي!!
لتسرع الخطى مبتعدة عنه، عقد حاجبيه ليتبعها باصرار ليمسك بها مرة أخرى:
-ارجعي البيت بلاش جنان ..أنتِ رايحه فين وأنتِ بتعيطي كده.
نزعت ذراعها مرة أخرى لتحدق به بغيظ وغضب:
-أنت مالك..مالكش دعوة بيا.
-لأ ليا ..أنا ابن عمك.
ضحكة ساخرة منحتها له بسخاء وهو تمسح عن وجهها آثار البكاء:
-أنت صدقت نفسك ...دي مجرد ألقاب مالهاش أي لازمة عندي لا أنت هتبقى ابن عمي ولا هو هيبقى أخويا وأخري معاكم حقي اللي هرجعه وسميحة اللي هدفعها التمن غالي.
عقد ذراعيه قائلًا بعند:
-واضح ان أنتِ اللي صدقتي نفسك سميحة دي تبقى عمتي وهي أهم حد في العيلة ..يعني ماحدش هيسمحلك تأذيها وأولهم وافي اللي بيعتبرها أمه .. فاهمة.!!
أيدافع عنها ...أحقًا يدافع عنها؟!!

أشتعلت داخلها المزيد من نيران الغضب حتى أن وجهها زاد احمراره كثيرًا، أرادت أن تسب وتلعن إلا أن كلمات نانا عادت تتردد في عقلها لتسكتها.
"جاهين وأخوكي لازم يكونوا في صفك لو عايزة تنتقمي صح منها"
أغلقت عينيها لتتنفس بعمق في محاولة للسيطرة على أعصابها قبل أن تنظر له بثبات:
-فاهمة يا ابن عمي.
تخطته لتعود أدراجها فتحرك خلفها قائلًا:
-رايحة فين؟!
أجابت دون النظر إليه:
-راجعة البيت مش ده اللي أنت عايزُه.
توقف ليتابع عودتها للبناية حتى اختفت داخلها، اتجه لسيارته وفي عقله دوامة جديدة من الأفكار، وأصبح على رأسها تلك الفتاة بلا منازع، هي تحمل حقد لا مثيل له لعمته وستحاول الانتقام منها بالفعل ولكن أي نوع من الانتقام وإلى أي مدى يمكنها أن تذهب.
وضع رأسه على مقود سيارته بعد أن دخلها، يشعر بآلام الرأس بالفعل، ويبدو أنها ستصاحبه لأيام وأيام ..فحل كل تلك المشاكل لن يكون هينًا أبدًا.
....
حدق سامر في الرجل الذي يقف أمامه ويسرد عليه ما وصل له من معلومات، عقد سامر حاجبيه:
-انت متأكد.
أومأ الرجل برأسه مؤكدًا:
-طبعا يا باشا ..أنا شغلي بعمله بنفسي الكلام ده سمعته من أهل الحارة بتاعتها.
-وكارت الفيزا ..بطلت تستخدمه.
-هي كانت بتسحب كل أول شهر بالظبط ..لكن الشهر ده ماسحبتش وهو نفسه الشهر اللي خرجت فيه من الحارة وده بيأكد المعلومة.

أطرق سامر رأسه والهم يثقل قلبه:

-طيب اتفضل أنت ..وخلاص وقف بحث حسابك هيوصلك كامل.

شكره الرجل ليغادر غرفة المكتب بينما ارتكن سامر برأسه على كفيه، وشعور مرير يتصاعد داخله، يذكره بأيام حزن فيها كما لم يحزن من قبل.

"الآنسة أحلام اتخطبت يا فندم"

يومها وكأن قلبه تلقى أقوى ضربة في حياته ولم تكن ضربة هينة بل طعنة نافذة استقرت بقلبه ولم تغادره قط ..حتى الأن.

فكيف سيكون حال أخيه؟!

زفر في حيرة:

-اعمل ايه يا رب ...أقوله ازاي؟.!

....

سارة سيف الدين

الفصل السادس عشر

ياباب أيا مقفول أمتى الدخول
صبرت ياما واللي يصبر ينول
دقيت سنين والرد يرجع لي :مين
لو كنت أعرف مين انا كنت أقول
عجبي!!
رباعيات جاهين

قرار خاطيء، ندم لا يجدي، اعتذار غير مقبول.
تعبيرات قصيرة دارت في رأسها وهي تتبع خطوات أمها إلى داخل الشقة وبرغم ترنحها لم تقوى على الاقتراب منها ومساعدتها فقد حاولت وتم رفضها.
كانت مها أول المستقبلين بحميمية شديدة وكأن فاطمة فارقتها لأيام وليس سويعات فحسب.
تسمرت فاطمة مكانها للحظات ولم تتجاوب مع مها وأسئلتها المتكررة للاطمئنان عليها، لتستدير مواجهة ابنتها:
-ايه بقى موضوع المليون جنية ده؟!
عقدت مها حاجبيها فهي أيضا لم تعلم بالقصة، بينما رمقتها نانا بتوجس، أما بسمة فكانت صامتة لم تقوى على التفسير، فأمها لن تقبل بأي كلمات، لقاءها بالابن الضال قد دُمر والآن ستحملها النتيجة.
-انطقي!!
صاحت بها رغم تعبها لتزم بسمة شفتيها قدر استطاعتها محاولة الكلام بشكل هاديء:
-كنت بضمن جزء من حقـ...
وطارت بقيت أحرف جملتها مع صفعة تلقاها خدها الأيمن، لتعيد لها ذكرى مشابهة وهي تتلقى تقريع جديد من أمها:

-فلووووس إيه اللي بتاخديها علشان أخوكي يعيش ..حرام عليكي ليه تأكديلهم كل حاجه نكرتها أنا ..أنا عمري ما طمعت في فلوس أنا ماتجوزتش أبوكي علشان الفلوس ...ولا قلتله يشتغل شغلة صعبه عليه عشان الفلوس ملعون أبو الفلوس اللي حرمتني من كل حاجه حتى ضنايا ...تيجي أنتِ في الاخر يا بنت بطني تأكديلهم كل اللي فكروه عني.
قطعت كلماتها بصوت نشيجها الباكي وهي تردد:
-حرام عليكي ...ابني راح مني تاني ..راح مني تاااني حسبي الله فيكوا كلكم.
أتدعوا عليها الآن، بعد كل ما حدث وما دفعت ثمنه ولا زالت، أصبحت هي الطرف المخطيء.
ارتعاش ملامح وجهها عبر عن الغضب الكبير الذي يتنامى داخلها والذي لم يحتمل المزيد ليطفو على سطح لسانها:
-هو أنتِ مش بتشطري غير عليا؟!!
حدقت بها أمها بذهول بينما تردد مها:
-ايه اللي بتقوليه ده يا بوسي؟!
لم تبالي بها لتكمل:
-القلم ده ماديتهوش لسميحة ليه لما خدته منك ولا مافوقتيش بيه ابنك ليه اللي قابلك بمنتهى البرود؟؟ ..ضرباتك اتكتبت على وشي أنا بس.
تجمدت العبرات في عينيها وهي تحدج ابنتها بالنظرات بينما اقتربت نانا من بسمة تجذبها:
-تعالي ..ادخلي جوه.
جذبت ذراعها بعنف لتبعدها:
-ابنك راح منك بسببك ..بسبب سلبيتك وضعفك مش بسببي أنا ولو راح منك تاني هيكون برضو بسببك ...ولو عايزة تخسرني أنا كمان ..كملي ..كملي يا أمي.
وضعت فاطمة كفها على صدرها فألامها تعود لها من جديد، بينما ابنتها تراقبها بجمود وغضب.

كلمتها ضربت صلب الحقيقة التي تغفل عنها كثيرًا .لكن هذا لا يعني أنها لم تخطيء حين تصرفت بتلك الطريقة دون الرجوع إليها، لم يكن من اللائق الحصول على مقابل مادي قبل أن تساعد أخاها.

أدارت ظهرها لها لتقول:

-وأنتِ عمرك ما هتعترفي بغلطك أبدًا.

مطت بسمة شفتيها قائلة بسخرية:

-أقلب الإقدرة على فُمها تطلع البت لامها.

صرخت مها:

-كفاية بقى يا بوسي.

رمقتها للحظات قبل أن تندفع للخارج

تلاحقها نداءات نانا التي لم تجبها على الاطلاق.

....

وقف وافي أمام صورة والده وامرأة أخرى لم تخبره عمته بعد ما علاقتها به لتلتقط معه مثل تلك الصورة.

رفع الاطار ليقربها له وغصة ما في حلقه تزيد مرارتها، وبريق العبرات يداعب عينيه على استحياء .لم يعد من حقه أن يتأمل ملامح تلك المرأة ولا أن يداعبها بأنامله كما اعتاد أن يفعل وهو يحدثها وكأنها أمه .لأنها لم تعد كذلك ..عاش سنوات مع وجه لا يمت له بأي صلة .

"حقك عليا "

ابتسامة ساخرة استقرت على شفتيه ليتمتم:

-على إيه ولا على إيه؟!!

لتتحول غصته إلى قبضة أطبقت بقوة على عنقه، رفع رأسه لأعلى وكأنه يجبر حنجرته على التنفس مع شعوره المتزايد بالاختناق.

ولم يتمكن من تحقيق ذلك إلا مع أول عبرة أطلقتها عينيه وكأن دموعه أصبحت رئتيه .ليفقد معها قدرته على التماسك لينهار نفسيًا وجسديًا وهو

يسقط أرضًا على ركبتيه وتحولت عبراته إلى بكاء يحمل صوت قهر ملأ جوارحه.
ظل يبكي ويبكي وهو في مكانه وقد تساقطت دموعه لتغرق ذلك الاطار حتى أصبحت ملامح أصحاب صورته غير واضحة.
لم يشعر بباب غرفته الذي فُتح وسميحة تسرع إليه تضمه إلى صدرها:
-وافي حبيبي ...مالك بس؟!
وكأنه كان بحاجة إليها فلقد التصق بها وهو يدفن رأسه بصدرها وازداد بكاءه، لتشاركه إياه هامسة:
-سامحني ...سامحني حبيبي ..لو عليا ماكنتش عرفتك حاجه أنت كنت بخير من غيرهم.
-ليه سابتني أعيش يتيم؟.!
عادت سميحة برأسها تضم وجهه بين كفيها لينظر لها:
-يتيم !!وجالك قلب تقولها ..أنا قصرت معاك في حاجه مش كنت بتقولي ماما ..حتى لما شوفت الصورة قلتلي انتِ ماما ..ليه بتقول كده؟!
لم يجد ما يجيبها به، هو شيء لن تفهمه، ربما لو لم تخبره أنها عمته وأنها أمه الحقيقية ما كان ليشعر بذلك، لكن شهادة ميلاده واختلاف اسم الأم كان كفيل بتفسير الأمور فلم تريده أن يعيش وهم، ومع معرفته بأن والديه توفيا لم يستطع أن يتخلص من لقب يتيم الذي دوما تردد على مسامعه ...واللقب وحده يكفي.
خفض بصره دون تعليق فقط عبراته لازالت تغادر عينيه لتعيد هز وجهه لينظر لها:
-أنت ابني ..أي حد يقول غير كده يبقى كداب أنا اللي ربيتك وكبرتك ..أنت مش يتيم فاهم ..مش يتيم.
-يتيم كلمة سمعتها كتير أووي ..كنت بعدها بجري عليكي وانده ماما بأعلى صوتي يمكن يبطلوا بس مبطلوش ..ازاي قدرت تعمل فيا كده ليه تحرمني منها ومن أخت شايفاني دلوقتي كيس فلوس وبس ..مارضيتش تساعدني إلا بعد ما

خدت التمن ومستنية زيادة ..حق أنا ماخدتوش وماعرفش عنه حاجه ..اديهم يا ماما ..اديهم كل حاجه أنا مش عايز الفلوس ومش عايزهم ...مش عايزهم.
اتسعت عينيها للحظة غير مصدقة أن أمنيتها تحققت أسرع مما تخيلت.
لولا هادم اللذات ومحطم الاماني ...جاهين ..الذي ظهر من وسط العدم صائحًا:
-إيه اللي بتقوله ده يا وافي؟!!
التفتت له سميحة وقد اعتراها الغضب بينما نظر له وافي وحاله يرثى له ليقترب جاهين منه:
-ايه يا وافي ..عامل كده ليه؟ ..!اصبر ماتحكمش دلوقتي اسمعها الأول.
لتزعق هي:
-اسكت يا جاهين أنت مالكش دعوة اتفضل من هنا.
حدجها بنظرة أجبرتها على السكوت، ستفضخ نفسها إذا استمرت ليقول هو:
-وافي أنت طول عمرك عاقل وعادل كمان ومن العدل إنك تسمعها ..حرام عليك تحكم عليها من غير ما تسمع ..أي متهم في الدنيا من حقه يدافع عن نفسه ودي مش أي متهم دي مامتك يا وافي.
ردد بعصبية واضحة:
-والدتي ممكن لكن مامتي دي لأ ..هي ولدتني بس ماعملتش أي حاجه تاني.
زفر جاهين وهو يحاول انتقاء كلماته بحرص:
-وعلمونا إن وبالوالدين احسانا مش اللي ربوا بس ..كمان اللي ولدتك لازم تحسن إليها.
صمت وافي وقد أطرق رأسه بينما سميحة تستشيط غضبًا ولم تتمكن من الصمت أكثر:
-اتفضل يا جاهين دلوقتي حالته النفسية سيئة مش حمل حكمك ومواعظك دي.
تجاهل كلماتها ليقول باصرار:
-وافي ..كلها كام يوم يدخلوا البيت هيبقى قدامك ميت فرصة تسمعها فيهم بلاش تضيعها في لحظة غضب.

صمت وافي دون رد، لتزعق به أخرى فترك الغرفة وهو يعلم أنه تمكن من اقناع وافي، فصمته يعني قبوله لتلك الكلمات وهو يعلم جيدًا معنى صمت وافي.

وضعت أناملها على وجنته تربت عليها برفق:
-ماتشغلش بالك بحاجه ..وزي ما قلتلك لو مش عايزهم مش هدخلهم.
انتظرت رده وطال صمته فظنت أنه يؤيد كلماتها لكنه أخيرًا فرج شفتيه قائلًا:
-لأ ..خليهم يجوا لو هي ماعرفتش تبرني وأنا صغير فأنا هبرها وأنا كبير.
صكت أسنانها وهي تحاول التماسك، الامور كانت تسير بشكل جيد قبل ظهورهذا الأخرق.
....
كظمأن يسير بخطى مترنحة على رمال صحراء قاحلة، لتلوح له من بعيد تلك البقعة المضيئة اللامعة التي تمنحه الامل بالنجاة، فيلهث خلفها وقد جف حلقه تمامًا، وكلما اقترب منها ابتعدت عنه ..لتبقى المسافة كما هي، ليكتشف أنها مجرد سراب.
سراب خادع، لكنه يُكذب الامر ويصر على ملاحقة سرابه.
ليبقى مجرد ساعي خلف سراب.
وهكذا أصبح حاله مع كلمات ذلك الرجل:
-أخر ما وصلتله شاب وصل لبيت بسمة وأمها، ومشوا معاه في عربية فخمة جداً..ومعاهم البنتين جيرانهم واختفوا وماحدش يعرف أي أخبار عنهم ..الكلام في الحارة أن الشاب ده عريس غني لبسمة وخد عيلتها وكل اللي يهمها ونقلهم لمنطقة راقية استعدادا للجواز.
كلمات انهالت على رأسه كمطارق صلده وعلى قلبه كحمم بركانية.
ليهز رأسه بانكار:
-مستحيل!!
قال الرجل مؤكداً بحسن نية:

-ده كلام الناس في الحارة، واعتقد ده التفسير الأكثر منطقية ..أكيد عريس و....
قاطعه صارخاً:
-اخرس أنت كدااااب.
اتسعت عينا الرجل بدهشة وعدم استيعاب، بماذا أخطأ؟!!
ليوقف سامر هجوم أخاه المحتمل:
-اهد يا معاذ ...هو مش من مصلحته يكدب..هو..
قطع حروف كلماته مع نظرة نارية تلقاها من أخيه وهو يرمقه بغضب بالغ ظهر مع حروف كلماته:
-أنت متفق معاه صح ...أنت بتعمل كده ليه ..ليه بتديني الأمل وترجع تسرقه مني ..ليـــــــه؟!
لينتقل غضبه لأخيه الذي وجه حديثه للرجل:
-شكرًا ..تقدر تتفضل.
لم يكن في مقدوره نطق تلك الكلمات فأحضر الرجل ليرددها بدلًا منه وعليه الآن الاستعداد لعاصفة إنكار عاتية سيطلقها معاذ نحوه.
خرج الرجل ليلتفت سامر لأخيه الذي بدأ جسده ينتفض فعليًا ودماء جسده وكأنها تغلي حتى أن عيناه تلقت الكثير منها وزاد إحمرارها:
-مستحيل ...بسمة لا يمكن تعمل فيا كده ...كدابين ...كدابيـــن.
رددها بهيستريا ليقترب سامر منه ويمسك بذراعه يديره نحوه:
-ماكفاية بقى أنت عايز إيه تاني ..أهي كملت حياتها وأنت اللي واقف مكانك زي الطفل اللي تاه من أمه ..فوووق يا معاذ.
الطفل ..أمه.
صدق أخوه، هو بالفعل يشعر وكأنه فقد أمه، حبيبته، صديقته، فبسمة كانت عائلته الوحيدة لوقتٍ طويل كيف يعي الآن أنه فقدها، لا لم يفقدها بل هي استبدلته بأخر ..بسمة اختارت رجل أخر.
بهذه البساطة.!!

لم يشعر بنفسه وهو يدفع أخاه جانباً ليردد كلمته الوحيدة:
-مستحيل.
كاد سامر يسقط من دفعة أخيه ليتبعه مناديًا ولا مجيب، ظل يعدو كالمجنون وسامر خلفه بمثابرة.
توقف فجأة محدقًا بتلك البقعة التي شهدت أفضل لحظات حياته فقط لأنها كانت بصحبتها، ليهز رأسه بعنف ويعاود العدو خارجًا من حديقة قصره .
قفز معاذ إلى سيارته وقبل أن ينطلق بها كان سامر يجلس بجواره محاولًا منعه من القيادة:
-ماتسوقش وأنت كده!!
لم يهتم كان أشعل محركها بالفعل وانطلق بها بسرعة جنونية، فعقله الآن في حالة غير مسبوقة، لن يصدق كلمة مما سمعها وسيثبت لنفسه قبلهم أن تلك الأخبار حتمًا كاذبة، سيذهب إلى تلك الحارة ..سيسأل عنها الجميع ..سيصل لها حتى لو كان أخر ما قد يفعله في حياته، لن يصدق حتى لو قالتها هي له، سيكذبها هي أيضًا.
بسمة لا يمكن أن تتركه أو تستبدله.

سامر يصيح به أن يتوقف، وقبل أن يعي أيًا منهما ما حدث لمح شبح يعدو أمامهما ليصرخ مديرًا مقود السيارة، لكن هذا لم يمنع السيارة من الارتطام بهذا الشبح وتلقيه بعيدًا لتصطدم السيارة بشجره جانبية سببت في ارتطام رأس سامر بالزجاج الأمامي بعنف مهشمًا إياه لينال جرح نازف بالجبهة، بينما ارتطم معاذ بالوسادة الهوائية ليرتد لكرسيه بلا إصابات.
وبرغم الدماء الساخنة التي غطت عينيه نظر لأخيه ليطمئن أنه بخير، وكان كذلك .تحرك بصعوبة يخرج من السيارة وقلبه يكاد يتوقف رعبًا، باحثًا بعينيه عن ماهية الشيء الذي صدمته السيارة لتصل إلى أذنيه صرخات مرتاعة وتأنيب واتهامات لأصحاب السيارات الفارهة والذين يتعاملون من البسطاء في الشارع وكأنهم حيوانات ضالة لا ثمن لهم.

ولكن ما جعل قلبه يرتعد حقًا هو جسد صغير استقر على الأرض بل بين ذراعي رجل عجوز وهو يبكي بارتياع:

-بنتي ...حرام عليكم.

لقد صدم أخوه طفلة!!

ولم يحتمل رأسه الضغط أكثر وكان أخر ما سمعه قبل السقوط في هوة الظلام.

"ده بينزف"!!

الآلام تداهم رأسه بعنف، باعد بين جفنيه بصعوبة، سقف وجدران بيضاء،

أين هو؟!

تسائل، أخر ما يذكر.

معاذ ...سيارة ..حادث ...طفلة.

انتفض في فراشه ليزداد ألم رأسه فيجبره على العودة مستكينًا بينما تقترب منه إحداهن:

-حمدلله على السلامة.

تأمل ملامح شابة بدت صغيرة، ترتدي زي الممرضات، عدلت من محقن محلول كاد أن ينخلع من كفه، فأمسك بذراعها لتحدق به مندهشة:

-معاذ فين؟!

هزت رأسها بجهل واضح:

-معاذ مين؟ ..!انت جاي في حادثة عربية مع بنت صغيرة.

قال بوهن:

-صاحب العربية اللي عملت الحادثة؟!

-أه ..سمعت إن اللي عمل الحادثة خدوه القسم.

انتفض معتدلاً:

-القسم!!

تأوة وهو يمسك برأسه فأمسكت الممرضة بكتفيه تعيده لفراشه:

-ماينفعش تتحرك كده ..أنت عندك شبة ارتجاج ..والحمدلله مافيش أي شروخ في الجمجمة.
ابعد يديها عنه مردداً:
-تليفوني...عايز تليفوني.
-حضرتك مش معاك تليفون.
صك أسنانه بغضب، بالفعل هاتفه لم يكن معه حين هرع خلف معاذ، عليه الاتصال بأحد ...أي أحد ...المحامي، كيف سيصل له الآن، عليه أن ينهض ويذهب لمعاذ.
تنفس بهدوء لينظم أفكاره:
-البنت الصغيرة ..جرالها حاجه؟!!
سأل باهتمام فأجابت:
-الحمدلله البنت كويسة ...عندها كسر في ضلع والوقعة عملتها كدمات وخدوش .غير كده هي كويسة.
زفر براحة، على الاقل لن يواجه أخيه تهمة قتل خطأ، اعتدل جالسًا متحاملًا على آلمه لتقول الممرضة:
-هو حضرتك مُصر تقوم ليه؟!
كان لا يزال بملابسه الملطخة بالدماء، دس يده في جيبه وأخرج بضع وريقات نقدية لم يحصِها ومد يده لها:
-خدي دول ..وهاتي موبايلك أعمل منه مكالمة.
برقت عينا الفتاة لتأخذ المال:
-شكرا يا فندم ولو أنه مش ضروري ... اتفضل الموبيل.
التقط هاتفها ليضرب أزراره بتركيز قدر استطاعته:
-انا سامر الهيثم ...وصلني بالاستاذ نظمي حالًا.
مرت ثواني قبل أن يسمع الرد:
-ايوة استاذ نظمي ...اسمعني كويس ..معاذ خبط بنت صغيرة بالعربية وهو في القسم روحلوه بسرعة لحد ما اجي ...أنا كنت معاه واتخبطت في ازاز العربية

وأنا في المستشفى بس هجلكم ...سيب كل اللي في ايدك وروح فورًا ..أيوة منطقتنا.
أنزل ساقيه عن الفراش وهو يعيد للممرضة هاتفها فأعادته لجيبها قائلة:
-حضرتك صعب تخرج دلوقتي المفروض تفضل تحت الملاحظة 24 ساعة.
لم يهتم لكلماتها:
-هي فين البنت الصغيرة؟!
-أخر الممر.
-مين معاها؟!
-راجل كبير أعتقد أبوها وأنسة تقريبًا أختها.
حاول النهوض معتمدًا على نفسه لتقترب منه لمساعدته فرفض بلطف قائلًا:
-انا كويس ..ممكن توديني ليهم.
قادته في الممر حتى غرفة الطفلة، سار خلفها مستندًا على الحائط ليصل إلى الباب الذي طرقه برفق حتى سمع الإذن بالدخول، ليدلف إليها تتلقاه العيون المتسائلة قبل أن ينتبه له الرجل المسن قائلًا:
-مش أنت اللي كنت في العربية؟!
أومأ سامر برأسه:
-حمدلله على سلامة البنت.
لاحت منه التفاته لشابة تجلس بجوار الطفلة وقد وضعت كفها على رأس الصغيرة تمسدها وهي تراقبه بشك ليجيب الرجل:
-الله يسلمك ..وحمدلله على سلامتك ..اللي عملها طلع منها سليم.
كلماته حملت غضب وحنق فاستشعر سامر الحرج لكنه قرر أن يتكلم بصدق:
-اللي عملها مش شخص مستهتر أو مش بيهمه أرواح الناس هو ماكنش يقصد وماكنش في حالته الطبيعية.
هبت الشابة من مكانها لتزعق:
-كماان ..طبعا تلاقيه كان سكران ولامبرشم.

عقد حاجبيه ليعيد التحقق من تلك الفتاة، كانت تبدو في العقد العشرين من عمرها، ذات ملامح مصرية هادئة، بشرة خمرية، عينان بنيتان، شعر أسود بدى بوضوح تحت وشاح ألقته باهمال على رأسها مع عباءة سوداء متواضعة لكن ملائمة لها.

-بس يا زينة براحة يا بنتي وهو ذنبه إيه؟!!

مطت شفتيها على مضض ليقول سامر:

-هو ماكانش شارب ولا حاجه ..هو بس يعني مر بظروف صعبة ..أكيد أي حاجه هقولها مش هتعتبر اعتذار مناسب أنا مش عايزكم تشيلوا أي هم ..علاج البنت تكاليفه كلها علينا.

ضاقت عينا الفتاة وهي ترمقه بحذر قائلة:

-عليكم ...أنت هتدفع علشان صاحبك.

-ده مش صاحبي ..ده أخويا الصغير.

-أخوووك.

صاحت بها بينما ارتسم الغضب على ملامح المسن ليقول:

-امشي من هنا يابني وسيبنا في حالنا.

رفع يده مهدئًا:

-طب بس اسمعوني ...والله احنا مش مستهترين ولا مش فارق معانا أرواح الناس دي حادثة زي ماحوادث كتير بتحصل ..وأخويا ماكنش شارب حاجه وزي ما قلتلكم تكاليف العلاج كلها على حسابنا أنا بس ليا رجاء ..أخويا لسه بيبتدي حياته أكيد مايرضكوش يتحكم عليه بحاجه هو ماكنش يقصدها.

لتقاطعه ثانية مما أثار حنقه عليها وهي تصيح:

-أيوووة ...أظهر وبان ..عايزنا نتنازل عن المحضر علشان الدلوعه بتاعكم .. مش هيحصل أبدًا لازم يكون عبرة لكل اللي زيه.

ليس من حقه أن يغضب هو الطرف الأضعف لكنه قرر أن ينبته للرجل المسن فهو أقل حدة عن تلك المخلوقة:

-أنا حاولت اتفادى الحادثة وده السبب في الجرح اللي في راسي ..والبنت الحمدلله سليمة وعلاجها علينا ولو أي ترضية تانيه أحنا ماعندناش مانع.
لم تتمالك الفتاة نفسها فاندفعت نحوه:
-هو أنتوا ايه؟ ..عايز تشترينا بفلوسكم احنا صحيح فقرا بس عندنا كرامه ومافيش حاجه في الدنيا تعوض وجع واحد اتوجعته أختي انت فاااهم؟!!
اقترب الرجل منهما ليجذب ابنته من ذراعها:
-اسكتي يا زينة ...اسمع يا بني احنا مش بنقبل عوض وبنتي الحمدلله بخير ادفعوا تكاليف المستشفى ومش عايزين منكم حاجه تاني.
-بابا.
صرخت بها ليكمل:
-معلش بنتي من النوع العصبي شوية ..زي أخوك تقريبًا وماحبش حد يئذيها يوم ما تغلط من غير قصد ..أنا هاجي معاك القسم ونعمل صلح ..كفاية عندي أن بنتي طلعت بخير.
ارتسم الارتياح على وجه سامر وهو ينظر للرجل بامتنان:
-شكرا.
-بابا ..الناس دي ماينفعش معاها كده ...لازم يتعلموا ..لازم يتعقبوا.
التفت لها قائلًا بلهجة يشوبها الكثير من الحزن:
-مش هما دول اللي أذوا أخوكي علشان نعاقبهم.
كلمات قليلة كان لها عظيم الاثر على ملامحها الشرسة الغاضبة لتتحول إلى ملامح وديعة وحزينة وتتألق عيناها بالعبرات قبل أن تدير وجهها عنهما لتعود تضم أختها إلى صدرها برفق.
ظل مكانه يراقبها بفضول تحول لدهشة مع دمعات فرت من عينيها بصمت ليربت الرجل على كتفه:
-يالا يا بني.
انتبه له ليتبعه إلى الخارج ولم يقاوم القاء نظرة أخرى على تلك الباكية بصمت.

....

عدم جديد ...فراغ لا نهائي وهذه المرة ربما إلى الأبد.
لم يعي الكثير مما يدور حوله، أناس ما قادوه إلى هنا ليحدثه أخرين وهو لا يجيب، قرر أن يكون الصمت هو الصوت الوحيد له.
فما الداعي للكلمات ...بل ربما للحياة؟!
الأمل الوحيد في حياته صار سرابًا، بل أشد آلمًا صار حقيقة لرجل أخر.
انقباض قلبه المتتالي صار مؤلم كلما ردد عقله تلك الكلمة، رجل أخر.
لتتولى الكثير من الصور عليه.
بسمتها حين الخجل ..سيراها أخر.
عينيها حين تبرقان ..سيتعلق بهما أخر.
ثغرها الوردي ..فاكهته المحرمة ..أصبحت بالفعل لأخر.
و ...و...و.....
هي كانت تعني له كل شيء وهذا الكل لم يعد يخصه في شيء.
وضع يده على صدره وكأنه ينشد هواء لرئتيه الضائقتين، ومع تكرار محاولته اقترب منه أحدهم:
-أنت كويس مش هتتصل بحد.
لم يرفع عينيه لمحدثه وكان الضابط المسئول في القسم فاعتدل يرمقه بصمت، ليقترب منه أحد العساكر:
-وده هنعمل في ايه ده ...باين عليه مش طبيعي؟!!
هذا ما ظنه الجميع في هذا الصامت، فكل حديث معه يغدو هباءًا، ولا يملك أي أوراق ثبوتية، فكيف سيتم انهاء تسجيل تلك الواقعة.
زفر قائلًا:
-مافيش حل غير الفيش والتشبية علشان نعرف ده مين؟!
-شكله ابن ناس يا فندم ..احنا ممكن نتصل بالمستشفى ..كان معاه راجل تاني وراح المستشفى اللي فيها البنت.

-طب كويس ...اتصل بيهم.
وقبل أن ينفذ الأمر، انضم لهما عسكري أخر قائلًا:
-عادل باشا ..في محامي بيقول أنه تبع الأخ ده.
-طب هاته خلينا نعرف نخلص من المحضر المقرف ده.
انضم لهم السيد نظمي بكلمات تقديمية موجزة أخبرهم عن حقيقة هذا الشاب وأي أسرة ينتمي لها، استمع له الضابط بهدوء إلى أن قال:
-الاجراءات هتمشي عادي ..أبو البنت قدم محضر فيه بسبب الحادثة وهيتعرض على النيابة.
اجاب نظمي برسمية:
-يا حضرت الظابط البنت كويسة ولو قدرنا نتصالح مع أهلها يبقى مافيش داعي لموضوع النيابة ده.
صمت الضابط مفكرًا ليقول:
-خلاص قدامكم لحد بكرة لو ماتصلحتوش هحوله للنيابة.
ولم يحتاج أحدهم أي من كل هذا الوقت فلقد انضم لهم سامر مع والد الفتاة وتم انهاء محضر الواقعة بالتنازل برغم صمت معاذ الذي استمر في ادهاش الجميع فيما عدا سامر الذي تملكه الكثير من الغضب.
أمسك سامر بذراع أخيه يجره حرفيًا ليخطو معه للخارج يتقدمهما المحامي ووالد الطفلة التي علم سامر أن اسمه عبد الحكم.
ليصافحه سامر بامتنان:
-شكرا استاذ عبد الحكم.
رد الرجل بلين:
-استاذ ..الله يكرمك ..قولي حج عبده مع اني لسه مازورتش البيت الحرام.
ربت سامر على كتفه:
-هتزوره إن شاء الله يا حج عبده.
-يسمع منك ربنا.

-أنا أسف مرة تانيه ..بكره هاجي اطمن على البنت واشوف لو محتاجين حاجه.
-كتر خيرك ..مافيش داعي ..سلام عليكم.
أوقفه سامر ليشير إلى المحامي:
-استنى علشان تاخد تاكسي.
ربت عبد الحكم على كتفه:
-هتصرف يا بني ..روح أنت الدم على لبسك شكله مؤذي.
ابتعد عنهما ليقول سامر:
-راجل طيب.
التفت لنظمي مضيفًا:
-عربيتك معاك.
أومأ نظمي له ايجابًا:
-طب ودينا البيت.
....
حاله من الصمت والضيق تجتاح كل ركن بالشقة، فاطمة اعتزلت الجميع تقريبًا، وبسمة تتحدث باقتضاب ونانا ومها في حيرة من أمرهما، هما جزء من تلك العائلة لكن ما طرأ الآن يجعلهما يشعران بالكثير من الاختلاف.
وبينما تجلسان في غرفتهما المشتركة قالت مها:
-أنا مش مرتاحة لحكاية قعدنا معاهم في الفيلا ..هيكون عايش معانا شابين مش من المحارم ..كده غلط.
لوحت نانا بكفها بنزق:
-يا شيخة اتلهي ...هما يعني الشابين دول هيبوصلنا ..طب يارييييبت.
-استغفرك واتوب إليك يا رب ..قولي حاجه عدله.
اعتدلت في جلستها قائلة:
-ماتقلقيش يا ختي ...دول هيرمونا فوق السطوح ..اللي بيدلعوه ويقولوه رووووف.

سألت باهتمام:
-ازاي يعني؟!
-جاهين قال أنهم هيوضبوا شقة صغيرة فوق ..هيكون فيها حمام ومطبخ وأوضة نوم ..علشان نكون مستقلين عنهم وكمان في سلم خارجي يعني مش هنضطر نعدي على الفيلا لما نخرج أو ندخل.
لتزفر بضيق واضح مضيفة:
-اوووف ...خسارة كان نفسي اعيش جوه الفيلا نفسها.
ابتسمت مها بارتياح:
-يعني مش هيشوفونا وهنبقى براحتنا.
-أكيد ..هو ايه اللي هيطلعهم السطوح ..بسمة وأبلة بطه بس اللي هيعبرونا.
-الحمدلله.
رددتها بسعادة لترمقها أختها بغيظ، وبعد لحظات انضمت لهما بسمة قائلة:
-جاهين اتصل ...بكره الصبح هننقل للفيلا.
هبت نانا من مكانها:
-بجد ..خلاص.
شعرت مها بالدهشة من حماسة نانا التي استشعرتها في صوتها لتقول:
-ما أنتِ كنتي مضيقة دلوقتي من السطوح.
-اسكتي أنتِ ... ولا ميت سطوح هيمنعني اعمل اللي انا عايزاه.
رددت بسمة بدهشة:
-انتو بتقولوا ايه؟!
-سيبك منها ..المهم نلم حاجتنا يعني.
-أيوه هو هيجي ياخدنا الصبح.
صفقت في جزل لتهز مها رأسها بحيرة من تلك الشقيقة التي لم تعد تجيد فك طلاسم عقلها.
....

اعتادت عيناها البكاء، وخديها زخات الدموع، وقلبها الأنين.
منذ أن عرف قلبها الحب لأول مرة تصورت أن السعادة ستغمر حياتها للأبد، وكان ظنها صحيح حتى بعد أن فارق وافي عائلته واختار أن يبقى معها، لكن ما أن رحل رحلت السعادة معه ويبدو أنها ستظل راحلة، وخاب ظنها في أن عودتها ارتهنت بعودة بسام، بسام عاد لكن لازالت السعادة غائبة.
بل هو لم يعد بعد، لايزال بعيدًا ..كطيف مر بخيالها للحظة واختفى في اللحظة الأخرى.
فمن ضمته بذراعيها ليس الوليد الذي أرضعته يومًا، ليس هذا الجسم المتصلب في حضنها الدافيء.
تصورت أن حرارة شوقها ولوعة قلبها ستصله ليقابلها بالمثل ولو قليل.
لكن؟!
لاشيء ..لا شيء على الاطلاق.
عبراتها لم تهز له جفن وكأنها دموع تماسيح بالنسبة له.
ولمَ لا؟ ..!هي ربما أسوأ من هذا بكثير فسميحة لن تخبره الحقيقة وابنتها قتلت ما تبقى من أوهام الحقيقة.
فلم يبقى أمام ولدها إلا أم لا تستحق لقبها وأخت ساعية خلف المال.
بسام لن يعود ..ولن يقبل بعودتهما.
سميحة فازت ومن أول جولة، دون أن تجد الوقت حتى للدفاع عن نفسها.
ابنتها قطعت أخر خيط يمكن أن تتمسك به لتعيد طفلها لحضنها.
زفره حارقة غادرت صدرها، وهي تضرب بكفها فخذها مرة بعد مرة.
العجز ..شعور لا يحتمل.
فإلى متى ستبقى عاجزة عن استرداد حقها في ابنها.
إلى متى؟!!

طرقات على بابها أخرجتها من أفكارها الحزينة لتزيد بمجرد وقوع بصرها عليها، لترمقها بسمة للحظات قبل أن تدير وجهها بعيدًا قائلة:

-جاهين اتصل بكرة هيجي ياخدنا علشان ننقل للفيلا.
عقدت فاطمة حاجبيه وهي ترمق ابنتها بضيق لتقول بصرامة:
-مش هنروح.
اتسعت عينا بسمة وهي ترمق أمها بدهشة يتبعها قلق، هامسة:
-ايه ..قلتي ايه ...مش هنروح ازاي يعني؟!
اكتفت فاطمة بالصمت لتقترب بسمة متلبسة رداء الغضب كالعادة:
-مش هنورح فين؟.!
اجابتها بصوت حمل حزنًا:
-عنده ..مش هروح وهو شايفينا طماعين فلوس وبس ...مش هروح علشان قلبي يتوجع بدل المرة ألف كل ما أشوف في عينه نظرة كره أو لما اسمع منه كلمة ماما لحد غيري.
كلمات لم تصدق أنها تصل لأذنيها، لا يمكن أن تعني أمها ما فهمت.
أتريد أن تنهي كل شيء في لحظة؟!!
ومن سيسمح بهذا؟!!
وضعت كفاها على الفراش:
-وحقي وحقك ..الحياة اللي كان لازم نعيشها من زمان.
-أنا عايزة ابني وبس.
وعادت حالة الصراخ التي هرع بسببها مها ونانا لغرفة فاطمة:
-تاااني ..عايزة تضيعي حقي تاني بسببه أنا خلاص كبرت ..مش لسه في اللفة وبرضع علشان تاخدي قرارت تمس حياتي ..أنا مش هقعد هنا أنا هروحلهم هرجع حقي اللي خدوه سنين ..وابنك ده مش فارق معايا في حاجه واللي بتعمليه ده أصلا مش هيرجعهولك ...ماما ..مرة واحده في حياتك خدي حقك ولو بالعافية.
تدخلت مها:
-في ايه يا بوسي ..بقيتي بتزعقي كتير أوي دي امك.
-اسكتي أنتِ.

قالتها بنزق لتردف:
-ماما اعملي اللي أنتِ عايزاه ..وأنا كمان هعمل اللي أنا عايزاه.
لتغادر غرفة أمها تاركة لها دموعها التي ذرفتها هذه المرة في صدر مها التي احتضنتها مواسية.
بينما أسرعت نانا خلف بسمة لتسألها:
-هو في ايه؟!
-قال ايه مش هتروح الفيلا علشان المحروس اللي قابلها وحش.
-نعمم ...مش هتروح ازاااي ...يعني يا ربي مافيش فرحة ليا بتكمل أبدا وأنتِ هتعملي ايه؟.!
-هروح طبعا ..وخليكوا أنتوا معاها هنا وأكيد جاهين ده هيخليها تغير رأيها.
زفرت في ضيق وغضب فهي لا تملك حق الاعتراض.
بل لا تملك أي حق على الاطلاق.

الفصل السابع عشر

يا ميت ندامة ع القلوب الخلا
لا محبة فيها ولا كراهه ولا
حتى يا قلبي الحزن ما عادش فيك
معلهش ...لك يوم برضه راح تتملا
عجبي!!
رباعيات جاهين

حتى لو كان الاستسلام هو الخيار الوحيد فهو لن يقبل به، سيعثر عليها رغم أنف الجميع، سيصل لها لتجيب على كل أسئلته وأولها.
"ليه بعدتي عني يا بوسي؟"!!
لماذا؟!
لماذا؟!
لطالما سأله لنفسه ولم يجد اجابة، هاتفه الذي صمت للأبد، رحيلها وأمها بعد سفره بأيام دون أن تخبره بهذا.!!
وكأن كل شيء مخطط.
اتسعت عيناه يحدق بالسقف..
مخطط!!
مستحيل، هي لن تخطط للابتعاد عنه، هو لم يخطيء لتهرب منه.
اعتدل جالسًا وهو ينفث نارًا، نارًا لا يقوى على إطفاءها أو حتى تهدئتها.
عقد حاجبيه وقد عقد عزمه سيحصل على العنوان ويذهب لتقفي أثرها ولن يهدأ له بال حتى يجدها، وإما أن تكون في انتظاره كما يظن أو تكون أصبحت لأخر؟ ..!!وحينها سيقتلها ويقتل نفسه.!!
طرقات على بابه جعلته يصرخ:
-مش عايز اشوف حد.

اندفع سامر للغرفة يرمقه بضيق.
-نعم ..عايز ايه؟!
قالها معاذ بغضب.
-قوم معايا نروح نزور البنت اللي ضربتها بعربيتك.
أشاح بوجهه بعيدًا:
-مش رايح في حته.
-يابني دول اتنازلوا عن المحضر رغم إن بنتهم هترقد في المستشفى أيام ، أقل حاجه تعملها تروح تزورها وتعتذرلهم.
صرخ بنفاذ صبر:
-قلتلك مش رايح في حته وسبني في حالي بقى.
ضرب سامر كف لكف:
-خليك ..أقعد عيط زي البنات.
ليغادر الغرفة قبل أن يتصرف بما لا يليق،هو يحمل هم وحزن على حالة شقيقه، لكنه يعتمد على مفهوم أن الحزن في بدايته قويًا، ويرجو أن يخبو سريعًا.
-سامر.
أوقفه نداءها فالتفت لها فأشارت لرأسه المضمدة:
-ايه ده؟!
ابتسم بسخرية ليجيب:
-ماتشغليش بالك يا سما هانم ..عن اذنك.
-استنى عندك.
نفذ طلبها لكنه لم يستدير بل أولاها ظهره لتقترب قائلة:
-كلمني كويس ...أنت اتعورت كده فين؟!!
-حادثة.
-ايـــه؟.!!
صاحت بها لتهرع وتقف أمامه:

-حادثة ..ازاي يعني؟!
احتفظ بالقناع الجامد الذي يجيد ارتداءه في حالة وجودها:
-حادثة عربية ..جات سليمة ..أي سؤال تاني؟!
ضمت قبضتيها لتعيد فتحها سريعًا بعد أن أوجعتها أظافرها وهي تُغرز في لحم كفيها، رمقها للحظات وقد علم أنه نالها الكثير من الغضب، تحرك ليتخطاها وقبل أن يهبط الدرج نادته:
-سامر ..أنت هتفضل تعاملني كده لحد امتى؟!
وصل لها صوته باردًا:
-قالها لك قبل كده ومافرقش معاكي.
عقدت حاجبيها غير مستوعبة حديثه:
-هو مين ده؟!!
التفت ليرمقها بنظرة حملت الكثير من حنقه والقليل من لامبالاته:
-بابا.
تصلبت مكانها للحظة، لأول مرة يحدثها عن أبيه وعلاقتها به، وسرعان ما عادت لغضبها وهي ترمق رحيله الصامت.
أيبحث عن أي طريقة لإثارة حنقها فحسب؟!
زفرت في ضيق لتتجه إلى غرفة معاذ، رفعت قبضتها لتطرق بابه لكنها تراجعت وهي تلوح بكفها، الأخرق الكبير أثار ضيقها وليست على استعداد لما قد يثيره الصغير.
كلا الشابين غير مطيعين لها على الاطلاق، هي تعلم أنها تحمل الكثير من الذنب في هذا، تركت تربيتهما لزوجها الضعيف وللمربيات وحسب، فأصبحا بهذا الشكل المتخاذل.
رمقت باب الغرفة للحظات، ستأجل الحديث معه، بل ستحدثه عنها بعد أن تحضرها فيعلم أنه لا تراجع فيه.
غادرت القصر لتركب سيارتها بعد أن فتح لها سائقها بابها، جلست باريحية لينطلق بها إلى مقر شركتها.

أمسكت هاتفها تجري اتصالًا:
-الو ...هاي حبيبتي ..عاملة أيه؟!
-..........
-احنا كويسين أوي ..اسمعي بقى نرمين مش خلصت إبعتيها تقعد معانا شوية.
-.....................
-تؤ ..تؤ ...زعلتيني ..لا يمكن حد يمس كرامة نرمين أبدا ..واللي في دماغنا هيحصل يعني هيحصل ..سيبي ترتيب الموضوع عليا أنا ...معاذ لو لف الدنيا مش هيلاقي في رقة وجمال نيري.
- ....
عقدت حاجبيها تستمع بحرص لكلمات صديقتها ووالدة نرمين:
-نرمين اللي قلتلك الكلام ده ..معاذ قالها انتِ زي أختي ..امممممم ...معاذ ده خايب أصلا ماتخديش على كلامه ..معاذ لنرمين ونرمين لمعاذ ..أنا عارفه أنا بقول إيه ..لو عصلجت معاكي هكلمها أنا.
بسمة نصر استقرت على شفتيها بعد أن سمعت كلمات التأييد التي ترغبها، لتنهي الاتصال على موعد أكيد بانضمام نرمين لعائلتها الصغيرة في أجازة المفترض أن تنتهي بعقد قرانها على معاذ.
....

أن تتبدل كل المعاني في رأسك بغير إرادة منك، أن تتحول مشاعر الحب التي جُبل عليها الكل إلى مشاعر كره لا يحملها أحد سواك، أن يصبح نبع الحنان سيل للقسوة، أن تموت الأمومة في قلب أم على قيد الحياة ..
كل هذا تفسير منطقي لكونك ابن" سما ماهر."
كم تثير في نفسه الغضب والحنق الشديدين، قاد سيارته وهو يمسك بمقودها كمن يمسك بطوق نجاة للفرار من صحبتها.

أحيانا لا يصدق أنه أحبها كأم في وقت رأى فيها مدى تحجر قلبها وموت مشاعر الأنثى داخلها، لكن صغر سنه لم يمكنه من استيعاب تلك الأمور، عقله الصغير كان يفسر الأمر بأنه شأن الكبار وهو لن يعيه يومًا.
لكن ما لم ينسَه في صغره هو نظرة أبيه الحزينة لردود أفعالها المقيتة.
زفر بحرارة وافقت ذكرى خالطت عقله الطفولي حين كان في الحادية عشر من عمره بينما معاذ كان رضيعًا.
صوت أبيه يتسلل له بسعادة رجل محب لزوجته:
"تفتكر ماما هتتنبسط بالمفاجأة دي؟"!
ايماءة طفولية لتدعيم سعادة والده وتشجيعه، ليهمهم والده للحظات:
"يمكن تضايق علشان ماحضرتش الحفلة معاها وهتيجي متعصبه بس طبعا لما تعرف اني عملت كده مخصوص علشان احتفل معاها بعيد جوازنا هتفرح ... صح يا سامر؟"!!
وإيماءة أخرى وتأكيد جديد لكنه لسبب ما لم يقنع والده، يرى في عينيه الكثير من التردد.
ووصلت أمه وانتظر سماع صيحات الإعجاب والدهشة وحضن عائلي بينه وبين والديه قلما يحدث، ولكن بدلًا من هذا ودون أن يفهم السبب كانت تصرخ غضبًا وهي تلوم وتزجر أباه الذي وقف صامتًا ينظر لها فحسب، وكل ما يذكره ووصل لعقله الصغير، أن الامر يتعلق بعلاقة عمل كان يجب أن يوطدها أبوه بحضوره معها لكن غيابه أفسد الأمر، والجملة الوحيدة التي يذكرها:
"عيد جواز ايه اللي أنت عاملهولي ...بدل ما تيجي معايا وتقف جنبي ماتبطل حركات المراهقين دي بقى وركز معايا في الشغل شوية"
لتتركه مبتعدة وجملة أخرى وصلت لاذنيه.
"نام في أي أوضة تانيه"
جلس أبوه على أقرب مقعد وقد وضع رأسه بين كفيه ليقترب هو منه ويمسك ذراعه قائلا:
-تنام معايا يا بابا.

رفع أبوه عينيه له، وبرغم كم الحزن الذي رآه فيهما لكن ابتسامة حقيقية ارتسمت على شفتي أبيه وهو يضمه لصدره:
-وهحكيلك حدوتة قبل النوم.

رمش بجفنيه عدة مرات يقاوم تلك العبرات التي تتدافع لتغادر عينيه، أجبر على أن يصف السيارة جانبًا، حرر عنقه من ربطتها التي شعر بها تخنقه، يمكنه الآن الاحساس بمشاعر أبيه حينها، بل وكل حين، سما لم تحب أحد إلا نفسها وكانت دومًا مصدر لحزنه، حتى بعد مرضه المبكر الذي حرمه إياه سريعًا، لم تكن بجواره ولم تبكِ عليه مطلقًا.
ليهمس بأحرف تقطر حزنًا:
-يا ريتك ما تجوزتها.
فرك وجهه بعصبية قبل أن يدير محرك سيارته ليكمل طريقه إلى وجهته، وصل إلى المشفى التي ترقد فيها الفتاة، اتخذ طريقه لغرفتها بخطوات بطيئة ونفسٍ معكرة.
أكان يجب أن يلتقي بها صباحًا لتعكر له يومه؟!!
وقف مكانه للحظة قبل أن يقترب منهما ببطء، وقف الرجل على باب الغرفة يتحدث إلى ابنته صعبة المراس كما صور له عقله عنها ليصل إلى مسامعه بعض من كلمات الأب:
-يعني يا بنتي أتعب واشقى واخرجك من كلية التجارة علشان في الاخر تشتغلي في كافيتريا في مصنع.
لتجيب بنزق:
-حووش يا بابا الشركات اللي بتجري ورايا ..بابا احنا في عرض أي شغلانة .. وأنا مش هفضل قاعدة مكاني وساايباك تعبان.
أنهت جملتها وهي تدير رأسها عنه لتلتقي نظراتهما والتي حملت دهشة منها انتقل إلى غضب وهي تشير له بسبابتها:
-إنت ايه اللي جابك.. مش خلاص خدت اللي أنت عايزه؟

أمسك عبد الحكم بذراعها ليعيدها للخلف:
-عيب يا بنتي ...تعبت نفسك ليه؟!
هز سامر رأسه:
-مافيش تعب ولا حاجه ..البنت عاملة ايه؟!
وقبل أن يجيب تقدمت زينة قائلة:
-أنا هنزل يا بابا وهرجع بعد شوية ..الجو بقى يخنق.
رددت كلماتها الأخيرة وهي تمر بجواره ترمقه بغيظ واضح تجاهله وهو يعيد بصره إلى أبيها الذي أشار إليه:
-اتفضل يا بني.
تبعه سامر إلى داخل الغرفة، التي استقرت فيها الصغيرة تداعب عروس مهترئة بيديها اقترب منها مبتسمًا:
-ازيك يا جميلة ..عاملة ايه؟!
نظرت له بارتياب لتنقل بصرها لأبيها الذي ابتسم لها مطمئنًا ليجيب عنها:
-الحمدلله بخير ...بس مش عارف هنطلع من هنا امتى ..الدكتور قال كسر الضلع عايز عناية ولازم تفضل في المستشفى أو تخرج على مسئوليتنا.
أجابه سريعًا:
-تفضل في المستشفى وما تشلش أي هم.
نظر له بامتنان، ليجلس بجوار الصغيرة يمسد رأسها برفق:
-اسمك ايه بقى؟!
ترددت للحظة قبل أن يشجعها أبيها على الرد لتقول بصوت اقرب للهمس:
-أسماء.
-يااااه ...مش اسم واحد بس.
اطلقت ضحكة طفولية شاركها أبوها إياها ليردف سامر:
-لكن أنا غلطان ..كان لازم اجيبلك هدية ...بس ملحوقة الزيارة الجاية شكلك هتقضي هنا كام يوم كمان.
-كفاية عليك مصاريف المستشفى.

قالها عبد الحكم بود ليقول سامر:
-لا يا حج عبده دي حاجه بيني وبين أسماء وماحدش هيدخل فيها مش كده يا سومة ..ممكن أدلعك وأقولك سومة؟
كتمت ضحكتها واعتراها خجل طفولي لتدير وجهها بعيدًا ليضحك سامر:
-سومة طلعت بتتكسف ..أنتِ غير أختك خاااالص.
لينتبه لكلماته فنظر لابيها قائلًا:
-أسف يعني يا حج عبده.
-عندك حق بصراحه أسماء غير أختها ..بس زينة شافت كتير معايا الله يكون في عونها.
تعلق بصره بالرجل وهو يتذكر الموقف السابق الذي انتهى ببكاء ابنته وتحكم في فضول كبير اعتراه وسؤال على طرف لسانه عن ذلك الشقيق الذي تحدث معها عنه، لكنه تراجع وهو ينظر للطفلة ويسمح على رأسها قبل أن يقول:
-أنا أسف بالنيابة عن أخويا يا أسماء .
لم تفهم الفتاة قصده فاكتفت بالصمت.
ليعود لحديثه الودي معها فتجاوبت معه واكتفي عبد الحكم بمراقبتهما.
وبمرور الوقت توالت الاتصالات على هاتفه ليقف قائلًا:
-معلش يا سومة العمل يناديني ...هبقى اشوفك تاني.
-هقولك تالت يا بني ..ماتتعبش نفسك.
ربت سامر على كتفه:
-هقولك تالت ورابع مافيش تعب ..عن اذنك.
تركه مغادرًا بعد أن ودع الصغيرة، ليلتقي بالكبيرة في الطريق وبدت عليها بعض الدهشة فلم تتوقع وجوده كل هذا الوقت، لكنها مرت بجواره دون أي تعليق ليكمل هو أيضا طريقه.
....

ألقت بكل ما يقع بيدها في حقيبة متوسطة، ليس لديها الكثير لتجمعه خاصة فيما يخص الملابس، لذا لم تستهلك الكثير من الوقت في جمع أشياءها.
أغلقت الحقيبة لتجلس بجوارها...
انتظرت اثنين وعشرين عامًا فلمَ عليها انتظار المزيد؟!
فلتتنازل أمها عن حقها إن شاءت لكنها لن تفعل، ستأخذ حقها وليس هذا فحسب سميحة يجب أن تخسر، تخسر كل شيء.
ستُخسرها العائلة التي كانت السبب في أنها تخلت عن أمها بهذا الشكل، سترد لها الصاع صاعين، سترى بنفسها أن من احتفظت به لسنوات سيتركها ويختار عائلته الحقيقية في النهاية.
لكن ما يثير حنقها أكثر ردود فعل أمها العجيبة، بدلا من أن تعاند وتقاتل لاسترداد ابنها تقرر الانسحاب لأسباب واهية لا قيمة لها، لتترك سميحة تظل هي المنتصرة.
فكيف سيختار أُم قررت التنازل عنه ثانية؟.!
صاحت في ضيق وغضب:
-اااه ...ماما هتجنني ...يعني هي كده فاكره إنها هترجعه.
اقتربت منها نانا:
-انتِ فعلا هتروحي من غيرنا.
غلف الحزن كلماتها لتنظر لها بسمة هُنيهه قائلة:
-معلش يا نانا ..هتفضلوا مع ماما هنا لحد ما نقنعها تغير رأيها.
أمسكت بها:
-طب ما تخليكي معانا لحد ما نقنعها ..لو مشيتي هتضايق أكتر وهتعاند أكتر.
-بالعكس لو مشيت يمكن تقلق عليا فتيجي ورايا بدل ما تسبني مع سميحة دي لوحدي ..وأنتِ ومها بقى زنوا عليها لحد ما تغير رأيها.
مطت نانا شفتيها وزاد إحباطها، ليسمعا رنين جرس الباب لتقول بسمة:
-ده أكيد جاهين ...قال هيجي الصبح بدري.

حملت حقيبتها لتسرعِ خارج غرفتها تتبعها نانا، وضعت الحقيبة جانبًا لتفتح الباب فابتسم قائلًا:
-أهلًا ..جاهزين.
تبادلت النظرات مع نانا التي استندت على الجدار وقد عقدت ذراعيها بينما جرت بسمة حقيبتها قائلة:
-انا جاهزة ..يالا بينا.
رمقها للحظات قبل أن يقول:
-مش فاهم ..انتِ بس اللي جاهزة ..طب والباقي أنا وضبت كل حاجه.
-ماما مش عايزة تيجي.
عقد حاجبيه في محاولة للإستيعاب:
-ليه؟!!
-بعد المقابلة البااااردة بتاعت ابن عمك قررت ماتجييش.
اتسعت عينيه ليردد:
-لأ كده غلط.
-أول مرة اتفق معاك ..إتفضل بقى إقنعها بس بعدين وديني دلوقتي وبعدين تعال اقنعها.
مرت بجانبه تسحب حقيبتها لكنه أوقفها وهو يمسك ذراعها ليعيدها للداخل:
-أنتِ رايحة فين ..استني هنا ..أنتِ ماينفعش تروحي خالص.
وضعت كفيها على خصرها مرددة:
-ليييه بقى إن شاء الله؟!
أشار إليها بسبابته:
-علشان طريقتك دي ..أنتِ مش ممكن ..هتخربي الدنيا في لحظة رجلك على رجل مرات عمي.. لوحدك لأ.
تملكها الغضب وهو تصيح:
-هو ايه ده اللي أنتِ مش ممكن هو انا هناسبك ..أنا رايحة بيت أبويا وأخويا مش من حقك تمنعني.

اندفعت بحقيبتها إلى المصعد يتابعها بعينين متسعتين ليلتفت لنانا التي هزت كتفيها فحسب، ليضرب جبهته بكفه وهو يردد:
-استر يا رب.
اندفع ليلحق بها، أغلقت نانا الباب خلفه بعد انصرافه، لتستند على الباب بظهرها مرددة:
-الصبر يا نانا ...الصبر.
....
وقفت على الرصيف تحاول أن تشير إلى سيارة أجرة، رمقها للحظات وفي عقله عشرات الأفكار، الأمور معقدة بما فيه الكفاية وهذه الفتاة لديها القدرة على تعقيدها أكثر، وجود فاطمة كان ليخفف عنه الكثير كما أنها تجيد التحكم في تصرفات ابنتها، فكيف سيتصرف هو مع تلك المعتوهة؟!، اقترب قائلًا:
-ممكن نتفاهم!!
-مافيش تفاهم.
رددت باقتضاب لترفع ذراعها مشيرة لسيارة أجرة قادمة، أمسك ذراعها ليعيدها للاسفل فجذبته من بين أصابعه:
-أنت كل شوية هتمسك دراعي أنا مابحبش حد يلمسني.
رفع كفيه أمامه مدافعًا:
-طيب أسف ..بس أرجوكي نتفاهم ..إحنا لازم نقنع مرات عمي تيجي معانا مش معقولة نسيبها ونمشي.
عقدت ذراعيها أمام صدرها:
-ماما عنيدة جدًا..إقناعها هياخد وقت وأنا مش هعرف اقنعها..أنا لو روحت هي هتقلق شوية عليا ومع كلامك أنت ومها ونانا هتقتنع تيجي شد حيلك بقى .. هتوديني ولا أوقف تاكسي؟
رمقها للحظات، أمها فقط العنيدة؟ ...!!هي أيضًا عنيدة ووافي عنيد ...هذه العائلة ستصيبه بالجنون حتمًا.
-طيب اتفضلي هوصلك.

حمل عنها الحقيبة ليضعها في الخلف بينما استقر في المقعد الامامي، انطلق بها بصمت قبل أن يقول:
-هي قالتلك مش هتيجي ليه بالظبط؟.!
مطت شفتيها ساخرة:
-يعني هيكون ليه ...الحيلة قابلها وحش ووجع قلبها.
ضاقت عيناه مرددًا:
-الحيلة؟!!
ضغط مكابح السيارة بشكل مفاجيء حتى أن كفيها تألمتا من محاولتها لمنع اصطدامها بزجاج السيارة لتلتفت به صارخة:
-إنت مجنون.
أشار لها بسبابته:
-اسمعي بقى ...مش بعد كل اللي بعمله ده هتيجي تخربي الدنيا.. أنا هوديكي بس مالكيش دعوة لا بوافي ولا عمتي سميحة أنتِ فاهمة؟!!
اتسعت عينيها بدهشة أعقبها المزيد والمزيد من الغضب، ضغطت أسنانها بقوة في محاولة لكبحه، هي من الذكاء الكافي لتعلم أن إغضابه ليس في مصلحتها فهو وسيلتها للوصول كما أنه من الحلفاء المحتملين.
اعتدلت في جلستها تنظر أمامها:
-فاهمة.
قالتها بحروف مختنقة وهي تحك كفيها لتخفف ألمهما، رمقها للحظات:
-بتوجعك.
هزت رأسها نفيا بجمود، ليشغل محرك السيارة ويكمل طريقه.

هذه المرة الانتظار كان مختلف، فهو ليس انتظار لموت أو بلاء ، بل انتظار لسعادة حرمت منها لسنوات طوال.
مشاعر كثيرة تجتاحها ما بين حماسة ...لرهبة ..لسعادة ..لقلق.

قلبها بدأ بالارتجاف وتوتر بالغ لم تفهم سببه تسرب إليها، تقف في منتصف المنزل الكبير دخلته سابقًا لكن هذه المرة مختلفة.
هنا ستعيش.
هنا سيبدأ كل شيء.
وأولها انتقامها من سميحة.
كلا..عليها التريث، صناعة الحلفاء هي الخطوة الأهم، وحينها ستفعل ما تجعلهم يلقون بسميحة تلك بعيدًا، برغم عدم وجود خطة واضحة أمامها لكنها ستجد الحلول.
حتما ستجدها.
-نونا.
صرخ بها جاهين، لتخرج لهما الخادمة فأشار إليها قائلًا:
-حضرتها الأنسة بسمة زي ما فهمتك ..وصليها أوضتها.
أومأت له الخادمة وهي تسحب الحقيبة ناحية السلم، فلم تتبعها بسمة التي ظلت ترمقه بصمت:
-الخدامة هي اللي هتوصلني أوضتي.
عقد حاجبيه بغير استيعاب:
-وايه المشكلة؟!
أشارت إليه:
-المفروض إنت اللي توصلني..أنا مش أقل من أي حد.
عقدة النقص تلك سيعاني منها كثيرًا، هكذا حدث نفسه ليقول:
-الموضوع مافيهوش أي تقليل منك ، وعموما اتفضلي هوصلك.
تقدمها لتسير خلفه وقد هدأ توترها قليلًا، وبينما هما في منتصف الدرج فُتح باب غرفة في الاسفل لتظهر سميحة، ترمقهما بنظرات صامتة ليتمتم جاهين:
-عمتي..أأ..
ودون اهتمام بما ينوي قوله أكملت طريقها للخارج تتابعها بسمة بضيق وسخرية بينما زفر جاهين وهو يقول:

-يالا تعالي.
وصلا للممر الذي يحوي عدة غرف ليشير لأولها:
-دي أوضة وافي ..هو تقريبا لسه نايم.
ضحكة ساخرة وصلت لأذنيه تغاضى عنها ليكمل:
-واللي جنبه على طول أوضتي أنا ..واللي قدامها أوضة لوجي أختي.
همهمت في ضيق:
-أومال أنا وأمي رمتونا فين؟!
التفت لها:
-إيه رمتونا دي؟!
ليشير للغرفة المجاورة له قائلًا:
-الاوضة دي عمتي سميحة نقلت فيها كل اللي كان يخص عمي وافي الله يرحمه فقلت هتكون فكرة حلوة لو مرات عمي هي اللي خدتها ...واللي قدامها دي هتكون أوضتك تقدري ترتاحي...
لم يكمل حروف كلماته حين مدت يدها لمقبض باب الغرفة التي حوت ذكريات أبيها.
فتحتها بروية وهي تخطو داخلها كانت مظلمة فمدت يدها تبحث عن الاضاءة مر بجانبها لينير الغرفة، فدارت ببصرها فيها حتى رأت صورة كبيرة معلقة على الحائط يحيط إطارها بصورة شاب جميل الطلة يبتسم.
اقتربت منها بقلب يرتجف وعينان تبرقان.
إنه هو ..أبيها، لا تذكر ملامحه جيدًا فلم تملك أمها غير صورة له فقدوها حين انهار البيت القديم الذي كانتا تعيشان فيه.
قشعريرة مرت بأوصالها، مدت أناملها إليه ولم تتمالك عبرات غادرت عينيها بسهولة ودون مقاومة، ففي لحظة واحدة استعادت الكثير من مشاعر اليتم الذي عاشتها بدونه، فكم من المرات تمنت أن تهرع إليه لتشتكي له ممن ضايقها أو ضايق أمها، ترتمي بين ذراعيه ليبثها الأمان ويحمل عنها قلق صاحبها لسنوات.

أن تعيش بدون هذا الوتد الحامي في حياتك ليس بالأمر الهين أبدا.
وما إن شعرت بتلك العبرات حتى أزالتها باناملها وهي تدير وجهها بعيدًا عن عيني من يراقبها بصمت، لتقع عينيها على مجموعة صور صغيرة مختلفة الأحجام تراصت بجوار بعضها وكلها يقف فيها أبيها أما وحده أو مع مجموعة من أفراد العائلة .
مدت يدها تلتقط إحداها والتي كان يقف بها منفردا ضمتها إلى صدرها لتخرج من الغرفة سريعًا تبعها هو لتقف أمام غرفتها التي أضاءتها شمس النهار بوفرة عبر نافذة الشرفة المفتوحة على مصراعيها، ظلت مكانها بلا حراك ليقول هو:
-تقدري ترتاحي ..البيت بيتك طبعًا.
التفتت له ولا زالت عيناها تبرق بالدموع ودون قصد منه تأثر بذلك وبدى على وجهه الحزن عليها، لتبتسم بحزن واضح قائلة:
-شكرًا ..وأسفه على تعبك معايا وغضبي عليك.
رفع إحدى حاجبيه وكأنه يتيقن مما سمع فلقد أصابته الدهشة حقًا، فتنحنح قائلًا:
-لا ابدًا ..عن إذنك.
غادر الغرفة وأغلق بابها خلفه ليرمق الباب لثواني هامسًا:
-هي البنت دي بتتحول ولا إيه؟!!
جلست على طرف الفراش، رفعت الصورة إلى مستوى عينيها، تتأمل ملامحه جيدًا، كان شاب وسيم حقًا، راقي، يبدو عليه الثراء، غريب أنه سقط في حب أمها الخادمة غير المتعلمة، ولكن لمَ لا؟ ..!ألم يسقط معاذ في حبها رغم اختلاف المستوى بينهما.
قربت الصورة إليها مررت أناملها على ملامحه مرة بعد مرة، لتتدفع مشاعر مختلفة داخلها، وغصة حارقة في حلقها لتهمس:
-بابا ..ياريتك كنت هنا ...ياريـــ...

قطعت حروفها شهقت بكاء تكررت، لتدخل في نوبة بكاء قوية لا تدري سببها، هي فقط تريد أن تبكي، تريد أن تزيح هذا الحمل الجاثم على صدرها ولا تدري ماهيته، تريد أن تتحرر من مشاعر سلبية تملكتها منذ أن علمت الحقيقة ولا تستطيع أن تستعيد نفسها منذ تلك اللحظة.

ضمت الصورة إلى صدرها بقوة وجسدها ينتفض باكيًا لتكمل حديثها إليه:

-ياريتك كنت معانا ..ماكنش كل ده حصل كنت خففت عليا كتيبير أوي.

رفعت رأسها لتتنفس في محاولة للسيطرة على نوبة البكاء تلك لتعود سميحة بملامحها التي أبغضتها تحتل تفكيرها ولا يمكنها ألا تحميلها مسؤلية كل شيء:

-هجيبلك حقك أنت وماما ..هندمها على كل اللي عملته فيكوا هخسرها كل حاجه وهتشوف يا بابا.

....

وقف أمامه بينما الآخر نائما متسترًا بغطاءه، فرك رأسه مفكرًا، يشعر بالحيرة ، لم يتوقع أن ترفض فاطمة المجيء، والآن عليه أن يقنع وافي أن يتحدث إليها كي تأتي، وهذا ما لن يفعله وافي أبدًا.

-عيلة عنيدة فعلًا ..ليه يا رب ماطلعتنيش من عيلة تانية.

وكزه برفق:

-وافي ...وافي اصحى.

فرك الاخر عينيه بكسل وهو ينظر أليه قائلًا:

-في ايه عالصبح؟!

-قوم البس.

اعتدل وافي في فراشه متسائلًا:

-البس ليه؟ ..ماما قالتلي مانزلش الشغل دلوقتي.

جلس جاهين على طرف الفراش قائلًا:

-لأ ..احنا مش هنروح الشغل ..ده احنا ..هنروح..

كلماته خرجت متقطعة لتعبر عن توتره البالغ فعقد وافي حاجبيه:

-مالك يا بني ..في ايه؟!

-بص بقى ..انت قابلت مامتك بطريقة سخيفة ولما روحت أجبها مارضيتش .. فأنت تقوم معايا علشان تقولها أنها مرحب بيها في البيت.
رمقه للحظات ليعي ما سمع:
-إنت بتقول ايه؟ .!أنا مش هروح في أي حته.
-وافي إنت اكتر واحد فينا تعرف ربنا ..ماينفعش تطرد مامتك من حياتك ده مايرضيش ربنا.
حدجه بنظرة حانقة:
-أطرد مين ..هي كانت دخلت حياتي علشان أطردها ..هي اللي سابتني مش أنا اللي سبتها والبيت قدامها أهو مفتوح عايزة تيجي أهلًا وسهلًا مش عايزة هي حرة .واحد غيري ماكنش بص في وشها تاني.
وضع كفه على فمه:
-وطي صوتك لأختك تسمعك.
دفع وافي يده قائلًا:
-أختي؟ ..!!هي جات.
-أيوة جات لكن مامتك لأ.
ضحك بسخرية واضحة:
-أنتِ يا بني مصدق الفيلم ده ..لو فعلًا ماكنتش عايزة تيجي ماكنتش سابت بنتها دي حجه بس علشان تدخل بكرامة!!
هز جاهين رأسه:
-أختك دي كوم ومامتك كوم تاني خالص ..صدقني
جذب الغطاء على راسه قائلًا:
-ابعد عني يا جاهين قلقت نومي على الفاضي.
جذب جاهين الغطاء عن رأسه قائلًا:
-طب بلاش تروح ايه رأيك تكلمها في التليفون؟..أنا هتصل دلوقتي وأنت قولها بذوق كده أنها مرحب بيها في البيت أي حاجه كده على ذوقك.

-ريح نفسك ..انا مش هروح ولا هكلم حد ...أنت عارفني بقول اللي جوايا وأنا بجد مش طايقهم كلهم لو كلمتها هضايقها زيادة فبلاش.
أمسك جاهين هاتفه قائلًا:
-انت مافيش اطيب منك يا وافي ..كلمتين بس.
زفر وافي بضيق وهم بمغادرة الفراش إلا أنه تسمر مكانه حين وصل له صوتها عبر السماعة الخارجية لهاتف جاهين الذي أجابها:
-أبلة بطة ازيك؟!
-الحمدلله يا بني.
قبض بأصابعه بقوة على شراشف سريره مسيطرًا على ما تسرب له من غضب.
-ايه يا أبلة بطة كده برضو اجي ببسمة من غيرك!
-بنتي دي ربنا يهديها.
أشار جاهين لوافي برأسه ليتأكد منه أنه سيحدثها، لكنه دفع الغطاء عنه ليغادر الفراش فأمسك جاهين بذراعه قائلًا:
-معلش يا أبلة بطة أنتِ لازم تيجي وا ...بسام أكيد مستني رجوعك.
نظر له وافي شذرًا بينما مد جاهين إليه الهاتف ليحثه على التحدث ووصل لهما صوت فاطمة يحمل حزنًا واضحًا:
-بسام ..
رمق وافي الهاتف للحظات قبل أن يدفعه بعيدًا بقوة كادت تُسقط الهاتف من بين أصابع جاهين الذي تقاذف الهاتف في يده حتى أمسكه ومنعه من السقوط أرضًا وتركه وافي ليدخل إلى حمامه ليطلق جاهين سبابا غير مسموع ليعيد الحديث إلى فاطمة:
-عموما أنا جاي لحضرتك بعد الشغل مع السلامة.
زفر بحرارة ليغادر الغرفة هابطًا الدرج متجها إلى غرفة أمه التي كانت استيقظت ولازالت في فراشها ..اقترب ليلقي بنفسه بجوارها فابتسمت:
-مااالك ...ماجبتهمش.

-جبت بسمة بس ..مرات عمي مضايقة ومش عايزة تيجي.
عقدت حاجبيها قائلة:
-يعني إيه ..مش هتيجي؟.!
اعتدل جالسًا وهو يزعق:
-أنا عارف بقى أنا تعبت ..ماحدش أصلًا بيساعدني.
ردت في حيرة:
-نساعدك ازاي يعني؟!
-بأي حاجه يا ماما ..أي حاجه.
-أنا اللي نفسي اسألك ..أنت مهتم بيهم أوي كده ليه كأنهم عيلتك أنت مش عيلة وافي ...مصر ليه ترجعهم.
عاد ليستلقي بجوارها وقد اعتلى ملامحه تصميم غريب ونظرة تعلم أمه بالضبط ما تعنيه لتعتدل هي محدقه به:
-جاهين ..أنت بتفكر في إيه بالظبط؟
قال بحزم واضح:
-إن كل حاجة ترجع لأصلها.
-مش فاهمة!
قام من مرقده مقتربًا من الشرفة يتطلع للاشيء وعلى ملامحه بوادر تردد لتنهض أمه وتقف بجوارها ولازالت عينيها متعلقة بوجهه:
-قصدك ايه؟!!
تنفس بعمق ليقول:
-عمتي لازم تفهم أن وافي مش ابنها زي ما بتقنع نفسها وتقنعنا ..يمكن ساعتها تفتكر أنه ابن أخوها زيي بالظبط ومافضلش أنا مجرد سنيد وبس .. شلت شغل كتير على دماغي وأنا من جوايا عارف أنها بترتب تخلي وافي يبقى الكل في الكل وأفضل أنا في الضل.
اتسعت عيني أمه وهي ترمقه بذهول حقيقي مرددة:
-جاهين أنا أول مرة اسمعك بتتكلم كده!!

نظر لها بعينين حملت حزنًا:
-وانا أول مرة أسمعه لحد.
عدم التصديق كان الغالب على أفكارها، لأول مرة تشعر أن ابنها يحمل تلك الأفكار التي كانت تخالطها دومًا ولم تتمكن من البوح بها، ظنت أن جاهين يحمل طيبة أبيه وتجاهله للأمر ونسيت أن أبيه لم يكن يعمل مع سميحة بل اهتماماته كانت للأدب فقط، أما جاهين فقد حمل على عاتقه مشاكل العمل ومحاولة حلها مع سميحة جنبًا إلى جنب، وبالتالي سيفكر في أن يكون له المكانة الطبيعية بعد هذا الجهد.
لكن ما يقلقها أنها لم تفهم ..ما وضع وافي بالنسبة له في كل هذا؟!
أمسكت ذراعه لتعبر عن قلقها:
-جاهين ..انت بتكره وافي؟!!

الفصل الثامن عشر

مهبوش بخربوش الألم والضياع
قلبي ومنزوع م الضلوع انتزاع
يامرايتي يا اللي بترسمي ضحكتي
ياهل ترى ده وش ولا قناع
عجبي!!
رباعيات جاهين

الغيرة ...الحقد ..الحسد.
مشاعر كثيرة لو تملكتك لجعلت منك شخصًا أخر، يمكن للغيرة أن تصيبك بالعمى، ويمكن للحقد أن يمنحك قلبًا قاسيًا، ويمكن للحسد أن يُلبسك ألف قناع.
وكم قاوم هو كل ذلك، قاوم كل تلك المشاعر السلبية ليتمكن من الحياة بسعادة، لكنه مثل كل البشر قد يحمل ضغينة ما ويتعايش معها .وهو لم يرد أن يدفع وافي ثمن ما لم يرتكبه ولهذا أجابها ببساطة:
-لا طبعًا عمري ما كرهت وافي وأنا مستعد أعمل أي حاجه علشانه وكلامي مش معناه إني بكرهه أو عايز عمتي تكرهه ..أنا بس عايز العدل ..العدل يا ماما متهيألي لو وافي جه وأنا كبير كان ممكن أكرهه بس وجوده معايا وهو لسه مولود كلام بابا عنه ليا وأنه أخويا الصغير اللي لازم أحميه خلاني حبيته ...بس كرهت التفرقة اللي عمتي عملتها لو كان ابنها بجد كنت استوعبت لكن وافي ابن أخوها زيي بالظبط ودلوقتي ربنا شفاه وبقى كويس تفتكري عمتي ممكن تعمل إيه وهي بتمسكه الشغل مش بعيد الاقي نفسي دراعه اليمين ومجرد مساعد وأنا مش هقدر اقبل بده يا ماما.
وضعت كفها على كتفه لينظر لها فابتسمت:

-كل كلامك ده جه في بالي وكنت خايفة ..بس علاقتك بوافي كانت دايمًا بتطمني ..وافي لا يمكن يعمل حاجه تضايقك واديك شايف بيعرف يقف في وش سميحة ويعترض بحريته أنا متأكدة إن حبكم لبعض هيخليكم تعدوا أي مشاكل.
هز رأسه مرددًا:
-في ناس بتخسر بعضها وتتغير بسبب الشغل والفلوس وأنا مش عايز اتحط في موقف زي ده قدامه ده أصغر مني بـ 8سنين بجد صعب عليا إن ده يحصل في يوم لكن موضوع مامته ده ريحني ..دلوقتي عمتي ممكن تفوق تعرف إن ليه أُم ..تعرف إنه ابن أخوها زيي يمكن ساعتها فعلا تعاملنا زي بعض وأنا مش عايز غير كده.
ربتت على ظهره مطمئنة ليمنحها بسمة هادئة ثم ضمها إلى صدره هامسًا:
-ربنا يخليكي ليا.
-ويخليك ليا.
اعتدل قائلًا:
-أنا هروح الشغل الأول وبعد ما اخلص هروح لمرات عمي ويارب تقتنع وتيجي معايا ..خدي بالك من الآنسة اللي فوق دي أو أقولك ماتخديش بالك أحسن.. ماتركزيش معاها كتير ..شخصية مستفزة بطبعها.
ضحكت ميادة ليقبل رأسها مغادرًا، لتنزوي بسمتها تدريجيًا مرددة:
-الله يسامحك يا سميحة ..هتكرهي الولاد في بعض.

....

استنشاق بعض الهواء ساعدها على الهدوء، استندت على سور الشرفة تتطلع لحديقة المنزل والتي كانت صغيرة مقارنة بحديقة قصر معاذ، مساحة خضراء تحاوطها الأشجار فتحمي أهل المكان من نظرات المتلصصين، في أحد جوانبها أرجوحة خشبية عريضة تسمح لإثنين بالجلوس فيها وعلى الجانب الآخر مائدة خشبية مستطيلة على جانبيها أربع مقاعد من الخيزران.
رنين هاتفها أخرجها من ذلك التأمل لترد وهي تعرف من سيتصل بها بهذه السرعة:

-أيوة يا نانا.
جاءها صوتها مترقبًا:
-ها إيه الاخبار؟!
-تمام ..اديني دخلت أوضتي بس لسه ماطلعتش شوفت أوضتكم أنتوا.
-قابلتي أخوكي.
-لأ ..نايم.
-طيب احنا هنقنع أبلة بطة ويارب تلين.
-شدوا حيلكم.
-وأنتِ كمان شدي حيلك وماتنسيش بلاش تعادي أخوكي وابن عمك خليكي طيبة يا بسبوسة.
-تمام يا معلم.
شاركتها الضحك لتوقفه بعد أن شعرت بمن يراقبها لتنتبه لجاهين الذي وقف بجوار سيارته ينظر إليها رمقته للحظات قبل أن تستدير عائدة للغرفة ووصل لها صوت انطلاق سيارته لتعيد حديثها لنانا:
-خلي مها اللي تكلمها كتير هي بتحب تسمعلها.
-حاضر ..ربنا يسهل نحصلك احنا كمان.
طمئنتها بقولها:
-ماتقلقيش يا نانا دي مسألة وقت مش أكتر .هااانت يا صاحبتي ...سلام بقى علشان أخد جولة في المكان.
انهت الحوار لتقف أمام المرأة تنظف وجهها من آثار البكاء العالقة به، لتخرج من الغرفة، وبخطوات بطيئة وقفت أمام غرفته، طالعت بابها بصمت تفكر في التصرف الصحيح لبدأ مرحلة تكوين الحلفاء.
رفعت قبضتها بتردد لتطرق الباب، تمهلت للحظات وحين لم تجد رد قررت الذهاب، استدارت بالفعل إلا أنها توقفت حين فُتح الباب التفتت تنظر إليه وقد بدى عليه الدهشة من رؤيتها، برغم معرفته بوجودها لكنه لم يتوقع أن تأتي لتطرق بابه.

وقفا مكانهما يتبادلان النظرات الصامتة، في الحقيقة كانا يتأملان ملامحهما المشتركة ..إنهما حقًا توأم.
لم يُقدر المدة التي ظل ينظرلها فيها لكنه كان أول المتكلمين:
-أفندم!!
ضاقت عيناها:
-أفندم ...مافيش أهلا.
-أهلا.
غلفها البرود، لتعلو شفتيها بسمة ساخرة:
-أنت عارف ماما ماجتش ليه؟!
لم يهتم بالسؤال ولم تنتظر أن يفعل لتردف:
-بتقول قلبها هيوجعها كل ما هتبصلها وتكلمها كده.
انهت جملتها بالاشارة إليه بسبابتها، لتنتقل سخريتها له وهو يقول:
-والمطلوب؟!
أرخت ذراعها بجوراها لتنظر له نظرة بدت مختلفة، وبكلمات تحمل أيضًا نبرة مختلفة:
-على رأي المثل لاقيني ولا تغديني.
غادرت بعد أن انهت جمتلها التي لم يعي ما الذي تقصده منها، ضمت قبضتها أمام صدرها مع استشعار ضربات قلبها المتسارعة، ذلك الشعور الذي يصيبها منذ رأته ولا تدري له سبب ولا تجد له مسمى.

وقفت في منتصف الردهة تدير رأسها هنا وهناك لتفعل كما فعل جاهين:
-نوناااا ...نونااا.
مصمصت شفتيها:
-قال نونا قال ...بيدلعوا الخدامة.
خرجت لها الفتاة الاسيوية لتشير لها:
-أنا عايزة افطر ..اعمليلي فطار وهاتيه في الجنينة.

رمقتها الفتاة للحظات لتعقد بسمة حاجبيها وقبل أن تصرخ بها جاء صوت من خلفها:
-اعملي اللي قالتلك عليه يا نونا.
كانت ميادة التي اقتربت لتقف بجوراها معتذرة:
-معلش هي لسه ماتعرفكيش كويس.
-المفروض أن ابنك فهمها.
لم يعجبها طريقتها في الرد وبدى واضحًا وهي ترمقها باستنكار لتخرج بسمة إلى الحديقة قائلة:
-ماتخليهاش تأخر الفطار أنا ماكلتش من الصبح.
راقبتها حتى غادرت لتهز رأسها عجبًا متذكرة كلمات ابنها:
-فعلًا شخصية مستفزة.
صعدت الدرج لتطرق غرفة وافي معلنة عن نفسها، لتدلف إليه ولم تحتاج أن تسأل عن حاله، فملامح وجهه تعبر عن كمية الضغط النفسي الذي يمر به.
ربتت على كتفه دعمًا مع ابتسامة مطمئنة على ثغرها:
-فطرت؟!
هز رأسه نفيًا، فأردفت:
-أختك هتفطر في الجنينة ماتنزل تفطر معاها.
عقد حاجبيه ليستدير جالسًا على مكتبه فاقتربت منه:
-أعتقد تقربوا من بعض دلوقتي أحسن من بعدين.
-أنا مش عايز أقرب من حد.
راقبته لوهلة ولم تجد ما تقوله، اكتفت بتذكيره بأدويته لتغادر لكنه أوقفها سائلاً:
-يعني ايه لاقيني ولا تغديني؟!
استغربت كلماته للحظة قبل أن تهمهم:

-اممم ..اعتقد يعني المقابلة الحلوة أحسن من الأكلة الحلوة ..بمعنى لو عزمتني على الغدا واكلتني وقابلتني وحش هفتكر إنك قابلتني وحش مش إنك غديتني.

رمقها بصمت ليوميء برأسه، فابتسمت له وهي تلتفت مغادرة.

....

هل أصابت أم أخطأت؟!

ستضيعه منها مرة أخرى كما تردد ابنتها أم ستستعيده من جديد!!

لا يمكنها نسيان تلك القبضة الباردة التي اعتصرت قلبها حين رأته لا بل حين رأت لامبالاته ..بروده ..نظرته التي حملت ألف اتهام واتهام.

اتهام لم تجد الوقت لتدافع عن نفسها ضده، وهذا يعيدها لنفس السؤال.

هل بقاؤك هنا يا فاطمة سيمنحه الإجابة؟!!

هزت رأسها بحيرة ويأس، لا تدري ماذا عليها أن تفعل؟.!

لو فقط أبصرت طريقًا واضحًا لسلكته على الفور ولكنها كمن أصابه العمى فجأة فصار يتخبط هنا وهناك، يصيح بلا صوت أن يساعده أحد، وهو من داخله يعلم أنه يجب أن يساعد نفسه بنفسه.

-أبلة بطة.

صوتها الرقيق الذي يطيب قلبها على الدوام، ابتسمت لتمد يدها:

-قربي يا مها.

مدت مها ذراعيها حتى تلاقت مع كف فاطمة لتجلسها بجوارها وهي تربت على رأسها:

-جاهين جه بره وعايز يكلمك.

لحظات صمت تكرهها مها عادة، فهي لا يمكنها أن ترى لتستنتج إجابة لسؤالها فقط الكلمات هي التي تسعفها لتكرر:

-أبلة بطة ..هتقبليه.

مسحت فاطمة على رأسها:

-خليه يجي هنا ..وحطي حجابك على راسك علشان تقعدي معانا ونانا كمان.

وبعد لحظات.
كان جاهين يجلس على مقعد أمامها بينما هي لا زالت على فراشها تجاورها نانا ومها.
وبعد القليل من التحيات المتبادلة تكلم:
-أبلة بطة أنا بجد مش فاهم سبب اختيارك ده ...واللي اسمحيلي أقولك انه مش صح أبدًا.
رمقته للحظات وعلى لسانها الكثير من الكلمات، كيف له أن يعي ما بها؟!
لا يمكنه استنساخ قلب أم، لا يمكن له ولا لمن يجاورنها أن يفهموا معنى ذلك الألم،
معنى تلك السكاكين التي ستمزق نياط قلبها مع كل نظرة باردة منه، مع كل التفاته ليمنع بصره عنها، مع كل شوق داخلها لسماع لفظ أمي من شفتيه لتسمعه يمنحه لأخرى، لن يفهموا أبدًا!!
-أكيد مش هتفهم.
أكتفت بتلك الكلمات ليزم شفتيه طالبًا العون من الفتاتين لتكون نانا أول المتطوعات:
-أبلة بطة ..حتى لو مش فاهمين بس بشوية منطق ..هو لسه مايعرفكيش إيدله فرصه يتعرف عليكي وأكيد هيحبك.
ليلتقط منها جاهين الحديث:
-اسمعيني كويس يا مرات عمي , وافي من يوم ما فتح عينه وهو مش شايف غير عمتي سميحة وكان فاكرها مامته لحد ما كبر واستوعب الفرق ومع ذلك فضل يعتبرها مامته ودلوقتي فجأة عرف أن أمه عايشة وموجودة ومع ذلك سيباه اتنين وعشرين سنة لوحده من غير ما تحاول توصله.
قطع كلماته نظراتها التي تقطر ألمًا ليمط شفتيه قائلًا:
-أنا ماعرفش حاجه ..ماعرفش ايه اللي حصل وخلاكي تسيبيه بس مش مهم أنا اعرف المهم هو يعرف منك أنتِ يا مرات عمي مش بس من عمتي ...اللي

بتعمليه دلوقتي مش صح كأنك بتسيبيه للمرة التانية وبرضو باختيارك مش باختياره.
وكأن كتب على قلبها أن يبقى بين مطرقة الشوق وسندان الألم.
الشوق لرؤية ابنها والبقاء جواره..
والألم من نظراته الجوفاء وكلماته الباردة.
لمَ يصعبون الأمر عليها؟!!
مالت مها ناحيتها:
-ابلة بطة بسام لازم يحس بيكي أنا متأكدة أما يعرفك هيحبك أوي ..ماتعذبيش نفسك بالبعد عنه أنتِ صوتك مافرقش الحزن من ساعة ما وصلتيله وأكيد هتفرحي لما يرجعلك بجد يرجع لأمه الحقيقية.
ولازالت نانا تطرق الحديد وهو ساخن:
-ياله بقى يا ابلة بطة ولا عايزة العقربة دي تاخده منك تاني.
عقد جاهين حاجبيه مرددًا:
-العقربة؟!!
وكزتها مها بينما تمكنت بسمة ساخرة من شفتي فاطمة وهي تنظر لرد فعل جاهين أما نانا فنهضت قائلة:
-انا بقول أنت ماشربتش حاجه ...هجبلك حاجه تشربها.
لتفر بنفسها قبل أن تزيد الطين بله.
غادرت الغرفة لتضرب رأسها بكفها:
-غبيه فكري قبل ما تتكلمي ...جاهين ده لقطة!!
اتسعت بسمتها وهي ترسم صورة تلو أخرى لزفاف كبير سيعده لها زوج المستقبل، وبرغم تكرار المشاهد إلا أنها أبدًا لم تستطِع تحديد ملامح هذا الزوج.
بل تذكر أنها تشكلت مرة واحدة في رأسها ولم تتكرر ..
هي من منعت تكرارها.

كان هو ..بملامحه الرجولية التي حفظتها عن ظهر قلب، بابتسامته الحنونة التي لم يحرمها منها قط، بكل المشاعر التي منحها إياها من حب وغبطة واشباع غرور أنثى، بالفعل منحها الكثير والكثير لكنها لم تمنحه أي شيء.
فكان الابتعاد الذي ترقبته دومًا قد آن وقته، وكم تسائلت متى سيمل ويبتعد؟!
ولغرورها كانت تكمل السؤال ومتى لن يتحمل ويعود؟!
نالت إجابة الأول ومازالت في انتظار إجابة الثاني.
تقريباً!!

رنين الباب نبأها بقدوم أحدهم.
لتتسع بسمتها دون خجل وترتسم كل علامات الفرحة على وجهها وهي تنظر إليه هامسة:
-محمد ..كنت لسه بفكر فيك!!
وبرغم سعادة تسربت إلى قلبه لكنه لم يرد الاستسلام بسهولة فقال ساخرًا:
-ياريتك كنتي افتكرتي مليون جنيه ..كان بقى أحسن مش كده؟!!
حل الغضب مكان الفرح وعليه أن يدفع الثمن، لترمقه بغيظ فأردف وهو يمر جوارها وهو يغلق الباب:
-ابلة بطة صاحية؟ !أنا جاي عشانها.
كتفت ذراعيها مجيبة بتحفز وهي تسير خلفه:
-أيوة صاحية جاهين معاها بيقنعها توافق ياخدنا كلنا للفيلا.
ضغطت حروف كلماتها الأخيرة ليلتفت ناظرًا إليها ساخرًا:
-وايه الجديد؟ !إطيب أوي اللي اسمه جاهين ده!!
أيسخر منها أم من حديثها عن جاهين، ستثير غضبه كما يفعل بها:
-مش طيب وبس ...ده شاب ممتاز ورجل أعمال ناجح بصراحه فرصة لا تعوض.

حسنًا عليها التراجع الآن، فقبضته المتكومة وعيناه الحمراوان لا تبشران بخير، وقبل أن تلتفت لتهرب جذبها بقوة ضاربًا بها الحائط فرفعت ذراعيها تحمي وجهها من أي هجمات محتملة لكنها بدًلا عنها سمعت:

-اعملي اللي أنتِ عايزاه بس يا ريت تفتكري أنتِ سيبتي ايه علشان ايه!!

أزاح نفسه عن طريقها ليدير لها ظهره، ترمقه بجسد مرتعش:

-أنا مامسكتش حاجه قبل كده علشان اسيبها ..أنا عمري ما عرفت أمسك حاجه علشان أسيبها.

رددتها بعصبية، فأجابها بحزم:

-لأنك عمرك ما قَدرتي أي حاجه وقعت في إيديك يا نادرة ..حتى أختك مش عارفه تقدريها ..أنا خايف إنك كمان ماتعرفيش تقدري نفسك وساعتها هتخسري كتير ويمكن ماتلحقيش تندمي.

انهى جملته ليتجه لباب الخروج قائلًا:

-انا ماشي وهبقى أتصل بأبلة بطة واعرف عملت إيه؟!

تسمرت يده على مقبض الباب مع وصول صوت نشيجها إليه:

-أنا خايفة ..مش عايز تفهم ليه إني خايفة.

أغلق عينيه يزفر باستسلام من قلب يبغض بكاءها، أستدار ينظر لها، ضاقت عيناه مع ارتجاف جنبات قلبه، نفس المشهد، نفس الجسد المرتجف الباكي، نفس الوجه الذي لم يتمكن من رؤيته وقد أخفته خلف كفيها ليتلقى عنها كل عبراتها التي لا تحب أن تريها لأحد.

ورغم مرور كل تلك السنوات على ذلك المشهد لم ينسَه، وكيف يمحى وقد طبع في ذاكرة قلبه قبل عقله، كل ما رغب به حينها أن يذهب إليها، يضمها ، يرجوها أن تكف عن البكاء لكنه لم يفعل.

كم بدت ضعفية حينها كما هي الآن!!

تبًا!!

كيف تفعل ذلك؟ ..!

تحيط نفسها بهالة من القسوة لكنه دومًا على يقين بأن داخلها رقة تضاهي دمعتها التي تزيحها عن وجهها وهي تنظر إليه.
اقترب منها وهو يقاوم رغبة في تولي مهمة إزاحة تلك العبرات:
-خايفة من إيه؟ ...!خليكي ورايا أوعدك إني أحميكي.
-زي ما بابا وعد ماما وماقدرش ..زي ما أبو بوسي قال لأبلة بطة وبرضو ماقدرش.
هز رأسه بضيق:
-نادرة أنتِ بتتكلمي في أقدار عمرنا ما هنقدر نتحكم فيها ..كل اللي نقدر عليه إننا نسعى وأنا أوعدك إني أعمل كده وماخليكيش تشيلي هم أي حاجه.

وبين رجاء قلب وتحذير عقل زاغت نظراتها، وتاهت حروفها، أتقبل أم ترفض؟!
لمَ لا تطلب هدنة؟!
-وقت ..اديني وقت.
-أنا بقالي أربع سنين بديكي وقت ومستعد اديكي أكتر بس اديني الأمان مش عايز أحس انك ممكن تبعيني في لحظة لو لاقيتي فرصة أحسن ...مش هقبل أكون استبن يا نادرة.
تريد أن تمنحه إجابة، بل تتمنى وليس كل أمنية ممكنة.
اكتفت بهز رأسها لتردد قبل أن تفر من أمامه:
-قلتلك اديني وقت.
-مافيش فايدة.
قالها بزفرة حارة.

....
مخطيء ..مذنب ..عاق!!
معاني تعاظمت داخل رأسه وهو يفكر فيها، لكنه سرعان ما يقاوم ذلك والحجة واضحة.

"بروهم ليبروكم".
وهي لم تبره، هي قررت الابتعاد والتنازل عنه، فكرت واختارت الابنة وتخلت عن الابن.
ألإنه كان مريضًا؟!!
فضلت الاحتفاظ بالطفلة الصحيحة المعافة وتركت المعاق المريض لغيرها.
نبضات قلبه تتعالا مع تلك الفكرة التي استقرت في عقله بثبات، أن تكون الطرف الذي تم التخلي عنه ممن كان عليها أن تبقى بجوارك لتحميك وتواسيك طوال مرضك.
أي أم تملك تلك القسوة؟!
وسؤال يدفعه سؤال ولا أحد يجيب.
اتسعت عينيه للحظة قبل أن يغادر غرفته هابطًا الدرج ومناديًا:
-نوناااا.
خرجت كعادتها ملبية النداء ليسأل:
-هي ...أ ..البنت .. أقصد بسمة فين؟!
أشارت له للحديقة قائلة:
-تعود وتخرج تاني للجنينة.

السماء رغم ظلمتها بدت رائعة بعدد لا بأس به من النجوم والذي لم تَرَه من فترة طويلة، تخلت عن حجابها وحررت خصلات شعرها الطويلة لتستقر على الارجوحة الخشبية لتبدأ جولة من التأرجح وبصرها لا يزال متعلقه بالسماء .
حالة من السكينة اجتاحتها مع نسمات الليل الجميلة التي تسللت عبر خصلات شعرها ومرت بسلاسة على بشرتها الناعمة لتغلق عينيها وهي مستمرة في التأرجح.
صوت همهمة أعاد لها وعيها بما يجري حولها لتنتبه له يقف على بُعد عدة أمتار منها، دفعت شعرها خلف أذنيها لتراه بوضوح فاقترب منها وعينيه

تتفحصها، لفتت نظره كثيرًا وبدت جميلة بهيئتها تلك حتى أنه شعر بالحرج وأدار بصره عنها وكأنه نسى أنها من محارمه ولا يعيبه أن يراها.
-خيرًا.
قالتها ليعود ببصره إليها وقد تذكر سبب بحثه عنها:
-قولتلي لاقيني ولا تغديني ..أعتقد الأولى تقولي تربيني بدل ما ترميني.
لم تحتاج الكثير من الوقت لتعي مردود كلماته لتنزل عن الارجوحة مقتربة منه وعيناها تنضح شرًا:
-هي مين دي اللي رمتك؟ ..!طب يا ريتها يا أخي كانت رامتني أنا بدل ما هي خبتني من كتر رعبها لتخسرني أنا كمان.
ضاقت عيناه، يحدجها بنظراته، ومحاولات لاستنباط ما تخفي كلماتها من معاني، أتعني أنها خسرته رغمًا عنها.
وكان الأنكار سيد الأدلة!!
لترتسم السخرية على شفتيه:
-أنتِ فاكرة أني هصدق التخاريف دي!!
جزت شفتيها حتى شعرت بألمهم، تعتصر قبضتيها في محاولة لعدم فقد أعصابها:
-كفاية عليك التخاريف اللي صدقتها من الغندورة اللي ربتك.
رفع سبابته أمام وجهها:
-احترمي نفسك اللي بتتكلمي عنها دي تبقى أمي.
رفعت سبابتها بالمقابل مرددة:
-واللي أنت بتتكلم عنها تبقى أمي أنا وأمك أنت كمان واللي أوعدك أنك تعرفها قريب ...قريب أوي.
أطلقت غضبها في الهواء لتمر جواره مبتعدة.
-اسمعي.
توقفت دون النظر له ليأتيها صوته:

-أنا عارف أني مدين لكِ بحياتي ..بس للأسف ده دين ماعتقدش أني هعرف أرده.
ارتكنت بسمة ماكرة على شفتيها لم يتسنى له رؤيتها:
-ماتقلقش أكيد هيجي يوم وهتسدد الدين ده ..وفي الوقت المناسب.
أراد أن يسألها عن قصدها لكن انسحابها سريعًا لم يمنحه الفرصة.
وبخطى ثقيلة جلس على أحد مقاعد الحديقة، أراح رأسه على مسندها ناظرًا للسماء، وعقله يردد كلماتها وما تحمله من معنى.
أبواب الشك فُتحت على مصراعيها في عقله، كل الأبواب التي أغلقتها سميحة بمفاتيح حبها وعمرها الذي قضتها معه فتحت بكلمة من فتاة لا يكاد يذكر اسمها ولولا تشابه مع اسمه لنسيه فعلًا.
أمال رأسه للأمام لتستقر على كفيه وقد استند على الطاولة بذراعيه، مرر أصابعه بين خصلات شعره الكثيفة ليبتسم وهو يذكر شعرها، ملمح أخر مشترك بينهما.
لكنها لم تكن ابتسامة سعادة بل ابتسامة حسرة.
حسرة قلب على علاقات إنسانية حرم منها وأصبح يجهل السبب...
إحداهما تكذب!!
لكن أيهما؟ ...!أمه أم أمه؟!!
هز رأسه بأسى، ياللمأساة التي يحياها ..
فكلا الحالين مؤلم، لن يصدق لو علم بكذب من ربته وجعلت منه رجلًا، ولن يتقبل حقيقة صدق من كانت له في الأصل الأم وقبلت الابتعاد.
وحتى تلك اللحظة لا يمكنه تخمين أي حقائق قد تحملها الأيام المقبلة، هو فقط واثق أنها ستكون حتمًا شديدة الألم.

....
أشرقت شمس الصباح لتزورها بغرفتها الجديدة، تململت في فراشها والذي رغم غربتها فيه كان مريحًا بلا شك، همهمات وصلت لأذنيها تخترق نعاسها الذي يغشي عقلها.

-قووووومي يا كسلانة.
استطاعت تمييز الصوت لتهمس:
-نانا ابعدي عني لسه عايزة انام.
وصلت لها ضحكة نانا:
-عادي كده مافيش أنتِ جيتي امتى يا نانا؟.
وكانت لتلك الكلمات التأثير الأقوى لإنعاش عقلها دفعة واحدة لتفتح عينيها تحدق في تلك التي تقف أمامها وقد فتحت ذراعيها:
-تراتاتاااااا.
هبت بسمة لتقف على قدميها وهي تدعك وجهها بشدة وكأنها تتأكد أنها خرجت من عالم الأحلام.
لتهمس بغير تصديق:
-نانا ..نانا!!
تعالت ضحكات نانا وهي تجذبها لتضمها إلى صدرها:
-شوفي مافتش غير 24 ساعة بس وحشتيني أوي.
دفعتها بسمة لتحدق بوجهها:
-أنتِ جيتي ازاي؟ ..ومع مين؟!
حررتها لتتجول عيناها بالغرفة:
-جينا زي ما جيتي بعربية جاهين ...ومين جه معايا ...امممممممم ...طبعًا مها وأبلة بطة.
صاحت بسمة:
-ماما هنا وساكته يا رخمة.
اندفعت للخروج فجذبتها نانا للخلف:
-جاهين في الجنينة هتنزيلي بلبس النوم.
حدقت في هيئتها بالمرآة شعرها الذي يغطي كتفيها كغطاء حميمي ورداء نومها القصير المفضل بلون الخزامي .

اندفعت لحقيبتها لتجذب رداء الصلاة الأسود لتتحجب به، مسرعة للخارج تتبعها نانا.
وصلت للحديقة في لحظات لتجد أمها تجلس أمام الطاولة تجاورها مها التي تتعلق بذراع فاطمة.
انطلقت إلى أمها لتتعلق برقبتها:
-ماما الحمدلله ...مبسوطة أوي إنك اقتنعتي.
لم تستطع فاطمة إلا أن تمنحها نظرة عتاب، لتبرر بسمة:
-ماما ماكنتيش هتيجي لو فضلت جنبك هناك ...ثم أنتوا قاعدين هنا ليه؟!
تكلم جاهين موضحًا:
-إحنا لسه واصلين والآنسة نانا طلبت تطلع تصحيكي علشان تليفونك كان مقفول.
-ماقلت بلاش ألقاب ..أنا اقولك جاهين وأنت تقولي نانا خلاص.
مطت مها شفتيها بضيق لم يلحظه أحد.
ابتسم مجيبًا:
-وماله نانا ...طب يالا بقى بسمة تقدر توصلكم أواضتكم وانا بقى هطلع على الشغل.
ودعهم سريعًا ليغادر بينما جلست نانا وبجوارها بسمة وقبل أن تسأل سردت نانا ما حدث، فبعد حوار مطول بين جاهين وفاطمة شاركتهما إياه مها لم يكن لديهم أي أمل أن فاطمة قد تغير رأيها لكن بعد أن صلت فاطمة الفجر أخبرت مها أنها استخارت ربها وقررت الذهاب، وفي الصباح الباكر اتصلت نانا بجاهين وأخبرته الأمر بعد أن حاولت الاتصال ببسمة مرارًا وهاتفها كان مغلقًا.
-جاهين بقى مارضيش يصحيكي وجه على طول وجبنا ...بس خلاص.
أمسكت بسمة بكف أمها برقة:
-أيوة يا ماما ..ده الصح أنتِ ماتعرفيش العقربة اللي هنا مفهماه ايه ده فاكر إنك رمتيه ...لازم تتكلمي معاه وتفهميه اللي حصل بالظبط.

نظرت لها بصمت، ليتها تمتلك قوة ابنتها، إذا أرادت البوح بشيء لا تتردد .. مثله تمامًا، حملت منه كل تلك الصفات العناد، القوة، الشجاعة.
فما أن قرر أن يتزوج بها لم يتواني في تنفيذ هذا القرار ضاربًا بعرض الحائط كل اعتراضات أسرته، ومن شابه أباه فما ظلم.
ها هي تُنفذ ما تريد بغض النظر عن أي اعترضات أخرى.
وقفت بسمة:
-قومي ياماما عايزة أوريكي أوضتك صحيح هتقلب عليكِ المواجع بس أكيد هتكوني مبسوطة فيها ...يالا.
نهض الجميع من أماكنهن وقبل أن يتحركن انتبهن لمن تراقبهن من نافذة ما بالدور الأرضي ولم يكن صعب تميزها.
سميحة!!

أغلقت النافذة فور أن انتبهن لها دارات حول نفسها وهي تزفر نارًا.
الأمور ستخرج عن السيطرة وعليها التصرف بشكل أسرع، فاطمة يجب أن تصمت، لا يجب أن تخبر وافي بأي شيء.
جلست على طرف فراشها تفكر في الطريقة المثلى لتحقيق ذلك وبهمسات حملت شرًا:
-هتسكتي يا فاطمة ...هتسكتي غصب عنك.
....
وقفت فاطمة بعينين متسعتين وقلب يرتجف بين أضلعها وذكريات انهالت على عقلها أنهارا.
مر عليها كثيرًا من الوقت تمنت أن تنظر لصورة له، فهذا كل ما تبقى لها وبرغم ذلك لم تجد، والان أمامها الكثير منها.
يبتسم في هذه ويزم شفتيه في تلك ويلوح بكفه غاضبًا في ثالثة وغيرها وغيرها.

استعادت في لحظة هيئته بكل أحوالها إلا حالة واحدة بحثت عيناها عنها بين الصور.
نظرته لها ..والتي دومًا حملت حبًا ودفءً عشقته.
نظرة استطاعت تمييزها من المرة الأولى ولم تصدقها، فكيف لابن الذوات أن ينظر بحب لابنة الخادمة.
مدت أناملها تحمل إحدى الأطر، ضمتها لصدرها وهي تكابح عبرات استعصى عليها حبسها، وترنح أصابها لتهرع لها ابنتها تدعم ساقيها المثقلتان بالهموم.
اجلستها على الفراش تربت على كتفها:
-اهدي يا ماما ..دي هتكون اوضتك شوفتي بقى ..بابا هيكون معاكي على طول زي ما كان نفسك دايمًا.
تعالا تدريجيًا نحيبها لتضمها ابنتها بقوة إلى صدرها، ليصل لها صوت أمها:
-روحي يا بوسي ..سيبني لوحدي شوية.
ما أن شعرت بخواء المكان إلا منها ومنه حتى ابتسمت من بين دموعها، وكأنها ترد له بسمته:
-وحشتني أوي يا أغلى الناس ..قولي اعمل ايه؟ ..ارجع ابني ازاي؟ ..!!كنت أنت قوتي ..إتهديت من بعدك وماقومتش تاني ..بس لازم أقوم ...هرجعه يا عمري اللي راح ...هرجعه واعرفه هي عملت فينا ايه وازاي ...هرجعه.
أعادت الصورة إلى صدرها وقد اعتلت عينيها ملامح إصرار ربما للمرة الأولى في حياتها.

....

ابتعدت عنها بصمت لتغادر الغرفة التي وقفت أمامها مها ونانا لتشير لهما ليتبعوها، أمسكت نانا بكف أختها لتتبع بسمة .بينما قالت مها بقلق:
-ابلة بطة كويسة.
-ايوة ..عايزة تقعد لوحدها شوية بعدين نبقى نطمن عليها.
بعد خطوات بسيطة وصلوا لعدة درجات سلم لأعلى لتضحك نانا ساخرة:
-السطوح ورااانا ورااانا.

-روف يا جاهلة خليكي كلاااااس.
تعالت ضحكاتهن جميعًا، وقفوا أمام ساحة تعادل مساحة المنزل، اختفى نصفها أسفل غرفة مغلقة تحوي عدة نوافذ والنصف الاخر انتشر فيه بعض الزروع الشمسية.
-تعالوا ...هيعجبكوا أنا شفته امبارح.

لم يلاحظ أحد كالعادة الحزن الذي ارتسم على ملامح مها وهي تخطو بحذر متشبثة بذراع أختها.
مكان جديد وأخطاء أكيدة واصطدمات محتملة وآلام ستعانيها حتى تعتاد المكان، بالكاد اعتادت على الشقة التي كانوا بها والآن الأمر أضحى أكثر صعوبة، غرفة فوق بيت كبير وعليها التعرف على المكان بالكامل.
ومشاعر العجز تتصاعد داخلها مجددًا كما يحدث كلما وصلت لمكان جديد، وتزداد مع صيحات الاعجاب التي تطلقها نانا وهي تشاهد المكان الصغير، بينما تسمرت هي مكانها خشيت الاصطدام بأي شيء مع عدم شعور بأي اختلاف، لا يمكنها رؤية الرفاهية التي تتحدث عنها أختها، لا يمكنها الشعور بالسعادة التي تصدح من بين حروف أختها، لا يمكنها أن تكون مثل ...أختها.
شعرت بكف تضع على كتفها وعلمت أنها بسمة في الحال:
-مها ..جاهين رتب كل حاجه تكون جنب الحيط علشان تمشي براحتك في المكان ..واحدة واحدة هتتعرفي عليه هو مش كبير أوي أوضة بسريرين تناموا عليهم وصاله صغيرة فيها مطبخ وحمام ..بس انتو كده كده هتاكلوا وتشربوا معانا.
أومأت مها برأسها بصمت لتقول بسمة:
-أنا هنزل الجنينه بقى غيروا والبسوا لبس مريح ..واعملوا حسابكم بسام في البيت لما يبدأ يروح الشغل هتتحركوا بحرية أكبر.
-ماشي روحي وهنحصلك.

غادرتهما لتجذب نانا أختها للغرفة الوحيدة بهذا السكن لتدفعها وتلقي بها على الفراش:

-اقعدي اقعدي ..والله حلوة وخفيفة ..أخف من الشقة اللي كنا فيها.

اكتفت مها بالهمهمة لتعقد نانا حاجبيها:

-في ايه يا نكدية؟!!

-زهقت بقى كل شوية أروح مكان غريب.

-يا ستي ..كلها يومين وتحفظيه ...طول عمرك ناصحة ياله نغير علشان ننزل نقعد مع البت بوسي.

ولم تحتاج نانا إلا ثواني لتنتهي:

-يالا يا بنتي.

حاولت مها الإسراع:

-استنيني أنا لسه مخلصتش.

-هو سلم هتنزيليه وخلاص يالا بقى.

-نانا ...ناناا استني.

وكالعادة فرت وتركتها، ضبطت حجابها بحرص وقد مدت كفيها أمامها تخطو ببطء وخوف مرددة:

-الله يسامحك يا نانا!!

حاولت تذكر خطواتها السابقة لتصل إلى المخرج وبالفعل وصلت له لتنزل درجات السلم الحديدية ومنها لممر غرف النوم، وقفت مكانها للحظة تردد نداء خافض مضطرب:

-نانا ..انتِ هنا ..نانا.

ومع ظلام دامس غرقت في صمت مخيف وكأنها فقدت حاسة السمع أيضًا، لتدخل في حاله من الخوف التي تصيبها في الأماكن الغريبة عليها، ارتجفت أصابعها وهي تفركها ببعضها مرددة بعض أيات القرءان الكريم.

تنفست بعمق لتغالب توترها وهي تضع يدها على الحائط تسير بجواره لتعيد النداء:

-نانا ..بوسي ..أبلة بطة ..حد سامعني.
وندم تسرب لها لمجرد النزول وحدها، لو بقت مكانها لكانت صعدت إحداهما لإحضارها.
انتفضت مكانها مع صوت فتح باب ما لتلتصق بالحائط مرددة:
-مين؟ ..!أبلة بطة ...بوسي.
لم يجيبها إلا الصمت بينما التقطت أنفها عطر رجولي نفاذ مما أثار توترها أكثر لتردد بعصبية واضحة:
-مين؟ ...!انا عارفه إن في حد؟!
وبعد لحظات وصل لها صوته وبدا هادئًا:
-انتِ في بيتي ..المفروض أنا اللي أسأل أنتِ مين؟.!
ابتلعت ريقها بصعوبة وهي تشعر بحرج شديد، شحذت تفكيرها لتخمن من أمامها، وبحسب كلمات من حولها لا يوجد رجل أخر في المنزل مع جاهين الذي غادر بالفعل إلا!!..
-أنت ابن أبلة بطة؟!
عاد الصمت من جديد، شعرت وكأنها تحت المراقبة، وعدم الرد رفع من خوفها وتوترها:
-بسام ...اسمك بسام صح؟.!!
....

الفصل التاسع عشر

يأسك وصبرك بين ايديك وأنت حر
تيأس ما تيأس الحياه راح تمر
أنا دقت مِندا ومِندا عجبي لقيت
الصبر مُر وبرضك الياس مُر
عجبي!!
رباعيات جاهين

وكأن حقيقة التواجد معه هي الحل السحري.
وكأن انضمامها لأسرته سيمنحها اللقب الذي تنازلت عنه برغبتها.
وكأن عليه الآن أن يهرع إلى الباب فاتحًا ذراعيه لاستقبالها كأبن محروم عادت له أمه.
ليتناسى كل لحظات يتمه والتي منحتها أمه له عن طيب خاطر، وإلا فلمَ لم تحاول الوصول إليه ولو مرة.
مرة واحدة كان ليحتفظ بها في عقله لتكون عذرًا لها الآن.
لكنه لا يذكرها ..لا يذكرها أبدًا.
أي قلب أُم هذا؟!!
علامات السخرية تحتل وجهه باستفاضة وهو يستمع لكلمات جاهين قبل أن يذهب لإحضارها، جاهين الذي بدى أكثر سعادة منه لمجيئها.
بينما البرود غلف كلماته وهو يقول:
-وماله ...أهلًا وسهلًا.
ليغادر جاهين بائسًا بينما بقي هو في فراشه وآلام الرأس تتداهمه من جديد بسبب الأرق الذي أصابه مؤخرًا، أخيرًا قرر الحركة فغادر الفراش متجهًا إلى الشرفة لم يخرج إليها بل بقى خلف نافذتها.

لا يعلم كم مر من الوقت لكنه انتبه لسيارة جاهين التي عادت للمنزل، عقد حاجبيه بشدة وهو يراها تغادر السيارة، أدار ظهره وسار خطوات عشوائية في غرفته، حتى كاد يصيبه الدوار، وقف مكانه ليمسك برأسه زافرًا:

-أأأه ...راسي ..أنا بلف حوالين نفسي ليه؟!!

استند على مكتبه ليجلس، فتح درجه يبعثر ما فيه حتى عثر عليها، رفع الصورة مرة أخرى ينظر لها، الاب الحقيقي والأم الوهمية.

وجه شابة جميلة لا تشبهها على الاطلاق، فدومًا أقنع نفسه أنه شبيه لأبيه.

والآن!!

أصبح له ثلاث أمهات دون أن يدري.

ابتسم لتتحول بسمته إلى ضحكة ساخرة ولسان حاله يقول" شر البلية ما يضحك "

استمرت ضحكاته لبرهة قبل أن تتوقف فجأة لتتبعها زفرات وشهقات أطلقها ليمنع رغبة عارمة للبكاء اجتاحته.

أعاد الصورة لمكانها تناول أدويته وقرر مغادرة المنزل فهذا الحل الأفضل، عليه أن يشغل عقله بشيء مختلف وإلا سيصيبه الجنون.

كان يبدل ثيابه ليتناهى إلي مسامعه خطوات تمر إيابًا وذهابًا، هز رأسه باستغراب، منزلهم الهاديء أصبح مرتع لمن لا يعرف عنهم شيئًا!!

انتهى مما يفعل، تنصت للباب فلم يسمع شيئًا فتحه ليغادر فاخترقت أذنه كلماتها المرتعبة لينظر لها بدهشة.

"مين؟ ..!أبلة بطة ...بوسي".

بدت خائفة جدًا وهي تلتصق بالجدار وكأنها تريد أن تختفي داخله، بسيطة محتشمة الملبس، جميلة الوجه، نحيلة الجسد، كانت تنظر للفراغ دون أن تحول عينيها إلى أي اتجاه، ترتعش أصابعها بشكل واضح.

ظل يراقبها دون أي تعليق، فلم يصل لعقله بعد سبب هذا التصرف.

-مين؟ ...!أنا عارفه إن في حد؟!

لازال صوتها يحمل قلق وتوتر بالغ، فمط شفتيه ليقول بهدوء:

-أنتِ في بيتي ..المفروض أنا اللي أسأل أنتِ مين؟.!
أثناء حديثه كانت تدير رأسها للجانب الأخر وكأنها توجه له أذنيها، ضاقت عيناه وهو يقترب منها ليجدها كما هي لم تتحرك قيد أنملة.
-أنت ابن أبلة بطة؟!
تسمر مكانه وهو يرمقها بضيق زاد حين نطقت اسمه الاخر:
-بسام ...اسمك بسام صح؟.!!
استدار ليبتعد وبدى وكأنها شعرت بذلك فحركته العصبية بدت مسموعة لها فنادت:
-طب لو سمحت ..هما فين ..قولُهم يجولي.
التفت لينظر لها وحيناها فقط استوعب عقله كل ما كان غريب من تصرفات، ذراعاها الممدودان، خطواتها المتعثرة، خوفها الواضح.
كفيفة!!
تجمد مكانه وقد ثبت بصرها عليها، للحظة فقد القدرة على التفكير، ولكن لم يجهل تلك الغصة التي أحرقت حلقه، ليعاود الاقتراب منها يرجو التأكد أو بالأحرى النفي، تلك العيون التي يبدو بريقها للعيان فاقدة للبصر!!
شعرت باقترابه من جديد فتوقفت لتحيط نفسها لا شعوريًا بذراعيها.
تحتمي منه أم من الظلام حولها لم يفهم.!!
لينهي تقدمه ويبقى حيث هو:
-عايزه تروحي فين؟!
همست:
-ناديلي حد منهم بس.
دار بعينيه مفكرًا، ليس لديه رغبة لرؤية أحد ولهذا يغادر المنزل.
استمر صمته لحظات قبل أن يتذكرها:
-أأه ..استني ماتتحركيش هناديلك حد.
تركها ليتجه إلى الدرج مناديًا:
-نوناااا.

ثواني قليلة لتظهر كعادته ملبية النداء، فأشار لها أن تأتي، صعدت إليه لتتبعه:
-خدي الآنسة دي وصليها ليهم.
ليكمل وهو يوجه حديثه لمها:
-دي بنت زيك ماتقلقيش.
وبينما يستدير همس للخادمة:
-سمعيها صوتك.
تركهما ليغادر، وما إن وصل للردهة حتى رأى سميحة تغادر غرفتها فانتظرها فأسرعت نحوه:
-صباح الخير يا حبيبي أنت لابس ورايح على فين؟!
-الشغل ..زهقت من القعدة.
-فطرت؟!
ابتسم ليمسك بذراعها:
-ماتيجي اعزمك على الفطار الأول وبعدين نطلع على الشركة سوا.
اتسعت بسمتها هي الأخرى وهى تربت على وجهه:
-ياسلام ..ده هيبقى أحلى فطار يالا بينا.
ضمت كفه بين أصابعها، تمنت لو كانت تلك الفاطمة هنا لترى بنفسها أنه لن يكون إلا لها هي فقط.
مرا على الحديقة من الباب الرئيسي للمنزل، وهذا لم يمنع بسمة ونانا من رؤيتهما معًا يغادران لتقول الأخيرة:
-أخوكِ ده صح؟!
أومأت بسمة وهي تزم شفتيها:
-هو ..شوفي ماشي معاها ازاي؟
-كويس أن أبلة بطة فوق ..كان دمها هيتحرق.
ضاقت عينا بسمة:
-معلش خليها تشبع منه اليومين دول ..حلاوة روح مش أكتر.
مالت نانا ناحيتها هامسة:

-ماقلتيش ايه الخطة؟!
استرخت في جلستها متمتمة:
-لسه مافيش خطة بس أكيد هوصل للفكرة الصح في الوقت الصح.
-مش هتنزلي الشغل؟!
-هنزل طبعًا يومين بس اطمن على ماما وهي هنا وبعدين رجلي على رجلهم.
انتبهت لمها القادمة إليهما تدعمها الخادمة فصاحت:
-تعالي يا مها.
لتوكز نانا:
-مش كنتي استنتيها هي لسه مش عارفه المكان.
هزت نانا كتفيها:
-هي مش عيلة.
وصلت مها إليهما لتجلسها الخادمة على الكرسي فشكرتها كثيرًا قبل أن تقول بغضب:
-أنتِ معندكيش ريحة الدم ...تسيبني كده أخبط مع نفسي.
ضربت نانا كف بكف:
-هو أنا سيباكي في الشارع ثم ما الست جابتك وجات.
-وهي يعني جات من نفسها مش هو اللي نده عليها.
انتبها لها الاثنتان أكثر لتعتدل نانا:
-هو ...هو مين؟!
قصت ما حدث لها والغضب يسيطر على حروف كلماتها، لم تهتم نانا كثيرًا بهذا بل طار عقلها إلى مكان أخر أو بالأحرى تخمين أخر، لتبتسم نانا بخبث وهو تتبادل النظرات مع بسمة التي ضحكت على رد فعلها مع ترديدها:
-حلووو أوووي ...شاطرة يا مها ...بكرة تدعيلي اني سيبتك على السلم.
لم تعي مها قصدها ولم تهتم، لتتحدث إلى بسمة تتسائل عن فاطمة، لتخبرها الأخيرة أنها أرادت البقاء بالغرفة مع ذكريات والدها الراحل.
اشفقت مها عليها لتهمس:

-مش كنتي فضلتي معاها ممكن تتعب.
-ماتقلقيش يا مها يمكن لما تقرب من بابا تجمد قلبها شوية وتحارب معانا.
هزت مها رأسها باستنكار:
-تحارب ايه بس يا بوسي ..بلاش تقليبها حرب خليه يعرف الحقيقة وخلاص.

لم تجادل فهي تعرف تفكير مها البريء لن يساعدها لتفهم أن سميحة لن تتوانى في أن تلقي بهن في الخارج، وأنها بالفعل ستبدأ حرب معها ربما ستشبه الحرب الباردة التي لا ضحايا فيها ولا إطلاق نار ...المهم أن تكون هي المنتصرة.

....

استلقى في الحديقة مستظلًا بشجرة وفيرة الأوراق، غطى عينيه أسفل ذراعه التي استقرت على وجهه، لا يحرك قيد أنملة، فيبدو للشاهد شخص نائم في سلام.
بينما الحقيقة شيئًا أخر .
فعينيه لا ترى النوم إلا قليلًا، وداخله لا يوجد إلا الكثير من الغضب، غضب يبحث عن متنفس له ولا يجد، لا يتحدث لأحد توقف عن الذهاب للعمل وتركه سامر على أمل أن يمل، وبالفعل هو مل ..مل البقاء حيث هو وعدم القدرة على إيجادها، وعناد أخيه السخيف لعدم إعطاءه أي معلومة أخرى:
"انت عايز عنوان حارتهم ليه؟ ..هي مش هناك ماتريح نفسك بقى وتريحني يا أخي"!!
اعتصر قبضته وهو لا يزال على هيئته ليتناهى له صوت هامس:
-معاذ.
فتح عينيه وقد أزاح ذراعه ينظر لها ولم يخطيء في تعرف صوتها والذي لا يعلم لمَ أثار المزيد من غضبه فاعتدل قاعدًا:
-نرمين!!
ابتسمت بسعادة وهي تقول بلهجة مصطنعة:

-نرمين ..ومالك بتقولها كده ..فين وحشتيني يا نيري ..نسيت عشرة الأربع سنين.
عقد حاجبيه وهو يقف أمامها:
-أنتِ ايه اللي جابك؟!
بدت لهجة هجومية أكثر من مجرد سؤال، شعرت بالارتباك وهي تشبك أصابعها معًا:
-مالك؟ ..!بتتكلم كده ليه؟!
راقب خلجاتها المضطربة محاولًا قراءة أفكارها، هل تعلم؟!!
هل أخبرها سامر بشيء؟!
اختيارها لهذا التوقيت للظهور ليس بريئا أبدًا.
قال باقتضاب:
-أهلا.
ابتعد غير مباليًا بدهشتها ونظراتها المتألمة، لكنه تسمر حين قالت:
-ماتزعلش ...هي الخسرانة.
تصورت أنها تواسيه لكن النظرة التي منحها إياها والتي حملت كل غضب وحنق أشعرها بخطئها فاقترب منها بوجهٍ مكفهر حتى أنها خطت للخلف قبل أن تصطدم بالشجرة التي أوقفتها إجباريًا:
-لو فاكرة نفسك هتقدري تشمتي فيا يبقى بتحلمي.
برقت عيناها في لحظة بماءها، وقبضة باردة تعتصر قلبها:
-أنا ..أنا هشمت فيك؟!!
لازال غضبه يتقافز على وجهه:
-عايزة تقولي إنك كنتي صح ...وأنا بس اللي كنت مستني مش هي.
هزت رأسها وقد غالبتها دموعها:
-لا يا معاذ ..أنا مش قصدي أنا بس مش عايزاك زعلان.
مدت كفها نحوه:
-أنت اللي تهمني مش أي حد تاني.

دفع يدها عنه لتشهق بفزع:
-سيبني في حالي يا نرمين لو عايزانا نفضل أصحاب.
أجهشت في البكاء لتفر من أمامه لكنها اصطدمت بسما التي كانت تقترب منها فأوقفتها مهدئة:
-ايه يا نيري مالك؟ ...!بتعيطي كده ليه؟!
-أنا أسفة يا طنط أنا لازم أمشي.
رمقت ابنها بغيظ وهر تربت على وجه الفتاة:
-هو معاذ زعلك ولا ايه؟ ..تعالي معايا ده أصلا جابلنا اكتئاب ماعرفش ايه اللي جراله.
سارت معها باستسلام والأخرى تحاوطها بذراعها، ليلقي هو بجسده جالسًا على الأرض مستندًا على الشجرة، وشعور بالندم يتسلل إليه مع صوت بكاءها الذي لا يزال يتردد في عقله، وكأنها كانت سبيله لينفس عن غضبه، لكنه يعلم جيدًا لمَ هي هنا، يعلم ما الذي تخطط له أمه المصون.
زواج للمصلحة ليس أكثر وتبًا لأي مشاعر.
فرك رأسه بعصبيه، ليس في حاله تسمح له بالمجادلة، فليتركوه يعثر عليها أولًا وبعدها سينتهي كل شيء ...حتمًا سينتهي.!!
....
مر يومان في هدوء مشوب بالتوتر من البعض.
وكأن المنزل انقسم فريقين، الفريق الجديد يصاحب بعضه معظم الوقت يتناولن الطعام معًا، يقضيان الوقت معًا .أما الفريق الاخر لا يظهرون إلا ليلًا عند العودة من العمل وبالطبع لا يجتمعون إلا مع أعضائهم الدائمين سميحة ميادة وافي وجاهين.
الذي لم يعجبه الأمر وظن أن استمرار الحال هكذا لن يفيد.
انتهى العشاء ليذهب كلًا إلى غرفته بينما تتبع جاهين أمه التي جلست تطالع كتاب ما كعادتها قبل النوم.
-ماما كده مش هينفع لازم نجمع الناس ..كل مجموعة لوحدها طب وبعدين.

همهمت ميادة:
-عندك حق ...بس يعني ازاي؟ !!الفطار بتاعكم بدري علشان الشغل وهما بيصحوا براحتهم وكمان الغدا لوحدهم وهما مش بيتعشوا نعمل ايه بقى؟!
ربت على كتفها:
-بكرة الجمعة ظبطيها أنتِ بقى يا ست الكل، الفطار يكون سوا والغدا كمان.
-ماشي ولو إني أشك إن عمتك هترضى.
-سخنيها بكلمتين يا ماما ..زي مثلا ماتسيبيش وافي لوحده وهي هتيجي على طول.
ضحكت ميادة ملء فيها ليكمل هو:
-بس في حاجه كمان!!
-ايه هي؟!
-هو احنا هنعَرَّف بقيت الناس ازاي ببسمة ومامتها ..فجأة كده يلاقوا لوافي أم وأخت.
-فعلًا مافكرناش فيها دي!!
صمتت لحظات مفكرة لتقول:
-مش عيد ميلاد وافي قرب وهو نفسه عيد ميلاد بسمة مانحتفل بيهم ونعزم كل قاريبنا ومعارفنا وأصدقائنا ونعرفهم عليها وعلى مامتها بس لازم نتفق على حجه كويسة نقولها كلنا علشان فضول الناس.
-بس وافي بطل موضوع الاحتفال ده من زمان.
-يا سيدي نقنعه إنها مناسبة لتعارف الناس بمامته وأخته.
أومأ مؤيدًا:
-طب بكرة نفتح الموضوع على الفطار وكله يكون قاعد.
-لاا ..على الأقل كلم وافي الأول علشان مايضيقش الناس برد فعله اللي أكيد هيكون صريح زيادة عن اللزوم.
-صح يا ماما وافي هيكسفني ولا هيهمه ...هعدي عليه يالا اسيبك بقى تصبحي على خير.

-وأنت من أهله يا حبيبي.

....

الفتيات صعدن لأعلى ليكملن سهرتهن معًا كما فعلن في الليلتين الماضيتين، دخلت فاطمة غرفتها تحادث صورةُ كعادة جديدة صاحبتها منذ استقرت في تلك الغرفة، وربما هذا هو الشعور الجيد الوحيد الذي تشعر به، فلا شيء مختلف آخر، لازال ابنها أبعد ما يكون عنها رغم قربه، تصورت أنه ربما سيدفعه الفضول ليطرق بابها، يتحدث إليها، يسألها عن أسباب ابتعادها عنه.

لكنه لم يفعل أيًا من هذا، إنها حتى لا تلتقي به ولو قدرًا، فقط تراقب ذهابه للعمل وعودته من نافذتها مستترة بستائرها، وبرغم الشوك الذي يغتال قلبها لذهابه معها كل صباح وكأنه يخبرها أنه لديه أم ولا حاجة لأخرى إلا أنها لا تمل من الوقوف في انتظار نزوله صباحًا كي ترى وجهه الذي افتقدته لأعوام وأعوام.

مدت أنامله تمررها على ملامح وجهه الباسمة:

-أنا لازم اكلمه بنفسي يا وافي لو فضلت مستنية مش هيجي ..خايفة مايصدقنيش ..خايفة تكون سميحة سودت قلبه ناحيتي .. خايفة أوي يا وافي.

تنفست بعمق لتملأ عينيها بملامحه، تتذكر كلماته، مواساته، دعمه.

لطالما كان ماهر في رسم البسمة على شفاها في أوج أزماتهما، طالما بثها الأمان من وسط مخاوفها.

اتجهت لباب غرفتها تقدم قدم وتؤخر أخرى، انصتت فلم تسمع إلا الصمت، تعالت

أنفاسها وتوترها يزداد .خرجت أخيرًا لتخطو إلى غرفته، وقفت أمام بابه وبلغ توترها أقصاه، نبضات قلبها تصارع بعضها كعادتها حين تخشى المواجهة، لكنه كاد أن يتوقف تمامًا حين فُتح الباب ولم ترى وجهه بل رأت وجهها .. هي.!!

....

جلستا بأريحية تطالعا السماء المظلمة، ذلك الغطاء الذي اعتادتا عليه طوال حياتهما ويبدو أنهما فضلتا البقاء معه حتى هنا.
-تصدقي إحنا فقريين ...يعني سيبنا سطوح هناك برضو قاعدين في سطوح هنا طب ما ننزل نقعد في أوضتك مثلًا.
ضحكت بسمة:
-من فات قديمة تاااه يا ناني.
اعتدلت لتسال باهتمام:
-أنتِ هتروحي الشغل امتى بقى ..وكمان مش قلتي هتشغلي محمد.
همهمت:
-أنتِ بتسألي عليا ولا على محمد.
-اخلصي.
قالتها بنزق، فأجابتها:
-بكرة الجمعة وأكيد هيكونوا هنا ..هكلم جاهين في الموضوع ومن السبت هنزل معاهم وأنا بنفسي هنزل محمد معايا ماتقلقيش ..بس أنتِ مش هتفكيها عليه بقى أنتِ بجد عندك استعداد تكوني مع حد غيره.
رمقتها لحظات بصمت قبل أن تشخص ببصرها بعيدًا، لتكمل بسمة:
-لا بجد ...حرام عليكِ ده صبر كتير أوي ..تعرفي أنا لو منه كنت رميت طوبتك من زماااان.
-يا ريته كان رماها كان ريحيني دلوقتي من العذاب ده.
ضربت بسمة كف بكف:
-ما أنتِ اللي معذبة نفسك ..اصبري عليه شوية اديه هيشتغل معايا وإن شاء الله يثبت وجوده ويبقى حاجه كبيرة.
-طيب يا ختي ادينا قاعدين يعني شايفة الأخوة المليونيرات واقفين طوابير.
-يا بت والمليونيرات دول أصلا هيبصولك ليه؟!
أدارت نانا رأسها بالمكان لتضحك بسمة:
-مافيش مخدات هنا تحدفيني بيها.

-وانا هغلب شايفة الزرع ده هخبطك بيه.
-نفسي اعرف محمد جاري وراكي ليـــــه؟!!
وضعت كفيها خلف رأسها تبتسم بزهو:
-معايا أغلى حاجه يا ختي ...قلبه.

....
توقف الثلاثة يتبادلون النظرات فحسب وإن كانت فاطمة أكثر فزعًا وهي تنظر لابنها الذي وقف خلف سميحة التي كانت تنوي مغادرة غرفته.
ندبت فاطمة حالها، ليتها اختارت وقت أخر .. يوم أخر ..بدلًا من أن تصطدم بتلك المرأة.
أنهت سميحة حالة الصمت قائلة:
-فاطمة؟ ..!خير؟!!
حاولت أن تبدو قوية، ولا تعلم إن نجحت في ذلك أم لا، لكنها في الحقيقة تكاد ترتعش رعبًا مما قد تخرجه فاطمة من لسانها الآن، لكنها تعلم مدى ضعف تلك المرأة لذا فلتتمسك برداء القوة فهو كفيل بحمايتها.
ترددت فاطمة للحظة قبل أن تقول:
-كنت جايه اطمن على ابني.
قصدت أن تقول صفته لا اسمه لعل تلك المتطفلة تتركهما وشأنهما، لكن الآثر كان مختلف فنظرة الاستنكار التي منحتها لها سميحة وكأنها تفوهت بما لا يحق لها جعلها تهرب بعينيها لوليدها طلبًا للنجاة.
وخذلان جديد جاء على لسانه بنفس النبرة الباردة:
-أنا كويس شكراً لاهتمامك.
وألم جديد يصيب قلبها مع بسمة تشفي استقرت على ثغر غريمتها:
-اهو قالك كويس ولازم ينام دلوقتي ..تصبح على خير يا حبيبي.
أومأ برأسه لتخطو خارج الغرفة وتغلق الباب من خلفها، وتستدير تحدق بفاطمة بحقد واضح:
-تعالي ..عايزة اقولك كلمتين.

تحركت ناحية غرفة فاطمة التي تمنت أن تصرخ بها أن تتركها تسترجع ابنها، ويكفي ما سرقته من عمر وليدها بعيدًا عن حضنها.
لكنها في النهاية تتبعتها بصمت لتدخل إلى غرفتها، أغلقت سميحة الباب ودارت ببصرها في المكان لتبتسم ساخرة:
-اديكي رجعتي وكمان شايفة صوره في كل حته فرحانه بقى.
عقدت فاطمة حاجبيها وتسلحت بعزم زوجها الذي رأته دومًا منه:
-أنا هفرح لما ابني يرجعلي.
ضحكت بتهكم:
-ابنك يرجعلك اصحي من أحلامك وافي ده ابني أنا ...أنا اللي ربيته وكبرته لا يمكن هتقدري تاخديه مني أبدًا.
اقتربت منها بعناد:
-لأ ..هرجعه ..أنا امه ..أنا اللي ولدته ..أنا اللي رضعته ..مسيره يرجع لحضني وهتشوفي وهتطلعي أنتِ الخسرانة.
لم تنل منها نظرة طبيعية أبدًا، فما رأته فاطمة في عيني تلك المرأة لم يكن شيء يمت للغضب أو الضيق بصلة، بل نظرة قاتمة لا تحمل أي معنى.
نظرة أصابتها بقشعريرة مفاجئة لتلتزم الصمت بينما نطقت الأخرى بلهجة حملت برودة الصقيع:
-أنتِ استخبتي ليه يا فاطمة لما خدته منك وماجيتيش ورانا؟ ..!علشان كنتي خايفة على بنتك لاخدها هي كمان ..صح؟ ..!طب دلوقتي بقى بقولك خافي أكتر يا فاطمة ودي مش بنت واحدة أنتِ جايبالي تلاتة ..منهم واحدة يا عيني عامية يعني ممكن تغرق في شبر ميه ..وسهل أوي يحصلها أي حاجه وتضيع منك.
اتسعت عيني فاطمة عن أخرها مرددة بغير تصديق لذلك التلميح:
-أنتِ قصدك ايه؟!
مالت ناحيتها وبفحيح كالثعابين قالت:
-اسكتي يا فاطمة واقفلي بؤك وإياكي تفكري تقلبي وافي عليا لأني ساعتها هخسرك واحدة من البنات.

ارتدت فاطمة للخلف تردد بهذيان:
-مش ممكن ..مش ممكن ..أنتِ لا يمكن تقدري تعملي كده.
أكملت سميحة غير مبالية بردت فعلها:
-وافي ده ابني ..لو حد فكر ياخده مني أو يكرهه فيا أن همسحه من على وش الأرض ...اتقي شري واحمدي ربنا إني هسيبك جنبه وزي ما قلتلك خافي على بناتك يا فاطمة ..دول بنات يعني في ألف طريقة ممكن تموتهم بالحيَ.
هزت رأسها نفيًا وبحروف ترتعش:
-أنتِ ايه شيطاان.
علمت أنها نجحت في إثارة رعبها، ابتسمت بانتصار:
-خدتي أخويا بس مش هتعرفي تاخدي ابني.
اندفعت نحوها صارخة وهي تتعلق بذراعها:
-ده ابني ..ابني أنا يا سميحة حرام عليكِ ...مافيش في قلبك رحمة.
نزعت سميحة ذراعها:
-أنتِ اتجننتي نسيتي نفسك ..فوقي ..أنا سميحة هانم ومش مسحولك تكلميني إلا باللقب ده وإياكي تمدي إيدك ناحيتي تاني.
دفعتها جانبًا لتغادر الغرفة صافعة الباب خلفها بينما انطرحت فاطمة أرضًا وهي تلطم خديها:
-يالهوي ...بناتي ..هتعمل فيهم إيه؟ ..!ابني راح مني خلاص ..ابني رااح مني.
انكفأت بوجهها أرضًا لتتخذ وضعية السجود ونحيبها المكتوم يتعالا وعبراتها تُغرق موضع رأسها:
-يااارب ارفع عني الظلم ده يا رب ..ابني يارب راجعهولي ..مش هقدر عليها لوحدي ..أنت المنتقم الجبااار.
....
وقف جاهين مكانه للحظة لترمقه بغضب:
-بتبصلي كده ليه ..اوعى عن طريقي.

غضبها منه لم يهدأ بعد، فهو من أصر على عودة غريمتها وعليه تحمل العواقب .

تنحى جانبًا يتابع ابتعادها ليعود ببصره إلى المكان الذي تركته للتو- غرفة زوجة عمه -عقد حاجبيه والتساؤل يزداد ما الذي كانت تفعله عمته عند والدة وافي.
جل ما يخشاه أن تسبب لهذه المسكينة الأذى، فهو يعلم أنها على استعداد لفعل أي شيء كي لا تخسر وافي، لكنه أيضًا يثق أن هناك حدود لما قد تفعله، لذا سيحاول ألا يقلق، فقط عليه أن يحرك وافي قليلًا بدلًا من سياسة الهروب التي يتبعها منذ مجيء أمه إلى هنا.
فتح باب غرفته مندفعًا لينتفض وافي:
-ايه يا بني ..مش هتتعلم تخَبط أبدًا.
-ليه إن شاء الله داخل على بنت خالتي.
ضحك وافي على تعليقه:
-ضحكتني رغم إني ماليش نفس.
-طب كويس إني ضحكتك لإني أكيد هنكد عليك دلوقتي.
زفر وافي وهو يرمقه بغيظ، ليردف جاهين:
-وأخرتها يعني ..هتفضل هربان كده هتكلمها امتى؟!

خائف؟!!
هل يمكن أن يقولها فحسب، أنه خائف مما قد يسمعه، مما قد يعرفه!!
يخشى أن يكتشف أن سنوات عمره كلها كانت كذبة كبيرة، يرتعد من فكرة أنه حُرم من والدته بفعل فاعل، أو أن تكون هي الفاعل.
معادلة لا حل لها إلا الوجع!!
بالأمس وقف أمام بابها، لا يعلم كيف أخذته قدماه إلى هناك، يتطلع له بصمت وجل، وبرودة تعزو أطرافه رغم ضربات قلبه المتسارعة.

دقيقة تلو أخرى وفي النهاية لم يحتمل المواجهة، أراد فقط أن يسألها..
لماذا؟!!
لماذا تركته؟!
لماذا هي من نالت صحبتها وحضنها وليس هو؟!

"وااافي"
أخرجه صوته من بحر أفكاره لينتبه له:
-نعم؟!!
-نعم الله عليك يا بني هو أنا بكلم نفسي !!بقولك بكرة على الفطار هنقعد كلنا مع بعض مش كل جروب لوحده زي اليومين اللي فاتوا متهيألي بقى تقرب لمامتك وأختك ولا أنت ناوي تقضيها كده سكتم بكتم!!
-اللي تشوفه.
اتسعت بسمة جاهين:
-ايه الطاعة دي مش واخد على كده ...طيب دي حاله لن تتكرر وبالمناسبة دي أحب اقولك عايزين نحتفل بعيد ميلادك انت وبسمة ونعزم الناس ونعرفهم عليهم ايه رأيك؟!!

وطارت أحلامه عن الطاعة مع الوجه الغاضب الذي حمله وافي وهو يرمقه بسخط:
-حفلة ايه وبتاع ايه ..أنا بطلت الموضوع ده وكمان مش حابب أعرفهم على حد.
-ازاي بقى ..أختك ناوية تنطلنا في الشركة أنا متأكد ..هنقولهم إيه ..صديقة عابرة؟.!!
لم يعقب وافي بل ظل على غضبه وهو يطلق زفرات ساخنة، فأشار له جاهين ليهدأ:

-ممكن نهدى ونكون منطقيين ..هما خلاص معانا ولازم نعَرَّف الناس بيهم بطريقة تسكتهم ويبطلوا فضول خلينا نفكر في الطريقة اللي ماتجرحش حد.
-اعمل اللي تعمله يا جاهين وسبني في حالي ...أنت من الأول بتتصرف من دماغك وعمال تحطني قدام الأمر الواقع.
رد مدافعًا:
-ما أنا لو ما تصرفتش مافيش أي حاجه هتحصل ..صح ولا أنا غلطان؟!!
هز وافي رأسه بنزق:
-اخلص يا جاهين عايز ايه؟!
-بكرة على الفطار واحنا متجمعين هنفتح موضوع الحفلة علشان نقدمهم للناس خليك معايا على الخط لأن أكيد عمتي هتعترض بس لو لاقيتك موافق هتسكت.

ربما هو لن يخطو تلك الخطوة قط كما يقول جاهين، فليتركه يدفعه إليها إذن.
أومأ برأسه بصمت لينهض جاهين فرحًا وهو يردد عبارات الامتنان والشكر وأمنية بنوم هاديء حتى الصباح.
اتجه لباب الغرفة يفتحه بهدوء لكنه توقف مكانه يحدق إلى شيء ما من خلف الباب، راقبه وافي لوهلة قبل أن يتحرك ناحيته ليقف خلفه مادًا عنقه ليرى ما لفت نظره، فاتسعت عيناه حين رأى أخته تفتح باب غرفتها لتدخل إليها، ولم يكن هذا ما أغضبه فلقد كانت ترتدي منامة قطنية وقد تركت شعرها منسدلًا على كتفيها بغزارته مما جعل هيئتها خاطفة للعين، فسحب جاهين للخلف بقوة لينتفض الأول:
-في ايه؟!!
-أنت بتبصلها من ورا الباب.
-يا عم هو أنا كنت اقصد لاقتها خارجه من أوضتها وقفت ...شكلها بصت على مامتها من على الباب ورجعت تاني.
-بس أنت كنت بتبصلها وأنت عارف أنها محجبة.

عقد جاهين حاجبيه ليقول من بين اسنانه:

-ده اسمه إيه ده ...غيرة أخوات دي ولا إيه؟!!

لوح وافي بكفه غاضبًا:

-جاهين ماتهزرش دي مش لوجي أختك ...دي أختي أنا.

برقت عينا جاهين لتتسع بسمته وهو يقلد نبرته:

-أختي أنااا ..تصدق طالعه حلوة أوي منك!!

زاغت نظراته للحظة ليستعيد كلماته في عقله، لقد قالها بالفعل، لأول مرة ينطق بها لسانه بهذا الأحساس الحقيقي بعلاقتها به ..أخته!!

اقترب جاهين ليربت على كتفه:

-أيوة يا وافي ...خرجها بقى أنت عايز تقربهم منك لكن في حاجز مانعك ... كسره.. عدي من فوقيه ..اتصرف ..المهم ماتحرمش نفسك منهم أكتر من كده.

التفت ليغادر ويلقي عليه تحية المساء قبل أن يغلق الباب خلفه.

....

الفصل العشرون

أهوى الهوى وهمس الهوى في العيون
وبسمة المغرم ودمعه الحنون
وزلزلات الحب نهد الصبا
أكون أنا المحبوب أو لا أكون
عجبي!!
رباعيات جاهين

القوة..
طبيعة أم صفة مكتسبة!!
عادة أم تربية!!
وأيًا كان الاختيار...
فأن تسعى لتكون قويًا ليس بالأمر الهين، إذا ما عشت حياتك ضعيفًا.
وهي تتمنى أن تمتلك القوة، أليس الحق لها؟ ..!
كيف تكون الضحية وتخشى فضح الجاني؟!
داخلها الكثير من الأنين الذي تريد أن تبثه بصرخة يسمعها العالم أو يسمعها هو فقط.
تريد أن تخبره كيف حرمت منه وحرم منها، تريد أن تزيل تلك النظرة الباردة التي يمنحها إياها، وبدلًا من كل هذا، تستقر على فراشها وقلبها يرتعد من الخوف.
لقد استطاعت تلك المتحجرة القلب في بث الرعب في أوصالها.
التهديد ببناتها هو ما لم تتخيل أن تسمعه يومًا.
فكيف وقد ذكرت أضعفهن وأرقهن.
"مها"

سارة سيف الدين

هزت رأسها وهي تقاوم زخ المزيد من ماء عينيها، لن تتحمل أن يصيب تلك المسكينة أي شيء بسببها حتى لو كان الأمر ليس بيدها.
لكنها أيضًا لا تستطيع الصمت وترك ابنها لقمة سائغة لتلك الشمطاء.
فماذا عليها أن تفعل؟..!

سؤال لم تجد له اجابة طوال الليل الذي لم تقوى على أن يغمض لها فيه جفن، حتى زيارة ابنتها الليلة للاطمئنان عليها، ادعت فيها النوم كي لا ترى وتسمع ابنتها عيناها الاتي تخضبتا بلون الدم وصوتها الذي بحه البكاء.
وها هو الصباح أشرق وهي على حالها، لا بل أسوء ..فأنين قلبها المريض عاد ليذكرها بضعفه وعدم قدرته على تحمل تلك الضغوط، فقضت ليلتها ترجو ربها أن يمنح قلبها القوة، ألا تموت قبل أن ترتشف من شوقها لابنها، أن تنال منه ضمة صادقة يمنحها إياها بحب، أن تسمع منه لقبها الذي حرمها إياه ومنحه لمن سرقته منها .
لكنها خائفة، جسدها الذي أرهقه تعب قلبها فلم يمنحها القدرة على الحركة، يجعلها تخشى أن يحين أجلها قبل أن تنال مرادها.
أغلقت عينيها مستسلمة لتعبها حتى أنها لم تشعر بابنتها التي اقتربت منها:
-ماما ..أنتِ لسه نايمة مش عوايدك.
نظرت لها فاتسعت عيني بسمة بهلع:
-يالهوي يا ماما عينك حمرا كده ليه ...أنتِ كنتي بتعيطي ..لا كده ماينفعش أنتِ قلبك مش هيستحمل لو مش قادرة تفضلي هنا تعالى نامي في أوضتي أحسن وبلاش الذكريات اللي بتقلب عليكي المواجع دي.

غصة خانقة أوقفت الكلمات في حلقها، تتمنى أن تخبر ابنتها، تطلعها على ما حدث، لكنها تعلم جيدًا ردت الفعل المتوقعة، بسمة لن تفكر للحظة بل ستغضب وتصرخ وتصيح وتقلب الأمور رأسًا على عقب، وهي لا تعلم أن سميحة يمكنها

حقًا أن تنفذ ذلك التهديد ولن تخشى أحد .ولا تريد أن تجعل من ابنتها عدوة صريحة لها وإلا فقد تخسرها إلى الأبد.
أغلقت عينيها مرة أخرى لتقترب بسمة منها تربت على كتفها:
-ماما ..أنتِ كويسة
أومأت برأسها ببطء، فأردفت:
-طب يالا قومي ..أم جاهين عايزانا كلنا نفطر سوا.
أشاحت بوجهها بعيدًا:
-انزلي أنتِ والبنات ..أنا تعبانة.
أصاب بسمة القلق:
-مالك يا ماما؟!
-التعب العادي يا بنتي مش هقدر أنزل ..شوية وهبقى كويسة هاتيلي أي لقمة آكلها علشان أعرف أخد الدوا.
مالت ناحيتها وهي تضع كفها على ناصيتها:
-ماما أنتِ متأكدة إنك مش محتاجة دكتور؟!
ابتسمت بوهن:
-مش للدرجة دي يا بنتي ...اعملي اللي قلتلك عليه وروحي أنتِ.
ظلت ترمق أمها للحظات قبل أن تستجيب وتغادرها، بينما وضعت فاطمة كفها على قلبها هامسة:
-يااارب.. أوي قلبي يارب ..نفسي اشبع منه الأول يارب.

....
جلست سميحة على رأس المائدة كعادتها، ليأخذ جاهين ووافي مكانها ومقابلهما جلست ميادة، أرادت سميحة أن تبدأ الأكل لكنها توقفت حين رأتهم لا يتحركون، عقدت حاجبيها:
-مالكم؟ ..!ما تاكلوا؟!
همهمت ميادة وألاقت بما في جعبتها قبل أن تتراجع:
-مستنين الجماعة قلتلهم ينزلوا يفطروا معانا.

تجمدت نظرة سميحة على وجه ميادة التي تهربت بالنظر إلى ابنها ووافي ليبتسم جاهين قائلًا:
-دي فكرة كويسة ياماما ..مش كده يا وافي.
التفتت سميحة ترمقه بعينين تسرب إليهما الغضب، فوكزه جاهين بركبته، فاكتفى بالايماء برأسه.
ضمت سميحة قبضتها أسفل المائدة في محاولة للتماسك، ليس عليها أن تبدي عدم رغبتها الشديدة بوجودهن، عليها أن تدعم كل كلمة قالتها لوافي، فتهديها الواهي هذا قد لا يوقف فاطمة أو ربما تدفع ابنتها لتقوم بما لا تستطيع القيام به، لذا عليها التفكير أيضًا كيف يمكنها أن تغلق فم تلك الفتاة، وهذا لن يكون يسيرًا فهي على النقيض من أمها تمامًا، تعرف ما الذي تريده وتسعى إليه بثبات، كما أنها لا تخشاها ولن تخشاها ..مما يجعل اسكاتها بالتهديد ضربًا من المستحيل.

رفع الجلوس رؤسهم مع خطوات نزولهن على الدرج، تتقدمهن بسمة التي أشارت لنانا لتجلس بجوار ميادة وساعدت مها لتجلس في الكرسي المجاور لأختها بينما اتجهت هي للجلوس على رأس المائدة المقابل لسميحة، ليحدق بها البقية بنظرات متباينه ما بين دهشة واستنكار لتبتسم ببلاهة مقصودة:
-أنا قعدت في مكان غلط ولا إيه؟!!
تبادل جاهين وأمه النظرات لتقول الأخيرة:
-مافيش حد بيقعد هنا من سنين.
اعتدلت بسمة في مجلسها لتقول:
-خلاص لاقى اللي يقعد عليه.
انهت جملتها وهي ترمق سميحة بتحدي واضح قبل أن تتسع بسمتها الغريبة:
-إلا صحيح يا عمتو ..المفروض أقولك عمتو زي جاهين ولا ماما زي أخوويا؟.!

مطت ميادة شفتيها وهي تتابع هبوب عاصفة على وشك أصابتهم جميعًا، خاصة أن بسمة تبدو عازمة على إغاظة سميحة التي بالكاد تتمالك نفسها، أما جاهين ففرك رقبته بصمت وهو ينظر لبسمة بضيق ويتمنى صمتها:

-هتقولي لها عمتو ...دي ربتني أنا مش أنتِ.

قالها وافي وهو يُعد طبق افطاره دون النظر لأحد، فابتسمت سميحة بتشفي بينما سخرت بسمة منها:

-وماله ..عندك حق ..أصلا كلمة أم ماتتقلش غير للأم.

هذا يكفي!!

الانفجار سيحدث، نظرة سميحة تبدلت لغضب عارم، تسرب إلى وافي الذي لم يعجبه تلميحها الذي يحمل اتهام مبطن.

وقبل أن ينطق أحد أصدر جاهين صوتًا بملعقته التي ضربها بطبقه برفق:

-أنا بقول نفطر بقى ...ولا أنتوا رأيكوا ايه؟!!

وافقته ميادة في محاولة لتلطيف الأجواء وتخفيف الشحنات السالبة المتضاربة:

-أيوة ..صحيح ؟ ..!فين فاطمة يا بسمة مانزلتش ليه؟!

-تعبانة شوية؟!

لاحت من وافي التفاته لها وعلى طرف لسانه السؤال التي سألته ميادة بدلًا منه:

-ألف سلامة ..مالها؟!!

-يعني ..قلبها تعبها شوية.

خفضت سميحة بصرها وهي تستمع لكلمات بسمة.

إحدى علامات السعادة ارتسمت في عينيها فلم ترد أن ينتبه لها أحد، كانت تخشى أن تهديداتها لن تسكت فاطمة لكن يبدو أن كلماتها معها أتت ثمارها أكثر مما توقعت حتى أنها انهكت قلبها المريض.

قلبها المريض!!

هذا القلب الذي لن يحتمل المزيد من الضغط، هذا القلب الذي ربما ينهار وينتهي كل شيء.
"هي عندها القلب؟"!!
انتبهت من أفكارها الشيطانية على صوت وافي الخفيض، وكأنه محرج من السؤال، نظرت له، يتطلع لبسمة في انتظار الرد الذي منحته إياه بهدوء:
-ايوة عندها القلب.
ساد الصمت بعد كلماتها، ليتحدث جاهين:
-ماتاكلوا يا جماعة.
شرعوا في تناول طعامهم بينما أصاب وافي حاله من السكون.
لم يكن يعلم أنها مريضة قلب، ولم يستطع أن يمنع ذاك الشعور بالحزن والشفقة عليها من التسلل إلى قلبه، مع القلق من احتمال فقدها قبل حتى أن يعرفها.
أغلق عينيه ليزيح هذه الأفكار عن رأسه وأعاد فتحهما، ليتجول في وجوه من حوله ليجد نفسه يتوقف عندها.
تمنحها أختها شطائر أعددتها لها لتسهل عليها تناول إفطارها، بينما هي تتناول ما تضعه أختها في كفها دون سؤال، تلوك لقيماتها بصمت وهدوء، بالكاد يشعر بها المتواجدين.
دون أن يعي السبب أغلق عينيه، ليحيى لحظة من لحظاتها المظلمة، وما هي إلا ثواني حتى أصابه الذعر، إنه حتى لا يقدر على رفع كفه وتحريكها لإنه لا يعلم إلى إي اتجاه يجب أن يوجهها، فتح عينيه بقوة ليشبعها بضوء النهار الذي يملأ المكان لتدور عيناه في كل اتجاه وكأنه يتأكد من امتلاكه تلك النعمة الجليلة ...نعمة البصر.

وكزة في ركبته من جاهين جعلته يلتفت له فمال هامسًا:
-التعارف ... الحفلة ..ابدأ أنت .

تذكر أمر الحفلة التي حدثه فيها جاهين، لقد فكر في الأمر كثيرًا ليلًا، وجاهين محقًا، لا يجب أن يهرب من الاعلان عن عائلته التي عادت له، عليه أن يقدمهم للعالمِ كي يستطيع أن يدخلهما حياته، وجودهما في الخفاء لن يساعد.
ربما عليه أيضًا أن يبدأ بالتعامل مع أخته كأخت ومع أمه كأم.
كل شيء صعب في بدايته لكن عليه أن يحاول، وسيأتي وقت السؤال والحديث عن الماضي حتمًا.
-ماما.
التفتت له سميحة باهتمام، فأردف:
-كنا بنفكر انا وجاهين نعرف العيلة وأصدقائنا على ... على...

لمَ هي صعبه هكذا؟!
إنه لا يقدر أن يسميهما بصفتهما ...
"أختي وماما"!!
عض شفتيه بأسنانه وكأنه يحثها على النطق، ما المشكلة؟!
قالت سميحة:
-تعرفهم على ايه؟.
نظر لجاهين وكأنه يطلب المساعدة وبالفعل تدخل جاهين بقوله:
-أنتِ عارفه يا عمتي أن عيد ميلاد وافي الاسبوع الجاي هو صحيح مش بيحتفل بيه بس احنا بنقترح إننا نحتفل بيه السنة دي بوجود بسمة كمان وتبقى فرصة نعزم الناس ونعرفهم على مرات عمي وبنت عمي.
رمقته سميحة بصمت وإن لم تختفي الدهشة من عينيها وهي تنقل بصرها لوافي قائلة:
-أنت موافق!!
أومأ برأسه مجيبًا:
-ماهو أكيد هنعرف الناس بيهم مش كده؟!!
عقدت حاجبيها ولم تقوى على اخفاء بغضها لمجرد الفكرة وهي تقول:

-وهنقولهم ايه بقى ...كانوا تايهين ولاقيناهم.
لم يتوقع وافي لهجة الاستنكار والسخرية التي تتحدث بهما، كان يعلم أنها ربما ترفض، ولكن ليس بتلك الصورة خاصة أنه شعر بالضيق من رد فعلها فقال مدافعًا:
-نفكر في حاجه مناسبة نقولها للناس.
-ونفكر ليه؟ ..ما نقول الحقيقة.
قالتها بسمة ليلتفت لها الجميع وتصرخ سميحة:
-حقيقة إيه ان شاء الله ..أن أخويا خرج عن طوعنا وراح اتجوز واحده مش من مقامـ...
هبت بسمة من مكانها لتصرخ بالمقابل:
-اخرسي ...قلتك قبل كده مش هسمحلك تتكلمي عن أمي وحش.
اتسعت عيناها في ذهول ولتقف وتبعها كل الجالسين وقوفًا:
-أنتِ بتقوليلي انا اخرس!!
انطلقت موجات الغضب في الأرجاء في ثواني ليلوح جاهين بكفه:
-اهدي يا عمتو ...بس يا بسمة.
حدجته بسمة بغيظ لتنظر إلى أخيها الذي كان يتابع ما يحدث وشعور غريب بالعجز يجتاحه فصاحت به:
-أنت ساكت ليه ...هتسبها تغلط في أمك اللي خلفتك ..هو اللي بيمشي في جسمك ده ايه دم زيي ولا مايه.
اندفعت نانا نحوها لتمسك بذراعها هامسة في اذنها:
-اهدي يا بوسي أنتِ قلبتي كده ليه؟ ..هو ده اللي اتفقنا عليه.
تركت سميحة المكان لتختفي بغرفتها لتدفع بسمة نانا جانبًا وتتركهم هي أيضًا صاعدة الدرج بعصبية واضحة.
بقى البقية يتطلعون لبعضهم بصمت لتأخذ نانا بكف أختها - المتابعة بصمت كعادتها - وتنسحبا لاحقتان ببسمة .بينما عاد جاهين ووافي للجلوس لتقترب منهما ميادة تربت على أكتافهما:

-أنتوا اللي هتعرفوا تمسكوا العصايا من النص ...حاولوا ..والمواجهة دي مش هتكون الأخيرة.
نادت على الخادمة لترفع الاطباق التي كانت على حالها تقريبًا لتعلن فشل أول تجمع عائلي يضم الأفراد الجديدة.
حك وافي رأسه:
-موضوع الحفلة شكله هيفشل.
رد جاهين باصرار:
-لأ مش هيفشل ..المهم نحدد هنقول إيه للناس واحنا بنقدمهم وسيب الباقي عليا ...قوم روح هدي عمتو سميحة أختك دي بتعرف تنرفز بلد ..بسببها هنخترع مضادات الاستفزاز.
أراد بكلماته الترويح عنه لكن وافي ظل على حاله، فقد شغل عقله احتمال يراوده كثيرًا، هل سيضطر يومًا الاختيار بينهم ..بين عائلته التي ظهرت مؤخرًا وأمه التي ربته ولم يعرف أم سواها.
حاجز أخر يُبنى أمام رغبته في التعرف عليهما، فخسارة أمه سميحة ليس مجال قابل للنقاش، هو لن يسبب لها الألم بأي شكل من الأشكال.
ولا يحق لأحد أن يلومه ..سميحة أمه قولًا وفعلًا، هي من ربت وراعت، هي من حزنت وفرحت، هي من شاركته كل لحظات حياته بفرحها وطرحها.
لو أرادتا أن تكونا جزء من حياته فعليهما تقبل أمه سميحة وهذا لن يتغير أبدًا.

....

أمس خالف توقعاته والأمور لم تتحسن بل ساءت..
لكنه لم يقلق.
ليس المشكلة أن تتقبل عمته زوجة عمه وابنتها بل ما يريده هو أن يعيد وافي التواصل معهما، برغم أن تصرفات أخته المثيرة للغضب قد تُأخر الأمر قليلًا، إلا أن موقف وافي وصمته يشعره أنه بدأ يتفكر في أمر التواصل مع عائلته الجديدة، وهذا سيوفر عليه الكثير إذا حدث.
-لو تقفلي بؤك شوية.

هذه الفتاة لا يعلم ما الذي تفكر به بالضبط، بغضها لعمته يكاد يفر من عينيها حين النظر لها، وهو ما لا يتفهمه، فعمته لم تعرف بوجودها من الأساس فلماذا توجه لها كل هذا اللوم والغضب.
أم أن الحقيقة التي لم يعلموا عنها شيئًا بعد تحوي ما يدين عمته؟!!

تنهد بعمق ليلقي نظرة أخيرة على هيئته قبل أن يغادر غرفته ويطرق باب غرفة وافي، ليخرج له الأخر وقد استعد هو أيضًا:
-يالا هنتأخر ...عندنا اجتماع الساعة 10.
قالها جاهين ليتبعه وافي، لكنهما توقفا حين سمعا صوتها من الخلف:
-استنوا.
التفتا في وقت واحد لتبدو عليهما الدهشة، وقفت بسمة أمامهما بكامل هيئتها وجمالها الذي لم يخفى عليهما ليقول جاهين:
-خير ...أنتِ خارجة؟!!
اقتربت منهما قليلًا:
-أيوة ..جايه معاكم الشغل.
رفع وافي إحدى حاجبيه ليردد:
-نعم؟ ...!ليه ؟!
هزت كتفيها:
-ليه؟ ..!والله لنفس السبب اللي أنتو بترحوا علشانه.
أمسك جاهين بذراع وافي ليسكته:
-ماشي فاهم ..عايزة تشتغلي.
اندفع وافي قائلًأ بعصبية:
- وهوالشغل ده لعبه ...ده عايز دراسة وفهم ووقت.
مطت شفتيها بسخرية:
-أأه ..هو حضرتك فاكرني جاهلة ..انا خريجة اقتصاد وعلوم سياسية بتقدر جيد جدا وتخصصت اقتصاد ..يعني هتعلم وافهم أسرع مما تتخيل.

لم يستطع وافي أن يخفي دهشته من كلامها، فلم يتوقع أن تكون هذه هي خلفيتها التعليمية، ولكن ما أدهشه بحق هو ذلك الاحساس بالغبطة أن توأمه أيضًا متفوقة دراسيًا وليست فاشلة أبدًا.

-برافو.

قالها جاهين وإن بدت بتهكم ليردف:

-بس مش معقولة هندخل بيكِ كده فجأة ..يا ريت تستني لحد ما نعمل الحفلة ونقدمك للناس وبعدين تشرفينا.

صمتت تفكر في المنطق الذي يتحدث به، لتقول بعد لحظات:

-ماشي وماله ..بس ماشوفتش شغلانه كويسة لمحمد لسه؟!!

عقد وافي حاجبيه فهو يستمع للاسم للمرة الأولى ليردد:

-محمد مين؟!!

جذبه جاهين ليسير معه:

-هحكيلك ...حاضر يا بسمة أوعدك قريب هرد عليكي في الموضوع ده.

تركاها مبتعدان، فالتفتت لتدخل غرفة أمها التي كانت لا تزال مستلقية على فراشها، اتجهت للشرفة بصمت تراقب مغادرتهما بسيارة جاهين .

اقتربت من أمها التي لازالت تغط في النوم، مسحت على رأسها لتقبلها بين عينيها هامسة:

-ماتقلقيش يا ماما ..هخليه يرجعلك ..أوعدك.

....

غادر سامر سيارته ليسرع الخطى إلى داخل الشركة ، وصل إلى أذناه نداء بدى مألوفًا، التفت لصاحبه ليجده يقف خلف أحد رجال الأمن يمنعه من التقدم فأشار سامر لأحدهم كي يتركوه، اقترب منه الرجل الذي تعرفه بالفعل ليستقبله مبتسمًا:

-ازيك يا حج عبد الحكم ..انت عرفت مكان الشركة ازاي؟!

شعر الرجل بالحرج وهو يتمتم:

-أنا أسف يا بني.
ربت سامر على كتفه:
-لا مش قصدي أنا بس استغربت ..معلش قصرت معاك وماعرفتش اجي تاني الشغل خدني.
هز عبد الحكم رأسه:
-لا يا بني الله يكون في عونك ..أنا بس كنت قصدك في خدمة وسألت في حسابات المستشفى وعرفت عنوان الشركة.
-خير يا حج ...البنت كويسة محتاجين أي حاجه؟!
-الحمدلله أسماء بخير وبتتحسن.
رفع له ملف أبيض اللون قائلًا ومازال الخجل يغطي كلماته:
-هتكرمني بجد لو لاقيت شغلانه لبنتي زينة ..دي خريجة تجارة وبتقدير جيد نفسي تشتغل شغلانه كويسة وأنا اتوسمت فيك خير والله.
ابتسم سامر ليتناول الملف منه:
-وماله يا حج هشوفلها ولو مالقتيش عندي هبقى أشوفلها عند أي حد معرفة.
أسرع قائلًا وكأنه يخشى النسيان:
-أأه .انا ماقلتلهاش إني هجيب ورقها هنا بنتي عنيدة وأنا عارفها ياريت تشغلها بعيد عنك خالص ماتخلهاش تقابلك يكون أحسن.
ضحك سامر وهو يربت على كتفه:
-حاضر ..هشغلها بعيد.
اقترب منهما أحدهم:
-سامر بيه الناس وصلت علشان الاجتماع.
عاد عبد الحكم خطوات للخلف:
-اتفضل حضرتك ..ومتشكر أوي.
منحه ابتسامة ودودة ليدلف إلى شركته ومن خلفه يسير مساعده فرفع له الملف الأبيض:
-اديه للموارد البشرية لو مالهاش شغلانه مناسبة ..يبقى رجعلي الملف.

وصل إلى غرفة الاجتماعات، دلف إليها ليجدهما في انتظاره ابتسم محييًا:
-أهلا ..وأسف عالتأخير يا جماعة.
مد يده مصافحًا:
-ازيك يا جاهين ..ازيك يا باشمهندس وافي وحمدلله عالسلامة أنا كنت بطمن عليك من جاهين.
أومأ وافي برأسه بامتنان، جلس ثلاثتهم حول مائدة الاجتماع، للبدأ في الحديث عن العمل، للمشاركة في إحدى مناقصات الحكومة لبناء عدة مدارس.
-لو دخلنا احنا الاتنين فرصنا هتبقى أحسن علشان فرق السعر وأنتوا فاهمين بقى.
قالها سامر ليومأ جاهين برأسه:
-تمام ..بس المرة دي يا سامر بيه النص بالنص.
رد سامر بعملية:
-احنا بناخد النسبة الأكبر لأننا بنغطي التكلفة الأكبر.
-المرة دي التكلفة هتبقى بالنص ..ماتقلقش السيولة متاحة.
لحظات تفكير مرت قبل أن يمنحه موافقته، فأردف جاهين:
-بس في مشكلة تانية؟!!
نظر له سامر متسائلًا، فأجاب:
-أنا سمعت إن شهاب الأبيض عايز ياخد المناقصة دي وأنت عارف بقى أساليبه اللي مش مظبوطة وممكن يضرنا.
هز سامر رأسه مطمئنًا:
-ماتقلقش شهاب ده في ايدي ..مش هيقرب لنا لو عرف إني داخل معاكم ولو فكر ... قرصتي والقبر.
-افهم من كده إن معاك اللي يضره.
-ممكن نقول عرفت ديته ..نتكلم بقى في شروط المناقصة وأقل أسعار نقدر نوفقها.

تمنى جاهين أن يستقطب منه المزيد عما يقصده فيما يخص شهاب الأبيض رجل الأعمال صاحب أكثر الأساليب التواءًا في عالمهم الكبير، لكنه يعلم أن سامر متحفظ كثيرًا فيما يخص العمل ولن يخبره إلا بما لا يضره ولا يخسره أحد نقاط قوته، فتغاضى عن الأمر وشرع مع وافي وسامر في مناقشة العمل.

لم يطول اجتماعهم كثيرًا ليغادر جاهين ووافي بعد الاتفاق على النقاط الاساسية.
وبينما هما في طريقهما لشركتهما قال وافي:
-هو سامر ده بيحب يشاركنا ليه ...يعني شركتهم أكبر واسمهم كمان ..ليه احنا بالذات؟.!
ابتسم جاهين:
-مش احنا بس بيشارك غيرنا ..اللي يهمه السمعة النضيفة مابيحبش الشغل النص كم ..أما بقى حكاية إننا أصغر فده بيخليه هو اللي يحصل على نسب أكبر في الشغل معانا وفي مناقصات مابتنجحش إلا بالشراكة وهو بيستفد مننا بالشكل ده ..واحنا برضو بنستفيد ..اسم شركتنا مع شركته ..الربح اللي هيعود علينا ..باختصار عاملين زي علاقة نفع واستنفع.

....
حالة فاطمة لم تتحسن هكذا شعرت مها وكذلك بسمة ونانا، بدت طبيعية ليومين فحسب وفجأة انقلب الحال ثانية، صمت دائم، حزن سكن الوجه بل واللسان، فكل كلماتها تقطر حزنًا.
وكلما حاولت بسمة أو مها الحديث معها لا تنالا منها غير كلمات مبهمة لا تسمن ولا تغني من جوع،حتى استشاطت بسمة غضبًا وهي تلومها على إصرارها على الصمت وعدم الحديث مع بسام لتقص عليه حقيقة ما حدث في الماضي، خاصة أنه لا يبدو في نيته أخذ تلك الخطوة والقدوم إليها لسؤالها، وصمتها يزيد الطين بله.

وعندما لمَّحت أنها هي من ستحمل له الخبر صرخت فاطمة برفض تام ألا تفعل فالأمر يخصها وحدها وهي من ستخبره في الوقت المناسب.
ويبقى السؤال يتردد في رأس بسمة.
ومتي يأتي الوقت المناسب هذا؟!!

-اهدي يا بوسي أبلة بطة مش ناقصة
قالتها مها حين دخلت غرفة بسمة ومعهما نانا.
ضربت بسمة كف بكف وهي تجلس على أريكتها:
-أنا لو اتشليت هيبقى بسبب أمي.
-معلش يا بوسي أنتِ لازم تعذريها.
-اعذر إيه يا بنتي ...أنا مش فاهمة إيه الضعف والخوف اللي هي فيه ده ... دي المفروض تدي سميحة دي بالقلم على وشها وتصرخ فيها وتفضحها قدام الكل بدل ما هي سايباها كده واخده ابنها رايح جاي واحنا واقفين نتفرج.
تدخلت نانا قائلة:
-طب ما تقوليله أنتِ وخلاص.
صاحت مها:
-لأ ..ابلة بطة قالت لأ ..أنا متأكدة هي بتفكر بطريقة تانية وهتوصل للي هي عايزاه.
قالت بسمة بحزم:
-ومين قالك إن أنا عايزه أقوله ...أنا عايزاها هي اللي تقوله ..عايزاها هي اللي تحرق قلب سميحة وتوجعها مش أنا ..عايزاها تبقى قوية مرة واحده في حياتها ..المرة الوحيده اللي كانت قوية فيها كانت عليا أنا وبرضو من الخوف.

غلف الحزن كلماتها الأخيرة وعقلها يستعيد ذكريات سببت لها الكثير من الألم، أمها لم تصرخ إلا عليها لتبعدها عن حبيبها وهي واثقة أنها كانت تخشى عليها من عائلته، حتى إذا ما تحركت تحركت بدافع الخوف، كم تتمنى أن تنتزع هذا

الضعف والوهن من قلب أمها، كم تتمنى أن ترى ذلك المشهد وأمها تأخذ من سميحة ثأرها.
ستجبرها على التحرك ..ستجبر أمها على الصراخ والمطالبة بحقها.

-إلا صحيح مش هننزل نشترى فساتين جديدة علشان الحفلة؟.
قالتها نانا بحماس لتهز مها رأسها يأسًا من عقل أختها وما يشغله، لكنها نجحت في أن تنال تركيز بسمة في أمر بعيدًا عما أحزنها لتجيبها:
-أيوة صح ..بكرة إن شاء الله ننزل نعمل شوبينج ...حلوة شوبينج دي يا ولاد.
ابتسمت مها لتضحك أختها قائلة:
-حلوة يا بوسي ..أنا بقى نفسي أجيب فستان أسود كده يكون ماحصلش.
-وأنتِ يا مها عايزة تجيبي إيه؟!
خرجت كلماتها باهتة:
-سيبك مني ..هو أنا اصلا هشوف اللي هلبسه ...وكده كده مش هحضر.
-ليه يا نكدية.
رددتها نانا بنزق لتلكمها بسمة بكتفها مقتربة من مها التي كانت لا تزال واقفة مكانها لتمسك بها وتجلسها بجوارها:
-ليه يا مها ..دى أول حفلة عيد ميلاد تتعملي في حياتي وأكيد مش هكون مبسوطة إلا لو كلكم جنبي.
هزت رأسها وخرجت بسمتها تحمل همًا:
-لا يا بوسي ..أنا مش حمل زحمة وناس ماعرفهاش ....أعصابي بتتعب.
-نانا هتفضل معاكي مش هتسيبك ...مش كده يا نانا.
مطت شفتيها بنزق:
-أيوة ..ماتنكديش علينا بقى يا مها ...أنا هفضل معاكي.

اكتفت مها بالصمت، هي تعلم أن بسمة تهتم حقًا لوجودها، وهي لا تريد أن تخالف توقعاتها لكنها أيضًا تعلم أن أختها لن تبقى بجوارها، ثقتها في أختها تكاد تكون معدومة.
نانا دومًا تريد أن تشعرها أنها ليست بحاجه لأحد، تعتقد أنها بهذا ستجعلها أقوى، ليتها تفهم أن قوتها في وجودها جوارها، في أن تكون عيناها التي فقدتها لا أن تجبرها على التأقلم وعدم التصرف بعجز.

....

الكرامة ...الحب.
لا كرامة في الحب .. أم يموت الحب بلا كرامة.
كلمات تسمعها ولا تعرف بأيهما تؤمن.
هي تؤمن أنها تحبه، تعلم أنه يحب غيرها، وغيرها لم تعد متاحة ...إذن هناك أمل.
مَن دونها سيفتح ذراعيه له حين الحاجة؟!
لا تريد أن تضغط عليه .. تلاحقه فيفر منها.
ما تفعله أمها وأمه لن يفيد.
هي تريد أن تتسلل إلى قلبه رويدًا رويدًا.
تشعره أنها بجواره لأنها تحبه ..ليبادلها هذا الحب.
ولهذا قررت الابتعاد قليلًا، ستمنحه المساحة والوقت الذي يريد، تكتفي بمتابعته من شرفتها وهو يقضي ساعاته الصباحية في ظلال شجرة ضخمة ليغادر بعدها ويعود ليلًا لنفس المكان لبعض الوقت.
وما ألم قلبها بحق أنه بدى منعزلًا، وكأنه يعيش وحيدًا، سما تخرج للعمل صباحًا وتعود مساءًا أو تقضي وقتها في النادي ومع صديقاتها من سيدات الأعمال، سامر منشغل بعمله كثيرًا ولا تراه إلا نادرًا.
أما هو ...فوحيدًا تمامًا.
يبدو أنها فهمت كيف تمكنت تلك الفتاة من قلبه بتلك القوة، فلقد كانت له كل شيء حين غاب عنه الجميع، ونسيانها ليس سهلًا.

غريمتها ليست فتاة أحبها في عام أو عامين، غريمتها حياة كاملة قضاها بصحبتها.
والفوز لن يكون هينًا.
تنهيدة حارة غادرت صدرها تبعتها بهمسات لنفسها:
-الصبر يا نيري ..أنا مش هعيش مع حد غيره ..أنا متأكدة.
تحركت من غرفتها للحديقة والتي لا يفصلها عنها غير زجاج شرفتها التي تطل على حديقة القصر الفسيحة.
بخطوات هادئة اقتربت منه يجلس في صمته المعتاد، مستسلمًا لسكون الليل المحيط به، وقفت على مسافة ما قائلة:
-ازيك؟ ..!ياريت تكون أهدى.
رفع بصره نحوها، لم يراها منذ أن غضب عليها وكأنها تتجنبه، حتى أنه فكر أن يذهب إليها ويعتذر، لكنه كان يتراجع كي لا يفتح على نفسه باب قد لا يقوى على غلقه.
-كويس.
ابتسمت رغم رده المقتضب فهذا أفضل من الصراخ والغضب.
اقتربت أكثر تستأذنه الجلوس فأومأ برأسه بصمت، اتخذت مقعدًا على الأرض بجواره، وقررت الصمت، يكفي أن يشعر بوجودها معه وقبوله ذلك وهذه بداية جيدة.
مرت دقائق لم ينطق أيهما بشيء إلى أن وصل صوته لها:
-أنا أسف يا نرمين.
كم تفتقد أن يناديها نيري كما كان يفعل، لكنه توقف عن ذلك منذ سافر إلى الولايات المتحدة ليدرس معها وهي لم تعرف سبب لذلك.
-على إيه؟!
قالتها بود، فنظر لها:
-على مقابلتي الأخيرة ..ماكنتش في المود.
هزت رأسها:

-نو بروبلم ..عارفه إنك كنت مضايق أنا اخترت الوقت الغلط.

تعلق بصره بها للحظات...
رقيقة ...جميلة ...هادئة.
يليق بها رجل يحبها وليس رجل قلبه مشغول بغيرها.
لكنه لا يستطيع لومها، إن كانت تحبه بالفعل فكيف تخرجه من قلبها، فهو لم يستطع رغم تلك السنوات العجاف عن رؤية محبوبته أن ينساها فكيف يريدها هي أن تنزعه من قلبها بينما هي الآن بجواره تنظر له ليقرأ في عينيها الكثير من هذا الحب الذي لا يملك له أي مقابل.
لاحظت نظرته لها، تلك النظرة التي تصيب نبضات قلبها بالارتباك رغم أنها لا تحمل مشاعر الحب التي تتمناها.
فرفعت بصرها للسماء هربًا لتجد أن حتى نجوم السماء فرت هي الأخرى فابتسمت:
-السما ضلمة ومافيهاش ولا نجمة.
رفع بصره هو الأخر متذكرًا جملة قالتها له حبيبته فرددها:
-السما دايما ملايانه نجوم التلوث اللي حوالينا هو اللي بيخفيها.
ابتسمت متسائلة:
-وعرفت منين؟!
-هي قالتهالي قبل كده.
عادت ببصرها نحوه فور أن التقط قلبها قبل عقلها الحزن الذي تنضح بها كلماته، أليس المفترض أن تغار لأنه يذكرها؟!
لا ..هي لن تغار ..الأخرى ليست هنا، ليست معه، هي لها الأفضلية الآن وهذا يكفي.
نكس رأسه أرضًا قبل أن يبوح بالمزيد وكأنه يزيح عن صدره جبلًا:
-مش مصدق إنها تكون اتجوزت زي ما بيقولوا ..مش قادر أصدق.
صمتت لحظات في انتظار المزيد لكنه لم يضف فقالت:

-يمكن كانت مضطرة ماتعرفش الظروف.
رفع رأسه وقد احتل وجهه الغضب في لحظة:
-مضطرة ...!!مضطرة تتجوز غيري ..ازاااي؟!
ضرب بقيضته الأرض:
-هي اللي قطعت الاتصال هي ..ليه؟ ..!نفسي أعرف ليه؟!!
عاد جسده للانتفاض أمامها، كم يؤلمها أن يكن كل تلك المشاعر لفتاة غيرها وعليها تجاوز الأمر وإلا لن تنجح.
مدت أناملها تريد ضم قبضته المضمومة على الأرض، قلبها يهفو لأن يضمه هو، أن تزيح كل حزن على صدره إلا أن الوقت غير مناسب، عليها أن تحافظ على تلك المسافة بينهما كي لا يفر منها هربًا.
ليس لديها استعداد لدفاع عن غريمتها، تتمنى أن تكون تزوجت بالفعل لتجد مكان بجواره، ومن الأفضل عدم ذكرها على الأطلاق.
-معاذ ..أنت لازم ترجع الشغل ..لازم تعمل حاجه تشغل عقلك بيها أنت كده هتتعب نفسيًا وجسديًا.
لم يمنحها ردًا، أشاحت ببصرها بعيدًا تفكر في الطريقة المثلى لإعادته لحياته الطبيعية، انتبهت لسامر قادمًا نحوهما فابتسمت لاستقباله:
-سامر جاي.
عقد حاجبيه بغضب وهو يدير رأسه بعيدًا، فهز سامر رأسه بيأس مقتربًا منهما:
-ازيكم يا شباب ..عاملين ايه؟!
أجابت نرمين:
-فاين ..أنت اخبارك؟ ..!أنا مش بشوفك تقريبًا.
-معلش مطحون شغل وفي ناس هنا ولا على بالها.
ضحكت وهي تنظر لمعاذ الذي زفر غضبًا لتقول:
-معلش ..بكره يساعدك.
دس يده في جيبه ليخرج ظرف متوسط الحجم ملون مده لنرمين قائلًا:

-دي دعوة لعيد ميلاد ناس بنشتغل معاهم ...بكره بليل وأنا عندي عشاء عمل مش هقدر اروح ..يا ريت تقنعي صاحبك ده وتروحوا سوا ..أهو تغيير جو ليكم.
تناولت منه الظرف قائلة:
-كويس.
ردد معاذ بنزق:
-انا مش هروح ..انا مش بتاع حفلات.
هز سامر كتفيه:
-أنت هتقولي ..دا أنت بتحضر عيد ميلادك بالعافية.
مد معاذ أنامله يداعب خاتمها الذي لا يفارق خنصره، والذي ناله في أخر حفل مولد له هنا، أخر ما تبقى له من ذكراها فعليًا.
-هنروح يا سامر ..أنا عايزه فعلًا أغير جو.
قام معاذ من مجلسه قائلًا:
-أنا داخل انام ...تصبحوا على خير.
قامت نرمين بدورها وقد تسرب إليها يأسًا من اقناعه فقال سامر بود:
-اصبري عليه شوية وكله يبقى تمام.
شعرت بالحرج من كلماته لها لتتمتم:
-هاا ..أأه.
اتسعت بسمته قائلًا:
-أنا يهمني إن أخويا يرتبط بواحده بتحبه بس برضو لازم هو يحبها علشان يعرفوا يعيشوا مبسوطين.
حدقت به بعدم استيعاب، لم تعي ..أكلامه لدعمها وتشجيعها على البقاء أم تخليها عنه والابتعاد؟.!
رمقها للحظات ليريحها من التفكير:
-معاذ محتاج حد زيك جنبه ..وشجعيه بقى على موضوع حفلة بكرة ..الناس عزمونا ..يالا تصبحي على خير.

ابتعد فعادت لمجلسها وهي تقلب الظرف في يدها لتفتحه تلقي نظرة.
قرأت فحوى الدعوة وهي تردد اسم صاحب الحفل:
-بسام وافي.
عقدت حاجبيها للحظة وبدى لها الاسم مألوف نوعًا ما.
-أنا سمعت الاسم ده فين قبل كده.
لم تسعفها ذاكرتها فوضعت الظرف جانبًا، وهي تفكر في الطريقة التي ستقنع معاذ بها غدًا للذهاب إلى الحفل.

الفصل الحادي والعشرون

ولو انضنيت وفنيت وعمري انفرط
مش عاوز ألجأ للحلول الوسط
وكمان شطط وجنون مانيش عاوز
يامين يقول لي الصح فين والغلط؟
عجبي!!
رباعيات جاهين

أميرة الحفل.
لم تتصور أن يأتي اليوم وتحمل هذا اللقب، صحيح أنها تخيلته يوم زفافها على معاذ على اعتبار أنه أول حفل قد تُعَد له كصاحبته وليس كخادمة مع أمها كما اعتادت ورأت في قصر سما.
هذه المرة الأمر شديد الاختلاف، إنه حفل مولدها، في بيت كبير بحديقة شاسعة حيث سيمتليء بالمدعوين، ولم تنسَ أن تأكد عليهم ضرورة إحضار الكعكة متعددة الادوار، فلطالما تسائلت عن إحساس أصحابها وهم يمررون سكينهم في قالب يلي الأخر.
الشيء الوحيد الناقص أنها لن تتلقى أي هدايا، فالدعوة طبعت باسم بسام فقط فلا أحد يعلم عنها شيء بعد.
تأملت فستانها الذي اختارته بعناية، عليها أن تظهر للجموع بالشكل اللائق لواحدة من بنات عائلة الشربيني.
لم تستطع الاستغناء عن لونها المفضل الارجواني.
مما منحها طلة بهية لا تخطئها العيون .
بدت مختلفة حتى أمام نفسها لتحدق بهيئتها طويلًا وكأنها تتأكد أن ما تراه حقيقة.

فستان يبلغ من المال الكثير وهو أغلى ما ارتدت حتى الآن ولم يكن في ذلك أي مشكلة .
نعم، المال لم يعد يعني أي مشكلة.

استقرت بسمة حزينة على ثغرها الذي غطته بلون البنفسج الفاتح، وعقلها لا يكف عن أخذها إلى حيث هو، حتى أنها للحظة تمنت أن يكون من المدعوين لهذا الحفل، وإن كان ضربًا من الخيال.
تمنت حقًا أن يراها بتلك الهيئة، تمنت أن يعرف كيف أصبحت ولمن تنتمي.
ولكنها فقط تتمنى!!
تنتظر حين تقرر أن تذهب له مباشرة، لكن الوقت ليس مناسب، هي لازالت هنا بلا قيمة واضحة، عليها أن تنال حقها وثأرها ومن ثم ستذهب لتقصي أخباره وجل ما تخشاه أن تتأخر حتى يفوت الأوان.
طرقات على باب غرفتها أيقظتها لتأذن للطارق والتي كانت نانا المتحمسة أكثر منها:
-واااااو ...ايه الجمال ده.
هذه الفتاة تجيد تغير مزاجها على الدوام.
دارت بسمة حول نفسها ليتطاير فستانها الفضفاض حولها مرددة:
-هينبهروا صح؟!
ضحكت نانا:
-ده أكيييد.
لتضع كفها على خصرها مردفة:
-بس خليكي حقانيه أنا برضو هبهرهم.
مطت بسمة شفتيها مرددة:
-استلقي وعدك لما ماما تشوفه ..هتبهدلك.
لوت شفتيها في تذمر وهى تنظر لنفسها في المرأة، فستان أسود كما أرادت، لكنه لم يكن عاديًا، ضيق على منطقة الخصر والفخذين قبل ان يبدأ بالاتساع ،

بينما الأكمام من القماش الكاشف لما تحته فبدت ذراعيها العاريتين، لتنهي طلتها غير المتوقعة بوشاح وضعته على رأسها وأرجعته للخلف فأظهر عنقها الطويل بسخاء.

-مها خلصت.

سألتها بسمة فأجابت:

-روشتني ..وديتها عند أبلة بطة تساعدها علشان اعرف أظبط نفسي.

عقدت بسمة ذراعيها قائلة:

-بس أنا عزمت محمد ولو شافك كده مش هيحصل كويس.

هزت كتفيها بلا مبالاة:

-يا سلام ..هو واصي عليا ولا إيه؟ ...!بلاش عكننه يا بوسي.

-ربنا يستر.

تمتمت بها دون صوت قبل أن تضيف:

-طيب يلا بقى علشان نروح نشوف مها ونتابع آخر التطورات.

-اوووكيييه.

تبادلا الضحكات لتخرجا من الغرفة إلى غرفة فاطمة.

....

عقد جاهين ربطة عنق وافي الذي حتى الآن لا يجيدها ليقول متأففًا:

-لزمتها ايه الخنقة دي ...هي حفلة رسمية.

-اعتبرها كده.

قالها جاهين الذي انتهى مما يفعل ليعقد ربطته هو.

وافي اختار اللون الرمادي لبذلته بينما اختار جاهين اللون الأسود.

ورغم رسمية تلك الهيئة إلا أنها أضفت عليهما الكثير من الوسامة.

القى جاهين النظرة الأخيرة على هيئتهما ليقول:

-كده كله تمام ...هات بقى الهدية أوعى تنسى.

أشاح ببصره بعيدًا بغير اقتناع ليزفر جاهين:

-يعني أنت هتديها الهدية بالمنظر ده ..مش كفاية ماساعدتنيش في الهدية اللي اشترتهلها.
ضرب وافي كف بكف:
-أنت يا بني بتهزر ..وأنا اعرف منين بتحب ايه وبتكره ايه؟!
-أنت مش توأمها ...مافيش أي احساس.
-ده في الأفلام العربي بس ..الحقيقة أنا لا حاسس بيها ولا عارف عنها حاجه.
أمسك جاهين بعلبة مخملية صغيرة ليفتحها فيظهر خاتم من الذهب الأبيض يتوسطه فص كريستالي صغير:
-أعتقد هيعجبها ..مافيش بنت مابتحبش الحاجات دي والساعة بتاعتك كمان أكيد هتعجبها.
-قصدك الساعة اللي أنت اخترتها.
-يابني ده أول عيد ميلاد ليها معانا وماتنساش إن ماحدش هيجبلها هدية غيرنا ..خلي عندك شوية دم.
مد وافي يده ليسحب العلبة التي استقرت بها هديتها ليدسها في جيبه قائلاً:
-طب يالا بقى أحسن الناس على وصول.
فتح الباب ليغادرا الغرفة فالتفتا على صوت صريخ واضح من غرفة فاطمة ليشرع الباب بعنف وتندفع منه نانا بهيئة غاضبة عائدة إلى غرفتها التي في الأعلى.
رآها وافي وجاهين الذي أطلق صفيرًا:
-إيه الحلاوة دي.
وكزه وافي بعنف حتى أنه تأوه:
-ايييه ..هتغير عليها دي كمان.
هز وافي رأسه بضيق واضح:
-يابني أنت مش قلت هتبطل جري ورا البنات.
-ياعم أنا عملت حاجه.
أمسك بذراعه ليحثه على الحركة لكن جاهين تحرك في الاتجاه المعاكس:

-تعلى نسلم على مرات عمي ونشوف كويسين ولا إيه؟!
أراد وافي أن يرفض لكن جاهين تحرك بالفعل نحو الغرفة التي خرجت منها للتو بسمة ويبدو أنها أرادت اللحاق بنانا فكادت تصدم بجاهين الذي ارتد للخلف لتقف مكانها بشكل مفاجيء كاد أن يسقطها إلا أنها تماسكت:
-حبيبيلك ...بتجري كده ليه؟!
رفعت وجهها إليه ولم يخفى عليها لمعة عينيه وهو يحدق بها وبزينتها التي لم يرَها من قبل، وتسرب إليها الضيق حين تأملها من رأسها حتى أخمص قدميها مرددًا:
-ايه الشياكة دي؟!
مطت شفتيها:
-بعض ما عندكم.
مرر أصابعه بين خصلات شعره بحركة تمثيلية قائلًا:
-بجد ..أنتِ شايفة كده.
فلتت منها ضحكة كتمتها سريعًا وهي تشيح بوجهها بعيدًا لتلتقي بعينين تماثل عينيها مع اختلاف جنس صاحبها الذي كان ينظر لها بصمت.
للحظة تجمد المشهد، كلا التوأم يبادل الأخر النظر بصمت، يراقبهما جاهين قبل أن تتحرك بسمة لتذهب إلى حيث ذهبت نانا.
-بسمة.
أوقفها جاهين بندائه فالتفتت له ليمنحها ابتسامة مشرقة ودودة:
-كل سنة وأنتِ طيبة.
ودون أن تعرف السبب انتقل بصرها على الفور إلى بسام وكأنها تنتظر نفس التهنئة منه لكنه كالعادة خيب أملها ولم يمنحها إلا الصمت بل إنه دار بجسده مغادرًا.
لترتسم الخيبة على ملامحها وتلتفت هي الأخرى دون حتى أن ترد تهنئة جاهين.
الذي عاد أدراجه ليلحق بوافي وقال بلوم:

-فيها إيه لو كنت عيدت عليها.
زم وافي شفتيه ليحدق فيه بملامح يشوبها الغضب قبل أن يفتح شفتيه قائلًا بعصبية:
-جاهين كفااية بقى.
رمقه باستغراب فأردف وافي بنفس العصبية:
-أنت لا يمكن تحس باللي أنا حاسه ..بطل تضغط عليا أحسن والله أنت أول واحد هنفجر فيه ..مش كل شوية ..اعمل يا وافي .. قول يا وافي ..روح يا وافي ..أنا مش عيل ..أنا هقرب منهم لما ابقى مستعد لده فياريت تسبني في حالي بقى ماتجبرنيش ابعد عنك.
تركه ولا زال الغضب يعتريه، بينما تسمر جاهين مكانه، فلم يخطر على عقله ولو للحظة أن هذا ما يشعر به وافي من محاولاته للتقريب بينه وبين أمه وأخته.
هل حقًا هو يبالغ ويفرط في الأمر مما قد يؤدي إلى نتيجة عكسية؟!
عليه التريث قليلًا إذن.
وكما يقولون ما زاد عن حده انقلب ضده، وهذا مالا يرغب فيه على الإطلاق.
سيمنحه المساحة التي يريد، ربما عليه أن يغير الخطة ويحاول دفع بسمة وفاطمة نحوه ربما كان يجب أن يبدأ هكذا من البداية.
أسرع باللحاق به ليلطف الأجواء بكلماته المرحة فلا يوجد داعي لإفساد الليلة.

....

انهى ارتداء ملابسه وحالة من الضيق تجتاحه، ليس لديه أي رغبة للذهاب إلى أي مكان، لكن نرمين لن تكف عن السعي خلفه واقناعه بشتى الطرق للذهاب، حتى منحته تلك النظرة الطفولية والشفاه المقلوبة لتعبر عن حزنها لإصراره على الرفض، إلى أن استسلم بالقبول، وبرغم ذلك لا يمكن الشعور بأي راحة في قضاء الوقت بين أناس لا يعرفهم.
دقاتها على بابه معروفة له ليستدير قائلاً:
-ادخلي.

فتحت الباب لتخطو إلى الداخل، لم يهتم بالنظر لها وهو يضع عطره ويصفف شعره بينما ظلت مكانها تتأمله مع نظرة ملأها الحب حد الشبع.
التفت لها لتتسع بسمتها قائلة:
-إيه رأيك؟!
-في ايه؟!
قالها بعدم فهم، فعقدت حاجبيها بغضب طفولي:
-في شكلي ..في لبسي يعني في ايه ؟!!
-أكيد حلو يا نرمين ..يالا علشان منتأخرش أنا مش هطول هناك.
التوت شفتيها بخيبة فهو لم يكلف نفسه حتى عناء النظر إليها لتكون لكلماته معنى.
توقف فجأة حتى كادت تصدم به ليقول:
-يووه ..نسيت الهدية.
عاد أدراجه ليحمل علبة أنيقة ويضعها بجيبه ليخرج وتتبعه هي بصمت.
صمت صاحبهما حتى في السيارة، انتبه هو للطريق ولم ينطق بكلمة واحدة بينما هى كانت تقلب في الدعوة التي في يدها لتطالعها مرة أخرى فانتبهت للاسمِ الذي ظنت أنه مألوفًا لها، عقدت حاجبيها لتفكر أكثر حتى انتبهت إلى الامر فالتفتت تحدق بمعاذ قائلة:
-هي .. أنت قلت لي اسمها ايه؟!
-هي مين؟!!
قالها برتابة، فابتلعت ريقها بصعوبة وهي تقولها:
-صاحبة الخاتم.
منحها نظرة جانبية وبعد سكوت دام لثواني قال:
-بسمة.
عادت تدقق بالدعوة لتقول:
-أنتِ كنت قلتي اسمها بالأب صح ...كان إيه؟!
عقد حاجبيه واندهش من السؤال:

-في إيه يا نرمين ..هتدوريلي عليها ولا حاجه.
وضعت الدعوة جانبًا وهي تبتسم بتوتر واضح أصابه بمزيد من الاستغراب:
-لا أبدًا ..مش عارفه ليه حاسه إن اسمها مميز كده ..بسمة ..بسمة...
كانت تردده في سبيل التذكر ليمنحها هو الرد:
-وافي ...بسمة وافي.
لم ينتبه لتعبيرات وجهها التي تغيرت ما بين دهشة واستنكار وانكار حتى همستها لم تكن مسموعة له وهي تردد:
-غريبة ..تشابه غريب!!
-بتقولي حاجه؟!!
قالها بنزق فهزت رأسها وهي تجمع كل معلوماتها عن بسمة وهي ليست كثيرة فقط تعلم أنها تربت معه تقريبًا لأن أمها كانت من العاملات هنا.
هزت رأسها نفيًا:
-أكيد تشابة ...مجرد تشابة.
زفر معاذ بضيق:
-أنتِ بتكلمي نفسك ليه؟!
استقر بصرها على ملامحه فبادلها النظر لكنها كانت كمن في عالم أخر:
-نرمين ..نيرمين.
-ها!!
-ها ايبيه ..مالك؟!
-مافيش ..مافيش.
يأس منها فتركها وشأنها بينما قبضتها تمسك بالدعوة وداخلها الكثير من صفارات الأنذار غير المفهومة.

....

ضربت نانا قدمها بالأرض وهي تزفر نارًا بينما تحاول بسمة تهدئتها، فلقد ثارت فاطمة كثيرًا حين رأت فستان الأولى فهاجت وماجت وعارضت بشدة نزولها الحفل بذلك الفستان الذي بدى لها يحتاج إلى فستان أخر ليغطيه.

حتى أن صوتها لازال يتردد صداه في أذنيها.
"إيه اللي أنتِ لابسه ده ..قسمًا برب العزة ماهتنزلي بيه ... أنتِ وأختك أمانة في رقبتي عندي أموت ألف مرة ولا إني أضيعها"..
كلمات كثيرة رددتها فاطمة بصراخ غاضب، حتى تدخلت بسمة ومها لتهدئتها ولم تقبل إلا بما اقترحته بسمة من وضع شال عريض على كتفي نانا وكذلك تعديل وشاح رأسها ليكون غطاء للرأس والرقبة كما يجب.
-قولتلك ماما هتبهدلك ماصدقتينيش.
-وإيه الفكرة المهببة اللي اقترحتيها دي ..شال إيه وبتاع إيه ..هضيعيلي شكل الفستان.
مصمصت بسمة شفتيها:
-اضيعلك شكل الفستان بدل ما الحفلة كلها تضيع عليكِ ..وأنتِ عارفه أمي بقى في الحاجات دي بيركبها عفريت القوة أبو 10 حصان وهتجيبك من شعرك في وسط الحفلة ولا هيهمها.
ألقت نانا بجسمها على الفراش وهي تقلب شفتيها غضبًا وغيظًا، اقتربت منها بسمة:
-خلاص بقى ماتبوظيش الليلة ..يالا دي مش هتتكرر كل يوم.
أطرقت برأسها في استسلام لتقول:
-طب روحي هاتي الشال خلينا نخلص.
نفذت طلبها في الحال وعادت لها في غضون دقائق لترفع لها شال أسود تنتهي أطرافه بشلالات من الخيوط الحريرية مما زاده رونقًا.
-أول لبسه من نصيبك يا عم ...عدي الجمايل.
حاولت الابتسام لتلكمها بسمة في كتفها:
-فوقي بقى ..ده النهاردة أول عيد ميلاد لصاحبة الصون والعفاف بسمة وافي ..ألا إيه هو الصون ده يا بنت يا نانا.
رمقتها للحظات قبل ان تشاركها الضحك وهي تقف لتضع الشال على كتفيها وتتأمل هيئتها الجديدة به ولدهشتها ..فقد أعجبها بعض الشيء.

لتتحرك مع بسمة وتعودا لفاطمة لتلقي نظرة أخيرة على هيئة نانا.
قبلت فاطمة بتلك الهيئة الأخيرة ولم تنسى أن تربت على كتف نانا تطيب خاطرها بكلماتها الحانية وأن كل همها الحفاظ عليها هي وأختها.
وكعادة أختها جلست على الأريكة في الغرفة تستمع لما يجري حولها وتسرب لها الراحة برضاء فاطمة عن مظهر نانا، فأكثر ما تكرهه أن تتعامل نانا مع فاطمة كمرأة عادية وليست كأم اهتمت بهما منذ فقدتا والديهما.
شعرت بمن يجذبها لتقف مع صوت بسمة:
-قومي بقى وريني الجمال ...اسميه إيه ..الجمال النائم ..ما تصحصحي معانا يا مها.
فركت مها كفيها بعصبية كعلامة من علامات توترها المعروفة بينما تتأملها بسمة بحبور، مها تمتلك ملامح جميلة تتمناها أي انثى، ولو أضفنا براءتها ونقاءها فأنت أمام طفلة في جسد أنثى.
ولهذا فقد أصرت بسمة على أن تختار لها هذا الفستان..
هو يشبه فستانها في التصميم ولكنه يختلف في اللون، ورفضت بشدة كل محاولات بسمة لاقناعها بوضع القليل من أدوات التبرج على وجهها.
أطمأنت فاطمة على هيئة فتياتها لتقول:
-خالوا بالكم يا بنات مالكوش دعوة بحد ...الضيوف دول احنا مانعرفهمش ولا نعرف نتعامل معاهم ..خليكوا دايمًا جنب بعض وماتنسوش اللي ميادة قالته .. أنا سافرت مع بنتي وماعرفتش أرجع لظروف ما وانقطع الاتصال ..ودلوقتي رجعنا وخلاص ..واللي يسأل عن تفاصيل ...الرد ..معلش دي ظروف عائلية خاصة.
نانا ومها انتوا أصحاب بسمة فاهمين.
أومأتا الفتاتان لتقول نانا:
-ماتقلقيش يا أبلة بطة ..كله هيبقى تمام.
تمنت حقًا أن تسير الامور على ما يرام، فتوترها بلغ أقصاه.

لم ترد أن تكون في مثل هذا الموقف، لا يهمها أن يعلم عنها الناس، هي تريده هو فقط، تريده أن يَقبلها ...أن يتفهمها ..وأن يُحبها.
تكاد تشعر بالخجل الذي سيعتريه وقت إخبار الناس عنهما .
وله كل الحق.
وعليها الكثير من الذنب.

....
المستحيل بعينه هو ما تفكر به الآن.
مجرد تشابه أسماء ليس أكثر، لا يمكن أن تربطه بها أي صله، إنها مجرد ابنة عاملة من عاملات المنزل، وتشابه الأسماء وراد في أي مكان.
فلمَ هذا القلق الذي يعتريها؟!
-نرمين ..وصلنا.
أخرجتها كلماته من أفكارها التي أفقدتها القدرة على الشعور حتى بتوقف السيارة أمام المنزل المضيف للحفل.
وقبل أن يترجل معاذ من السيارة تعلقت هي بذراعه:
-معاذ.
التفت لها فأردفت:
-انت ماكنتش عايز تيجي ..طب خلاص بلاش ندخل ..تعالى نسهر سوا مش لازم عيد الميلاد ده!!
عقد حاجبيه وهو يرمقها بتوجس:
-نعم ...يعني أنتِ تصدعني طول النهار ودلوقتي تقولي مش هندخل.
اعتدلت في جلستها:
-أنا كان يهمني تخرج من المود الكئيب ده ..واديك خرجت معايا أهو مش مهم بقى عيد الميلاد ..نكمل خروجتنا سوا ..أنا ماعرفش حد جوه وأنت كمان ..يالا يا معاذ ...أنا قفلت من الحفلة دي مش عايزة احضرها ...بليييييز.
زفر معاذ في حيرة ليجلس مفكرًا للحظات، حتى خطر عليه أمر فوضع يده في جيبه:

-والهدية اللي سامر بعتها معايا ..هرجعها لسامر.
نظرت للعلبة بخيبة، لقد نست أمرها تمامًا، أي حجه تملك الآن.
رأى ما ارتسم على وجهها ليقول ساخرًا:
-أنتوا ازاي بتغيروا رأيكم في ثانية كده ..وبنفس القوة.
لم تعلق فأردف:
-خلاص ..أنا كمان مش عايز احضر ..احنا ندخل نديهم الهدية ونخلع على طول.
تهللت اساريرها قائلة:
-هنخرج ..نكمل السهرة سوا.
أومأ برأسه إيجابًا، لتضحك قائلة:
-طب يالا بس بسرعه ..نديهم الهدية ونمشي على طول.
ترجلا من السيارة لتتعلق هي بذراعه استعدادًا لدخول الحفل.
بدا من أول لحظة أنه لم يبدأ بعد فهمست:
-احنا جينا بدري.
-مش مهم ..هو فين جاهين ده الوحيد اللي اعرفه.
دار ببصره في الحديقة بين المدعوين القليلين، إلى أن انتبه لمن يبحث عنه يخرج من المنزل ومعه شاب أخر اقترب منهما ليلمحه جاهين فابتسم مستقبلاً إياه:
-أهلا .. ازيك يا معاذ.
-الحمدلله.
-أومال فين سامر؟.
-بيعتذرلك ..عنده عشاء عمل ماقدرش يأجله.
أومأ جاهين برأسه متفهمًا:
-الغلطة غلطتنا كان لازم نحضر الدعوات بدري علشان الناس تعمل حسابها.
التفت جاهين لوافي:
-وافي ..ابن عمي وصاحب عيد الميلاد.

ابتسم معاذ محييًا، ومهنئًا بالحفل وهو يقدم له هديته، تقبلها وافي بامتنان، أما نرمين فبدا عليها الاستغراب!

وافي!!

المفترض أن اسمه بسام.

قدمها جاهين لهما:

-نرمين ..صديقة للعائلة ..وليا شخصيًا.

تبادلا التحية معها، ليستأذن بعدها معاذ للإنصراف:

-معلش أنا مضطر أمشي.

-لا تمشي ازاي ..هو احنا لسه بدأنا ..كمان إحنا عاملين الحفلة دي علشان نعرف الناس على والدة وافي واخته اللي رجعوا من السفر.

ضاقت عينا نرمين وهي تستمع لحديث جاهين وظنونها المستحيلة تزداد فأمسكت بمعاذ هامسة:

-أنت قلت هنمشي على طول.

اعتذر بود:

-أسف والله ..وحمدلله على سلامة والدتك وأختك معلش أنا لازم أمشي ..وكل سنة وأنت طيب.

لم ترد نرمين أن يتراجع فتحركت بسرعة تجذبه معها للخروج من المكان، وشعور داخلها يخبرها أن الفرار هو الحل الأسلم الآن.

راحة كبيرة شعرت بها مع استقرارهما في السيارة ليقول معاذ:

-تحبي تروحي فين؟!

أجابت بلهجة رقيقة:

-أي مكان ..المهم معاك.

لمَ لا يمكننا أن نبادل الحب بالحب وتنتهي مآسينا بهذه البساطة.

لكنه لا يستطيع، ولا يريد حتى أن يحاول.

....

زاد عدد المدعوين لتمتليء بهم الحديقة تقريبًا، بقيت فاطمة في ردهة المنزل ولم تستطع الخروج، بينما خرجت الفتيات للانضمام لهذا الجمع، لم يكن إحداهن معروفة للأخرين لكن هذا لم يمنعهن من السير وسط هذه المجموعات وكأنهن يتابعن عرض في مكانٍ ما.

إلا مها بطبيعة الحال، تعلقت بكف نانا وسارت على خطواتها وقد زاد توترها مع أصوات كثيرة تصل لأذنيها مما يخبرها بكم الزحام حولها.

كما التقطت أنفها العديد والعديد من رائحة العطور النسائية والرجالية.

أمسكت بذراع أختها:

-نانا ..رجعيني عند أبلة بطة.

-ليه يا بنتي أدينا بنشوف الدنيا.

-أنا مابشفش.

قالتها بحزن واضح ليقابلها صمت من أختها لا تعرف هل سمعتها وتجاهلت أم تنظر لها دون تعليق.

استمر وقوفهما لحظات حتى جاءها صوت بسمة:

-وقفتوا ليه؟!

-عايزة ترجع لابلة بطة.

ربتت بسمة على كتفها:

-تعالي يا مها ..نقعد على الترابيزة دي شوية.

أطاعتها مها ليجلسن على مائدة مستديرة أنتشرت مثيلاتها حول الحديقة في شكل دائري.

دارت نظرات بسمة ونانا في المكان، لم يكن ما ترى بسمة بغريب عليها رأت مثله كثيرًا أثناء وجودها في قصر معاذ، الإختلاف الوحيد أنها لا تراقب من خلف نافذة أو من فوق سطح، بل هي تجلس بينهم، تراهم وجهًا لوجه، هي الآن منهم حتى لو لم يتعرفوا عليها بعد.

أما نانا فكانت في عالم أخر بالفعل، عيناها تبرقان ببريق مختلف.

بشر لم تخالط أمثالهم، ملابس باهظة الثمن، وحلي لم تشاهدها حتى في محلات الذهب في منطقتها.
وكعادتها سرحت بخيالها في حياة ستعيش مثلها يومًا، لتكون من هؤلاء الصفوة.
"مش أوي كده"!!
كلمات وصلت لعقلها لتوقف سيل أفكارها بل وأحلامها لتنظر إلى محدثها والذي بدى عليه السخرية وهو يجلس بجوارها:
-عينيك هتطلع على الناس ...خفي شوية.
لوت شفتيها بينما ضحكت بسمة وابتسمت مها لتقول الأولى:
-محمد كويس إنك متأخرتش.
مد ذراعه بعلبة هدايا بحجم كف اليد قائلًا:
-كل سنة وأنتِ طيبة يا بوسي ..حاجه كده على قدي يا رب تعجبك.
تناولتها بفرحة:
-وأنت طيب شكرًا محمد.
فتحتها لتخرج منها حافظة نسائية أنيقة بلون وردي، لتتسع بسمتها:
-جميلة أوي يا محمد تسلم ايدك.

وفي مكان ما كانت تراقبها عيون أخرى قال صاحب زوج منها:
-أهو ده محمد اللي قلتلك عليه.
نظر الأخر إلى حيث يشير ليجد شاب يجلس مع بسمة والفتاتان:
-ده باين عليه واخد عليهم.
-أختك بتقول ده راجل العيلة.
-نعم ..!!راجل العيلة؟!
-أيوة بيعتبروه كده وهو بيعتبر مرات عمي زي أمه.
ضحكه ساخرة ملأت شفتيه وهو يقول:
-هو كام حد بيعتبرها أمه.

رمقه جاهين بنظرة جانبية ولم يعلق، بل عاد ببصره لمائدتهم التي تولى محمد فيها الكلام بينما الفتيات يستمعن إليه، وبدون أن يعي شعر بشيء من الغضب على ضحكات بسمة معه، وكأنه أقرب لها من أخيها ومنه.
وكزه وافي قائلاً:
-مش هنطلع التورتة بقى ونعرف الناس بيهم.
نظر جاهين في ساعته:
-ماشي.
وبينما يستدر توقف مكانه للحظة وبدى مندهشًا نظر وافي إلى حيث يتطلع ليجد شاب أخر يقترب منهما،بدى في نفس عمر جاهين تقريبًا، مد يده ليصافحه ففعلها جاهين ببرود ورغم وضوح الاستقبال إلا أن الشاب لم يهتم وهو ينظر لوافي قائلًا:
-كل سنة وأنت طيب ..انا ماحصليش الشرف واتقابلت معاك قبل كده ..أعرفك بنفسي ..شهاب الأبيض ..جاهين بيه يعرفني أكيد.
ردد وافي الاسم في رأسه وتذكر حديث جاهين غير الجيد عن شخصه، لكنه لم يبدها له وهو يرد التحية:
-أهلا وسهلًا.
-أنا سيبت هديتك على تربيزة الهدايا يا رب تعجبك، وشكرًا على الدعوة .. بصراحة ماتوقعتش أي دعوات منكم لعلها بداية كويسة.
لم يعلق جاهين بينما اكتفى وافي بالإيماء برأسه.
ما أن ابتعد حتى قال جاهين من بين اسنانه:
-مين الغبي اللي عزم ده؟!
هز وافي كتفيه:
-أكيد حد من العلاقات العامة هما اللي كانوا بيبعتوا دعاوي لرجال الأعمال.
-عارفين إننا مابنشتغلش معاه.
-أكيد غلطوا ..المهم يالا بقى نطلع التورتة دي خلينا نخلص.
قالها بتوتر واضح.

توتر يزداد مع قرب اللحظة التي لا يعلم كيف يمكنه التصرف حيالها، هو حتى لا يتحدث لهما، لا يقترب منهما والآن سيقف بجوراهما يحتفل أمام كعكته، هل من المتفرض أن يضم أمه إلى صدره ويقبلها كما يفعل أي ابن وأم ، ولكنه إن فعل فسيفعلها مع سميحة وليس مع الأخرى، وأخته، سيبتسم لها قبل أن يطفئا الشمع معًا.

يالَسخافة ما يفكر فيه ويالحيرته بشأنه.!!

....

تابع الجمع خروج الكعكة ذات الثلاثة أدوار لتقف في منتصف الحديقة تقريبًا، ليتقرب منها الجميع، بينما ذهب جاهين ليدعو فاطمة إلى المجيء.

وقفت بسمة وتبعتها نانا التي قالت:

-مها خليكي هنا ..هروح مع بوسي.

-ليه يا نانا ..خليكي معايا يعني مش هتشوفي من هنا.

أمسكت بوسي بنانا:

-سيبيها تيجي معايا..خليك مع مها يا محمد لحد ما نرجع.

تحركت بخطوات مضطربة، لم تتصور أن يصيبها هذا الخوف من ذلك الموقف، كل تلك العيون ستسلط عليها بعد قليل، ناهيك عن الأسئلة التي ستطل منها وليس مسموح باجابتها .

البسمة المزيفة، النظرة الراضية، عنصران عليها توفيرهما حين النظر للناس فهل سيساعدها هذا التوأم الصامت على ذلك.

وقف وافي أمام الكعكة وعلى يمينه تقف بسمة وبجوارها فاطمة ونانا بينما على يساره وقفت سميحة وجوارها جاهين وميادة.

تجمع المدعوين حولهم، في انتظار اطفاء الشموع، لكن الصمت عم للحظة حتى أنهم تبادلوا النظرات ليتمتم جاهين:

-يالا يا وافي.

لا يعلم لمَ قَبِل أن يكون هو المتحدث، الكلمات كلها هربت من رأسه ولا يستطيع النظر إلى أي عين من تلك العيون التي تحدق به.
ابتلع ريقه بصعوبة، وهولا يزال يحثها على النطق.
وصل إلى مسامعه صوت ميادة:
-جاهين اتكلم أنت ..بلاش هو.
رمقه جاهين للحظات ولم يجد منه اعتراض.
اتسعت بسمته وهو يحي المدعوين ويشكرهم على الحضور، وفي كلمات مقتضبة وقليلة قدم لهم بسمة كصاحبة الحفل الثانية كأخت توأم لوافي، وكذلك فاطمة، ومع همهمات الحضور أوضح أنهما انفصلتا عن العائلة لأسباب خاصة وقد عادتا الآن للبقاء.
لم يقل أكثر من هذا، مال برأسه ليقول:
-يالا بقى يا توأمنا العزيز اطفوا الشمع.
نفذا الأمر بروتينة واضحة بينما قام الجمع بالتصفيق والتهنئة.
وفي اللحظة التالية كان يحتضن سميحة وهي تهنئه وتقبله بينما تنظر فاطمة لهما بحسرة واضحة.
حسرة لم تتحملها لتتحرك هاربة، فأمسكتها بسمة:
-ابوس ايديك ماتهربي الناس بصالنا ..اعملي زي ما سميحة بتعمل.
كلمات سهلة والتنفيذ ضرب من المستحيل.
تريدها أن تذهب له وتضمه، لن تقدر ..سيرفضها.
وجاء الرد على لسان ابنتها:
-مش هيعمل حاجه ...هيعمل حساب الناس ومش هيعمل حاجه روحي خدي ابنك في حضنك يا ماما.
دفعتها دفعًا إليه، بينما هو يتلقى التهاني من المقربين وجدها أمامه، عيناها تبرقان بالعبرات كأول مرة رآها فيها.
ألا تملك غير الدموع التي تذرفها حين تقترب منه؟!

أتريد أن تخبره أنه سببها، أم أنها دموع الندم التي تتمنى منه أن يسامحها لأجلها.
وفي اللحظة التالية كانت تحتضن وجهه بين كفيها، ولتذهب سميحة وتهديداتها إلى الجحيم، ألا يكفي أنها صامتة، لكنها لن تتوقف عن بث حبها لابنها مادامت الفرصة متاحة.
وتحت نظرات سميحة المغتاظة ضمت فاطمة وافي إلى صدرها وهي تقاوم رغبة شديدة للبكاء.
فاليوم أكمل وليدها عامه الثالث والعشرين.
وياللوعة القلب على طول البعد.!
ظنت أنها صارت منه قريبة، لكنها لازالت بعيدة.
وليدها صار كنجمة في سمائها تراها بوضوح لكنها لا تستطيع الاقتراب منها.
همست بصوت مختنق في أذنيه:
-كل سنة وأنت بخير وصحة يا بني.
كانت تعتصره بذراعيها بشوق أيام مضت كانت تراه فيها من بعيد.
انتفض قلبه بين ضلوعه، فضمتها تلك المرة مختلفة عن الأولى، وكأنها تخبره أنها انتظرت كثيرًا لتنالها، ولا يعلم لمَ أصاب قلبه ذاك الأنين الغريب.
أحن قلبه لها قبله؟!
شعور جديد يجتاحه أراد الفرار منه سريعًا تملص من بين ذراعيها لتستشعر رغبته في تحريره، لترفع ذراعيها عنه، ليمنحها بسمة مرتبكة وهو يستدير ليحيي بقية المدعوين.
ظلت مكانها لحظات قبل أن يربت على كتفها أحدهم، التفتت لترى وجه جاهين الباسم:
-أيوة يا ابلة بطة ..قربي منه أنتِ طالما هو مش قادر.
أومأت له لتفر من أمامه ومن وسط الجموع قبل أن ينتبه أحد لدمعاتها التي غادرت مقلتيها بسخاء.
....

تعددت النظرات ما بين دهشة، واستنكار، وفضول.
لينتهي الأمر بتقبل تلك الشخصيتين اللاتي ظهرتا في عائلة الشربيني، فالأمر لا يعني إلا أصحابه على كل حال.
إلا شخص واحد كان يراقب بتركيز شديد ورغبة عارمة في معرفة التفاصيل، أم وأخت تظهرا فجأة، الأمر يحمل في طياته الكثير من الأسرار والتي يجب أن يعرفها، فلعلها تفيده يومًا.
تعلق بصره بتلك الأخت الجديدة، ولا بأس بالتعرف عليها!!
وبينما انشغل المدعوين بالطعام انشغل هو بمتابعة مائدة بسمة التي شاركتها فيها فتاتان وشاب.
وبينما تتنقل عينيه على أصحاب المائدة التقت بعيني الفتاة ذات الرداء الأسود، والتي يبدو أنها لاحظت مراقبته لهم، لم يجد بد من ابتسامة للتحية لتبادله إياها بحبور.
أتظنه معجب بها؟!!
أعجبته الفكرة ..هي صديقة للأخت الجديدة وقد تكون سبيل منطقي لها.
مزيد من النظرات!!
الابتسامات!!

عقل يخطط ليصل لما قد يكون مفيدًا.
وعقل يسعى خلف وهم يتصور أنه وجد مبغاه.
وعقل أخر انتبه لما يحدث فاشتعلت غيرته وغضبه.

انتهى العشاء وعاد الجمع للحديث ما بين أعمال وصفقات، إلى نميمة ونقل أخبار، ولا بأس من بعض العلاقات الجديدة بين شباب وشابات.
ومن بينهم بسمة التي اقترب جاهين منها ليطلب منها تتبعه للتعرف على بعض أفراد عائلة والدته الذين يريدون التعرف عليها، وبعدها بلحظات قامت نانا ليوقفها محمد بعصبية:

-رايحة فين؟!
أرادت أن تصرخ بوجه أن لا شأن لها لكنها تماسكت وقالت بهدوء:
-الحمام ..خليك مع مها ماتسيبهاش لحد ما ارجع.
كادت عيناه تغادر محجريهما وهو يتابعها إلى أن اختفت بالمنزل، ليدور ببصره في المكان باحثًا عن هذا الذي بادلها الكثير من النظرات لكنه لم يستطع رؤيته.
مرت دقائق بدت أكثر من اللازم هب واقفًا فقالت مها:
-أنت قومت يا محمد.
أجابها على عجل:
-هجيب حاجه نشربها وارجع على طول ماتتحركيش المكان زحمة.
-أنا مش عايزة ...محمد.
زفرت بضيق فيبدو أنه ذهب مسرعًا ولا تعلم السبب.

كانت الضوضاء حولها كثيرة، وهذا أفضل من السكون الذي يرعبها.
حاولت التماسك قدر استطاعتها هي في المنزل حتى ولو به الكثير من الناس، محمد سيعود سريعًا، وكذلك نانا حتمًا ستظهر الآن، وربما تكون بسمة تتابعها من بعيد للاطمئنان عليها.
جميعهم يعلمون أنها لا تحب البقاء وحيدة إلا في مكان مغلق تأتمن على نفسها به .لكن توترها بدأ كعادتها يزداد تدريجيًا مع استمرار اختفائهم.
لتبدأ فرك أصابعها بعصبية من أسفل المائدة، حتى شعرت بحدسها أن أحدهم يقترب، تسرب إليها القليل من الشعور بالراحة سرعان ما فر هاربًا حين سمعت صوت غريب على اذنيها:
-مساء الخير.
سرت قشعريرة باردة في أوصالها، وارتفعت نبضات قلبها وأصبحت على مشارف نوبة من نوبات هلعها.
فرفعت ذراعيها تحيط كتفيها كوسيلة دفاع لا تملك غيرها.
ليعود لها الصوت الغريب:

-بقولك مساء الخير ..أنتِ كويسة.
أشاحت بوجهها بعيدًا متمتمة في توتر:
-أنا ماعرفكش ..لو سمحت امشي.
رد بلهجة ودودة لا تناسب حالتها:
-طب ما احنا ممكن نتعرف ..أنا اسمي هاني ...صديق للعيلة ..بس مش باجي هنا إلا في المناسبات...شكلك مختلف عن كل الموجودين ..تعرفي كده.
يسترسل وكأنه سيصادقها، لم تجد بد من الوقوف لتقول بنبرة أعلى:
-لو سمحت قلتلك ابعد ..أنا مابتكلمش مع أغراب.
كان جسدها ينتفض فعليًا ليعود لها صوته:
-طب بصيلي ..يمكن تحبي نتعرف.
من هذا المعتوه المغرور؟.
لا تريد أن ينتبه لعجزها فيفعل ما لا تقوى على احتماله، لن تعرض نفسها لهذا الموقف المرير مرة أخرى.
لذا تحركت بشكل أرادت أن يكون طبيعيًا:
-لو مابعدتش همشي أنا.
وفي اللحظة التالية حدث ما أرعبها ووصل بها إلى الحد الأقصى، شعرت بأصابع تلامس ذراعها وصوته:
-طب استني أنتِ مضايقة ليه؟.
انتفضت كمن أصيب بصاعق كهربائي وارتدت للخلف على غير هدى لتصدم بأحدهم وتسقط أرضًا.
لتصرخ مع شعورها بذراعين تحيطان بها حتى انتبه لها كل من حولها والشاب يتراجع مرددًا:
-أنتِ مش طبيعة ..هو أنا عملتك حاجة.
ظلت مكانها لتدفن وجهها بين كفيها وتغرق في دموعها إلى أن جاء صوت أخر:
-لو سمحت ..ابعد عنها.

-انا ماعملتش حاجه.
قالها الشاب مغادرًا ليميل ناحيتها الأخر هامسًا:
-اهدي ..أنا بسام.
استمر بكاءها وإن خف نحيبها فمد يده ناحيتها:
-يالا نقوم من على الأرض.
وضعت كفيها أرضًا في محاولة للنهوض ولم يسعفها فستانها الفضفاض فقال:
-هاتي ايدك.
-لأ ..لأ!!
رددتها بعصبيه بالغة فضم ذراعه إليه وهو يرمقها بدهشة:
-خلاص اهدي ..انا عايز اساعدك ..الناس بتبص علينا ..معلش اسندي عليا لحد ما تقومي بس.
ظلت على حالها والتردد يعبث بعقلها، هي لم تمد يدها ناحية رجل أخر غير محمد لسنوات، هو فقط من تثق به كعمياء.
عاد صوته الهادىء يتسلل لعقلها:
-ماتخفيش.
هدأت نبضات قلبها المتصاعدة، وعقلها يرسم له صورة شبية لصورة فاطمة وهذا وحده كفيل بطمئنتها.
مدت كفها بحذر ناحيته ولم يتسنَ لها رؤية البسمة الطفيفة التي سكنت ثغره وهو يقرب ذراعه منها.
"مها ..ايه اللي حصل؟".!
انتفضت لتضم كفها اليها، واعتدل هو واقفًا وشعور بالإحباط استقر بقلبه بسبب هذه المقاطعة.

....

الفصل الثاني والعشرون

أنا قلبي كورة ..والفراودة أكم
ياما اتنطح واتشاط ..وياما اتعكم
واقول له كله ح ينتهي في المعاد
يقول بساعتك؟ والا بساعة الحكم
عجبي!!
رباعيات جاهين

الأمومة ..البنوة.
تلك العلاقة السامية والتي تميزت بالكثير من الخصوصية.
برغم ما تبدأه من مشاق.
"حملته كُرهًا ووضعته كُرهًا"
كُرهًا.
كلمة ربانية حملت معاني كل ما تكبدته الأم في سبيل نمو ابنها في رحمها وما يليه من ألام وضع.
فينقطع حبل سُري عضوي وينشأ حبل سُري نفسي .لا ينقطع مهما كبر المولود أو ابتعد.
وبهذا الحبل ..تشعر الأم بوليدها إذا كان في ضيق، ولم نسمع بأنه ساعد وليدًا على الشعور بأمه إلا فيما ندر.
فهل سيكون من هؤلاء القلة؟!
تلك الوخزة التي أصابت قلبه حين كان بين ذراعيها لم تغادره إلى الآن.
مرت دقيقة تلو أخرى ولا زالت تملك قلبه، وكأنه يريد أن يعود إليها ويطلب المزيد.

دهشة تغمره ولا يجد تفسير لما يفكر فيه!!
هي من تنازلت عنه، أسيحن لها بهذه السهولة؟.!
عليها الاعتذار له ألف مرة قبل أن تتوقع الصفح.

اتخذ ركنًا قصيًا مجلسًا له، شعر بحاجته لبعض السكون بعيدًا عن كل هذا، أو ربما أراد مقاومة رغبة داخله في الذهاب إليها وإلقاء كل ما في جعبته من أسئلة.
وكالعادة ..الخوف ألجمه وأسكته.
بحث بعينيه عنها، لم يرَها، وكأنها عادت لمخبئها التي تقضي فيه كل وقتها منذ جاءت لمنزله.
ليسفر بحثه عن شيء آخر!!
تلك الفتاة تجذب انتباهه بشكل هو نفسه لم يعتاد عليه.
في البداية ذكرته بنفسه، حين كان مريض، يحمل إحساس العجز على التصرف كالبقية، يتجنب الاختلاط، يفضل البقاء وحيدًا.
لا يحب أن يشعر أحد بمرضه ولا أن يشفق عليه.
لديها نفس المشاعر حتمًا.
ما يحيره، هيئتها التي تحمل الكثير من الخوف حين تكون وحدها كما حدث أول مرة التقى بها، بدت مرتعبة كثيرًا كما هي الآن.
عقد حاجبيه حين انتبه لهذا الشاب الذي ظهر من العدم وأراد الحديث معها، نهض من كرسيه مع شعوره أنها بحاجه للمساعدة.
وما إن وقفت لتسقط أرضًا هرول ناحيتها وشعور بالغضب من ذلك الشاب يملأه.
وبكلمات حازمة أبعده، اقترب منها وحافظ على مسافة بينهما رغم عدم قدرتها على رؤيته ليمد لها يد العون.
أن تمنحه ثقتها وسط هذا الخوف كان ليسعده كثيرًا.
ومع مد ذراعها نحوه تضاعفت سعادته.

"مها ..ايه اللي حصل؟".!
اعتدل واقفًا يتطلع لها وهي تساعد مها على الوقوف على قدميها مزيلة ما علق على فستانها من حشائش خضراء وبعض الأتربة.
تعلقت مها بذراعها قائلة:
-وديني عند ابلة بطة يا بوسي ..ماتسيبنيش هنا.
-حاضر يا مها ..تعالي.
أرادت الحركة لكنها تذكرت أمرًا فقالت بحرج:
-شكرًا.
علم أن حديثها له:
-العفو.
تلاقت نظارته مع بسمة ليستدير مبتعدًا بينما تسائلت بسمة بهمس:
-هو إيه اللي حصل؟!
أخبرتها مها ما حدث وأضافت:
-بوسي ..أخوكي طيب ..زيك وزيي أبلة بطة.
-جايز.
قالتها بسمة بضجر فصمتت مها إلى أن وصلت بها لفاطمة، لتتركها معها وتعود للحفل.

....
كان يبحث بعينيه عنها بحرص يعلم أنها ستكون هنا أو هناك.
يعلم مدى غباءها الذي سيوقعها في شر أعمالها.
ويعلم عِندها المبالغ فيه وما يمكن أن تفعله وتقوله.
وصدق حدسه، فها هي تقف من نفس الرجل الذي أثار غضبه حين كان يبادلها الابتسام.
بخطى تكاد تحفر الأرض غضبًا اقترب.
ليصل لأذنيه صوتها الرقيق:

-أنا اللي مبسوطة بالمعرفة دي.
جز أسنانه حتى كادت تؤلمه قائلًا:
-نادرة.
أغلقت عينيها وكأنها تتمنى أن ما سمعت مجرد حلم، هذا الاسم الذي لا تطيقه من الأساس وبالتأكيد لم ترد لمن يقف أمامها أن يسمعه.
التفتت وعيناها تنضح شرًا، فلم يأبه لها ليكمل:
-مين ده؟!!
راقب الأخر ما يحدث ببسمة باردة ثم نظر لها قائلًا:
-هسيبك بقى ونمرتي معاكي ...لازم تكلميني.
اتسعت عينا محمد وواتته رغبة عارمة لتحطيم فكه الباسم ببلاهة.
ضم أصابعه بقوة كاتمًا غيظه لينصرف هذا السمج، بينما هي تريد التحرك وكأنه ليس هنا.
طوق ذراعها بأصابعه ومع حالته كان طوق من حديد حتى أنها تأوهت:
-في إيه ...سيب دراعي!!
-إيه اللي أنتِ بتهببيه ده ..تعرفيه منين ده علشان تكلميه وتاخدي نمرته.
-مالكش دعوة ...وسيبني بدل ما ازعق وافرج علينا الناس.
لم يخفف قبضته للحظة قائلًا بتحذير واضح:
-انا مش عاجني اللي بتعمليه ..فاهمة؟!
زفرت ساخرة:
-أما حاجه غريبة ..مين قالك إني مستنيه رأيك؟ ..!لأخر مرة والمرة دي نهائي يا محمد ..ابعد عني وسيبني في حالي.
ضاقت عيناه ليحررها أخيرًا قائلًا:
-لا يا نادرة المرة دي أنا اللي بقولك خلاص ..كل مرة بتقوليها وأنتِ عارفه إني راجعلك ..لكن لأول مرة هقولهالك أنا مش هرجعلك يا نادرة ..مش هرجعلك.
رجفة عينيها لم تخفى عليه فهز رأسه بيأس:

-أنتِ أصلا واحدة غبية.
اندفع من أمامها مبتعدًا، بينما زمت شفتيها لتقول بعند:
-غبية ...هتشوف الغبية دي هتعمل إيه وهتبقى إيه؟!!

اندفع في خطواته وحرارة جسده في زيادة، يريد حقًا الفرار من هنا، عليه أن يكون قويًا وينفذ قراره، نادرة لن تتغير ..ولا يستطيع أن يجبرها على ذلك.
كفى!!
"محمد"
استوقفه النداء ليلتفت إلى بسمة التي تقترب منه، ولاحظت ملامح وجهه المكفهرة.
-مالك؟!!
زفر بضيق:
-همشي.
ابتسمت بود:
-اتخانقت معاها.
هز رأسه:
-مافيش فايدة فيها يا بوسي دي خلاص اتجننت ..على أد فرحتي برجوعك لأهلك على أد زعلي من اللي هي ناوية تعمله بالوسط اللي بقت فيه ...خدي بالك منها يا بوسي ..أنا ماليش أي سلطة عليها لكن هي هتخاف منك لتبعديها وهتعملك ألف حساب.
-ماتخفش يا محمد وزي ما قلتلك ..مش هتكون غير ليك.
هز رأسه نفيًا وقبل أن يمنحها ردًا وصل لاذانهما صوته غير المريح:
-ازيك يا محمد ..مش تسلم على أصحاب الحفلة كمان.
نظر له محمد ولسان حاله" ...هو أنا ناقصك"
ابتسم ببرود:
-أهلا جاهين .. كنت ناوي بس شكلكم مشغولين.

ثم عاد يوجه حديثه لبسمة:
-أنا همشي بقى يا بوسي.
-طب بكرة هتصل بيك واديك عنوان الشركة علشان تيجي على هناك ..أنا هروح من بكرة وعايزاك تبقى معايا وأكيد هنلاقي حاجه كويسة تمسكها.
"كيس جوافة أنا ولا إيه؟"!
تمنى جاهين أن يقولها لكنه اكتفى بنظرة استنكار لبسمة وكأنه ينبها لوجوده، فانتبهت لها وتغافلتها.
-ماشي يا بوسي اللي تشوفيه ...هكلمك بكرة.
ودع جاهين سريعًا ليغادر.
كتف جاهين ذراعيه ونظرته تحمل الكثير من الكلمات فلوت شفتيها قائلة:
-قلت هنزل الشغل بعد الحفلة وادينا عملنها، وقلنا إن محمد هيشتغل في الشركة ..لازمتها إيه البصة دي بقى.
أيخبرها أن علاقته بها لا تعجبه، لو فعل لأطلقت للسانها العنان.
فالتزم الصمت.
لم يمنحها أي تعليق فقررت الذهاب.
-استني.
التفتت له ليرفع لها علبة مخملية صغيرة قائلًا:
-كل سنة وأنتِ طيبة.
رمقت العلبة للحظات وقد أصابتها دهشة، فلم تتوقع هذا.
-اتفضلي.
رددها لتمد يدها على استحياء وشعور بالسعادة يصل إلى عضلات وجهها فترتسم عليه.
فتحت العلبة لترى خاتم أنيق.
اتسعت عيناها فلأول مرة تستلم هدية كتلك، هي في الحقيقة لم تكن تقبل بأي هدايا من معاذ كي لا يكتشف أمرهما والآن وصلتها هدية ثمينة من شخص أخر ..ويمكنها قبولها دون قلق!!

أخر من تصورت أن يتذكرها بهدية مميزة كتلك.
رفعت بصرها نحوه بامتنان:
-شكرًا إنك افتكرتني.
انتقلت بسمتها لشفتيه قائلًا:
-عجبك؟.
أومأت برأسها لتقول:
-تعرف أنت ساعات بتبقى كويس.
رفع حاجبيه:
-يا شيخة ..متشكر أوي وأنتِ بقى ...دقاايق بتبقى كويسة.
برغم ما تحمله من معنى إلا أنها ضحكت على تعليقه.
رمق ملامحها الضاحكة...
هذه الفتاة تصبح أجمل حين تضحك.
انسحبت من أمامه بعد كلمات شكر أخرى ، لتنسحب بسمته هو عن شفتيه وكلمات بالكاد وصلت لأذنه ولا يعلم هل ما سمعه صحيح أم أنه خطأ؟.!!

"مش هكون غير ليك"
قالتها له ..لمحمد!!
....

أوقف سيارته أمام ضفاف النيل ليغادر السيارة وتتبعه هي.
استند بكفيه على السور يطالع مياه النيل الهادئة والتي تنعكس عليها الكثير من الأضواء فتمنحه صورة أجمل.
وقفت بجواره والصمت ثالثهما، تتمنى أن تعرف فيما يفكر.
تنفست من الهواء بعمق وهناك معركة ضارية بين قلبها وضميرها..
أسكتتها في النهاية ولقلبها الغلبة.
مستحيل أن تساعده في العثور عليها.

أتسلم حبيبها لغريمتها بنفسها، إنها حتى لا تصدق أن تلك الفتاة لها علاقة بتلك العائلة ولكنها أيضًا لا يمكنها المخاطرة.
هو وحيد الآن وعليها أن تفعل ما بوسعها لتكون مؤنس وحدته تلك، سيفتح قلبه لها لا محالة ...عليها فقط الصبر.
-تعرفي إن عيد ميلادها النهاردة.
تبًا!!
التوت شفتيها بغيظ، لا يفكر إلا فيها ...أي نوع من الفتيات هي!!
أردف قائلًا:
-كانت عنيدة أوي ومش بتقبل أي هدايا ..بتخاف لحد يعرف حاجه عننا.
ضرب بقبضته السور:
-أيوة كانت بتخاف ..كانت بتحبني وعايزة تفضل معايا نفسي أعرف إيه اللي حصل ..ليه عملت كده؟؟ ليه؟.!!
ملامحه المتألمة أثارت حزنها وجدت نفسها تمسك بذراعه:
-كفاية بقى يا معاذ انساها ..أنت هتفضل تعذب نفسك كده وهي يمكن عايشة حياتها.
صرخ بها وهو يدفع ذراعها بعيدًا:
-اسكتي ..ماتتكلميش عنها تاني ..أنتِ فاهمة.
شهقت من ردة فعله وبادرت عينيها بزخ مائها لتهرع إلى السيارة.
شعرت به يجاورها ليهمس بأسف:
-معلش يا نرمين ..بس ارجوكي بلاش تتكلمي عنها ..كفاية اللي أنا فيه.
لم تمنحه تعليق غير نحيبها.
نظر لها وقد أصابه الندم على طريقته معها، أشعل محرك السيارة قائلًا:
-طب يا ستي خلاص أنا هصلحك ..تحبي نتعشى فين.
هزت رأسها بالنفي، فزفر قائلًا:
-خلاص يا نيري ماتبقيش عيلة.

رفعت رأسها وهي ترف بجفونها، التفتت تحدق به، أذناها لم تخونها، لقد قالها لها أخيراً بعد توقف دام سنوات.
ابتسم باعتذار:
-ها ..تحبي تتعشي فين؟!
اختفى نحيبها تدريجيًا لتقول:
-أي مكان تحبه.
همهم مفكرًا قبل أن يقرر وجهته لينطلق لها.
كتمت ابتسامة بلهاء أرادت الظهور.
"نيري"
معاذ يعود لها، هي سعيدة بالفعل، ستقترب منه لا محالة، ستحقق ما تريده، ستفوز بقلبه.
....
قل المدعوون رويدًا رويدًا.
حتى خلت الحديقة إلا من ساكني المنزل .وأول من اختفت بغرفتها كانت سميحة، لا تعلم كيف استطاعت التماسك طول مدة الحفل.
التهاني التي كانت تصل لها وكأن عليها رسم السعادة على محياها لدخول عدوتها الأولى إلى منزلها.
ولكن ما أثار غضبها حقًا، فاطمة التي استغلت الموقف لتتقرب منه.
بالتأكيد كانت واثقة أن لاوافي ولا هي سيحاولان ابعادها.
إنها تثير في نفسها براكين الغضب، والكثير من الخوف أيضًا.
لم تتوقف محاولاتها في استرداده، مما يعني أن الماضي قد يكشف وسيصدم وافي بها كثيرًا .
وهذا ما لن تسمح به أبدًا.
فاطمة تستمد قوتها من ابنتها، فليكن..
إذا أجبرت الجميع على معاداة الابنة سيتم معاداة الأم بالتبعية.
والابنة ستدخل معترك العمل قريبًا، وعليها الاستعداد لهذا.

طرقات على بابها أجابتها ليدلف إليها باسمًا:
-تعبتي يا ماما النهاردة.
رفعت ذراعها تدعوه ليقترب، جلس بجوارها لتضمه قائلة:
-تعبك راحة يا حبيبي ...شوفت الهدايا؟.
هز رأسه نفيًا:
-لسه ..أهي موجودة هتروح فين.
-طب اسمع ..لو لاقيت حاجت تنفع أختك ابقى ادهالها ..ماحدش جابلها هدايا .. وأنا قلت أكيد مش هتقبل مني حاجه.
اتسعت بسمته لأمه المتفهمة ليقول:
-حاضر يا ماما.
-يالا تصبح على خير بقى وأشوفك بكرة في الشغل.
قبل وجنتها ليرد لها تحية المساء ويغادر غرفتها، ولم ينتبه لبسمة ماكرة ارتسمت على ثغرها.

خرج من غرفتها ليجد جاهين جالسًا على الأريكة يحك رأسه بتعب، فأقبل عليه جالسًا:
-تعبت.
-عايز أنااااام.
-وأنا كمان.
استرخى كلاهما ليقول جاهين:
-اديت الهدية لأختك.
-لأ.
رد باقتضاب، فهز جاهين رأسه ليقول وهو يقف مغادرًا:
-براحتك ..تصبح على خير.

هو يجد الأمر صعبًا، هل عليه الذهاب إليها وتهنئتها، إنه حتى لا يتبادل معها أي حوار كأخوين، الموقف يبدو شديد الغرابة.
فرك رقبته قبل أن يدس يده في جيبه ليخرج الهدية التي تناساها عن عمد، وذكره بها جاهين.
حدق بها طويلًا مفكرًا في طريقة لإيصال الهدية لها، يمكنه أن يصعد سريعًا ويتركها في غرفتها ويغادر.
وقبل أن يتحرك من مكانه وصل له صوت ضحكات أنثوية، فرفع رأسه ليرى بسمة ونانا يتبادلان الضحك وهما يدخلان إلى المنزل، فانتبهتا له فعم الهدوء وهما تخطوان إلى الدرج دون الالتفات إليه.
فليناديها ويمنحها الهدية.
فتح فاه وأغلقه مرتين متتاليتن دون جدوى.
تهدل كتفه وهو يلوم حاله، إن كان غاضبًا من أمه لتركه، فلمَ لا يستطيع التعامل مع أخته التي لا ذنب لها على كل حال؟.
تحرك من مكانه قاصدًا الصعود بعد أن تأكد من اختفاء الفتاتين في الأعلى، صعد الدرجات بوهن لا يعلم أهو جسمانيًا أم نفسيًا.
وصل للممر ووقف للحظات قبل أن يتنفس بعمق لينهي تلك المهمة التى كانت أثقل مما تخيل.
خطا إلى غرفتها وقبل أن يصل فتح باب غرفة فاطمة لتظهر مها أمامه، توقف مكانه وهو يكاد يكتم أنفاسه، لم يرد أن تشعر به.
خطت للخارج وأغلقت الباب خلفها بحرص، يبدو أنها تركت فاطمة بعد أن نامت، تلمست الجدار، تخطو خطوات حذرة، لكنها توقفت وهي تستدير برأسها وكأنها تتأكد من شيء ما.
-في حد هنا!!
قالتها بهمس لكنه سمعه، فرفع حاجبيه مندهشًا ..تضاعفت حين نطقت باسمه:
-بسام!!
اتسعت عيناه ليقول:

-عرفتي منين؟!!
سكنت ملامحها مع سماع صوته:
-بتستعماني.
لوح بكفيه بقوة:
-لا..لا ..مش قصدي ..أنا ماحبتش أضايقك وانا حاسس إنك مش بتحبي الاختلاط بالأغراب.
اتسعت بسمتها لسرعته في القاء دفاعه فهمست:
-ولا يهمك.
أرادت أن تكمل طريقها فأوقفها بقوله:
-لحظه ...هو أنتِ عرفتيني ازاي؟ قلتي اسمي من قبل ما اتكلم.
ارتكنت بسمة هادئة على شفتيها لتقول بنفس النبرة الهامسة المسموعة:
-اصلك مش بتغير البرفان اللي بتسخدمه .
مال بتلقائية يشتم عطره والذي لم يلتقطه أنفه لاعتياده عليه.
تحركت إلى حيث غرفة بسمة، مدت يدها لتفتح بابها فاقترب منها ليوقفها هامسًا:
-لحظة ..معلش أخر مرة ممكن تدي دي لبسمة قوليها دي هديتي.
أدارت وجهها ناحيته:
-مش تديهلها أنت أحسن.
-مش هعرف ..لو ماخدتهاش يمكن مش هدهلها خالص.
رفعت ذراعها لتفتح كفها فوضع الهدية فيه، أمسكت بها ليتقهقر هو للوراء فقالت:
-على فكرة ابلة بطة وبوسي ناس طيبين أوي بلاش تبعد لدرجة إنك تندم بعد كده على كل يوم بعدت فيه وكان ممكن تقرب .. صدقني أنت اللي هتكون خسران.
عقد حاجبيه وتملكه بعض الغضب ليقول:
-أنتِ ماتعرفيش حاجه.

هزت رأسها لتقول:
-المشكلة ..أن أنت اللي مش عارف حاجه.
دلفت للغرفة وأغلقت بابها، ليقف وحيدًا لبرهة وكلماتها تتردد في عقله، عاد لغرفته، جلس على طرف فراشه لحظات قبل أن يستلقي بظهره عليه.
"أنت اللي مش عارف حاجه"
ومادام هناك ما لا يعرفه، لمَ لا تسعى أمه لإعلامه؟.!
تتصرف وكأن لا شيء يستدعي الحديث.
هي من تركته ...هي المدينة له بالتفسير وليس هو.
فماذا تنتظر؟!

....
فتحت هديته لتخرج ساعة أنيقة، ورغم ضيقها لعدم اهداءه لها بنفسه ابتسمت.
أول هدية تصلها من توأمها ..أخيها.
وضعتها حول معصمها تتأمل شكلها بسعادة واضحة.
بينما بجوارها نانا تلهب رأس مها بالاسئلة.
-يعني هو اللي كلمك وقالك اديهالها ...قابلك فين ..ادهالك ازاي؟!
لتجيب مها بمضض:
-إيه الاسئلة دي كلها ..قابلته بره الأوضة وادهاني وأنا داخلة وخلاص.
-وخلاص ...خايبة!!
هزت مها رأسها بيأس لتقول:
-بوسي ..هو باين مكسوف منك ..ماتجربي أنتِ اللي تقربي وتكلميه.
-هو قالك كده؟!
هزت مها رأسها:
-لأ ..حسيت.
حركت نانا حاجبيها صعودًا ونزولًا:
-يا حنين أنت يا حساس.
تلقت ضربة من بسمة لتتأوه مستنكرة، فقالت:

-ياريت عندك نص اللي عندها ..أنتِ يا بت جنسك إيه هتطيري محمد وهتندمي ومش هتعرفي ترجعيه.
-افتكري حاجه عدله.
قالتها وهي تتشبث بها:
-وريني الخاتم اللي جابوا جاهين.
رفعت لها العلبة لتخرج الخاتم، تأملته بعيني تشع ببريق يعشق الذهب، وبقلب يهفو لمثله تمنت وتمنت.
جذبته بسمة من بين أصابعها:
-كفااية ..يفرقع.
تعالت ضحكات مها على ذلك التعليق لتقلب نانا شفتيها:
-كده ..الله يسامحك يا بوسي وأنتِ بتضحكي على إيه ...بصي يا بوسي الخاتم ده يتلبس من بكرة هو والساعة.
-ليه إن شاء الله ...علشان يقولوا عليا واقعة وما صدقت لاقيت حاجه غالية ألبسها.
وكزتها في كتفها:
-يا عبيطة ..مافيش أحلى من إنك تلبسي الهدية اللي جاتلك وصاحبها لما يشوفها يحس إن ليه معزة في قلبك ..وهو المطلوب ..قصري المشوار يا بوسي ...قربي منهم علشان تعرفي تعملي اللي أنتِ عايزاه.
ضربت مها كف بكف:
-هو أنتِ ماتعرفييش تكملي الجملة للآخر بما يرضي الله ..لازم تعكي.
قلبت بسمة الخاتم بين أناملها، دفعته في خنصرها ورفعت كفها ترمقه للحظات. أنيق ويضفي على كفها مظهر محبب.
-معاكي حق ..نلبسه أحسن ..ياله بقى نووووم ...أنا هروح معاهم الشركة بكرة خالوا بالكم من ماما لحد ما ارجع.
غادرتا بينما استلقت هي تتأمل الخاتم للحظات ثم تمرر اناملها على الساعة. بداية ليست سيئة.

....

لحظات ربما هي الأكثر إثارة في حياتها، ارتدت أفضل ما تحب أن تظهر به في الشركة، فبعد دقائق ستدخل عالم مختلف تمامًا.
وعليها أن تثبت جدارتها سريعًا، ومن الجانب الآخر أن تلقي بسميحة تلك إلى خارج تلك الحياة.
هذه المرأة لن تكون إلا كعضو في العائلة لا حاجه له في شيء.
ستدفع أخاها وجاهين معها ليكونوا المسيطرين في أقرب وقت.
بهدوء ...وحنكة ..وبلا تصرفات هوجاء.
سيعود لها أخيها ومالها أيضًا.
طرقات على باب غرفتها تنذرها بالتحرك للذهاب، حملت حقيبة يدها الأنيقة ثم توقفت لتذكرها أمرًا، عادت لتلتقط الساعة وتحاوط بها رسغها وتأكدت من ارتدائها لخاتم جاهين ..وخرجت.
وصلت للحديقة لتجد جاهين أمام سيارته ووافي أمام السيارة الأخرى، ابتسم جاهين لمرأها:
-اهلا ..ها هتركبي مع مين؟!!
رفعت إحدى حاجبيها تستغرب السؤال لتقول بدون تفكير:
-أخويا طبعًا.
لم تخفى عليها البسمة الهادئة التي ارتسمت على ملامح وافي لتقترب منه وكأنها تبحث عن المزيد فقالت:
-ولا عندك مانع.
-لا أبدًا.
قالها بصدق، فتح جاهين باب سيارته:
-الله يكون في عونك.
حدجته بسمة بنظره نارية فابتسم ببلاهة:
-بهززززر.

ضحك وافي عليه بينما بسمة تنظر له لتقول:
-أول مرة أشوفك بتضحك.
انزوت بسمته تدريجيًا ولم يجد ما يعلق به، فأتاهما صوت جاهين من داخل سيارته:
-يالا.
رفعت رأسها تنظر لشرفة فاطمة، وكما توقعت.
تقف في الأعلى تنظر لهما بعينين يملأهما الحنين، وملامح حزينة لا زالت لا تفهم بسمة سببها.
تمنت أن تصيح لها أن كل شيء سيكون على ما يرام.
أن ضحكة ابنها تلك ستكون لها قريبًا جدًا.
لكنها اكتفت بأن رفعت كفها تلوح لها، فترد أمها بنفس الطريقة، لتلتفت بسمة إلى أخيها الذي كان يتابعهما، فمنحها نظرة جامدة ليفتح باب سيارته ويستقر أمام مقودها في انتظارها.
أغضبها بتجاهله لأمها ثانية وعليها الصبر.
جلست بجواره والصمت يحاوطهما، نظرة له عبر المرأة الأمامية، هذه المرة أردت أن تحدق بملامحه جيدًا.
نفس العينين بحجمهما ولونهما ..أكثر ما يتشابهان فيه.
نفس لون البشرة الخمري.
ربما شفاهها أصغر بما ينسب هيئتها كأنثى.
ابتسمت!!
يبدو أنها حتى لو كانت رجل لكان وسيم مثله.
رفع عينيه بشكل مفاجيء لتصطدم بعينيها لكنها لم تهرب، ظلت تنظر له حتى عاد ببصره للطريق، ليصل له صوتها:
-شكرًا على الساعة ...جميلة.
منحها نظرة جانبية، تحرك معصمها يمنة ويسرة، بدت الساعة أنيقة على رسغها حقًا.

لم يجد ما يقوله غير:
-العفو.
يبدو أنه لا ينوي الخوض في حديث، فعادت لصمتها.
....

رهبة اللحظة الأولى ...تصبب العرق ..الارتباك ...الخوف.
عاشت كل تلك المشاعر في لحظات دخولها إلى الشركة وتعرفها على رؤوساء الأقسام.
الشركة لم تكن بالضخامة التي تصورتها.
ولا تعلم لما تخيلت أنها مبنى ضخم زجاجي من الخارج كما تشاهد في التلفاز عادة.
لكنها وصلت إلى مبنى تجاري ضخم يضم عدة شركات.
احتلت شركتهم طابقين كاملين في ذلك المبنى يتصلان بمصعد وسلالم داخلية.
انتهى بها المقام في غرفة الاجتماعات.
لتشهد اجتماع مصغر مع مدير الحسابات والتسويق ليدلي عليهما جاهين ما الذي عليهما فعله فيما يخص أخر منشئات تم انهاءها.
غادر المديران، لتقترب منهما وتجلس بجوار وافي تحدق في تلك الأوراق التي أمامه في محاولة لفهمها ليقول جاهين:
-واحدة واحدة هتفهمي كل حاجه ...أنا بقول بما انك اقتصاد ما تركزي في دراسات الجدوى بتاعت المشاريع اللي بنعملها لحد ما تفهمي كل حاجه في الشغل.
أومأت برأسها لتقول:
-ماشي ..ومحمد هيشتغل معايا؟.!
منحها وافي نظرة جانبية بينما قال جاهين:
-قلتي إنه محاسب ..يبقى يشتغل في المحاسبة.
حدجته بغيظ:

-طيب ..المهم نبدأ ..أنا كلمته وهو في الطريق.
طرقات على باب المكتب أوقفت كلامهم لتدلف السكرتيرة قائلة:
-مداد سميحة عايزة حضرتك يا باشمهندس وافي.
أومأ لها إيجابًا، التوت شفاه بسمة قائلة:
-هو اسم بسام ده لاغيتوه ولا إيه؟!!
قام وافي مرددًا:
-وافي ..بسام ..هو أنا نفس الشخص.
غادرهما وافي، لتزفر في ضيق:
-هو مين اللي سماه وافي؟.!
-عمتي.
ضحكة هازئة خالطت حروف كلماتها:
-طبعا ..مش طايقة الاسم اللي أمي اختارته.
رمقها جاهين لبرهة، تبعها بكلمات هادئة:
-نصيحة مني ماتحاوليش تعادي عمتي سميحة.
ردت بنفس الهدوء:
-نصيحة مني أنا ..ماتكلمش عنها قدامي لو عايزنا نبقى على وفاق.
تنفست بعمق قائلة:
-مين اللي هيعلمني موضوع دراسة الجدوى.
جارها في محاولتها لتغير الحوار، ليتصل بالسكرتيرة طالبًا منها دعوة أحدهم للمجيء، أغلق الهاتف ليقول:
-الاستاذ عماد ده قديم في الموضوع وهيعرفك الخلاصة ..وأهلا بيكي في عالم الأعمال.
غادرت مقعدها لتقف أمام النافذة، كانت الشركة في الطابق العاشر مما سمح لها بالرؤية من علو.
شطحت بخيالها كثيرًا، تفكر في اليوم الذي ستكون لها الكلمة هنا.
اليوم الذي ستجبر الجميع على الاستماع لها وتجاهل سميحة.

اتسعت بسمتها رويدًا رويدًا ...وخطتها تنسج في رأسها بالتدريج.

....

انغمس سامر في عمله، فلم يشعر به وهو يدخل ويجلس أمامه إلى أن همهم:
-مشغول أوي.
رفع رأسه بغير تصديق ليحدق به وكأنه يتأكد هامسًا:
-معاذ!!
ابتسم:
-أيوة ..ايه أول مرة تشوفني.
-في حاجه حصلت؟!!
لم يتوقع مجيئه فتصور أن هناك خطأ ما فلوح معاذ بكفه.
-لأ ..أنا زهقت من قعدة البيت وعايز أنزل الشغل ..أصلا نرمين مش سيباني في حالي ..فقلت ارجع الشغل أحسن.
ضحك سامر على كلماته:
-بتهرب من نرمين بالشغل ياريتنا كنا جبناها من زمان ..عموما نورت الشركة ياريت المرة دي تصدق وتخش في الشغل بجد.
-حاضر.
انضم لهما مساعده الخاص قائلًا:
-سامر بيه ..البنت اللي حضرتك بعت ورقها للموراد البشرية عينوها في قسم المحاسبة.
عقد سامر حاجبيه مفكرًا:
-بنت مين؟!!
-اللي اسمها زينة عبد الحكم.
-أأأأه ..طب كويس ...نبه على مدير القسم لما يبعتلي حد من هناك مايبعتهاش هي.
بدى مستغربًا لكنه أومأ بطاعة وانصرف.
اعتدل معاذ:

-مين زينة دي؟!
أجابه وهو يطالع أوراقه:
-أخت البنت اللي أنت خبطتها بالعربية.
-ايييه ..وده ليه ..قصدي بتعمل ده ليه؟!
ابتسم بسخرية:
-ماتشغلش بالك ..أنت أصلا ولا اهتميت تسأل مع إن الناس دي كان في ايدها تحبسك.
صمت لتقريع أخيه الهادئ.
هو على حق.
لطالما كان يترك له التصرف في حل المشكلات منذ صغره، وليس من المفترض أن يلومه هو من عوده على هذا ..فلمَ السخرية الآن؟!
وقف قائلًا:
-أنا هروح مكتبي وهتابع الشغل.
أومأ له برأسه واكتفى.
ليغادر معاذ الغرفة تشيعه نظرات أخاه.
-يا ريت يا معاذ تبدأ تتحمل المسئولية بجد.
....

الفصل الثالث والعشرون

إيه اللي خدته يا قلبي من مرور السنين
يا قلبي إلا دمعتك والأنين
بتئن وبتفرح وترجع تحن
مع إن مش كل البشر فرحانين
عجبي!!
رباعيات جاهين

هل نملك قلوبنا؟!
السؤال الأكثر انتشارًا بين العاشقين.
ولكن ليس العاشقين التقليديين الذين يتبادلان الحب ولا يعكر صفوهما إلا غيرة أو خلاف ما.
ولكنه سؤال من أحب الشخص الخطأ..
من منح قلبه لمن لا يستحق.
من كان حبه لا يصل للطرف الآخر.
بالتأكيد يحاولون التغلب على هذا الحب ونسيانه، وعندما يفشلون يأتي السؤال وهل نملك قلوبنا؟!

فما أصعب أن يكون الحب ابتلاء، اختبار قاسي لا تقوى على اجتيازه ..ولو بدرجة مقبول.
فكيف لو كانت المحبوبة هي نادرة، فالرسوب هو الحل.
زفرة حارة غادرت صدره وهو يقف أمام مبنى تجاري كبير، هنا سيبدأ من جديد وعليه أن يبذل ما بوسعه لتحقيق النجاح.

كم كان حاله سيكون مختلف لو آزرته ودعمته، كم كان سيُقبل على كل شيء بقلب مرح مطمئن، ولكنها أبت إلا أن تلون كل ما يراه الآن بلون قاتم ولا يعلم متى سيتمكن من الرؤية كما يجب.

لكنه لن يتراجع عن قراره، يجب أن يطوي تلك الصفحة من حياته، هي لن تتوقف حتى تتأذى.

الغبية ..!!كم أراد أن يحميها لكنها حتى هذا جعلته مستحيلًا عليه .وبرغم كل هذا لازال قلبه يؤرق عليه لحظاته وهو يخبره أنه قلق عليها وعلى ما يمكن أن يصيبها، رغبتها الشديدة في الوصول إلى حياة لم تعشها يومًا ستدفعها إلى التهلكة.

ولن يتمكن من انقاذها بعد الآن.

أطرق رأسه أرضًا قبل أن يرفعها ثانية ليتنفس بعمق من بعض نسيم هواء الصباح فالشتاء لم يأتي بعد لكنه يمنحهم نفحات باردة لبعض الوقت كل صباح.

سيهتم بعمله وحسب فهذا ما سيتبقى له.

سمى الله وخطى بثقة إلى المبنى ليتجه إلى حيث أخبرته بسمة.

....

تابعها وهي تقف أمام النافذة بثبات،كأنها أصبحت في عالم أخر لا تدري بمن حولها، يثير فضوله أن يعرف ما الذي يدور بعقلها، يشعر أنها تحمل الكثير من النقمة على عمته، وهو مهما غضب منها أو اشتكى من ظلمها في المعاملة لن ينسى أنها عمته الكبرى والتي كانت أهم من كان لهم دور بحياته بعد وفاة أبيه.

يشعر باستحالة حل تلك المعضله، لا يمكنه دفع عمته لحب تلك الفتاة ولا يمكنه اجبار بسمة على احترام عمته.

لكنه سيحاول وهذا أقصى ما يمكنه فعله.

ضاقت عيناه حين رفعت كفها لتريحه على الزجاج أمامها، فلاح له الخاتم بين أناملها لترتسم البسمة بتلقائية على شفتيه.

شعور محبب استقر داخله لاهتمامها بارتداء هديته، هز رأسه بتعجب.

لا يمكنه تفسير تصرفات تلك الفتاة ...ولا حتى تحديد طبيعتها.
طيبة .. مراعية لمن حولها ..متسامحة!!
أم عنيدة صلبة الراس ..سليطة اللسان ..وبالطبع أكثر من عرف استفزازًا!!
وكأن لديها القدرة على التحول.
وهو من تعرف على الكثير من الفتيات لا زال لا يملك القدرة على التنبؤ بأفعالها ولا أفكارها.
"احم"..
وصلت له تلك الهمهمة فالتفت لتتصلب على شفتيه ابتسامته التي شعر ببلاهتها وهو يرمق الواقف أمامه قبل أن ترتسم على وجهه ملامح دهشة غاضبة:
-أنت دخلت ازاي؟!
ردد محمد بارتباك:
-أنا خبطت مرتين ودخلت.
ضغط أسنانه أسفل شفتيه بغيظ، وهو يتصور ما قد يفكر فيه هذا الشاب حين دخل ليجده يرمق بسمة بتلك البسمة البلهاء.
ليتحول غضبه لإحساس بالحرج مع صوت بسمة التي التفتت حين سمعت صواتهما:
-محمد ..كويس متأخرتش.
نظرة جانبية ألقاها جاهين على محمد وكأنه يريد أن يقرأ ما قد يرتسم على ملامحه لكنه لم يتمكن من رؤية شيء، فلقد ابتسم محمد بود لبسمة مجيبًا:
-معقول اتأخر.!!
اقتربت بسمة منهما قائلة:
-طب يالا علشان نشوف هتقعد فين؟
أوقفها جاهين بقوله:
-احنا مستنين الأستاذ عماد ..السكرتيرة هتوصله.
مطت شفتيها بضيق ليقول محمد:
-مش مشكلة يا بوسي خليكي.

قال جاهين وهو يقلب ما أمامه من أوراق بلهجة بدت لا مبالية:
-بلاش أسماء الدلع هنا ..مش لطيفة الموظفين يسمعوا موظف بيناديكي باسم دلع.
كتفت بسمة ذراعيه قائلة باعتراض:
-أنا حرة مايهمنيش رأيهم.
جمد جاهين للحظة ليرفع رأسه وقد تلبسه الحزم:
-أنتِ دلوقتي في موضع مسؤولية ولازم تهتمي.
فتحت فمها لتبدأ هجوم جديد أوقفها محمد من البدأ به:
-عندك حق يا باشمهندس خطأ ومش هيتكرر ..وأنا برضو حابب أشكرك إنك اديتني فرصة الشغل هنا.
رمقته بسمة بغيظ، فلم يعجبها أن يتحدث محمد بهذه الطريقة.
بينما بادله جاهين النظرات ثم قال:
-في الحقيقة أنت هتكون تحت التمرين لمدة 3 شهور لو شكر فيك مدير الحسابات هنعمل عقد وهتفضل معانا أما بقى لو...
صاحت بسمة:
-مافيش لو ..محمد مش هسيب الشغل هنا.
وقف جاهين قائلًا بتحدٍ:
-الشغل أهم من أي علاقات شخصية ولازم تفهمي ده لو عايزة تنجحي ...ياما تتفضلي ترجعي البيت.
اشتاطت بسمة أكثر وأكثر وقال محمد لتهدئة الوضع:
-إن شاء الله شغلي هيعجب المدير وحضرتك هتشوف بنفسك.
أومأ جاهين برأسه ليمسك بالهاتف الداخلي طالبًا السكرتيرة التي حضرت على الفور فطلب منها اصطحاب محمد إلى قسم الحسابات وتقديمه لمديرها.

استطاع أن يشعل غضبها كثيرًا يمكنه رؤية هذا من عينيها الغاضبتين، والغريب أنه غير متضايق بل على العكس ..إثارة غضبها أصبح من الأشياء المحببة إليه..
فلتنال القليل مما تفعل به وبعائلته!!

....

غادرها وافي بعد القليل من الكلمات، بدأتها بالاطمئنان عليه ثم انتقلت إلى الحديث عن قدوم أخته للعمل ليخبرها أنها ستبدأ بدراسات الجدوى.
استطعت رسم ابتسامة هادئة على شفتيها طوال الوقت لكنه ذهب الآن فكادت أسنانها تحطم بعضها غيظًا.
فأخر ما قد تتصوره أن تنضم تلك الحثالة إلى شركتها التي تعبت في الحفاظ عليها بعيدًا عن أخويها اللذان كانا اهتمامهما بأشياء أخرى.
صحيح أنها تفادت هذا مع أبناءهما واستطاعت أن تجذبهما للعمل بالشركة كي يكملا المسيرة بعدها، لكنها لا تريد لتلك الفتاة أن يكون لها من هذا أي نصيب.
حكت رأسها والتفكير ينهكها، تبحث عن الطريقة التي تطردها بها من هنا بشكل طبيعي وبعيدًا عنها .فلو علم وافي بما ترغبه الآن لصدق كل ما ستحاول فاطمة وابنتها أن تقنعه به عنها وعليها الحذر جيدًا.
ضاقت عيناها للحظة قبل أن تبتسم بخبث وهي تمسك هاتفها الخاص لتتصل بأحدهم:
-الو ..أيوة ..تعالى مكتبي حالًا ..سيب اللي في ايدك وتعالى.
انهت المكالمة وبسمتها الماكرة في اتساع وهو تردد:
-وريني بقى شاطرتك يا بنت فاطمة ..يا أنا ..يا أنتِ.

....

تسللت من الغرفة إلى الساحة الخارجية في السطح وقد حل الليل ولم تبقى بسمة معهما كثيرًا فقد عادت متعبة لتسامرهما قليلًا قبل أن تذهب لتخلد للنوم.

أمسكت بهاتفها وبقلب مضطرب ضغطت أزراره واستمعت إلى رنينه بحلق جاف، لا يمكنها انكار رعبها مما تحاول فعله، فلم يسبق لها أن لاحقت رجل قط، ولا تعرف هل ما تفعله سيحقق لها ما تريد أم سينقلب السحر على الساحر وتخسر كل شيء؟.!

هي بالفعل خسرت محمد وتعلم أن هذه المرة نهائيًا، لذا لم يعد لديها ما تبكي عليه ..ستمضي قدمًا في خطتها وسعيها الدؤوب نحو حلمها ..لتهمس:

-يا صابت يا اتنين عور!!

انقطع الصوت دون رد، عقدت حاجبيها لتعيد الكره.

وبعد المرة الثالثة جاءها صوته الهاديء:

-الو.

تلعثمت للحظة وهي تفكر فيما يجب قوله:

-ألو ..ازيك؟ ..عامل ايه؟!

صمت لحظات، ظنت أنه نسيها:

-أنت مش فاكرني ..أنا اللي قابلتني في حفلة عيد ميلاد بسام وبسمة ...أنا نانا.

-فاكرك طبعًا يا نانا ..أنا بس خارج من اجتماع وكنت بحاول اركز.

احمر وجهها ارتباكًا لا خجلًا وهي تقول:

-أسفة ..اتصلت في وقت مش مناسب.

-لا طبعا ..أنا مبسوط إنك اتصلتي.

تهلهلت أساريرها وهي تقول:

-بجد.

-طبعا ...ولو كنتي اتأخرتي أنا كنت هاتصل.

ملأت فاها بسمة كبيرة دون صوت مسموع وهي تلوح بذراعها بسعادة المنتصر.

"نانا"

انتفضت على صوت أختها لتنهي الاتصال:

-هبقى اكلمك تاني.
التفتت إلى مها قائلة:
-إيه ده خضيتيني ...أنتِ بتتسحبي وأنتِ ماشية!!
-أنا بمشي بطبيعتي من زمان ..كنتي بتكلمي مين؟ ..وبتقوليله هبقى اكلمك تاني.
-مالكيش دعوة.
استقر الغضب على ملامحها لتقول:
-هتقولي ولا أقول لأبلة بطة وهي تبقى تتصرف معاكي؟!
ضحكة ساخرة:
-دي بتهددني دي ولا إيه؟ ..!خشي نامي يا مها.
انهت جملتها وهي تمر بجوارها لتعود للغرفة بينما تهدل كتف مها، فأختها تعلم أن تهديدها واهٍ ولن تستطيع إخبار فاطمة أي شيء.
عدت خطواتها كما تدربت لتصل إلى المقعد المقابل لها، وتجلس عليه، وبدأ حديث ماء عينيها الصامت، دموع تذرفها كلما شعرت بقلة حيلتها وعجزها.
أختها تقلقها كثيرًا بل ترعبها.
لم تنسَ كلمة مما قالتها منذ سنوات، الكلمات التي خرجت من أخر لحظات نانا الطفلة والمراهِقة التي اعتادت العيش معها لتصبح على ما أصبحت عليه، كلمات حملت معاني الحب والكثير من الكره.
"ماتعيطيش يا مها إحنا مش هنفضل كده ..أنا هعمل المستحيل وهيبقى معايا فلوس كتير ..الفلوس هي كل حاجه في الدنيا دي ..ماحدش هيدوس علينا تاني ..ماحدش هيئذينا تاني".
أزاحت عبراتها بأناملها ودعاء من القلب يحاول الوصول للسماء، بأن يصلح الله حال أختها وينقذها من شر نفسها.
....

تململت في فراشها مع دفعات مستمرة وصوت نانا المزعج يصر على ايقاظها بترديد اسمها بتكرار، لوحت بكفها لتبعدها:

-ابعدي عايزة إيه ده أول يوم أجازة.

استمرت نانا بدفعها وإزاحة الغطاء عن رأسها:

-قومي يا كسلانه، مش قلتي إننا هنروح النادي يوم الجمعة ياله بقى علشان خاطري نفسي أشوف النادي بتاعهم ده شكله إيه.

اعتدلت بسمة قائلة بنزق:

-وهو يعني النادي ده مدرسة هيقفل بدري ..ماهو مفتوح لحد بليل يا رخمة.

-بس أنا نفسي أعمل زي الناس اللي بتروح النادي من بدري ويتغدوا فيه.

فركت بسمة وجهها:

-جاهين اللي كان هيودينا وزمانه نايم.

-بسيطة هروح اصحيه.

جذبتها بسمة بعنف لتلقيها على الفراش مرة أخرى:

-تصحي مين يا مجنونة أنتِ.

-على فكرة جاهين ده عسل أصلا مش معقد زي أخوكي.

-مش لدرجة إنك تروحي أوضة نومه علشان تصحيه.

رفعت نانا حاجبيها قائلة بلهجة مغايرة:

-والله ..دي بداية غيره .. !!فرحيني وقوليلي أه.

هزت بسمة رأسها باستخفاف:

-غيرة إيه يا هبلة أنتِ .. في حاجه اسمها أصول ..هو لما يصحى ونفطر كلنا هنبقى نروح ...اتهدي بقى.

مطت شفتيها على مضض واستسلمت.

وعلى مائدة الإفطار التي تجمع عليها الجميع وقد خف الوضع قليلًا مع محاولة الجميع على التآلف مع بعضهم، إلا من تلك الشحنات السالبة الموجهة من بسمة لسميحة والتي لا يخطئها أحد.

-بعد الفطار نلبس بقى علشان نروح النادي.
قالها جاهين بود ليردف:
-بسمة ونانا ومها عايزين يشوفوا النادي ..خلونا نقضي اليوم هناك.
عقدت مها حاجبيها ولم يعجبها ذكر اسمها فتملمت:
-أنا ماليش أوي في الجو ده ..روحوا انتوا.
وكزتها نانا بلوم فربتت فاطمة على كفها:
-ليه يا مها ..غيري جو.
هزت رأسها:
-أنا هقعد معاكي يا أبلة بطة.
قال جاهين:
-وأبلة بطة تقعد ليه ماتيجي هي كمان.
منحته نظرة محببة:
-معلش يا بني ..أنا هقعد وخلي مها معايا ..روحوا أنتوا انبسطتوا.
لم يعلق أحد بالمزيد، لتسرع نانا وبسمة لتبديل ثيابهما بينما ظلت مها مع فاطمة في غرفتها.
بدل جاهين ثيابه وذهب لغرفة وافي، ليدلف إليها فوجد الأخير جالسًا على مكتبه يمسك بهاتفه فعقد حاجبيه قائلًا:
-أنتِ لسه مالبستش.
-مش رايح.
قالها باقتضاب، فاقترب جاهين زافرًا:
-ليه بقى ..أنت من ساعة الحادثة والعملية ماروحتش.
-ماليش مزاج ...هقعد هنا أحسن.
هز جاهين كتفيه:
-براحتك يالا سلام.

خرج ليهبط الدرج ليطرق باب غرفة أمه التي كانت بدلت ثيابها بالفعل.

-جاهزة يا ماما.
-أيوة ..عمتك سميحة خارجة مشوار تاني مش هتيجي معانا.
-يكون أفضل ..بدل بسمة ماتبوظ لنا المشوار.
ضحكت أمه وهي تتبعه إلى الحديق في انتظار نزول الفتاتين، فسألته:
-وافي فين؟!
-بيقول مالوش مزاج.
وصلتا بسمة ونانا لتركبا في المقعد الخلفي للسيارة التي انطلقت بهم جميعًا إلى وجهتهم.
....

وبمساحة خضراء شاسعة تجولت الفتاتان بعد أن تركتا جاهين وأمه على مائدة ما وقررتا التجول بحرية.
كانت الأجواء حولهما تخطف أبصارهما برغم هدوء رواد النادي وتصرفهم برقي حتى في حركتهم حتى أن نانا همست لبسمة:
-أنا حاسه إننا مفقوسين ..أي حد يشوفنا هيعرف إننا مش منهم.
-وماله ..بكرة نبقى منهم ونص.
حروفها بدت حزينة فالتفت إليها نانا:
-مالك؟!!
دارت ببصرها في المكان:
-كل ماشوف الناس دي بحس إني ممكن أقابله في أي لحظة ...تصدقي أنا كنت فاكرة إني ممكن أقابله في عيد ميلادي.
-هو مين ده؟!
قالتها نانا بتساؤل، فأجابتها:
-معاذ يا بنتي.
ضربت نانا كف بكف:

-معاذ مين اللي لسه بتفكري فيه ..!!انسي بقى ..بصي حواليكي قدامك مليون معاذ.
-نانا!!
انتفضت نانا على صرختها لتحدق بها بذهول وقد ارتسم الكثير من الغضب على وجهها وتشكلت منه حروف كلماتها:
-أنتِ عارفه كويس إن معاذ ماكنش بالنسبة لي فلوس وبس ..أنا مش كده يا نانا.
لوحت بكفها لتهدئتها:
-طب خلاص وطي صوتك ..أسفين يا ستي ..أنا بس مش عايزاكي تفضلي تفكري فيه وممكن يكون هو اتجوز وخلف كمان.
شخصت ببصرها والحزن يتسرب إليها.
وهذا ما تظنه هي أيضًا.
يوم الحفل تصورت أنها ستراه قدرًا وهو يمسك بكف تلك النرمين ليحضرا الاحتفال، ولكن حلمها أو بالأحرى كابوسها لم يتحقق، والآن مئات التصورات ترتسم في مخيلتها إذا ما صادفته هنا مع زوجة أو خطيبة أو حتى صديقة.
لا تعلم لمَ تُرغم نفسها على ذلك العذاب، انتظار البلاء أسوأ من وقوعه فلتذهب إلى بيته وهناك ستعرف دون حتى أن تلتقي به ..حتمًا ستعرف إن كان تزوج أم لا؟!
-بوسي ماتروحي الفيلا وتخلصي.
وكأن نانا تقرأ أفكارها، حسنًا فلتذهب.
-ماشي هروح ..نشوف يوم نخرج فيه سوا ونروح.
-هتاخديني معاكِ بجد ..وااو هشوف قصر معاذ.
هزت بسمة رأسها ضاحكة:
-نفسي تفكري بطريقة تانية.
نغمة هاتفها النقال منعها من الرد لتنظر إلى الاسم الذي أضاء شاشتها بسعادة لتجيب:

-الو ...أيوة أنا لسه في النادي أنت وصلت ..أنا في مكان واسع أوي وفي ملعب تنس قدامي ...خلاص مش هتحرك.
حدجتها بسمة بالنظرات المتسائلة لتردد بشك:
-ده مين ده ...محمد!!
-لأ طبعا ..قال محمد قال ..ده شهاب بيه.
كتفت بسمة ذراعيها وقد رفعت أحد حاجبيها:
-ومين شهاب ده كمان؟!!
دارت ببصرها بحثًا عنه قائلة:
-هتعرفي دلوقتي.
مرت عدة لحظات أخرى قبل أن يظهر أمامها أحدهم وهو يلوح لنانا التي لوحت بكلتا يديها بسعادة واضحة، ضاقت عيناي بسمة تراقب هذا الذي يقترب منهما، شاب ربما يقارب جاهين في العمر، أبيض البشرة يخفي عينه خلف نظارة شمسية منحته مظهرًا جذابًا، مرتديًا حلة رياضية تناسب المكان.
ليبتسم لهما بلباقة:
-هاي.
لترد نانا بحبور:
-هاي.
أما بسمة فاكتفت بايماءه بسيطة وهي ترمقه بشك ونانا ترحب وترحب حتى وكزتها بسمة لتتوقف وتنظر لها بغيظ وعدم فهم لتقدمه نانا بقولها:
-أعرفك ..شهاب بيه ..رجل أعمال اتقابلنا يوم عيد ميلادك.
مد يده لها مصافحًا فرمقتها للحظات قبل أن تقول ببرود:
-مابسلمش.
عيناها لم تخطيء الشر الذي كسا عينيه في لحظة قبل أن يخفيهما خلف ابتسامة بلهاء:
-أسف.
أمسكت بسمة بذراع نانا:

-ياله نرجع.
عقدت نانا حاجبيها وهي تنظر لها بلوم:
-نرجع فين ..ماتصبري.
ضغطت عليها بسمة بقوة جعلتها تتألم:
-بقولك يالا.
لاحظ ما يجري فقرر تقديم حسن النية:
-خلاص يا نانا مادام مستعجلين هبقى أشوفك مرة تاني ..فرصة سعيدة آنسة بسمة.
كادت نانا تعض أناملها غيظًا وهي تراقب رحيله قبل أن تستدير زاعقة:
-في إيه يا بوسي ...مالك عاملتيه وحش كده ..يعني هو جاي مخصوص يقابلني تقومي تمشيه كده.
تصلبت ملامح بسمة لتقول هي:
-قوليلي أنتِ يا هانم اتعرفتي عليه ازاي ده ..وأمتى اخدتوا تليفونات بعض وبتكلميه من أمتى؟.!
-ده تحقيق ده ولا إيه؟!
صاحت بنفاذ صبر:
-اخلصي يا نانا.
-مالك يا بت أنتِ ... ده واحد كان معزوم في عيد ميلادك يعني أكيد من الناس اللي بتشتغلوا معاهم وليكوا مصالح مع بعض ..يعني معقولة جاهين ولا وافي يعزموا ناس مش كويسة.
هزت رأسها بعدم اقتناع:
-مش لدرجة تليفونات ومقابلات يا نانا ..أنتِ ناوية على إيه بالظبط؟!
-ناوية اقب على وش الدنيا ..ابص من فوق زي ناس كتير غيري.
-أنتِ اتجننتي ولا إيه وأنا فاكرة إنك بتأوحي وخلاص ..أنتِ بجد هتسيبي محمد وتجري ورا رجالة ...لاااا ...دا أنتِ فَاوتي رسمي ...قدامي هنكمل كلامنا في البيت.

....
جلس جاهين يقلب في هاتفه على صفحات التواصل الاجتماعي، بينما استكانت أمه تقرأ في كتابها المفضل، قبل أن تتنتفض فعليًا بسبب صوت أقرب للصراخ.
"جاااهين "
عقدت حاجبيها ترمق تلك الوافدة المرتدية لإحدى بدلات التنس ويعلو وجهها الكثير من علامات الفرح وهي تقترب من ابنها الذي انتبه لها ليقف مستقبلًا:
-هااي ..ازيك يا ميرا.
-لاا ..أنا زعلانه منك خالص ..طب أنت غيرت نمرة الفون ..مش تكلمني ليه؟!!
-هو المشكلة أن كل الارقام مبقتش معايا ...سوري ..أخبارك إيه؟!
-تمام ..ماتيجي تلعب معايا.
-سوري ...مش عامل حسابي على اللعب ..مرة تانية يا ميرا.
لوت شفتيها بضيق:
-شكلك بتتهرب مني ..أنت أنتمت مع واحدة بتغير ولا إيه؟!
اكتفى بضحكة بسيطة وهو يحك رقبته فغمزت بعينيها:
-اهااا ..فهمت ..ماشي ..مبروك ..سلام أنا بقى.
لوح لها وهي تبتعد ليعود جالسًا، فقالت ميادة:
-ليه سبتها تفهم كده؟!
-علشان اريح دماغي ..ميرا دي رويتر هتحول المعلومة لكل الشلة وبكده ارتاح من سؤال البنات.
راقبته بابتسامة راضية، لطالما قلقت عليه من مصادقة الفتيات بلا حساب، لم تتصور أن يكون حادث وافي سبب من أسباب توقفه عن أمر كهذا، قلقها لم يكن على من يعرفهن من فتيات فهي تعلم كيف ربت ابنها وأنه لن يرتكب جرم بحق إحداهن، لكنها كانت تخشى أن تنجح فتاة لا تستحقه في الاستحواذ على قلبه.

فهو وحيدها والأفضل في عينيها وتتمنى له من تليق به وبطيبة قلبه وأيضا تكون داعم له في تلك الحياة كما حاولت دائمًا أن تكون لأبيه وله الآن.

رأته يراقب ساعته للحظات قبل أن يقول:

-هما البنات اتأخروا ولا أنا بيتهيألي؟!

-سيبهم براحتهم ..لو تاهوا هيكلمونا.

بدى أنه لم يسمعها وهي ترى عينيه تراقب أحدهم عن كثب، تابعت نظرته لترى شاب أخر يسير بخطوات هادئة.

فعادت لابنها تسأله:

-مين ده؟!!

-ده واحد مالوش لازمه ..شغال في المجال بتاعنا بس أساليبه كلها زي الزفت ..رشاوي وغش ونصب.

-طب ماتبلغوا عنه.

-للأسف كلها بالنسبة للقانون إشاعات ماحدش عارف يثبت عليه حاجه.

نهض من مكانه فسألته عن وجهته، لوح لها مطمئنًا:

-هشوف حاجه واجي على طول.

لم يستطع أن يمنع نفسه عن متابعة هذا الرجل لمعرفة وجهته، بالتأكيد هو هنا للالتقاء بأحدهم ربما صفقة جديدة لو تعرف على الطرف الأخر سيستطيع تخمين الأمر.

استمر بالسير محافظًا على مسافة مناسبة بينهما.

أنتبه له يلوح لأحدهم، طريقته نبأته أنه ربما يشير لفتاة، فقرر العودة لكنه أراد التأكد بنفسه، وما إن لاح له المشهد حتى تصلب مكانه للحظة قبل أن يخفي جسده خلف شجرة قريبة وأمسك هاتفه وكأنه ينظر إليه بينما يتابع ما يحدث أمامه بدماء تغلي.

تماسك قدر استطاعته كي لا يقتحم المشهد ليرى كيف سينتهي، لاحظ سعادة نانا برؤيته بينما بسمة تنظر له بضيق كما أنها لم تقبل مصافحته، بعد لحظات ابتعد عنهما لتتحركا بدورهما، أسرع الخطا ليلحق بهما مناديًا:

-هااااي ...استنوا.
بدى الذعر على وجه نانا وهي تخمن أنه ربما رأى من كان يقف معهما وصدق حدسها مع ملامح الغضب التي اكتست ملامحه:
-ايه اللي انا شوفته ده؟!
ابتلعت نانا ريقها بصعوبة وشعرت بعدم قدرتها على الكلام فقالت بسمة بثبات:
-شوفت إيه؟!
-اللي كان واقف معاكم ده!!
-أأه ..ده واحد مانعرفوش كان عايز يتعرف واعتذارناله وخلاص.
رمقها جاهين بشك واضح:
-اللي شوفته كان حاجه تانية ..ده..
قاطعته قائلة بعناد:
-أنا قلتلك اللي حصل ..ماعرفش أنت شوفت إيه ..ده مد ايده يسلم عليا وأنا رفضت ..ماشوفتش دي.
رأها ..كانت ترفض مصافحته لكن نانا كانت في حالة مختلفة بل بدت وكأنها هي التي تقدمه لبسمة فنقل بصره إليها فهربت وهي تنظر هنا وهناك بارتباك واضح فقال بحزم:
-يُفضل فعلا ماتكونوش تعرفوه ..ده إنسان ماحبش أن يكون له أي صلة بيكم.
ابتلعت نانا ريقها بصعوبة وهي تشعر بأصابع بسمة تكاد تحطم عظام أصابعها وهي تضمها بأناملها بقوة دون أن ينتبه جاهين.
حاول أن يميل لتصديق بسمة ومال عقله لفكرة أن شهاب هو الذي يتودد لهما لسبب ما وعليه أن ينتبه للأمر.
فقال مغيرًا الحوار:
-ماجوعتوش.
أسرعت نانا تقول لتخرج من تلك الحالة:
-جدًا.
-طب يالا نروح عند ماما ونتغدى.

تبعته الفتاتان ولم ينتبه لنظرات الغضب البالغ التي وجهتها بسمة لنانا التى نظرت لها برجاء.

....

هدوء أحاط أجواء الحديقة، إلا من صوت حفيف الأشجار، لتجلس هي ومها يستمتعان ببعض الهدوء والجو اللطيف.

علت وجهها نظرة مطمئنة وهي تلتفت تنظر للفتاة التي تجاورها، الفتاة التي أهداها الله تعويضًا عن حرمانها من ابنها.

مها ..تلك النسمة المحببة إلى قلبها، والتي أبكتها كثيرًا حين أصابها ما أصابها.

فقدها للبصر كان الطامة التي أصابتهم جميعًا ..وكان عليهم التماسك سريعًا من أجلها.

تلك الفتاة عانت الكثير ولم تفقد رضاها بقضاء ربها أبدًا.

-ساكته ليه يا أبلة بطة؟!

-مافيش يا حبيبتي ..الدنيا هادية أوي.

-نبرة الحزن اللي في صوتك دي مش ناوية تفارقك يا أبلة بطة.

تهدل كتفها بل وقلبها بهموم لا تعرف كيف تزيحها عن كاهله، ليتها تملك الاجابة، بل تعرفها ولكن لا تعرف سبيل تحقيقها، الثمن قد يكون غاليًا .

أعليها المخاطرة والحديث مع ابنها وإخباره بتهديد عمته؟!!، وماذا لو لم يصدق أو حتى يجيد التصرف، ماذنب فتياتها وسط كل هذا؟!!

لاحت منها التفاته إلى شرفة غرفة وليدها، اتسعت عيناها للحظة قبل أن تمتليء بشوق جارف، رأته يقف ، ينظر إليها ولكن بنظرة مختلفة، ربما لا تحوي ذلك البرود الذي اعتادته بل كانت نظرة تحمل الكثير من التساؤل.

يريد أن يعرف وهذا من حقه؟!

شهقت وهي تقاوم عبراتها، كيف السبيل لذلك؟ ..!كيف؟!!

-مالك يا أبلة بطة؟!

قالتها مها بقلق فالتفتت لها فاطمة وآلام قلبها المعتادة تتزايد في صدرها:
-أنا هرجع أنام على السرير يا مها.
هبت مها من مكانها مقتربة منها ممسكة بذراعها:
-أنتِ تعبانه.
-ماتخافيش يا بنتي ..تعالي بس نرجع الأوضة.
وقفت متكأة عليها لتخطو خطوات واهنة قبل أن ترفع رأسها تلقي عليه نظرة أخرى، لازال يقف حيث هو إلا أنه هذه المرة التفت عائدًا لغرفته ليزيد أنين قلبها شوقًا له، خفضت بصرها تقاوم عبراتها إلا أن بكاء قلبها كان أوجع، فتهاوت قدماها تحتها لتسقط على ركبتيها وهي تتعلق بمها التي كادت أن تسقط معها لتصرخ الأخيرة بفزع:
-أبلة بطة ..مااالك ...أبلة بطة؟!
حاولت تهدئة الفتاة التي علا صراخها:
-اهدي يا مها ..ها..هاتلي دوايا ..هبقى كـ...كويسة.
أسرعت مها تعدو فعليًا بذعر حتى أنها انكبت على وجهها مرتين وكانت الثالثة عند درجات السلم لتشتم ريحه الطيب الذي تعرفه وصوته القلق يصل لها:
-براحه بس ..في إيه؟!!
صرخت:
-دوا أبلة بطة ...علبة بيضا جنب سريرها دايما بسرعة.
-حاضر .. حاضر.
وصل لأذنها خطواته القافزة لدرجات السلم لتعود هي إلى حيث فاطمة.

قلبه ينبض بعنف فعليًا، فما أن وصلت له صرخة مها حتى أسرع إلى الشرفة يستطلع الأمر فرأها تعدو للداخل بينما فاطمة على الأرض في حالة إعياء.
"ماما"
همس بها قلبه دون لسانه ليهرع إلى الأسفل فرأى مها التي طاحت على السلم فأسرع إليها يسألها، علم أن أمه بحاجه لدواء ما، فعاد أدراجه بسرعة إلي

حيث غرفتها اندفع إلى الداخل يبحث بعينيه عن هذا الدواء فلمح العلبة الأسطوانية البيضاء على الكومود تجاورها زجاجة ماء صغيرة فأحضرهما بسرعة وقبل أن يدور لاحظ صورة باطار على الفراش ضاقت عيناه حين عرف أنها صورة له حين كان مراهقًا لم يلاحظ اختفاءها من بين العديد من الصور التي توجد بردهة المنزل.

"بسااااام"

انتفض على نداء مها من الحديقة ليتذكر ما عليه فعله، فسابقت قدماه بعضها ليسرع إليهما.

كانت مها مرتعبة جدًا وهي تحتضن فاطمة التي تستمر بتهدأتها، أخرج حبة الدواء لتلتقمها أمه وتبتلعها بالقليل من الماء.

لحظات مرت تجمد فيها المشهد حتى هدأ تنفس فاطمة تدريجيًا ليقول وافي:

-أطلب دكتور؟!!

برغم حالتها المنهكة رسمت على وجهه بسمة مشرقة وهي تملأ عينيها بملامح وجهه التي كانت تراها من بعيد فحسب.

هذه المرة هو قريب ..قريب جدًا وبإرادته.

لم تمنع نفسها أن ترفع كفها لتضعها على خده فخفض بصره متجنبًا النظر إلى عينيها وهي تقول:

-أنا بخير ...تسلم من كل شر.

سكن لها حتى أزاحت كفها ليقول:

-طب يالا اطلعي أوضتك.

التف من خلفها ليضع ذراعيه أسفل ذراعيها ويساعدها على النهوض، لحظة تمنت أن تدوم دهورا، لقد كان يحتضنها فعليًا قبل أن يحررها ويمسك بذراعها يدعم خطواتها لتصاحبهما مها من الجهة الأخرى.

لم تنطق بحرف ولا هو، يلاحظ خطواتها أما هي فبصرها لم يتزحزح عن صفحة وجهه.

وصلوا إلى غرفتها فساعدها على الاستلقاء على الفراش بعد أن أزاح الصورة جانبًا ولم يخفَ عليها أنه رأها دون أن يبدي أي ردة فعل.
اعتدل واقفًا بينما جلست مها بجوارها تمسك بكفها لتربت فاطمة عليها بحنان:
-خلاص يا حبيبتي بقيت كويسة ...البركة فيكي وفـ ..وفبسام.
لن تتخلى عن الاسم الذي اختارته له أبدًا حتى لو ناداه الجميع باسم أبيه!!
منحها نظرة جانبية ليقول:
-أنتِ متابعة مع دكتور؟!!
راق لها سؤاله عنها فأجابت بكلمات تقطر حبًا:
-يسلملي سؤالك ..كنت بروح معهد القلب والدكتور اللي هناك كتابلي الدوا ده ومش بغيره.
صمت مفكرًا ليقول:
-أنا هسألك على أحسن دكتور قلب ونبقى نحجز معاه معاد وتكشفي.
-اللي تشوفه يا حبيبي.
التفت ليغادر لكنها أوقفته بنداء خافت وجل:
-بسام ..اقعد جنبي شوية.
عاد ببصره لها، ثم لمها التي علت وجهها بسمة مريحة وكأنها سعيدة بما يجري.
تردد للحظة ثم جلس على طرف الفراش عند قدميها، بدى أنه لا يستطيع الاقتراب أكثر فلم تتذمر، وجوده معها بغرفتها حلم تحقق بالفعل.
استمرت في تأمل ملامحه التي بدت لها الأجمل على الاطلاق، لتعلو شفتيها ابتسامة رضا:
-أنا اتخيلت شكلك كتير أوي بس أنت أحلى من كل اللي اتخيلته.
ضم قبتضيه يفركهما بقوة، كاتمًا مشاعر عارمة تجتاحه، وأسئلة كثيرة تهاجم عقله إلا أن هذا ليس الوقت المناسب، فقد يعيد لها أزمتها الصحية ..فليصمت فحسب.
وصل له المزيد من صوتها:

-أنت وبسمة شبه بعض كتير ..بس بسمة علشان بنت أحلى شوية.
قالتها بلهجة مرحة إلا أن بسمتها التي علت وجهها اندثرت في لحظة مع نظرة منحها إياها لم تحمل أي من معاني المرح بل الكثير من الضيق والغضب وهو يردد:
-وعلشان هي بنت احتفظتي بيها واتخليتي عني أنا!!
اتسعت عيناها تحدق به بذهول أعقبه الألم والحسرة.
وكأن ليس من حق قلبها أن ينال بعض من رفاهية السعادة.
لتتشكل على جنبات وجهها علامات الوجع الذي تسلل لقلبها، لتزم شفتيها وكأنها تطبق على حروفها فلا ينطق بما يجب أو لا يجب.
وكلما سكت لسانها تكلم ماء عينها، لتكتفي بهز رأسها نفيًا.
نفي واهٍ لا قيمة له عنده، وقف بحده يرمقها بضيق، ولسان حاله...
"دافعي عن نفسك ولو مرة"
كلمات لم تغادر عقله ككلمات كثيرة لم تغادر لسانها.
....

الفصل الرابع والعشرون

يا وردة قلبي معاكي في الريح لعب
لا تعبتي م الريح ولا قلبي تعب
احنا كده : نرتاح في صخب الجنون
وفي السكون بنخاف أوي ونترعب
عجبي!!
رباعيات جاهين.

قاومت رغبة شديدة في البكاء.
تهدج صوت فاطمة وهي تحدثه، وصل إلى قلبها فأصابه برجفة.
ليته يدري كم تحبه وتريده قربها، لكنها لا تفهم ما الذي يسكتها ولابد أنه يسأل نفس السؤال.
لم تُرد أن تتدخل وفاطمة تحدثه عنه وعن بسمة، وكأنها لا تريد أن تحرمها من تلك اللحظات التي تسرقها بينما هي حقٌ أصيل لها.
إلا أنها توترت مع كلماته التي حملت اتهام واضح لها، ضغطت أصابع فاطمة تحثها على التماسك والحديث.
استمر الصمت لحظات، وبداخلها ألم من عجزها الذي يمنع عنها رؤية ما يحدث، أعليها التدخل الآن أم تصبر حتى تتحدث فاطمة.
انتفضت حين تلقت أذناها صفعة الباب لتهتف بجزع:
-خرج ..هو خرج؟!!
لم تجِبها فاطمة فلقد كانت مشغولة ببكاءها فوقفت مها وبصوت لا يعلو إلا في القليل من الوقت:
-ليه كده يا أبلة بطة ..أنتِ هتسيبه كده مش فاهم حاجه لحد امتي؟.!
رددت من بين عبراتها:

-اسكتي ..اسكتي يا مها أنتِ مش عارفه حاجه.
خطت نحوها:
-أنتِ مخبيه عننا إيه ..بوسي حاسه إنك مخبية حاجه ..في إيه يا إبلة بطة .. طب قوليلي أنا.
صوت بكاء ليس إلا ..ظلام حالك لا ترى من خلفه شيء.
لو رأته يخرج لأوقفته ..لو رأته يذهب لكانت أوقفته.
لكنها مجرد عمياء لا تستطيع فعل أي شيء.
فلم تجد إلا دموعًا تشاركها فاطمة، حزنًا وعجزًا وضعفًا.
....
صمت ...سكوت ...بكاء.
مابال تلك المرأة؟.!
لمَ تصر على السكوت وعدم الافصاح؟!
هي مذنبة إذن..
فلتطلب الصفح حتى؟!!
زفر في حنق ليغادر وهو يصفع الباب خلفه، ليقف أمامه وقد تسارعت أنفاسه، ليصل إلى مسامعه تساؤل مها لأمه.
"ليه كده يا ابلة بطة ..أنتِ هتسيبه كده مش فاهم حاجه لحد أمتي؟".!
عقد حاجبيه ليميل بأذنه على الباب فلم تصله إلا همهمات فاطمة لمها بأن تصمت، ليعود صوت مها بوضوح:
"أنتِ مخبيه عننا إيه ..بوسي حاسه إنك مخبية حاجه ..في إيه يا أبلة بطة .. طب قوليلي أنا".
لا يعجبه أن يتنصت عليهما لكنه حقًا متعطش لأي إجابة، أي كلمة تروي ظمأ جهله لكل ما حدث في الماضي.

"وافي"!!
نداء مستنكر وصل له ليلتفت إلى صاحبته التي أردفت:

-أنت بتعمل ايه عندك؟!
رمقها للحظات قبل أن يتحرك بصمت نحوها ليقف أمامها تطالعه بشك مرددة:
-في إيه ...مالك؟!
هز رأسه بالنفي:
-مافيش ..أنا هدخل أنام شوية علشان صحيت من بدري.
التفت ليدخل غرفته لكنه توقف ليعود بنظره إليها قائلًا:
-ماما.
انتبهت له بكل حواسها:
-أيوه يا حبيبي.
ظل بصره عليها للحظات، عقله يحمل ألف فكرة وفكرة، لا يعلم ما الذي عليه قوله، هي قالت ما لديها لم تصمت كالأخرى، ومن الطبيعي أن يصدقها هي، ولكن...
ماذا لو هناك احتمال أنها خدعته.
-مالك يا حبيبي؟!!
سألته لتنبهه لوجودها فقال:
-أنتِ عارفة أنتِ بالنسبة لي إيه؟!
لو كانت دقات القلب مسموعة لربما أصابته بالصمم، شيء ما يجري ولا تعلم ما هو؟!
هل تحدثت له تلك المرأة؟ ..!هل أخبرته بأي شيء؟!
اقتربت منه مدت كفها لتربت على خده:
-أنا عارفة أنت بالنسبة لي ايه؟ ...كل حاجه يا وافي ...كل حاجه.
نظرته الحائرة أصابتها في الصميم قبل أن يمنحها بسمة باهتة ويختفي داخل غرفته.

ضمت قبضتها بقوة، رغم كل محاولاتها تشعر أنها تفقده، فكيف إذا عرف بالحقيقة كاملة.

زفرت بضيق لتتجه إلى غرفة فاطمة وتدفع بابها دون حتى طرقات استئذان لتنتفض مها متسائلة:

-مين؟!

أما فاطمة التي لازالت غارقة في عبراتها نظرت لها بغضب قلما يبدو على ملامحها:

-عايزة إيه ..عايزة مني إيه؟!

لم تتوقع سميحة وجود تلك الفتاة معها فظلت تحدق فيهما بصمت قبل أن تستدير مغادرة، لتقول مها:

-مين دي ...سميحة؟!

-أيوة هي ..ربنا ينتقم منها.

-أبلة بطة ..أنتِ الحق معاكي ..ماينفعش تخافي ولا تقلقي من حاجه ..الحق دايما صوته عالي.

جذبتها فاطمة إلى صدرها تضمها إليها بقوة، كيف تخبرها أنها تخشى عليها وعلى أختها وبسمة من تلك المتعجرفة.

كيف تخبرها أنها أصبحت حائل بينها وبين الاقتراب من ابنها.

أم أن خوفها هو هذا الحائل وهي لا تدري.

لتهمس أخيرًا:

-والحق بيظهر مهما حصل ..وأنا عارفه إني هاخد حقي منها.

وصل إلى مسامعها صوت سيارة تقف في الحديقة لتقول فاطمة:

-باين الجماعة رجعوا ..مها اوعي تحكي حاجه من اللي حصلت ..أنا مش عايزة بوسي تعادي سميحة ولا تكره أخوها ..فهماني يا بنتي.

-حاضر يا أبلة.

....

بعد مشادة طويلة وخافتة مع بسمة أعتذرت عما فعلت وأنها لم تتصور أن هناك علاقة شائكة بين شهاب وجاهين.

فمر باقي اليوم عليها على مضض، لا تصدق أن الأمر انتهى بتلك السهولة، وما لم تفهمه، إذا كان هو يعتبر من أعداء جاهين فلما تمت دعوته؟؟.
هناك شيء لم تفهمه بعد.
استقرت في فراشها حتى وصل لها صوت تنفس أختها الرتيب لتتيقن أنها في سبات عميق.
تسللت لخارج الغرفة لتمسك بهاتفها وتجري اتصالًا، لم يطول الرنين هذه المرة فلقد رد سريعًا:
- تصدقي كنت حاسس إنك هتتصلي.
لوت شفتيها مجيبة:
-أخر اتصال إن شاء الله.
-ليه كدا؟!
-أنت ماقلتليش يعني إن بينك وبين جاهين مصانع الحداد.
وصلتها ضحكته الخافتة:
-اسمها ما صنع الحداد.
-هو ده وقته!!
قالتها بنزق فقال:
-اهدي بس ..دي كلها منافسات شغل ماتخديش في بالك ..بس أنتِ عرفتي منين أنتِ كلمتيه عني.
-لأ ..ده هو اللي شافك معانا في النادي وجه علينا وراكبه ميت عفريت بس بسمة عرفت تفلت منه وفهمته إن أنت كنت عايز تتعرف علينا وهي رفضت.
صمت لحظات ليقول:
-زي ما قلتلك أنا يعتبر بنافسه في الشغل وماحدش بيحب المنافس بتاعه ..
بس لو في حاجه تقلق مني تفتكري كان هيعزمني في بيته.
يردد نفس الكلمات التي كانت تقتنع بها نفسها.
وليس من الصعب اقناع محبي الشوكولا الداكنة بروعة مرارتها.
وهو بالنسبة لها يمثل نوعها المفضل على الاطلاق.

-روحتي فين؟!!
أعادها صوته للواقع لتقول:
-أبدًا ...بس مش عارفه المفروض أعمل إيه؟!
-خايفة مني؟!!
-لا طبعا ..أنا مابخافش من حد.
تعالت ضحكاته ليردد:
-وعلشان كده عجباني.
ابتسمت لتسلم أذنيها لكلماته التي ألبستها لباس العُجب.
وكان هذا كافيًا لتستمع إلى المزيد.
....
لم يكن لديه رغبة لمغادرة المنزل اليوم، فبقى في غرفته.
وكعادته حين يكون وحيدًا.
يفكر فيها هي وحسب، وإن كان الأمر تغير قليلًا.
في بدايته كان حانقًا غاضبًا خائفًا.
حانقًا على عجزه في الوصول إليها.
غاضبًا منها لابتعادها دون سابق إنذار.
وخائفًا ...خائفًا جدًا ..من أن تكون ضاعت منه إلى الأبد.
وكلما طالت المدة غابت أي مشاعر أخرى إلا الخوف.
رفع أنامله يتأمل خاتمها الذي يزين بنصر كفه الأيسر ويشعره أنها منه قريبة.
التفت إلى دقات على بابه أجابها وهو يعرف جيدًا صاحبها، لتدخل إلى الغرفة بهيئتها المرحة المعتادة:
-ده بجد بقى ..افتكرتك روحت الشغل.
اعتدل في فراشه قائلًا:
-ماليش مزاج.
جلست على طرف الفراش قائلة:

-طب واللي يعدلك المزاج ..هعملك بنفسي بلاك كافي هيعدل دماغك على طول ..بس ننزل نشربه تحت في الجنينة.
أسفر كلامها عن بسمة باهته استقرت على شفتيه تبعها بقوله:
-وماله ..ماشي.
صفقت في جذل:
-ياااااا ...حالا.
لتتركه مسرعة، فتتبعها نظراته في هم، هم يواري ملامحه خلف ابتسامات باهتة.
قبل أن يهز رأسه في سخرية، تلك الفتاة لا تيأس.
غادر فراشه وبدل ثيابه بملابس بيتيه لائقة، لينزل إلى الحديقة في انتظار مجيئها.
لم تغب طويلًا، فظهرت وهي تحمل كوبين من القهوة.
وضعت أحدهما أمامه لتجلس وهي ترشف من الآخر.
داعب كوبه في صمت يتأمل ذلك البخار الذي يغادره مختفيًا في الهواء، يذكره بأماله في العثور عليها التي أضحت مثله مجرد بخار يختفي فور الاختلاط بالهواء.
ليمرر أنامله على خاتمها من جديد كلما نال منه التفكير فيها ما ناله.
-معاذ.
وصل له نداؤها الخافت فرفع بصره إليها لتبادله النظر بصمت ثم تقول بلهجة بدت غريبة:
-ممكن أشوف الخاتم ده؟!!
عقد حاجبيه مستغربًا الطلب:
-ليه؟ ..!ثم افتكر إنك شوفتيه قبل كده.
ابتسمت بهدوء:
-عايزه أشوفه تاني.
رمقها للحظات بشك فاتسعت بسمتها:

-في إيه ..هو صعب حتى تخلعه من إيدك.
تعلق بصره بالخاتم وكأنه يسأل نفسه، أحقًا صعب عليه أن ينزعه؟.!
أمسك به ليحرر بنصره منه ويضعه في كفها الممدودة .
قلبته بين أناملها وهي ترمقه بنظرة لم يعي معناها لكنها بدت غير مريحة على الإطلاق.
خاتم بسمة ..
لم ترَها من قبل ولكن هذا الخاتم يمثلها بشكل كبير، لذا فهي تبغضه وتتمنى أن ينزعه معاذ من يده إلى الأبد، حينها فقط قد تزداد فرصها في النيل من قلبه.
ضاقت عينا معاذ مع نظرات نرمين للخاتم التي طالت فمد يديه ليسألها إعادته فرفعت بصرها إليه، وضمت قبضتها على الخاتم قائلة:
-لأ.
ردد بدهشة:
-هو إيه اللي لأ.
-مش هتعرف تنساها طول ما هو معاك ..انساه هتنساها.
هب واقفًا لتقف هي أيضًا ليقول:
-نرمين ..قلتك ماتتكلميش عنها كده وأنا مش عايز أنساها هاتي الخاتم.
تجهم وجهها لثانية قبل أن ترسم وجهًا طفوليًا وهي تخرج لسانها له غيظًا:
-لأ.
لتتسع عينيه دهشة وغضبًا:
-نرمين أنا مابهزرش.
قال كلماته بوعيد وهي يقترب منها فضحكت لتسرع هاربة ليتجمد للحظة ثم يصيح:
-أنتِ بتلعبي!!
التفت له قائلة:
-أيوة بلعب ..تعال خدوا مني لو شاطر ..ياإما هرميه في البيسين وهتتعب على ما تلاقيه.

زم شفتيه وأسرع خلفها لتتعالا ضحكاتها أكثر وأكثر وهي تهرب منه هنا وهناك، إلى أن اقتربت من بركة السباحة لتلوح بكفها:
-أقف يا أما هرميه.
زفر محاولًا كتم غضبه:
-أنتِ رايقة باين عليكي ..هاتي الخاتم بقى.
هزت كتفيها بعلامة النفي لتقول بلهجتها الطفولية المعتادة:
-قولي الأول ..إيه أحلى حاجه فيا.
فمسح وجهه بكفه وكأنه يزيح ما عليه من علامات استفزاز، قبل أن يقرر أن يتجه لها فجأة في محاولة لإمساك يدها، فأرادت الإفلات منه فكان النتيجة سقوط مدوي لكليها في بركة السباحة.
استغرق الأمر منه لحظه قبل أن يسبح ليخرج رأسه من الماء، تنفس بقوة وهو يدور برأسه في المكان ليراها تحارب المياه بذراعيها تصيح باسمه في فزع، ليخطر في عقله ما يعلمه مسبقًا ونسيه.
نرمين لا تجيد السباحة!!
اندفع نحوها بفزع وقد بدأت تختفي تحت سطح الماء، جذبها بقوة ليخرج رأسها ويسمح لها بالتنفس لكنها كانت استكانت بالفعل فصاح:
-نرمين ...فوقي خلاص ..نرمييين ...اتنفسي.
هزت رأسها بوهن قبل أن تشهق بقوة وتسعل مخرجه ما استقر في فيِها من ماء.
جذبها إلى حافة البركة، دفعها بكل قوته إلى خارجها.
لتستقر بجسدها أرضًا ليرفع جسده بعدها وحركها لتأخذ وضعية على جانبها وهو يربت على ظهرها:
-نرمين ..كلميني أنتِ كويسة.
سعلت مرة أخرى قبل أن تحاول الاعتدال جالسة.
لتلتقط أنفاسها ليصل لها صوته الخافت:
-أنتِ مجنونة!!

نظرة نالها منها قرأ فيها الكثير ولم يعجبه أيًا منها.
الماء يقطر من شعرهما ووجهما بل كامل ملابسهما، فلم يميز عبراتها المتسللة إلى عينيها، التي كانت تتأمله بحب يائس.
ملامح وجهه منها قريبة، ملامح تعشقها بكل ما فيها.
وللحظة أرادت أن تستجيب لمشاعرها ..حتى لو كانت من طرف واحد.
رفعت ذراعيها تعانقه وتدفن رأسها في عنقه، تصلب جسمه من مفاجأة فعلتها فعقد حاجبيه، وأراد أن يتحرر من عناقها بالرجوع إلى الخلف لكنها تعلقت بيه أكثر ليصل له نحيبها المكتوم.
شعر بالأسف عليها فاستكان لحظات ليقول:
-نرمين ..كفاية..سيبني.
ضمت أصابعها تتعلق بملابسه بقوة لتقول من بين شهقاتها:
-نفسي ..نفسي أعرف اسيبك ..بس مش قادرة ..مش عارفه أنا بحبك أوي يا معاذ ..عمرك ما هتلاقي حد هيحبك أدي.
ليعود السؤال يلح في رأسه...
وهل نملك قلوبنا؟!!
لا ..لا يستطيع أن يمنحها قلبه.
فقط منحها تربيته على الظهر وهمسات كي تكف عن البكاء.

....

ترددها بلغ أقصاها، لا تعلم هل عليها أن تخطو تلك الخطوة أم لا، تشعر أن كارثة ما في انتظارها، لكنها تعبت ...تعبت من التفكير ...التخيل ...التخمين.
لكن انتظار البلاء أسوأ من وقعه.
فلتقع الكارثة أو لتنجو منها.
أوقفت سيارة الأجرة على مسافة مناسبة من وجهتها، لتترجل من السيارة وخلفها رفيقتها اللصيقة ..نانا.
تحركا على قدميهما لتقول نانا:
-احنا هنعمل إيه هندخل جوه.

-لأ طبعا.
توقفت لتفكر لحظات لتكمل:
-تعالى.
تبعتها نانا لتجدها تدور حول أسوار القصر الأسمنتية إلى أن وصلت إلى الجزء المبني بسياج حديدية:
-كان في جزء بيكشف الجنينة يارب يكون زي ما هو.
توقفت أمام المكان التي تذكره جيدًا لتقول نانا:
-فين ده ...الشجر مغطي.
مدت بسمة ذراعها لتزيح تلك الشجيرات الرقيقة وبالفعل ظهرت مساحة لا بأس بها من حديقة القصر.
لتحشر نانا رأسها مع بسمة لتتطلع إلى المكان.
وقبل أن تنطق نانا بشيء أخر تسلل لأذانهما صوت ضحكات مرحة أنثوية لتظهر فتاة على مسافة ليست بالقريبة لكنها مرئية بوضوح، لتهمس بسمة بذهول:
-نرمين!!
-هي دي.
اكتفت بسمة بايماءة برأسها، ليرتعش جسدها فعليًا حين رأته هو.
معاذ.
لتقبض بأصابعها على القبضان الحديدية غير مبالية بالألم الذي أصابها من تلك الشجيرات المتعلقة بتلك القضبان واعتصرتها أصابعها.
وخفقان قلبها يخبرها بكم الفقد الذي عاشته حين حرمت رؤيته كل تلك السنوات.
حتى أن تنفسها الرتيب تزايد وكان أسرع عن الطبيعي.
لازال وسيمًا كما هو، أضحى أكبر سنًا، شابًا على باب الرجولة.
شابًا كان لها هي فقط وفقدته بإرادتها، وتتمنى استعادته الآن لكن المشهد الذي أمامها يخبرها باستحالة هذا.

لتردد اسمه في نفسها"..معاذ ...معاذ"
تمنت أن تناديه ..أن تهرع إليه ليضمها إلى صدره، كل مشاعر مراهقتها عادت لها في لحظة لتملأ عقلها وقلبها.
تلك المراهقة التي يكون الحب فيها هو البطل الأول بلا منازع.
فيصبح لتلك المشاعر حلاوة خاصة وفتنة مهلكة للكثير.

لم يصل لأذنها حديثهما، لكن بدى وكأنهما يمرحان معًا وأنها تخفي منه شيئًا في يديها، وكانت اللحظات التالية رغم سرعتها الأكثر إيلامًا لها.
انتفضت مع سقوطهما في الماء، أنقاذه لها، وما إن رأته بين ذراعيها حتى تراجعت للخلف لتوقفها نانا قائلة:
-ده معاذ.
رفعت بسمة بصرها لها وقد فاضت بالعبرات، فتلك الغصة التي سكنت قلبها لم تكن هينة، بل حادة وشائكة إلى أقصى حد.
وكأن أحدهم يعتصر قلبها اعتصارًا.
وكأن أنفاسها تنسحب من رئتيها بغير رجعة.
لتهز نانا كتفيه حين رأت تجمدها:
-بوسي ..بوسي مالك؟.!
أفاقت لتتنفس فجأة وتلتفت مسرعة الخطوات وكأنها تهرب من المشهد، تبعتها نانا وقد شعرت بالأسى عليها، وهي ترى دموعها تغادر عينيها.
أسوأ كوابيسها تحقق بالفعل.
ما كانت تخشاه ولا تريد القدوم لأجله رأته بعينيها.
معاذ نسيها تمامًا، واستبدلها بتلك الفتاة.
ربتت نانا على كتفها قائلة:
-ولا يهمك ..افتكري أن أنتِ اللي سبتيه الأول مش هو.
نظرت لها بعينين باكيتين:
-أنا ماسبتوش ..أنا كنت مضطرة.

-وهو هيعرف منين يا بوسي ...قلتلك أكيد هيكمل حياته ..خلاص بقى ماتزعليش نفسك ..أنتِ عيشتي سنين من غيره وعندك اللي أهم منه تفكري فيه ..حقك وحق أبلة بطة مستقبلك اللي هيكون أحسن بكتير من رجوعك لمعاذ.
-اسكتي يا نانا.
قالتها بزعيق باكيٍ لتضيف:
-أنا بجد اتوجعت ..بجد.
أحاطت كتفيها لتضمها إليها:
-بس بوسي اللي اعرفها جامدة ..بكرة تنسي وتكملي حياتك ..وهتبقي أحسن وافتكري إني قلتلك كده ...أنتِ حواليكي اللي أحسن من مييت معاذ.
دفعت ذراعيها عن كتفها لترمقها بضيق:
-نانا اسكتي ..بجد اسكتي.
لوت شفتيها لتلتزم الصمت ليبحثا عن سيارة أجرة.

....
احساس لا يوصف بالحظ ...أو بالمعنى الصحيح القدر الحسن.
حصولها على تلك الوظيفة كانت من أحلامها المستحيلة ولا تعلم حتى الآن كيف استطاع أبيها أن يقدم لها في تلك الشركة لكنه اكتفى بقوله:
"كنت موصي حد أعرفه وحب يخدمني"
فليكن، ستقبل الخدمة.
العمل في تلك الشركة الكبيرة ولو محاسبة تحت التمرين ليس بالأمر السهل، عليها أن تنجح وتثبت نفسها ليتم توقيع عقد لها دائم.
لتطمئن أبيها وأختها أن لهما مصدر رزق جيد الأن.
كانت تتابع رئيسها في العمل بحماس، تحاول تنفيذ كل ما يطلبه بل وحتى ما لم يطلبه كانت تسعى لإثبات مجهودها طول ساعات العمل، واستطاعت أن تنال استحسان مديرها بالفعل.
-هو كريم فين؟!
قالها مدير الحسابات لتجيب زينة:

-قال إنه رايح إدارة الموارد ...حضرتك عايز حاجة.
أمسك ببعض الأوراق:
-المفروض يوصل ده لمكتب المدير التنفيذي.
وقفت تقول بحماس:
-أوصله أنا حضرتك مش مشكلة.
مد يده بالاوراق لكنه انتبه للأمر ليعيدها لمكتبه فجأة قبل أن تصل لها يد زينة التي حدقت فيه بدهشة ليقول:
-امم ..لا خلاص هبعته مع أي حد ...أنا عايزك معايا هنا..في اتنين محاسبين هيجوا من شركة الشربيني للمقاولات علشان نظبط مع بعض حسابات العطا اللي هتقدمه شركتنا بالشراكة مع شركتهم ..وعايزك تكوني موجودة وتفهمي كويس اللي بنعمله في الموضوع ده..أنتِ دماغك حلوة وبتتعلمي بسرعة وموضوع العطاءات ده عايز ناس زيك كده.
تناست ما حدث للتو لتتسع بسمتها بفرحة حقيقية قائلة:
-تحت أمرك يا فندم.
انتظرت بحماس ذلك الاجتماع الذي ستحضره لأول مرة.
ووصل المحاسبين بالفعل أحدهما كان في سن مديرها تقريبًا والأخر كان شابًا.
كان الحديث حصري بين الكبار بينما هي والشاب يتابعان بتركيز فحسب.
ويقدمان المساعدة إذا طلبت منهما.
حتى انهكهم الأمر فقال مديرها:
-ناخد بريك يا جماعة ..فاضل حاجه بسيطة.
أومأ الجميع برضا ليردف:
-زينة ..خدي الأستاذ محمد للكافيتريا اعزموا نفسكم انتوا الاتنين على حاجة .. نص ساعة بس وترجعوا.
نهضت زينة مجيبة:
-حاضر ..اتفضل يا أستاذ محمد.

نهض الشاب من مكانه ليتبعها إلى أن أتخذا مقعدين أمام بعضهما وطلبا كوبين من الشاي وقطعتين من المخبوزات الجاهزة.
ساد الصمت بينهما للحظة قبل أن يقول محمد:
-موضوع العطاءات ده مش سهل.
أومأت مؤيدة:
-فعلًا ..بس حاجة ممتعة إني أتعلم مع ناس كبار.
عقد حاجبيه:
-هو أنتِ كمان بتتعلمي.
أشارت بإصبعها نحوه:
-وأنت ..اااه ..علشان كده كنت قاعد ساكت زيي ..وأنا اقول مش بتشارك ليه.
ضحكت مرددة:
-فرصة سعيدة.
ابتسم مرددًا:
-أنا أسعد...أنتِ شغاله من امتى؟.
-من اسبوعين بس.
-تصدقي وأنا كمان ..دا احنا مرتبينها بقى.
نظرت لساعتها:
-الوقت جري ...يادوب على ما نرجع المكتب تكون خلصت النص ساعة.
أنهى أخر رشفة من الشاي ودس بفمه قطعة المخبورة المتبقية:
-طب يالا.
لم يقضيا الكثير من الوقت قبل أن ينتهي كل شي.
قال لها قبل أن يغادر:
-فرصة سعيدة يا آنسة زينة ..وبما إن الشركتين بيتشاركوا كتير أكيد هنتقابل تاني.
ابتسمت قائلة:
-وساعتها نكون متثبتين مش تحت التمرين.

-بالظبط ..سلام.
-سلام.

جلس في السيارة وبدى متجهمًا ليقول رفيقه:
-مالك ..القعدة كانت صعبة؟!
-لا أبدا ..أنا فهمت ..شكرًا إن حضرتك جبتني معاك.
-طب مالك؟!
هز راسه بالنفي:
-مافيش حاجه ...أنا كويس.
لم يعلق الرجل بالمزيد وفضل الصمت.
يفتقدها ..يفتقدها كثيرًا.
لو أمكنه فقط أن يضع يده بقلبه ويخرجها منه لفعل، لكنه مجرد ضرب من المستحيل، سيحاول أن يطبق مبدأ البعيد عن العين بعيد عن القلب، وليأمل أن ينجح وينساها.
ينساها ...!!ينسى حب ترعرع في قلبه سنوات.!!
حب فتاة تعرف عليها حين كانت في عمر المراهقة بينما هو على مشارف شبابه، كانت حينها أهدأ ..أرق ..أطيب، وحادثة بعد أخرى تغيرت نانا لم تعد كما كانت قط.
يلوم نفسه أحيانا أنه لم يستطع أن يحافظ على طبيعتها الطيبة، تركها تتبدل دون أن يقنعها بالعكس.
ولكن ..كيف كان له أن يفعل، بأي صفة ..كان مجرد عاشق حديث السن.
والآن انتهى كل شيء وكأنه لم يبدأ قط.
....
أوقف سيارته داخل المنزل في مكانها المعتاد، ترجل منها ليخطو بإنهاك إلى الداخل لكنه توقف على صوت همهمة لم يعِها، التفت برأسه ليجدها تجلس على

الأرجوحة وقد منحته ظهرها فلم يتمكن من تبين شخصيتها، اقترب بحذر لينتبه إلى أن تلك الهمهمة هي صوت نحيبها.
عقد حاجبيه ليقترب أكثر فتعرف عليها ليقول بصوت خافت يخشى افزاعها:
-بسمة..
انتفضت لثانية قبل أن تستكين وهي تكتم نحيبها ليردف:
-أنتِ كويسة.
رددت بصوت مكتوم:
-اه ...كويسة.
ظل مكانه للحظة ليقول:
-بس أنتِ بتعيطي ..في حد زعلك.
صاحت فجأة:
-يا سيدي سبني في حالى أنت مالك بيا.
زم شفتيه ليكتم غضبًا تصاعد داخله ليقول:
-أنا الحق عليا ..براحتك.
التفت ليبتعد فعاد صوت نحيبها ينطلق مجددًا عاد ينظر لها وهز رأسه ليستدير فيدخل إلى المنزل.
صعد الدرج بخطوات سريعة ليطرق باب غرفة وافي ويدلف إليها ليجده مستلقيًا في فراشه يقرأ في كتاب الله.
-وافي.
التفت له قائلًا:
-خير.
-أختك بتعيط.
اعتدل جالسًا مستفهمًا:
-ليه؟ ...وعرفت منين؟!
-ليه؟ ماعرفش .. فين؟ ..في الجنينة.
صمت لحظات ليقول:

-وبعدين ..أعمل إيه يعني؟!
-هو إيه اللي تعمل إيه ..ماتنزل تشوفها مالها ..أنا حاولت أكلمها مارضيتش .. الحاجز اللي بيني وبينها مش عايزه تكسره ..لكن أنت أخوها أكيد هتتكلم معاك.
قال ساخرًا:
-إذا كان بينك وبينها حاجز أنا بيني وبينها عشرة.
رد باصرار:
-عشرة ممكن تعديهم بخطوة يا وافي ..عموما براحتك ..هي لسه تحت بتعيط .. تصبح على خير.
خرج جاهين ليتركه وحيدًا.
ظل مكانه هُنية، ليغادر فراشه متجهًا إلى الشرفة التي تسمح له برؤية الأرجوحة في الحديقة، ليجد أحدهم يجلس عليها بلا حراك، ضاقت عيناه بتركيز لكن هذا لم يساعده ليعرف حالة الجالس هناك.
زفر مفكرًا قبل أن يتحرك قائلًا بنزق:
-منك لله يا جاهين ..ماتسبني نايم يا أخي.
غادر غرفته ليتجه إليها، مع اقترابه تأكد من كلام جاهين كانت تبكي بالفعل.
فهمهم لينبها لوجوده، فكتمت نجيبها دون الالتفات إليه، خطى بهدوء ليجاورها على الأرجوحة التي تتسع لشخصين بإريحية.
نظر لها فسمحت له الإضاءة الخافتة برؤية وجهها الباكي، ولم يمنع قلبه من الشعور بالشفقة عليها:
-مالك ..بتعيطي أوي كده ليه؟!
مسحت عبراتها بأناملها لتقول بثبات:
-ايه العياط ممنوع عندكم؟!
رمقها للحظات شاعرًا بلهجتها الهجومية، وسادهما الصمت ليقطعه بقوله:
-بسمة ..أنا عارف أننا مش عارفين نتصرف كإخوات ..فما بالك إننا توأم فعلًا ...بس متهيألى إننا لازم نحاول ...ماينفعش حد فينا يحاول لوحده ..احنا

الاتنين نبدأ لحد ما نتقابل في نص الطريق لكن لو مشينا في الاتجاه المعاكس عمرنا ما هنتقابل.
نظرت له فبدت صورته مشوشة خلف دموعها، وعاد دبيب قلبها الذي يعتليها حين تراه أو تكون بقربه، وشعور جارف برغبتها أن تبكي في صدره،
لتستشعر ذلك الشعور التي تسمع عنه أحيانا .
الأخ ...السند ...الحامي.
أيمكنه حقًا أن يكون سند لها في محنتها تلك، أيمكنها أن تبوح له بصدمتها في حب عاشته سنوات، هل سيسمعها ويواسيها أم يوبخها ويعنفها؟!
ليته كان معها منذ البداية بل حتى قبل البداية، لعل الأمر كان له وقع أخر.
وخرجت فكرتها على لسانها:
-ياريتك كنت في حياتي من زمان.
- زمان مش هنعرف نرجعه ..لكن النهاردة وبكره قدامنا مادمنا عايشين.
رفع كفه بتردد ليضعه على كتفها:
-ايه رأيك نحاول؟.
استطاع أن يخرجها من حالة البكاء التي كانت فيها، لكنها ظلت صامتة ليردف:
-مش عايزه حتى نحاول.
قالت دون النظر له:
-بالعكس ..عايزه أحاول بس يا ريت أنت كمان تحاول تكون ابن لأمنا.
عقد حاجبيه بضيق:
-لو كنتي مكاني مكنتيش هتقولي كده ..لما تختارني أنا بدالك.
قاطعته هازئة:
-يا ريتها يا أخي كانت اختارتك أنت ..هو أنت فاكر يعني إني كنت عايشة في أمله ..ده كان ذل السنين ..اللقمة بحساب واللبس بحساب ..والحاجه اللي اطلبها يتقال أه مرة ولأ عشرين مرة.
اتسعت عيناه يطالعها بذهول لتهب واقفة مردفة بنفس العصبية:

-والله لو كنت مكانك لسامحتها إنها رحمتني من الذل ده ..لكن أنت لو كنت مكاني عمرك ما كنت هتسامحها إنها حرمتك من العيشة اللي من حقك ..أنت اتحرمت من حنان أم ممكن تعوضه دلوقت ..لكن أنا اتحرمت من كل حاجه وللأسف هفضل طول عمري بعاني منه.

دارت عينيه في محجريهما وكلماتها يتعالا صداها في رأسه.

وأسئلة أخرى أكثر حيرة تملئها.

أتركته أمه لأنها أرادت له عيشة أفضل حقًا، ولكن لماذا؟!

لمَ لم تأتي وأخته هنا إذن؟!

ما الذي أبقاها بعيدًا؟.!

تلك الحلقة المفقودة ستصيبه بالجنون.

كلماتها له ..نظراتها المشتاقة ..صورته التي تحتفظ بها إلى جوارها.

أفتقادها يُحيره؟!

أين كانت طوال السنوات الماضية؟!

تركها له اختيار أم إجبار؟!

سأم السؤال الذي لا يجد له إجابة، وصمتها يجبره مرة بعد مرة أن يوقف مجرد السؤال.

تحركت لتغادر فأوقفها:

-طب قولي أنتِ .. سابتني ليه؟!!

حدقت فيه بغضب:

-أمي دايما تقول..اللي مايشوفش من الغربال يبقى أعمى ...وأنت مش عايز تشوف إلا اللي انت عايزُه ..أنا عايزاها هي اللي تتكلم ..تغلب الخوف وتكسر البعبع اللي مخليها ساكتة ..البعبع اللي أنت بتفضله عليها.

استدارت لتغيب عن بصره الذي ظل يتابعها، ليهز رأسه بحيرة.

ماذا عليه أن يفعل؟!!

وضع رأسه بين كفيه ينشد بعض الراحة ..راحة لا سبيل لها حتى الآن.

....

كانت تخشى وقوع البلاء، فها هو البلاء أصبح واقع ...يقين ..مرأى عين.
لا تعلم كيف غفت وعبراتها لازالت ساكنة وجنتيها، أشرقت الشمس وأشرقت رأسها عن صداع أليم.
أنين قلبها بين أضلعها لم يخف وطأه، تكرار المشهد والصورة يجدد الألم ويضاعفه.
كان مستكينًا بين ذراعيها، أحبها حقًا؟!
استطاعت أن تحتل قلبه الذي كان لها لسنوات طوال.
ضربت رأسها بكفها:
-أنا السبب ..أنا السبب ..أنا اللي ضيعته مني.
وعاد لها بكاءها كضيف زارها أمس ويبدو أنه سيطيل الاقامة.
-والله غصب عني يا معاذ ..غصب عني ..كرهتني خلاص ..نسيتني.
هزت رأسها بعدم تصديق، لطالما أمنت أن حب معاذ لها أكبر من أي شيء.
أكبر حتى من الأيام والسنين.
دومًا أخبرها بحبه لها وأنها لا تُكن له نفس المقدار.
يبدو أنه لم يكن حقيقيًا، فهي لم تنسَه إلى الآن لم تستبدله بأخر، أما هو!!..
دفنت رأسها في وسادتها تكتم نشيج بكائها كي لا يسمعها أحد.
طرقات على الباب أجبرتها على رفع رأسها مع صوت وافي:
-بسمة ..اتأخرتي مش هتنزلي الشغل.
أجابته بصوت مختنق:
-مصدعة وتعبانة مش هنزل.
-سلامتك.
ليسود صمت ينبئها برحيله، لتعيد رأسها إلى وسادتها، تشكوها همًا جديدًا ارتكن على ظهرها.
دون أن تشعر به يقف على باب غرفتها يصل له نحيبها المكتوم، ليهز رأسه بيأس، بالأمس لم تجِب سؤاله فأراد أن يخرجها من حالة البكاء، لكنه لا زال يجهل سبب هذا البكاء الغزير.

التفت برأسه لغرفة أمه التي تقضي فيها معظم وقتها وبالطبع رفيقتها الدائمة فيها مها ..الفتاة الضريرة.
أعليه أن يطرق بابها ليخبرها بحالة ابنتها التي يرثى لها أم يتصرف وكأنه لا يعلم شيئًا؟.
نداء من خلفه أخرجه من تردده:
-وافي ..يالا هنتأخر.
أجاب نداء جاهين معاندًا نداء قلبه.
ليتجه إلى سيارة جاهين الذي قال وهو ينظر خلف وافي:
-هي أختك فين؟!
-بتقول مصدعة مش هتنزل.
فتح باب السيارة مضيفًا:
-ماليش مزاج أسوق.
جلس جاهين خلف مقود سيارته:
-ماعرفتش هي كانت بتعيط ليه؟؟!
رمقه وافي للحظات ليقول جاهين قبل أن يسأله وافي:
-شوفتك وأنت رايح تقعد معاها.
-ماعرفتش حاجه ..ماقلتش.
صمت جاهين ولم يعلق ولكنه لم يمنع عقله من التساؤل، أمحمد له علاقة بالأمر؟!!
أهو غضب عاشقين، لكنه لم يصل له أن أي شجار حدث بينهما.
فما سبب البكاء!!
عمته!!
أم أن تلك الفتاة تحمل المزيد والمزيد من الأسرار التي لا يعلم عنها شيئًا.
أخرج أفكاره على لسانه:
-وافي ..أنت ماحولتش تعرف هما كانوا عايشين ازاي؟!
تذكر وافي كلمات بسمة بالأمس ليردد:

-كل اللي فهمته أنهم كانوا فقرا وتقريبًا ماعشوش كويس.
-مين كان بيصرف عليهم.
-وأنا هعرف منين؟!
قالها زاعقًا، فنظر له جاهين بدهشة:
-أنت بتزعق ليه؟!
-ما أنت بتسألني أسئلة غريبة ...لمجرد إن أنا قعدت معاها دقايق هعرف عنهم كل حاجه.
لم يعلق فهو على حق، لكنه بالفعل تصاعد داخله فضول مفاجيء لماضي زوجة عمه وابنتها والذي سيسعى لمعرفته بشكل أو بأخر.
....
أن تخطو خطوات قد تكون سبيل هلاكك ولاتزال تصر على التقدم، فإما أنك فاقد العقل ..سفيهًا، أو إنك لا تدرك عواقب ما تفعله.
وهي لا تستطيع أن تصنف حالها، أحيانًا تظن أنها تعاني من أمرٍ ما.
ضربًا من الجنون ربما.
لقد أضاعت من يديها حب تعلم أنه صادق لا يحمل أي أغراض أخرى، أضاعته لأنها تبحث عن شيء أخر، شيء لن يتمكن الحب من الوفاء به.
شيء تتصور أنها ستجده في ذلك الجالس خلف زجاج معتم في سيارة فارهة تقترب منها عن قصد.
لتقف أمامها ويظهر صاحبها في المقعد الخلفي وقد أزاح زجاجها قائلًا:
-اركبي.
تجمدت قدميها للحظة، هي بالفعل ترتكب ما لم تفعله طوال سنوات عمرها، وللحظة دق قلبها بعنف وكأنه يحذرها ...يرجوها أن تتوقف.
فعاد صوته يناديها:
-يالا يا نانا ..واقفة كده ليه؟.
فما كان منها إلا أن اسكتت قلبها وقتلت ضميرها لتستقر بجواره في السيارة التي كانت من الداخل أشبه بغرفة استقبال أنيقة.

كانت تطالعها بشغف!!
شغف قرأه هو بسهولة ليثمر ثغره عن بسمة ظفر.
حكمه لن يخطيء أبدًا.
لتردد بذهول:
-واااااااو ..هي دي بقى العربية اللموزين اللي بيقولوا عليها.
اتسعت بسمته لتبدو أكثر ودًا:
-أيوه هي ..عجبتك.
-طبعًا ..دي تحفة.
التفتت تنظر له قائلة:
-بس أكيد عندك عربية صغيرة خاصة .. تسوقها أنت يعني.
-عندي عربية تانية بس برضو بسواق ..السواقة بتعصبني.
وأردف لهجة مستكينة:
-انا أصلي لا بحب اتعصب ولا بحب اللي يعصبني.
رمقته بنظرة جانبيه لتقول:
-وأنا كمان على فكرة.
-هااايل ..كل يوم بتأكد إننا شبه بعض ...بس تعرفي كنت قلقان ماتجيش.
لوحت بكتفيها:
-بصراحه فلت باعجوبة ..ولولا إن بوسي أقصد بسمة مش في المود ماكنتش عرفت أخرج خالص ...مها وأبلة بطة بعرف اضحك عليهم لكن بوسي صعب أوي.
ضاق بصره للحظة ليقول بلامبالاة مصطنعة:
-ومين مها ومين أبلة بطة؟!
أجابت بتودد:
-مها تبقى أختي الصغيرة والوحيدة ..أما أبلة بطة هي تبقى فاطمة مامت بسمة ووافي.
مد يده يحضر عصير مثلج من ثلاجة صغيرة مجاورة قائلًا:

-اه ..اللي كانت مسافرة.
انتبهت له قائلة:
-مسافرة ..مسافرة فين؟!
مد لها كفه بالعصير قائلاً:
-مش قالوا إنها كانت مسافرة هي وبسمة ورجعوا.
لم يكن من الصعب قراءة ارتباكها الواضح وشعورها بأنها تفوهت بالكلام الخطأ لتقول بلهجة بدت مرتبكة:
-أاه ..أه كانت مسافرة ..اقصد كانوا مسافرين.
اخفى ابتسامة تريد الفرار إلى شفتيه ولم يرد أن يسير شكوكها فقال:
-وبوسي بقى مش في المود ليه؟!!
عقدت حاجبيها لتقول:
-هو احنا هنقضيها اسئلة عن بوسي؟!
ضحك بخفة معتذرًا:
-عندك حق ..ها ..تحبي تتغدي فين؟!
رمقته بشك للحظات قبل أن تقول:
-أي مكان ..المهم مايكونش في اخر الدينا ..ويكون عام طبعًا ..علشان أعرف ارجع بدري.
-سمعت الهانم يا عادل.
أجاب السائق مبتسمًا:
-أيوه يا شهاب بيه ..تحت أمركم.
رددت بحبور:
-هانم!!
مال ناحيتها هامسًا في أذنيها:
-أحلى هانم.

الفصل الخامس والعشرون

أعرف عيون هي الجمال والحسن
وأعرف عيون تاخد القلوب بالحضن
وعيون مخيفة وقاسية وعيون كتير
وباحس فيهم كلهم بالحزن
عجبي!!
رباعيات جاهين

اليأس.. تملكها إلى حدٍ كبير، ربما ملأ كيانها كله.
لتردد بلا ملل..
"مفيش فايدة"
وقرار من عقلها ينازعه قرارٌ من قلبِها وحافة جنون تكادُ أن تصل لها.
لتترك عبراتها تعبر عن حيرتها وحزنها.
كلما تذكرت تصرفه معها، لم يراعي حتى ماء وجهها وهي تضمه ليربت على ظهرها ببرودٍ قبل أن تحرره يائسة.
ليقفز إلى بركة السباحة وظل يغوص ويصعد بحثًا عن خاتمها اللعين، وكأن ما فعلته لا قيمة له.
أي كرامة ستجدها في حبٍ كهذا.. عليها التوقف.
حينها نادته بصوت سمعه بصعوبة فالتفت لها لاهثًا مما يلاقيه من تعب البحث:
- مش عارف راح فين.. مش باين خالص.. تفتكري دخل في فتحات الصرف.
هزت رأسها نفيًا لتفرج عن أصابعها فرأى الخاتم مستقرًا في كفها، فارتسم الاستبشار على وجهه ليغادر البركة بسرعة ويلتقط الخاتم وهو يطالعه بسعادةٍ بالغة ويعيده حيث سكنه الدائم بين أنامله ونظر لها وكأن فرحته أنسته ما سببته له:
- شكرا إنك ماسبتهوش من إيديك.. ماكنتش هلاقيه.

انفجرت باكية وهي تفر من أمامه.
حبست نفسها في غرفتها حتى الليلة التالية ولم يفكر في القدوم إليها ومواساتِها أو حتى الاعتذار.
هي لا تعني له أي شيء.
هبت من مكانها لتجذب حقيبتها وتُلقي فيها متعلقاتها من ملابس وغيره وتسحبها بقوة لخارج غرفتها، وكان أول من رآها سامر الذي كان يغادر مكتبِه للتو.
- نرمين.
ناداها لتلتفت له ولازالت عبراتها طازجة على وجنتيها فعقد حاجبيه:
- إنتِ كنتِ بتعيطي؟!
هزت رأسها نفيًا ليردف:
- لأ إيه... ده وشك غرقان دموع... مالك؟!
- مفيش عن إذنك.
أوقفها بإمساكه ذراعها:
- استني بس.. إيه اللي حصل.. معاذ زعلك.
وكان ذكر اسمه كفيل ليتضاعف ألمها، الكل يعلم أنها هي التي تريده بينما هو لا.
سحبت ذراعها من بين أصابعه:
- ماحدش زعلني أنا عايزة أمشي.. وهو أنا محبوسه هنا ولا إيه؟!!
- إنتِ عصبية ليه؟!!... ماحدش قال كده... طب الوقت اتأخر تحبي أوصلك فين؟!
- مش عايزة حد يوصلني... والوقت ماتأخرش ولا حاجه.
تبعها وهي تهرع للخارج ليقول بلهجة أكثر صرامة:
- نرمين.. هتروحي فين... ماما وبابا في أمريكا.. هتروحي فين دلوقت.
- هنام عند واحده صاحبتي لحد أما أحجز وأرجع أمريكا.
- طب ماتنامي هنا لحد ما نحجزلك هتفرق في إيه؟!

- مخنوقة وعايزة أقعد مع صاحبتي.
- خلاص.. بكرة الصبح روحِيلْهَا لحد مانشوف موضوع الحجز.
"حجز إيه؟!"
وصل لها صوته ليكون ربما للمرةِ الأولى مُزعج، فنظرت له بغضبٍ اعتمل داخلها بحقٍ لتزفر قائلة:
- أنا مش هقعد أفسر تصرفاتي أنا حُرة.. عن إذنكم.
هذه المرة أمسكها هو قائلًا:
- استني يا نرمين.. ماكنش قصدي أضايقك، إنتِ صديقة ونفسي تفضلي صديقة مش عايز أخسر ده أنا ماليش أصحاب وإنتِ عارفه ده كويس.
تبًا أيلين قلبها أم ماذا؟!!
لمَ لا تنزع هذا القلب وتلقيه تحت قدميها لترتاح.
جذبها من ذراعها:
- خلينا نكمل كلامنا جوه.
تحركت معه بضعَ خطواتٍ لتتوقف وهي تصيح بعنف وكأنها استيقظت للتو:
- كفاية بقى.. ماتسيبني أمشي إنتَ عايز تعذبني وخلاص.
نظر لها بأسىً بينما تحرك سامر ليتركهما بمفردهما، ليقول الأول:
- لا يا نيرمين.. مش عايز أعذبك إنتِ فعلا تهميني، إنتِ صاحبتي الوحيدة عايزك جنبي.
هزت رأسها بعنف:
- مفيش حاجه اسمها صاحبتي.. مش بعد اللي حصل خلاص يا معاذ مبقاش ينفع.
استدارت تجذب حقيبتها مرةً أخرى ليصل لها صوته:
- خسارة كنتِ أقرب حد ليا.. الحد الوحيد اللي اتصورته هيواسيني بجد وهيساعدني.
زمت شفتيها لتردد بصوتٍ باكٍ:
- للأسف مش هقدر.

لم يُعلق لتستدير مبتعدة وهذه المرة لم يوقفها، ربما هذا هو الاختيار الأمثل، لم يمنحها ما يريد بل لن يهديها غير الألم.. فليتركها وشأنها إذن.
تابع رحيلها بصمتٍ ليعود أدراجه تلتقيه عيني أخيه اللائمة.
فقال دفاعًا عن نفسه:
- بُعدها أرحم ليها مش ليا.
هز سامر رأسه:
- ياريت بس ماتندمش إنك بعدت عنها.. مش هتلاقي حد يحبك زيها.
- بسمة بتحبني أكتر منها.
- وهي فين بسمة دي؟!.. هتفوق من الوهم ده على كابوس يا معاذ.
لم يعلق، صعد الدرج ليعود إلى غرفته، وقلبه يمنحه الآمال في إمكانيةِ نجاة حبه كما يتمنى.

....

البكاء على الأطلال ليس من عاداتها، وكما قالت نانا عليها أن تكون أقوى.
توقعت ما رأت فلمَ تتصرف وكأنها خُدِعت؟.
هي من ابتعدت دون أن تُخبره بشيءٍ، ليس من حقها أن تلومه، أن تغضب عليه.. حتى لو كان لازال يحبها، ما الفائدة من حبِ فتاةٍ فارقته لسنواتٍ ولا يعلم عنها شيئًا.
لعله فكر هكذا واختار أن يقبل بقربِ تلك الفتاة.
ومعه كل الحق.
لا توجد أي كلمات قد تساعده على فهم ما حدث، في النهاية سامر أخوه الوحيد لن يفارقه لأجلها.
"الخيرة فيما اختاره الله"
كلمات ترددها أمها على الدوام إذا ما عجزت عن تحقيقِ شيء.
ويبدو أن معاذ ليس لها وهي ليست له.
وقام عقلها برسمِ خطوط الدفاع لكي يُسكت أنين قلبها.

معاذ يعلم ماضي أمها، لن تقبل سما بهما حتى لو أصبحتا أغنياء، ستعلم سميحة أنهما قضيتا حياتهما كخادماتٍ في القصور.
وغيرها وغيرها.. حُجه تلو أخرى تُغذي عقلها وقلبها لتكف عن الحزن.
غسلت وجهها تزيح عن رأسها كل هم، ارتدت ثيابها واستعدت ليومِ عملٍ جديد.
مستقبلها الحقيقي والذي يجب أن تنتبه له جيدًا.
حقها الذي ستسترده من سميحة وتعيدُه لأمها.
لديها الكثير والكثير لتفكر فيه.. لتهتم به.
غادرت غرفتها تحمل حقيبتها باصرارٍ، مرت على أمها تحييها وتقبلها لتربت فاطمة على رأسها داعيةً لها بالخير.
لحقت بأخيها في سيارته لينطلق بها وبعد مرور دقائق قال:
- مش هتقولي كان مالك؟!!
نظرت له عبر المرآة الأمامية لكنه كان ينتبه لطريقه قائلة:
- ماتشغلش بالك بقيت كويسة.
تنهد قائلًا:
- مش اتفقنا نحاول نقرب.
أشاحت بوجهها بعيدًا:
- لما أحتاج أحكي حاجه هحكي.
- زي ما تحبي.
قالها ليُنهِي الحوار الذي انقطع بالفعل حتى وصولِهما إلى الشركة.
انضمت مع أخيها لجاهين وأحد المحاسبين في غرفة الاجتماعات فلم يكن لها مكتب مستقل بعد.
انشغلوا في المراجعةِ النهائية للمظروف الذي سيتم تقديمه لنيل إحدى المناقصات المهمة.
انتبه جاهين لحالة بسمة الهادئة أكثر من اللازم، وعيناها التي كانت تصب حزنًا معظم الوقت، وشرودها الدائم.
لكنه يعلم أنها لن تقبل أي تدخل منه، فليتجاهل الأمر فحسب.

ومع مرور الوقت.
وقف جاهين يحمل المظروف قائلًا:
- خلاص الوقت قرب يخلص، لازم أقدم العطا دلوقتي يا مش هنلحق هتيجي يا وافي.
هز وافي رأسه:
- لأ.. ماما قالتلي أروح مكتبها علشان حاجه مهمة.
إلتفت للمحاسب:
- طب تعالى أنتَ.
هب واقفًا:
- حاضر يا باشمهندس.. هو ممكن برضو الآنسة بسمة تيجي علشان تاخد فكرة عن تقديم العطاءات.
رمقته بسمة للحظاتٍ قائلة:
- هو أكبر حد في الشركة هو اللي بيقدم العطاءات.
أجابها جاهين:
- اتعودنا من زمان نقدم العطاءات بنفسنا وفي آخر وقت علشان نضمن إن الرشاوي ماتدخلش في الموضوع ويكشفوا العطاء ويقدم غيرنا أسعار أقل... منافسات سوق هتفهميها بعدين.
وقفت قائلة:
- طيب هاجي معاكم.
لم يعترض أحد فانطلقت معهما بسيارة جاهين.
وصلوا لمبني إدراي ليدلفوا إليه، كان المكان مزدحم بعض الشيء.
أشار جاهين لبسمة:
- اقعدي هنا استنيني.. وخلي الظرف معاكي.. وإنتَ ماتسيبهاش.
أومأ المحاسب برأسِه ليذهب جاهين فالتفتت تسأله وهي تحتضن المظروف:
- هو رايح فين؟!

- هيتأكد من آخر ميعاد للتقديم قبل مانقدم العطا ساعات بيمدوه وإحنا لازم نقدم في الآخر.
دار برأسه قائلًا:
- تشربي حاجه.
هزت رأسها نفيًا فقال:
- المكان زحمة مش هيرجع بسرعة هجيبلك عصير.
أرادت أن توقفه لكنه ذهب قبل أن تتحدث، دارت ببصرها في المكان يبدو حيوي بكم البشر الذين يتحركون فيه.
عالمٌ جديد لا زالت لا تعلم عنه إلا القليل.
وسرعان ما شردت فيه وهو بين ذراعيها، ليضطرب قلبها ألمًا من جديد، هزت رأسها لتطرد تلك الذكرى المؤلمة.
لتنتبه له يمد يدِه بكوبٍ من العصير الطازج:
- الكافيتيريا هنا بتعمل عصير فرش حلو.
تناولت منه الكوب ببسمةِ امتنان فأشار لها محذرًا:
- حاسبي الظرف لو وقع عليه العصير تبقى مصيبة حطيه جنبك.
نظرت للمظروف لحظات لتضعه جوارها وتضع يدها عليه.
ليسرد الرجل كلماتٍ عن عمله والمكان، كانت تستمع له بعدمِ اهتمام وهو يشير على هذا ويعرفها عليه، وعلى تلك ويروي قصة عنها.
هذا الرجل مزعج حقًا!!
كان هذا حديثها مع نفسها رن هاتفها المحمول فأمسكت حقيبتها تحاول العثور عليه فمد المحاسب يده:
- هاتي العصير.. دوري براحتك.
بحثت عنه لتخرجه فكان رقمًا مجهولًا ظلت ترمق الرقم للحظاتٍ قبل أن تجيب وما إن فعلت حتى انقطع الاتصال فرفعت رأسها للمحاسب:
- تقريبا النمرة غلط.
ابتسم لها متفهمًا ليعيد لها العصير، التفت برأسه فانتبه لجاهين قادمًا فقال:

- هاتي العصير بقى الباشمهندس جه.
أعطته إياه فذهب ليعيده وبعد لحظاتٍ وصل لها جاهين:
- هو راح فين؟!
- جابلي عصير وراح يرجعه.
- طيب هاتي الظرف.
- حاضر.
اصطدم بصرها بالمِقعد خاليًا من أي شيء، اتسعت عيناها أكثر وأكثر وشعور بالصدمة يجتاحها، مدت يدها على المقعد وكأنها تتأكد من خلوه فوصل لها صوت جاهين:
- في إيه.. فين الظرف؟!
أشارت بأصابع مرتجفة:
- كان هنا.. أنا حطيته هنا دلوقتي.
انتفضت على صرخته التي أجبرت الجموع على الإلتفات لهما:
- نعم.. يعني إيه مش فاهمك، فين الظرف خلاص هنسلم فاضل ١٠ دقايق.
فتحت حقيبتها وكأنها ستجده فيها برغم حجمه الذي لا تتسعه حقيبتها، عادت للمقعد لتجلس على ركبتيها تنظر أسفله لعله سقط، وجاهين يكاد ينفجر غضبًا وهو يراقب ما تفعل.
أمسك ذراعها ليجبرها على الوقوف بقوة ألمتها لتتأوه وهي ترتطم بصدره:
- براااحه.. دراعي.
قال بغضبٍ مكتوم وهو يقبض على ذراعها بقوةٍ تؤلمها ولا تُبديها:
- هو إيه ده اللي براحه.. العطا فين هتضيعي مننا المناقصة اللي طلع عنينا فيها.. أديكي ظرف خمس دقايق تضيعه.. إزاي. إزاااي؟!
عاد المحاسب ليسأل ماذا هناك فالتفت له جاهين زاعقًا:
- أنا مش قولتلك تفضل هنا معاها عصير إيه اللي بتشربه... أهو الظرف ضاع أعمل فيكوا أنا إيه دلوقتي؟؟.
ثم التفت لبسمة التي حاولت التملص من قبضته المؤلمة فلم يسمح لها:

- هو إنتِ عيلة.. مدي الظرف لطفلة... غلطتي أنا اللي إديته لواحده عديمة المسئولية زيك.
واستدار للمحاسب:
- وإنتَ هتتجازى على اللي حصل ده.
- طب يا فندم ندور عليه.
- إنتَ هتستعبط ندور على إيه.. أكيد اتسرق الله يخرب بيتكوا... حتى لو طلبت من الشركة نسخة لا يمكن هيوصل قبل الميعاد.
وعاد ليصب غضبه على بسمة التي بدت عيناها تترقق الدموع:
- أعمل فيكِ إيه دلوقت؟؟... هقولهم إيه في الشغل؟؟... المحروسة ضيعت الظرف وضيعتنا.
لم تحتمل المزيد لتنهمر عبراتها على وجنتيها وبدلًا من أن يرق لها زاد غضبه:
- إنتِ بتعيطي... هو ده وقت عياط تقدري تفهميني مين هيعوض الخسارة دي.
علا رنين هاتفه ليمسك به وما إن رأى اسم المتصل:
- الرحمة يا رب.
أجاب الهاتف ليأتيه صوتها:
- خلاص قدمت العطا.
زفر بقوة وهو يطالع بسمة الباكية يحنق شديد:
- لا يا عمتي.. الظرف ضاع!!.
أبعد الهاتف عن أذنه مع صوت صياحها الذي وصل لبسمة:
- ضاع إزاي يعني... ارجعلي الشركة حاااًلا.
لتغلق الهاتف فأرخى يده التي كانت لا تزال تقبض على ذراع بسمة بقوة وكأنه لم يعد ينتبه لهذا من كثرة غضبه.
ليتحرك خارجًا بعد أن منحها نظرة ازدراء.

حاولت أن تكف عن البكاء قبل الوصول للشركة وبالكاد فعلت، وقبل أن تذهب إلى أي مكان أمسك بمعصمها:
- رايحه فين؟.... معايا يا حلوة.
حاولت التملص فلم يسمح لها، فأوقفت نفسها قائلة:
- سيبني أنا مش هروحلها.
إلتفت لها وعينيه تقدح شرًا:
- لا.. هتيجي غصب عنك واللي عمل غلطة يتحملها وأنا واثق إنها هتحملني أنا كمان.. لأني وثقت في واحدة زيك.
- احترم نفسك بقى.. أنا سكـ
قاطعها وهو يجذبها من جديد:
- وفري كلامك ليها أحسن.
طرق باب مكتبها ليدلف إليه ولم يكن يحتاج الكثير من الوقت فملامح عمته تحمل غضب العالم وحنقه، بينما يحاول وافي تهدئتها لكنه صمت مع دخول جاهين وأخته.
لتصيح سميحة:
- ممكن تفهمني إيه اللي قلته في التليفون ده؟!!
حاول أن يلتزم بعض الهدوء وهو يقول:
- الظرف.. كان مع بسمة وأنا روحت أطمن على آخر ميعاد تسليم ولما رجعتلها مَلقيتش الظرف... وهي مش عارفه هو راح فين؟!.
رمقته بسمة بضيقٍ بالغ، أكانت تتصور أنه سيحميها ويتحمل الخطأ وحده... غبية!!
التفتت سميحة لها وكرهها وحقدها يصب من عينيها صبًا:
- راح فين الظرف؟!!
قالت بعناد:
- ما قلك ماعرفش.. تلاقيه اتسرق.
انتابت الدهشة الجميع للحظة...

- يا بجاحتك!!
قالتها سميحة بعد أن استعادة وجهها الغاضب:
- بتتكلمي ولا كأنِك عملتي حاجه... إنتِ عارفة إنتِ خسرتينا كام.. ده لولا إن في شغل بينا وبين شركة تانية كبيرة كنا خرجنا السنة دي بخسارة ما يعلم بيها إلا ربنا.. وفي الآخر تردي ببرود كده.
لوحت بسمة بكفيها:
- مالك بتتكلمي كده أكنك إنتِ بس صاحبة المكان ما أنا شريكة هنا وأكيد الخسارة طالتني.. يعني مش فرحانه باللي حصل، ماتنتهزيش الفرصة بقى وتعملي عليا نمرة.
فتحت فاها لتخرسها لكن سبقها صوتًا أخر صاح هادرًا:
- احترمي نفسك!!
التفتت لتلتقي عيناها بعينيه التي تطابقها تمامًا وقد تصلب جسدُها بينما اقترب منها:
- يعني إنتِ اللي غلطانه وكمان بتتكلمي بقلة أدب... اعتذري حالًا وإفهمي إنك بتكلمي كبيرة عيلة الشربيني.
خفضت بصرها وبدأ نفسها يتقطع وداخلها براكين ثائرة قد بلغت ذُروتها ليعيد قائلًا:
- بقولك اعتذري حالًا.
رفعت بصرها له، فضاقت عيناه وهو يقرأ فيها الكثير من اللوم، واتجهت به إلى سميحة ولم يُخفى عليها نظرة التشفي في عيني غريمتها، فصكت أسنانها لتقول:
- لو في حد لازم يعتذر...
رفعت سبابتها تشير لسميحة مردفة:
- يبقى إنتِ ... وافتكري إني هجبرك تعتذري وعمري ماهقبله.
تعلقت الأبصار بها للحظة، قبل أن تستدير مغادرةً فوصل لها صوت بسميحة:
- مش مسموحلك الرجوع لهنا تاني.

وقفت مكانها لتبتسم دون أن يتمكنوا من رؤيتها وهي تهمس لنفسها:
"هرجع يا سميحة.. بعد ما خرجك منها"
تابعت رحيلها بصمت..
عمة تتنفس الصعداء..
وأخ عاد لنقطة الصفر..
وابن عم لا يعلم أأصاب أم أخطأ؟!!

"وإنتَ"
صاحت بِها سميحة لجاهين لتعيد تركيزهما لها :
- مخصوم منك مرتب الشهر ده كله ... علشان بعد كده تبقى تحمل المسئولية للي يستاهلها.
أشاح بوجهه في ضيقٍ، وليس له حق الاعتراض، فهي محقة ومن الطبيعي أن يدفع الثمن.
استدار ليندفع خارجًا وخلفه وافي واتجه إلى غرفة الاجتماعات ليدفع الباب فرآها تنتفض وهي تنظر نحوه ثم سترت ذراعها الذي كشفته لكنه استطاع أن ينتبه لتلك الخطوط الحمراء العريضة التي خطت على ذراعها.
وقفت تحمل حقيبتها لتمر من جانبه فكادت ترتطم بوافي الذي منحته نظرةً باردة لترحل.
استقر كلًا في مقعد وعقلهما يسري مسرىً مختلف.
وافي الذي لا يعلم كيف يحل تلك المعضلة، سميحة هي أمه التي ربته لسنواتٍ وكانت معه دومًا، لا يحتمل أي إهانة لها ودفاعِه عنها كان تلقائيًا وبدون ذرة تفكير، لكنه خسر ما حققه من تقاربٍ مع أخته.
يجب أن تتوقف عن وضع نفسها في مقارنة مع أمه لأنها دومًا ستخسر، لمَ لا تفهم هذا؟!
التفت إلى جاهين الذي كان يطالع أصابعه وكأنه يفحصها.

بالفعل هو كان يفحصها، هي في الحقيقة تؤلمه قليلًا وبرؤيته لذراع بسمة تذكر، لقد أطبق عليها بقوةٍ بالغة حتى أن أصابعه تركت آثارها.
أَفقدَ أعصابِه لهذه الدرجة؟؟! لا يذكر على الإطلاق أنه تعرض بالأذى لأنثى من قبل.
كان يغضب.. يشتاط.. لكنه لم يؤذِ أحد.
فلمَ سهُلَ عليه ايذائها؟!!
ليس فقط لأنه غاضبٌ منها بل لأنه يتحمل المسئوليةَ معها وهذا أثار حنقه أكثر،
أغضبه إلى الدرجةِ التي أراد أن يُقنعها قبل أن يقتنع نفسه أن لا دخل له وهي من ستتحمل الأمر بالكامل.
إنها المرة الأولى التي تذهب معه لمكانٍ كهذا، فلمَ لم يحتاط أو على الأقل يخبرها بما قد يحدث في مكانٍ كهذا؟!.
زفر وهو يفرك رأسه ببطءٍ ليقول وافي:
- اللي حصل حصل.. ماتزعلش نفسك، تفتكر مين اللي سرقه؟!
هز رأسه بجهل:
- ماعرفش.. أما نشوف العطا هيرسى على مين؟!!
أومأ وافي برأسه، وعاد الصمت يلفهما.

....
حل الليل وكأن المنزل في حالة هدوء ما قبل العاصفة.
لم تخبر بسمة أحدٌ بشيء، اكتفت بتفسير عودتها باكرًا لإرهاقٍ أصابها، وكأن كل شيء تكالب عليها، حتى حقها الذي تسعى لاستعادته تفقده دون أدنى مقاومة،
ضربت رأسها مرةً بعد مرة.
كيف سُرق منها؟!.. كيف لم تنتبه؟!
أين كان عقلها الأخرق؟!

ومئات من كلمة ذات حرفين نكررها دون أن نعلم أنها تزيد همنا وألمنا لا تُريح قط..
لو... لو... لو!!
زفرت بضيق وهي تدفن وجهها بين كفيها:
- كفاية بقى يا بسمة.. مافيش فايدة، لازم تفكري صح.
لا يمكنها نزع هذا الاحتمال عن رأسها، ألتلك الشمطاء الماكرة دورٌ في هذا الأمر؟!!
وكأنها أصبحت هاجس لها!!
ويعود الإنكار ليفرض رأيه، لن تضر العمل فقط لتبعدها!!
وماذا لو فعلت؟!.. كيف ستثبت ذلك؟!
ضاقت عيناها بنظرةِ تصميم، الحرب أصبحت أكثر قذارة... فليكن هي من بدأت ومن يضحك أخيرًا يضحك كثيرًا.
التفتت على صوت طرقٍ طفيف على بابها، ظنتها مها فهكذا تطرق الباب، فتحته باستهانه لكنها صُدمت بوجهِ جاهين الذي دُهش لخروجها دون حجابها.
فأغلقت الباب في وجهه ثانية لتقول من خلفه:
- افتكرتك مها.
صمت لحظات حتى تضع حجابها وتفتح الباب لكنها لم تفعل فقال:
- ممكن تفتحي الباب.
استندت على الباب بظهرها وهي تمسك ذراعها الذي لا زال يإِن من قبضته القوية، فأعاد لها كل شعور مؤلم ومخزي شعرت به حينها لتقول:
- إنتَ مش شَيلتني الليلة وخلاص عايز إيه؟!!
زفر قائلًا:
- أنا كنت قاسي معاكي وأذيت دراعك.. أنا آسف.
ارتسمت بسمةً ساخرة على شفتيها وهي ترفع ذراعها لترى أثار أصابعه المطبوعة بقوة:
- ولا يهمك.. دي أقل حاجه وجعتوني بيها.

تجهم وجهه وشعر بالألم لكلماتها:
- إنتِ ليه مصرة إننا بنحاول نأذيكِ.. أنا فعلًا آسف إني اتعصبت عليكِ أنا متحمل معاكِ جزء كبير من المسؤلية ومستعد أتكلم مع عمتي تاني علشان تاخدي فرصة تانية...
قطع كلماته فتحها للباب لتقول بعصبية وقد وضعت حجابها على رأسها كما اتفق:
- فرصة تانية؟!!.. أولًا ده حقي وكلامها مالوش أي قيمة عندي، وإن كنت خرجت من الشركة ده مش تنفيذًا لكلامها الفارغ... لأ.. أنا شبه متأكدة إنها ورا الموضوع ده كله علشان تمشيني.
رفع حاجبيه ليضرب كف بكف:
- إنتِ اتجننتي رسمي.. إنتِ عارفه إحنا هنخسر أد إيه بسبب الموضوع ده.. لا يمكن عمتي تشارك في حاجه زي كده.
قالت هازئة:
- شوية فلوس تروح مش مشكلة المهم تخلص مني ومن أمي.. شغل عقارب وهتدفع تمنه غالي.
زفر بحنق:
- إنتِ هتفضلي كده لحد إمتى... عداوتك لعمتي مش هتفيدك قلتك ميت مرة هتخسري وأديكِ شوفتي وافي اختار يحميها من لسانك مش العكس... افهمي بقى.
لم يغفل عن تغير معالم وجهها لتعبر عن ألمٍ بداخلها لذكره هذا الأمر، لتقول:
- بكرة كلكم تعرفوا حقيقة الوش الملائكي اللي بتحموه واللي مخبيه ورا شيطان.
هز رأسه بيأس:
- إنتِ مافيش فايدة فيكِ.. خليكي ماشية في الطريق اللي إنتِ عايزاه.. أحب بس أنبهك إننا مش هنكون جزء منه أبدًا.
تبادلا نظرات صارمةً منه عنيدةً منها ليقول:

- تصبحي على خير.. وآسف على إني أذيت دراعك.
استدار ليبتعد فأوقفته قائلة:
- على فكرة.
التفت لها لتقول بعصبية:
- اعتذارك مش مقبوول.
ودفعت الباب بعنفٍ ليُغلق في وجهه، ليرمق الباب للحظاتٍ قبل أن يضغط أسنانه بقوةٍ ويسير إلى غرفته وهو يؤنب نفسه على اهتمامه وشفقته على فتاةٍ مثلها.

....

أرقٌ بالغ أصابه، التفكير المضني يرهقه كثيرًا.
لا يعلم لمَ تتعقد الأمور كلما قرر أن يحُل عقدتها؟!!
أخته تتصرف بشكل عِدائي جدًا مع أمه، أتُراها تريد أن ترد له الصاع صاعين؟!.
ولكن بماذا أخطأت أمه لتضعها في مقارنةٍ مع أمهما التي تنازلت عنه.
هل تتصور أن كلماتها عن الفقر والحاجه وأنها كانت تفضل أن تكون مكانه كفيلة لكي ينسى ذلك الشعور المُخزي بالإهمال... التنازل.. التخلي!!
هي لن تعي معنى أن تتنازل عنها أمها لأي سبب، أن تعيش حياتها كيتيمة وأمها حية في مكانٍ آخر تكتفي بتربية التوأم الأخر، لن تُدرك هذا أَبدًا!!.
ربما على الجميع أن يتواجه... هو وأمهما وأخته وسميحة.
ربما لو وقف الأربعة أمام بعضهم لحُلت تلك المعضلة.
أغلق عينيه مرددًا آيات قرأنية يرجو منها أن يهدأ فكره وينال بعض النوم.
قام من فراشه وقرر النزول إلى الحديقةِ قليلًا لعل هواء الليل يُسكن عينيه الكرى.

استلقى على أريكةٍ جانبية يطالع السماء والتي بدت فيها العديد من النجوم بصورةٍ مميزة، فاحتلت بسمة هادئة شفتيه ليتمتم بالتسبيح لله.
استمر في التسبيح والذكر مع نسمات الليل العليلة حتى غفت عينيه دون أن يشعر.
ولم يُعِد فتحهِما إلا على صوت زقزقة العصافير التي تنبيء بشروق شمس يوم جديد على عمل ابن أدم شهيد.
فتح عينيه ببطء ليضع كفه أمام عينيه يواريها عن شعاع الشمس الباهت الذي وصل له مع بداية الشروق.
تثائب واعتدل جالسًا وهو يفرك رقبته فشعر بحركةٍ ما فالتفت لينتبه لها تسير كعادتها بحذرٍ شديد، عقد حاجبيه مندهشًا من وجودها هنا في تلك الساعة المبكرة، علمَ أن وجهتها هي الأُرجوحة، فلم يمنع نفسه من مراقبتها بصمتٍ كي لا تشعر به.
كانت بحجابها كعادتها حين نزولها، مدت أناملها تتلمس الأرجوحة وتجلس عليها. مها فتاة قصيرة وبجلوسها على الأُرجوحة لم تصل قدميها للأرض، أمسكت بطرف واحد منها وبدأت في أرجحت قدميها في محاولةٍ لتحريكها ولم تكن محاولتها ناجحة.
لم يستطع أن يكتم تلك الابتسامات التي تتالت على وجهه من هيئتها وهي تتصرف كطفلةٍ تريد أن تسرق لحظات من المتعة بالتأرجح دون أن يراها أحد.
استمرت محاولاتها الفاشلة حتى توقفت لتلتقط أنفاسها وبشفاهٍ مقلوبة تُعبر عن حزنها وإحباطها، اتسعت بسمته عن آخرها وغادر مكانه ليسير حافيًا كي لا تنتبه لقدومه، مع تأكده أن لا عطر يمكن أن تلتقطه أنفها له.
كان يتسلل بحذرٍ شديد حتى أصبح جوارها يتنفس بهدوء معتمدًا على أصوات زقزقة العصافير التي تكون عالية في هذا التوقيت قبل أن تخرج من أعشاشها لتسعى لرزقها.
سمعها تسمي الله وعادت محاولاتها من جديد، إتخذ وضعية ليكون على طرف الأُرجوحة وخلفها، بدأت بالتحرك حرك كفه مع حركتها البطيئة ليدرك الوقت

الأنسب للتدخل، وبالفعل دفع بخفة غير ملحوظة لتتوهم أنها نجحت أخيرًا في تحريك تلك الأَرجوحة العنيدة لتعيد الكَرَة ويُعيد الدفعة البسيطة ومع التكرار تمكنت من التأرجح بالفعل فوصلت له ضحكة سعادة خافتة أصدرتها لم يقاوم فضوله في رؤيتها حين تذكر أنه لم يرَها تضحك من قبل.
خطا بهدوءٍ ليرى وجهها لتنتقل سعادتها إليه.
نفس السعادة التي ترتسم بيُسر على وجوهنا حين يضحك طفلًا بسعادة، وهي بدت كطفلة.. طفلة جميلة.
نسى حذره ليندمج مع ضحكاتها ويشاركها إياها... بصوت مسموع!!.
ليفاجأ بتحول المشهد، انتفضت فزعة من على الأَرجوحة لتسقط على ركبتيها بعنف وكادت أن تنكب على وجهها لكنه أسرع ليمسك بها، فانتفضت بفزعٍ أكبر وهي تزحف هربًا مرددة:
- مين.. مين.. إبعد عني... حد يساعدني.
برغم أنها كانت تستغيث لكن صوتها كان مكتومًا من كثرةِ فزعها فابتعد قائلًا:
- إهدي يا مها أنا بسام.
توقفت عن زحفها لكنها ضمت ركبتيها إلى جسدها وكأنها تحتمي بهما، انقلب وجهه حزنًا ولام نفسه أن أفسد لحظاتها الخاصة بتلك الطريقة غير المقصودة ليقول:
- أنا آسف.. ماكنش قصدي أخضك.
ليكمل بينه وبين نفسه:
"نفسي أعرف إنتِ بتخافي أوي كده ليه"
أنفاسها المضطربة بدأت تهدأ تدريجيًا إلا أن رجفة جسدها لم تهدأ.. لتقول:
- أ...أنت... أزاي.. أنا ماحستتش..بيك.
أشفق على اضطرابها وتلعثمها فجلس أرضًا وحافظ على مسافةٍ آمنة كي لا يثير فزعها:
- أنا كنت نايم في الجنينة وأكيد مافيش أي برفيوم علشان تميزيني.
اتسعت عيناه حين انتبه لبقعةِ دماءٍ تتسع عند ركبتيها فقال بسرعة:

- مها إنتِ إتعورتي؟!
مررت كفاها على جسدها بسرعة:
- إتعورت.. فين؟!!
- ركبتك بتنزف.
وضعت كفها على الركبة الخطأ، كان حريص على ألا يلمسها قط، فقد علم أن هذا يثير رعبها كثيرًا... فقال:
- التانية يا مها... قومي ... لازم تعالجيها.
حاولت القيام فمنعها الألم مد معصمِهِ نحوها:
- امسكي دراعي وأنا أساعدك.. ماتخافيش.
هذه المرة لم تفكر كثيرًا كالأولى لتتشبث بأصابعها الصغيرة بمعصمه فجذبها بقوة ليدفعها للوقوف فتأوهت متألمة ظل يردد:
- آسف... أنا السبب.
سارت بجوارِه بصمتٍ وهي تتكيء على معصمه والكثير من الخجل يعتريها، وصلا للدرج الداخلي للمنزل فقال:
- أقعدي هنا هجيب مطهر من جوه وأجيلك.
- لأ.. أنا هطلع فوق.
- أختك أكيد نايمة الجرح لازم يتطهر.. ماتخفيش أنا هغطي رجلك ومش هشوف غير ركبتك اللي غرقانه دم دي.
لوحت بكفها:
- لأ طبعا.. إنتَ مش من محارمي.. أنا هطلع لأبلة بطة أكيد صاحية شكرًا إنك ساعدتني لحد هنا.
لم تنتظر رده فتحاملت على حاجز السلم مع قدمها السليمة لتصعد، تبعها بحذرٍ كي لا تسقط ثانيةُ لتصل بالفعل إلى باب غرفةِ فاطمة تطرقه برفقٍ فسمعت صوت فاطمة يناديها لتدخل، استغرب أنها عرفتها دون حتى أن تنطق، وما إن فتحت الباب حتى قالت بصوتٍ طفولي باكٍ:
- أبلة بطة أنا إتعورت.

ابتسم رُغمًا عنه، ليصله صوت فاطمة:
- اسم الله يا حبيبتي... إتعورتي فين، مش تاخدي بالك يا بنتي.. تعالي.
أغلقت الباب خلفها فظل مكانه لحظات وعاد الحزن يسكنه وهو يرى لهفة أمه على تلك الفتاة والعلاقة الغريبة التي تربط بينهما رُغم أنها ليست ابنتها.
لهفة لم يألفها إلا مع امرأةٍ واحدة... سميحة.

سارة سيف الدين

الفصل السادس والعشرون

خُوض معركتها زي جدك ما خاض
صالب وقالب شفتك بامتعاض
هي كده... ماتنولش منها الأمل
غير بعد صد ورد ووجاع مخاض
عجبي!!
رباعيات جاهين

الطموح.. الطمع!!
فوارق بسيطة تميزهِما عن بعضِهما، وهي قررت عدم التفكير في الأمر، فأيًا كانت ما تفعله، طموحٌ أم طمع؟!
هي لديها هدف وتشعر أنها اقتربت منه كثيرًا.
لن تشغل عقلها بتعريفاتٍ لا معنىً لها، برُغم ذلك النداء الداخلي لها بالخجل مما تفعل، بالخوف من عواقبه، لكنها لازالت تخطو نحوه بثبات.
تعددت لقاءَتِهما ونجحت في الإحتفاظ بالأمر سرًا، ساعدها على هذا انشغال بسمة بمشاكلها وقُدرتها على خداع أختها وفاطمة.
يصلها إحساس أنها تمكنت من قلبه، لهفته عليها حين يراها، قبوله لما تريد دون معارضة، لم يحاول لمسها على الإطلاق بعد أول محاولة نهرته هي عليها.
حُجة تلو حجة تقنع بها نفسها أنه حقًا الرجل الذي تريد وتتمنى.
قلقها الوحيد من أسئلتِه المتعددة عن بسمة وأمها وهي تحاول دومًا الإفلات منها وتنجح في هذا.
وفي لقائِهما اليوم اختلف السؤال!!

- نانا.. هو إنتِ ليه مش بتشتغلي.. ماتفكري تخلي بسمة تنزِلك الشغل في الشركة.
رمقته بتوجس قائلة:
- وأنا هفهم إيه في شغلهم.. ثم أشتغل ليه أنا مرتاحة كده.
- تشتغلي علشان تكوني أحسن.. هو إنتِ هتفضلي كده عايشة على نفقة عيلة الشربيني.
هزت كتفيها بلامبالاة:
- محدش مضايق.. ثم مسيري أتجوز وأعيش على نفقة جوزي.
لم يُخفَى عليه نظرتها الجانبية له وهو تقول كلمتِها الأخيرة، ليخفِي بسمةٍ ساخرة أرادت التحرر عن شفتيه:
- أكيد طبعًا يا حبي.. طب ما تخدميني واشتغلي في الشركة دي إنتِ ممكن تساعديني جامد.
اتسعت عيناها بذهولٍ قائلة:
- إنتَ قصدك ايه؟!!
- ماتفهمنيش غلط.. دي منافسات شغل وأكيد يهمك إني أنجح علشان أكون الزوج الجدير بيكي.
وكعادتها الغبية تناست كل ما قيل ولم تنتبه إلا على كلمته التي انتظرتها طويلًا:
- الزوج؟!.. إنتَ قلت إيه؟!!
انفرجت شفتيه عن ابتسامة عريضة:
- طبعًا يا حياتي.. ما إحنا مسيرنا هنتجوز أومال اللي بينا ده إسمه إيه؟!
دقات قلبها صارت كقرع الطبول:
- بجد يا شهاب.. هتتجوزني؟!!
أمسك كفها يداعب أناملها برقة:
- طبعًا يا قلب شهاب.. إنتِ فكراني إيه.. بلعب؟!!

اتسعت بسمتها وقد شطح عقلها وطار إلى عالمٍ آخر، عالم حلمت به كثيرًا وتشعر أنها قاربت العيش فيه حتى أنها لم تشعر به يلثم أناملها بشفتيه وعينيه تحمل مكرًا لا يُخفَى على مُبصر.. لكنها اختارت العمى!!.

انتهت جولتها معه لتعود إلى المنزل سريعًا قبل أن ينتبه أحد للأمر خاصة وقد حل الظلام، وما إن خطت داخل الحديقة حتى انتفضت على صوتها الغاضب:
- نانا!!
التفتت لتجيب بسمة التي غادرت مقعدها لتقترب منها:
- كنتِ فين؟!
هزت نانا كتفيها:
- كنت فين يعني.. أهو بلف هنا وهناك.. بتفرج على المحلات مانتِ عارفه مش بحب الحبسة وإنتِ بقيتي مشغولة عني خالص.
كتفت ذراعيها قائلة:
- وأديني فِضِتلك يا نانا.. إيه حكاية خروجك الكتير دي..مها قالتلي إنك يوميًا بتخرجي.. بتروحي فين؟!
لوت شفتيها اعتراضًا:
- تحقيق ده ولا إيه؟!.. من إمتى بتسألني الأسئلة دي.. أنا الكبيرة يا بوسي مش إنتِ ولا علشان خلاص بقيت في بيتك ولقمتي من إيدك.
حدقت فيها بدهشة مؤقته لتقول:
- إيه اللي بتقوليه ده.. أنا يا نانا.. ده برضو جزائي لأني بسأل علشان خايفة عليكِ وعارفه دماغك المجنونة دي ممكن توقعك في مشاكل.. تقولي عليا كده.. نانا إنتِ أختي وإنتِ عارفه كده كويس إزاي تفكري كده؟!!
رسمت ملامح التخاذل على وجهها بإتقان:
- أعمل إيه.. إنتِ بقيتي مشغولة على طول ومش فضيالي ومها لا بتحب ترغي معايا ولا تخرج ... أموت أنا بقى من الحبسة بخرج أرفه عن نفسي شوية فيها إيه دي؟!!

لانت لها ملامح بسمة وهي تربت على كتفِها:
- ماشي يا ستي عمومًا أديني فضيت وسميحة إدتني الصابونة من الشركة..
بس معلش بكره أزحلقها أنا بشامبو أصل الناس مقامات.
ضحكت نانا على كلماتها لتجذبها وتتمكن من إلهائِها بقولها:
- إيه ده... حصل إمتى وإزاي؟ .. إحكيلي بسرعة.
قصت لها واقعة السرقة وما حدث بعدها في الشركة ونانا تستمع باهتمامٍ لتقول:
- يا لهوي.. كل ده حصل ومتقوليش يا بوسي.. بس مين ده اللي سرق الظرف.
حكت بكفها على كتفها:
- أقطع دراعي من هنا إن سميحة هي اللي ورا المصيبة دي.
- معقولة يا بوسي تخسر نفسها فلوس كتير بس علشان تمشيكي.
- دي حرباية يا بنتي... ثم الخسارة مش كبيرة أوي المناقصة دي صغيرة مقارنة بمناقصة تانيه داخلنها مع شركة كبيرة بس مأعرفش عنها حاجه أنا كنت ماسكة معاهم المناقصة الصغيرة دي كتجربة.
- طب وهتعملي إيه؟!!
أعادت رأسها للوراء وهي تطالع السماء:
- مش عارفه لسه.
اعتدلت واقفة:
- تعالي ندخل جوه بقالنا كتير ماقعدناش مع بعض أنا وإنتِ ومها.
وقفت لتتعلق بذراعها:
- تصدقي سميحة عملت معانا معروف هترجعلنا أيام زمان الحلوة.
ابتسمت لها بسمة لتدخلا إلى المنزل، وفي طريقهما لأعلى التقتا بوافي الذي وقف أعلى الدرج يطالع أخته التي تجاهلته تمامًا لتمر من جواره فأوقفها بقوله:
- ممكن نتكلم؟!
أجابت وهي لا تزال تسير:

- لا مش ممكن.
قال بعصبية مكتومة:
- من فضلك.
توقفت تنظر له لتربت نانا على كتفها:
- هستناكِ فوق.
غادرتهما نانا لتقف بسمة مكانها دون النظر إليه سار بضع خطوات ليفتح باب غرفته:
- ممكن نتكلم جوه.. مش معقولة هنقف نتكلم كده.
استدارت لتدخل إلى الغرفة وأغلق بابه خلفها وأشار لها بالجلوس على مكتبه، لم تستطع أن تمنع نفسها من النظر إلى الغرفة التي بدت هادئة لتعبرعن طبيعة صاحبها ولا تعلم لمَ ذهب خاطرها إلى جاهين وتصورت أن غرفته ستكون نقيض هذا تماماً.
- عادية!!
التفتت له وهي تجلس على كرسي أمام مكتبه:
- هي إيه دي اللي عادية؟!!
أشار بيده:
- أوضتي.
لم تعلق لتقول:
- عايز إيه؟!!
مط شفتيه ليجلس على كرسي مكتبه:
- أنا اتعصبت عليكِ جامد معلش.
ضحكت ساخرة مرددة:
- كل واحد بقى هيقولي معلش كسبت أنا إيه بقى... تكبسني قدام واحدة زي دي.. واحدة...
ضرب مكتبه بكفه ليوقف كلماتها:

- لو سمحتي... كده مش هنوصل لأي حل أرجوكِ ماتجبرنيش أنهي الكلام..
إحنا عمالين نلف في دايرة مقفولة من كل ناحية، ولا حد فينا بيحاول يقابل التاني.. ليه مش عايزة تستوعبي إن سميحة مش مجرد عمتي وبس دي أمي.
زفرت بضيق:
- هنبدأ بقى الكلام اللي ينرفز.. أمك منين؟! أنت هتجنني.
- مش هي اللي ربتني.. أنا أبقى جاحد أوي لو فكرت أنسى كل اللي عملته علشاني.
- وأنا كمان لا يمكن أنسى اللي عملته فيا وفي أمي.
- عملت إيه؟؟؟ ممكن تفهميني عملت إيه؟؟.. مين اللي اختار يبعد هي ولا إنتوا.. دي كانت متعرفش عنك حاجه متعرفش إن ليا توأم.. بتلوميها على إيه على الغلطة اللي عملتها...
توقف للحظة قبل أن يردف بخفوتٍ وكأنه يخشى قولها:
- عملتها أمنا.
صمتت ترمقه للحظات:
- أيوة.. أمنا غلطت.. لكن مفكرتش ليه.. ليه قبلت تبعد مين اللي خوفها علشان تبعد.
- خوفها!!
رددها بتعجب، ليهز رأسه بعدم تصديق:
- ياريت نقول كلام مفهوم علشان أصدق... ماما سميحة قالت اللي عندها هي بقى ساكته ليه رافضة تتكلم ليه؟!!.
مالت على مكتبه:
- وقالت إيه بقى ماما سامية... أأقصد ماما سميحة!!
تجاهل سخريتها الواضحة:
- إنها سابتني بمزاجها وخبتك إنتِ .. لأن ماما سميحة ماشفتكيش لما راحت تاخدني.
أومأت برأسها:

- امممممممم... تصدق ممكن، أنا أصدق إن أمي تخبيني لكن ماصدقش إنها سابِتك بمزاجها.
- ومين بقى اللي هيفصل فيها طول ما هي مُصرة تفضل ساكتة؟.
وقفت قائلة:
- عندك حق.. أعتقد كفاية كده قوم معايا المرة دي لازم تتكلم وقدامنا إحنا الإتنين.
ظل مكانه ينظر لها فمدت يدها تمسك بكفه:
- يالااا.
تبعها إلى أن وصلا لغرفة فاطمة لتدخل بسمة أولًا لتجدها على سجادة الصلاة وقد انتهت من صلاتها انتبهت لها أمها لتبتسم:
- تعالي يا بوسي.
اقتربت منها لتثني ركبتيها قائلة:
- تقبل الله يا أمي.
- منا ومنكم.
انتبهت لحركة أخرى لدى الباب فالتفتت لتجده يقف على بابها يطالعها بصمت فاتسعت بسمتها لتغلفها نفس نظرة الشوق التي تغرقه بها كلما رأته:
- بسام حبيبي تعالى.
خطا خطوات بسيطة إليهما لكنه لم يقترب كثيرًا فنظرت لابنتها:
- إنتوا كنتوا مع بعض.
أومأت لها بسمة إيجابا فتهللت أساريرها:
- الحمدلله.. كنت لسه بدعي ربنا يقربكم لبعض.. إنتوا ملكوش غير بعض.
- ماما.
قالتها بسمة بحزمٍ لتنظر لها أمها بقلق:
- إنتِ سيبتي بسامً بمزاجك.. ولا هي خدته غصب.
تجمدت ملامحها للحظةٍ وهي تحدق في ابنتها التي كررت كلماتها بإصرار في انتظار الرد، لتهز فاطمة رأسها نفيًا بتردد، فانتفضت على صوت ابنها:

- أفهم إيه أنا من هز راسك ده.. دي مش إجابه.
أمسكت بسمة بكتفيها:
- اتكلمي يا ماما.. دافعي عن حقك.. ماتخافيش إحنا جنبك أهو ولا يمكن نسيبك.. اتكلمي.
انفرجت شفتيها للحظة قبل أن يبدأ نشيج بكائها ليضرب وافي كفًا بكف:
- مش قلتلك.. مش هتتكلم... يبقى أنا مفيش قدامي غير إني أصدق الست اللي دافعت عن حقي فيها بالكلام مش بالعياط وبس.
أنهى جملته ليغادر الغرفة ويضرب بابها بعنف، لتنظر بسمة لأمها بذهول استمر لحظات، لتصرخ فعليًا:
- اااااااااه... ماااماااا.. إنتِ هتشيليني.. مابتتكلميش ليه إنتِ كذبتي عليا مش قولتيلي خدته غصب إنتِ كذبتي عليا يا ماما.
هزت رأسها بالنفي مرددة من بين دموعها:
- أسكتي.. أسكتي بقى.
- أسكت.. أنا اللي أسكت.. إنتِ خايفة أوي كده ليه... خايفة من إيه؟.
صاحت بها بسمة لتصرخ فاطمة أخيرًا وكأنها تزيح جبلًا عن صدرها:
- هددتني بيكم... سميحة هددتني بيكم.
جلست بسمة أرضًا وهي تحدق فيها بغير تصديق:
- يعني إيه؟.. هددتك بمين؟!
شهقت من بين عبراتها:
- بيكِ وبنانا ومها... ومها بالخصوص، قالتلي عيني عينك إنها أضعفكم وممكن تئذيها بالطريقة اللي تموتها بيها وهي حية... إنتِ فاهمة يعني إيه كلامها ده؟!!
عقدت بسمة حاجبيها ومعالم الغضب تظهر عليها رويًدا رويدًا:
- ماقلتليش ليه؟... ليه سكتي؟!
- يعني هتعملي إيه؟.. أنا خُفت عليكم قلت كفاية عليا إن ابني جنبي وبشوفه.. مش علشان أرجعه لحضني أخسر واحده فيكم... مقدرتش.. مقدرتش.

رددت ببكاءٍ حاد لتقترب بسمة منها، تضمها إلى صدرها.
الآن فهمت لمَ كانت صامتة هكذا؟!!.
تلك اللعينة تعدت كل الخطوط الحمراء وأصبحت اللُعبة أكثر قذارة.
زمت شفتيها لتردد بينها وبين نفسها...
"جِبتي أخرك معايا يا سميحة"

....

كل يوم مر عليها كان مميز بالنسبة لها، حماستها لم تقل يومًا، لم تستيقظ في صباح ترجو النوم وعدم الذهاب للعمل، لقد أحبته كثيرًا وأرادت أن تثبت نفسها فيه، وقد نجحت بشكل كبير حيث دومًا يصلها مديح مديرها في العمل وها قد مر الشهر الأول واليوم ستقبض مرتبها لأول مرة.
جلست تتناول وجبة الغداء المعتادة في مطعم الشركة،مع رفيقتيها اللتان تعرفت عليهما منذ مجيئها حتى أصبحن دومًا يتناولن طعامهن معًا، أميرة من قسم المحاسبة معها وسمية من قسم الموراد البشرية.
بدأ الحديث بالراتب الذي تسلمته كل واحدة فيهن، واقتراحات فيما ستنفقنه، لينتقل الحديث عن الزواج والخِطبة وكان ساخرًا كعاداتهن.
لتقول أميرة:
- يعني مش عيب علينا يبقى أصحاب الشركة شباب زي الورد ومفيش موظفة واحده عرفت تجيب واحد على ملا وشه.
ضحكت سمية قائلة:
- وهما يعني هيبصولنا على إيه.. دول بيشوفوا عالم تاني وبنات أنضف مِننا.
ردت عليها معترضة:
- إيه أنضف دي الملافظ سعد، وعلى فكرة أنا نضيفة جدًا وبستحمى كل يوم.
تعالت ضحكاتهن على تعليقها لتقول زينة:
- أنا ماشفتهمش قبل كده.. إنتوا شفتوهم.
مالت أميرة هامسة:

- آه شوفت الاتنين.. طبعًا سامر الهيثم بشوفه كتير لكن معاذ بقى عامل زي دلوعة العيلة فيين وفييين لما بيجي.
كان للإسم رنين خاص في أذنها لتردد:
- سامر الهيثم!!
- أيوة ماهو المدير التنفيذي لأن الست الوالدة هي رئيسة مجلس الإدارة بس قريب أوي هتنقلها لسامر ده ويمكن ساعتها بقى معاذ هو اللي هيبقى المدير التنفيذي.
رددت الإسم في عقلها مرةً بعد مرة، هي لم تخطيء.. أنه نفس الإسم.
"- بابا إنتَ مين قالك على الشركة دي؟!
- ناس وصتهم وحبوا يخدموني الحمدلله يا بنتي.. شدي حيلك إنتِ بس دي وظيفة كويسة."
هزت رأسها بعدم تصديق، أيفعلها أبوها بها دون أن يُخبرها، يجعلها وكأنها تنال ثمن تنازلهم عن حق أختها، التنازل الذي قبلته على مضض.
مالت ناحيتهما في محاولة أخيرة لإنكارِ الأمر:
- هو شكله إيه سامر ده؟!
ظنتا أنه مجرد فضول فأجابت أميرة:
- بصي يا ستي.. هو ملامحه مصرية جدًا وشبه عادية، بس بصراحة شخصيته مخلياه مش عادي أبدًا.. هيبة كده وتقيل تقل ويستاهل المصطلح الدارج.
لتضحك مع رفيقتها بينما تقول زينة:
- مصطلح إيه؟!
- أنه مُز.
لتعاودا الضحك الذي لم تشاركهما فيه زينة وعقلها يُبحر في مكانٍ آخر، عليها التأكد من صحة ظنها، أحقًا هو أم مجرد تشابة أسماء.
غادرتهما على أنها ستعود للمكتب لكنها سألت أول من قابلت عن مكتب المدير التنفيذي فعلمت أنه في الدور الثاني.

لم يكن الوصول له صعبًا أو مثير للانتباه يبدو أن مكتبه ميسر للجميع وصلت بالفعل لتقف أمام السكرتارية والتي تجلس فيها فتاة سألتها عن حاجتها، ظلت ترمقها بصمتٍ فهي ليس لديها أي حجة يمكن أن تقولها.
لعنت غباءَها في التصرف دون تفكير فأعادت الفتاة سؤالها.
لن تتراجع الآن.. فقالت بثبات:
- ممكن أقابل المدير؟!!
- عايزة تقابلي الباشمهندس سامر.
أومأت برأسها لتقول الفتاة:
- حضرتك مين طيب وهل في ميعاد؟!!
- أنا زينة من قسم المحاسبة ولأ مفيش ميعاد.
- حاضر ثواني.
غادرت مكتبها لتقرع باب مكتب مديرها وتختفي فيه للحظاتٍ قبل أن تعاود الظهور مشيرةً لها بالدخول:
- اتفضلي.. هيقابلك.
دلفت بأعصاب متوترة وجسد مرتجف.
غرفة فسيحة تتوسطها طاولة عريضة تبدو للاجتماعات، وفي ركنها القصيْ وبجوارِ نافذةٍ كبيرة يقبع مكتب فخم جلس خلفه أحدهم وكان ضوء الشمس عامل مساعد لعدم وضوح معالم وجهه.
اقتربت بوجل لتبدأ معالم وجهه في الظهور فاتسعت عينيها فور رؤيته.
إنه هو!!
تبادلا النظرات بصمت إلى أن علت شفتيها السخرية:
- هو ده بقيت التمن اللي دفعته علشان نتنازل عن حق أختي.
رمقها بوجهٍ هاديء صاحَبَ صوته وهو يقول:
- أولًا إحنا مدفعناش حاجه للتنازل... مصاريف العلاج كانت هتتدفع حتى لو والدك ماتنازلش.. لكن لأنه شخص طيب وكريم قبل يتنازل برجاء مني وشغلك

مالوش علاقة بالموضوع إنتِ موظفة تحت التمرين زي أي حد لو مأثبتيش جدارتك هتمشي.
ضمت قبضتيها وكأنها تكتم غضبًا يعلو داخلها ولا تعرف كيف تُنفث عنه، بينما ابتسم هو في ود:
- وأنا سامع إن شغلك كويس أوي... بالتوفيق.
رفعت سبابتها بوجهه:
- أنا ممكن أمشي حالًا ماتفتكرش أبدًا..
وقف ليقطع حديثها:
- مفيش داعي.. أختك بخير وأنا قولتلك قبل كده أخويا مكنش سكران ولا إحنا بنستهون بأرواح الغير.. ياريت بقى نبدأ صفحة جديدة يا... زينة.
زمت شفتيها بغضب:
- على فكرة مش معنى إني موظفة عندك تناديني باسمي مجرد.
أنهت جملتها وهي ترفع رأسها باستعلاء لتتسع بسمته:
- ماشي يا أستاذة زينة.
ثم مال ليستند بكفيه على مكتبه:
- ممكن بقى تروحي تشوفي شغلك.
تصلبت مكانها للحظة قبل أن تلتفت مندفعة خارج الغرفة دون أن تعبأ بإغلاق بابها لتأتي سكرتيرته تحدق به بدهشة ليقول لها بصرامة:
- واقفه كده ليه اقفلي الباب.
لتنفذ طلبه بسرعة ليعود جالسًا وقد علت شفتيه ابتسامة خالصة.

....
مررت أناملها على جرح ركبتها، مستعيدة تلك اللحظات.
كان بجوارها، ضحك على ضحكاتها.
ضغطت على شفتيها وشعور بالحرج يتزايد داخلها، وهي تتصوره يقف يراقبها وهي كالبلهاء تحاول أن تؤرجح نفسها.
بل ضحك عليها أيضًا ولولا هذا ما سمعته.

أكانت مُضحكة حقًا؟!!
هزت رأسها، وما أهمية الأمر؟!... لطالما تعلمت ألا تهتم بردود فعل الناس على أفعالها وحالها، فلمَ تشغل عقلها بما يظنه هو بها.
وتناست حرجها لتعلو شفتيها بسمة محببة وهي تذكر اهتمامه بها بعد جرح ركبتها، هو بالفعل يملك قلب طيب كأمه.
واتتها رغبة قوية بأن تراه، تمنت حقًا لو تُبصر لترى كيف يبدو؟!
ومع تخيلاتها الوهمية تعالت ضربات قلبها.
اعتدلت في جلستها بشكل مفاجيء تستغفر وتذكر ربها، وهي تنهر نفسها:
- إنتِ اتجننتي يا مها.. إنتِ بتفكري فيه كده ليه؟.. إنتِ اتهبلتي في مخك... مالك ومال شكله.. قال شكله قال.... استغفر الله.
خرجت أختها من الحمام لتنضم لها:
- إنتِ بتكلمي نفسك!!
- عادي مانتِ دايمًا سايباني أكلم نفسي... مش هتقوليلي بتخرجي كل يوم تروحي فين؟!
- يا دي النيلة ماقلت بخرج أفُك عن نفسي.
جلست تجفف شعرها وهي تُدندن بأغنيتها المفضلة، لتقول مها بخفوت:
- نانا.
- اممممممممم.
لم تستطع أن تمنع نفسها عن السؤال:
- هو بسام شبه بسمة فعلًا... شبها أوي.
- آه يعني في شبه كبير بينهم.
صمتت للحظاتٍ قبل أن تقول:
- هو أصلًا بسمة شكلها إيه دلوقتي.. متهيألي أنا نسيته.
التفتت لها نانا لنبرتها الحزينة في كلماتها:
- في إيه؟؟ مالك؟!!
استلقت على فراشها متمتمة:

- ساعات بنسى إني عامية وبفكر عادي زي الناس.
- إنتِ في حد مزعلك.
سألتها لتجيب بهمهمة نفي:
- هي بوسي مش قالت جاية؟!!
- أيوة بس أخوها كان عايز يتكلم معاها ماعرفش بقى هتيجي ولا هتروح تنام على طول.
سألت باهتمام:
- يتكلم معاها في إيه؟!
- وأنا هعرف منين يعني.. أكيد في مشاكلهم اللي مابتخلصش.
لم تعلق بالمزيد واكتفت بالصمت وبالفعل خلدتا للنوم ولم تصعد لهما بسمة.
....
وبرغم أنه كان يوم عطلة لكن البيت كان هاديء تمامًا، حتى مائدة الإفطار لم يتشاركها غير جاهين وأمه ليدلف معها إلى غرفتها وبدى شاردًا كحال معظم من في المنزل.
لتقول ميادة:
- البيت ده بقى كئيب أوي على فكرة.. أنا بفكر أغير جو.
ابتسم لها:
- وهتروحي فين؟!
- أختك وحشتني أوي.. عايزة أشوفها وأقعد معاها شوية.
نظر لها بود:
- وماله يا ماما شوفي عايزة تزوريها إمتى وأنا أحجزلك.
اقتربت منه لتضع كفها على كتفه:
- ماتيجي معايا وتغير جو من وجع الدماغ ده.
صمت برهة:
- مش هينفع ياماما.. أنا مش مرتاح للي بيحصل.
جلست أمامه تتسأل بقلق:

- في إيه؟!.
- مش عارف.. شاكك إن كلام بسمة صح وإن عمتي سميحة اللي ورا ضياع الظرف.
- أنت بتقول ايه يا جاهين.. مستحيل طبعًا.. أنتَ عارف الشغل بالنسبة لسميحة إيه لا يمكن تعمل كده.
هز رأسه بحيرة:
- عمتي من الأول وضحت إنها مش عايزة بسمة في الشركة ولما سكتت افتكرت إنها تقبلت ده بس اللي حصل حسسني إنها كانت بتخطط علشان تجبرها تمشي.. وكمان وافي كان هيجي معانا المشوار ده لاقيته بيقولي إن عمتي عايزاه علشان شغل ولما سألته بعد كده قالي إنها كانت بتتكلم في العموم مش حاجه معينة... أكنها بتجبر الموضوع يمشي كده إن انا وبسمة اللي نشيل الليلة وتعاقبني معاها.
عقدت ميادة حاجبيها:
- عاقبتك إزاي؟!!
- خصمتلي شهر من المرتب.
- ليه بقى وإنتَ ذنبك إيه؟!.
- بس أنا فعلًا غلطت كان لازم أكون حريص عن كده .. دي أول مرة بسمة تيجي في مشوار زي ده... والله ما عارف ياماما هو اتسرق فعلًا ولا دي حركة زي ما هي بتقول؟!!
- ماتزعلش نفسك يا حبيبي.
زفر بضيق:
- عمتي مش مريحاني وحاسس إنها بتخطط بطريقة مش صح.
- عليك؟!!
- لأ.. على بسمة ومرات عمي، بس لأ.. أنا مش هقبل بده.. الناس دي اتظلمت كتير يا ماما مش معقولة نظلمهم تاني.. كفاية أوي.

اتسعت بسمتها وهي تطالع ابنها بحبورٍ، كأبيه يكره الظلم لكن الاختلاف أنه ينوي أن يفعل شيئًا حيال ذلك لا يكتفي بالصمت.
- اللي تشوفه صح اعمله يا حبيبي.. بس خلي بالك أوعى تعادي عمتك.
- بحاول يا ماما... أنا مش عايز عيلتنا تخرب ولا حد فيها يخسر التاني... في إيه لو نرجع كلنا نعيش كويس مع بعض من غير ماحد يكون خايف من غدر التاني.. إحنا مش أعداء إحنا عيلة واحدة.
ضمت كتفه إليها:
- وأنا مطمنة على عيلتنا طول ما أنتَ بتفكر كده يا حبيبي.
عاد لصمته وعقله يصدح بالأفكار والاحتمالات.
عودة عائلة وافي كانت تُشعره أن حقه ومكانته الطبيعية ستعود إليه، لكن إنكار عمته للأمر أضاع تلك الفرصة.
لازالت تلفظهم وتصر أن لا شيء تغير، لا زالت تتصرف وكأن وافي هذا ابنها الذي أنجبته وليس ابن أخيها مثله.
ووافي لا يساعده البتة فهو يصر على الإبتعاد عن أمه وأخته وكذلك تلك الأخت التي تصر على معاداة سميحة دون حساب مما يعرضها للخطأ وبالتالي هي من سيخسر.
الكل يتصرف برعونة ربما الوحيدة الهادئة فيهم هي فاطمة زوجة عمه المسكينة التي لا تريد شيئًا إلا قرب ابنها منها.
اعتدل واقفًا لتقول أمه:
- هتخرج؟!!
- لأ.. هروح أقعد مع مرات عمي شوية.
- اشمعنى.
- عادي هطمن عليها.
أومأت له ليغادر غرفة أمه ويصعد لأعلى رمق غرفة وافي للحظات وفي عقله رغبة قوية لتنبيهه.

"مش عايز أكرهك يا وافي.. أوعى تسمع كلام عمتي وتاخد حق مش حقك مهما كان"

زفر بحرارة ليخطو إلى غرفة فاطمة ويطرقها برفق واستمع لصوتها بالإذن، دلف إليها ليجدها على فراشها مستكينة ابتسمت له محيية:
- جاهين.. تعالى يا بني مازرتنيش بقالك كتير.
اقترب منها بود:
- معاكِ حق آسف.
جلس أمامها لتربت على كتفه وتسأله عن حاله، فطمأنها وسألها هي عن حالها ومرضها.
- الحمدلله يا ابني بخير.
- وافي كان كلف حد يسأل على دكتور قلب كويس.. أول ما يرد علينا هنروح نزوره.
لم تخفَ عليه نظرة الحزن التي اعتلت وجهها لدى ذِكر ابنها فأومأت بصمت.
ربت على كفها فنظرت له:
- معلش.. بكرة كله يبقى تمام أوعدك.
اتسعت بسمتها الطيبة:
- إنتَ قلبك حنين يا ابني.. زي أبوك فعلًا.
- امممممم.. فكرتيني يالا بقى احكيلي عن بابا وعمي وعلاقتهم ببعض.. عايز أسمع.
ضحكت قائلة:
- وماله أحكيلك اللي عمك كان بيحكهولي.
جلس بأريحية أكثر وهو ينصت لها باهتمام.
اهتمام لم تجده عند وليدها مما أسعد قلبها لكنها كانت سعادة منقوصة، ليته كان هو ابنها.

....

غادرت غرفتها لتنضم إلى الفتاتان في الأعلى كان ألم الرأس يتعبها لكنها لم تُرد البقاء وحيدة وانتبهت نانا لحالتها:
- مالك منمتيش كويس؟!!
- هو طول ما أنا عايشة في البيت ده هعرف أنام كويس.
سألتها مها بقلق:
- مالك يا بوسي؟!!
جلست باسترخاءٍ على مِقعدٍ مُريح:
- حاسه بعجز فظيع مش عارفه أعمل حاجه ولا أطيب خاطر أمي وأرجعلها بسام زي ما وعدتها ولا عارفه أوقف سميحة عند حدها.. حاسة بضعف.
اقتربت مها قائلة:
- عارفة يا بوسي.. أخوكِ ده طيب أوي ومايفرقش عنك ولا عن أبلة بطة كتير المشكلة إنك بتتعاملي معاه بالطريقة الغلط.
قالت نانا ساخرة:
- لا والله.. وعرفتِ منين؟!!
مطت شفتيها:
- المرات القليلة اللي كلمته فيها حسيت إنه حد كويس وطيب.. جربي تقربي منه وتتعاملي معاه كأخ مش ند خَدْ حق من حقوقك، وهو مالوش ذنب زيك بالظبط.
عقدت بسمة حاجبيها وهي تتذكر دفاعه عن سميحة:
- حمايته للست دي بتضايقني.. بتنرفزني.
هزت مها رأسها:
- بالعكس.. ده دليل إنه شخص كويس بطبعه، دي الست اللي ربِته وهو ماشفش منها حاجه وحشة، يكرهها ليه أو يتجاهلها ليه.. بلاش يبقى هدفك إنه يكره سميحة خلي هدفك إنه يحبك ويحب أبلة بطة.. أنا واثقة إن ده أسهل.
رفعت بسمة عينيها لمها وقد راقت لها كلماتها، ربما هي بالفعل تسير بالطريقة الخاطئة.

لمَ لا تحاول كسب أخيها في صفها بدلًا من محاولتها أن يخسر صف سميحة.
في النهاية سيكون عادلًا إذا تمكن من تقبلها وتقبل أمه ولا يُهم كيف سيتصرف مع سميحة فالحق سيظهر وسيعلم كم خدعته وحينها سيبقى هما الفائزتان.
لتدخل نانا في الحوار قائلة:
- وياريت كمان تبطلي تناكفي في جاهين.. هو كمان حليف قوي، بلاش تخسريه هو كمان.
هزت مها كتفيها:
- سيبك منها.. خليكِ مع أخوكِ.
ابتسمت بسمة على معارضتهما لبعض كعادتهما والتي استمرت بغضب نانا من كلمات أختها لتبدءا سِجال جديد بين معتقدات وأفكار كل واحدة منهما.

الفصل السابع والعشرون

شاف الطبيب جرحي وصف له الأمل
وعطاني منه مقام يادوب ما اندمل
مجروح جديد يا طبيب وجرحي لهيب
ودواك فرغ مني.. وإيه العمل؟
عجبي!!
رباعيات جاهين

الأمر لا يحتاج إلى الكثير من التفكير.
قد كانت تسير في الاتجاه الخاطيء والنتيجة واضحة.
عليها أن تُعدل الاتجاه وهذه المرة ستستجيب لكلمات مها.
التقرب لأخيها وكسب وده لن يكون صعبًا وهذا وحده كفيل لجعلها في موقفَ قوة وليس ضعف كحالها الآن.
والأفضل عدم الخوض في سيرة سميحة لأنها لن تثمر عن شيء سوى المزيد من النفور، عليها أن تستوعب فكرة أنه يراها كما هي ترى أمها، وكحالها في رفض أي هجوم منه لأمها هو لن يقبل بهجوم على من ربته... وإن كانت الشيطان نفسه!!.

طرقت على بابه برفق لم يطِل الوقت ليظهر أمامها واعتلت وجهه الدهشة للحظة قبل أن يقول:
- أهلا.. خير.
نحنحة خافتة صدرت منها وكأنها تجلي صوتها:
- بص بقى بغض النظر مين ربتنِي ومين ربتَك... إحنا توأم.
تعلق بصره به للحظاتٍ وحملت عاطفة حقيقية وهي تردد:

- توأم؛... ماتيجي نتصرف كأي توأم عايشين مع بعض.
صمت وكأنه يتأكد مما سمع فحاولت الابتسام وبدت متوترة:
- مش ده كان رأيك برضو.
أومأ برأسه إيجابًا لتردف:
- وخلينا نتفق لا أنتَ تكلمني عن سميحة ولا أنا أكلمك عن ماما خلينا نكلم بعض عن بعض ونسيب موضوع الأمهات ده شوية لما نرجع نبقى أخوات بجد موافق؟!.
دار بصره مفكرًا لثوانٍ ليقول:
- أكيد.
اتسعت بسمتها في الحال لتقول:
- طب يالا!!
عقد حاجبيه متسائلًا:
- يالا إيه؟!
- نخرج.. فسحنا أنا والبنات وهات جاهين معانا إنتوا مش أجازة النهاردة.
فرك رأسه ولازال يتسائل:
- تتفسحوا فين؟!
ضحكت قائلة:
- أي حته... أنتَ بتتفسح فين؟!
لاحت بسمة باهتة على شفتيه:
- أنا عادة مابتفسحش.
- ليه.. وأصحابك؟!!
- أنا ماليش أصحاب.
تجهم وجهها وهي تستشعر بالكثير من الحزن بين حروفه، ولأول مرة تشعر بأنها بالفعل كانت تسير في الاتجاه الخاطيء، هي لا تعلم عنه أي شيء على الإطلاق.
لكنه أردف قائلًا:

- كان ليا صاحب واحد بس كان صديقي في المرض ومات.
حاوطهما الصمت لمزيدٍ من اللحظات قبل أن تنتزع على شفتيها ابتسامة داعمة:
- الله يرحمه... تعالى نروح النادي.. أهو فسحة حلوة برضو.
وافق فقالت:
- طب يالا غير هدومك وقول لجاهين وإحنا كمان هنلبس.
تبعها ببصره ليذهب إلى غرفة جاهين ويخبره.
لم يستوعب جاهين ما قاله وافي فكرر السؤال ليتأكد:
- أنت متاكد إنها قالتلك جاهين كمان.
- أيوة يا ابني.
مط شفتيه بعدم اقتناع فمنذ ما حدث وعدم قبولها لاعتذاره لم يرَها ولم تتحدث إليه أتنوي إحراجه أمامهم أم ماذا؟!!
ردود فعلها غير متوقعة ولا محمودة العواقب.
ربما هي فرصة جيدة ليكرر اعتذاره بشكل أفضل، ومن الأفضل أن يحتاط بمسافة تحسبًا لأي غدر محتمل.
علت وجهه الضحكة مع أفكاره تلك، ليعتدل بحماس ويبدل ثيابه.
....

اجتمع الخمسة حول مائدة خشبية مستديرة، وأنظارهم تتنقل هنا وهناك.
ليتحدث جاهين بمرح:
- منورين.. تحبوا تشربوا إيه؟!
- نشرب... إحنا مش هناكل.
قالتها نانا بنزق لتوكزها أختها المجاورة لها بينما ضحك البقية.
ليقول جاهين:
- هناكل... بس نشرب حاجه الأول.. نتمشى شوية في النادي وبعدين نتغدى.
قبلوا الاقتراح ليطلب كل منهم ما يحب.

وقف بعدها جاهين:
- يالا ناخد جولة ولا هتفضلوا قاعدين.
وقفت بسمة:
- لا طبعا هنقوم.. يالا يا بنات.
قالت نانا:
- أنا هستناكم هنا ماليش مزاج ألف.
مطت بسمة شفتيها لترد مها:
- خلاص أنا هقعد معاكي.
- يا ستي تقعدي معايا بتاع إيه.. قومي روحي مع بوسي أنا هستنى هنا ولوحدي قومي يا مها.
دفعتها فعليًا لتجبرها على الوقوف ليقف وافي قائلًا بعصبية:
- إنتِ بتعامليها كده ليه؟!!
كانت الجملة تحمل من العصبية ما دهش الجميع بلا استثناءٍ بينما ضاقت عيني نانا قائلة:
- هو أنا عملت إيه؟!!
أمسك جاهين بذراع وافي:
- في إيه يا ابني؟؟.
أشاح بوجهه بعيدًا ليتحرك وتبعه جاهين لتلحق به بسمة وهي تجذب معها مها:
- خليكِ لوحدك كده ... تعالي يا مها إحنا نغير جو سيبك منها.
مال جاهين هامسًا:
- أنت اتعصبت كده ليه؟!!
- مش عارف.
قالها بصدق، لا يعلم سبب هذا الغضب والضيق الذي ملأ نفسه من تعامل نانا مع أختها وضايقه أكثر استسلام مها وعدم اعتراضها وكأنها اعتادت على هذا ولم يعد يثير ضيقها.

استمر سيرهم في الأرجاء حتى وصل لأذانهم صوت صهيلِ الخيل لتقف بسمة قائلة:
- الله.. هو في خيل هنا.
أجابها جاهين:
- أيوة.. في دروس فروسية في النادي.
وأشار لجهة قريبة:
- هناك.
- مها خيول.. تعالي نتفرج.
رسمت على شفتيها ابتسامة تحمل معنىً لا يمت للسعادة بصلة:
- إتفرجي إنتِ .. أنا كده كده مش هشوف.
سمعها الجميع لينظر لها جاهين بشفقةٍ، أما وافي فقال وكأنه يواسيها:
- ولا أنا.. مش بحب الخيل.
قال جاهين:
- خلاص استنوا هنا، هوريها ونرجع على طول.. تعالي يا بسمة.
ربتت بسمة على كتف مها:
- هتكوني كويسة.
لا تعلم لما اغتالت وجنتيها حمرة الخجل وهي تجيبها بنعم، وكأنه تصريحٍ منها بأنها بأمانٍ مادام هو في الجوار.
لتبتعد بسمةَ مع جاهين بينما قال وافي:
- عايزة تقعدي لحد ما ييجوا.
هزت رأسها بلا، فصمت وكذلك هي، وإن كانت تتمنى أن تجد ماتقوله.
أما هو فلم يستطع أن يسكت أكثر فقال:
- هي أختك بتعاملك كده ليه؟!!
لم تفهم قصده:
- كده إزاي؟!!

- يعني.. زي ما عملت كده، دي مش معاملة كويسة من وجهة نظري.
- عادي.. دي نانا.. أنا اتعودت.
شعر بالضيق من ردها:
- يعني إيه اتعودتي.. ماينفعش تتعودي إن حد يعاملك كده.
لم تجد ما تجيبه به، هي تعلم أنه لن يعي ما يحدث ولا ما تفعله نانا، هي أختها هي وهو لن يفهم هذا.
لم يجد منها رد فشعر أنه ربما تعدى الحدود:
- آسف لو كنت ضايقتك مش قصدي.
هزت رأسها نفيًا، ليعود صوته لها:
- مش عارف بيحبوا إيه في الخيل؟!
ابتسمت برقة:
- أنتَ مش بتحبها ليه.. دي حيوانات جميلة أوي.. حتى الرسول مدحها بالخير.
- إحم.. هو مش كره.. في الحقيقة يعني وده سر وماتقولهوش لحد.. بخاف منهم.
لم تتمالك نفسها لتضحك وهي تعتذر فضحك معها:
- لا عادي.. بس لو كنتِ وقعتي من عليه زيي وإنتِ صغيرة واتكسرتي.. أكيد كنتِ هتخافي منهم.
إنتبه لبسمة المندفعة نحوهما بغضب وجاهين يتبعها وهو يرمقها بغيظ:
- أستر يا رب.
قالها وافي ولم تفهمها مها لتقترب بسمة قائلة:
- يالا.. نرجع بقى أنا جوعت.
لاحظت مها نبرتها المتضايقة فقالت:
- مالك؟!
انضم لهم جاهين فأشاحت بوجهها بعيدًا ليتسائل وافي:
- هو إيه اللي حصل؟!!
ردت بسمة:

- محصلش حاجه.
- لأ حصل... عايزاني أدخلها تركب خيل، قلتلها دي تبع نادي الفروسية مش لأي حد يركبها.. فتحتلي أسطوانة إيه أي حد دي هو أنا مش من أعضاء النادي دلوقتي.. قولتلها إحنا مش في نزلة السمان هنأجر الخيل ساعة ونرجعها.. حسستني إني شتمتها.
ابتسم وافي:
- خلاص يا ستي ما تزعليش.. تحبي تشتركي في دروس الفروسية.
- لأ.. أنا قلت مرة وخلاص.
قالتها بعصبية ليقول وافي:
- ماشي.. مانروح نزلة السمان دي مرة وتركبي هناك.. أنا عمري ما روحتها بس أسمع عنها.
أيد جاهين الفكرة لتلين بسمة أخيرًا:
- ماشي نروح الأسبوع الجاي.
- اتفقنا.
قالها جاهين ليضيف:
- طب يلا نرجع بقى علشان ناكل أنا جوعت.
تحركت بسمة باستعلاء ليهز جاهين رأسه تعجبًا بينما قالت مها بصوت خافت لوافي:
- إنتَ مش بتقول بتخاف منهم هتركبهم إزاي؟!
- لا أنا مش هركب.. أنا هستناكم الناحية التانية لحد ما تيجوا إنتوا.
قالها بلهجة أجبرتها على الضَحك مرة أخرى لينظر لهما جاهين بدهشة بينما يراقبها وافي بسعادة.
بالفعل أصبح رسم الضحكة على وجه تلك الفتاة من أسباب سعادته.

....

قلبت نانا هاتفها في انتظار اتصاله بعد أن أرسلت له رسالة، مرت عدة دقائق حتى وصل لها اتصال منه لتجيب بسرعة:

- أخيرًا.. كل ده.
- معلش يا قلبي كنت مشغول.. أخبارك إيه؟!
- الحمدلله.
- مش هنتقابل بقى.
- معلش بسمة رجعت البيت وبقت فاضيالي مش هتنزل الشغل ولازم ألاقي حجج كويسة علشان أخرج.
- امممممم.. يعني إيه مش هشوفك.. ليه النكد ده؟!!
اتسعت بسمتها بسعادة لتقول مواسية:
- معلش هحاول أشوف أي حجه وأشوفك.
- طيب وهي بسمة سابت الشغل ليه؟!
صمتت لحظات تبحث عن الكلمات المناسبة لتقول:
- يعني.. شوية مشاكل مع عمتها سميحة بس أكيد هتعدي يعني وكله هيرجع لطبيعته.
- امممم.. طب هو مش ممكن تعرفيني على بسمة.
اعتدلت وقد عقدت حاجبيها بضيق:
- ليه بقى إنْ شاء الله.
وقبل أن يمنحها ردًا قالت:
- إنسى... دي لو عرفت إني لسه بكلمك هتبقى ليلتي طين.. وماتفتكرش أبدًا إنها هتكون معاك ضد مصالح شركتها دي شركتها يا بني شركتهاااا.
لم يمنحها ردًا فابتسمت قائلة:
- أنا عارفه إنك بتدور على مصلحة شغلك، بس أوعى تكون فاكرني كوبري.. مش نانا يا شهاب... فكر كويس وإعرف أنا إيه بالظبط وبعدين كلمني سلام.
- استني بس.. إيه.. قطر.. طب اسمعيني الأول.. إنتِ شاطرة أهو وفهمتي إن همي الشغل بس مش لدرجة إني أضرك أو بسمة بالعكس أنا نفسي أشتغل معاهم بدل ما أفضل منافس ليهم بس جاهين أكتر واحد واقفلي في الموضوع ماعرفش ليه.. فلو قدرت أقنع بسمة هتكون فكرة حلوة وكلنا هنستفيد وساعتها

أقدر أدخل بيتكم كمان وأطلبك رسمي ومش هنخبي حاجه بينا تاني.. ولا إنتِ رأيك إيه؟!!

صمتت لحظات وقد تمكن من الدخول إلى خلايا عقلها بسهولة كعادته، لاح لبصرها قربهم إليها..

بسمة وأختها ووافي وجاهين.. لا تعلم لمَ شعرت أنها تُخطيء في حقهم جميعًا بما تفعل.

- طيب سلام دلوقتي أحسن جايين عليا.

أغلقت الهاتف ودسته في حقيبتها واعتدلت في انتظارهم.

....

ألقى هاتفه بضيق، تلك الفتاة تعطل خططه كثيرًا بعد أن تصور أنه اقترب، لكنه لا يريد خسارتها.. حتمًا سيكون لها فائدة في وقت من الأوقات.

زفر بضيق محدثًا خادمه المخلص:

- البنت دي مش عارف أطلع منها بأي مصلحة زهقتني.

- ماتسيبها يا باشا بدل ماهي شاغله وقتك على الفاضي.

- لأ.. مسيري أعرف استفيد منها.. إنتَ مش فاهم يعني إيه أكون على إتصال بحد من عيلة الشربيني دي فرصة لا يمكن أضيعها.

- طب وبعدين ماهي مش بتفيدك بحاجه.

- البنت دي مُعقدة بحس كده إنها بتدور على حاجه ضاعت منها في اللي حواليها.. وعقدتها دي هي اللي مخلياها معايا لحد دلوقتِ.. لكن بتحب أهلها جدًا ومش هتِئذيهم أبدًا.. وحجزاني معاها في خانه مش عارف أتحرك منها.

صمت خادمه قليلًا ليقول:

- بس مش هتحبهم أكتر من نفسها.

إلتفت له باهتمام:

- قصدك إيه؟!

- يعني لوعرفت تجيبها وتبقى بتاعتك بجد... ساعتها هتنفذ كل كلامك وتبقى زي الخاتم في صباعك.

- يوووه.. أفلام الأبيض وأسود دي بتزهقني... وإنتَ عارفني في الحاجات لا بحب العافية ولا الناس المدروخة.
- وماله.. نخليه بمزاجها نضرب ورقة عرفي ولو حكمت مأذون فشنك وكله يبقى بمزاجها وبعدها بقى تعرف إنه كله هوا ولو مانفذتش اللي إنت عايزُه تفضحها هي وأهلها.
صمت مفكرًا في خُطة خادمه الدنيئة وقد راقت له بعض الشيء، لكنه لا زال يشعر أن هذا ليس الوقت المناسب.
- لسه شوية.. لازم برضو أأمن نفسي علشان لو فكرت تديني بالأفا أديها أنا بالشلوت.
- وهتأمن نفسك إزاي يا باشا.
صمت مفكرًا قبل أن يميل برأسه جانبًا ليقول:
- هقولك.
....
جسدها ينتفض فعليًا، غضبًا... ضيقًا.
فما سمعته على الهاتف لم يريحها على الإطلاق.
"أيوة يا هانم.. كلهم قاعدين مع بعض وبعدين قاموا اتمشوا شوية ورجعوا تاني واتغدوا.... لأ يا هانم هو وافي بيه كان منسجم مع البنت العامية مش بسمة"
كادت تحطم هاتفها وهي تعتصره بقبضتها.
أكان ينقصها أمر كهذا؟!.
بعد أن كانت تفكر في طريقةٍ لإبعاد تلك الفتاة وأمها من هُنا، تجد نفسها مضطرة لتوجيه اهتمامها بتلك الضريرة.
مستحيل.. لن تتكرر نفس المأساة.
وافي لن يعيد الكَرَة كما فعل أبيه.
لن يخرج عن طوعها ويقبل بأن تكون تلك الفتاة قرينته بأي حال من الأحوال، هزت رأسها بعنف، هي تسبق الأحداث.

هو يشفق عليها فحسب... مجرد شفقة.
ولو شعرت بأن الأمر أكبر من ذلك فعليها أن تتصرف أسرع من السابق لن تسكت كما سكتت حال موقف أخيها الأصغر.
وافي سيتزوج بمن تستحقه كما تخطط وحلمت طويلًا، ولن تنجح فاطمة ومن معها بسرقة حلمها هذا كما سرقوه سابقه.
وصل لأذنها صوت ضحكاتهم حال عودتهم للمنزل شرعت باب غرفتها بفرجة صغيرة لتراقبهم دون انتباه منهم.
تقدمت نانا أولًا لتصعد السُلم سريعًا ومن خلفها بسمة ومها تسيران ببطء، دققت بصرها على وافي تتبع حيث ينظر لكنه كان يتحدث إلى جاهين باسمًا.
ليختفي الجمع في الأعلى.
أغلقت باب غرفتها لتستند عليه، على خطتها أن تكون أسرع.
فالأمور قد تخرج عن السيطرة.

....
تقلبت في فراشها وشعور بالإرهاق يجتاحها.
تدثرت استعدادً للنوم، وربما المرة الأولى التي تشعر فيها أنها بتلك الراحة، وكأن هناك ثقل كبير قد خف عن صدرها.
تلك الساعات التي قضتها بصحبةِ أخيها وابن عمها مع الفتيات أشعرها بأن لها عائلة بالفعل.. رجال يمكنها أن تعتمد عليهم، تسير في حمايتهم بل ويسعون إلى رسم البسمةِ على شفتيها.
استعادت تلك اللحظات التي مرت بها مع جاهين حين أخذها لرؤية الخيل.
بدى وكأنه يرغب في قول شيء إلى أن قال:
- هو أنا لو كررت الاعتذار هترزعي إيه في وشي المرة دي.
اكتفت هي بنظرة جانبية له وعادت تشاهد الخيل والمتدربين ليردف:
- يا ستي خلاص بقى آسفين.. وعمومًا أنا هكلم عمتي علشان ترجعي الشركة تاني.
- مفيش داعي.

قالتها بثباتٍ فشعرت بنظراته المندهشة:
- غريبة.. ده أنا قلت إنك عايزة ترجعي النهاردة قبل بكرة.
إلتفتت تنظر له:
- هرجع إن شاء الله بس في الوقت المناسب.. مش دلوقتي.
عقد حاجبيه متسائلًا:
- وإمتي بقى الوقت المناسب؟!.
اتسعت بسمتها وهي تعاود متابعة الخيل:
- أكيد هتعرف ساعتها.
خرجت من ذكراها القريبة على صوت رنين هاتفها الذي قلما يستقبل اتصالات. حدقت بشاشته واندهشت لرؤية اسم جاهين، لتتسائل عن سبب الإتصال.
- ألو..
- إزيك؟!!
عقدت حاجبيها بترقب:
- خير!!
- لا عادي.. مافيش حاجه.. أنا بس مافهمنتش إنتِ قبلتي الاعتذار ولا لأ.
- هو أنتَ خرجت؟!!.
- لأ في أوضتي.. بس أنا إيه اللي يضمنلي آجي أكلمك تقفلي الباب في وشي تاني.. وشي قرب يطبق بسببك.
كتمت ضحكتها بصعوبة لكنه سمعها ليقول:
- ياستي بتكتميها ليه هو أنا ما أستاهلش غير الشخط والنطر... وبما إنك قررتِ تبدأي صفحة جديدة مع وافي طب ما إحنا كمان ممكن نبدأ صفحة جديدة إيه رأيك؟!!
تذكرت كلمات نانا عن كونه حليف جيد مستقبلًا، وبرغم أنها كانت تنوي الاهتمام بالتقرب لأخيها فقط، لكنها لن تمانع أن تكتسب حليف آخر.
- أكيد طبعًا.. موافقة جدًا.
وصلت لها سعادته عبر نبرة صوته:

- وأخيرًا.. طب حلو.. ياله تصبحي على خير بقى.
- وإنتَ من أهله.
وضعت الهاتف جانبًا، وعقلها يحفز ويشجع..
كلما كثر عدد الحلفاء كلما كان النصر وشيكًا.
....
غادر محمد مكتب المحاسبة يحمل بعض الأوراق التي من المفترض توصيلها للخزينة، خطواته هادئة كعادته وشروده يسبح على ملامحه.
وصل إلى أقصى طاقات الفقد الآن، يعتقد أنه يمر بآخر مراحل الإدمان.
حين يكون الوجع في أعلى مراتبه ومن بعده يزول كل شيء وينتهي الأمر.
فإما الموت أو الحياة من جديد.
ولطالما ظن أن الحياةَ بدونها مستحيلة، لكن يبدو أنه ظنه هو فقط.
كم انتظر اتصال واحد منها، تخبره فيه أنها افتقدته.. أنها ترجو عودته.
برغم خوفِه من ذلك لأنه يخشى ضِعفه وحبه لها فيهرع إليها لكنه كان يتمناه كل ليلة بل كل دقيقة.
وكالعادة بل وكعادتها خذلته.
"محمد"
إلتفت إلى النداء ليُحدق بفتاةٍ رآها من قبل وتعرفها على الفور، ليبتسم لها:
- زينة.. صح؟!!
ابتسمت:
- أيوة.. إزيك؟!
- الحمدلله.. إنتِ بتعملي إيه هنا؟.
- جينا نسلم آخر أوراق علشان إنتوا اللي هتقدموا المناقصة.
أومأ برأسه متفهمًا، ليرحب بها في الشركة، أدارت بصرها في المكان:
- شركتكم صغيرة أوي.
عقد حاجبيه:
- نعمم.. قصدك إيه.. إنتِ هتتريقي على شركتنا بكرة تاكل وتكبر.

ضحكت على كلماته، فأردف:
- إنتِ إتثبتِ في الشغل؟.
- لا طبعًا.. لسه ماعدناش ٣ شهور.
- آه فعلًا.. بس قبضنا.. مش إنتِ قبضتي.
أومأت برأسها ليقول مازحًا:
- كان إحساس حلو أوي.. أنا اشتغلت كتير قبل كده بس المرة دي غير.. كنت عايز أتصور جنبهم.
اتسعت بسمتها ثانية لتقول:
- دمك خفيف على فكرة.
- الله يحفظك... إنتِ ليكِ عزومة عندي.. اتفضلي بقى علشان أسدد ديني.
- معلش مرة تانية.. أنا كنت خارجه ولما شوفتك قلت أسلم.. يالا سلام بقى المدير بتاعي زمانه وصل لبرة وأنا لسه هنا.
لم يستطع أن يوقفها فتركها تذهب مع وعد بالتعويض في وقت آخر.
....
خرج جاهين من مكتبه ليذهب إلى مكتب عمته بعد أن اتصلت به، فلفت نظره وقوف محمد مع تلك الفتاة، استمر حديثِهما لدقائق لم يسمع منه شيء ووضِحَ له أنه وديًا جدًا.
تصافحا ليفترقا بينما عاد محمد أدراجه فأوقفه بقوله:
- محمد.
إلتفت له مبتسمًا:
- باشمهندس جاهين.. إزي حضرتك؟!
- الحمدلله بخير.. مين دي؟!!
إلتفت حوله متسائلًا:
- مين؟!..
- البنت اللي كنت واقف معاها دلوقت.

- دي المحاسبة اللي شغالة في شركة الهيثم كنا اتقابلنا في شركتهم قبل كده ولما شافتني دلوقت سلمت عليا.
- آه.. بس الحديث شكله كان ودي أوي.
- مش فاهم.. حضرتك قصدك إيه؟!
هز كتفيه بلامبالاه فرمقه محمد للحظاتٍ وأراد التحرك لكن كلمات جاهين أوقفته مرة أخرى:
- أكيد اضايقت علشان بسمة سابت الشركة.
حدق فيه بذهول:
- بسمة سابت الشركة؟!!
قالها محمد باستنكار.
- أيوة.. هو إنتَ ماتعرفش.
هز رأسه نفيًا:
- أنا بقالي كتير ما كلمتش أبلة بطة.
ضاقت عيني جاهين:
- أبلة بطة.. إنتَ بس بتكلم أبلة بطة.
- لأ.. وبسمة كمان بس عادةً بكلم أبلة بطة.
بدى هذا منطقيًا أكثر، فزوجة عمه ملتزمة بعض الشيء في تربيتها وبالتأكيد مع علمها بحبه لابنتها ستُفضل أن تكون هي حلقة الوصل بينهما.
- وده بقى من قوانين أبلة بطة؟.
لم يفهم محمد قصده فهز رأسه، فأردف:
- متشغلش بالك.. اتفضل روح على شغلك.
حملت ملامحه بعض الاستغراب لكنه تركه ليذهب إلى وجهته.
ليس لديه تفسير للضيق الذي يشعر به من خاطر تلك العلاقة التي تربط محمد بابنة عمه، أهي غيرة على من هي من رحمه أم ماذا؟!!
هز رأسه بعدم فهم ليطرق باب مكتب عمته قبل أن يدخل، أشارت له من خلف مكتبها بالاقتراب والجلوس.

استقر أمامها لتطوي الأوراق التي تطالعها جانبًا.
- شركة الهيثم بعتت الأوراق.. روح أنتَ ووافي وسلموا المناقصة بنفسك.. وأكيد مش هقولك خد بالك.
علم أنها تتحدث عما حدث سابقًا:
- ماتقلقيش يا عمتي... مش كل يوم بنتسرق يعني.
مطت شفتيها لتقول:
- هنقول إيه؟!.. إنتَ اللي غلطان.. حملت واحدة ماتستهلش المسؤلية.
هب واقفًا:
- حضرتك جايباني علشان تتكلمي في الموضوع ده.
حدجته بنظرة قوية:
- لأ.. أقعد.
عاد للجلوس زافرًا فأراحت ظهرها على مقعدها الوثير.
- اسمعني كويس.
انتبه لها وشعر بأهمية ما ستقوله.
- المحامي كان قعد وفصل الأسهم والعقارات علشان يحدد ميراث بسمة وأمها، وأنا موضوع العقارات مايهمنيش أوي.. عادي هنتمنها ونديهم فلوس.. لكن اللي يهمني الأسهم.. أنا مش هسمحلها تدخل الشركة دي غصب عني بنسبة الأسهم بتاعتها وتقرفني وتخسرنا زي ما عملت أول ما حطيت رجلها هنا.
تجمدت ملامح جاهين للحظة متسائلًا:
- مش فاهم.. حضرتك قصدك إيه؟!!
مالت للامام قائلة بتأكيد مخيف:
- أسهم الشركة لا يمكن تروحلها لا هي ولا أمها.
ضم جاهين قبضته بقوة كاتمًا انفعالا يعلم أنه لن يروق لها:
- إنتِ بتقولي إيه يا عمتي؟!! إحنا لا يمكن هنعرف نتمن الأسهم ولا هيكون عندنا السيولة اللي تعوضهم.

- كفاية أوي فلوس العقارات اللي هياخدوها وماتنساش إن المحروسة واخده مليون جنيه.. يعني يحمدوا ربنا.
حرك رأسه يمينًا ويسارًا وشعور بالعجز عن إيجاد الكلمات المناسبة يسكته، لتردف:
- عايزاك تفهمها إن قبولها بكده كفاية أوي... ولو فكرت تعاند في موضوع الأسهم ده.. يبقى هي الخسرانه.
تعلق بصره بها للحظات ليقول:
- طب ونصيبهم هيروح فين بالظبط؟!!
هزت كتفيها بلا مبالاة:
- ولا حته.. زي ما هو.. هيفضل نصيب وافي زي ما كان.
استقام واقفًا يرمقها بصمتٍ، وبنظرة حملت برودة داخله قال:
- مأعتقدش وافي هيقبل.
أجابت بأريحية:
- سيب وافي عليا.. اتفضل أنتَ.. ولما تكلمها يبقى قولي قالتلك إيه؟!
استدار مبتعدًا وشعر بخطواته تحمل ثقل مشاعر كثيرة هاجمته بضراوة.
وصل لمكتبه بغصة حارقة تلهب حلقه بل وعقله.
بسمة محقة.. عمته لن تسمح لها بالاقتراب وربما هي بالفعل خلف كل ما حدث، وليس هذا فحسب هي تصر أن يبقى نصيب وافي أكبر من نصيبه.
تصر أن تمنحه ما يجعله صاحب القرار الأخير في يومٍ من الأيام.
تخطط وتدبر ليكون لوافي كل شيء ويبقى هو تابع له.
وهذا ما لن يسمح به أبدًا.
من حقه أن يسعى لمصلحته بطريقةٍ عادلة، لماذا عليه أن يقبل بهذا الظلم الذي سيقع عليه وعلى ابنة عمه لمجرد أن عمته ترغب بذلك.
وماذا لو لم يستطع وافي أن يمنعها من هذا.. ما النتيجة؟!!
زفر بغضب وهو يجلس خلف مكتبه وقد اصطكت أسنانه ببعض حتى ألمته، ضرب سطح مكتبه بقوة ينفث عن غضب يكاد ينفجر داخله:

- لا يا عمتي.. مش هسمحلك.. وهتشوفي.
دلف وافي في تلك اللحظة ليرى معالم الغضب الجامح على وجه جاهين فاقترب منه بقلق:
- في إيه.. مالك؟!
وربما المرة الأولى في حياته التي يرى وافي تلك النظرة توجه إليه من ابن عمه.
نظرة أصابته بقشعريرةٍ قصيرة تداركها وهو يقول بتوجس:
- في إيه يا جاهين بتبصلي كده ليه؟!!
لم يكن هذا الوقت المناسب للظهور أمامه، هكذا حدث نفسه ليهز رأسه بهدوء غريب:
- مفيش حاجه.
- مفيش حاجه إزاي؟!! أنتَ مضايق كده ليه؟!!
زم شفتيه ليقولها بعصبية واضحة:
- ماقلتلك مفيش حاجه.. سيبني في حالي يا وافي.. أُخرج لو سمحت.
حدق به وافي بدهشة تبدلت إلى ضيق:
- ماشي.. بس لما تهدى لينا كلام تاني.
غادره وتركه وحيدًا، ليتعلق بصره بالباب الذي غادره منذ لحظات، وتعالى داخله أنين مختلف، ربما وخزة ضمير بأنه يعاقب الآن الشخص الخطأ.
أطرق برأسه ليلوم حاله:
"إيه يا جاهين.. أنتَ عارف إنه مالوش ذنب"
هز رأسه بيأس:
"هتكرهيني فيه ليه يا عمتي.. حرام عليكِ"
أغلق عينيه في محاولة لاستعادة الهدوء والقدرة على التفكير السليم.
عليه أن يدحض تلك الخطة الدنيئة التي تُحيكها عمته لبسمة، والتي بالتبعية ستؤثر على موقفه هو.

لن يقبل بمزيدٍ من الظلم وسينال حقه كما يجب أن يكون وليس كما تريد سميحة.

....

مشاعر وليدة تنمو داخلها لا تعلم أحقًا هي أم وهم؟!.
أحاسيس جديدة عليها لم تتخيل يومًا أن تحياها، تتسلل إلى قلبها رويدًا رويدًا.
وكم تخشى من صِدقها!!
لأنها ببساطة مستحيلة.
بالطبع ستكون مستحيلة.
ما الذي يجذب انتباهه لفتاةٍ مثلها؟!
ضريرة.. فقيرة.. لم تُنهي حتى تعليمها.
لا تملك أي شيء يمكن جذبه ناحيتها، وما تلاقيه منه الآن مجرد شفقة لا أكثر، تثق في هذا تمامًا.
لكن شفقته هذه دفعت بقلبها نحوه وهذا لا يجوز، يجب أن تمنع نفسها عنه، تهرب منه، لا تريد أن تتألم أو تتعلق به أكثر ففي النهاية هي الخاسرة.
ليته كان معهم منذ البداية، ليته ظل مع أمه وأخته ومعها ليتربى مثلما تربوا ويعيش مثلما عاشوا، فقط حينها كانت ستأمل أن يبادلها نفس الشعور.
هزت رأسها بضيق.
عن أي شعورٍ تفكر؟!.. لا شيء بينهما، هي لم تحبه.. نعم لم تحبه.
تُرددها داخلها وكأنها تنكرها ولكن هيهات.
خفقان قلبها حال وصل عطره إلى حواسها يخبرها العكس.
تفكيرها الذي يهفو إليه كلما كانت وحيدة يُنذرها بغير ذلك.
تمنت لو لطمت خديها علها تفيق.
بسام مجرد حلم لا يمكن أن يتحقق وعليها أن تعي هذا.
ولهذا عليها تجنبه تمامًا، ليس لهذا الأمر سبيلٍ آخر، ستحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه قبل أن يتمكن من قلبها وعقلها أكثر وأكثر.

وتضرعت بقلبها قبل لسانها أن يحمي الله قلبها من ابتلاء لا تقوى على اجتيازه.
"مها"
نداء جاءها علمت صاحبته لتبتسم لها:
- أيوة يا بوسي.
- ماتيجي ننزل في الجنينة شوية أنا عارفه إننا بليل بس أنا مش جايلي نوم وأختك أهي راحت في سابع نومه تقوليش كانت بتهد جبال.
غلفها الصمت وهي تفكر في قرارها، خروجها من غرفتها حال وجوده أصبح غير مقبول.
- إيه يا مها.. يالا ولا إنتِ كمان عايزه تنامي.
هزت رأسها نفيًا:
- طب ماتقعدي معايا هنا لحد ما ننام.. مش الشباب تحت.
- ياستي دول في أُوضهم.. هو في حد في البيت ده بيخرج من أوضته إلا لسبب.. يالا نقعد على المُرجيحه اللي تحت دي شوية.
شابها ارتباك ملحوظ:
- مُرجيحة.. هو حد قالك حاجه عن المرجيحة.
بدت الدهشة في صوتها:
- لأ.. حد مين.. هو في حاجه حصلت.
نفت سريعًا وكأنها تحمي نفسها من تهمة:
- لا.. لا مفيش.
رمقتها بسمة بشكٍ لتمط شفتيها:
- طب يالا هتنزلي معايا ولا أنزل لوحدي.
استسلمت لإلحاحها في النهاية وانتهى بهما المقام متجاورتان على الأرجوحة.
وكأن بسمة أرادت صحبة حتى ولو صامتة فلم تتكلم في شيءٍ وكذلك مها.
وكل منهما تهيم فكرًا فيما يشغلها.
بسمة تشعر أنها الآن على الطريق الصحيح.

أخوها ليس سيء كما تتصور وليس من المنطقي معاقبته على ما لم يرتكبه، لو نجحت فعلًا في اكتسابه في صفها ستكون كل الخطوات القادمة أسهل بكثير.
إلتفتت تنظر لمها الهادئة كعادتها.
وعذرت أمها كثيرًا، فمن منهما لن تخافا على تلك الرقيقة.
وسميحة شيطانة بما يكفي لإيذاءها دون أن يطرف لها جفن.
مدت يدها لتمسك بكفِ مها بأناملها، لتربت عليه، استقرت ملامح الراحة على وجه مها وهي تدير رأسها نحوها لتقول بسمة:
- مها.. ممكن توعديني.
- أوعدك بإيه؟!
سألتها في دهشة، لتجيبها:
- إنك دايمًا تبقى قريبة مني.. ولو أي حد حاول يضايقك أو يإذيكي تقوليلي على طول.
صمتت وكأنها تعي كلماتها:
- ايه الكلام ده يا بوسي.. وأنا مين بس هيضايقني ولا هيأذيني.. أنا ماليش دعوة بحد.
أحاطت كتفيها بذراعها:
- عارفة يا حبيبتي.. وعلشان كده بخاف عليكِ أوي.
ربتت مها على كفها الذي على كتفها:
- ماتقلقيش يا بوسي.. طول مأنا معاكِ إنتِ وأبلة بطة ونانا أنا بخير.. ومش عايزَه حاجه تاني من الدنيا.
- صحيح يا مها.. ماتيجي نعرضك على دكاترة عيون تاني.. يمكن في أمل إنك تشوفي إحنا حتى مش عارفين إنتِ حالتك إيه بالظبط.
قالت برضا واضح:
- أنا خلاص اتعودت يا بوسي.. فبلاش تعلقيني بأمل ممكن يكسرني لو ضاع.
- ليه بس يا حبيبتي.. دايما إنتِ اللي بتقوينا وتكلمينا عن الإيمان بالقدرماينفعش تقولي كده.

- ماهو علشان مؤمنة بقدري خلاص اتعودت وقبلته.. وربنا يكفيكِ شر كسر الخاطر.
صمتت ولم تجد ما تقوله بينما بدى النوم يسطو على جفنيْ مها لتقول:
- أنا النوم حل عليا.. ماتيجي نطلع ننام.
- موافقة بس بشرط.. تنامي جنبي.. يمكن لما تنامي يحل عليا أنا كمان.
ضحكت موافقة لتعودا أدراجهما إلى غرفة بسمة.

....
ظل في شرفته حتى انضمت الفتاتان إلى الحديقة راقبهما بصمت وقد أخفاه ظلام الليل جيدًا، وإن تعلق بصره ببسمة.
داخله الكثير من الأفكار المتضاربة بعضها عاقل والكثير يقارب الجنون.
وماذا عليه أن يفعل؟!
عمته من أجبرته على التفكير بتلك الطريقة.
بسمة على حق وعليه أن يكون معها، يجب أن يُشكِلا جبهة مضادة لطموح عمته الأنانية فيما يخص وافي وكأن لا أهمية لأحد إلا هو.
ولكن كيف يفعل ذلك بطريقة طبيعية ولا تجعل عمته تعتبره يتخذها عدوًا، لا يزال يريد لتلك العائلة السلامة حتى النهاية.
عمته تحب وافي حد العمى، أحيانا يتصور أنها تعتبره عمه وليس ابنه، فيشفق عليها مما هي فيه، لكن طبيعته كبشر لا تقبل بهذا التمييز.
هو يكد ويتعب مثلهم جميعًا فلمَ يبقى هو كالسنيد، صاحب الدور الثانوي في حياة الجميع، لا يشعر أنه خُلق ليكون هكذا في الظل خلف أحدهم.
لديه من الإمكانيات التي تجعله قائد جيد لتلك العائلة، ويبدو أن عليه أن يثبت هذا للجميع.
عاد ينتبه للفتاتان اللتان تحركتا لتعودا للداخل.
ضاقت عيناه وقد تفتق ذهنه عن أكثر الأفكار جنونًا.
فاعتدل وكأنه يقلب الفكرة برأسه.
ولمَ لا؟!..

بهذه الطريقة سيمكنه أن يتحدث عن بسمة بقوة، يمكنه أن يجبر عمته على عدم الإساءةِ لها.
كما أن مصلحته لن تُضر وسيحافظ على ترابط تلك العائلة.
هز رأسه ضاحكًا:
- إنتَ اكيد اتجننت يا جاهين.
ليرد على نفسه:
- بالعكس.. ده عين العقل.
رددها بتأكيدٍ ليلتفت إلى طرقات على باب غرفته ليقول:
- معقولة تكون هي؟!!
وقبل أن يُجيب الطارق، شُرع الباب ليدلف وافي ويغلقه خلفه.
توقف جاهين مكانه وحاول أن يكون أكثر ودًا:
- أهلًا وافي.
رمقه وافي بغيظ:
- يا ريت تكون هديت.
اقترب منه يربت على كتفه:
- معلش يا وافي.. أنا فعلًا كنت مضايق جدًا.
- بس عمرك ما كلمتني كده.
نظر له بصمت، كم يتمنى أن يخبره بكل شكوكه، لكن الأمر ليس سهلًا.
هل سيفهمه وافي أم سيصدم بأن ابن عمه يغار منه ويريد التفوق عليه في العمل.
لن يفهم.. لن يفهم أبدًا.
- متزعلش.. إنتَ جيت في عز عصبيتي.
- هو إيه اللي حصل؟!!
- خلاص بقى يا وافي.. قولتلك كنت مضايق.
أطرق برأسه قليلًا ليقول:
- جاهين.. إنتَ عارف إنت بالنسبة لي إيه.. مش كده؟!

- أكيد.
ابتسم ليضيف:
- وده كفاية بالنسبة لي.. وماتبقاش تتعصب عليا تاني علشان أنا بتخض.
ضحك جاهين مجيبًا:
- ماشي يا سيدي.
- طيب كده بقى أعرف أدخل انام.
إلتفت ليغادر لكن جاهين أوقفه بالنداء عليه ليلتفت له منتظرًا كلماته.
طالت نظرات جاهين الصامتة له، سيكون عليه أن يتخذ خطواته دون أن يجبر وافي على مواجهة سميحة، هو يعلم أنه يعتبرها أمه، ولن يقبل أي اتهام لها، بل لو صدقت تلك الإتهامات لتعرض وافي لصدمة شديدة قد تؤذيه كثيرًا، وحتى إذا عرف لن يستطيع أن يفعل شيئًا، في النهاية ستقوم عمته بما تريد.
ليس أمامه إلا هذا الحل الذي وصل له، مهما كانت العقبات في سبيل تحقيقه، لكن نتائجه ستكون مثمرة بكل تأكيد.
اقترب منه وافي:
- إيه.. مالك.. كنت كويس؟!!
تنفس بعمق وكأنه ينال بعضًا من الشجاعة:
- وافي أنا عايز أقولك حاجه.. بس ماتستغربش أوي أنا فكرت فيها كتير.
- خير!!
- أنا.. أنا بفكر...
لمَ تهرب الحروف عن لسانه؟!.
- في إيه يا جاهين قلقتني؟!
مط شفتيه وقرر أن يقولها دفعة واحدة كي لا تخونه الأحرف:
- وافي أنا بفكر أتجوز بسمة.

الفصل الثامن والعشرون

يا باب أيا مقفول... إمتى الدخول
صبرت ياما واللي يصبر ينول
دقيت سنين .. والرد يرجع لي: مين؟
لوكنت عارف مين أنا.. كنت أقول
عجبي!!
رباعيات جاهين

المصلحة.
تلك الكلمة التي قامت بها حروب وانقطعت بها علاقات ووصلت أخرى.
ذلك المبدأ الذي رُغم أنانيته يحمل الكثير من الواقع.
ذلك الفعل الذي يحمي نفسه بكلمات مثل:
"أنتَ حُر مالم تضر"
وهو لن يضر، من حقه أن يبحث عن مصلحته.
فما الضرر من زواجٍ بداعي المصلحة، هو وهي سيكونان قوة ضاربة بالفعل تفوق سميحة ووافي نفسه.
إذا إتفق معها ستكون الكلمة النهائية لهما، ولن يقلق من أي محاولات لتقليل دوره من عمته بعد الآن.
هذا هو التصرف الصحيح بلا جدال.
وماذا عن الحب؟!
عاش مراهقته وبداية شبابه مؤمن بأن زواجه سيكون عن حب، ربما تعجل في هذا النوع من الإيمان.
بسمة شخصية عنيدة وليست هينة لا يعلم إن كان سيملك قلبها أم ستملك هي قلبه.

لم يعد لذلك أهمية الأن.. فمصلحة مستقبله أبدى.

ظل يراقب وافي وهو يحدق به بالكثير من الذهول وعدم التصديق قبل أن يفتح شفتيه أخيرًا:
- أنت قلت إيه؟!!
أمسك به ليجلسه أمامه على فراشه:
- اللي سمعته يا وافي... أنا ماصدقت قلتها.. لسه هعيد.
أشار له ليردد:
- أنتَ.. أنت عايز تتجوز بسمة.. إزاي.. وإمتي.. وفين؟!!
- إزاي؟! زي الناس.. إمتى وفين؟! الله أعلم.
- يا ابني مش قصدي.. يعني.. ده أنتَ كنت متخانق معها من يومين.. ده ... أنا.. لا بجد إزاي يعني؟!
- ماتهدى يا عم في إيه؟!!
- أنتَ بتتكلم جد؟!!
- ياربي.. هو في جواز بهزار يا وافي ولا أنا مش أد المقام.
قال كملته الأخيرة بطريقة ساخرة ليهز وافي رأسه بشك.
- اسمع يا وافي... الفكرة في دماغي وأنا مقتنع بيها.. بس حاسس إن هي مش هتوافق وعلشان كده عايزك تساعدني.
ضحك وافي بعصبية:
- مش هتوافق؟!!.. ماطبعًا مش هتوافق انت بتهزر.
- هو أنا بقولك علشان تعقدني.. ثم أنا يعني مش هروح بكرة أقولها اتجوزيني يا بسمة.. لأ.. برضو لازم شوية مقدمات علشان تتقبله مش تتنح كده زيك.
عقد وافي حاجبيه:
- مقدمات إزاي يعني؟!!
وقف ليدور في غرفته ووافي يراقبه بحاجبٍ مرفوع ليلتفت له مشيرًا بسبابته:

- أولًا معاملتي معاها لازم تتغير.. وربنا يصبرني بقى على استفزازها ليا لازم أفوت وأضحك ضحكة عريضة.
ضحك وافي على كلماته ليردف:
- ثانيًا عايزك بقى تملى دماغها بيا.. يعني الكلام اللي يحسسها إني الرجل المناسب في الوقت المناسب.. من الآخر عايزك تظبطني.
لو وافي شفتيه اعتراضًا:
- نعم يا خويا.
أكمل جاهين وكأنه لم يستمع له:
- ثالثًا ودي أهم حاجه لازم أتاكد من إنها مش مشغولة بحد.
وقف وافي قائلًا:
- حد؟!.. حد مين؟!
- مش عارف.. أنا شاكك ولازم أتأكد يمكن أكون فاهم غلط.
- أنتَ بتقول إيه.. اللي بيرتبط بحد ده عادةً بيبان عليه.. هي ولا بتخرج لوحدها ولا بشوفها ماسكة التليفون وبترغي فيه مع حد.. مش دي برضو علامات.
هز كتفيه:
- مش شرط يعني.. بس لازم اتأكد.
- أنا مش مقتنع أوي باللي قلته.. بس عمومًا أنا أكيد أول واحد هيفرح لو اتجوزت أختي... ده في حاله واحدة بس إنها توافق وماتفتكرش أبدًا إني ممكن أضغط عليها.
- ماشي يا عم مُتشكرين على ولا حاجه... المهم اللي قلتهولك ده مفيش أي حد هيعرفه فاهمني طبعًا.. وتصبح على خير بقى.
قالها وهو يدفعه خارج الغرفة ليقول وافي مازحًا:
- لا بقولك إيه.. تعاملني كويس بدل ما أقلبها عليك وأنتَ خسراااان.
توقف جاهين عن دفعه فالتفت له وافي ولازال وجهه يضحك لكنه أزالها مع نظرة جاهين الغريبة التي ينالها منه ليقول:

- إيه يا ابني.. أنتَ مالك بتقلب كده؟.
اركن على ثغرة بسمة ثقة:
- ماتقلقش عليا يا وافي.. أنا قررت إني مش هخسر.. مش هخسر أبدًا.
رمقه بشك ليقول:
- طب قول إن شاء الله.
- إن شاء الله.. تصبح على خير.
رد له التحية ليغادر الغرفة التي أغلقها جاهين خلفه ليحدق بالباب لبرهة دون فهم، هناك شيئًا ما أصاب ابن عمه ولا يعرف ماهيته.
دخل لغرفته وإتجه للشرفة، يفكر في ماقاله جاهين ولا يصدقه حتى الأن.
- جاهين وبسمة... جاهين وبسمة!!.
كان يرددها وكأنه يستسيغ قولها على أذنه، ليبتسم وهو يهز رأسه بالنفي، ينفي أمرًا لم يتوقعه لكنه ليس بسيء.
بل على العكس، ربما هي فكرة جيدة قد تساعد على ترابط تلك العائلة.
كما أنه لن يُحرم من أخته مرة أخرى؛ لو تزوجت جاهين ستبقى في هذا المنزل معه، هو لم يجد الوقت ليعرفها بعد يشعر أنه يحتاج للكثير من الزمن لتعويض.
....
سيستسلم، يشعر أنه يومًا سيكف عن الإنتظار، هو حتى لا يعرف ما الذي ينتظره.
هي التي تعرف مكانه، هي التي قطعت الاتصال عمدًا.. هي السبب في كل ما يعانيه الآن.
فلمَ يتصور أنها فجأة ستقرر الاقتراب منه؟!
لكنه لا يستطيع أن يتناسى الأمر حتى لو حاول، يريد أن يسألها عن الكثير، يبحث عن إجابات لأسئلةٍ أرقته لليالٍ طوال.
مازال يحلم باللحظة التي سيراها فيها، ربما سيصاب بالجنون أو بالذهول.
لا يمكنه تخمين ردت فعله.
هو فقط يتمنى أن يراها.. ولو مرة.

دقات على سطح مكتبه نبهته لأخيه الذي يقف أمامه، رفع بصره له:
- كلمتك ولا أنتَ هنا مشغول في إيه؟!
- نعم.. عايز إيه؟!
كتف سامر ذراعيه ولم يعجبه طريقته في الحديث لكنه تجاهل هذا قائلًا:
- الأسبوع الجاي عايزك تروح مع جاهين ووافي تقدم المناقصة معاهم.
- ليه.. رحلة.. إيه الزحمة دي؟!
- دي مناقصة مهمة جدًا.
- ومن إمتى بنروح مش المحاسبين اللي بيعملوها.
- مش معقولة المدير التنفيذي وشريكه يروحوا بنفسهم وأنا أبعتلهم محاسب.. ثم أنت وراك إيه.. قاعد سرحان وخلاص.
زفر بضيق ولم يعلق وقبل أن يلتفت سامر ليغادر مكتبه انفتح الباب بعنف لتظهر سما بوجهٍ اكفهر غضبًا لتغلق الباب خلفها صائحة:
- إيه اللي أنتَ هببته مع نرمين ده إزاي تسيبها تمشي بالطريقة دي.. أعرف إنها رجعت أمريكا من مامتها.
تحرك سامر للمغادرة لكنها أوقفته بصياحها:
- استنى عندك أنتَ كمان... ماقلتليش ليه إنها مشيت.
هز سامر كتفيه بلامبالاة:
- مش مشكلتي إنك ماتعرفيش الناس اللي عايشين معاكي بيروحوا فين.
- سامر بلاش استفزاز.
لازالت نبرتها صارخة وهي تعود بحديثها لمعاذ:
- اسمع يا ولد أنتَ... أي كلام تاني في الموضوع ده مش هسمح بيه.. أنتَ تحجز من بكرة وتروح أمريكا وترجعها هنا وتتفق مع أبوها إن خطوبتكم هتكون في أول زيارة ليهم لمصر... فاهم ولا أعيد تاني.
وقف معاذ ليحدق بها بغير تصديق:
- إيه اللي بتقوليه ده يا ماما.. أنا مش هتجوز نرمين ياريت ماتتكلمش فعلًا في الموضوع ده تاني.

- أنتَ هتجنني زي أخوك.. عملت إيه في حياتي علشان يكون عندي عقول زيكم.. اسمعني أنتَ.. بلاش تشوف الوش التاني بتاعي يا معاذ.. بكرة تقولي حجزت وتروح تراجعها وتعمل اللي قلتلك عليه.. وإلا...
تركتهما خارجه كدخولها العاصف، ليعود معاذ جالسًا باحباط:
- مش هعرف... مش عايز أعمل اللي بتقوله ده.. أنا مش هتجوز نرمين ماترحموني بقى.
اقترب سامر ليستند بكفيه على مكتبه:
- معاذ... مش هيعجبك الوش التاني لسما هانم أبدًا.. أنا شايف إن نرمين بتحبك بجد... ماتديها فرصة هتخسر إيه؟!!
وقف ليردد بعصبية وهو يدور حول مكتبه:
- لأني مابحبهاااش... أنا بحب بسمة ويوم ما أتجوز نرمين وأنا بحب غيرها يبقى بعاقبها بعذبها معايا.. ليه أعمل كده؟!!
أنهى جملته ليتجه للباب مضيفًا:
- قول لماما أنا مستعد لأي عقاب هي عايزاه.. لكن جواز من نرمين مش هيحصل أبدًا حتى لو بسمة ماظهرتش.
غادر المكتب ليترك أخاه وحيدًا.
زفر سامر وهو يستند بجسده على طرف المكتب وقد كتف ذراعيه، وشعور غير مريح يتسرب داخله، قد ذاق من ذلك الوجه الآخر الذي تحدثت عنه أمه ولكنها أبعدت عنه محبوبته فكيف تنوي التصرف مع معاذ؟!!
أي عقاب ستوجه له لينفذ طلبها.
يعلم كم هي عنيدة وقاسية إلى أقصى حد، لن يعنيها ألم ابنها الصغير إذا كان الطريق بهذا الألم سيصل بها إلى هدفها.
ولكنها لا تعلم أنه ربما لن يحتمل هذا الوجه الآخر... بالتأكيد لن يحتمله.

....
كيف يمكن التأكد من خلو قلب أحدهم؟!.
تلك المشاعر التي لا نستطيع قراءَتها إلا إذا نطق بها صاحبها.

"مش هكون غير ليك!!"
تلك الكلمات التي وصلت لأذنيه وإن كانت مبهمة لكنها واضحة المعنى.
محمد.. هل أصبح هذا الشاب هو غريمه الخفي؟!.
وهل يقبل جاهين بمثل تلك المنافسة؟!
ليس من طبعه أن يقاتل على فتاةٍ، لم يفعلها قبلًا... لا من أجل الحب ولا من أجل غيره.
فكيف عليه التصرف الآن؟!!.
الفكرة في الأصل مجنونة... فليُكمل التصرف بجنون!!

طرق بابها لتسمح له بالدخول، اقترب ليجلس على طرف فراشها ليقول باسمًا:
- هو حضرتك مابتطلعيش من أوضتك أبدًا.
تهلل وجهها لرؤيته:
- عامل إيه يا ابني؟!
- الحمدلله بخير.. ولو مكنتش آجي أخبط عليكِ مابشوفكيش.
منحته بسمة حنونة:
- فيك الخير.
اعتدل متربعًا على الفراش قائلًا:
- قوليلي يا أبلة بطة.. ماحكتليش خالص كنتوا عايشين إزاي زمان؟!
تجمد وجهها للحظة لم تُخفَى عليه قبل أن تردد:
- زمان؟!.. مش فاهمة.
- مش فاهمة إيه يا أبلة بطة... قبل ما نعرفكم يعني وتيجوا هنا كنتوا عايشين إزاي؟!
هربت بنظرها بعيدًا:
- زي الناس يا ابني.. أهو كنت بشتغل على أدي كده وعايشين على أد حالنا.
عقد حاجبيه لشعوره بترددها وتهربها من النظر إليه:
- يظهر سألت سؤال مش حلو.

- لا يا ابني.. أبدًا.
اكتفت بتلك الكلمات، مما أصابه بالإحباط أيسأل عما أراد أن يسأل عنه أم يصمت؟!.
لكنه لم يأتي إلى هنا ليصمت لا يملك الدهر كله، عمته ستسعى لتحقيق أغراضها قريبًا وعلى خطواته أن تكون أسرع.
- أبلة بطة.. طب محمد ده علاقته إيه بيكم بالظبط؟!
- ماقلتلك قبل كده يا ابني.. ده بقى واحد مننا وكان راجل معانا دايمًا... والله واحشني بقالي كتير مشفتوش... هو مش شغال في شركتكم إبقى قوله إني نفسي أشوفه.
أومأ برأسه:
- ماشي بس هو بطل يجي هنا ليه؟.. أقصد يعني أنا كنت حاسس إنه نسيبكم مش بس واحد منكم.
حمل وجهها حزنًا:
- نسيبنا... آه والله يا بني المفروض كان يبقى نسيبنا.
شعور غير مريح تصاعد داخله في لحظاتٍ وهو يحدق بها وكأنه كان يتمنى أن تنفي كلماته باستنكار، لا أن تؤكدها بذلك الحزن.
ولكن مهلًا لمَ الحزن؟!
مال ناحيتها:
- المفروض.. قصدك إيه... بسمة مش موافقة.
- بالعكس بسمة موافقة جدا نانا اللي موقفة الدنيا.
ارتد رأسه للوراء بدهشة حقيقية:
- نانا.. وهي مالها مادام بسمة موافقة.
- يا ابني أنتَ فهمت إيه.. آه صحيح وأنتَ تعرف منين.. محمد بيحب نانا ونفسه يتجوزها وهي اللي مش راضية وأنا وبوسي ومها ياما أتحايلنا عليها ومافيش فايدة.
استرخت عضلات وجهه تدريجيًا لتحتلها فرحة لم يستطع إخفاءها مرددًا:

- محمد بيحب نانا مش بسمة!!.
- بوسي زي أخته يا ابني.. ربنا يهديكِ يا نانا وتعقلي بقى.. والله ما هتلاقي راجل زيه.
تحولت ابتسامته إلى ضحكة مرحة وهو يضرب جبهته بكفه بينما تطالعه فاطمة بعدم فهم:
- في إيه يا جاهين.. إيه اللي بيضحك؟!!
أحاط وجهها بكفيه ليقبل رأسها:
- بحبك أبلة بطة.
شاركته الضحك بدهشة:
- وأنا كمان يا ابني.
قفز من فراشها مُغادرًا الغرفة ولازالت الدهشة تغمرها.
دخل غرفته وألقى بنفسه على الفراش صائحًا بانتصارٍ ضاحك، كم كان أحمق بتخمينه السخيف، بالتأكيد أساء الفهم ووصلت له الكلمات الخطأ.
بسمة ليست مشغولة بأحد وهذا يقربه من مبغاه كثيرًا.
خفف ضحكته وهو يعقد حاجبيه:
- هو أنا فرحان أوي كده ليه؟!
مشاعر الفرح داخله أدهشته حقًا، ولم يجد تفسير لها سوى أن خُطته ستنجح وهذا سبب سعادته البالغة... لا يوجد أي سبب أخر على حد علمه.
لتعود ابتسامته تزين وجهه:
- بسمة هتكون مراتي.. أوعدك يا عمتي إنها هتكون مراتي.

....
جاءت العطلة لتستعد بسمة والبقية للخروج في النزهة التي تم التخطيط لها مسبقًا.
والتي رفضت نانا أن تكون جزءًا منها وتحججت بعدة حجج لم تقتنع بها بسمة لكنها في النهاية تركتها وشأنها.

وعندما أرادت مها أن تبقى مع أختها اعترضت نانا قبل بسمة وطلبت منها أن تغادر.
وكذلك بسمة لم تُرد أن تقضي الوقت وحدها بدون صحبة أي من الفتيات، فاقتنعت مها أخيرًا لتصاحب بسمة ووافي وجاهين في سيارة الأخير إلى وجهتهم نزلة السمان.
هذه المنطقة الواقعة بحي الهرم والقريبة من موقع الأهرامات وأبو الهول، والتي تعتمد بشكل كبير على السياحة وزيارات المصريين المحبيين للخيل.
فتبدأ الرحلة بركوب الخيل من داخل المنطقة وفي شوارعها حتى الوصول إلى منطقة الاهرامات.
أصر جاهين على استئجار فرس قوي يمكنه العدو فهو ماهر في ركوب الخيل بينما لم تهتم بسمة بنوع الفرس وتركت السائس يختار لها، ووافي قرر أنه لن يركب فهو ليس من محبي امتطاء الخيول.
لم يخفَ عليه الضحكة التى علت وجه مها وهو يقول:
- لا أنا مش هركب.. أنا همشي معاكم مش إنتوا هتاخدوها بالراحة.
ليعلق السائس:
- المسافة طويلة يا بيه هتمشي كل ده.
قال جاهين:
- هاتله حصاان هادي خالص لا بيهش ولا بينش.
- عندي يا بيه.
- خلاص بقى يا وافي اركبه وخلاص.
تبًا... لا يريد أن يبدو جبانًا أكثر من ذلك، انتبه إلى عربات مزركشه يجرها الخيل فأشار إليها:
- طب ما نركب دي أحسن.
مط جاهين شفتيه:
- إحنا جايين هنا علشان نركب حنطور.
رفعت مها كفها:

- أنا موافقة.. أنا برضو مش هعرف أركب حصان.
فكر جاهين للحظات:
- خلاص اركب إنتَ ومها في الحنطور وأنا وبسمة هنبقى قدامكم على الخيل.
أرادت مها الاعتراض لكن وافي سبقها:
- تمام.. موافق جدًا.
تم تنفيذ اقتراحه وساعدت بسمة مها في الجلوس في العربة ليجاورها وافي محافظًا على مسافة بينهما بعد أن شعر بتوترها بينما امتطت بسمة فرسًا وجاهين آخر ليسبقا عربة وافي ومها بمسافة قريبة وبدأت الرحلة.
سيطر التوتر على مها بوضوح مع استمرار الصمت بينهما لكنها شعرت بنظرات وافي لها أو هكذا ظنت.
فركت أصابعها مرارًا وتكرارًا... وبداخها تلوم حالها.
فما أسوأ أن ترغب في تجنب شخص وتشتاق لسماعه في نفس الوقت، وكم النفس ضعيفة فيما تشتهيه.
والنفس حقًا تشتهي سماع صوته والقلب يريد قربه، والضمير يقف بين هذا وذاك محذرًا.
- مها.
هل انتفضت فعليًا حال ذكره لاسمها أم هو لم ينتبه.
- مالك... متوترة كده ليه؟!.. حاسك مش مرتاحة.
لقد غيرت رأيها، من الأفضل أن يصمت، كل كلمة يقولها لا تسقط في أذنيها بل في قلبها، وهذا خطر!!.
زاد توترها وفركها لأصابعها حتى ابيضت .
- إنتِ قلقانه مني؟!
أجابته سريعًا:
- لأ.. طبعًا لا.
لمَ هذا الظن؟!... بالتأكيد توترها الأحمق هذا هو السبب، اهدئي مها.

رددتها في نفسها علها تهدأ، كم هي فكرة غبية أن تصاحبه وحدها، لمَ لم تبقى في المنزل كان هذا أفضل بالتأكيد؟.
يرمقها بنظراته الصامته من حينٍ لآخر، حركة كفيها العصبية يشعره بتوترها البالغ ولا يجد له تفسير، هي لا زالت لا تثق به.
لا تكون على تلك الحالة إذا جاورتها بسمة أو أختها.
- إنتِ بتخافي من الناس يا مها.
صمتت برهة وتمنت أن تجيبه وتخبره بما دومًا كان سبب فزعها ولكنها لا تستطيع.
- أنا.. أنا بس اتعودت دايمًا أكون مع نانا وبسمة وأبلة بطة وبقلق لما يكونوا بعيد عني، هما بالنسبة لي مش بس أهلي دول عيني اللي بشوف بيها اللي ماقدرش أشوفه من غيرهم.
كلمات على طرف لسانه تراجعَ عنها، ليس من حقه أن يطلب منها ذلك.
أن يكون عينيها أيضًا.. ليس له أن يفعل.
- مها.. ممكن سؤال شخصي شوية؟!
ابتلعت ريقها بصعوبة وهي تفعل الأفاعيل لتحافظ على هدوء توترها:
- اتفضل.
أجابها صمته للحظات حتى ظنت أنه غير رأيه لكنه أخيرًا قال:
- هو إنتِ مولودة كفيفة؟!
علامات الحزن التي استقرت على ملامحها أجبرته على جز أسنانه ندمًا، سؤال غير لائق لكن فضوله أجبره عليه، ليته صمت وسأل بسمة في أي وقت آخر...
- أنا أسف.. إنسي...
قاطعته بقولها:
- لأ.. كنت بشوف وبعدين عيني تعبت بمرض مش فاكراه وكل يوم كان نظري بيضعف لحد ما في يوم فتحت عيني لاقيت إني مش شايفة أي حاجه... وفضلت مش شايفة.
تحمس لردها ليقول:

- مش فاكرة اسم المرض ده إيه؟!
هزت رأسها نفيًا:
- لأ.. كل اللي فاكراه إنه كان في القرنية.
تلك الفكرة تسيطر على عقلِه كثيرًا فلمَ لا يتحدث إلى بسمة لتحقيقها، عاش عمرًا طويلًا مريضًا ولم يتصور أن يبدأ حياته كشخص طبيعي يومًا.
والله شاء له النجاة، فماذا لو استطاع أن يكون سببًا لشفاء تلك الفتاة، واستعادة بصرها.
أشرق وجهه عن بسمةِ سعادة وهو يتخيل حدوث ذلك فعلًا، وأول خاطر وصل لعقله
هل ستظنه وسيمًا حين تراه؟!
- أنا خلاص اتعودت على حياتي دي... نسيت أيام ما كنت بشوف.
إلتفت لها وقد انحسرت السعادة عن وجهه مع رؤيته للحزن الذي ملأ ملامحها بل وحتى صوتها، تمنى أن يربت على كفها يواسيها، يخبرها أنه على استعدادٍ للذهاب إلى أفضل الأطباء.
لكنه لا يستطيع منحها أملًا في أمر لا يعلم نسبة نجاحه من عدمه.
الأمر ليس سهلًا وعليه التخطيط له جيدًا.
....
شعرت بسرورٍ كبير وهي تمتطي ذلك الفرس، الشعور بقوة عضلاته وهو يتحرك بهدوء، رأسه المرفوع، جلده الناعم بشعيراتِه القصيرة حقًا حيوان يستحق حسن المعاملة.
كانت تربت على عنقه تارة وتتداعب خصلاته تارة أخرى.
بينما يسير جاهين بجوارها صامتًا.
استمر صمتِهما لفترةٍ قبل أن يمل جاهين فيقول:
- ساكته كده ليه.. ماتقولي أي حاجه؟!
نظرت له بدهشة:
- أفندم!

- مش دايماً يقولوا البنات رغايين.. فين ده اللي ما قلتي كلمتين على بعض.
لوت شفتيها مرددة:
- حد كان قالك إني الراديو بتاعك.
فتح شفتيه لكنه تراجع عما كان ينوي قوله، مذكرًا نفسه ..عليه أن يكون هادئًا ولا يثير غيظها.
"امسك نفسك يا جاهين... صبرني يا رب"
- يا ستي ماأقصدش.. أهو نتكلم في أي حاجه بدل ماإحنا ساكتين كده... دا إنتِ حتى ماقلتيش أي حاجه عن لبسي النهاردة.
رفعت حاجبيها بدهشة:
- هو أنا من إمتى بعلق على لبسك.. ماتلبس اللي تلبسه.
ضغط على أسنانه متحكمًا في نفسه.
لقد قضى الليل يفكر في الهيئة التي سيخرج بها معها، واختار ملابس رياضية بماركة تجارية شهيرة.
فلطالما كانت تلك الهيئة تلفت نظر الفتيات له، خاصة أنها لم تراها إلا بالملابس الرسمية عادة.
لكن نظرتها السريعة له وعدم انتباهها لما يرتديه أصابه بالإحباط البالغ، وأشعره أن الطريق لتلك الفتاة ليس سهلًا أبدًا.
وصلوا أخيرًا إلى المنطقةِ الرملية ليمسك جاهين بلجامِ فرسه قائلًا بحماس:
- أخيرًا هنطلق.
ليلتفت لها قائلًا:
- أنا هجري خليكِ قريبة من وافي.
وكز فرسه بقوة لينطلق من فوره كأنه أيضًا كان في انتظار تلك اللحظة.
فبدى وكأنه يأكل الأرض بحافريه.
لم تمنع بسمة نفسها الابتسام لإنطلاقته، لكن بسمتها تحولت لصرخةٍ مفاجئة حين انطلق فرسها خلف فرس جاهين وكأنه قرر أن يدخل في سباق مع رفيقه

غير عابيء بتلك التي تصرخ على صِهوته بفزعٍ وقد مالت بجزعها لتتعلق برقبة الفرس بقوة.
انتفض وافي على صرخة أخته، ليقف وقد انتبه لما يحدث فصاح بالسائس الذي يقود العربة:
- إجري وراها بسرعة.
- ماينفعش يا بيه العربية مش هتعرف تجري على الرمل.

احساس الحرية رائع بكل تأكيد وهذا هو شعوره في الوهلة الأولى للإنطلاق بالفرس، يتمنى الحرية من كل شيء... قيود عمته وخوفه على مستقبله.
وقبل أن يسرح في المزيد وصل له صراخ من خلفه، إلتفت سريًعا ليُفاجأ بفرس بسمة يلاحقه بينما هي في وضع مزري تقاوم السقوط باستماته.
جذب لجام فرسه بقوة ليقلل من سرعته ويحاول أن يستدير ليعطل فرس بسمة. ونجح في ذلك، وتصور أن فرس بسمة سيوقف نفسه لأن الأخر توقف لكن هذا لم يحدث كان يندفع نحوهما بنفس القوة لتتسع عينيْ جاهين بفزعٍ بالغ فالاصطدام سيحدث لا محالة.
وكاد أن يحدث لولا أن فرس بسمة ضرب بقدميه الخلفيتين الأرض بقوة ورفع قوائمه عاليًا ليتفادى ذلك الاصطدام، بينما جاهين يراقب ما يحدث بقلبٍ وَجل وقد شعر أن حجم الفرس تضاعف أمامه وهو يلوح بقوائمه في الهواء، وكأنه سيضربه بها فتراجع فرس جاهين بتلقائية حاميًا نفسه.
لينزل الأول على قوائمه بعد أن تخلص من حمولته وعاد يهرول تاركًا بسمة وقد ارتمت أرضًا بعنف.
للحظة ثبت كل شيء قبل أن يعاود جاهين التركيز وينتبه لها فقفز عن فرسه ليعدو إليها مناديًا باسمها.

وعلى الجانب الآخر أراد وافي مغادرة العربة فصاحت مها:
- في إيه؟!

- خليكِ هنا.
- لأ... ماتسبنيش.
إلتفت لها وشعر بخوفها البالغ مد يده يجذبها لينزلها عن العربة ويخطو معها سريًعا إلى مكان سقوط أخته.
التي أحاط جاهين كتفها بذراعه ليرفع رأسها عن الأرض وقد بدت ما بين الوعي وعدمه، وهي تهز رأسها يمينًا ويسارًا:
- بسمة... بسمة.. سمعاني.
كانت تسمع صوته بالفعل لكن الدوار العنيف الذي أصاب رأسها لم يمنحها القدرة على الرد، ليصل لها وافي ويجلس أرضًا على ركبتيه:
- بسمة... إنتِ كويسة... بسمة.
حاولت أن توميء برأسها لتطمئنهم، فساعدها وافي على الاعتدال جالسه لتمسك رأسها بوهن.
- في حاجه بتوجعك؟!
سألها وافي باهتمام، هزت رأسها بالنفي هامسة:
- عايزة أروَح.
استندت على أخيها لتقف على ساقيها وقد استعادت توازنها أخيرًا.
- قادرة تمشي.
قالها جاهين فرفعت عينيها إليه وبدى من نظرتها الغضب والضيق منه، لتقول:
- خلينا نروح يا بسام.
- حاضر هنمشي.
اعتمدت عليه في سيرها وهي تمد يدها لتمسك بذراع مها:
- يالا يا مها.
ساروا مبتعدين يتابعهم جاهين ببصره قبل أن يركل الرمال متمتمًا:
- أعرف منين أنا إن الحصان بتاعها هيجري مع بتاعي.
....
فتح عينيه بصعوبة مع دفعاتٍ متتالية لكتفه ليدير رأسه ليستكشف صاحبها.

- عايز إيه عالصبح كده؟!
- قوم.. أنا حجزتلك تذكرة لأمريكا.. اتفضل سافر.
اعتدل في فراشه يحدق فيه بضيق:
- نعم؟!.. أسافر فين... قلتلك مش هسافر.
زفر سامر بضيق:
- مش لازم تسافر علشان تجيب نرمين.. سافر علشان سما تهدى من ناحيتك شوية.
غادر فراشه بعصبية:
- قتلك مش هسافر في حته ريح نفسك.
عقد حاجبيه وقد علاه الغضب:
- إنتَ عايز تعاند وخلاص ولا فاكر نفسك هتقدر تقف في وش سما هانم.
- يعني هتعمل إيه ماما هتقتلني؟!.. مانا أصلا مش عارف أنا عايش ليه؟! الحاجة الوحيدة اللي كانت حلمي اختفت.. هتعملوا فيا ايه تاني؟؟.
ضرب سامر كف بكف:
- أنا بجد مش قادر أصدق أنتَ موقف حياتك عند البنت دي ليه؟.. أنت لسه صغير وممكن تعمل وتقابل كتيييييير أوي في حياتك.
- حياتي.. حياتي كانت بسمة وقلتهالك قبل كده.. هي أهم عندي منكم كلكم.
كلمات يسمعها منه للمرةِ الثانية ولا يعلم كم تؤلمه.
لمَ إذًا حين استسلم لابتعاد أحلام كان يفكر في أخيه الصغير أكثر من نفسه، كي يستمع لتلك الكلمات في النهاية.
زاد غضبه قائلًا:
-أنت مش فاهم حاجه ومش هتستحمل غضب سما عليك.
كتف ذراعيه ليقول باصرار:
- هستحمل... أنا مش جبان زيك.
لأول مرة يشعر برغبة قوية في لكمه على فكه، هذا الأرعن الذي دللـه حد الغرور.

اقترب منه بالفعل ليمسك بتلابيب قميصه يجذبه بقوة:
- أنت بتكلمني كده ليه؟!!.
ضاقت عيني معاذ قائلًا:
- جوايا هاجس مجنون مصر إن أنت السبب في كل اللي بيحصلي.. أنت الوحيد اللي عرفت عن بسمة وبعدها أصريت إني أسافر وهما اختفوا من البيت.. كل حاجه بتشاور عليك أنت... أنت يا سامر.
أرخى قبضته عن ملابسه ليُلقي بذراعه جانبه، يرمقه بصمت.
تبادلا النظرات لوهلة قبل أن يقول سامر:
- أنت بجد فاهم إن موضوعك أنت وست بسمة بتاعتك دي كان هيكمل.. أنت بتحلم.. العقل والمنطق وقواعد الدنيا كلها بتقول إنها علاقة مستحيلة.
ردد معاذ بسخرية:
- المستحيل إحنا اللي بنخلقه قدامنا... وبسمة بالنسبة لي حلم وهحققه غصب عنكم كلكم.
هز سامر رأسه بيأس:
- مفيش فايدة.
"بسمة دي مين دي كمااان"
تصلب جسد الشابين للحظة قبل أن يستديرا لصاحبة الصوت التي كانت تنظر لكليهما بغضب هادر.
اعتدل سامر ليتحرك ناحيتها بنية الخروج من الغرفة فأمسكت ذراعه قائلة:
- رايح فين... مين بسمة دي؟!
هز كتفيه قائلًا:
- زي ما سمعتي حلم ابنك بيحلمه.. بس أعتقد إنه هيفضل حلم طول ما إنتِ أمه.
حدجته بنظرتها النارية ليتجاهلها مغادرًا لتقترب من معاذ سائلة:
- مين بسمة دي؟!
- بنت بحبها.

قالها ببساطة فلن يضره أن تعرف اسمها فهذا أقصى ما يمكن أن تعرفه على كل حال.
كظمت غيظها باعجوبة:
- يعني عرفتها إمتى وفين وبنت مين دي كمان؟؟
- متشغليش بالك بنت مين.. عمرك ما هتعرفي أهلها... لأنهم بلغتك مش من مستواكِ.
دارت برأسها وكأن أحدهم لكمها بها للتو، لمَ تصدم مرة بعد مرة؟!
أي نوع من الرجال أنجبت.
سامر فقدت الأمل به لأنه تربية شاكر، ولكن ما شأن هذا أيضًا، تصورته مختلفًا.
كان انطوائيًا وهذا لم يُقلقها بالعكس جعلها دومًا تؤمن بأنه حين يأتي الوقت سيُنفذ رغبتها ببساطة.
فمن تلك التي يتحدث عنها وأفسدته عليها كما فسد أخاه؟!.
- تبقى مين بالظبط؟!!
تريد أن تعرف، وحتمًا ستجد الطريقة لإبعادها كما أبعدت سابقتها عن سامر.
هز كتفيه قائلًا:
- صدقيني مش هتفرق معاكِ وماتقلقيش نفسك أنا مش عارف هي فين دلوقتي ولا أعرف عنها أي أخبار.. بس بدور وأكيد هلاقيها.
- آااه.. دماغي إنتوا ناويين تشلوني.. اسمع يا ولد.. أنتَ مش حمل قرصة مني.. وأنا مش هحارب وهم أو حلم عايشُه مع نفسك... فكر في مستقبلنا.. شغلنا اللي هيتغير لو الجوازة دي تمت ماحدش فيكم عايز يعملي حاجه مفيدة ليه؟!!
زعقت بجملتها الأخيرة.
- وليه رابطه الجواز بالمصلحة ؟! هو إحنا محتاجين.

- أنت مش شايف البلد بقت عاملة إزاي إحنا بنحاارب علشان نفضل شغالين.. السوق المصري بيمووووت.. لكن أبو نرمين هيفتحلنا السوق الأمريكي فاهم يعني إيه السوق الأمريكي.
- ماما.. مش سامر هو رجلك في الشغل.. ماتجوزيه نرمين وتسيبني في حالي.
- أنت معندكش دم.. عايز أخوك يتجوز بنت بتحبك أنت.
- بس أنا مابحبهاش.. ومش ناوي أحبها.. ولو اتجوزتها مش بس هخرب علاقتي بيها لأ... العيلتين مش هيطيقوا بعض.. فخليكوا أصحاب أحسن.. نرمين هتعيش معايا أسوأ أيام حياتها.
- ليه كل ده؟!
- لأني مش بحبها.. مش بحبهاااا.
صاحت بنفاذ صبر:
- حب إيه وكلام فارغ إيه... ما أنا إتجوزت أبوك من غير حب وأديني عيشت وخلفت رجاله ماوراهمش غير إنهم يضايقوني.
ابتسم ساخرًا:
- يمكن لو كنتِ حبيتي بابا كان الوضع اختلف.
رفعت سبابتها في وجهه:
- أنا صبري قرب ينفد.. وفي الآخر برضو هتعمل اللي أنا عايزاه.
استدارت مغادِرة، ليلقي بنفسه على الأريكة خلفه وبداخله تصاعد الكثير من الخوف عما يمكن لأمه أن تفعله كي تجبره على تلك الزيجة.
لكنه ردد باصرار:
- برضو مش هتجوزها.

....

ترجلت نانا من سيارته وهي تدور ببصرها في المكان.
- إحنا فين؟!
ابتسم بسعادة:
- هتعرفي تعالي.

أمسك بيدها لتتبعه لكنها لم تتحرك فلقد كانت تقف أمام بناية سكنية عالية.
فالتفت لها قائلاً:
- واقفة كده ليه.. إحنا بقالنا كتير ماتقبلناش.. وعايز أقعد معاكي براحتي.
هزت رأسها بالنفي:
- قولي الأول رايحين فين؟!
أشار للمبني قائلًا:
- هقولك يا ستي ونحرق المفاجأة... دي يا ستي العمارة اللي هنسكن فيها لما نتجوز.
شهقت وهي ترفع رأسها تطالع المبنى الشاهق ذو الوجهة الفاخرة، بعينين متسعتين بينما يردف وهو يميل لأذنيها يكمل بث سمومه التقليدية:
- شقتك اللي هتعيشي فيها يا أحلى عروسة.. وعايز أوريهالك علشان تختاري كل حاجة فيها بمعرفتك.. في مهندس ديكور مستنينا فوق وهيساعدك تختاري واللي هتقوليه أنا موافق عليه.. ها إيه رأيك في المفاجأة دي؟.
إلتفتت تنظر له والسعادة تتقافز على ملامحها وحروف كلماتها:
- بجد.. بجد يا شهاب.
جذبها ليضمها إلى صدره في سابقة هي الأولى هامسًا:
- بجد يا قلب شهاب.
ورغم تصلب جسدها بين ذراعيه للوهلة الأولى ومحاولتها الإفلات لكنها في النهاية استكانت لتسكت آخر صيحة ضمير وصلت لعقلها.

الفصل التاسع والعشرون

انشد يا قلبي غنوتك للجمال
وارقص في صدري من اليمين للشمال
ماهوش بعيد تفضل لبكرة سعيد
ده كل يوم فيه ألف ألف احتمال
عجبي!!
رباعيات جاهين

أن تسير إلى فخٍ طواعية أمرًا ليس مستحيلًا.
الكثير يفعلها علَى أملٍ واهٍ بأن الضرر لن يكون كبيرًا، أو يظنون أنهم أذكى من السقوط فيه للنهاية.
ولطالما ظنت أنها الأذكى.
دقات قلبها الخائفة لم تُقنعها بالعدول عن الأمر، صعدت معه إلى حيث أشار لها، فَتح باب يدل من هيئته أنه جزء من شقةٍ فاخرة.
خطت للداخل لتستقبلها مساحة شاسعة فارغة، تتناثر على أرضيتها ورق جرائد وبعض أدوات العمل الخاصة بالديكور.
ليظهر أمامهما أحدهم.
- أهلًا شهاب بيه.. أنا خدت مقاسات الشقة بالكامل.. حضرتك قولي بالظبط عايز فيها إيه؟!
ابتسم شهاب وهو يمسك بكف نانا:
- صاحبة المكان هي اللي هتقول.
نظرت له بعيونٍ مليئة بالسعادة وعدم التصديق، أحقًا ستكون صاحبة هذا المكان؟!.

سيكون لها مكانها الخاص، لن تحمل هم بقائها مع أحد أو رحيلها.
وجه المهندس كلماته لها:
- وحضرتك يا آنسة بقى ممكن تقوليلي بتحبي إيه.. يعني إيه الألوان المريحة ليكِ.. إيه الاستايل اللي بتفضليه مودرن ولا كلاسيك.
رفعت رأسها لشهاب الذي قال:
- قولي حبيبتي فهميه كل حاجه... أنا هعمل كام مكالمة تليفون وأرجعلكم تكونوا اتفقتوا.
تركهما ليتجه إلى الشرفة أمسك هاتفه يتصل بخادمه المطيع:
- ها خلصت.
- أيوة يا باشا العلبة معايا.
- طيب هاتهالي بسرعة إحنا في الشقة... هي بتكلم مهندس الديكور علشان يعملها شقة العمر.
أنهى جملته ليطلق ضحكة ساخرة مردفًا:
- ماتتأخرش
- مسافة السكة يا باشا.

....

استقرت بسمة على فراشها بمساعدة أمها التي كانت في الحديقة حين عادوا ورأت ابنتها بتلك الهيئة لتعلم أنها سقطت عن ظهر الفرس.
مسحت على وجهها مرارًا مكررة سؤالها:
- إنتِ كويسة يا بنتي متأكده إن مفيش حاجه وجعاكي.
- ماتخافيش يا ماما أنا بخير.
قالت مها:
- قولنالها نروح المستشفى مارضيتش
- مش لازم أنا كويسة يا جماعة والله... معقولة هكون مكسورة وساكتة كده.. الحمدلله ربنا ستر.

ولم تنسَ أن تقول كلمتها الأخيرة وهي تُلقي نظرةَ لوم لجاهين الذي تلقاها بوضوح وصمت.
ليقول وافي:
- طيب لو حسيتي بأي تعب قولي على طول.. الموضوع مش سهل أنا وقعت من عليه قبل كده وكسرت دراعي.
"ياحبيبي يا ابني"
انتقلت أبصارهم لها وقد قالتها بتلقائية أم، لتعلق بصرها به بقلق حقيقي، إلى أن قال:
- ده من زمان أوي... كان عندي ٩ سنين تقريبًا.
قالت وكأن الزمن لم يُغير من قلقها عليه شيئًا:
- حمدلله على سلامتك.
رأت البسمة ترتسم على شفتيه وهو يجيبها:
- الله يسلمك.
لكنها لم تفهم، أهي سخرية منها أم سعادة لإهتمامها؟!.
غادر بعدها دون المزيد من الكلمات ولحق به جاهين بينما بقت مها وفاطمة معها، لتسألها بسمة:
- هي نانا مجتش ليه؟!
- قالتلي إنها عايزة تشتري حاجه ضروري بس من وسط البلد ولسه ماجتش.
عقدت بسمة حاجبيها:
- هي مش قالت ماليش مزاج أخرج.
- مأعرفش يا بنتي .. زمانها راجعة.
لم تعلق وإن شغل عقلها ما تفعله تلك الفتاة بدون علمهم، طلبت من أمها مساعدتها لتبدل ثيابها وتخلد للنوم قليلًا.
لتغادر فاطمة وهي تصحب مها بعد أن ساعدت بسمة.

وبعد خروجهِما بدقائق وقبل أن يغلبها النوم، سمعت طرقات خافتة على بابها لتسأل عن صاحبها فجاءَها صوت جاهين، اعتدلت وهي تسحب حجابها وتضعه على رأسها لتأذن له، فتح باب الغرفة ليخطو إليها فأشارت بكفها:
- خليك عند الباب أنا لوحدي.
توقف مكانه مبتسمًا:
- ماشي.. أنا بس كنت عايز أعتذرلك.. مكانش قصدي اللي حصل.
شخصت ببصرها عنه مجيبة:
- الحمدلله جات سليمة.. وإنتَ هتعرف منين إن الحصان هيجري وراك.
- بالظبط... أنا بس يهمني تعرفي إني عمري ما هأذيكي.
عادت ببصرها نحوه مع شعورها بتغير في نبرة صوته لتكون أكثر لطفًا، ليتلقاها ببسمته الهادئة فخفضت بصرها عنه قائلة:
- شكرًا.
- يعني قبلتي اعتذاري مش نفسك تحدفي أي حاجه في وشي.
لتزين شفتيها شبح ابتسامة لم تحتفظ بها كثيرًا لتقول:
- حصل خير يا جاهين... أنت مش مضطر تعتذر.
- ماشي... وحمدلله عالسلامة.. مكنتش هسامح نفسي أبدًا لو كان حصلك أي حاجة.
هذه المرة ارتسمت بعض الدهشة على ملامحها وهي تعود بنظرها له لتقول:
- خلاص يا جاهين.. ممكن بقى تسيبني أرتاح شوية.
رفع كفه معتذرًا وهو يلتفت مغادرًا.
رمقت الباب للحظات، قبل أن تنزع حجابها وتعود تستلقي في فراشها مُرددة:
- هو ماله ده؟!
استشعرت طريقته اللينة معها في الحديث، هو لم يكن جافًا من قبل لكنه أيضًا لم يكن بهذا اللين.
هزت رأسها بعدم اكتراث، لا بأس بالأمر مادام سيجعل لها المزيد من الحلفاء في المنزل، حتى تأتي اللحظة الحاسمة.

....
حلمها سيصبح حقيقة، لا تصدق أنها تقف في جزء منه الآن، وتلوم نفسها أنها شكت في نوايا شهاب.
دارت ببصرها في المكان، شقة متسعة بها عدة غرف، ستكون مملكتها الخاصة.. ستكون سيدة هذا المنزل يومًا... ولكن متى؟!!
اقترب منها باسمًا:
- ها يا قلبي.. اختارتي كل حاجه.
إلتفتت له تقول بسعادة بالغة:
- أنا بجد مش مصدقة نفسي يا شهاب.. دي هتكون شقتي أنا.. إحنا هنعيش هنا.
- طبعًا.. أنا كان نفسي أجيبلك فيلا.. بس الشقة دي ماتقلش عن أي فيلا.. وأنا عموما مش بحب أعيش في فيلل.
- مش مهم يا حبيبي... لو كانت أصغر من كده برضو كنت هنبسط بيها جدًا المهم تفضل معايا.
- طب غمضي عينك.
رمقته بشك ليضحك:
- بلاش الأفكار اللي بتنط في راسك دي يا نونا.
ضحكت على كلماته بحياء ليردف:
- أنا بس عايز أوريكي حاجه... مفاجأة تانية وأكيد هتعجبك.
أغلقت عينيها في الحال، وبعد ثواني قال:
- فتحي بقى.
اتسعت عيناها عن أخرها وهي تنظر لذلك العقد الأنيق الذي استقر بوقارٍ داخل علبته المخملية الكبيرة، عقد عريض امتزج بالذهب الأبيض والأصفر في تصميمٍ راقي.
- ده علشاني؟!!
قالتها بانبهارٍ واضح لترتكن بسمته الماكرة دون رؤية منها:

- دي شبكتك يا حبيبتي.
فغرت فاها مرددة:
- شبكتي؟!!
- طبعًا.. وعلشان تتأكدي من حسن نيتي هتخليه معاكِ لحد ما ربنا يسهلنا بقى ونتجوز... بس علشان ده يحصل زي ما قلتلك قبل كده... لازم أكون شريك لعيلة الشربيني مش منافس وإنتِ اللي هتساعديني في ده.
أخرجتها كلماته من أحلامها لتعيدها إلى عالم الواقع، وكيف لها أن تساعده في آمرٍ كهذا؟!
- وهساعدك إزاي؟!!
وضع العلبة بين كفيها بعد إغلاقها قائلًا:
- ساعديني بس أقابل بسمة وأنا هقنعها بطريقتي.
عصفت رياح الشك بقلبها في لحظة تعقبها رياح الخوف من مغبة هذا الأمر.
- هتقنعها إزاي يعني؟.. قولتلك دي شركتها هي كمان لا يمكن تئذي مالها.
- يا ستي ومين جاب سيرة الأذى.. أنا عايز أشاركهم.. أشتغل معاهم مش أأذيهم.
- بس هي سابت الشغل.
- حتى لو سابته هي مش ليها أسهم في الشركة يبقى ليها كلمة.. اسمعي كلامي بس وخليني أقابلها.
صمتت مفكرة ليقول بضيق واضح:
- نفسي أعرف بتفكري في إيه... كل اللي بعملهولك ده وإنتِ مش بتفكري تعمليلي خدمة صغيرة كده في الآخر هتصب في مصلحتنا برضو.
- خلاص ماتزعلش... هكلمها.
- أيوة كده يا حبيبتي... خلينا نتجوز بقى.
فتحت علبة العقد تطالعها بعينين تلألأ فرحة، لتَعده أنها ستحدث بسمة قريبًا. ليتهلل وجهه مع شعوره بالنصر القريب.
....

أنهى جاهين ووافي اجتماع صباحي مع بعض المهندسين، ليعود كلًا لعمله.
لتقترب فتاة السكرتارية من الأخير قائلة:
- باشمهندس دي أسامي ٣ دكاترة من أفضل دكاترة القلب وكلهم بيشكروا فيهم.
أخذ الورقه منها شاكرًا:
- شكرًا.. يا ريت كمان تسأليلي على أفضل دكاترة عيون خصوصًا في القرنية والعمليات اللي تخصها.
أومأت برأسها لتذهب ليقول جاهين:
- هو أنت هتفتح مركز طبي ولا ليه؟!!
- لا يا ظريف... دكتور القلب هخلي ماما تروحله.
- عمتي سميحة محتاجة دكتور قلب؟!!
قالها جاهين بفزع حقيقي، ليهز وافي رأسه:
- لا يا ابني.. ماما فاطمة.
- آاه... معلش أول مرة أسمعك بتناديها ماما... طب وإيه موضوع العيون ده كمان.
صمت لحظات ليقول بصوتٍ خافت وكانه يخفي شيء خلفه:
- أبدًا... أصل بفكر... قصدي بسمة بتفكر تعرض مها على دكتور.
- هي مها مش مولودة كده؟!.
- لأ.. دي تعبت في عينها وبقت كده في سن صغير.
همهم بتفهم، ليضيف:
- إلا قولي، لما بتتكلم مع بسمة مش بتجيب سيرتي خالص؟!
- أنا ماتكلمتش معاها كتير بس إلى الآن لأ.
- طب وإنتَ.. مش تكلمها كده وترفع من شأن أخوك شوية.
هز وافي رأسه ساخرًا:
- لاحظ إنك بتتكلم عن أختي.
- لا يا راجل.. مكنتش أعرف.

- بقولك إيه يا جاهين أنا مبحبش اللف والدوران.. أنا هقولها إنك اتقدمتلها ونستنى ردها.
- لااااا... ماتبوظليش الدنيا... هتندمني إني قولتلك.. أصبر شوية علشان خاطري يا وافي ماتقولهاش قبل ما أقولك.
أومأ برأسه بصمت ليتعالى رنين الهاتف الداخلي فأجابه وافي:
- ألو... ماشي حاضر.
أغلق السماعة قائلًا:
- ماما عايزاك.
- ميين.. أبلة بطة؟.
- يووووه.. ماما سميحة يا ابني.
- لا بقى ارسيلك على بر أنا مش ناقص لخبطة.. دلوقتي عندك أم وعمة.. إدي كل واحد لقبه الحقيقي وريحني.

لقبه الحقيقي.
كلمة قالها جاهين بقصدٍ وليس اعتباطًا.
هو يريد أن يعتاد وافي حقيقة أن أمه عادت وسميحة ستبقى عمته فحسب.
إتجه لمكتبها وهو لديه يقين عن سبب هذا الاستدعاء، كانت خلف مكتبها كالعادة ليجلس على الكرسي المقابل ليترك لها دفة الحديث:
- عملت إيه؟!
- في إيه؟!!
قالها ببراءة مصطنعة لتقول:
- إحنا هنهزر... في موضوع فاطمة وبنتها.
- لسه ماعملتش حاجه.
وقفت لتدور حول مكتبها وتجلس أمامه:
- ليه بقى.. إيه اللي معطلك؟.

- يعني ملقيتش مناسبة وحتى لما خرجنا وقعت من عَالحصان... والدنيا اتلخبطت.
قالت ساخرة:
- وقعت من عَالحصان... ماوقعتش ليه على رقبتها وخلصتنا.
انقبض قلبه من كلماتها الأخيرة وربما المرة الأولى التي يشعر فيها بالقلق على بسمة، أنها تتمنى موتها ببساطة.
أيمكن أن يصل بها الكره إلى النيل من حياة الفتاة.... لا مستحيل!!
- أنت بتبُصلي كده ليه... خلصني من موضوع بسمة ده يا جاهين.. أنا عايزة بالي يروق.
أومأ برأسه بصمت:
- حاجه تاني يا عمتي.
- لأ.. اتفضل.. المرة الجاية تكون اتصرفت.
وقف مغادرًا دون تعليق.
سار بتؤده في الممر وعقله ينتقل من فكرة لأخرى، كيف يمكنه الوصول إلى بسمة بشكل أسرع ونيل موافقتها.
اصطدم بأحدهم فالتفت معتذرًا ليجد محمد:
- ولا يهمك يا باشمهندس.
توقف مكانه وعاد ينظر له وهو يسير مبتعدًا فأسرع خلفه:
- محمد.
إلتفت لندائِه فأمسك بذراعه:
- عايزك ضروري.
تبعه والدهشة تعلوه إلى أن وصلا مَقْصَف الشركة ليجلس معه في ركن قصي.
بينما محمد يرمقه بنظراتٍ يعلوها الكثير من التساؤل خاصة مع صمت جاهين الذي استمر وكأنه يفكر ما الذي يريده منه بالضبط.
- خير يا باشمهندس.. أنا عملت حاجه غلط!!
هز رأسه نفيًا:

- محمد أنت تعرف بسمة بقالك كتير صح؟!
أومأ برأسه بصمت، ليردف:
- طيب كويس... أصل كنت عايز.. أسألك...
توقف عن الكلام وهو يشيح بوجهه بعيدًا، لا يعلم إن كان ما يفعله خطأ أم صواب، لكنه لا يملك الوقت الكثير ويريد النتيجة السريعة.
- في إيه يا باشمهندس قلقتني على فكرة؟!
إلتفت له مشيرًا بسبابته:
- اسمع.. أبلة بطة قالتلي إنك راجل... والراجل لو استأمنته على سر لا يمكن يفضحه صح؟!!
سايره محمد رغم عدم فهمه:
- صح.
- حلو جدًا... اللي هسألك فيه ده مفيش أي حد هيعرفه على وجه الأرض مفهوم؟.
- مفهوم.
مال ناحيته ليقول بصوتٍ حرص على أن يكون خافتًا:
- بسمة بتحب إيه؟.. بتكره إيه؟... يعني إيه اللي أعمله علشان تنتبهلي؟!
عقد محمد حاجبيه محاولًا فهم ما سمعه ليقول:
- أفندم.. تنتبهلك؟!!
- ركز معايا يا محمد.. أيوة تاخد بالها مني.. كراجل أدخل دماغها يعني.
اتسعت عينا محمد وبدأ الغضب يلوح في الأُفق فانتبه جاهين لمعنى كلماته فرفع جاهين كفه:
- علشان أتجوزها.
لانت ملامح محمد لتعلو شفتيه إبتسامة:
- عايز تتجوز بسمة؟!!
- أيوة بس حاسس إنها هترفضني.. ممكن تساعدني بما إنك الراجل الوحيد اللي أعرفه ويعرفها كويس.

وضع محمد كفه على فمه وبدى واضحًا أنه يمنع ضحكة، ليقول جاهين:
- إضحك إضحك... باين إنك عايز تضحك.
حرر ضحكته بالفعل ليعتذر بعدها:
- آسف.
- لا أبدًا... المهم يعني هستفيد حاجه أنا بقى من القعدة دي ولا إيه؟!!
- إن شاء الله تستفيد... بسمة بتحب الدوغري يعني نصيحتي تروح تقولها إنك عايز تتجوزرها وإديها كام يوم تفكر.
- يا سلام... وبعدها ترفضني.. كسبت أنا إيه بقى؟!!
- لا مأنا مكملتش بعد ماتقولها تروح بقى للي هتستلم دماغها وتقنعهالك.
- مين دي؟!
- نانا.
- نعم؟.. ماهي هتروح تقولها إني طلبت منها كده.
- لأ.. لو وعدتها بهدية حلوة... أي مصلحة.. هتحاول تقنعها من غير ما تعرفها.
- وإفرض برضو ماقتنعتش.. يعني إيه اللي يخليها توافق.
- اممممممممم.... بتهيألي لو حست إنك بتحبها هتوافق.. ده لو مابتكرهكش.
ضحك ضحكة ساخرة:
- الله يطمنك.... ودي هتحسها إزاي؟!
- حِبها.
قالها ببساطة دون إضافة المزيد، ليُكتف جاهين ذراعيه مفكرًا في كلماته.
يحبها!!
وهل هو يحبها؟!
وجد أنه لا يستطيع أن ينفي ولا يثبت، هو لم يفكر كثيرًا في مسألة المشاعر، ولا يعلم ما الذي تعنيه بسمة له.
- ممكن أروح أشوف شغلي بقى؟!
قالها محمد ليبتسم جاهين:

- أكيد.. تعرف أنا كنت مش طايقك أنت كمان بدأت معايا بخناق وضرب.. بس حاسس إننا ممكن نبقى أصحاب.
- ده شرف ليا يا باشمهندس.. هتثبتني بقى ولا برضو لازم أكمل ال٣ شهور.
ضحك جاهين:
- لا يا حبيبي... الشغل مالوش دعوة بالصحوبية اتفضل روح شوف شغلك.
وقف قائلًا:
- ماشي.. كنت هقولك معلومة كمان بس مافيش نصيب.
تحرك مغادرًا ليلحق به جاهين:
- هنخليهم شهرين بس.. قول بقى.
إلتفت له مبتسمًا:
- كانت قالت مرة بحب فكرة إن الواحد يجيب لحبيبته ورد.

الورد.. ليست فكرة صعبة التحقيق، الصعب حقًا أن يعرض عليها الزواج ويخبر نانا أن تقنعها بهذا.

....

فركت ظهرها بقوة وهي تتأوه، لم تتصور أن آلام جسدها من السقطة ستكون بأثر رجعي.
حتى أنها لم تغادر الفراش إلا للضرورة.
أنزلت قدميها على الأرض:
- لازم أتحرك شوية مش كده.
وقبل أن تنهض طرق أحدهم بابها ووصلها صوت أخوها لتأذن له، دلف إلى الغرفة وهو يغلق بابها خلفه مقتربًا منها:
- عاملة إيه دلوقتي؟!
- الحمدلله.. بس جسمي مكسر.
- أكيد الواقعة مش سهلة.
دس يده في جيبه ليخرج لها ورقة:

- دي فيها أرقام تليفونات دكاترة قلب كبار شوفي تحبي تودي ماما لمين فيهم.
ابتسمت له قائلة:
- أول مرة تقول ماما من غير ما تتردد زي كل مرة.
- كله بيجي بالتعود.. وأنا بحاول أتعود.
- والله يا بسام مفيش أحن من ماما أبدًا.
- مش اتفقنا مفيش كلام عن الأمهات.
مطت شفتيها وهي تطالع الورقة، فرفع لها ورقة أخرى:
- ودي بقى فيها عنوان دكتور كويس أوي للعيون... بقول يعني ماتقنعي مها تروح تكشف.
رفعت بصرها نحوه لتبدي الكثير من التساؤل، لم تتوقع أن يكون اهتمام بسام بها إلى تلك الدرجة.
فرك رأسه بتوتر:
- أنا قلت يعني أكيد برضو يهمكم إنها تخف.
لاحت شبه ابتسامة على شفتيها:
- آه طبعا.. ده بالنسبة لنا.. لكن أنت بقى مهتم ليه بيها.
هب واقفًا:
- مهتم!!.. قصدك إيه... عادي يعني.. المفرض لو في حد يقدر يساعد حد يساعده.
- طيب مالك متوتر كده؟!.
- أنا مش متوتر ولا حاجه.
لازالت تعلو وجهها البسمة لتقول:
- ماشي شكرًا.. هقنعها إن شاء الله.
أومأ برأسه ليصمت وظل مكانه، رمقته لحظات لتقول:
- مالك؟.. في حاجه تاني عايز تقولها.
حدث نفسه...
"إزاي يعني أكلمها عنه علشان تاخد بالها... جاهين ده بيطلب حاجات غريبة"

- في إيه يا بسام؟!!
هز رأسه بيأس:
- مفيش حاجه.. يالا تصبحي على خير.
- وأنتَ من أهله.
اتسعت بسمتها مع بعض الدهشة، هل ما يدور بعقلها صحيح؟، أيمكن أن يكون هناك اهتمام من بسام لمها بالفعل.
يا الهي.. سيكون هذا رائعًا ليس لمها فقط بل أنه سيقتل سميحة كمدًا وهذا يكفيها.
أو لعل الأمر شفقة ليس إلا.
عليها الصبر وحسب فالأيام خير برهان لكل ما نحمله في قلوبنا وعقولنا من أمور مخفية.
رن هاتفها لتلتقطه وتقرأ اسم جاهين، فتحته مجيبة ليقول:
- إيه الأخبار عاملة إيه .. أنا قلت بتضايقي لما أجيلك أوضتك فقلت أكلمك في التليفون.
- أنا بخير.. شكرًا على السؤال.
- بتتحركي بسهولة ولا في صعوبة؟!.
- لا الحمدلله بتحرك.
- طيب كويس... قومي بقى استلمي الهدية اللي سايبهالك على الباب قبل ما حد ياخدها.
- نعم.. هدية.
- آه حاجبه بسيطة كده يا رب تعجبك يالا بقى قومي.
- هو أنت بره؟!
- يا ستي لأ أنا في أوضتي.. يلا قومي.. ولو عجبتك اتصلي بيا.
اتسعت بسمتها رغمًا عنها، وضعت الهاتف جانبًا، واتجهت لباب غرفتها ولم تهتم بوضع حجابها، فتحت الباب برفق لتتأكد من خلو الممر، خفضت بصرها لتجد باقة ورد حمراء كبيرة وأنيقة أمام باب غرفتها، اتسعت بسمتها أكثر فأكثر

فشرعت الباب لتميل وتحمل الباقة، مالت عليها تستنشق عبيرها الأخاذ وكانت ذات رائحة رائعة.
عادت للداخل أمسكت هاتفها لتتصل به لم يجيبها على الفور فظننته لن يجيب إلى أن وصل لها صوته:
- ها.. عجبتك.
نظرت للورود باعجاب:
- أكيد... بجد شكرًا هديه فرحتني.
- الحمدلله...استمتعي بيها واستني بكرة مني كلام مهم... تصبحي على خير.
لم ينتظر ردها فأغلق الهاتف لتنظر له بدهشة، ما الذي يعنيه بما يقول، بل وبما يفعل؟!. هو يتصرف بغرابة منذ عطلة ذهابهم لنزهة ركوب الخيل، ولا تجد تفسيرًا لذلك.
وضعت الهاتف جانبًا وعادت تحتضن تلك الباقة وهي تستنشق عبيرها، وشعور بالسعادة يتسلل إلى قلبها... شعور لا يمكنها انكاره.
ولكن مهلًا.. من أين عرف أنها تحب الورود أم أن الأمر قدرًا؟!.
....
هل يمكن أن يجتاحك شعور ما بشكل مفاجيء؟!
وكأنه غزو لم تنتبه له وفجاءك على حين غرة!!.
مصباح أضاء بداخلك وأشعل فتيل ما لتملأ الحرارة حواسك!!
أو ربما احساس تعطش له قلبك فما أن ذاقه شرب منه حد الشبع.
أم أن الأمر فقط هو غفلتك أنت عن تلك المشاعر رغم وجودها، ليحدث ما ينبهك لها وتصبح أمامك مرأى العين.

وضع كفه على صدره مع استمرار دقات قلبه المتسارعة، والتي تعالت وتيرتها بشكل مفاجيء حين دفعه فضوله لرؤيتها وهي تستلم هديته.
أراد حقًا أن يرى التعبير الذي سيرتسم على وجهها حينها وليته ما فعل!!

ساعده أن غرفته في الجهةِ المقابلة لغرفتها وعلى بعد عدة أمتار فلن تنتبه لتلك الفرجة التي في بابه وهو يراقب بابها الذي فتحته بحذرٍ تتأكد خلو الطريق، علت وجهه البسمة مع حذرها الواضح ولم يعرف سببه إلا حين أطلت برأسها وقد تركت شعرها منسدلًا بحرية وغير مرتب، انحنت تلتقط الباقة فسبقتها خصلات شعرها إليه من الجانبين حتى إنه أخفى وجهها تمامًا فلم تلوح له بسمتها إلا بعد أن اعتدلت واقفة تضم الباقة إلى صدرها تستنشق عبيرها.
مشهد طُبع بقلبه لا عقله، فأهداه شعورًا لم يصادفه قبلًا، ظل مكانه رغم اختفائِها بغرفتها لم ينتبه لواقعه إلا على صوت رنين هاتفه، رفع كفه الذي يحتضن الهاتف يطالع اسمها لتعلو شفتيه ابتسامة.
أجابها وأسعده أن الورود راقت لها، ليغلق الهاتف بعد أن وعدها بحديثٍ في الغد.

استلقى في فراشه وقد جفاه النوم تمامًا رغم إرهاق العمل، مازال يحاول تفسير كل تلك المشاعر التي تتخبط داخله.
سعادة غامرة لرؤية ابتسامتها، دقات قلب متسارعة لا يعلم سببها، حرارة اغتالت حواسه كلها.
ما الذي يعنيه كل هذا؟؟!
أيمكن أن يكون؟!!
اعتدل في فراشه وهو يهز رأسه بعدم تصديق.
- من إمتى وإزاي... أكيد لأ؟!!
أحقًا نمت داخله مشاعر تجاهها.
اتسعت بسمته لمجرد الفكرة، أليس هذا بالأمر الجيد؟!
عاد يهز رأسه نفيًا:
- لأ... مش هيكون كويس أبدًا لو رفضتني.
وجاء شعور جديد إليه يؤكد له ظنه، ترفضه!!... هي حقًا قد ترفضه؟!!
لمَ ضاق صدره لهذا الخاطر؟!

وليس خوفًا على مال أو أسهم أو مكانة بل ضاق لأنه لم يعد يريد خسارتها هي، وكأنه سيخسر شيئًا ثمينًا عنده.
غادر فراشه ليتجه إلى غرفةِ أمه، لا يرغب في النومِ لكنه يرغب في الحديث إلى شخص قريب منه، طرق بابها بلطفٍ ليدلف إليها كانت لا تزال مستيقظة تتحدث في الهاتف وما إن رأته أشارت له بالاقتراب:
- أهو جاهين جه عالسيرة ... خد كلم لوجي عندها خبر حلو.
تناول الهاتف منها:
- لوجي إزيك يا حبيبتي عاملة إيه..... ليه بس زعلانه مني طيب خلاص براحة إنتِ ماصدقتي أنا بطمن عليكِ من ماما... طيب يا ستي خلاص والله هبقى أتصل بيكي إيه بقى الخبر الحلو؟؟.
استمع لكلماتها قبل أن يصيح بسعادةٍ بالغة:
- بجد.. ألف مبروووووك يعني أنا هبقى خالو..... إنتِ اللي هتبقي أحلى ماما في الدنيا.
كانت تتحدث بسعادة كبيرة مما أشعره بالراحة والتفاؤل في أن يكون له نصيب في مثل تلك السعادة يومًا.
أنهت ميادة المكالمة وهي تحمد الله وتشكره على إتمام فرحة ابنتها بالحمل قائلة لابنها:
- جاهين أنا كنت مأخرة السفر علشان ماتكونش لوحدك بس خلاص بقى لازم أسافرلها ده أول حمل وأختك محتاجاني.
- طبعًا يا ماما... ربنا يخليكي ليها وليا بس إيه هتقعدي معاها لحد ما تولد.
صمتت مفكرة بحيرة:
- مش عارفه... يعني ممكن أقعد معها لحد شهور الوحم ما تخلص وأرجع وبعدين أرجعلها تاني لما تدخل التامن.. إيه رأيك؟!
- ماشي حبيبتي اللي تشوفيه.. إنتِ عارفه هتوحشيني إزاي؟!
- وأنتَ كمان يا حبيبي... طيب احجزلي بقى على الأسبوع الجاي أكون رتبت نفسي.

صمت مترددًا فضاقت عيناها:
- في حاجه يا جاهين... أنت كنت جاي تقولي حاجه ولا إيه؟!
جلس جوارها:
- بصراحة آه.. معلش أجلي سفرك بس شوية لحد ما أعرف هنعمل إيه؟!
- هنعمل إيه في إيه؟!
- ماما أنا هتقدم لبسمة.
حدقت به للحظات وكأنها تعي ما سمعت:
- مين... بسمة؟!!
- أيوة يا ماما.. بنت عمي.. أنا عايز أتجوزها.
ظلت ترمقه بصمتٍ مما أصابه بالاحباط:
- إيه يا ماما.. افتكرت إنك هتفرحي لما أقولك عايز أتجوز... مش كنتي دايما بتزني عليا في الموضوع ده؟.
- أيوة طبعًا أفرحلك... بس يعني.. مالقتش غير بسمة دي سميحة مش بتطيقها.
- أنا مليش دعوة بالماضي اللي عايشة فيه عمتي... أنا اخترت بسمة وعايزها.
- هقولك إيه يا بني.. ربنا يسترها ويتملك على خير.
- ماما أنا بجد ميال ليها أوي... عايزها تفضل معايا أنا مش عارف ده حب ولا إعجاب ولا إيه بالظبط... بس اللي أعرفه إني عايزها تكون معايا.
علت شفتيها ابتسامة حنونة لتربت على خده:
- يارب يا حبيبي تكون من نصيبك ويسعدك معاها.
ضمها إلى صدره:
- أيوة يا ماما ادعيلي كتير أوي... أنا لسه هكلمها بكرة.
ربتت على ظهره لتدعمه ليبتعد عنها قليلًا قائلًا:
- أجلي بقى السفر شوية لحد ما ترد عليا ونعرف هنعمل خطوبة ولا فرح على طول.

- إيييه.. فرح على طول.. لا إزاي براحه شوية يا حبيبي.
- خير البر عاجله... بس يا رب هي توافق.
ضحكت:
- دا أنت مستعجل أوي.
شاركها الضحكة وإن كانت متقطعة وهو يفرك رقبته بارتباك:
- يعني مش أوي.
نهض عن فراشها مقبلًا رأسها:
- تصبحي على خير... وماتنسيش تدعيلي.
- وأنت من أهل الخير.. ربنا يفرح قلبك يا حبيبي.
غادر غرفتها مستبشرًا، لقد أصبح متحمسًا أكثر وأكثر لاخبارها ومعرفة ردها، عليه الوصول إلى نانا أيضًا كي تتمكن من إقناعها، سينتظر غدًا.
وإن تمنى ألا يلجأ لتلك الخطوة، فموافقتها عليه دون إلحاح من أحد ستكون أكثر سعادةً له، لكنه لن يخاطر سيأخذ بنصيحة محمد للنهاية.
المهم أن ينال ما يتمنى وتصبح بسمة زوجته وحينها سيجعلها أكثر الناس تعلقًا به.

....

مرت أغلب ساعات اليوم التالي بشكل تقليدي، ودخلت بسمة غرفة فاطمة بعد الغداء لتجد مها بصحبتها فوجدتها فرصة طيبة لاخبارهما عن زيارة الأطباء وبدأت بأُمها، التي غمرتها سعادة كبيرة لاهتمام ابنها بها ولو بهذا الشكل غير المباشر.
- ربنا يكرمه.
دعت له من قلبها، لتكمل دقاته باقي الدعاء له بأن يهديه ويشرح صدره لها.
التفتت بسمة لمها قائلة:
- على فكرة يا مها .. بسام جابلي كمان عنوان دكتور عيون شاطر أوي.. وأنا خلاص حجزتلك عنده بس هو زحمة شوية هنروحله بعد ٤ أيام.
لاحظتا الارتباك الذي أصابها في الحال وهي تقول:

- إيه؟.. دكتور.. وليه؟!.. تعب نفسه ليه؟!
ابتسمت بسمة وهي تغمز لأمها:
- ولا تعب ولا حاجه.. المهم إنتِ ماتكسيفهوش وخلينا نروح.
أطرقت برأسها وهي تقاوم رغبة بالسعادة، يقاتلها خوف من الخذلان.
لتربت فاطمة على كفها:
- روحي يا بنتي.. ربنا يجعله سبب لشفا...
صمتت طويلًا حتى قالت بسمة:
- إيه يا بنتي بس ساكته ليه... أهو نروح ونعرف ممكن يكون في جديد في الطب منعرفوش.. وربك هو الشافي.
أخيرًا أومأت برأسها لتقول:
- ماشي.. بس أنا كده ممكن أكلفكم.
قاطعتها بسمة:
- ولا كلمة... إنتِ أختي وإحنا الحمدلله مبقيناش فقرا.
- طب حاجه أخيرة.
- قولي يا ست مها.
قالتها بسمة بصبر، لتضيف مها:
- أنا مش عايزة أخوكي يتكلف أي حاجه في الموضوع ده.. لو سمحتي يعني.
اتسعت بسمتها لتجيب:
- ومين قالك إني كنت هخليه يتكلف فيه حاجه... إنتِ أختي أنا مش هو.
- وكمان...
- يوووه يا مها مش قلتي آخر حاجه.
- يا بوسي أنا مش عايزاكِ تدفعي فلوس على الفاضي
- تفائلوا بالخير تجدوووه يا مها.. دا إنتِ مؤمنة.
- ونعم بالله.
ضمتها بسمة إلى صدرها وداخلها طاقة تفاؤل كبيرة بأن الله سيكتب لها الشفاء، لا تتخيل اللحظة التي قد تفتح مها عينيها وتراهم جميعًا مجددًا.

نفس تلك الأفكار دارت في عقل مها، أحقًا ستبصر ثانية؟!
ستفتح عينيها وترى العالم من جديد.
الشمس.. السماء.. وجه أختها..فاطمة.. وبسمة... بل وجهه هو أيضًا.
لا يمكنها إنكار رغبتها الشديدة في رؤيته.
ليعلو داخلها انذار شديد، أسيعود لكِ البصر لتطلقيه على وجوه الرجال؟.
ارتدت عن صدر بسمة التي عقدت حاجبيها لتصرفها هذا:
- مالك؟.. في إيه؟!
هزت رأسها مرددة:
- أنا مش عايزه أشوف.
ربتت فاطمة على كتفها مهدئة:
- لا حول ولا قوة الا بالله... ليه يا مها كده.. يا بنتي البصر نعمة كبيرة أوعي ترفضيها أنا نفسي أشوفك وإنتِ بصالي وبتضحكي.. نفسي أشوفك فرحانه.
- أنا خايفة!!
قالتها بصدق لتمسك بسمة بكفها:
- خايفة من إيه؟.. مها إنتِ بنت قوية أوي ماتخَليش أي حاجه تضعفك وكفاية إيمانك بربك... إحنا هنروح.. إدعي من قلبك ربنا يكتبلك الشفا.
لم تتمكن من قول المزيد، ستستعين بالله لتكون أقوى.

....

عليه أن يخبر وافي بما قرره، المفترض أن وافي من سيعرض طلبه على بسمة لكنه غير رأيه، يرى من الأفضل أن يقوم هو بذلك، لديه ما يقوله لها ولن يستطيع وافي أن يفعله بالنيابةِ عنه.
قاد جاهين السيارة في طريق العودة، وبجواره وافي غلفهما الصمت ليقطعه جاهين بقوله:
- بقولك.. أنا هعرض على بسمة الجواز الليلة.
إلتفت وافي له بدهشة:
- أنت مش قلت هتصبر شوية... يعني عايزني أكلمها الليلة.

- لأ.. أنا اللي هكلمها.
- اشمعنى بقى.
- عادي بقى يا وافي.. عايز أنا اللي أقولها.. أعتقد لما تسمعها مني يبقى أحسن.
مط وافي شفتيه:
- أحسن من أنهي ناحية يعني؟.
- ياعم خلاص بقى هو أنا هقولها حاجه غلط أنا هعرض عليها الجواز.
- ماشي يا سيدي.. ربنا يوفقك.
- آمييييين... قولها من قلبك يا ابني خليها تسلك.
ضحك وافي:
- ماهو من قلبي يا عم... مالك محسسني إني حماتك.
- حماتي.. هو في زي حماتي ولا طيبة حماتي.. والله ماحد هينصرني فيكم غيرها.
غابت البسمة عن وجه وافي وانتبه جاهين لذلك فأردف:
- على فكرة.. كل يوم هتفضل فيه بعيد عنها أنا متاكد إنك هتندم عليه مستقبلًا.
اكتفى بالصمت كردٍ وهو يراقب الطريق متذكرًا رد فعلها حين قال أنه كُسر ذراعه من سقوطه عن الفرس، لهفتها التلقائية عليه راقت له، لكن حين هنئته على سلامته شعر أنه يريد أن يقول لها.. "متأخرة جدًا!!".

....
ما إن وصل جاهين حتى أراد الوصول لنانا، تذكر أنه احتفظ برقمها في هاتفه فاتصل بها لتجيبه بعد فترة قصيرة:
- نانا.
- أيوة.. جاهين... خير؟!
كانت الدهشة تغمرها فلم يحدث أن اتصل بها قط.
- إنتِ فين؟!
أجابت بوجل:

- فوق.
- لوحدك.
ابتعلت ريقها بصعوبه وخوفها يتصاعد:
- أيوة.. البنات تحت.
- طيب أنا جايلك عايزك في موضوع مهم.
ألقت الهاتف لتلطم خدها بكفها:
- يالهوي يالهوي.. هو عرف ولا إيه... يا مصيبتك يانانا... روحتي في ستين داهية يا نانا.
ارتدت إسدالها وخرجت من الغرفة وقلبها يرتجف خوفًا لتراه قادمًا بالفعل وهو ينظر خلفه وكأنه يترقب خطواته، وقفت أمامه بجسدٍ تحاول أن تخفي انتفاضته، لكن خوفها ارتسم على وجهها بسهولة ليقول جاهين:
- مالك؟.. إنتِ مفزوعة كده ليه؟!
- لا أبدًا.. أصلك يعني.. أول مرة.. يعني تفكر تكلمني لوحدي.
رفع كفه مهدئًا:
- أيوة عارف... ماتتخضيش إن شاء الله خير.
رمقته بشك لكن بسمته الهادئة التي احتفظ بها أشعرتها ببعض الأمان، لو الأمر متعلق بشهاب لكان رد الفعل مختلف.
- طيب.. خير؟!
- أنا عايزك تساعديني في حاجه.. بما إنك قريبة أوي من بسمة.
لم تتصور أن الامر له علاقة ببسمة:
- لو أقدر مش هتأخر.
- تقدري إن شاء الله.. أنا ... ناوي أتقدملها الليلة.
صمت ليعرف تقبلها للأمر من عدمه لكن السعادة التي ارتسمت على وجهها وهي تردد:
- بجد... هتتجوز بسمة؟!
سعادتها انتقلت له بالتبعية مع بعض الحرج:

- آآه.. لو وافقت.
- توافق طبعًا ماتوافقش ليه؟!
- بجد يعني شايفة إنها ممكن توافق.. أصل حاسس إنها هترفضني فأكيد لما أقولها هتقولكم، كنت عايزِك يعني تدعمني.
صفقت بكفيها في جزل:
- أكيد يا باشمهندس.. عندي دي.
تهللت أساريره:
- وليكِ عندي هدية حلوة لما توافق.
شخصت ببصرها للحظة قبل أن تعود له قائلة:
- لا أنا مش عايزة هدية.. أنا عايزة حاجه تانيه.
- أؤمريني.
- لو ربنا تمم على خير.. عايزاك إنت كمان تدعمني في موضوع مهم يخصني.. بس توعدني إنك فعلًا تقف معايا.
- موضوع إيه؟!!
- مش مهم بقى.. ايًا كان الموضوع تساعدني فيه.. موافق؟!
هز كتفيه:
- موافق.. بس تساعديني بجد.
كتفت ذراعيها لتقول بثقة:
- مبروك مقدمًا.
- طيب أوعي تنسِي... إنتِ ماتعرفيش حاجه لحد ما هي تقولك.
- أكيد ماتقلقش.
يشعر أن كل الأمور تسير في صالحه، سيحدث بسمة أولًا وبعدها سيتحدث لفاطمة ويعرف كيف ترى الأمر؟! لا يعتقد أنها سترفضه.
حل الليل ونزل إلى الحديقة، رفع رأسه لغرفتها فرآها مضيئة.. هي مستيقظة إذن.
حانت اللحظة الحاسمة.

أخذ نفسًا عميقًا واتصل بها، لم تتأخر في الرد:
- أهلا جاهين.
- أهلا بيكِ.. ممكن تنزلي الجنينة.
- اشمعنى.
- قلتلك إمبارح إني هكلمك في حاجه مهمة... بس لازم وجهًا لوجه.. يالا انزلي أنا مستنيكِ تحت.
أغلق الهاتف، ليتنفس بعمق مرة بعد مرة في محاولة للتغلب على توتره وحرجه البالغ.
كل ما يشعر به يؤكد لديه أن الأمر تعدى المصلحة بمراحل كبيرة... الأمر بات شخصي بحت... هو يريدها لأنه يريدها وليس لأن مصلحته تقتضي هذا.
وكم أراحه هذا الشعور، فلم يكن يومًا من الأشخاص الذين يسعون خلف مصلحتهم بغض النظر عن الأطراف الأخرى.
انتبه لها قادمة في رداء الصلاة الخاص بها.
تذكر رؤيته لها بالأمس ليهمس لنفسه:
- حجابك مخبي جمال من نوع تاني.
وقفت أمامه لتقول:
- في إيه يا جاهين.. قلقتني.
ضحك بتوتر:
- هو كل ما أطلب أكلم حد يقلق ليه؟!.
اتسعت بسمتها قائلة:
- طيب بلاش نقلق.. في إيه؟!
طالت نظراته لها وكأنه يرتب الكلمات التي كان ينوي قولها وغادرت عقله دون إدراك منه.
- هتتكلم ولا إيه؟!!

- حاضر هقول أهو... تعرفي لو في أي حد قالي إني في يوم هقف قدامك وأنا متوتر كده وبفكر ميت مرة قبل ما أقول الكلام.. كنت قلتله أنت بتحلم... وأكيد إنتِ كمان ماعندكيش أي توقع للكلام اللي عايز أقوله وهيفاجئك.
- سمعاك
- بسمة.. أنا.. أنا جوايا مشاعر ناحيتك.
عادت خطوة للوراء لتفتح فمها بذهول وقبل أن تنطق أشار لها:
- اسمعيني للآخر.. وإنتِ مش مطالبه إنك تقولي أي حاجه .. اسمعيني بس.
أطبقت شفتيها وقد خفضت بصرها عنه وقد إعتراها خجل حقيقي.
- أنا عارف إني كنت بالنسبة لك... جاهين اللي بيضايقك وينرفزك وبتتخانقي معاه على طول وحتى قفلتي الباب في وشه مرتين..
زادت بسمته ليغلف صوته الأجش العاطفة:
- بس هو نفسه جاهين اللي بقى بيفرح لما تضحكي.. اللي نفسه يحميكي.. يحميكي بجد.. اللي بيضايق لما تطلبي منه يكون بره أوضتك وما يسلمش عليكي.. لأنه عايز يبقى أقرب حد ليكي... اللي تستخبي وراه وإنتِ مش بحجابك مش تستخبي منه.. وعلشان ده يحصل لاقيت إن مافيش غير طريقة واحدة.
صمت لترفع بصرها نحوه والدهشة والارباك يغمر كل ملمح من وجهها، لتختفي بسمته ويحل محلها الحزم والقليل من التوتر هو قائلًا:
- بسمة.. تقبلي تتجوزيني؟!!

الفصل الثلاثون

مهبوش بخربوش الألم والضياع
قلبي ومنزوع م الضلوع انتزاع
يا مرايتي يا اللي بترسمي ضحكتي
يا هل ترى ده وش ولا قناع
عجبي!!
رباعيات جاهين

حينما يداهمك إحساس ما بأن الشخص الذي أمامك تغير بالفعل فيجب تصديقه.
كلماته...
صوته..
بل حتى نظراته..
هناك شيء تغير به ولكنها لم تستطع معرفته أو حتى تفسيره.
ارتدت جلباب الصلاة ونزلت إلى الحديقة تلتقيه كما طلب، وعقلها يحمل عشرات التخمينات...
بعضها كان له علاقة بالعمل والآخر بأخيها.
ولم يحمل أي منها أي تخمين فيما يخصه أو يخصهما معًا.
وكانت المفاجأة ما قاله للتو.
رُغم أنها خفضت بصرها عنه لكن كلماته جعلتها تهرب بعينيها في اتجاهاتٍ متعددة رغم ثقتها أنه لا يراها.
مشاعر.. أي مشاعر تلك التي يتحدث عنها.
ما تلك الكلمات التي تصل لأذنيها من صوته؟!
"- بسمة.. تقبلي تتجوزيني؟!!"
رفعت بصرها له بشكلٍ مفاجيء مع وصول تلك الكلمات لها، تحدق فيه بذهولٍ حقيقي، وقبل أن تفكر حتى في الكلام رفع كفه:

- مش عايزك تردي دلوقتي.. فكري.. خدي كل وقتك وفكري.. وأنا هستنى الرد اللي أتمنى يكون في صالحي طبعًا.

رمقت بسمته الهادئة للحظات، فتحركت عائدة للمنزل بصمت.

أطلق زفرة حارة محررًا كل توتر ملأ جوانبه وهو يحدثها، لم يستطع أن يستشف من رد فعلها كيف سيكون الرد، الذهول كان واضحًا على ملامحها، إذًا هي لا تحمل ناحيته أي مشاعر مما يعني أن ردها سيكون عقلي تمامًا.

فرك كفه متمتمًا:

- شدي حيلك معايا يا نانا... خليها توافق.

....

صعدت درجات السُلم بآلية واضحة، حالة من الشرود تكتنفها، وحالة من عدم التصديق تغلفها.

جاهين يرغب بالزواج منها؟!

أمرًا لم تتخيل حدوثه بأي حال.

لا تحتاج وقت للتفكير، عليها الرفض ببساطة، لا يمكنها الزواج بجاهين أو حتى غيره.

لازال قلبها يئن شوقًا وألمًا على حبٍ عاشته طويلًا وخسرته.

فكيف لها أن تخوض تجربةً كتلك الأن؟!

وجدت نفسها أمام غرفة الفتاتان، كانتا تتسامران لتنتبه لها نانا قائلة:

- بوسي.. تعالي.

دخلت إليهما وجلست بجوار نانا بصمت لتقول الأخيرة:

- في إيه مالك؟!

زفرت قائلة:

- جاهين؟!!

كتمت نانا ضحكتها لتقول:

- ماله؟؟

هزت رأسها:

- ده طلب يتجوزني.
صاحت الفتاتان بحماس في وقتٍ واحد لتطالعهما بدهشة ومها تقول بصدق:
- بجد.. مبروك يا بوسي.. أنا بحس إن جاهين ده جدع أوي.
لتقول نانا:
- أيوة كده خلونا نفرح ونهيييص... أحلى خبر سمعته.
- أُسكتي إنتِ وهي.
صمتتا بالفعل لتقول مها بريبة:
- في إيه يا بوسي؟!
- أنا لا يمكن أوافق.
صمتت نانا وتركت لمها السؤال فهي تعرف أنها ستقوم بدور غير مباشر في الأمر، ولم ترد أن تثير شكوك بسمة حول دعمها لجاهين.
وبالفعل تكلمت أختها:
- ليه يا بوسي.. جاهين ده شخص كويس وابن عمك .. ليه بقى مش هتوافقي.
- مش بحبه.
- بس مش بتكرهيه.. والحب بعد الجواز بيحصل مش مستحيل يعني.
هزت رأسها :
- أنا .. أنا لسه بحب معاذ.
وجدت نانا الوقت المناسب للتدخل فصاحت:
- نعممم... معاذ مين ده اللي لسه بتفكري فيه؟!. إنتِ اتهبلتي.
- نانا... أنا مش بقول إني مستنيه معاذ.. أنا عارفه أنه خلاص، بس أنا لو ارتبطت بغيره وأنا لسه بفكر فيه دي بالنسبة لي خيانة.. وأنا مبحبش أكون خاينة ثم جاهين عمره ما خطر في بالي.
مالت نانا ناحيتها:
- ومايخطرش ليه يا حبيبتي.. رجل أعمال.. غني.. حلو.. وابن عمك.. يالهوي.. في إيه تاني علشان يترفض ماتقولي حاجه يا مها.

- بصي يا بوسي.. أنا عمري ما ارتحت لموضوعك إنتِ ومعاذ ده... وخلاص دي قصة قديمة وانتهت معقولة لسه في قلبك الموضوع مافيهوش خيانة طول ما معاذ بعيد فعلًا.. أنا بقول إدي لجاهين فرصة مش هتخسري حاجه.
أكدت نانا على كلماتها:
- الله ينور عليكِ يا مها.. تصدقي خليتيني أنا ومها نتفق على حاجه ودي نادرًا ما تحدث وأظن إنها علامة كويسة.
وقفت أمام بسمة مردفة:
- وفي بقى الأهم من كل ده.
رفعت بسمة بصرها لها متسائلة:
- اللي هو إيه؟!
- فاكرة لما قلتي إنك عايزة تاخدي كل حاجه من سميحة.. كل حاجه ومن ضمنها عيلتها اللي هي فرحانه بيها وبتستتقلك عليهم.. طب ماهو جاتلك على طبق من دهب.. جوازك من جاهين هيكون أول خطوة في تنفيذ اللي إنتِ عايزاه ومش كده وبس في حليف ليكِ أكتر من واحد بيحبك وهيكون جوزك أكيد لأ.. ده هيبقى أقوى دِرع ليكِ من سميحة وشرها.
ضاقت عيني بسمة تفكر في كلماتها التي قاطعتها مها:
- إيه اللي بتقوليه ده يا نانا.. إنتِ ماتكمليش عدل للآخر أبدًا حليف إيه ودرع إيه؟!.. هي حرب!! جاهين عايز يتجوزها لأنه عايزها وإنتِ هتخليها توافق علشان تستغله لأ طبعا إياكِ تعملي كده يا بوسي.
- أُسكتي إنتِ .. هو أنا بقولها ضُريه ماهي هتكون مراته ومسيرها تحبه .. بس إيه المشكلة لما تبقى قاعدة ومطمنة أنها في حمايته.
هزت مها كتفيها:
- استخري ربنا يا بوسي.. فكري بعقلك وقلبك سيبك من كلام نانا اللي مالوش لازمة ده.
زفرت نانا بضيق ولسان حالها..
"أُسكتي شوية بقى هتخربي الدنيا"

لتقول بصوت مسموع:
- ماشي سيبك مني.. فكري في اللي ينفعك يا بوسي خليكِ ناصحة.
سكتت بعدها لتتركها لأفكارها، مع ابتسامة خالصة على شفتيها، ستعود للهمس في أُذنيها بما يجب أن تقوله، لتُقنعها بالقبول بجاهين ليمكنها بعد ذلك ادخال شهاب بينهم ونيل ما تمنت.
....

انتظر سامر عودة معاذ ليطمئنه على تسليم ورق المناقصة التي يشارك بها شركة الشربيني.
وقبل أن يعود أخيه دخلت إليه سما لتطلب منه السفر في الغد لعقد صفقة كان المفترض أن تقوم هي بتوليها.
مما أثار دهشته فهذا النوع من الصفقات ما كانت تتنازل عنها له أبدًا.
- غريبة يعني يا سما هانم... دايمًا بتعملي ده بنفسك.
هزت كتفيها بلامبالاة:
- تعبانه مليش مزاج أسافر.
أومأ برأسه لتضيف:
- عمومًا السفر مش هيطول أسبوع بالكتير وهترجع.
- ماشي.
وصل معاذ أخيرًا، فالتفتت له أمه تحدجه بنظراتها الغاضبة لتغادر مكتب سامر بصمت.
هز معاذ رأسه قائلًا:
- هي هتفضل كده كتير.
ابتسم سامر ساخرًا:
- هي لسه عملت حاجه.. مش عارف بترتبلك إيه علشان تقنعك بالجوازة دي.. بس أكيد هتعمل حاجه.
جلس أمامه قائلًا بإصرار:

- تعمل اللي تعمله.. أنا لا يمكن هوافق.
رمق أخيه لحظات، أحيانا يشعر بالغبطة منه لتمسكه برأيه بهذا الشكل ولطالما تسائل ماذا كان سيحدث لو تمسك بأحلام ولم يستجِب لها وهي ترجوه بأن يتركها وشأنها.
ما أقصى ما يمكن أن تفعله سما لإيقافه؟!!
لم يجد إجابة للسؤال حينها، لكن ما يعلمه جيدًا أنه لا يريد لمعاذ أن يتعرض لأي أذىً.
فعل كل ما فعل ليحميه، فلو بعد كل هذا تسببت له بالأذى لا يعلم كيف سيكون ردة فعله.
- ساامر.
انتبه لنداء أخوه الذي أردف:
- سرحان في إيه؟!
- لا أبدًا عملت إيه؟!
- كله تمام سلمنا في آخر الوقت والنتيجة إن شاء الله في صالحنا.
أومأ برأسه مؤيدًا ليضيف:
- اسمع يا معاذ.. أنا هسافر كام يوم كده في شغل تابع أنتَ بقى الدنيا لحد ما ارجع،، ويُفضل تتجنب سما خالص دلوقت على الأقل لما أكون مش معاك.
ابتسم معاذ مرددًا:
- اشمعنى.. هي بتخاف منك.
قال ساخرًا:
- سما مابتخافش من حد.. بس أنا عايز دايمًا أكون قريب منك.. المهم لما أسافر خلي تليفونك دايمًا معاك وأنا هكلمك على طول ولو في أي حاجه حصلت قولي على طول.
- ماشي تروح وتيجي بالسلامة.

غادره معاذ لمكتبه، ليسترخي سامر للحظاتٍ عائدًا لذكرياته المريرة والتي تعود له بإلحاح في وجود معاذ، لم يتصور أن يتعرض أخيه لنفس الموقف الذي تعرض له يومًا.

ومازال ذلك الصراع داخله قائمًا... هل أصاب أم أخطأ؟!

....

الترقب والانتظار لم يكن هينًا أبدًا.

لم يتصور أن تأثير ذلك الأمر عليه سيكون بتلك الشدة، لا ينفك يفكر في الأمر حتى أنه أجبر عقله على الانشغال بالعمل ومع ذلك يُطالع هاتفه كلما سمع رنينه ربما يكون منها، أو حتى من نانا.. أي شيء!!

وللأسف دومًا لا شيء.

حتى وافي لاحظ ما هو فيه فسخر من حاله فلم يمر غير بضع ساعات على اخباره لبسمة فماذا يفعل في اليوم التالي أو الثالث؟.

وهو على حق، من أخبره أن بسمة ستجيبه بتلك السرعة، ألم يطلب منها أن تفكر في الأمر وتأخذ وقتها، فلمَ العجلة؟!

زفر قائلًا:

- الانتظارده رخم أوي يا أخي.

- معلش يا وحش.. استحمل شوية.

صمت لبرهة قائلًا:

- تفتكر هترفضني.

كان وافي يطالع تصميمات ما أمامه ليجيب:

- احتمال وارد.

- ما تتفائل يا ابني.

صاح بها جاهين ليضرب وافي كف بكف:

- لا إله إلا الله.. مش أنتَ اللي سألت.. طلب الجواز حاجه من اتنين يا توافق يا ترفض مالوش احتمالات تالتة.

فرك جاهين كفه بعصبية:

- هتوافق ان شاء الله.
ابتسم وافي وقد أشفق على حاله:
- إن شاء الله يا جاهين.. عمومًا أنا هكلمها بليل وهعرفها أد إيه أنا فرحان بالموضوع ده.
- يا ربييت.. وحاول بقى كده تشوف فرصي في القبول أد إيه... بشرني .
- حاضر يا سيدي.. إن شاء الله أبشرك.
- حبيبي يا وافي.. حبيبي وربنا.
ضحك وافي وهو يهز رأسه تعجبًا من حال ابن عمه الذي تبدل في يوم وليلة.
بينما تناول جاهين هاتفه ليوقفه وافي:
- رايح فين؟!
- هعمل تليفون وأرجع على طول.
غادر المكتب ليأخذ زاويةٍ ما، وهو يضرب شاشة هاتفه متصلًا بها، أجابته سريعًا فسألها:
- في حد جنبك؟!
- لأ لوحدي.
- طيب طمنيني إيه اللي حصل.. قالتلكم.
- طبعًا.
- ورد فعلها كان إيه.. يعني مايلة للرفض ولا القبول.
- أنتَ مستعجل أوي يا باشمهندس.. الصبر... هي أكيد يعني مش هتوافق كده بسهولة.. أنتَ مش في دماغها.
- نعم؟!!
- سووري.. قصدي يعني إنها بتعتبرك ابن عمها وبس.. أكيد موضوع الجواز حاجه تانية.. أنا مش قلتلك مبروك مقدمًا.. سيب الموضوع عليا وماتقلقش.
- يعني هي قالت كده.. أنا مش في دماغها.
- خلينا منطقيين.. موافقتها أو رفضها هيكون صوت العقل وبس لأن مفيش عواطف عندها ناحيتك بس ولو.. برضو إن شاء الله هقنعها توافق.

صمت مهمهمًا فأضافت:
- إن شاء الله بوسي من نصيبك.. وإبقى افتكر إني قلتلك.
ابتسم قائلًا:
- ماشي.. متشكر.. يالا سلام.
أغلق هاتفه ليزفر وقد هبطت معنوياته كثيرًا، ولا يعلم لماذا؟!
أيتصور أنها تحبه مثلًا، هو اكتشف انجذابه لها بالأمس فقط، أيريد أن يقنع نفسه أنها تهيم به عشقًا.
كما قالت نانا، قبولها أو رفضها سيكون عقلانيًا بحت.
وعليه تقبله أيًا كان.
عقد حاجبيه برفض، لا.. لا يمكنه تقبل هذا.
صحيح أن بداخله مشاعر ناحيتها ولم يعد ينكر ذلك ولكن زواجه منها ليس للمشاعر فقط، وليس لديه الوقت لكل هذا.
عمته لن تنتظر ولا يعلم ما هي خُطوتها التالية؟!
وإذا علمت بأمرِ خِطبته لبسمة بالتأكيد ستثور عليه كثيرًا، وعليه الاستعداد لهذا من الآن.
أيًا كان رد فعلها، لن يسمح لها بالتحكم به أو ببسمة، وهي لن تستطيع أن تبالغ في رفضها كي لا ينتبه وافي لما تعتمله داخلها لأخته.
سيكون وافي هو الدرع الواقي لرفضها المستميت.
وافي من سيجبرها على الصمت إذا قبلت بسمة.
همس بقلبه قبل لسانه..
"وافقي بقى يا بسمة"

....
استلقت في فراشها والحيرة تعصف بها.
كلمات نانا المكررة والتي لا تتوقف عن سردها عليها، وهي تعدد مزايا تلك الزيجة التي لن تتوفر في أي زيجةٍ أخرى.
والمعضلة أن كلماتها كلها صحيحة تمامًا.

جاهين لن يكون زوج وحسب... جاهين سيكون كل شيء آخر له علاقة بمستقبلها...
في العمل، في حياتها بالمنزل، وفي مواجهاتها مع سميحة.
جاهين سيكون دِرعها الحامي والقويْ أمام أي محاولات قادمة للغدر من سميحة...
جاهين سيكون عونًا لها في العمل بل ربما سيصبح له ولها القوة الضاربة في الشركة يومًا.
جاهين سيحقق لها كل حلم حلمت به يومًا.
ومع ذلك لا تستطيع القبول.
لأنه ليس هو.. ليس معاذ.
فكل أحلامها بلا استثناء حملت وجه معاذ... كلماته.. همساته.. حبه، لم تغلق عينيها يومًا إلا وهي تتصور حياتها معه هو فقط.
فكيف تنزع معاذ من أحلامها وتستبدله بجاهين.
أيتصورونها ألة؟!
هي تعلم أن معاذ كان حُلمًا وقُدِرَ له أن يبقى كذلك.
فما رأته أخبرها أنه نسِيَها تمامًا وقرر أن يُكمل حياته بدونها، وعليها أن تفكر بنفس الطريقة.
لكن الأمر ليس بتلك السهولة.
لا تريد أن تظلم جاهين معها فقط لأن مصلحتها تتطلب هذا، لا تعرف إن كانت ستمنحه قلبها يومًا.
أم عليها أن تعيش كما يعيش الكثير غيرها.. زواج بلا حب.
وضعت كفها على رأسها تُناجي ربها أن يلهمها الصواب.
إلتفتت على صوت طرقات على بابها مصحوبة بصوت وافي لتأذن له بالدخول.
انضم لها فاعتدلت جالسة في فراشها ليقترب منها مبتسمًا بود:
- عاملة إيه؟
- الحمدلله.

- حجزتي عند الدكتور.
- هااا.. آه بكرة هحجز ان شاء الله.
- امممممم... اللي واخد عقلك.
إلتفتت تحدق به بشك لتقول:
- إنت أكيد عارف موضوع جاهين.
- أكيد.
- وإيه رأيك؟!
اتسعت بسمته:
- عايزة رأيَّ في أخويا وصاحبي وابن عمي.. أكيد شهادتي فيه مجروحة، بس كمان عمري ما هتمنالِك راجل يكون جنبك بجد أحسن من جاهين... ده راجل العيلة دي حتى لو كان مش باين بس ده إحساسي بيه.. أنا من غيره ممكن أتوه أو أقلق.. بس مجرد ماأكون شايفُه وعارف إني ممكن أوصله في أي وقت وأستشيره مش بكون قلقان أبدًا... ياريت جاهين يبقى مصدر أمان ليكِ إنتِ كمان زي ما هو مصدر أمان ليا.
رفع بصره ناحيتها يحاول قراءة ملامحها لكنها كانت متجهمة، تذكر حالة جاهين التي كان عليها في العمل وشعر بفارق كبير بين مشاعر الإثنان.
مط شفتيه للحظة قبل إن يقول:
- تعرفي إنه صعب عليا النهاردة.
إلتفتت إليه فضحك قائلًا:
- كان مش على بعضه خالص... وكل دقيقتين يبص عالتليفون، تصدقي كان فاكر إنك ممكن تردي عليه بسرعة كده.
استمرت ضحكاته لحظات :
- صدق من قال الحب بهدله.
لم تستطع أن تمنع نفسها من الابتسام على كلمات أخيها، الذي أحاط كتفها بذراعه:

- عايزك تعرفي إنك حرة في تفكيرك ومفيش حد هيجبرك على حاجه.. أنا أتمنى تبادلي جاهين مشاعره وتتجوزوا.. أكتر اتنين قريبين مني ممكن يتجوزا.. متعرفيش هكون مبسوط أد إيه وصحيح بتمنى جاهين يكون رَجُلِك بس إلى أن يحدث أنا موجود.. ومش هخلي حد يضايقك حتى جاهين نفسه.. تعرفي إنه ممكن يقتلني لأني قلت الكلمتين اللي في الآخر دول خليهم في سرك بقى.

اتسعت بسمتها أكثر وهو توميء برأسها، نهض ليتركها لكنه عاد وإلتفت قائلًا بلهجة حاول أن تكون طبيعية فبدت العكس تمامًا:

- هي مها قالت إيه عن موضوع الدكتور؟.

ارتكنت بسمة ماكرة على طرف شفتيها ترمقه للحظات:

- هتروح إن شاء الله.

لم يخفَ عليها السعادة التي احتلت ملامحه بوفرة، وهو يوميء برأسه مغادرًا غرفتها.

هذا الهاجس الذي يؤكده بتصرفاته لا يغادر عقلها.

أيمكن أن يكون حقيقة؟!

غادر وافي غرفتها وشعور بالسعادة فعلًا يغمره، كان يخشى عدم قبول مها للأمر، ولكن حمدًا لله لقد قبلت.

كم يدعو الله أن يكتب لها الشفاء وتستعيد بصرها.

يعتقد أن فرحته ستضاعف فرحتها هي.

هو فقط يريدها سعيدة، معافاة، لا تحمل هم ظلام تحياه، لا تخشى كل غريب كما يراها دومًا.

بل وأكثر ما يتمناه.. ألا تعتقد يومًا أنه يشفق عليها لأي سبب؟!.

"أتأخرت كده ليه؟!"

انتفض في مكانه فعليًا وهو يحدق في جاهين بغضبٍ بالغ:

- إيه يا ابني... خضتني.

- إيه يا عم... اتفزعت كده ليه شوفت عفريت.
وضع وافي كفه على صدره:
- يا أخي حرام عليك والله خضتني إنت إيه اللي مقعدك في أوضتي.
- عملت إيه؟ كلمتها.
- يا ربي... هو أنتَ علشان تتجوز هتقطعلي أنا الخلف.
- اخلص يا وافي.
- بتفكر يا جاهين.. أنا عن نفسي دعمتك وقلت فيك درر.
ضاقت عيني جاهين:
- درر.. أستر يا رب... شكلك هتطفشها.
- كده برضو تعرف عني كده.
لوى جاهين شفتيه ليقول:
- المهم.. رد الفعل أخباره إيه؟!
- هي مترددة.. وده كويس.. يعني بدل ما كانت هترفض دلوقتي بجد بتفكر ودي علامة كويسة.
- يااا رب... إلا قولي.. أقول لعمتي سميحة على الموضوع ده ولا أستنى لمَا توافق.
- أعتقد تستنى لما توافق.
أومأ برأسه إيجابًا، متمنيًا أن تمنحه بسمة موافقتها سريعًا.

....
دخل سامر غرفة معاذ الذي لا يزال يغط في النوم.
- معااذ... معاااذ.
أجابه بنزق:
- هاااا.
- أنا مسافر... متتأخرش على الشغل وركز كده لحد ما أرجع.
- حاضر.
قالها ليغط بالنوم في لحظات.

هز سامر رأسه بيأس:
- هتكبر إمتى يا ابني أنت؟!
إلتفت ليغادر غرفة أخيه ليجد سما تقف في الأسفل، لم يهتم كثيرًا بها أكمل طريقه فأوقفته بقولها:
- ماترجعش إلا لما تخلص الموضوع ده.
- حاضر.
استمر في تقدمه قبل أن يتوقف ملتفتًا لها:
- ياريت تِخفِي على معاذ شوية.. وقولتلك قبل كده افتكري إنه الوحيد اللي لسه بيقولك يا ماما.
مطت شفتيها دون تعليق، عقد حاجبيه يرمقها للحظات لتقول:
- هتتأخر على الطيارة ... توصل بالسلامة.
أنهت جملتها لتصعد الدرج إلى حجرتها.
راقبها حتى اختفت في الأعلى واستدار هو أيضًا مغادرًا.
خرج لسيارته التي سيقودها السائق ليوصله إلى المطار وانطلق بها، ولم ينتبه لأمه التي وقفت بشرفتها تتابع رحيله وما أن ابتعد حتى ابتسمت بتشفٍ:
- وريني بقى يا معاذ هتعمل إيه من غير ضهرك.. اللي مقويك عليا.

تنبه معاذ للساعة أخيرًا ليشعر أنه تأخر، غادر فراشه لينال حمامًا سريعًا ويبدل ثيابه، دار برأسه في الغرفة باحثًا عن هاتفه وحافظته ومفاتيح سيارته، دومًا يضعهم بجوار بعضهم، إتجه إلى الفراش يقلب أغطيته بلا فائدة.
زفر قائلًا:
- هما راحوا فين؟!!
- بتدور على إيه؟!
إلتفت إلى أمه التي وقفت على باب غرفته تعلو وجهها ابتسامة مجهولة المعنى، لم يهتم بالرد واستمر في البحث.
- معاذ.

صاحت باسمه فإلتفت لها مجيبًا بعصيبة:
- نعم.
- سؤال وتجاوب عليه حالاً.. هتتجوز نرمين ولا لأ؟!!
هز رأسه تعجبًا:
- عالصبح كده.
- صبح إيه يا حبيبي إحنا الضهر وأنتَ أخرتني عن الشغل بما فيه الكفاية .. انطق.. هتتجوزها؟!
- لا يا ماما... قلتلك مش هتجوزها ريحي نفسك.
فتح أدراج مكتبه الصغير متمتمًا:
- مستحيل أكون حطيتهم هنا.
- طب ريح نفسك أنتَ بقى ومتدورش.. حاجتك كلها معايا.
رفع رأسه لها بدهشة مرددًا:
- نعم... مش فاهم خدتيهم ليه؟.
عادت خطوات للوراء لتكون خارج غرفته قائلة:
- هتعرف دلوقت... بقى أنتَ عاملي سبع رجالة في بعض وعايز تمَشي اللي في دماغك... ماشي.. أنا بقى هوريك يعني إيه تعاند سما.
إلتفتت لجانبها الأيمن مشيرة إلى من لم يتمكن هو من رؤيته قائلة:
- طلعوه بره.
عقد حاجبيه بغير فهم، لتتسع عينيه بعدها ذهولًا وهو يرى اثنان من أفراد الأمن يتقدمان نحوه فعاد خطواتٍ للوراء صائحًا:
- إبعد عني أنتَ وهو.. إنتِ بتعملي إيه؟!!
- هتعرف دلوقت.
قالتها لتصيح برجُليْ الأمن اللذان ترددا للحظة:
- واقفين ليه؟.. نفذوا اللي قلتلكم عليه... طلعوه بره .. وميدخلش تاني أبدًا إلا لما أقول.
حدق بها بدهشة بالغة وفزع حقيقي وهو يردد:

- ماما.. إنتِ بتقولي إيه؟!
تصورَ أنها مزحة سخيفة أو تهديد واهٍ، لكن ما أن أمسك رجلي الأمن بذراعيه ليجبرانه على الحركة حتى حاول التملص منهما بقوة فصرخت سما:
- ماحدش يسيبه غير بره.. طلعووووه بره.
أفسحت لهما الطريق وبدأ الأمر يكون أكثر عنفًا، معاذ يقاومهما بشدة وهما يجبرانه على التحرك معهما، حتى أنه تقريبًا تم جره على السلم جرًا.
ليعلو صياحه:
- ماما.. إيه اللي بتعمليه ده.
ظلت مكانها ترد عليه من أعلى:
- مش أنت مش عايز تطيعني خلاص بقى. عيش لوحدك.. وريني شطارتك وماتفكرش تروح الشركة أنا مدياهم تعليمات هناك إنك ماتعتبهاش.. بلاش تحرج نفسك... ولما تعقل بقى يا حبيبي وتعرف إنك ماتقدرش تعيش لوحدك إبقى تعالى وقولي أنا موافق أتجوز نرمين وساعتها هسامحك.
صرخ بعصبية بالغة:
- مش هتجوزهاااا... سامر هيرجع وهستناه... ليه حق يناديك سما إنتِ مش ممكن تكوني أم..مش ممكن.
ردت على صراخه بضحكة هازئة:
- سامر أنا هحجزه في السفريه دي شهر على الأقل... شد حيلك بقى وأنتَ مستني في الشوارع شهر... يا حبيب ماما.
فقد كل قواه مع كلماتها تلك ليستسلم لدفع رجلي الأمن له حتى تم إخراجه من القصر وإغلاق بابه خلفه.

وقف مكانه يسترد أنفاسه الهاربة، غير مصدق ما حدث للتو، أحقًا طردته أمه من البيت، وليس هذا فحسب، لقد سحبت هاتفه وحافظة نقوده.
هل أصابها الجنون؟!!
إنه لا يملك ما يحركه من مكانه هذا.

سار بضع خطوات ليجلس على رصيف جانبي، أسند رأسه على كفه والعجز يملأ كل جوارحه.
أين يذهب... بل وكيف؟!
رفع رأسه للسماء وكأنه يحدث أخيه المسافر:
- سامر.. سامر أنا محتاجلك أوي.
مال برأسه ينظر لساعة يده يعرف الوقت، وطالت نظرته لساعته الأنيقة ليتذكر كلمات أخيه:
- كل سنة وأنتَ طيب.. خد بالك من الساعة دي لأنها قيمة فعلًا.
علت شفتيه بسمة متحسرة:
- حتى وأنت بعيد هتساعدني يا سامر... سامحني.. ماعييش غيرها أتصرف فيه.

استقل سيارة أجرة وإتجه لأحد أكبر محلات الساعات العالمية، واستطاع بالفعل بيع الساعة بمبلغ جيد تعدت ال١٠آلاف جنيه، مع علمه أن الساعة فعليًا تساوي ضعف هذا المبلغ.
واستمر مع سائق الأجرة حتى أوصله إلى فندق متوسط المستوى فلم يُرد أن يفقد كل المال بهذه السرعة.
وأخيرًا ألقى بجسده على فراشه الجديد، لم يكن بأناقة فُرشه المعتادة لكنه أفضل من النوم في الشارع أو في نزل حقير.

....
أنهت صلاة استخارة ثانية بعد أن صلت بالأمس أيضًا، لم يعد لديها سبيل لتفكر وقد عجز عقلها عن الوصول للحل السليم، خاصة أن قلبها قرر أن يعتزل برأيه.
معاذ وكفى!!
نفذت ما نصحتها به مها، اللجوء إلى الله.
هو وحده يعلم ما سيكون وكيف سيكون.

هو وحده يعلم الخير لها من الشر.
رفعت كفها تتضرع له بأن يساعدها ويلهمها الصواب، وأيًا كان اختيارها رجت من قلبها أن يكون فيه الخير الكثير.
خرجت من دعائِها على صوتٍ على بابها نهضت تفتحه وهي مطمئنة لارتداءها حجابها.
لتجده يقف أمامها يخفي وجهه خلف باقة ورد كبيرة قائلًا:
- أنا مخبي وشي أهو.
- مفيش مشكلة أنا بحجابي.
أنزل الباقة عن وجهه وتعلق بصره بها حتى سبب لها الحرج فخفضت بصرها قائلة:
- خير.
مد الباقة لها:
- اتفضلي.
رمقت الورد للحظات قائلة:
- إيه المناسبة؟!
- رشوة!!
هزت رأسها باسمة:
- بس كده ربنا مش هيبارك!!
- لأ خلاص.. نخليها هدية.
مدت يدها تتناولها منه شاكرة أرادت الدخول فأوقفها:
- بسمة.. أنا مش عايز أحس إني بضغط عليكِ.. بس برضو مش قادر أفضل ساكت كده وخلاص.. أنا بس نفسي تعرفي أد إيه هكون سعيد وأنا معاكِ وأوعدك إني أخليكي سعيدة.
عاد الخجل يعتريها واكتفت بالصمت بينما تسرب اليأس له، كيف يقنعها أنه يريدها... كيف؟!!
- آه صحيح.. انا ماقلتهاش قبل كده صح؟!!

رفعت رأسها له متسائلة:
- هي إيه دي؟!
- بحبك.
بالتأكيد لتلك الكلمة وقع مختلف في أذن كل فتاة، أما إذا كان قلب تلك الفتاة مشغول بآخر فالتأثير لن يكون جيدًا أبدًا.
لكن ما حدث لها هو انتفاض داخلي شعرت به بالفعل، حتى أنها اندفعت للداخل وهي تغلق باب غرفتها تختفي خلفه.
احتضنت باقة الورود وكأنها تحتمي بها من مشاعر تخشى أن تتسلل إليه خلسة، وتناست أن تلك الورود تحمل بصمته هو.

على الجانب الآخر تبدلت ملامح اليأس مع ردة فعلها تلك، لقد استطاع أن يصيبها بالارتباك، وهذا في حد ذاتِه أمرًا جيدًا، لو كانت لا تفكر فيه على الإطلاق لربما نهرته وصفقت الباب في وجهه كعادتها.
لكن ذلك الخجل المُحبب الذي أصابها ملأ قلبه بسعادة حتى وإن كانت مؤقته.
لتستقر ابتسامةٍ مطمئنة على وجهه.
سار بضع خطوات حتى وقف أمام غرفة فاطمة، لا يُقلقه أمرها، يثق تمامًا أنها ستسعد بهذا الخبر، فكر أن يحدثها لتكون داعم له، لكنه لا يريد لبسمة أن تشعر أنه يحاصرها من كل جانب فتنفر منه.
فكما يقولون ما زاد عن حد انقلب ضده.
لكن هذا لم يمنعه من أن يطرق بابها ليلقي عليها التحية فبسمتها له تُشعره دومًا بالطمأنينة.
وبالفعل لاقته بوجهها البشوش.
- أهلًا يا جاهين يا ابني.. عامل إيه؟!
- الحمدلله يا أبلة بطة.. إنتِ عاملة إيه؟!
- في نعمة.
رمقها للحظات غلبها التردد فقالت:

- مالك يا ابني في حاجه؟!!
- ها.. لا أبدًا.. ممكن تدعيلي بحاجه أنا حاسس إن بينك وبين ربنا عمار.
- يا رب يا ابني.. ربنا يجعلنا من أهله.
- طيب ادعيلي ربنا ينولني اللي في بالي.
اتسعت بسمتها لتقول:
- ربنا ينولك اللي في بالك ويجبر بخاطرك دنيا وآخره يا جاهين يا ابن ميادة.
رفع كفيه للسماء:
- آميييييييين.. اثبتي عالدعوة دي بقى، أوعي تنسيني.
- حاضر يا ابني.. ربنا يكتبلك الفرح زي ما بتحب تفرح اللي حواليك.
غادرها ولازالت البسمة تعلو شفتيها وبعد ذهابه اختفت تدريجيًا.
لازال الشخص الذي تتمنى أن يطرق بابها لم يأتِ.
لازال الابن الذي تتمنى أن يرجو دعاءها ويفرح لبسمتها لا يراها.
ولازالت تلوم قلب أضعف من أن يدافع عن حقها.

الفصل الحادي الثلاثون

عيني شافت مولود على كتف أمه
يصرخ تهنن فيه يصرخ تضمه
يصرخ تقول يا بني ما تنطق كلام
ده اللي مايتكلمش يا كتر همه
عجبي!!
رباعيات جاهين

هي حائرة وهذا أمر لم تتوقعه، يبدو أنها تأثرت كثيرًا بكلمات نانا، ولكنها في الوقت ذاته لا تريد أن تظلم جاهين معها.
ربما لن تتمكن من العودة لمعاذ، لكن استبداله بآخر في الوقت الذي لا زال يتربع في قلبها بثباتٍ ليس بالأمر الجيد ولا التصرف اللائق.
"بحبك"
حروف كلمته تتسلل لتداعب مشاعر الأنثى فيها، لا تعلم متى وكيف تمكنت من قلبه، تصورت أنه يبغضها لما يحدث بينهما من شجار دائم.
علت البسمة شفتيها وهي تتذكر ما حدث منذ أول لقاء بينهما إلى الآن، لم تتوقع أن تأخذ الأمور ذلك المنحنى قط.
انتبهت لصوت أمها:
- ياله يا بوسي أنا جاهزة.
إلتفتت لها لتقف قائلة:
- طب يالا بينا بسام هيوصلنا.
- هو قالك كده.. ولا إنتِ اللي طلبتي.
أمها تبحث عن الاهتمام بطريقتها الخاصة، ابتسمت مجيبة:

- هو اللي قال يا ماما.
ارتسم الرضا على ملامحها وهي تتبع ابنتها إلى الحديقة التي ينتظر فيها وافي، الجالس خلف عجلة القيادة في انتظارهما.
لتجلس بسمة بجواره بعد أن ساعدت أمها على الجلوس بالأريكةِ الخلفية، لينظر لها عبر المرآة فضولًا فتبادله هي النظرة شوقًا.
ليغلفهم الصمت حتى وصولهم إلى عيادة الطبيب، وظل وافي بالسيارة في انتظار عودتهما.
ومرت ساعتان حتى ظهرتا أخيرًا، وما إن ركبا السيارة حتى قالت فاطمة:
- معلش يا ابني.. الدكتور ده زحمة أوي.. أنا والله قلت لبوسي خلاص ياله نمشي اتأخرنا على أخوكٍ بس هي قالتلي أنتَ عارف أنه زحمة.
هزت بسمة رأسها من كلمات أمها الكثيرة ليقول وافي بهدوء:
- أيوة عارف.. ولا يهمك... المهم قال إيه؟!
أجابت بسمة عنها:
- كتبلها أدوية جديدة وقال تبعد عن العصبية والحاجات اللي تزعل.
أومأ برأسه قائلًا:
- خير.. بالشفا إن شاء الله .. يا ماما.
قالها وهو يدير محرك السيارة وبدت حروفها متوترة لكنها كانت مسموعة لهما لترمقه فاطمة بدهشة للحظة قبل أن تتحول إلى سعادة طاغية فلأول مرة تسمعها منه.
وعاد هذه المرة ليمنحها نظرة لا تحمل فضول غير مفهوم وإنما ترقب لرد فعل، لتتسع بسمتها الحانية له ليبادلها إياها وإن كانت خاطفة قبل أن يقول:
- تحبوا تتعشوا.
صفقت بسمة:
- أيووة نحب جدا.. ودينا عند المحلات اللي بتجيب الأكل في العربيات.
- على إيه يا بنتي الاكل بره.
- يا ماما هو ساندوتش هو إحنا هناكل خروف.

انطلق وافي إلى وجهته دون تعقيب، وبالفعل تناولوا وجبة صغيرة عند أحد المحلات، لتتولى بسمة معظم الحديث وكان في أمور عامة، بينما اكتفت فاطمة بمراقبة ولديها بحبور، لينطلق بعدها وافي لطريق العودة إلى المنزل.
هي المرة الأولى أيضًا التي تجدهما يتحدثان معًا بلا حواجز أو قلق، يبدو أنهما نجحا في تكوين تلك الروابط التي كانت انقطعت بفعل فاعل.
- صحيح.. ماعرفتش رأيك في موضوع جاهين؟!
قالها وافي لتتسع عيني بسمة فهي لم تخبر أمها بعد، أما فاطمة فرمقته بعدم فهم:
- موضوع جاهين!... موضوع إيه؟!
بدى عليها الجهل تمامًا فمنح بسمة نظرة سريعة قائلًا:
- إنتِ ماقلتلهاش؟!
هزت بسمة رأسها:
- كنت هقولها بعد ما آخد قرار مأنا عارفه إنها هتوافق.
- إنتوا بتتكلموا عن إيه؟!
ابتسم وافي قائلًا:
- جاهين... طلب إيد بسمة.
ضاقت عيناها لتعي ما قاله:
- إيه.. بتقول جاهين طلب بسمة؟!!
رمقها عبر المرآة وعلى ملامحها تتكون تعبيرات أبعد ما يكون عن الفرحة مما أصابه بالدهشة قائلًا:
- أيوة.. بس هي لسه ماقررتش.
إلتفتت تحدج ابنتها بنظراتها قائلة:
- ماقلتليش ليه؟!
هزت بسمة كتفيها:
- ماإنتِ أكيد هتوافقي.
- لأ.. مش هوافق.

سقطت كلماتها عليهما كلطمة مفاجئة حتى أن وافي اختلت عجلة القيادة في يده لثانية لكنه استعاد توازنه لينظر إلى بسمة بدهشة بالغة بينما إلتفتت إلى أمها:
- غريبة.. أنا قلت إنك هتفرحي أوي بالموضوع ده.
تبادلت معها نظرات لم تفهمها بسمة ولم تعقب ولازال وافي ينظر إلى تعبيرات وجهها الغريبة والتي لم يفهما هو أيضًا وإن بدى واضحًا أن طلب جاهين لم يلقى أي استحسان منها.
سادهما الصمت إلى أن وصلوا، لتغادر فاطمة السيارة على عجل تتبعها ابنتها قائلة:
- ممكن أفهم إيه رد الفعل الغريب ده؟!
إلتفتت لها قائلة:
- سميحة عرفت بالموضوع ده؟!
رمقتها بسمة بشك قائلة:
- أعتقد لأ.
ربتت فاطمة على صدرها:
- الحمدلله.
أمسكت بكف ابنتها قائلة:
- تعالي.
سارت معها إلى أن وصلت إلى غرفتها فدخلتها وأغلقت الباب خلفها لتقول:
- موضع جاهين ده مستحيل يتم.. ده سميحة مش بعيد تعمل مصيبة لو عرفت.
زمت بسمة شفتيها بغيظ مرددة:
- نعم؟!... بتقولي إيه؟!
- اسمعي يا بوسي.. أنا ما صدقت بسام بدأ يقرب مننا تاني سميحة لو عرفت إن جاهين هيتجوزك هتقلب الدنيا ومش بعيد تعرف تبعد بسام عننا تاني.. أنا عارفاها دي ممكن تعمل أي حاجه علشان تمنع الجوازة دي.. دي أذى.... أنا ..
- كفاية بقى!!
صاحت بها بسمة لتحدق بها أمها بذهول لتردف ابنتها بنفس العصبية:

- أنا مش قادرة أصدق إنتِ كده أزاي؟!.. سميحة إيه دي اللي رعباكِ أوي كده.. ثم إنتِ كل اللي يهمك قربك من بسام طب وأنا مش مهم مصلحتي فين.. مع إن كل العقل بيقول إني أوافق لأن جوازي من جاهين كله مصلحة، لكن إزاي.. إنتِ عمرك ما فكرتي في مصلحتي تفكيرك كله واقف على خوفك من سميحة ورجوع ابنك ليكِ.. وأنااا مش مهم.. إن شا الله أموت حتى... حرام عليكِ بقى.. حرااام.

هزت فاطمة رأسها بنفي:

- لا يا بنتي.. أنا كنت لسه هقولك إني خايفة عليكِ دي ممكن تأذيكِ.. يابنتي إحنا مش عايزين حاجه منهم غير أخوكِ.. خلينا بعيد عنهم أحسن.

ضحكت ساخرة:

- نعمم.. مش عايزين غير أخوكِ ده كلامك إنتِ لكن أنا عايزة كتير.. كتير أوي.. ومش هسمح لجُبنك ده يضيع مني أي حق تاني زي ماضيعتيه زمان... كفاية أوي إني سيبتك تتحكمي في كل قراراتي حتى لما كبرت ضيعتي مني الإنسان الوحيد اللي حبيته.. إنتِ لو بتكرهيني مش هتعملي فيا نص اللي بتعمليه ده.

- يابنتي حرام عليكِ.. أنا مكنش همي غير حمايتك.

- أسمع إن الأم بتحمي بسنانها.. بضوافرها اللي بتغرزها في وش اللي يئذي ولادها.. لكن إنتِ ماعندكيش غير الخوف والجبن والوقوف ورا حيطان تداريكي... الحمدلله إني مطلعتش زيك.. أنا مش هستخبى من حد لأي سبب.. ووريني بقى ست سميحة بتاعتك دي ممكن تعملي إيه؟!.

إلتفتت تغادر غرفة أمها وتضرب بابها بعنف لتجلس فاطمة وقد هالتها كلمات ابنتها وغمرها البكاء، لتتمتم:

- ليها حق تسمعك أكتر من كده يا فاطمة.. يارب استر يارب.. أسترها على بنتي يا رب.

....

ماسبب رفضها؟!!

وكيف سيكون رد فعل جاهين الواثق بقبولها؟!
هذان السؤلان ألحا عليه كثيرًا وهو يدلف لغرفة جاهين الذي كان مستيقظًا يقلب صفحات الأخبار على هاتفه، إلتفت لوافي:
- عملتوا إيه عند الدكتور؟!
- الحمدلله إداها علاج جديد وهتابع معاه.
- طيب خير... مالك؟!
قالها جاهين بعد أن لاحظ شرود وافي حتى وهو يجيب سؤاله، رمقه للحظاتٍ وبدى غير قادر على إيجاد الكلمات المناسبة فوضع جاهين هاتفه جانبًا ليعتدل قائلًا:
- مالك يا ابني؟!
- أصل حصل حاجه غريبة!!
- خير؟!
- وإحنا جايين في العربية قلت عن موضوعك علشان أشوف رأي ماما فاطمة.. واتفاجأت برفضها.
هب جاهين واقفًا مرددًا:
- نعم!!.. مرات عمي رفضتني.
- تقريبًا كده.. وشها ماقلش خالص إنها فرحت بالموضوع.
- وافي... الموضوع ده مفيهوش هزار.
- مابهزرش طبعا أنا بقولك اللي حصل.. بسمة نفسها استغربت وقالتلها أنا كنت فكراكِ هتفرحي بس هي ماردتش.
- مش ممكن.. طب ليه؟!.
لم يجد وافي ردًا ليمنحه له، ليجلس جاهين:
- أنا لازم أتكلم معاها وأفهم.
- مع مين؟!
- مرات عمي طبعًا.. أكيد عندها أسبابها ويمكن أقدر أقنعها.
عاد ليقف قائلاً:

- أكيد لسه صاحية.
- طب ما تستنى لبكرة.
هز رأسه نفيًا ليتحرك إلى باب غرفته:
- مش هيجيلي نوم لحد بكرة.
إتجه إلى غرفتها ليطرق بابها مناديًا:
- مرات عمي ممكن نتكلم.
لم يأتيه ردًا فكرر ندائه إلى أن وصل له صوتها باهتًا:
- بعدين يا ابني الله يكرمك.
مط شفتيه لكنه دفع الباب ليراها وهي جالسة على طرف فراشها ومن الواضح أنها كانت تبكي ليقول:
- آسف مش هقدر أستنى لبكرة.
أشاحت بوجهها عنه مرددة:
- عايز إيه؟!
عقد حاجبيه لاستقبالها غير المعتاد:
- إنتِ بجد رفضاني!!
زفرت بحرارة دون رد فاقترب قائلًا:
- عايز أفهم طيب أنا غلطت في إيه؟!
أزالت آثار عبراتها لتنظر له قائلة:
- اسمع يا ابني بنتي ماتنفعكش.. أنا لا عايزاها تتجوز هنا ولا تفضل هنا.
- بسيطة.. ممكن نتجوز برة.
- يا ابني الله يهديك أنتَ مش فاهمني.. أنا مش عايزه يبقى ليها علاقة بالعيلة دي.. فهمت.
ضاقت عيناه بغير فهم، ماذا يخبرها؟!.. أنه لم يفهم ما الذي تعنيه بكلماتها.
" أومال رجعتوا ليه؟!ً"
إلتفت معها لصاحب الصوت ليجد وافي يقف على باب غرفتها يعلوه الغضب:
- مادام مش عايزة يبقى ليكوا علاقة بالعيلة دي... رجعتوا ليه؟!

إتجه نحوه جاهين:
- إهدى يا وافي.. خالينا نفهم.
كتمت فاطمة عبراتها بصعوبة وهي تنظر لابنها بعجزٍ، أتخبره أنها تخشى على ابنتها من المرأة التي يناديها أمي حتى الآن.
عاد جاهين يحدثها:
- أنا مش فاهم يا أبلة بطة.. إنتِ قصدك إيه؟.. أنا عمري ما هأذي بسمة بالعكس أنا هحميها.
هزت رأسها ببغضب:
- مش عايزة حد منكم يحميها.. ابعدوا عنها وبس.
اتسعت عيني جاهين لردها المبالغ فيه أما وافي فقد رد بغضب مماثل:
- خلاص... زي ما إنتِ عايزه امشوا من هنا ماحدش هيمسك فيكم.. أنا مش قادر أفهم لما إنتِ بتكرهينا كده بتوهمينا بالعكس ليه.
أمسك جاهين بوافي ليجره معه:
- كفاية يا وافي يلا بينا.
دفع وافي يدي جاهين ليغادر وحده أما جاهين فإلتفت لفاطمة قائلًا:
- واضح إن في حاجه حضرتك مش عايزة تقوليها.. كنت فاكر إني بقيت قريب ليكِ علشان تقوليلي على أي حاجه قلقاكِ.. بس صدقيني ماحدش هيعرف يحمي بسمة أدي.
منحته نظرة تحمل حزنًا، لتطرق برأسها أرضًا دون إجابة.
رمقها للحظات قبل أن يغادر غرفتها بصمت.

....

دارت بسمة في مكانها بانفعال ونانا تحاول تهدئتها بينما مها تريد أن تفهم لمَ كل هذا.
لتردد بسمة:
- الجبن... عمري ما تخيلت إن أمي جبانة أوي كده.
هزت مها رأسها رفضًا:

- ماتلوميهاش لأنها خايفة عليكِ يا بوسي.. هي أكتر واحدة عارفه أذى سميحة دي ممكن يوصل لفين.. لازم تسمعي كلامها.
وكزتها نانا:
- تسمع كلامها إيه أنتِ راخرة.. لا يا بوسي أوعي... وافقي وخلي سميحة دي تولع كده وتورينا بقى هتقدر تعمل إيه... جاهين لا يمكن يسمحلها تأذيكِ يا إما كده بتبين وشها التاني للكل من غير حساب وهي مش هبلة أوي كده.
جلست بسمة أخيرًا وهي تتنفس بهدوء في محاولة للسيطرة على أعصابها والتفكير السليم بينما مالت نانا ناحيتها:
- أبلة بطة مش هتتفك من جبنها ده ولا خوفها إلا لما تلاقيكِ فعلا في حمى راجل.. وكمان سميحة هتفهم إنها لو بتعرف تخوف أبلة بطة.. لا يمكن تعرف تخوفك... وافقي يا بوسي وأنتِ الكسبانة.
قالت مها بنزق:
- وافقي بعد ما توافق أبلة بطة.. مش عند وخلاص.
ضاقت بسمة حاجبيها مرددة:
- هو أنا كنت بعمل حاجه غير اللي هي عايزاه... وفي الآخر أنا اللي بخسر.
وكزتها نانا لتهمس كي لا تسمعها أختها:
- يبقى يا حلوة تدوري على مصلحتك وأبلة بطة مسيرها تتقبل الوضع.
رمقتها بسمة للحظات قبل أن تقف قائلة:
- أنا نازلة تصبحوا على خير.
- هتعملي إيه طيب؟!
سألتها نانا لتلتفت لها قائلة:
- بكرة كلكم هتعرفوا أنا هعمل إيه.
لم تزِد على كلماتها لتغادرهما بينما عقدت نانا ذراعيها وقد اعتراها القلق، لو رفضت بسمة ستزداد الأمور تعقيدًا وستخسر فرصة رائعة في ادخال شهاب لتلك العائلة.

شهاب الذي أسكتته قليلًا بأنها تعد العدة للحديث لبسمة عنه وهي تنتظر الوقت المناسب، وساعدها على ذلك سفره للعمل.

- نانا.

نادتها مها لتجيبها بهمهمة، فأردفت:

- تفتكري بوسي هتعمل إيه؟!!

- مش عارفة.. يارب توافق بقى.

- أنا نفسي برضو إنها توافق.. بس مش عاجبني إنها تعملها ضد رغبة أبلة بطة... أكيد أبلة بطة عندها سبب مقنع.

لوحت بكفها في وجهها ولم ترَها عيني أختها الكفيفة، لتقول:

- نامي يا مها.. أدينا بكرة هنشوف هتعمل إيه؟!.

....

خطواتها الهادئة توحي بانخراطها في التفكير العميق، تابعها من أمام باب غرفته فقد كان ينتظر عودتها من عند الفتاتان، اتجهت لباب غرفتها فاقترب مناديًا:

- بسمة.

ورغم ندائِه الخافت لكنها انتفضت لتلتفت له بسرعة فرفع كفه معتذرًا:

- آسف.. مكنش قصدي.

تنفست بعمق لتهدئ من روعها قائلة:

- حصل خير.

تبادلا النظرات بصمت ليقول هو:

- ماتخيلتش أبدًا إن أبلة بطة ترفضني.

مطت شفتيها قائلة:

- ولا أنا!!

- أنا حاسس إنها خايفة عليكِ أوي.

قالت ساخرة:

- خايفة عليا.. جايز.

- بسمة مش المفروض الواحد يفضل يقول للبنت اللي هيتجوزها إنها ماتخافش من حاجه وإنه هيحميها.. لأن ده الطبيعي يوم ما تكوني مراتي أنا مُلزم أحميكِ ولو بدمي.. مش محتاج أأكدها بأي شكل... بس مش عارف ليه أبلة بطة مش شايفه ده.
أطرقت برأسها للحظاتٍ دون رد، فقال بنبرة تحمل حزنًا:
- اتصورت إنها هتكون أكبر داعم ليا مش العكس.. دلوقتي حاسس إن كل فرصي بقِت معدومة.
ظلت على حالها تشعر بنظراته لها ولما طال صمته هو الآخر قالت:
- تصبح على خير يا جاهين.
- وإنتِ من أهله.
دلفت إلى غرفتها وإلتفتت له لتجده يعود لغرفته فنادته:
- جاهين.
نظر لها بسرعة:
- نعم.
- مش هتفضل مستني كتير.. بكرة إن شاء الله هقولك قراري.
هز رأسه بإلحاح:
- طب ماتقولي دلوقتي وتريحيني.
فرجت شفاها فرفع كفه:
- لا.. لأ.. بكرة.. يمكن دلوقتي تقولي لأ ولحد بكرة تغيري رأيك.. بكرة هسمع رأيك.
لم تمنع نفسها من الابتسام لكلماته وحالته وهي تقول:
- بكرة إن شاء الله.. تصبح على خير.
أغلقت بابها ليتمتم هو:
- هو أنا كده هعرف أنام... يا دي النيلة ده كمان بكرة أجازة حتى مفيش شغل هيشغلني لحد ما أسمع الرد... صبرني يا رب.

عاد لغرفته وكل معدلات التفاؤل قد هبطت لأسوأ مستوى، استقر بفراشه ولازال عقله مشغول برفض فاطمة غير المبرر.
بدى أنها خائفة منه.. بل من العائلة كلها على بسمة، بالتأكيد تعلم أن عمته سميحة لن يعجبها هذا الأمر، ألهذا قررت أن تكون هي الرافضة وليس عمته، أتخشى تكرار الماضي؟!، حين رفضتها سميحة وقت ارتباطها بعمه وافي.
عليها أن تعلم أن الأمر مختلف.
بسمة هنا ليست غريبة.. هي ابنة عمه، وأخت وافي، هي طرف أصيل في تلك العائلة الآن.. فلمَ ترفض فاطمة بهذه الطريقة؟.
زفر بحرارة وهو يغطي وجهه بذراعه:
- بسمة هترفض بكرة .. أكيد.. يالا خالينا نخلص من التفكير أنا تعبت.
انتفض جالسًا:
- لأ ترفض إزاي.. لو كانت هترفض كانت هتقول على طووول.. وبعدين دي لو رفضت هعمل إيه في عمتي... يارب.. خليها تواااافق.
عاد بظهره للفراش وقد أغلق عينيه ليتمتم:
- يارب خليني أنام.

....
وعلى مائدة الإفطار في الصباح اجتمعت الأسرة فيما عدا فاطمة التي لا تنضم لهم إلا قليل.
والهدوء دومًا يسود تلك اللحظات مع القليل جدًا من الكلمات المتبادلة، لكن هذه المرة كان الهدوء مبالغ فيه، وكأن الجميع يترقب شيئًا ما.
تبادلت سميحة النظرات مع ميادة حين استشعرتا هذا الاختلاف لتقول ميادة:
- مالكم.. كله ساكت كده ليه؟!
ابتسم جاهين لها مرددًا:
- لا أبدًا.. عادي.
لم يعلق أحد آخر لتقف بسمة منهية إفطارها فقالت ميادة:
- خلصتِ بسرعة كده ليه؟.

- مش جعانه أوي.. أنا طالعة.
تبعتها نانا بنظرةِ شك، بسمة تتصرف بحذرٍ غير معتاد منذ الصباح.
توقفت بسمة بعد أن صعدت عدة درجات علي السلم لتلتفت لهم قائلة:
- جاهين.
لم يرفع جاهين فقط بصره لها بل إلتفت الجميع فيما عدا سميحة التي مطت شفتيها وهي ترتشف من قهوتها الصباحية، إلا أنها سعلت بقوة حين سمعت بسمة تقول:
- أنا موافقة على الخطوبة.
لتُحدق بها بذهول لتتلاقى عينيها مع عيني بسمة المتشفية وهي تُكمل:
- ألف سلامة يا عمتو.. سمي الله أحسن الشرقة بتموت.
حدق بها الجميع للحظةٍ وكأنهم لم يستوعبوا كلماتها فابتسمت وهي تستدير لتصعد الدرج فأمسكت نانا بأختها لتلحقا بها وهي تقول:
- مبرووك يا جاهين.
اتسعت بسمة جاهين تدريجيًا حين تأكد من صحة ما سمعه وأنه لم يكن رفضًا بل قَبولاً، ليلتفت إلى أمه التي ربتت على ذراعه هامسة بسعادة:
- مبروك.
أما وافي فظل صامتًا يراقب اختفاء أخته بالأعلى ويعود بنظره إلى سميحة التي بدت ستنفجر غضبًا لتصيح:
- أنتوا بتباركوا على إيه.. إيه الكلام الفارغ اللي سمعته ده.. مين ده اللي هيخطب؟!
قالت ميادة مهدئة:
- اهدي يا سميحة هو كان هيقولك بس قال هياخد موافقتها الأول... يعني علشان يبقى متأكد.
- موافقة ميييين؟!.. أنت إزاي تعمل كده؟!
استمر صياحها ليقول جاهين بهدوء:

- في إيه يا عمتي؟.. هو أنا بخطب حد غريب.. دي بنت عمي يعني أكيد مش هتعارضي.
صكت أسنانها بغيظ بالغ وهبت واقفة:
- أنت هتستعبط؟!!
عقد وافي حاجبيه ولم يستوعب تلك العصبية المبالغ فيها فوقف قائلًا:
- في إيه يا ماما.. مالك متعصبة أوي كده.. أنتِ مش عايزاه يتجوز أختي؟!.
نظرت له بعينين متسعتين وقد ألجمها الصمت للحظات، لا تدري كيف تجيب، وكأنها نسيت أن وافي هنا يسمع ويشاهد اعتراضها الواضح على أخته الوحيدة، الأخت التي لم ولن تعترف بها من الأساس والتي لا ترى فيها إلا فاطمة التي سرقت منها أخوها في الماضي وها هي ستسرق ابن أخيها بل ربما ستسرق الجميع منها.
- أ.. أنا.. مش قصدي كده لكن هو أنا مليش أي قيمة في البيت ده خلاص.. يعني إيه يقرر قرار زي ده من غير ما يقولي الأول.
ابتسم جاهين بهدوء استفزها وهو يقول:
- ما إحنا بنقول أهوا يا عمتي... أنا اتقدمت لبسمة والحمدلله أهي وافقت.
ضمت قبضتها بقوة تفرغ شحنة غضبها في كفها الذي أَنَّ من أظافرها الطويلة، لتلتفت مغادرة المائدة وقبل أن تدخل غرفة مكتبها قالت:
- جاهين عايزاك.
رمقته أمه بقلق فوقف ليربت على كتفها مطمئنًا، ليقف وافي معه قائلًا:
- استنى أنا جاي معاك.
هز رأسه نفيًا:
- مافيش داعي.. أنا هعرف أهديها.
- هي متعصبة أوي كده ليه؟.. معقولة هي كمان هترفض؟.
- ماتقلقش.. كله هيبقى تمام.
لحق بها وأغلق بابها خلفه ليجدها تقف أمام نافذة الحديقة تحرك قدمها بعصبية ليقول:

- خير يا عمتي.
إلتفتت إليه وتمنت لو أمكنها صفعه على وجهه هو الآخر لعله يفيق، لكن هذا لم يساعد مع أخيها الصغير فلمَ سيساعد هنا؟ حاولت أن تتمالك أعصابها قائلة من بين أسنانها:
- أنت بتتحداني يا جاهين؟!!
- ليه بتقولي كده يا عمتي؟!
- أنت هتستعبط!!
صاحت بها مردفة:
- بقى أنا أقولك هنديهم فلوس ونبعدهم عنا وأنت رايح تتجوزهالي وتلزقهم فينا أكتر.. ده اسمه إيه ده غير إنك بتتحداني وبتعصى أوامري.

- آسف عمتي.. أنا ماقتنعتش باللي طلبتيه وصعب أوافق عليه.. وبعيدًا عن كل ده.. أنا بحبها وفعلًا عايز أتحوزها.
ضحكت بعصبية وسخرية:
- بتحبها... لا والله ضحكتني رغم عصبيتي... يا ابني فوق دي بتستغلك علشان تضايقني وبس دي مايهماش حد فينا غير إنها تاخد كل حاجه... أنا عمري ما نسيت الكلام اللي سمعتهوني أول ما شوفتها في المستشفى "أناعملك الإسود يا سميحة ...أنا اللي هخلص منك القديم والجديد."..تفتكر هتعمل ده أزاي غير بيك أنت ووافي.
- متهيألي يا عمتي إنتِ بتكرهيها أوي وهي فاهمة ده كويس.. وزي ما بيقولوا من القلب للقلب.. يمكن لو فكرتي تحبيها كبنت أخ بجد الأمور تتحسن.
- بنت أخ.. دي بنت فاطمة وبس.
هز رأسه بيأس:
- ماشي يا عمتي اللي تشوفيه.. بس أنا اللي اتقدمتلها وجريت وراها علشان أقنعها مش العكس... يبقى بتستغلني إزاي بقى؟!

- أنتَ واحد غبي وهي بتلعب بيك الكورة ماشوفتهاش بصتلي إزاي بعد ما قالت إنها موافقة... أنا فاهمة البنت دي كويس وبكرة لما تلاقيها بتديك ضهرها من غير سبب هتفتكر كلامي ده وهتتوجع لوحدك.

- حتى لو ده صحيح وهي وافقت بس علشان تستغلني أنا متاكد إني هخليها تحبني.. ياريت أنتِ كمان تحاولي تحبيها يمكن نعرف نحافظ على العيلة دي قبل ما تتخرب.

أنهى كلماته وهم بالمغادرة لتقول:

- يعني برضو هتمم الموضوع ده؟!

أجاب وهو يفتح باب الغرفة مغادرًا:

- الله يبارك فيكِ يا عمتي.

رمقت الباب الذي أغلقه خلفه بعينين زادتا احمرارًا من الغضب لتضرب سطح مكتبها بقوة:

- على جثتي يا جاهين وهتشوف.

اعتدلت فجأة حين فتح الباب ليدخل إليها وافي وقد تجهم وجهه للحظة لمرآها، ارتشفت بعض الماء وهي تجلس خلف مكتبها في محاولة للسيطرة على غضبها، اقترب وافي ليجلس أمامها قائلًا:

- ماما.. إنتِ متعصبة أوي كده ليه.. معقولة بس علشان ماقلش من الأول ولا في حاجة تانية.

أشاحت بوجهها وكأنها تداري كذبها:

- حاجه تانية... لا مافيش هيكون في إيه يعني؟!

- ماما ممكن أسألك سؤال؟!

التفتت ترمقه بترقب:

- اسأل.

- إنتِ إيه إحساسك ناحية بسمة وماما فاطمة؟!

لم يؤثر بها السؤال كما أثرت به مناداته لفاطمة بماما، فعقدت حاجبيها مرددة:

- ماما فاطمة؟!!

- أومال يعني هقولها إيه؟!
رفعت كفها:
- براحتك.. بس ماتسألنيش أسئلة مش هقدر أجاوبها.
- ليه يا ماما.. أنتِ بتكرهيهم؟.
تمنت أن تقول له نعم، أن تؤكد الأمر وتريح نفسها، أن تخبره كم تبغض تلك المرأة وابنتها وأنهما يمثلان لها أكبر خطأ قلب حياتها رأسًا على عقب، لكنه لن يفهم، ولا تتوقع منه أن يفهم.
- وافي يا حبيبي.. أنتَ عندي بالدنيا كلها وده كفاية بالنسبة لي وجاهين كمان يهمني أنا مش بعمل حاجه في البيت ده إلا لما أكون مقتنعة إن فيه مصلحة ليكم بس مش شايفة إن الجوازة دي فيها أي مصلحة... بسمة بتكرهني وأنا متأكدة من ده... بتحملني الذنب اللي أمها ارتكبته ومعلقاه في رقبتي أنا مش عارفه ليه حاسه إنها عايزة تنتقم مني بيكم... يمكن أكون غلط بس ده مجرد إحساس.
أطرق رأسه بصمت، هو بالفعل يستشعر ذلك، بُغض بسمة لسميحة واضح للعيان ولا يحتاج إلى التخمين، حتى نظراتها لها على الإفطار وكلماتها لا تحمل إلا الكره، لكنه أيضًا يعلم أن جاهين من سعى في ذلك الأمر فكيف يكون لأخته أي محاولة خلاله للانتقام.
- بس يا ماما جاهين اللي سعى في الموضوع ده وعلى يدي بسمة كانت ميالة للرفض أكتر وبالتفكير والمحايلة أعتقد غيرت رأيها... المفروض نفرح معاه مش نحسسه بالقلق والضيق... ومأظنش أبدًا إن بسمة بتفكر بطريقة انتقامية كده.
كتمت سخرية تريد أن تتسرب إلى كلماتها:
- جايز.. عمومًا ابن عمك قرر وانتهى الأمر.
- بس أنا عايزِك تكوني مبسوطة مش مضايقة كده.
رسمت ابتسامة باهتة على شفتيها:
- حاضر يا حبيبي... ماتقلقش... بتاخد أدويتك بانتظام.

- الحمدلله باخدهم.
- خلي بالك على صحتك يا حبيبي.
- حاضر يا ماما.
غادرها مبتسمًا وتركها تحمل ابتسامة زائفة أزالتها فور خروجه.
انهمك عقلها في التفكير كيف يمكنها التخلص من تلك الفتاة وأمها إلى الأبد؟!،
كيف تستعيد عائلتها من جديد.... كيف؟!

....
حدقت فاطمة بابنتها بذهول وهي تقف أمامها تخبرها بقرارها الذي أعلنته قبل قليل لتقف نانا بجوارها، أما مها فجلست تجاور فاطمة على فراشها.
لتقول فاطمة:
- أنتِ اتجننتي يعني أنا أقولك مش موافقة وأنتِ برضو تعملي اللي في دماغك.
كتفت بسمة ذراعيها قائلة:
- أنا زمان لما كنت لسه عيلة في نظرك مشيتي كلامك عليا ومقدرتش أقول حاجه لإني كنت خايفة عليكِ من أذى ناس كبار... لكن دلوقتي لأ.. أنا مش عيلة ودول مش ناس كبار هيأذوني دول أهلي... جاهين ده ابن عمي وهو أكتر حد هيقف في وش سميحة علشاني.. ده لما كنت يا دوب بنت عمه كان بيساعدنا إيش حال بقى لو بقيت مراته... سميحة دي مش هتقدر حتى تفتح بوقها بكلمة أنا محتاجه ضهر زي جاهين وأنتِ كمان محتاجاه ده ابنك الحيلة لحد دلوقتي بيقول ماما وهو بيفكر يقولها ولا مايقولهاش... نفكر بقى بعقلنا شوية ونشوف مصلحتنا فين.
- أنتِ مش فاهمة حاجه... سميحة دي أذى أنا عارفاها.. دي رمت أبوكي بره البيت وسابته يشتغل ويتمرمط بس علشان يرجعلها تاني.
- الكلام ده كان زمان مش هتقدر تعمل كده مع جاهين.. لأسباب كتير أهمها وافي اللي بيعتبره زي أخوه ومش هيقبل عمته تعمل كده أبدًا وهي مش هتجرؤ تعملها وأمه ميادة عايشة معها سنين وهو كمان شايل الشغل فوق دماغه

سميحة مش هبلة أوي كده علشان تخسر كله مرة واحدة لمجرد إنها مش عايزانا نفضل هنا.
- ومين قالك إنها هتئذي جاهين.. دي هتئذيكي أنتِ ؟!
- بإيه يا حسرة.. الشغل ومشيتني منه فعلًا هتعمل إيه يعني ولا هتقتلني... مش للدرجة دي يا ماما إحنا مش في فيلم أكشن.
رمقتها بخوف واضح:
- مش عارفه.. بس هتئذيكِ وهتئذيني فيكِ.. أنا حاسة قلبي مابيكدبش عليا.. يابنتي الله يهديكِ بلاش الجوازة دي.
- عمومًا موضوع الجواز ده مش هنستعجل عليه... دي خطوبة بس أنا لسه مش عارفه هو يناسبني فعلًا ولا لأ؟.
صاحت فاطمة بعصبية:
- أنتِ بتهزري.. يعني إيه؟... هتتجوزيه ولا لأ؟.. إنتِ هتقومي سميحة علينا على الفاضي.
- في إيه يا ماما؟.. هما اخترعوا الخطوبة ليه؟ عايزة أتعرف عليه أكتر إيه المشكلة؟!!
وضعت رأسها بين كفيها تولول:
- أُستر يارب... دماغك هتودينا في داهية.
زفرت بسمة بضيق لتقول نانا:
- ماتقلقيش يا أبلة بطة بوسي معاها حق.. جاهين ده أكبر حماية ليكم لحد ما بسام يرجعلك بجد.. صدقيني كله مصلحة ليكم.
دقات على بابها أسكتتهن لتتجه نانا لفتح الباب ليظهر جاهين وملامحه تضخ سرورًا، لينظر إلى بسمة التي لم تستطع إلا أن تُشيح وجهها بخجلٍ حقيقي، ليلتفت إلى فاطمة قائلًا:
- مش هفرح بجد إلا لو قلتي مبروك.
لاحت شبه ابتسامة على شفتيها، قلبها يحمل له بالفعل الكثير من الحب والرضا، لكنها تخشى على ابنتها وليس لأحد أن يلومها.

إلتفتت قائلة:
- أخرجوا يا بنات.. عايزة أتكلم مع جاهين شوية.
قالت بسمة بنزق:
- هتتكلموا في إيه؟!
- اطلعي.
قالتها فاطمة بحزم، لتتحرك مع الفتاتان لتغادرن الغرفة وهي تتمتم بعبارات ساخطة غير مفهومة، ليهمس لها جاهين وهي تمر جواره:
- استنيني في الجنينه.
إلتفتت له ليبستم، وهو يدخل ويُغلق باب الغرفة خلفه.
استقر أمام فاطمة ولازال يحمل وجهه البشوش صفاءه:
- ها يا أبلة بطة سامعك.
- يا ابني أنت لو تعرف معزتك في قلبي أد إيه؟!
- أومال في إيه بقى يا بطة.. ماتباركي بقى.
ضحكت وهو تتنهد بهم:
- أعمل إيه بس.. يا ابني أنتَ في حاجات كتير ماتعرفهاش وأنا خايفة على بنتي.. مش عايزاها تتئذِي زي ماتأذيت زمان.
- تصدقي كنت حاسس كده برضو... اطمني يا أبلة بطة أنا عارف إن عمتي سميحة مش هتفرح أوي بالموضوع ده لكن في نفس الوقت بسمة وضعها مختلف دي بنت عمي ليها أسهم في الشركة زيي بالظبط وزي وافي يعني كفتها متساوية معانا.. ده غير إن بسمة لا هي ضعيفة ولا خايفة من حاجه وعلشان كده أنا وهي مع بعض هنعرف ندافع عنها وعنك كمان.. ماتقلقيش من أي حاجه.
مد يده يمسك بكفها:
- صدقيني أنا مش هسمح لحد يئذيها.. مهما كان.
عجزت عن الرد أو حتى الاعتراض فلم تتصور أن يتعلق بابنتها لهذه الدرجة، فمنحته نظرة حانية قائلة:

- وأنا مش هلاقي لبنتي أحسن منك يا ابني.
- يعني هتقولي مبروك.
هزت رأسها نفيًا:
- لأ لسه...
- ليييه تاني؟!
- اسمعني يا ابني كويس.. في حاجات لازم تعرفها قبل ما تقرر فعلا تتم جوازك ببنتي اسمعني للآخر وماتقطعنيش.
- كلي أَذااان صاغية... مش بيقولوها كده باين.
ابتسمت لتوميء برأسها، وبدأت كلامها.
....
زفر بغضب يغلفه الكثير من القلق، يكاد يفقد أعصابه من تجاهل معاذ لكل مكالماته ولا يعلم السبب، طريقة جديدة منه للاعتراض على ما يحدث، أم ماذا؟!
حتى حينما اتصل بالشركة ليعرف مِن السكرتارية مكانه، أخبرته أنه لا يأتي للعمل منذ سفره، أي حماقة تجعله يتصرف بتلك الطريقة؟!.
أمسك هاتفه ليكرر الاتصال مجددًا فاليوم عطلة وبالتأكيد هو في المنزل، لكن للأسف لا مجيب، قلب هاتفه وقرر الاتصال بها، على الأقل سيطمئن منها عليه.
وما إن سمع صوتها:
- هو معاذ مابيردش على تليفونه ليه؟!
- مش تسلم الأول.
قالتها بضيق فأردف:
- سلمت.. ها.. فين معاذ؟ عايز أكلمه.
- أنا في النادي مش في البيت.
- طب هو مش بيرد على التليفون ليه وكمان مابيروحش الشغل؟!.
- تعبان شوية.
هب واقفًا ليقول:

- تعبان.. إيه ماله؟!
- ماتتخضش كده.. دول شوية برد بس تقال عليه وأهو مقضيها في السرير من ساعتها لما يفوق كده هخليه يكلمك.
- عيان وإنتِ سيباه وقاعدة في النادي هتتصرفي كأم إمتى؟!
- ركز في شغلك يا سامر وسيبك من أخوك ودلعه.. كفاية الخساير اللى نازلة على دماغنا في البلد دي دول شوية برد مش مرض خطير يعني.
- طيب لما تروحي أنا عايز أكلمه.
- ربنا يسهل.. لو ماتصلتش يبقى رجعت تعبانه ونمت على طول.
هز رأسه بضيق:
- حاولي تخليه يكلمني أو يرد على التليفون حتى.
- حاضر.. مع السلامة.
أنهت معه المكالمة حتى قبل أن ينهيها هو، ليرمق الهاتف بغيظ:
- لولاه ولا كنت كلمتك.
أعاد محاولات الاتصال مرة بعد مرة دون إجابة.
دق شاشة هاتفه ليكتب له رسالة
" معااااذ رد على التليفون أو لما تفوق كلمني ضروري فاهم؟!! -_- "
وضع هاتفه جانبًا وعقله لا يكف عن القلق عن أخيه.
شعور ما يتعاظم داخله أنه ربما يكون في محنة، ولا يستطيع الوصول إليه ليطمئن باله عليه ولا يمكنه إلا الصبر.
....

وضع معاذ بضع مئات الجنيهات أمامه على الفراش، وهو يلوي شفتيه بضيق، لا يصدق أنه أنفق كل هذا في أيام قليلة، ليتذكر كلمات أخوه.
"معاذ إنتَ بتصرف بشكل مبالغ فيه.. مش معنى إن معانا فلوس نصرف من غير حساب."

يبدو أن أخيه على حق، وإنفاقه المعتاد لا يليق أبدًا، عليه أن يجد مصدر للمال ويحافظ على تلك الوريقات النقدية بشدة كي لا يضطر إلى النوم في الشارع.
كيف يمكنه أن يصل لسامر، لو فعل لأنتهى الأمر.
الذهاب للشركة سيكون كارثيًا لن يحتمل أن يطرد أمام كل الموظفين وعلى ما يبدو أمه لن تهتم لكرامته وستفعلها.
لا لن يذهب.. سيجد عملًا، سيكون رجلًا، سيثبت لها أنه يمكنه النجاة بدونها.
دس المال في جيبه وغادر الفندق، وقرر البحث عن عمل.
ولكن مهلًا، أي عمل بالضبط؟!. هو لا يجيد شيئًا بعينه، فماذا سيفعل؟!.

وقف أمام أحد المحلات التي تطلب شاب للعمل، كان محل لبيع الأحذية، مط شفتيه يفكر في كل تلك المحلات التي دخل بعضها وكان دومًا الشاري وليس البائع، فكيف سيتعامل مع الناس من هذا المنظور، الأمر لن يكون عسيرًا.
انقطعت أفكاره على صوت أحدهم:
- اتفضل يا باشا عندنا نوعيات جلد حلوة أوي جوة اتفضل.
رفع كفه معتذرًا:
- مرة تانيه.
ابتعد عن المحل وهي ينظر لملابسه التي ابتاعها من يومان، فقد كانت غالية الثمن وتوحي بثراءِه، الأحمق لمَ لم يشتري ملابس عادية لكان أفضل.
استمر سيره بلا هدف أو جدوى، حتى أنهكه التعب فكر في الدخول إلى مطعم لتناول طعامه، تذكر أنه لا يملك من المال ما يمنحه حق تلك الرفاهية، فاكتفي بطبق من الكشري فهو مشبع حقًا والأقل سعرًا.
ليعود إلى الفندق وقرر أنه لن يتكلف مال في طعام العشاء، الكثير من الناس ينامون دون عشاء، ألقى بجسده على فراشه مُنهك القوى، يرمق السقف بضيق بالغ حتى أن عبرة فاضت من عينيه ربما للمرةِ الأولى منذ طرد أمه له، لم يشعر يومًا بهذا الضعف والخذلان، أقصى ما أهمه يومًا هو فقده لبسمة، لكن أن يحدث له كل هذا فلم يخطر على عقله للحظة.

لمَ تتصرف أمه معه بهذه الطريقة؟!، ألا يعني أمره لها شيئًا لهذه الدرجة، ألا تعلم أنه حقًا سيعاني، أم تقصد بهذا أن يعود لها خائر القوى مستسلمًا لأمرها؟. الزواج من نرمين، ما الرائع في إتمام تلك الزيجة لتدمر حياته لأجلها هكذا، وهل تظن أنه لو تزوج بها على غير إرادته سيتمكن من إسعادها ولو لساعة واحدة، على العكس حياتها معه ستكون جحيمًا، ولكن تلك الأمور لم ولن تشغل بالها أبدًا فهي لا تفكر إلا في العمل والمصلحة.

- آآآه.. أنا تعبت.. سامر أنت فين ساعدني.

يبدو أنه سيفشل تمامًا، لو تمكن فقط من الوصول لسامر لنجا من تلك الخطة الدنيئة.. ولكن كيف.. كيف يصل لسامر؟!

أغلق عينيه من التعب ولم يفتحها إلا في الصباح ليفرك عينيه معتدلًا، لقد نام دون حتى أن يبدل ثيابه.

غسل وجهه بالماء ليطرد النعاس عنها وقرر أن يذهب لمقر الشركة، يجب أن يصل لأخيه بأي شكل.

وصل بالفعل ووقف في مكانًا غير مريء، اليوم السبت والشركة تمنح الكثيرمن موظفيها أجازة في ذلك اليوم والقليل جدًا من يأتي، ربما هذه فرصته في التسلل إلى الداخل، لكن عليه الحذر وإلا ستكون العواقب وخيمة.

رجال الامن لا يتحركون من مكانهم وبالتأكيد أخبرتهم ألا يسمحوا له بالدخول، مر بجواره بعض الموظفين الذين شعر أنهم مألوفين له فأخفى وجهه عنهم.

- يارب أعمل إيه؟.

دخوله إلى هناك ليس فكرة جيدة على ما يبدو، لمَ لا يوكل تلك المهمة لأحدهم. شاهد فتاة تحمل مظروف يحمل شعار الشركة وشعر أنه لم يرَها من قبل، فأشار لها سريعًا:

- لو سمحتي.. لو سمحتي.

إلتفتت له باستغراب:

- أفندم.

- إنتِ شغاله في الشركة دي؟!
- أيوة خير.
- شكلك جديدة علشان ماعرفتنيش.. بس أحسن برضو أنا عايز منك خدمة.
- أنتَ مين؟!
أشار لنفسه بثقة:
- أنا معاذ... معاذ شاكر أخو سامر شاكر المدير التنفيذي للشركة.
قرأ في عينيها الكثيرمن الغضب والغيظ ولم يفهم السبب، فردد:
- عرفتيني!!
مطت شفتيها لتلوح بكفها بطريقة غريبة:
- طبعاا.. الأخ الحيلة اللي الكبير بيمسح وراه كل بلاويه.
عاد برأسه للوراء وكأنه يستوعب تلك الهجمة الشرسة في كلماتها وهي تردف:
- تصدق بالله كان نفسي أشوفك من زمان علشان أفش غِلي فيييييييييك.
- لحظة بس.. ليه كل ده.
- اسم الله.. اسم الله.. إيه يا أخويا الأدب ده.. طبعا وأنتِ هتعرفنا منين رميت أختي بعربيتك وكسرتلها جسمها ومهانش عليك تيجي تطمن ولا تقول سامحوني... آآآآآه الناس اللي بتمشي في الشوارع دول بالنسبة لك حيواناااات ...لأ ده حتى تلاقيك بتخاف على قطط وكلاب السكك أكتر من البني آدمين.
تابع هجومها المستمر بغير تصديق، ما هذه الفتاة التي أطلقت سهام لسانها نحوه بعنف هكذا، ألا تخشى حتى على وظيفتها في الشركة أم أنها لم تدري بعد من هو؟!!
- يا آنسة في غلط تقريبًا.. بقولك أنا معاذ شا..
- ماخلاص يا أخويا سمعت هو أنا مابسمعش.. دا أنت بقى اللي مش فاكر حتى إنك دوست عَيلة بعربيتك ورقدتها في المستشفى شهر بحاله... روح يا شيخ منك لله.

تذكر أخيرًا أمر الحادثة الذي كاد أن يقضي بها وقتًا في السجن لولا تصرف سامر مع أهل الفتاة، ولكن ما شأن تلك بهم.
- طب وإنتِ إيه علاقتك بالموضوع ده؟!
- اللي خبطتها دي تبقى أختي.. وأوعى تفتكر إني اشتغلت هنا تخليص حق... لاااا.. إحنا من قبلها كان أبويا الطيب مُتنازل علشان خاطر أخوك اللي ماسبناش لحظة.. سبحان الله اللي مخليكم أخوات يا أخي.
هل يمكن أن تسوء الامور أكثر من ذلك، من بين كل العاملين والعاملات بالشركة يلتقي بهذه، وماذا عليه أن يفعل الأن، هي لن تساعده بالتأكيد، ولكن مهلًا لعلها تساعده من أجل خاطر سامر فيبدو أن علاقته بها جيدة.
- أنا آسف.. أنا ماكنتش بطبيعتي ساعة الحادثة أكيد سامر فهمكم.
- تلاقيلك كنت مبلبع.
- مبلبع؟!!... لا ما كنتش مبلبع.. أنا بس كنت في حالة نفسية سيئة.. ممكن تديني هدنة شوية وتسمعيني أن بجد في ورطة كبيرة ومحتاج مساعدة.
- يا لهوي... هو أنت مش وراك إلا أنك تعمل مصايب والناس تخرجك منها ثم أنا مالي موقفني ليه ماتروح لأخوك.
- ياستي ما إنتِ مش مدياني فرصة أتكلم ولا أقول حاجه.. هو أنا لو أقدر أدخل ما كنت دخلت ولا كلمت سامر... اسمعيني بقى.
زفرت بضيق:
- اتفضل خلصني هتأخر على الشغل.
تنفس ملتقطًا أنفاسه بعد هجومها الضاري:
- سامر مسافر أعتقد عارفه وأنا عايز أوصله بأي شكل.. في مشاكل بيني وبين ماما وهي واخده تليفوني وأنا قاعد في فندق حاليًا.. عايز أوصله بأي طريقة أرجوكِ ساعديني.
هزت كتفيها:
- طب وأنا أعمل إيه يعني أصالحك على الست الوالدة.
- من غير تريقة.. بقولك عايز أوصله.

ضربت كف بآخر:
- مش بتقول مسافر أوصلك بيه إزاي يعني؟
- معاكِ موبيل.
- نعم.. هو مين في مصر معوش موبايل.. ده عم شيحة بتاع الروبابيكا معاه واحد.
- عم شيحة!!
قالها وهو يهز رأسه باستغراب ليردف:
- طيب ممكن بقى لما تدخلي تطلعي للسكرتيرة بتاعته وتقوليلها تحاول تتصل بيه وتديله نمرتك.. علشان يكلمك ضروري.
- نعم يا أخويا.. أنت عايز سمعتي في الشركة تخرب لا يمكن أعمل كده.
- فكري في أي حجه تكون ليها علاقة بالشغل أنا فعلا محتاجهُ أوي... صدقيني دي مسألة حياة أو موت بالنسبة لي.
رمقته للحظات لتتذكر تصرفات سامر الطيبة مع أختها وأبيها بل ومعها، ربما عليها مساعدة أخيه رغم أنها لا تطيقه بالفعل.
- طيب.. هتصرف.
- متشكر.. متشكر أوي.. هتخلصي شغل أمتى خليها تقوله يكملك في الساعة اللي هتخرجي فيها علشان أكلمه.
- هنخرج بدري لأنه يوم أجازة.. على الساعة ٢ كده.
- ٢... يعني عند سامر ٧ الصبح.. يارب يكون صاحي بصي خلي السكرتيرة تبعتله رقمك في رسالة علشان أول ما يصحى يشوفها.. هو طبيعي بيقوم بدري. وهتلاقيني هنا الساعة ٢ بالظبط مستنيكي.. بس ماتنسيش أوعي تجيبي سيرتي لأي حد أنا مش عايز ماما تعرف اللي بحاول أعمله.
ضاقت عيناها قالة:
- هو أنت عملت إيه؟!
رفع أحد حاجبيه:
- ماعملتش حاجه.. هي بس مضايقة شوية.

- مضايقة شوية تقوم تطردك.. أكيد عملت مصيبة.
- مين قالك إنها طردتني.
- مش محتاجه.. واضحة... حتى باين عليك بقالك يومين لابس هدومك دي.
- إحم.. المهم ماتنسيش ٢ بالظبط هكون هنا.
- ماشي.
تركته مسرعة إلى الداخل بينما قلبه يتضرع لله أن ينجح الامر ويتمكن من الحديث إلى سامر.

سارة سيف الدين

الفصل الثاني الثلاثون

الضحك قال يا سم ع التكشير
أمشير وطوبة وأنا ربيعي بشير
مطرح ما باظهر بانتصر ع العدم
ان شالله أكون رسماية بالطباشير
عجبي!!
رباعيات جاهين

جلست زينة خلف مكتبها وقد أضناها التفكير، كيف لها أن تطلب أن يتصل بها المدير التنفيذي للشركة ولأي سبب قد تفعل، ولو فعلت هل تضمن أن يهتم أحد بالأمر ويساعدها أم أنها ستسيء لسمعتها فحسبٍ دون أي طائل.
عضت أصابعها غيظًا، ما الذي يُجبرها على مساعدة هذا المتهور الذي كاد أن يقتل أختها، ما شأنها به أو بأخيه؟.
ليعود ضميرها يؤنبها فلقد تلقت عائلتها معاملة حسنة من أخيه كما أنها نالت وظيفة أحلامها أيضًا.. وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم.
زفرت بحرارة وقلة حيلة لتجد من يجلس أمامها قائلًا:
- بتنفخي كده ليه؟!
انتبهت إليه لتقول:
- محمد.. أنت إيه اللي جابك.
- ونعم الاستقبال الحقيقة.
ضحكت قائلة:
- مش قصدي.. يعني...
قاطعها قائلًا:
- بنقفل حسابات آخر السنة.
تذكرت أنها هنا بالفعل لهذا السبب.

ظلت ترمقه للحظاتٍ وهي تفكر في إمكانية مساعدته لها، رمقته طويلًا حتى عقد حاجبيه مرددًا بريبة:
- حضرتك بتشبهي.
لوحت بكفها قائلة:
- استنى بس.. بقولك.. أنا عايزه...
صمتت ولم تكمل وكأنه تتأكد من صحة ما تفعل فردد بنفس النبرة المريبة:
- عايززه إيه؟؟ عايزه تاكلي.
هزت رأسها بنزق:
- ما تُصبر بقى.
- في إيه يا زينة مالك؟!
خفضت صوتها وقصت له ما حدث بكلماتٍ موجزة لتُنهي كلماتها بقولها:
- وأنا دلوقتي مش عارفه أوصل لسامر بيه إزاي أو حتى أخليه هو يتصل بيا.. أعمل إيه بقى؟!.
همهم مفكرًا لتردف:
- ياريتني ماقلتله هساعدك أنا مالي أنا.
"إنتوا بترغوا في إيه ياله خالونا نشتغل"
قالها مدير الحسابات الجالس خلف مكتبه، فوقف محمد وقبل أن يتكلم قالت زينة:
- أصل محمد كان عايز سامر بيه ضروري.
حدق بها بذهول تحول لغيظ وهي تردف:
- بس مُحرج يعني يطلب نمرته.
رمقه المدير قائلًا:
- خير يا محمد وعايز نمرته ليه؟!
- هه؟!!.. آآه.. أنا كنت...
لم يجد ما يقوله فتمتم لنفسه "يخرب بيتك!!."
وقفت قائلة:

- واضح إنها حاجه شخصية لأنه مش راضي يقولي مأنا برضو سألته بس هو قال إنها حاجه مهمة.. ماتعرفش إزاي نقدر نساعده يوصل لسامر بيه.
صمت الرجل مفكرًا بينما محمد يتميز غيظًا ويدعي العكس ببسمةٍ بدت بلهاء قليلًا، بينما تشير له زينة بعينها أن يقول ما يدعم موقفه الذي حشرته هي به.
ليتمتم ثانية "يا مجنونة"
ليقرر أن يجاريها أخيرًا قائلًا:
- لو حضرتك قلقان من إني أخد نمرته فمعاك حق طبعًا.. حضرتك ممكن تبعتله نمرتي في رسالة وتقوله يكلمني ضروري جدًا جدًا.
لتندفع زينة قائلة:
- أول ما يصحى.
رمقها الإثنان مُحمد غضبًا والمدير دهشةً لتقول:
- يعني حسيت أنه محتاجهُ بسرعة.
هز محمد رأسه بيأس ليضيف:
- أيوة فعلًا أنا محتاجهُ ضروري... معلش وآسف جدًا.
أمسك الرجل هاتفه قائلًا:
- هات نمرتك طيب هبعتله رسالة لعل وعسى.
أَمَلَّ عليه أرقام هاتفه.
- خلاص بعتله الرسالة إن شاء الله أول ما يصحى يشوفها.. نركز في شغلنا بقى.
قالت زينة بحماس:
- طبعًا...طبعًا.
ولازال محمد يرمقها بنظراته المغتاظة.

مرت ساعات العمل القليلة لليوم وتم الانتهاء من الكثير لكن الساعة وصلت إلى الثالثة، صرف المدير الجميع على أن يحضروا غدًا لإتمام الأمر بشكل نهائي.
خرج محمد تجاوره زينة التي قالت:

- هو لسه ماتصلش بيك.. باين عليه ماشفش الرسالة.
نظر لها بغيظ مكتوم فمنحته ابتسامة عريضة:
- خلاص بقى.. الموضوع عدى على خير.. أنتَ فاهم الواحدة مالهاش غير سمعتها تفتكر لو أنا اللي طلبت كان شكلي هيكون إيه؟!
- وأنا مالي.. بتحشريني في الموضوع ليه؟!
- أخص عليك.. كده برضو.. وأنا قلت إنك مبسوط علشان ساعدتني.
- تفتكري هيكلمني... وهو مايعرفنيش.
- أدينا عملنا اللي علينا وخلاص دلوقتي هنطلع نلاقي أخوه ملطوع تحت ومستني من الساعة ٢.. ادعي يتصل علشان نخلص.
- إنتِ مش ملاحظة صيغة الجمع اللي عماله تقوليها دي.
- تصدق بالله... ده هيشكرك أصلي بحس إن روحه في أخوه ده.
قبل أن يعلق تعالى رنين هاتفه فانتفضت:
- شوف بسرعة.
أجبرته على إخراج هاتفه بسرعة وهو يرمق الرقم الغريب الذي ظهر عليه.
- إيه الرقم الطويل ده؟!
نزعت الهاتف من بين أصابعه قائلة:
- أكيد هو... ألووو.

....
استيقظ سامر في السادسةِ والنصف كعادته، أنهى حمامِه الدافيء وانتظر إفطاره ليلتقط هاتفه في ترقب لرسالةٍ من معاذ.
ليقرأ رسالة مدير حساباته عدة مرات متمتمًا:
- محمد محاسب شركة جاهين.. عايز إيه ده كمان.
تجاهل الرسالة وشرع يبحث عن رسالة من أخيه فلم يجد فألقى الهاتف جانبًا:
- وبعدين يا معاذ بقى.. ماتريحني وتتكلم يا أخي.
تناول إفطاره بغير شهية ليمسك هاتفه ثانية ويتصل بأخيه دون رد.
فأرسل له رسالة جديدة:

"معاذ أنا هقتلك لما أرجع على القلق اللي أنتَ عاملهولي ده.. اتصل بقى"
شغل وقته بالجرائد ومشاهدة القنوات الإخبارية ليقوم بعدها مرتديًا ثيابه ونظر لساعته فكانت تشير إلى الثامنة، عاد يمسك هاتفه ويحاول الاتصال مجددًا وكالعادة لا رد.
ثم تذكر رسالة مدير حساباته فطالعها مجددًا ليقرر أن يتصل بالرقم المدون ويعرف ما الذي يجري لعل جاهين هو من طلب منه هذا.
ليأتيه الرد من صوت أنثوي فعقد حاجبيه بدهشة:
- مش دي نمرة محمد.. المحاسب.
- أيوة أيوة هي.. أنا زينة يا سامر بيه.
- زينة مين؟!
- زينة عبد الحكم اللي شغاله في الشركة عند حضرتك.
جلس وشعر بعدم الفهم ليقول:
- مش ده تليفون محمد.
- يا دي تليفون محمد أيوة والله هو بس أنا اضطريت أبعتلك نمرته بدل مابعت نمرتي أنا ويبقى شكلها بايخ.
- يعني إنتِ اللي عايزاني.
- لأ مش أنا.. أخوك.
هب واقفًا ليصيح:
- أخويا... أخويا مين؟!
- هو أنت ليك أخوات غير معاذ.
هز سامر رأسه بعصبية:
- لأ ماعنديش.
- أومال إيه أخويا مين دي؟!.
- يووووه... أخويا ماله يا زينة؟!.
ليسمع صوت آخر يقول:
" ماتخلصي يا زينة وتقوليله"

لتردف:
- طب بص... أنا لسه جوه الشركة أحسن حد يسمعني أنا هنزل وإديني بس خمس دقايق واتصل تاني يلا سلام.
- زينة.. زينة.
لم يأتِه إلا صوت انهاء المكالمة ظل يحق في الهاتف بغيظٍ تحول لدهشة، وعقله يحمل العديد من التساؤلات.
ما شأن زينة بمعاذ، ومحمد أيضًا كيف أصبح طرف:
- هو إيه اللي بيحصل؟!.
دار في غرفته بعصبية في انتظار مرور تلك الدقاق الخمس التي أصبحت فجآة كساعات.
....
أحقًا هو بهذا الضعف؟!
لمَ لا يستطيع التصرف وحده، لمَ يستميت هكذا في سبيل العثور على أخيه.
لازال يذكر كلماتها جيدًا.
"معاذ لازم نشتغل ونبقى حاجه كويسة لأن مامتك أكيد مش هتقبلني ومش بعيد تطردنا إحنا الاتنين.. فلازم نكون مستعدين"
الكثير من الخطط والترتيبات التي حملت بصمتها هي فقط، وضاع كل شيء مع اختفاءها.
شغل نفسه بالعثور عليها وأهمل عمله، فلا هو عثر عليها ولا استطاع أن يُتقن عمله، والآن يجلس كطفلٍ تائه ينتظر عودة أخيه لمساعدته.
تنفس بغضب يلوم حاله:
- أنتَ غبي.. معاك لغتين غير العربي ودارس في أمريكا وقاعد على الرصيف.. مش ممكن.
دس يده يخرج بطاقته الشخصية، الإثبات الوحيد الذي منحته أمه له، حتى لو تقدم للعمل لا شهادات.. لا شيء على الإطلاق.

دار ببصره في المكان، الكثير يغادر شركته التي له فيها أسهم بالفعل، أصبح أقل موظف بها أفضل حالًا منه.
عاش عمره كمعاذ شاكر الهيثم ويبدو أنه مضطر أن يعيش كمعاذ فقط.
لمَ يُعقد الأمور؟، يمكنه أن يطبع سيرة ذاتية له في أي مكان ويتقدم بها، وليتحدث عن لغته فحسب وهذا يكفي، فقط عليه البحث عن المكان الذي قد يهتم بلغته بغض النظر عن شهاداته.
- لو سمحت.. الساعة كام؟!
سأل شخص يمر أمامه فأخبره أنها الثالثة، شكره وهو ينظر إلى مخرج الشركة، تلك الفتاة اختفت، قالت ستخرج في الثانية وها قد مرت الساعة دون جدوى.
يبدوا أنه لا فائدة عليه الاعتماد على نفسه كليًا، ليته فكر في إيجاد عمل منذ اللحظة الأولى لكان استفاد بالكثير من الوقت.
ظل مكانه بلا حركه، عقله يأخذه لألف احتمالٍ واحتمال، ويعود به ثانية لنقطة الصفر.
حتى أنه لم ينبته لمن وقفا أمامه ليأتيه صوتها:
- إحم.. معلش اتأخرت.
رفع بصره لها ليهب واقفًا:
- اتأخرتي كده ليه... وعملتي إيه.. وصلتي لسامر؟!
- خد نفسك شوية.. أيوة وهيتصل حالًا دلوقتي.
أشارت إلى الهاتف الذي بيد الشاب الذي يجاورها فرمقه معاذ بشك:
- مين ده؟!
- ده محمد محاسب في شركة تانية ليها شغل معانا بس أنا بصراحه دبسته في الموضوع لأني ماعرفتش أجيب النمرة لوحدي... نمرته هو اللي مع أخوك وهيتصل على تليفونه.
عاد رنين الهاتف ليرفعه محمد له:
- اتفضل.

أمسك الهاتف بقوة وكأنه يمسك بآخر طوق نجاة له في هذا العالم وما إن سمع صوت أخيه حتى صاح:
- سااامر... إلحقني يا سامر.. شوفت ماما عملت فيا إيه؟!
مطت زينة شفتيها بينما اندهش محمد مما يرى فابتعد معاذ بالهاتف ليكمل حديثه مع أخيه ليقول محمد:
- هو ماله واقع كده؟!
- في ناس كده متعرفش تعيش غير بأهلها وهو منهم.
- أنا مش فاهم حاجه!
- يعني أنا اللي فاهمة.. أنا ماشية بقى.
- نعممم... ماشية فين؟! أنا عايز تليفوني.
- ماهو معاه لما يخلص كلام مع أخوه إبقى خده منه أنا كده اتأخرت كتير ساعة جوه الشركة ولسه هقف هنا بابا يقلق عليا كده يالا سلام أشوفك بكرة وإبقى قولي عملت إيه معاه... سلاام.
- زينة.. زينة.
أومأت له أن كل شيء على ما يرام لتهرع مبتعدة غير عابئة.
بينما ظل هو مكانه يزفر بحنق.
....
وأخيرًا مرت الدقائق الخمس ليعيد الاتصال على عجلٍ، وما إن فتح الخط وقبل حتى أن يسمع صوت المجيب قال هو:
- ألو..ألو زينة.
- سااامر... إلحقني يا سامر.. شوفت ماما عملت فيا إيه؟!
- معاذ.. الحمدلله إيه يا بني أنت فين وإيه اللي بيحصل عندك ده وسما عملت إيه؟!
- ماما طردتني من البيت والشغل من غير أي فلوس مكنش معايا غير بطاقتي.. ماما عملت فيا اللي عمري ما تخيلته... وكل ده علشان جوازه أنا مش عاوزها.. أنا بجد مش مصدق إنها تعمل فيا كده أنا اضطريت أبيع ساعتك

علشان أعرف أعيش اليومين اللي فاتوا والفلوس خلاص هتخلص.. أعمل إيه.. أعمل إيه؟!!
كان يتحدث بأنفاسٍ متقطعة من كثرة الانفعال، بينما يستمع له سامر بغير تصديق، أمه فعلت كل هذا؟!!
ورغم تأكده من كل كلمةٍ تمنى أن ينكر:
- أنت بتقول إيه؟!... سما طردتك من البيت... من أمتى؟!
- نفس يوم سفرك... بعدتك عني علشان عارفة إنك مش هتسمح بده.
ضم قبضته بقوة والغضب يتعالى داخله، ليقول من بين أسنانه:
- أنت فين دلوقتي وعايش فين؟!
- أنا قاعد في أوتيل كده على أده.. وكمان مش فاضل معايا كتير أنت هترجع أمتى؟!
أغلق عينيه وكأنه يحاول التركيز والتفكير بشكلٍ جيد لمساعدة أخيه ليقول:
- طب والشركة مش عارف تدخلها.
- لأ.. قالتلي لو قربت هتخليهم يرموني برة زي ما عملت في البيت تخيل خلت اتنين من الجاردز يرموني بره البيت.. والله رموني يا سامر.
عض سامر شفتيه ليحدث نفسه.. " بقى أنا استحمل كل ده علشانه في الآخر ترميه بره... عديتي كل حدود يا سما والشخص الوحيد اللي كان حايشني عنك رميتيه بعيد"
- يا سامر قولي هترجع أمتي؟!
- الساعة بقت ٣ عندك مش هتلحق أي بنك.. هبعتلك فلوس أزاي؟!
قال معاذ بنزق:
- يا سامر رد عليا هترجع أمتي؟!
- لسه يا معاذ قدامي كام يوم.. هحاول آجي بسرعة.
- طب أنا هعمل إيه دلوقتي؟!.
صمت لحظات مفكرًا ليقول:
- زينة معاك.

إلتفت إلى حيث تركها فلم يجد غير الشاب الذي كان معها:
- دي باين مشيت وواقف صاحب التليفون اللي بكلمك منه.. بتقولي محاسب في شركة تانيه.
فهم أنه محمد الذي يقف منتظرًا، ليزفر مفكرًا كيف يمكنه مساعدة أخاه الآن، أي اتصال مع أحد من الشركة قد يصل لأمه وهو لا يريد أن تعرف ذلك قبل أن يعود إليه، فلا يضمن تصرفاتها فلقد تعدت حد الجنون.
- سامر أنت ساكت ليه؟!.
- أصبر يا معاذ بفكر.
"يا أستاذ.. أنا هفضل واقف كده"
سمع سامر تلك الكلمات ليقول:
- لو ده محمد خليني أكلمه.
أعاد معاذ الهاتف له قائلًا:
- كلمه.
رمق الهاتف للحظات وفي عقله يسقط لعناته على المسماة زينة.
- ألو.
- محمد.. ازيك؟!
- الحمدلله.
- ممكن خدمة وأوعدك هكافأك عليها.
- من غير حاجه يا سامر بيه أتفضل.
- أنت عايش مع أهلك.
لم يفهم محمد سبب السؤال لكنه أجاب:
- لأ.. أنا عايش لوحدي.
- هاايل... أنا محتاج التليفون بتاعك يفضل مع أخويا لبكرة لحد ما أعرف أبعتله فلوس ممكن تخليه يقعد عندك لحد بكرة بس.
صمت محمد فلم يتوقع طلب كهذا، ولا يعلم ما هو التصرف الصحيح فقال سامر مع استمرار صمته:

- عارف إن الطلب غريب.. بس أخويا محتاج يكون في مكان أقدر أوصله بسهولة والأفضل عند حد مايكونش من الشركة نفسها.. مش هقدر أشرحلك أكتر بس ياريت توافق..ولو تحب أكلم جاهين علشان تكون مطمن على الطرف اللي بيكلمك ماعنديش مانع.
- أنا مطمن يا سامر بيه... مافيش مشكلة هخليه يروح معايا.
شكره سامر كثيرًا وأعاد الهاتف إلى معاذ الذي استمع إلى أخيه للحظاتٍ أخرى قبل أن يُنهي الاتصال ويعيد الهاتف لصاحبه.
ليتبادلا النظرات قبل أن يقول محمد:
- ثواني هوقف تاكس.
توقف معاذ مكانه وقد تعاظم داخله الشعور بأنه بالفعل أضعف من أن يتصرف وحده، حتى أخيه وَكَل أمرِه لشابٍ آخر يعمل محاسب في شركةٍ أخرى، والأمر بسيط فكلمة السر يعمل.
العمل.. الشيء الوحيد الذي استفاده من كل ما حدث أنه لن يترك عمله بعد الآن سيكون مثل سامر.. سيكون جديرًا بالمسئولية، ربما تأخر كثيرًا قبل أن يتخذ هذا القرار ولكن التأخر أفضل من عدم اتخاذه على الإطلاق.

....
ظلت في فراشها وقد فضلت البقاء وحيدة بعد أن تركتها الفتاتان، لا يمكنها أن تتغافل ذلك الصراع الذي يدوي داخلها.
عقلها يصارع قلبها في معركة لا تؤلم أحدًا سواها، عقلها الذي أيدَ كلمات نانا بل وكلمات المنطق فجاهين هو الحماية..
وقلبها الذي يلوم ويؤنب تجاهلها لمن يحب.
ويأتي ضميرها ليزيد الطين بله بتحريم مجرد خاطرٍ عن حبٍ ضاع وأن عليها أن تنساه وتحاول أن تفتح قلبها لمن أعلنت أنه سيكون زوجًا لها.
وعلى ذكره أضاء اسمه على شاشة هاتفها، لترمقها للحظات، ولا يعلو وجهها غير ملامح متجهمة لا تعبر عن شيء.
فأجابته ليأتيها صوته الهادئ:

- بصي من البلكونـة.
- اشمعنى.
- عادي.. عايز أشوفك وأنا بكلمك.
استطاع أن يسلُب منها بسمة وإن كانت باهتة وهي تتجه إلى الشرفة لتراه جالسًا على أرض الحديقة الخضراء، يضع هاتفه على أذنه ويلوح لها بالكف الأخرى لتستند على الشرفة باسمة:
- إيه اللي أنت عاملهُ ده؟!
- بحب قعدة الأرض ماتيجي تقعدي شوية.
انزوت بسمتها دون وعي منها لتعود ذكريات ماضيها تزاحم حاضرها.
معاذ الذي طالما جلست معه أرضًا على أرضية كتلك، الكثير من العشب الأخضر حولهما، حتى رائحة بلله تعيد لها تلك الذكريات بسهولة، وبدلا من أن يساعدها على نسيانها يعيد الصورة كما هي.
اعتدلت ليصل لها صوته:
- مالك.. أنا قلت حاجه غلط؟!
- لا أبدًا.. بس مليش مزاج أنزل.
غمز لها:
- طب أطلعلك أنا.
زمت شفتيها بصوت مسموع، فقال:
- خلاص.. بقولك إيه.. مابلاش موضوع الخطوبة ده ونعمل فرح على طول هو إحنا يعني لسه هنتعرف.
- أيوة طبعا.. وقلتلك بلاش تتكلم في الموضوع ده تاني إحنا اتفقنا خلاص... خطوبة لحد منا بنفسي أقول لوافي خلي جاهين يحدد ميعاد الفرح.. ولا تحب نلغي الفكرة من أساسها.
- لا.. وعلى إيه.. ثم مالك حمائية كده بالهداوة.
- مش هتقولي ماما قالتلك إيه إمبارح لما خرجتنا من الاوضة.
أخرج لسانه بغيظ:

- لأ مش هقول.. وافقي على الفرح وأنا أقولك.
رفعت الهاتف عن وجهها ووهمت بغلقه فلوح بكفه ليوقفها فأعادته ثانية:
- ماقلنا بالهداوة.
- مأنت بترجع لنفس الموضوع.
- خلاص يا بسبوسة.. بلاش.
عقدت حاجبيها تردد:
- إيه بسبوسة دي كمان؟ مش بحبها.
- يادي النيلة هو أنا كل ما أقول حاجه ماتعجبكيش.
- علشان تعرف إننا فعلًا محتاجين نعرف بعض.
- ياستي مانتعرف وإحنا متجوزين.
- يوووووه تاني.. أنا هقفل بقى سلام.
ولم تمنحه حق الاعتراض أغلقت الهاتف وعادت لغرفتها، ليلوي شفتيه بضيق:
- وماله اتقلي.. بكرة تحبيني وتجري ورايا.. ثم أنا عايز أعرف هي ماحبتنيش ليه صحيح.. إيه الأنثى العجيبة دي.. ده البنات كانوا بيجروا ورايا.. ولا دي كانت تهيؤات ولا إيه.
- أنت بتكلم نفسك.
إلتفت إلى وافي الذي اقترب ليجر كرسيًا ويجلس جواره ويجيبه جاهين:
- البركة في أختك لسه خاطبها مبقاليش يومين وبكلم نفسي تفتكر بعد الجواز هيحصل إيه؟!.
- سهلة جدا هنباركلك في العباسية.
ضحك جاهين:
- فعلًا عندك حق.
- بس قولي صحيح.. عملت إيه مع ماما فاطمة مش كانت مش موافقة هتتجوز بنتها من غير موافقتها.
- والله أبلة بطة دي مفيش منها.. لا طبعا هي وافقت وكله تمام.
- طب كانت رافضة ليه.

- عادي بقى تقدر تقول عقد زمان طافت على السطح.
- عقد زمان؟!!
قالها بلهجةٍ بائسة وهو يذكر كلماتها التي اخترقت قلبه قبل أذنه، لا تريد لابنتها علاقة أقرب في تلك العائلة، لازال لا يفهم كيف تفكر، تريد أن تتقرب منه أم تبتعد عنه، أتريد أن تكون أمه بحق وجزء من تلك العائلة أم فقط جاءت سعيًا خلف أموال حرمت منه سابقًا.
وكالعادة لا إجابة لكل تلك الأسئلة فهي تكتفي إما بالصياح بكلام غير مفهوم أو البكاء بصمت.
وهو سئم كل هذا!!
فكل ما يصل لعقله أنها لم تحبه كما أحبت توأمه، بسمة لديها شيء مختلف، قيمة أخرى، لن يصل لها يومًا.. وكأنه ذنبه؟!!
هي من تركته وابتعدت فلمَ تعامله هكذا؟!
لم تطرق بابه ولا مرة، كل ما ناله منها ضمة خائفة مرتعشة وبرغم ذلك مست شغاف قلبه الظمآن لحنانِ أمٍ حلُمَ بها دومًا.
أُم لا تفعل شيئًا غير انتظاره لتنظر له بحنانٍ لا يعلم أحقيقي هو أم مجرد إدعاء؟.
- روحت فين؟!
كلمات جاهين أعادته لواقعه ليتعالى رنين هاتفه فأجابه بعد أن عرف المتصل:
- أيوة يا بسمة.... هو النهاردة.... ماشي هوديكوا.
مد جاهين عنقه:
- هتوديهم فين؟!
- ميعاد الدكتور بتاع مها النهاردة بليل.. هوصلهم.
وقف جاهين ينفض ثيابه:
- طب ما تسيبني أنا أوديهم.
هب وافي قائلًا بسرعة:
- لاا معلش.. أنا هوديهم.

رمقه جاهين باستغراب ليقول:
- ومالك كده.. أكني هخطف منك حاجه.
- إحم.. لا عادي.. بس خلاص أنا قلت هوديهم.. أنا جعان هما هيحضروا الغدا إمتى؟!
إلتفت ليُسرع الخطى وكأنه يهرب من جرمٍ مشهود.
....
دلف معاذ خلف محمد إلى شقته الصغيرة، كانت بمنطقة هادئة كثيرًا وما إن دخلها حتى دار ببصره في فراغٍ تقريبًا إلا من أريكةٍ وحيدة وأمامها منضدة صغيرة ليقول محمد بحرج واضح:
- معلش.. أنا ناقل فيها جديد أجرتها يعني علشان تبقى جنب الشغل ولسه مافرشتهاش.
- مفيش مشكلة.
- اتفضل أقعد.. هي مفيش غير أوضة نوم، والصالة دي، والمطبخ والحمام وخلاص... وأنا عايش لوحدي فمتقلقش من حاجه.
أومأ برأسه لكنه ظل مكانه بغير حركة، شعر محمد بمزيد من الحرج وهو يحدث نفسه.. "تلاقيه قرفان من الكنبة أصلًا... أقوله إيه ده أنا نضيف والله وبستحمى"
وضع حقيبته جانبًا ليقول:
- أنا هنزل أجيب أكل خد راحتك... بتحب تاكل حاجه معينة.
هز معاذ رأسه بالنفي:
- لا عادي.. أنا مش جعان.
- لا إزاي أنتَ فاكرني بخيل أكيد بتاكل بتيزا.. في محل هنا من محلات البيتزا المعروفة دي هجيبلك منها.. تحب نوع معين.
- لأ.. أي حاجه.
- حالًا... خلي تليفوني هنا يمكن أخوك يتصل تاني.

نزل محمد وقد ارتاح قليلًا لتجاوب معاذ معه لكنه لم ينسَ أن يرددها ثانية "منك لله يا زينة"
خطى معاذ بحذرٍ ليجلس بالفعل على الأريكة وقد استرخى ظهره، يشعر وكأن حمل السنين قد أُزيح عن صدره، قلب هاتف محمد في يده وابتسم ساخرًا.
اتصال واحد من هذا الشيء أعاد له الحياة، مجرد تواصله مع أخيه كان مبغاه وقد ناله، ولكنه أبدًا لن ينسى الدرس وسيثبت هذا للجميع.
رن الهاتف فانتفض وأراد الرد لكنه تذكر أنه ربما ليس أخاه نظر إلى الشاشة ليقرأ عليها اسمها... "بوسي"
خفق قلبه بعنفٍ وهي يقرأ الأسم مرة بعد مرة، كم يفتقد نطق حروفه وترديده لصاحبته، داعبت أنامله زر الرد لكن ملامح محمد الغاضبة من فِعله تهيأت له، هو لا يعلم من بوسي تلك لعلها خطيبته.
ظل يرمق الهاتف بصمتٍ ظاهر وصخب باطن... حتى سكت.
تمنى من قلبه أن يعاود رنينه سيرد بحجة اخبارها أنه ليس هنا، يريد أن يقتنع أنها ليست هي بكل تأكيد.
ورن الهاتف ثانيةً لكنه أضاء عن رقم خارجي فعلم أنه سامر، مط شفتيه بيأس ليجيب أخاه الذي اطمئن على حاله وطلب منه رقمه القومي ليرسل له مبلغ إلى البنك يعينه حتى يعود إليه في أقرب وقت وأكد عليه أن يشتري هاتف جديد ويرسل له رقمه عن طريق هاتف محمد.
عاد محمد يحمل الطعام ليضعه أمامه على المنضدة:
- يالا يا باشمهندس بسم الله.
رفع له الهاتف قائلًا:
- تليفونك رن... واحده اسمها بوسي.. أنا افتكرت سامر علشان كده شوفت الإسم.
ابتسم محمد وهو يتناول منه هاتفه:
- ولا يهمك حصل خير.. هكلمها بعد شوية.
- دي طولت باين عايزاك ضروري.

نظر لهاتفه لحظات ليقول:
- طيب كُل أنت أنا هكلمها وأرجعلك على طول.
خرج إلى الشرفة لكن معاذ لحق به بحذر أراد أن يستمع إلى كلماته التي وصلته بوضوح.
- أيوة يا بوسي... الحمدلله إزيك إنتِ، عاملين إيه كلكم، خير فرحيني... بجد مبرووووك ألف مبروك مين سعيد الحظ؟!....
تعالت ضحكاته ليقول:
- لا مش بضحك أوي ولا حاجه.. أصل كان قلبي حاسس.. بجد مبروك يا بوسي ربنا يتمملك على خير.... طبعا هاجي قوليلي ميعاد الخطوبة إمتى وهتلاقيني عندك... ماشي.. سلام بقى عندي ضيوف... باي.

عاد مسرعًا لمكانه وحاول أن يبدو عاديًا فاقترب محمد قائلًا:
- مابدأتش أكل ليه؟!
- مستنيك.
ابتسم محمد:
- طب يالا... عايز تغسل إيديك.
أومأ معاذ له فأشار إلى الحمام، أسرع معاذ وغسل يده وعاد له وقبل أن يُشرع في الطعام قال بلهجة حاول أن تكون تلقائية لكنها بدت مهتمة أكثر من اللازم:
- هي مين بوسي دي... خطيبتك.
رفع محمد رأسه له وبدى عليه استغراب السؤال لكنه ظن أنه يريد أن يدير أي حوار كي لا يشعر بالحرج فأجابه:
- لا.. دي تقدر تقول زي أختي.. كانت بتقولي إنها اتخطبت لابن عمها.
- آااه.. مبروك.
- الله يبارك فيك عقبالك.. لو كنت لسه مش خاطب.
- شكرًا.

ليست هي، بوسي لا عم لها، مات أبيها طفلة لا أهل لها غير أمها يذكر هذا جيدًا، ستبقى طيف يترآى له في لحظةٍ ويختفي في أخرى.

- ماتاكل.. البيتزا هتبرد.

مد يده يشارك محمد الطعام وإن فقد شهيته تمامًا.

....

قرع قلبها لم يهدأ للحظة، كفيها كقطعتي ثلج رغم أن الشتاء لم يبدأ، لا تدري أخوف هذا أم توتر؟!

خوف من أن تسمع أن حالتها ميؤوس منها ولا أمل، أم توتر من أن يمنحها الأمل وتستمر في العلاج وينتهي الأمر بظلامٍ اعتادت عليه واعتاد عليها.

ظلام أصبح الرفيق المخلص باستماته، وليتهُ يمتلك بعض الغدر ويتركها.

كلمات الطبيب وأسئلته تتهادى إلى علقها وكأنها من عمق ما، وتأتي إجاباتها هادئة كثيرًا تحاول بها أن تخفي توترها.

جلس الطبيب وعيون بسمة ونانا متعلقة به باهتمام، بينما تساعد نانا أختها على الجلوس ليقول:

- طيب هو إحنا طبعًا قدام حالة قرنية مخروطية واضحة.. وكان ممكن علاجها من زمان بزرع قرنية.

لتقول نانا:

- مكنش معانا تكلفتها.

أومأ الطبيب برأسه:

- فاهم.. من رحمة ربنا إنها ممكن تتم في أي وقت لأن القرنية عضو شبه مستقل بنفسه الجميل إن العصب البصري عندها سليم.. نسبة نجاح العملية فوق ال ٩٠ في المية.

تهللت ملامحهن جميعًا ونانا تمسك بكف أختها تهزها بسعادة وبسمة تقول:

- بجد يا دكتور.. طب الحمدلله.. إحنا مستعدين لأي تكاليف الحمدلله ربنا كرمنا.

- ممكن تتعمل هنا طبعًا بس إحنا في مصر بنتعامل مع بنك العيون اللي في أمريكا بيكون دايمًا عندهم رصيد من القرنيات لمتبرعين.. فلو تحبوا تروحوا هناك هتعملها وكمان هتلاقي رعاية رائعة.. زي ما تحبوا.
قالت بسمة :
- هنسافر مش مشكلة.
- طيب أنا هكتب التقرير الكامل ليها وحد يبقى يعدي ياخده وهديكم عنوان مركز عيون في أمريكا بيعمل العمليات دي على طول.
أومأت بسمة بإيجاب قائلة:
- طب في أي حاجه ممكن نعملها يا دكتور لحد السفر.
- لأ خالص.. بس لازم تفهموا تعليمات المتابعة كويس نجاح عملية القرنية مش بس إنها تخرج من العمليات لأ.. لازم متابعة ولفترة طويلة كمان... وخدوا بالكم الرؤية مش هتبقى واضحه من أول لحظة لأ.. لكن هتستعيد بصرها بالتدريج خلال شهر تقريبًا.
تفهمن كلماته جيدًا ليغادرن بوعدٍ للعودة لأخذ التقرير وعنوان المركز ليستعدوا للسفر.

استند وافي على سيارته، توتره ربما يعادل توترهن جميعًا حتى أنه لم يستطع أن يصعد معهن ولا أن يبقى في سيارته، كان يدور حولها باستمرار وحين يشعر بالتعب يستند عليها للحظاتٍ قبل أن يعود للتحرك مجددًا.
يراقب باب المبنى في انتظارهن، وما إن انتبه لهن أسرع يجلس خلف عجلة القيادة وحاول أن يبدو مسترخيًا قدر الاستطاعة لكن ما إن ركبت بسمة بجواره ونانا لا زالت تساعد أختها لتدخل قال بلهفة لم يمنعه:
- طمنيني عملتوا إيه؟.. الدكتورقال إيه؟!
إلتفتت له ترمقه لحظات لم يبدو بهذا الشكل حين عادت مع أمها من عند الطبيب لكنها لم تفكر في الأمر كثيرًا لتقول:
- الحمدلله الدكتور بشرنا بكل خير... إن شاء الله تعمل العملية وتبقى زي الفل.

قال بسعادة لم يخفِها:
- بجد... الحمدلله مبرووك يا مها.
انتبه إلى رد فعله المختلف مع نظرات بسمة ونانا له وخجل مها الواضح ليردف وقد عاد له هدوءه:
- إ..إن شاء الله تقومي بالسلامة.
اكتفت بحمرة خجلها كرد،لتقول نانا وهي تراقبه بحرص:
- آمين يا رب.
لتوكز أختها التي دفعت يدها بعيدًا دون تعليق.
ليتسائل هو:
- طب قال إمتى العملية.
ضحكت نانا:
- بسام مستعجل أكتر مننا.
هذه المرة ضربتها أختها بقوة بقدمها لتتأوه نانا بصوتٍ مكتوم وترمق أختها بغيظ بينما قالت بسمة وهي تراقب تعبيرات أخيها:
- لسه لما يدينا التقرير بتاعها ونقدر نسافر بيه.
- تسافروا؟!
قالت نانا:
- آه الدكتور بيقول تعملها برة أحسن.
تدخلت مها بصوتها الهادىء الخجل:
- ما لو ممكن نعملها هنا بلاش نسافر هي مصاريف وخلاص.
- بدل الدكتور قال أحسن تبقي تسافري مالكيش دعوة بالمصاريف.
تمنى لو كانت تلك كلماته هو لكنه لم يرد أن يفضح أمره أكثر من ذلك فاكتفى بكلمات بسمة ولم يزِد عليها وأكمل طريقه إلى المنزل.
خرجت نانا مع أختها من السيارة لتتبعهما بسمة لكن وافي أوقفها بنداءه:
- بسمة.
إلتفتت له وعادت حيث يقف بجوار السيارة:

- نعم.
- الدكتور قال إيه بالظبط؟!
رفعت إحدى حاجبيها قائلة:
- مش ملاحظ إنك مهتم زيادة عن اللزوم.
كتف ذراعيه قائلًا:
- الدكتور قال كده!!
لوت شفتيها وتجاهلت سخريته:
- زي ما سمعت عملية زرع قرنية بس هنعملها في أمريكا في مركز بيعمل العمليات دي كتير هو قال كده.
- طيب خير.. بصي مصاريف الموضوع ده كله عندي بس مش عايز حد يعرف غيرك.
- امممممم... ده اسمه إيه ده؟!... شفقة ولا احسان ولااا... حاجه تالتة.
خفض بصره للحظة قبل أن يعتدل ليخطو إلى المنزل قائلًا:
- حاجه رابعة
إزدات بسمتها تدريجيًا وهي تتبع رحيله.

دلف إلى غرفة جاهين الذي قال فور أن رأه:
- هااا.. كل يوم بقى تدخلنا من عيادة دكتور ونقولك عملت إيه؟!
- الحمدلله.. إن شاء الله هتعمل عملية وترجع تشوف.. الحمدلله.. الحمدلله.
كان يرددها بسعادة حقيقة، إتجه جاهين نحوه:
- إيه يا خويا السعادة اللي أنت فيها ده.
التفت له قائلًا:
- أنا فعلا فرحان أوي... أوي يا جاهين.
طوق جاهين عنقه ليضغط عليها:
- وإيه السر بقى... اعترف اعترف.
حاول وافي التملص منه دافعًا ذراعه:

- إيه يا عم أنتَ خنقتني.
لكن جاهين لم يحرره ولوى عنقه فمال وافي معه والأول يردد:
- بقولك اعترف.. أنا شاكك فيك من الأول.
دفعه وافي بجسمه ليسقطا معًا على الفراش فاضطر جاهين لتركه ليلتفت وافي جاذبًا الوسادة ضاربًا بها وجهه ليضحك جاهين:
- خلاص يا عم خلاص .. هعترف أنا.
اعتدل وافي يشاركه الضحك ليوكزه جاهين:
- بجد قول يا وافي أنت فرحان لمها أوي كده ليه؟!
انسحبت آثار ضحكته عن وجهه ليعتليها ملامح حيرة وهو يردد:
- هتصدق لو قلتلك مش عارف.. أنا فعلا مش عارف البنت دي تأثيرها عليا إيه بالظبط... هل هو شفقة على حالها؟!... ولا علشان بتفكرني بنفسي أيام مرضي فمتعاطف معاها ولا الموضوع أكبر من كل ده وانا مش حاسس.
- تيراراراااااتيراااااا.
أغلق عينيه غيظًا من سخرية جاهين ليقول:
- تصدق أنا غلطان إني بتكلم معاك... إما روحت قلت لبسمة مغامرات مراهقتك اللي ماتتعدش مبقاش أنا.
تعلق جاهين به:
- والله أنت حبيبي.. عيب دانا أخوك.
التفت له ليدفعه عنه:
- طب أوعى يا أخويا أنا رايح أنام.
- استنى بس... كمل الأول طب وهتعرف منين بقى إحساسك ده حقيقته إيه؟!
رمقه بصمت ليكمل:
- قول.. والله هسمع بجد.
- يعني... لو عملت العملية وبقت طبيعية أكيد ساعتها هعرف.. الشفقة مش هيكون ليها لازمة ولا حتى التعاطف.. ولو حاجه تانية أكيد هتكون واضحة أكتر.

- امممم منطق برضو.
نهض عن فراش جاهين قائلًا:
- تصبح على خير بقى عندنا شغل بكرة.
- هو إحا هنحدد ميعاد الخطوبة إمتى؟!
- ماتحدد يا بني حد حايشك.. مش بسمة بتقول على الضيق خلاص.. نخليها الجمعة الجاية.
- مووووافق جدا.
هز وافي رأسه مبتسمًا ليردد بصدق:
- مبروك يا جاهين أنا فرحان جدا إن أكتر اتنين ُقرب ليا هيتجوزوا... ربنا يوفقكم في حياتكم.
- لا في دعوة تانية عايزك تركز عليها.
- إيه هي؟!
- يااارب بسمة تحبك يا جاهين وماتقدرش تستغنى عنك أبدًا.
لوى وافي شفتيه ليتسدير مغادرًا يلاحقه صوت جاهين:
- أنا هبقى جوزها يا بني .. دي دعوة حلال والله... يا وافي.. طب مرة واحدة طيب.
أغلق وافي الباب خلفه لينقطع صوت جاهين عنه فابتسم مرددًا:
- مجنون.
إتجه الى غرفته ليصل له صوت ضحكات سعادة واضحة تأتي من غرفة فاطمة التي تُرك باباها مفتوحًا، دفعه الفضول للاقتراب ليصله صوت نانا:
- إن شاء الله يا أبلة بطة.. هتشوف وهتبقى زي الفل.. أنا حاسه إني بحلم والله.
لتقول فاطمة:
- الحمدلله.. ياما أنتَ كريم يا رب.. كل صلاة كنت بدعيلك فيها يا بنتي ربنا يردلك بصرك وهو على كل شيء قادر... الحمدلله يا حبيبتي الحمدلله.

كلمات المفترض أن تفرح من يسمعها لكنها كانت على قلبه كلظى نارٍ تذيقه الألم، تلك الأم التي تمنح مباركاتها ودعائها لكل أحد إلا هو، تلك الأمَ التي تعتبر فتاتان لا يمُتان لها بصلة أقرب إليها منه هو، أذنبه أنه تربي بعيدًا؟، ألم يكن هذا اختيارها هي؟!

أتعاقبه أنه لم يبكِ ويرفض البقاء بعيدًا عنها ومن أدراها أنه لم يفعل، كان من الصغر الذي به لن يعي ذلك، فلمَ تتصرف معه بتلك الطريقة التي يعجز عن تفسيرها.

ليتذكر كلماتها لجاهين...

"أنا مش عايزة يبقى ليها علاقة بالعيلة دي "

وهذا ينطبق على الجميع بالطبع، مها ونانا، لن تريد أن يكون لهما أي علاقة بعائلته حتى لو كان الطرف الآخر هو، بل على العكس سيجعلها هذا ترفض أكثر وتتمسك بالرفض.

ضاقت عيناه وهو يفكر في ذلك الاحتمال، هل هي من الجرأة لتؤكد له كرهها.

هز رأسه مستغفرًا ليدخل غرفته وكل مشاعر الفرح التي بداخله تغلبت عليها مشاعر حزنه وغيرته على مشاعر لا ينالها ممن أخرجته لتلك الحياة لتختار أن تكون الأبعد عنه.

الفصل الثالث والثلاثون

علقت في المسمار قناع مهزلة
ومعاه قناع مأساة بحزنه ابتلا
بصيت لقيتهم يشبهوا بعضهم
واهو ده العجب يا ولاد وإلا فلا
عجبي!!
رباعيات جاهين

سارة شعبان الدين

وكأن همًا كالجبال أزيح عن صدره وهو يمسك بالورقات النقدية التي أرسلها أخوه له، لم يصدق أنه أخيرًا تمكن من التواصل مع أخيه ونجا من مخطط أمه السخيف والذي إلى الآن لا يصدق أنها أقدمت عليه.

خرج من البنك ليجد محمد في انتظاره ليقول:

- خلاص سحبت.

- الحمد لله.. تعالى بقى نشتري تليفون بسرعة علشان نبطل نزعجك بتليفونك.

- لا أبدًا ولا يهمك.

رن هاتف محمد ليمنحه إلى معاذ الذي أجاب:

- أيوة يا سامر.. سحبت الفلوس خلاص هنروح نشتري تليفون وبعدين أنا هرجع الفندق اللي كنت فيه سعره كويس وهقدر أستناك هناك لحد ما ترجع... تمام أيوة أول ما أشتري التليفون هتصل أنا بيك.

أغلق الهاتف وأعاده لمحمد، ليتحركا معًا ويتمما شراء هاتف جديد والخط الخاص به وبالمال كل شيء سهل.

صافح معاذ محمد بامتنان:

- بجد متشكر جدًا ليك ولزينة طبعا... إنتوا ماتعرفوش إنتوا ساعدتوني أد إيه.. لو احتاجت حاجه في أي وقت مش هنتأخر عنك إن شاء الله.
- العفو على إيه.. عموما تليفوني معاك برضو لو احتجت أي حاجه كلمني على طول.
- أكيد.. طيب أنت ليك عندي عزومة غدا أنت وزينة إيه رأيكم النهاردة بعد الشغل نتقابل ونتغدى سوا.
- أعتقد زينة صعب تقبل وشكرا على الدعوة... خليها مرة تانية أنا مضطر أمشي بقى أحسن اتأخرت على الشغل أوي كده.
- ولا يهمك لو حابب تشتغل معانا في الشركة أكيد مافيش مشكلة.
- لأ.. مش للدرجة أنا حابب المكان اللي أنا في دول زي أهلي وماقدرش أسيبهم.. ياله أسيبك بقى مع السلامة.
- ماشي.. وزي ماقلتلك لو احتجت حاجه كلمني على طول.
أومأ محمد برأسه شاكرًا ليبتعد ويلحق بعمله ليمسك معاذ بهاتفه شاكرًا لله مع شعوره بأنه عاد أخيرًا للحياة من جديد.
إتجه للفندق الذي استقبله موظفه:
- أهلا حضرتك هتعمل تشيك إن تاني.
- أيوة إن شاء الله.. البطاقة أهي.
- تمام.. أهلًا بيك.
عاد لغرفته بمعنويات أكثر راحة، لا بأس الآن، عليه فقط الانتظار حتى عودة أخيه وسيحاول حينها التصرف بشكل مختلف، يجب أن يكون قادرًا على الاعتماد على نفسه قريبًا، فقط يجب أن يجد النقطة التي يبدأ منها وللأسف لن تكون بعيدة عن أخيه.
أمسك هاتفه يتصل به:
- أيوة يا سامر أنا رجعت الفندق الحمدلله... ماتتأخرش بقى يا سامر.
- ماشي أنا هفضل أتصل بتليفونك اللي في البيت علشان ماتحسسش إننا تواصلنا.

- تمام.. أنا هنام بقى أحسن ماعرفتش أنام كويس في بيت محمد.
ضحك سامر:
- خلاص نام... ومكافأة محمد وزينة عندي لما أرجع إن شاء الله.
أغلق الهاتف ليضم إليه وسادته سعيًا إلى نومٍ أكثر هدوء وأريحية.
....
صفير مميز أطلقه وافي وهو يراقب جاهين يعدل هيئة الأخيرة ليلتفت له قائلًا:
- ها.. هتحبني من أول نظرة صح؟!
مط وافي شفتيه قائلًا:
- ارحمني بقى.
ضحك جاهين وهو يعدل ربطة عنقه ويطالع هيئته بالمرآة، بدى أنيقًا كالعادة في بدلته والتي اختارها بيضاء بياقة سوداء فمنحته مظهرا مميزًا.
تصور أنه سيكون سعيدًا في هذا اليوم لكنه يثق الآن أنه تعدى مرحلة السعادة بكثير، كيف ومتى تمكنت تلك الفتاة منه هكذا حتى أصبحت محور تفكيره لكثير من الوقت.
لن يبحث عن إجابةٍ فالأفضل أن يشغل عقله بشيء آخر.
بسمة لا تحمل له أي مشاعر بعد.
يثق بهذا تمامًا، قبولها عقلي بحت.
حتى أنه أصابه القلق من ترددها في تحديد موعد الخطبة، بل لو لم يأخذ الخطوة هو ربما ما تم شيء لكنه لا يريد أن يؤخر الأمر، يريد أن يتمكن من التقرب منها أكثر وأكثر، كما أنه سيقنعها بتعجيل الزواج.
لا يمكنه أن يتجاهل رفض عمته ولا يعلم كيف يمكن أن تتصرف.
ولن ينتظر أي مفاجأة.
إلتفت لوافي قائلًا:
- عمتي سميحة ظهرت.
هز وافي رأسه نفيًا:
- زمانها جاية.. أكيد هتيجي يعني.

ارتكنت بسمة ساخرة على شفتي جاهين مرددًا:
- آه طبعا... عمومًا زي ماهي عايزه.
اكتفى وافي بالصمت، لم يشارك جاهين الكلمات التي تبادلها مع سميحة، قلقها من بسمة ورغبتها الدفينه في الانتقام منها، شعورها أنها تستغل جاهين فحسب.
كلمات لم يتمكن من انكارها عليها ولا إعادة الحديث فيها مع جاهين، علاقة سميحة وبسمة ستكون مسئوليته هو وعليه أن يوفق في ذلك.
- طب يالا يا بطل... عيب العروسة تنزل قبلك.
اتسعت ابتسامة جاهين:
- ماشي.. يالا بينا.
....

" بسمة إنتِ ندمتي إنك وافقتي."

كلمات قالها جاهين لها حينما أصرت على تأجيل الخطبة حتى إتمام عملية مها والعودة.
تمنت أن تقول نعم، نادمة وبشدة!!
لكنها أرادت أن تثبت العكس فقبلت.
قبلت من باب العناد مع أمها وعمتها وليس لأنها تريد حقًا أن تكون له ويكون لها.
تعلم أن الأمر في مصلحتها ولا بأس من إتمامه فلتمنحه فرصة كما يجب.
لو فقط تتمكن من إفراغ عقلها من كل تلك الذكريات والمعاناة التي تعيشها حين تنفرد بنفسها.
فور أن تملك خاتم خطبة جاهين ستكره نفسها كثيرًا إذا فكرت بمعاذ.
ستبدو كخائنة في عيون نفسها، لا تريد أن تصل لتلك المرحلة فماذا تفعل؟!
كيف يمكنها أن تملأ عقلها وقلبها به فحسب؟!

هو حتى لا يساعدها بل يزيد الطين بله.
بسبوسة... ذلك اللقب الذي اختاره معاذ لها وحينما عارضته قال أنه سيؤجله حتى يتم زواجهما ثم يردده على أذنيها طوال الوقت حتى تحبه.
"بوووووسي"
صاحت بها نانا وهي تتعلق برقبة رفيقتها المقربة مردفة:
- ألف مبرووووك ربنا يتمم بخير.. والله أنا مش مصدقة الليلة خطوبتك وبعدها نسافر ومها تفتح أنا حاسه إن كل حاجه بتمناها بتحصل.. عقبالي يااا رب.
ليلة خطبتها!!
نعم بالفعل إنها الليلة.
تطلعت لهيئتها في المرآة، فستان سهرة أنيق لم تتعب نفسها كثيرًا في البحث عنه، تركت لنانا حرية الاختيار، لتختار لها فستان صمم ليحيط الجزء العلوي بتطريز ذهبي، وينسدل بأريحية بقماش من الستان الزهري، وأحاطت رأسها بحجاب من نفس القماش.
ولم تحتاج إلى المزيد فالحفل عائلي ولا أحد هنا غير عائلتها المقربة وأهل هذا المنزل وانضم محمد لهم.
لازالت تفكر كيف تتخلص من معاذ بينما اليوم ستزين بنصرها بخاتم رجل آخر.
انضمت مها لهما لتقول:
- خلاص خلصتوا محمد اتصل وبيقول عالباب.
إلتفتت بسمة لنانا قائلة:
- محمد جاي وبقالنا كتير ماشفناهوش.. ممكن تقابليه كويس.
- وإنا يعني هتخانق معاه.
قالتها بشكل ساخر لكن حروفها المتوترة كشفت ما يعتريها بوضوح.
منذ علمت بقدومه وضربات قلبها في سِباق، تعلم أن قصتها معه انتهت، ولا سبيل للعودة، هي في انتظار اللحظة المناسبة للحديث مع جاهين كي ينفذ وعده معها، محمد لم يعد طرف في معادلة حياتها.
لكن لقلبها رأي آخر.. سيرى من دق له بالفعل ورغم أنف صاحبته.

وكم تخشى ضعفها حال رؤيته، مما يجعلها تفضل التهرب عن ذلك اللقاء المحتمل.
طرقات على باب غرفة بسمة أخرجها من أفكارها لترى بسام على الباب قائلًا:
- يالا... كله موجود ومحمد وصل.. انزلوا.
استدار مبتعدًا لتمسك نانا ببسمة قائلة:
- ياله يا عروسة عقبال ما نباركلك على الليلة الكبيرة.
تحركت معها دون أن يتسرب إلى قلبها أي إحساس بالفرح، تشعر أنها تزج بنفسها في معركة خاسرة وليست وحدها من سيخسر فيها، تخشى وبشدة أن تصبح هي اللعنة التي تدمر تلك العائلة.
كانت الأجواء هادئة كثيرًا فأسرعت نانا تتقدمهما قائلة:
- ايه يا جماعة الصمت ده ... ده فرح فررررررح.
نزلت الدرج وهي تطلق ذلك الصوت المميز للفرح "زغرودة"
أجبرت الجميع على رفع رؤسهم لرؤيتهن، لتتسع ابتساماتهم فيما عدا واحد كان يراقبها بعين قد مُلأت حُزنًا حتى أنه أشاح بوجهه عنها.
وصلن للجمع الصغير الذي ينتظرهن بالأسفل، لتشير لها ميادة:
- ياله يا عروسة أقعدي هنا جنبي وجنب عريسك.
جلست لتجاورها ومن الطرف الآخر جلس جاهين بينما استمرت نانا في إطلاق زعاريدها.
ليقول محمد:
- نقول بسم الله ونقرا الفاتحة.
توقفت نانا لتنظر له وتلاقت عيونهما للمرةِ الأولى منذ مدة طويلة، فكان لها أن تحمل الكثير من المعاني.
عتاب... لوم... شفقة.. يأس.
وكان هو أول من أدار بصره عنها ليتمتم بآيات الفاتحة.

وفي ركن مجاور جلست فاطمة تراقب بصمت، لا يمكنها أن تسكت قلبها المرتعب من كارثة قد تسقطها سميحة على رؤوسهن، غيابها عن الحفل كان متوقع، هي لم تقبل ولن تقبل.
هل أخطأت هي أيضًا بقبول تلك الزيجة رغم علمها بمدى اعتراض سميحة عليها.
" يالا يا عريس لبس عروستك الدبل."
قالتها ميادة لتلفت انتباه الحضور إلى العروسان.
ليتناول من أمه العلبة ويخرج خاتم بسمة قائلاً:
- إيديكِ.
كانت تفرك أصابعها فعليًا قبل أن تحررهما وتبسط كفها بتوتر واضح.
إنها اللحظة الأكثر رعبًا لها، هل لو وقفت الآن وأوقفت كل هذا سيكون أمرًا طبيعيًا؟.
- إنتِ بتترعشي كده ليه؟!
كانت أناملها بين أصابعه، لتجيب:
- متوترة شوية.
ابتسم لها وهو يحيط بنصرها بخاتمه الذهبي هامسًا:
- مبروك علينا... في الفرح هجِيبلك أحسن شبكة في مصر.
حاولت رد البسمة له، لكنها بدت مشوهة بتوترها الظاهر.
بسط كفه هو لها قائلًا:
- وأنا هتسيبيني كده ولا إيه؟!
تناولت خاتمه ليترائى لها خاتمها الفضي الذي وفرت من مصروفها الكثير لتضعه في أصابع من أحبت، فلم تنتبه لتلك البسمة الحزينة التي ارتسمت على شفتيها وهي تضع الخاتم في بنصر جاهين الذي تمكن من رؤية ابتسامتها ولم يستطع تفسيرها.
لتنتفض فعليًا على صوت نانا الفرح بزغرودة طويلة وصاخبة ليقول جاهين مازحًا:

- ما براحه يا نانا إحنا هنخش دنيا مش هنخرج منها بأزمة قلبية.
كانت كلماته كفيلة بإثارة جو من المرح والضحك، حتى بسمة شاركتهم الضحك.
ليتلقى العروسان التهاني من الجمع القليل من حولهم، وتم تقديم الحلوى والمشروبات.
واقتربت هي منه تحمل نصيبه في طبق لترفعه له قائلة:
- جِيبتلك تاكل.
وكان لضربات قلبه لدى سماع صوتها دليل دامغ أنه لم يتمكن بعد من نسيانها.
لم يرفع بصره إليها بقى على حاله ينظر للاشيء قائلًا:
- شكرًا مش جعان.
وضعت الطبق جواره لتصمت لحظات قبل أن تقول:
- أنتَ مش بتيجي ليه؟!
جز أسنانه مقاومًا رغبة في الصراخ بوجهها ليكتفي بالقول:
- كده أحسن.
- بس بسمة وأبلة بطة ومها مالهوش ذنب تقاطعهم.
- ومين قالك إني مقاطعهم بكلمهم في التليفون.. وعمومًا خلاص معاهم بدل الراجل اتنين هيحتاجوا مني إيه؟.
عادت لصمتها وظل هو على حاله، كاتمًا الكثير من المشاعر التي تتضارب بداخله، بينما هي لا تبدي أي شيء، مما صنعت... لوح من الثلج!!.
لا يمكن أن يكون هو فقط من أحب، دومًا كان على ثقة أنها أيضًا تحبه، فما الذي أصابها؟.
- طب أنتَ عامل إيه؟... كويس؟!
هب واقفًا لترتد للخلف فأثارت انتباه من حولهم، رمقها بغضبٍ بالغ وقال بصوت لم يسمعه سواها:
- ده شيء مايخصكيش.
رفرفت بجفنيها لعدة مرات قبل أن تستدير مبتعدة.

أشاح بوجهه بعيدًا.
ولعناته تصب عليها صبًا.
لو تدرك كم يشتاق إلى أن يُحدثها وتحدثه، أن تبتسم في وجهه أو حتى تغاضبه، لكن كل هذا كان يحدث وهو يعلم حبها له، أما الآن فلا، وهو لن يعيد الكَرة.

وعلى الجانب الآخر تابعها هو ولم يستطع أن يخفي بسمته، تجلس في هدوء مريح كعادتها ترسم البسمة على شفتيها.
قريبًا ستبصر ولن تضطر للبقاء هكذا بلا حِراك، قريبًا ستكون مثل الجميع.
وستراه!
مال برأسه ينظر لمرآةٍ مجاورة له، هل ستعجبها ملامحه؟!
أستراه وسيمًا؟!
انتبه لما يفعل ليدير بصره، وتغمره دهشة من أفكاره، وعاد ينظر لها، تلك الفتاة البعيدة والتي هي قريبة من أفكاره كثيرًا.
كم ينتظر بشوق نجاح عمليتها حينها سيحدد طبيعة تلك المشاعر التي يتخبط فيها منذ انتبه لها.

لم يطول الأمر لينفض الحفل سريعًا، لتستقر بسمة مع جاهين في الحديقة، يغلفهما الصمت الذي منحه جاهين الكثير من الوقت قبل أن يكسره بقوله:
- هنفضل ساكتين كتير؟!
هزت بسمة كتفيها:
- عادي لو عايز تقول حاجه قول.
- هو أنا بس اللي هقضيها قواله.. قصدك إني رغاي.
أراد المزاح فلم يتلقى إلا ابتسامة باهتة، مط شفتيه وقد قرر أن يتحدث بصراحة أكبر.

- بسمة.. أنا عارف إنك مابتحبنيش وإنك وافقتي بعقلك.
نظرت له ليبتسم لها في هدوء:
- بس عارف كمان إني مش هخليكِ تندمي.. كل المطلوب منك فرصة بجد..
فرصة تديهاني.. وعلى فكرة أنا واثق إنك هتحبيني.
مطت شفتيها قائلة:
- اشمعنى.
أمسك ياقة قميصة قائلًا بلهجة مصطنعة:
- لأني بتحب بسرعة.
ضحكت لتهز رأسها ليشير لها:
- أيوة اضحكي.. من الصبح ماضحكتيش كويس وده فال مش حلو.
انزوت بسمتها تدريجيًا، لتعلق بصرها به، لا أحد ينكر أنه يملك من الوسامة ما يكفي ليلفت انتباه أي فتاة، ولو أضافت روحه المرحة وتعامله الجيد مع الجميع وأيضًا رجولته في التصرف معها وأمه حال دخولهما لهذا المنزل.
كل ذلك كفيل بأن يملأ قلبها به، هذا لو كان فارغًا.
لكنه ليس كذلك!!
"أنفع"
أخرجتها كلماته من أفكارها لتنتبه لطول نظراتها له، فخفضت بصرها على استحياء لتتسع بسمتها بخجل وتكتفي بأن توميء برأسها، ليلوح بقبضته في الهواء مرددًا:
- يااااااس.
تبادلا الضحك مع أصوات سيارة تدخل إلى الحديقة أثارت انتباههما، لتترجل سميحة منها وتنظر إليهما للحظاتٍ قبل أن تقترب منهما بابتسامةٍ ساخرة تنظر إلى جاهين قائلة:
- برضو عملت اللي في دماغك.
تجهم وجهه بينما رمقتها بسمة بغيظ لتلتفت لها قائلة:

- معلش انشغلت وملحقتش الحدث السعيد ضيعت عليكي فرصة ذهبية تغيظيني فيها مش كده.
كتفت بسمة ذارعيها مرددة:
- ولا يهمك الأيام جاية كتير.
انشقت شفتيها عن مزيد من السخرية وهو تنظر لجاهين:
- أنتَ فاكر إنها وافقت عليك علشانك.. دي مش همها غير إنها تضايقني بكرة لما تاخد القلم الصح.. إبقى افتكر كلام عمتك.
اكتفى جاهين بهز رأسه قائلًا:
- الله يبارك فيكِ يا عمتي.
استندت بكفيها على المائدة:
- لازم تعرفوا إني من زمان قررت إن مافيش حاجه تحصل غصب عني تاني.. فكروا كويس قبل ما تتحدوني.
استدارت لتبتعد وتختفي بالمنزل وهما يراقبانها بصمت لتقول بسمة:
- تفتكر ممكن تقتلني.
عقد حاجبيه:
- مش للدرجة دي يا بسمة.
وقفت قائلة:
- للدرجة دي ونص.. افتكر بقى إنك وعدت تحميني.
انسحبت هي أيضًا لتدخل إلى المنزل ليحرك جاهين رأسه غضبًا، أفسدت عمته عليه الأمر ويبدو أنها ستستمر بهذا كثيرًا.
"تفتكر ممكن تقتلني"
تكررت كلمات بسمة برأسه والتي رفضها عقله بالكلية، عمته يمكن أن تغضب، تعاند،.. تؤذي، لكن من المستحيل أن تقتل.
ربما أقصى ما ستفعل أن تحاول التخلص منهما في العمل وعليه أن يحتاط لهذا جيدًا.

ومع كل هذا قلقه لا يزداد فوافي معه قلبًا وقالبًا وهذا كفيل بحمايته وهو سيتكفل بحماية بسمة وبهذا سيبقى كل شيء على ما يرام وستضطر عمته في النهاية إلى الاستسلام.
لا يمكن أن تسوء الأمور أكثر.

....

المكان مزدحم وصاخب، يحمل ذرات الشوق لمسافر أو اللهفة على عائد، وهو من الفريق الثاني ينتظر بترقب عودته المتوقعة بعد اتصاله.
عيناه متعلقة بالقادمين الذين ظهروا بالتدريج، لتتهلل أساريره حال رؤيته لسامر الذي كان بدوره يدير رأسه هنا وهناك باحثًا عنه ليلوح معاذ له فانتبه لمكانه وأعاد له التحية، وكان اللقاء وكأنه غاب عنه لسنواتٍ وليس أسابيع ليضم أخيه إليه بقوة مرددًا:
- حمدلله عالسلامة.
ربت سامر على كتف أخيه بقوة:
- إيه يا عم.. هو أنا كنت مهاجر.
أعاد معاذ رأسه قائلًا:
- أنت متخيل إني كنت فاكر إني فعلا مش هشوفك تاني.
- أنت اتجننت ولا إيه أكيد لأ يعني.. يالا بينا من هنا.
- هنرجع البيت.
- لأ.. خاليها تشبع بيه هنروح شقتي.
- أنت عندك شقة؟!!
وكزه سامر:
- وأنت كمان يا جاهل بس أنا كنت عملهالك مفاجأة لما تتجوز.. في كل الأحوال مكُناش هنفضل عايشين معاها.
أوقفه معاذ قائلًا بجدية:
- سامر.. هي أمنا فعلًا صح؟!!

رمقه للحظات قائلًا:
- يوم ما تلاقي نفسك بتسأل السؤال ده.. يبقى صدقني مش هتفرق.
تحرك ليتبعه معاذ بصمت، لم يجد ما يضيفه فأخيه على حق؟
ما الفائدة من إجابة سؤال يأتي رده على هيئة مشاعر أُم دُفنت منذ سنوات ولم يشعر بها يومًا.
غادرا أرض المطار واستقلا عربة أجرة لوجهتهما، وصلا إلى مبنى سكني فخم ليدلفا إليه.
فتح سامر باب الشقة التي كانت في الدور العاشر، ليتطلع معاذ لها بدهشة، كانت متكاملة تمامًا ولا ينقصها شيء فالتفت لأخيه قائلًا:
- عملتها إمتى الشقة دي وماقلتليش عليها أبدًا.
- كنت ناوي أعيش فيها بعد جوازك.
- هو إحنا الإتنين مش كنا هنتجوز ونعيش في الفيلا.
- الكلام ده لو ليك أم بجد مش واحده ترميك في الشارع علشان تتجوز غصب... ده البنات بطلت تتجوز غصب أنتَ بقى اللي هتتجوز كده.
جلس على أقرب مقعد وقد أطرق رأسه بحزن ليقترب سامر مُربتًا على كتفه:
- خلاص يا معاذ انسى.. دلوقتي بقى لازم نفكر كويس هنتصرف إزاي سما جابت آخرها.. اسمع إحنا لازم نشيلها من رئاسة مجلس الإدارة.. كفاية عليها البيوتي سنتر بتاعها تنشغل فيه وتحل عنا.. الشركة دي تخصنا وإحنا اللي هنكمل فيها.
رفع معاذ رأسه لأخيه متسائلًا:
- وهي هتقبل؟!!
- طبعا لأ.. بس مش مهم.. إحنا الأسهم اللي تخصنا أكبر بكتير من أسهمها والمساهمين هيقفوا معانا إحنا لو لاقونا في صف واحد.
- بس.. بس.
قالها بتردد ليصيح سامر:

- بس إيه؟!... أنتَ لسه هتبسبس.. أنا قلت أنتَ اللي هتقولي تعالى نعمل ونعمل.. أُقسم بالله يا معاذ لو مانشفت بقى لأعمل فيك أضعاف اللي عملته يمكن تسترجل.

هب معاذ من مكانه ليرد بغضب:

- أنا راجل على فكرة.

- مش بالكلام لازم فعل.. دا أنت كنت هتغرق لما انفصلت عن كل حاجه.. ماينفعش تعيش كده لازم تكون مأمن نفسك عارف إزاي تتصرف في مواقف زي دي.. عموما مش مهم دلوقتي.. المهم لما نعلن عن اجتماع المساهمين تكون عارف كويس إنك هتأيد كلامي أيًا كان مفهوم؟!.

- طب وأنا استفدت إيه.. من طوع ماما لطوعك أنت.. وأنا هبقى طوع نفسي إمتى؟!

زفر سامر قائلًا:

- ده اختيارك أنت يا معاذ.. أنت اللي لازم تعرف أمتى هتبقى طوع نفسك... مش أنا اللي هقولك.. عموما شوف أنت عايز تعمل إيه واعمله لكن أنا مش هرجع في كلامي أنا هعمل تصويت على منصب رئيس مجلس الادراة وأنت ساعتها هتكون المدير التنفيذي واستعد بقى للشغل اللي بجد أعتقد بداية كويسة تبدأ بيها تكون طوع نفسك... المهم سما هتخرج من الشركة ونهاائي... أنا داخل أستريح وبكرة إن شاء الله ننزل الشركة سوا ونشوف هنجمع المساهمين إمتى؟!.

تابعه معاذ بصمت ليعود جالسًا.

هو في حيرة؛ هل يجب أن يتصرف بتلك الطريقة؟، معاقبة أمهما بإبعادها عن الشركة والعمل الذي هو لها كل شيء حتى أكثر منهما، ماذا لو عارضت وغضبت بل وحاربت.. هل سيدخل مع أخيه في عراكٍ معها؟.

صحيح أنها تعدت كل الحدود بفعلتها، لكنه من داخله يعلم أنها أرادت أن تجبره على العودة وقبول ما تريد وبعدها كان كل شيء سيعود كما كان، لكنه لم يستطع أن يفعل.

زفر بقوه وهو يشبك أصابع كفيه ويضعهما على رأسه مسترخيًا في كرسيه.
باحثًا عن الجواب الصحيح.

....

استعد منزل الشربيني لرحيل معظم ساكنيه، ميادة قررت السفر لابنتها بعد إتمام خطبة جاهين لترحل فعلًا، أما وافي وبسمة ونانا ومها فاستعدوا أيضا لرحلة العلاج التي ستنطلق إلى الولايات المتحدة لإتمام العملية.
دخل إلى سميحة يلقي عليها التحية ويودعها قبل الذهاب للمطار لكنها كانت متجهمة وبدى عليها الكثير من الغضب فاقترب منها:
- مالك يا ماما؟!
- تسافر معاهم أنت ليه ما يسافر جاهين مش خلاص خطب أختك.
- أيوة بس أنا أولى دي أختي ولسه مابقتش مراته ثم يعني جاهين هياخد باله من الشغل هنا أحسن مني.
ضاقت عيناها:
- موضوع جاهين والشغل ده هيكون لينا فيه كلام تاني بس بعدين.. في حاجه كمان.. أنت اللي صرفت على الموضوع ده كله صح؟!
صمت لحظات ليسأل:
- وعرفتي منين؟!
- مافيهاش حاجه لما أطمن عليك.. وأنا ماعرفتش أنا خمنت.. أكيد أختك مش هتدفع وهتخليك أنت أو جاهين تتدفعوا.
- على فكرة أنتِ ظلماها أنا اللي طلبت منها أتكفل بالموضوع هي ما طلبتش.
ضحكت ساخرة:
- البنت دي مشوفتش أذكي منها بتاخد كل اللي هي عايزة من غير ما تفتح بؤها.
- ماما لو سمحتي.. ياريت تحاول تتفاهمي معاها بدل ما نقضيها نزاعات.
تجاهلت كلماته لتقول:
- وأنت اطوعت ليه بقى بالكفالة؟!.

- عادي يعني... ثواب.
مطت شفتيها:
- صدقة يعني؟!
ارتسم الضيق على وجهه فلم يعجبه اللفظ على الإطلاق:
- لا يا ماما.. مش صدقة.. أنا.. أنا نفسي أساعدها فعلا.. أنا بجد مهتم بالبنت دي.
تصلبت ملامح وجهها وهي ترمقه بنظرة ربما الأغرب عليه قبل أن تقول بصوت حمل برودة شديدة:
- مهتم بيها إزاي يعني؟!!
- معلش يا ماما مش وقته الطيارة هتفوتنا هفهمك لما أرجع يالا سلام.
ضمها إلى صدره سريعًا مردفًا:
- ادعيلنا.
غادر غرفتها مسرعًا وأغلق الباب خلفه، لترمق هي الباب للحظات في محاولة لاستيعاب كلماته التي ألقاها في وجهها وغادر، لتسير بخطوات بطيئة إلى فراشها تجلس على طرفه بآليه وعقلها يستعيد في لحظات الكثير والكثير من الذكريات المؤلمة.
لينتفض جسدها فعليًا متمتمة:
- لا يا فاطمة.. لاااا... مش هتاخدي مني كل حاجه تاني وهتشوفي.
....
اجتمع الجميع في الحديقة استعدادًا للرحيل ليجلس جاهين خلف عجلة القيادة بجوراه وافي في انتظار انضمام الفتيات اللاتي كن يودعن فاطمة وكان من الطبيعي أن يكون وداعًا باكيًا.
مها تبكي بشدة وهي تضم لها فاطمة:
- ادعيلي يا أبلة بطة.. نفسي أرجع أشوفك تاني.. صورتك وحشاني أوي.
ضمتها فاطمة بقوة وعبراتها تسابق أنفاسها، كم يؤلم قلبها أن تلك الرقيقة ستبتعد عنها كل تلك المسافات لتخضع لعملية بينما هي مضطرة للبقاء هنا.

- يا رب يا بنتي... ربنا يحفظك يا حبيبتي وترجعيلي بألف سلامة.
اقتربت نانا لتفصل بينهما:
- خلاص بقى إنتوا قلبوتها غم ليه عيطتوني... إن شاء الله كله هيبقى تمام استنينا لما نرجع يا أبلة بطة... وهنفرح كلنا سوا.
حررتها فاطمة ولا زال لسانها يتمتم بالدعاء لتستقر الفتيات في السيارة بعد أن ودعن فاطمة التي اقتربت من بسام قائلة:
- خد بالك منهم يا بسام.. دول ٣ بنات.
ظل بسام على حاله ينظر أمامه ليكتفي بقول:
- حاضر.
ليميل جاهين قائلًا:
- ماتقلقيش يا أبلة بطة دي عملية سهلة.. إن شاء الله كلهم يرجعوا بالسلامة... هنمشي بقى علشان مانتأخرش على الطيارة.
انطلق جاهين تتابعه نظرات فاطمة التي تعلق قلبها بتلك السيارة التي تضم كل من تحب ولأول مرة يبتعد عنها الجميع ويتركوها وحيدة.
ظلت مكانها لبرهة قبل أن تلتفت لتجد الخادمة خلفها لتقترب منها قائلة بلغتها الركيكة:
- البيه قال أفضل معاكي.
اعتلت ملامحها بسمة أمل:
- بسام.
هزت رأسها:
- جاهين بيه.
أطرقت رأسها للحظة:
- طيب لو احتجت حاجه هقولك.
تركتها الخادمة لتتجه هي إلى غرفتها وقبل أن تصعد الدرج توقفت على صيحتها:
- استني عندك.

إلتفتت لترى سميحة والشرر يتطاير من عينيها.
- بقى هي دي بقى الخطة.. بنتك توقع جاهين والعامية توقع وافي صح؟!!
عقدت فاطمة حاجبيها، تستفهم كلمات سميحة التي أردفت:
- لكن ده بعدك يا فاطمة اللي حصل زمان أنا لا يمكن هسمح إنه يتكرر... واسمعي بقى وده آخر كلام عندي... فكري في أي حجه تفسخي بيها خطوبة بنتك من جاهين والعامية دي تبعديها عن وافي نهائي.. ويا ريت بقى تاخدي بعضك كده وتسيبينا.. وافي لا هو طايقك ولا يفرق معاه وجودك من عدمه ولو ركبتي دماغك أنتِ وبناتك دول يبقى ماتلوميش غير نفسك... فاهمة؟!!
أنهت كلماتها لتبتعد ساحبة معها كل غضبها لتترك لها حسرتها وهي تجلس على إحدى درجات السلم.
تحاول أن تعي كل ما سمعت وكان أكثرها غرابة.
مها وبسام
هل حقًا بينهما شيء؟!
هزت رأسها باستغراب، مستحيل أن يكون بينهما شيء.. فلمَ تظن سميحة ذلك؟!
عادت تذرف دموعها ولسانها يردد:
- أعمل إيه... قلتلك بلاش يا بوسي.. قلتلك بلاش.. اكفيني وبناتي شرها يا رب.. اكفينا شرها يا رب.
تمسكت بحاجز السلم بوهن، وقلبها العليل يعلن حالة جديدة من حالات الألم.
وصلت غرفتها وبصرها يتقلب على صفحات وجهه المطلة عليها عبر أُطر مختلفة اقتربت من إحداها وهي الأكثر قربًا لقلبها، لأنها الأقرب شكلًا له حين كان زوجها، أمسكتها بأناملها لتعود بها إلى فراشها تضمها إلى صدرها باكية، لا تعلم متى كان الخطأ؟!
هل بقبولها الزواج من شابٍ ما كانت عائلته لتقبل بها قط؟!
أكان عليها أن تستمع لأمها حين حذرتها أن الزواج ليس لطرفين بل هو لعائلتين ونسل سيدفع الثمن.

وها هما أطفالها يدفعون الثمن معها، ولا تعلم متى ستنتهي تلك المأساة وتتمكن من العيش بسعادة وهدوء مع طفليها، قلبها المريض لن يحتمل المزيد. أغلقت عينيها وللحظةٍ تمنت أن تغلقهما إلى الأبد فربما هذا هو الحل الأفضل والأسلم.

....

دلف سامر إلى الشركة صاحبًا أخاه، وسط تطلعات رجال الأمن، إلى أن تشجع أحدهم قائلًا:

- سامر بيه.

نظر له سامر ليضيف:

- الهانم كانت سايبالنا أوامر إن معاذ بيه ... يعني.. هي ماقلتش.

قاطعة سامر باشارة يده:

- أوامر الهانم تنساها خالص.

ليتقهقر الرجل للخلف ويكمل سامر سيره مع أخيه.

ليتمتم الرجل:

- أنا مالي يا عم.. دي عيله في بعضها.

وصل سامر مكتبه لتقف السكرتيرة لتحيته فعقد حاجبيه قائلًا:

- عارفة إن معاذ بيه ممنوع من دخول الشركة وبتضحكي عليا!!!.

الذُعر والارتباك اللذان اعتراها كانا خير إجابة فصاح بها:

- ردي؟!

- لا يا فندم... ماكنتش..

- اخرسي.. إنتِ مرفودة.

اتسعت عيناها في ذعر لتقول برجاء:

- أرجوك يا سامر بيه أنا مليش ذنب.

أمسك معاذ بذراع أخيه:

- دي بتفذ الأوامر وبس بالراحة يا سامر.

أشاح بوجهه عنها قائلًا:

- اللي تشتغل معايا ويكون ولاءها لغيري يبقى ماتلزمنيش.. اتفضلي من هنا.
دخل إلى مكتبه وخلفه معاذ الذي أغلق الباب قائلًا:
- في إيه يا سامر.. مش كده الغلبانه دي ذنبها إيه؟!
استدار له قائلًا:
- أسكت أنت... دي مالهاش أمان خلاص وإحنا ناويين نعمل كتيرماينفعش يبقى معانا ناس بوشين.
أمسك هاتف مكتبه الداخلي وضرب أزراره:
- ألو.. أيوة وصلت.. اسمع طلع استمارة ٦ للسكرتيرة وإديها مرتب الشهر وخلاص على كده... اعمل اللي بقولك عليه.
أغلق الهاتف بعصبية:
- بنت الـ... اتصل أسالها عليك تقولي ماتعرفش حاجه... خلي سما هانم تنفعها.
- طب إحنا هنعمل إيه دلوقتي؟!.
- أنا هتصل بالمستشار القانوني يجي يقعد معانا ونفهمه إحنا عايزين إيه بالظبط والشكل القانوني يمشي إزاي وكله هيبقى تمام... المهم زي ما قلتلك تأيد كلامي يا معاذ... ده اللي هيفرق مع المساهمين.
- طب.. هو مفيش طريقة تانية.
إلتفت له وقد تملكه الغضب:
- معااااذ... أنا مش ناقصك.. أنا استحملت كتير أوي علشان وصية بابا وأنت كنت الوصية دي.. وفي الآخر بعد كل اللي عملته برضو رمتك في الشارع ولا كأن في أي قيمة لينا أو حتى لذكرى بابا عندها.. أنا خلاص مش هبقى على حاجه تاني وأنت كبرت تقدر بقى تحمي نفسك بنفسك.. لو عايز تاخد نصيبك في الشركة فلوس وتمشي وتبدأ من الأول براحتك.. بس أنا عارف أنا عايز إيه وهعمله.
جلس خلف مكتبه وأعاد الامساك بالهاتف الداخلي:
- ألو... فين مدير الحسابات؟!...
صمت للحظات قبل أن يأتيه رد:

- الله يسلمك... اسمع أنا هاخد زينة عندي هنا هتبقى السكرتيرة لأني مشيت اللي عندي خليها تسلم كل الشغل اللي في إيديها وابعتهالي.
أنهى المكالمة ليسترخي في كرسية متمتمًا:
- البنت دي جدعة مش هتخون أبدًا.. بنت بلد.
رمقه معاذ بصمتٍ ليشبك سامر أصابعه قائلًا:
- ها يا معاذ... قررت إيه بالظبط علشان أعرف هتصرف على أي أساس.
- معاك يا سامر.. أنا عايز أبقى نفسي بس برضو عايز أعمل ده هنا في شركتنا.
ابتسم سامر باطمئنان:
- تمام يا معاذ.. وأنا معاك ومش هسيبك.. هتفهم كل حاجه في الشغل وهيبقى ليك كلمة.
أومأ له مؤيدًا، ليلتفتا معًا إلى باب المكتب الذي فُتح بقوة لتظهر سما أمامها وقد اعتلاها الغضب لتقترب منهما قائلة:
- حمدالله عالسلامة.. واتقابلتوا فين كده؟!..
رمقت معاذ وحالته فكان على خير حال، لتردف:
- الظاهر كان لازم أخلي حد يراقبك... وصلت لأخوك إزاي؟!
وقف سامر ليقول:
- مشكلتك إنك فاكرانا ضعاااف أوي من غيرك.. وأول ما هتدوسي علينا هنقول آآمين وهنسلم.
ابتسمت ساخرة:
- ماأنت سلمت قبله إيه اللي يمنع إنه هو كمان يسلم.
- لااا.. أنا ما سلمتش أنتِ أجبرتيها هي اللي تسلم فاضطريت أنا كمان أبعد.. عمومًا ده كان زمان ودلوقتي خلاص... رصيدك نفد يا سما هانم.
ضاقت عيناها وهي تنظر إليه، استشعرت في كلماته أنه يخفي أمرًا أشارت لما خلفها قائلة:
- رفدتها ليه؟... دي بقالها مدة معانا ومعاها كل أسرار الشغل؟!

عاد جالسًا:
- زهقت منها.. وماتقلقيش إنتِ عارفة إني دايمًا بأمن نفسي كويس.
رمقته بغيظ لتلتفت لمعاذ الذي تفادى النظر إليها قائلة:
- معاذ.. تعالى عايزاك.
نظر سامر إلى أخيه مترقبًا لرد فعله، الذي كان جامدًا تمامًا لتصيح به:
- معاذ... سامعني؟!!
إلتفت لها ولازال محتفظًا بجموده.
- زمان كنت بسمع.. قبل ما تجبريني ماأسمعش يا... سما هانم.
تسللت بسمة مُتشفية على شفتي سامر بينما ترمقهما هي بنظراتها النارية لتغادر بعصبية واضحة.
ألقى معاذ بجسده على الكرسي المقابل لمكتب أخيه ليقول سامر:
- برافو يا معاذ.. أنتَ كده على أول طريق الاستقلال.
لم يعلق على كلمات أخيه، ولا يعرف ما الذي يجب أن يفعله أو حتى يشعر به الآن، مجرد خواء كبير لا يحمل أي معنى أو هدف.
....
تمت الفحوصات بشكل سريع وجيد وأصبح كل شيء معدًا لإتمام الجراحة والتي تحددت في الغد، استقرت الفتيات في غرفتهن المشتركة ووافي في غرفته.
أمسكت نانا بأختها تضمها إليها:
- وأخيرًا يا مها... بكرة إن شاء الله هتفتحي عينك تاني حمل كبير من على صدري هينزاح.. إحساس بالذنب عشت بيه سنين هيتمحي... الحمدلله يا رب.

ربما المرة الأولى منذ سنوات طويلة تشعر مها أنها تستعيد أختها نانا، التي طالما عاشت معها وكانت رفيقتها قبل أن تفقد بصرها وتنقلب حياتها وحياة أختها رأسًا على عقب.
فأصبحت نانا تتجنبها كثيرًا تتركها وحيدة وتفر إلى بسمة، ترفض أن تخرج معها إلى أي مكان أو تتحمل مسئوليتها.

نانا حينها كانت مراهقة شابة، لم تعتاد ذلك النوع من المسئولية وبرغم تصرفاتها تلك والتي لم تستطع مها الطفلة حينها أن تَعيها أو تفهمها لكنها اكتفت بكلمات أمها لها... "أختك خايفة تِئذيكي من غير ما تحس علشان كده بتبعد.. حاسه بالذنب وأنا نفسي مش عارفه ليه؟!"

وبعدها فقدت الأم والأب ولم يبقى لها سوى الأخت وبسمة وفاطمة التي تكفلت بها وبأختها رغم فقرها.

- نانا.. عمري ما سألتك قبل كده... ليه كنتِ حاسه بالذنب؟!

صمتت نانا للحظات لتقول بصوت أقرب للهمس كي لا تصحو بسمة النائمة.

- أنا مش عارفه إنتِ نسيتِ إزاي؟!... مش فاكرة يوم ما اتخانقت معاكِ علشان مصرة تيجي معايا ومن كتر عصبيتي رميت تراب الشارع ناحيتك وفي نفس الوقت قربتي فجه كله في وشك.. إنتِ ساعتها رجعتي فعلًا وغسلتي وشك وماقلتيش لحد حاجه... بعدها بأيام بدأت عينك توجعك وتدمع على طول.. أنا افتكرت اللي عملته ساعتها وكنت مضايقة من نفسي بس قلت حالة وهتروح لكنها ما رحتش دي كانت بتسوء يوم بعد يوم.. وأنتِ فعلًا نسيتي الموضوع وماحكيتش أبدًا لحد.. لكن أنا منسيتش وفي نفس الوقت ماقلتش لحد.. كنت خايفة أوي يجرى حاجه لعينيك وفضلت أتحايل على ماما تاخدك للدكتور وقالت إن مفيش فلوس معاهم دلوقت وجابتلك قطرة مالهاش لازمة من الصيدلية... ساعتها كرهت فقرنا أوي.. الفلوس هي كل حاجه اتمنتها ساعتها.. علشان أترحم من إحساسي اللي كان خانقني وللأسف ملقتهاش.. وعينك راحت فعلًا.

اندفعت العبرات إلى عيني مها وهي تسمع كلمات أختها التي كانت تقطر ألمًا وحزنًا:

- أنا فعلًا مش فاكرة.. مين قال إن الموضوع بسبب التراب مايمكن أي سبب تاني الدكتور قال في أسباب كتير للحالة دي ليه تحملي نفسك فوق طاقتك وتجبري نفسك تبعدي عني أنتِ كنتِ بتعاقبيني أنا مش بتعاقبي نفسك.

- أنا كنت ببعد لأني عايزاكِ أقوى من غيري كنت كارهه خوفك وإنك عايزة تستخبي ورايا دايمًا.

- إنتِ عارفه أنا بقيت كده ليه.. كان لازم تعذريني زي أبلة بطة وبوسي مش تبعدي أكتر.
هي على حق ولا تستطيع إنكار ذلك.
ظلت تبتعد على أمل أن تعود لأختها ثقتها في الناس ومن حولها بينما الذي حدث استمرار خوف مها ورُعبها من أن تكون وحيدة ولو لثوانٍ.
ربتت على كتف أختها وكأنها تواسيها لاسترجاعهما تلك اللحظات الأسوأ دون أن يتحدثا عنها.
لازالت تذكر كل تفاصيلها وكأنها اليوم.
كان الصباح الباكر في يوم عُطلة فحل الهدوء في الأجواء، ذهبت لإحضار شطائر للإفطار وأصرت مها أن تصحبها كالعادة بينما فاطمة في العمل ومعها بسمة، لكنها طلبت منها البقاء أمام المنزل كي لا تسقط في الطريق أو ترتطم بشيء، وعندما عادت اتسعت عيناها بفزع وهي ترى ثلاث شباب يقومون بمضايقة أختها الضريرة، يتلذذون بانتهاك جسدها وهم يكتمون ضحكاتهم وهي تدور بينهم كالمجنونة.
تصلبت مكانها وكأنها لا تقوى على الحركة حتى سقطت مها أرضًا وهي تلملم نفسها سعيًا لحمايةٍ ممن انتهكوا ظلامها ولم يرحموها.
إلى أن انتفضت على صوت شاب، يهرع ناحية أختها فأجبر مهاجميها على الفرار وهو يسبهم بأقذع الألفاظ ويتوعدهم شرا.
ليقترب من مها لمساعدتها فإذا بها تطلق صرخة تلو أخرى بألا يلمسها أحد.
لتفيق نانا من غيبوبتها تلك وتسرع إلى أختها تنادي باسمها وهي تضمها إليها وتعلقت بها مها كطفلٍ عثر على أمه بعد أن ضاع منها لساعات.
تصرخ باكية وهي تدفن وجهها بصدر أختها:
- مكنتش شايفة... مش شايفة... مش شايفة.
ظلت ترددها وكأنها تنفي عن نفسها جرم لم ترتكبه، لتنخرط نانا معها في البكاء.
ليعود صوت الشاب لهما:

- اهدوا.. حصل خير.. أنا عارفهم وهجيبلك حقك... إنتِ ماغلطيش.
وكانت تلك المرة الأولى التي تنتبه فيها نانا لهذا الشاب الذي يسكن معهم نفس الحي
"محمد"
وبذكر محمد عادت لواقعها لتفر من ذكراه وهي تضم أختها إليها أكثر مرددة:
- خلاص يا مها... بكرة إن شاء الله هتفتحي عيونك وهتشوفي كل اللي حواليكِ.. مش هتضطري تستخبي ورايا ولا تخافي إنك تبقى لوحدك.. الضلمة اللي عشتيها سنين إن شاء الله هتنور من تاني.
- أنا عايزة عنيا ترجع وعايزاكِ إنتِ كمان ترجعي.. إرجعي زي الأول يا نانا.
تجهم وجهها للحظات وكأنها تتسائل، أيمكنها حقًا أن تستعيد نفسها القديمة لمجرد أن عاد البصر لأختها، الكلام سهل وتعلم أن التنفيذ ضرب من المحال.
- اشربي المية دي هتصومي بكرة ومش هتفطري.
علمت أن ليس لأختها نيه في الرد على كلماتها الأخيرة، ارتشفت من الكوب الذي قربته أختها من شفتيها لتدثرها نانا جيدًا هامسة:
- تصبحي على عيون مفتحة.
ابتسمت مها لرقةٍ غير معهودة من أختها.. وتمنت لو استمرت هكذا لكثير من الوقت.

في الصباح استعد الجميع للمغادرة، دخلوا إلى مطعم الفندق لتناول وجبة إفطارٍ سريعة، اكتفى وافي بكوب من القهوة بينما ذهبت نانا وبسمة لإحضار بضع شطائر، لينتظرهما وافي ومها على مائدة صغيرة.
صامتة وهادئة وإن بدت متوترة أراد أن يخفف عنها فقال:
- إن شاء الله خير.. مش عايزِك تتوتري.. إنتِ مؤمنة بالله وإن شاء الله يكرمك.
أومأت برأسها شاكرة، لتتسع بسمته قائلًا:
- تعرفي أنا كمان متحمس.. نفسي .. نفسي أشوفك وإنتِ شيفاني.

كلماتِه القليلة كانت كفيلة لتورد وجنتيها وهي تدير رأسها إلى جانبٍ آخر مرددة:
- هما اتأخروا كده ليه؟!
إلتفت حيث ذهبتا ليقول:
- أهم جايين.
وصلتا لهما لتجلس نانا وهي ترمق أختها بشك:
- إنتِ وشك أحمر كده ليه؟!
كان واضحًا على بشرتها البيضاء حُمرته فاكتفت بالنفي دون تعليق ولا توضيح ما الذي تنفيه بالضبط، بينما وجه وافي أهتمامه بفنجانه وهو يقلب سكره.
لتتبادل بسمة ونانا النظرات مع كتم واضح لضحكةٍ أرادت الإفلات منهما.

وفي المشفى تم الاستعداد للعملية، وقف وافي على باب الغرفة بينما الفتاتان معها بالداخل،تساعدانها على إرتداء زي العمليات وتشدان من أزرها.
دخلت الممرضة لتتأكد أن كل شيء على ما يرام وقطرت عينيها بمقطرة، وتركتهن ليلتقيها وافي ويسألها هل انتهين؟ فأجابته بنعم.
اقترب من الباب ليفتحه لكنه تصلب مكانه حين سمعها تسأل عنه.
- هو بسام هنا؟!
فأجابت بسمة مهمهة:
- اممممممممم... اشمعنى.
قالت مها بنزق:
- هنا ولا مش هنا؟.
- هيكون هنا إزاي يا ناصحة وإنتِ بتغيري تلاقيه برة في الاستراحة.
صمتت بتردد قبل أن تعزم أمرها:
- بوسي.. أنا مش عايزه أشوفه.
ارتعشت أصابعه على مقبض الباب حين سمع كلماتها، التي تلقتها بسمة ونانا بدهشة لتقول الأولى:

- مش فاهمة يعني إيه مش عايزه تشوفيه؟!!
- يعني مش عايزه أشوفه لما تشيلوا الرباط عن عيني مش عايزاه يكون موجود.
عقدت بسمة حاجبيها بدهشة أكبر لتردد نانا:
- لا إله الا الله... مالها دي؟.. في إيه يا مها ده توتر ما قبل العملية اللي بنسمع عنه ولا إيه؟.. إيه الكلام العجيب ده؟!.. هتفرق في إيه يعني تشوفيه وإنتِ بتفكي الرباط أو بعده هو أصلًا معانا يعني هتشوفيه هتشوفيه إن شاء الله.
هزت رأسها بتوتر:
- يا ستي أنا مش عايزه أشوفه أنا حرة.
- طب خلاص خلاص...
هدأتها بسمة مردفة:
- بلاش عصبية ضغطك لازم يكون مظبوط قبل ما تخشي العملية.. ماشي يا ستي هشوفله أي حجه وهخليه بعيد.. اهدي بقى.
انقبضت عضلات وجهه وهو يبتعد عن الباب، الألم الذي أصابه من كلماتها أكد له أنها تعني له الكثير ولم يتصور أنها تبغضه لهذه الدرجة.
واستعاد علقه في لحظة كل كلمات أمه الرافضة لعائلته.
ترى هل لقنت مها منها الكثير حتى أجبرتها على كرهه هو أيضًا.
لتعلو السخرية ملامحه تختلط بمشاعر الوجع الذي عانى منه وسيظل يعاني.
سيبقى الطفل المرفوض من أمه، وحتى من الفتاة التي ظن أن بينه وبينها شيئًا ما.
استمرت خطواته حتى غادر مبني المشفى ليجلس على إحدى مقاعد الحديقة. وحيدًا كعادته.
ليتعالى رنين هاتفه فتصاحبه نبرات صوت من كان دومًا المقرب لديه، جاهين . طمأنه أن العملية ستبدأ بعد قليل واكتفى بذلك ليُنهي المكالمة قبل أن ينتبه جاهين لنبرته الحزينة.

الساعة تشير إلى التاسعة صباحًا بينما في مصر هي الثالثة عصرًا.
أنهى جاهين عمله باكرًا وعاد مسرعًا إلى المنزل ليبقى مع فاطمة ويتابعان مع وافي
تطورات العملية.
ليغلق الهاتف بعد محادثة قصيرة مع وافي قائلًا:
- بيجهزوها للعمليات هتدخل خلاص بعد شوية.
وقفت فاطمة لتبسط سجادة الصلاة وتكبر لتصلي، أرادت أن تدعو لها وهي بين يدي الله لعل الدعاء يقبل.
وفي القارة الأخرى خرجت نانا وبسمة للانتظار في الاستراحة فلم يجدا وافي لتقول بسمة:
- راح فين ده هو إحنا ناقصين قلق.
- يمكن طلع في الجنينة ولا حاجه ريحة المستشفيات تتعب.
قالتها نانا لتهدأتِها.
لتجلسا وألسنتهما شرعتا في الابتهال لله بسلامة مها ونجاح العملية.

الفصل الرابع والثلاثون

أنا اللي بالأمر المحال اغتوى
شوفت القمر نطيت لفوق في الهوا
طلته ماطلتوش إيه أنا يهمني
وليه.. مادام بالنشوى قلبي ارتوى
عجبي!!
رباعيات جاهين

حين تتحول الثواني إلى دقائق والدقائق إلى ساعات فاعلم أن ما تنتظره ليس بالأمر الهين، وأنه يعني لك الكثير.
ولم يكن هذا حال فرد واحد بل أكثر.
نانا، بسمة، وافي، جاهين، فاطِمة ومحمد.
٦ أشخاص يتواصلون هاتفيًا على مدار الساعة في انتظار الخبر.
الخبر الذي جاء على لسان الممرضة التي خرجت لذوي المريضة المنتظرين بالاستراحة لتهب نانا واقفةً تتبعها بسمة ومن خلفهما وافي ليستمعوا لكلمات الممرضة التي ابتسمت قائلة:
- العملية تمت بنجاح ولكن علينا الانتظار حتى الغد لنقوم بإزالة الضمادة عن عينيها ومعرفة النتيجة.
اكتفت بإيماءة تهنئة لتستدير مبتعدة لتمسك نانا ببسمة:
- قالت إيه دي؟.. إنتوا متنحين كده ليه.
- قالت العملية نجحت.
صاحت نانا:
- يعني فتحت.
- لأ.
تجهم وجهها مع تعليق بسمة المُقتضب لتهز ذراعها:

- بوسي ماتلعبيش بأعصابي.
- يابنتي إهدي... النتيجة هتبان بكرة مش النهاردة.
- أنا هروح أشوف الدكتور وأفهم منه بالظبط.
قالها وافي فأومأت بسمة برأسها ليتركهما لتقول بسمة:
- يا ربي الواحد أعصابه باظت ولسه هنستنى لبكرة.
عادت نانا للجلوس وقد أصابها الإحباط لتربت بسمة على كتفها:
- إن شاء الله خير.. ياله علشان نشوفها.

أنهى وافي حديثه مع الطبيب واتصل بجاهين ليخبره بما حدث لكنه فوجيء بصوت فاطمة تجيبه بلهفة:
- بسام يا ابني.. طمني الله يكرمك بنتي عاملة إيه؟!
توقف مكانه للحظةٍ لم يمنحها ردًا فقالت:
- بسام سامعني.
- أيوة.
- مها عملت إيه؟!
- العميلة اتعملت بس النتيجة بكرة.
- يعني إيه؟.. مش فاهمة العملية اتعلمت كويس.
- أيوة إن شاء الله بكرة هنعرف النتيجة.
وقبل أن تقول المزيد قال:
- هو جاهين فين؟!
- جاي... طب هي عاملة إيه كويسة؟!
- لسه ماشوفتهاش... إبقي قولي لجاهين.
وقبل أن تقول المزيد أغلق الهاتف لتردد اسمه بحزن:
- بسام.. يا ابني.
فلم يأتيها أي رد ليدلف جاهين إلى غرفتها ليرى الهاتف في يدها:
- ها يا أبلة بطة.. حد اتصل.

أومأت بحزن فانقبض قلبه:
- مالك.. العملية مانجحتش؟.
هزت رأسها بالنفي ليسقط قلبه بين قدميه لكنها أردفت:
- هنعرف بكرة.. مش النهاردة.
وضع يده على قلبه:
- وقعتي قلبي والله.. طب خير إن شاء الله.
رفعت الهاتف له فأخذه منها لتقول:
- جاهين.. هو بسام بيكلمك عني؟.
شخص جاهين ببصره بعيدًا لا يدري ما الذي عليه قوله فأضافت:
- بيكرهني.. صح؟!
جلس أمامها:
- أكيد لأ... يوم ما كان بيدورلك على دكتور كان فعلًا مهتم وعايز يطمن عليكِ ودي مش تصرفات حد بيكره، وافي.. أقصد بسام محتار وإنتِ للأسف مش بتريحيه.. إمتى هتقعدي وتتكلمي معاه وتحكيله كل حاجه.. صدقيني لو عملتي كده أنا متأكد إنه هيصدق كل كلمة هتقوليها وهتكسبيه لصفك.. لكن أنا مش فاهم ليه مصرة تسكتي؟.
نظرت له بصمت قبل أن تخفض بصرها دون تعليق فقال:
- خايفة من إيه يا أبلة بطة... قوليلي.. مش خلاص هبقى جوز بنتك يعني في مقام ابنك.
- والله أنت في مقام ابني من غير ما تتجوزها.. مابلاش الجوازة دي يا بني؟.
عقد حاجبيه وقد بدى عليه الضيق:
- أنا بقول نرجع نتكلم عن بسام أحسن.
- بسمة مابتحبكش.
رغم علمه بهذا لكن سماعها من أمها كان مؤلمًا، فأشاح بوجهه بعيدًا، فمدت يدها نحوه تربت على ذراعه:
- يا ابني أنا مش قصدي أزعلك.

عاد ببصره إليها قائلًا بحزم:
- مرات عمي.. أنا عارف إنها مابتحبنيش وإن شاء الله هعرف إزاي أخليها تحبني.. المهم إنتِ تبقي ف صفي مش ضدي.
كلمات سميحة وتهديدها لازال يصم أُذنيها، أتخبره بذلك ولكنها لن تكسب شيئًا هو سيعاند وربما يغُضب عمته التي بدورها ستقلب الأمور على رأسها وابنتها.
عاد صوته يصل إليها:
- أبلة بطة.. مش عايزِك تخافي.
اكتفت بأن هزت رأسها:
- ربنا يسترها يا ابني.
- طيب أنا هقوم.. بكرة زي دلوقتي هكون معاكِ ونفرح سوا بنتيجة العملية.. نونا بتشوف طلباتك.
أومأت برأسها إيجابًا ليغادرها بعد تحيتها مرة أخرى.
حملت صورته تحدثه مجددًا:
- يا ترى أختك هتعمل إيه؟.. قلبي مش مطمن... ربنا يكفينا شرها
....
وستبدأ المعركة!!
هكذا كان يشعر بعد أن نال موافقة المساهمين على حضور اجتماعٍ طاريء فيما يتعلق بمنصب رئاسة مجلس الإدارة دون أن يخبرهم بمزيد من التفاصيل.
سيُلقي بها خارج تلك الشركة ويمتلك حريته هو وأخيه أخيرًا بعيدًا عنها، لم يعد يحمل هم غضب معاذ عليه فهو معه الآن ولن يعطلهما أي شيء آخر.
طرق أحدهم باب مكتبه، لُيفتح وتظهر هي أمامه، أشار لها لتتقدم:
- تعالي.
اقتربت من مكتبه وعيناها تدور في المكان لتلتقي بعينيْ معاذ الجالس في الجوار بصمت.
وقفت أمام مكتب سامر قائلة:
- هو أنا فعلًا هبقى سكرتيرة هنا؟.

- أيوة.. أنا محتاج حد أثق فيه ومتهيألي إنتِ الحد ده.
عقدت حاجبيها بعدم فهم:
- مش فاهمة.
- المهم إنك بقيتي السكرتيرة هنا.
كتفت ذراعيها قائلة:
- مش كنت سألتني الأول يمكن مش عايزه.
ضحك ضحكة قصيرة مجيبًا:
- ليه لأ... مرتب أعلى مكانة أفضل.. هتقولي لأ ليه؟
لوت شفتيها متمتمة:
- مرتب أعلى لأن المجهود أكتر يا خويا.
- نعم.
لم يتسنَ له سماع تمتمتها فقالت:
- ولا حاجه.
وقف ليلتف حول مكتبه ويقف مقابلها، ينظر لها قائلًا في امتنانٍ واضح:
- بعيدًا بقى عن الشغل أنا لازم أشكرك على مساعدتك لمعاذ.. متعرفيش ريحتيني أد إيه لما خلتيني عرفت أتواصل معاه.
تعلق بصرها به تستمع لكلمات شُكره ومع ابتسامته تلك اجتاحها شعور بالخجل قلما تشعر به فأطرقت رأسها هاربة من نظرة عينيه مرددة:
- لا أبدًا.. أي حد مكاني كان هيعمل كده.. ثم أنا ماعملتش حاجه.. ده محمد.
- محمد مكافئته عندي.. وإنتِ بقى يا ستي تحبي تكون مكافئتك إيه؟!
رفعت رأسها إليه ودارت عيناها في المكان:
- هو مش عينتني سكرتيرة هنا.
ضحك قائلًا:
- ودي مكافئة دي.. أنا مُتعب في الشغل على فكره، ده ممكن تعتبريه عقاب مش مكافئة.
- همممم... إذا كان كده بقى فمكافئتي إنك ترجعني الحسابات تاني.

قالتها بتلقائية أجبرته على الضحك مرةً أخرى ولفترة ليست بالقصيرة، حتى أنها شاركته الابتسامة ليهز رأسه بتعجب:
- إنتِ ملكيش حل.
- وده مدح ده ولا ذم.
- مدح طبعًا أنا مضحكتش من قلبي كده من زمان.
وعاد الخجل يعتريها لتفِر بنظرها بعيدًا بينما يُردف:
- عمومًا هديتك هتلاقيها على مكتبك بكرة الصبح.. وأنا مبحبش التأخير أنا باجي ٩ بس إنتِ تكوني هنا من ٨ ولما آجي أنا بنفسي هفهمك اختصاصاتك... بس أهم قاعدة عندي يا زينة، إن اللي تشوفيه أو تسمعيه هنا مايخرجش بره لأي حد مهما كان الحد ده.. فهماني.
أومأت برأسها ليكمل:
- طيب... تقدري تروحي وماتتأخريش بكرة.
دارت لتغادر ونظرت لمعاذ الذي تابع حوارِهما بصمت ليلوح لها مبتسمًا، فحدجته بنظرة لا مبالية وغادرت فوقف قائلًا:
- البنت دي مش طيقاني.
ضحك سامر وهو يعود ليجلس خلف مكتبه بينما اقترب معاذ ليميل ناحيته مقلدا صوته:
- أنا مضحكتش من قلبي كده من زمااان.
فارتد للخلف بعد أن لوح سامر بقبضته فخشيَ أن تصيبه.
- لا بجد.. البنت دي شكلها داخلة دماغك.
- إنت هتهرج.. كل ده علشان ضحكت، دي بنت جدعة بجد ياريت تفكر تروح تزور أختها الصغيرة اللي ضربتها بعربيتك وماهتمتش بيها يمكن ساعتها تطيقك.
أومأ برأسه:
- عندك حق.. إن شاء الله.

- أقعد بقى خلينا نتكلم في الشغل... عايزك تعرف كل كبيرة وصغيرة هنا يا معاذ.. أنا لو مسكت الإدارة هيكون عليك إنت الشغل التنفيذي وده مش سهل.. بس أنا متاكد إنك أدها.
- حاضر يا سامر.. مش هخيب ظنك.
ابتسم له ليربت على كتفه بدعم، لتهب عاصفة جديدة من الباب لتصيح فيهما:
- إنتوا ناويين على إيه بالظبط؟!!
اعتدلا ليقفا بينما تقترب وغضبها يتقافز أمام وجهها:
- إيه حكاية اجتماع المساهمين ده.. ومالكم ومال منصب رئاسة مجلس الإدارة... ناويين على إيه يا ولاد شاكر.
تبادل النظرات مع أخيه قبل أن يقول:
- هتعرفي يوم الاجتماع يا سما هانم.
حدجته بنظرتها النارية:
- ساامر.. لو اللي في بالي صح.. أنا مش هسكت.
عاد ليجلس خلف مكتبه ليشبك أصابعه أمام وجهه يرمقها بصمت، فالتفتت لمعاذ الذي أشاح بوجهه عنها لتقول:
- معاذ.. تعالى على مكتبي حالًا.
نظر لها للحظات ليأتيه صوت سامر:
- روح يا معاذ.. أنت راجل.
خرجت سما ليتبعها معاذ بتردد ملتفتًا لأخيه الذي أومأ له بدعم وتعلو شفتيه بسمة واثقة.
لكنها انزوت مع اختفاء أخيه وحل محلها القلق مما قد تُقدم عليه سما لانقاذ نفسها من مخططاته.

....

وقفت خلف نافذة مكتبها الكبيرة لا تنطق بشيء، خلفها يقف صامتًا.
لتلتف إليه وتقول بلهجة لينة لم يسمعها من قبل إلا قليل:

- أنا عارفة إنك زعلان مني.. واضح إني مقدرتش الموقف كويس تصورت إنك هترجع البيت تاني يوم وتقولي خلاص.. لكني خمنت غلط.
سكتت لتترك له مساحة للرد فلم يعلق فأردفت:
- معاذ.. أنا عمري مافكرت أءذيك وعارفه إنك أعقل من إنك تئذي نفسك وواثقة إنك راجل وعلشان كده مش قلقانه عليك.. بس ممكن الأم تتصرف بقسوة لو عايزة تفوق ولادها من وهم عايشينه... بس خلاص إنت اللي كسبت.
ضاقت عيناه قائلًا:
- مش فاهم.
اقتربت منه لتضع كفها على وجنته:
- يعني أنا موافقة... بتحب بنت تانية وعايز تتجوزها غير نرمين.. ماشي موافقة.. ومش كده وبس أنا هقلبلك مصر عليها لحد ما ألاقيهالك.. إيه رأيك بقى؟!
حدق بها بغير تصديقٍ لتبتعد عنه وتجلس خلف مكتبها:
- بس بشرط.
بدأ يعي ما يحدث وأن الأمر ليس بالبساطة التي تحدثت بها فقال:
- شرط إيه؟!
أشارت إلى صدرها:
- تبقى معايا أنا مش مع سامر.. وإن كان هو بيفكر يخرجني من الشركة فأنا وأنت ممكن نخرجه هو وأنت تبقى المدير التنفيذي مكانه وأنا أفضل مكاني... وزي ما قلتلك هجوزك اللي إنت عاوزها بعد ما ألاقيها على طول... قُلت إيه؟!!
كلمات لم يتصور أن يسمعها منها يومًا، أحقًا ستقبل ببسمة بل وستعثر له عليها؟، لمَ لا؟!.. يمكنها ذلك باتصالاتها المتعددة ومعارفها الكثيرة، سامر دومًا كان يماطل في العثور عليها.
- متستعجلش في الرد.
قالتها وهي ترفع له هاتفه وبطاقاته الائتمانية ومفاتيح سيارته.
- حاجتك أهي.. عربيتك في الفيلا .. وهستنى ردك يوم اجتماع المساهمين.

اقترب منها بتؤدة، مد يده يلتقط حاجاته وعقله تتضارب فيهِ الأفكار بشكلٍ جنوني، ليغادر غرفة مكتبها بل الشركة كلها إلى الخارج.
يسير في الشارع بغيرِ وِجهةٍ، أعليه حقًا الرفض؟!
وماذا عن حلمه الذي يمثل له حياته كلها... العثور على بسمة.
فسامر لم يساعده في هذا بل لازال حتى الآن تساوره الشكوك حول أنه السبب الرئيسي في فقده لها.
وها هي أمه الآن تعطيه الإذن ليس فقط في الزواج بها بل هي من ستعثر عليها لأجله.
فهل يستمع لضميره الذي يحذره من الغدرِ بأخيه؟!
أم إلى قلبه الذي انتفض فرحًا بمجرد شعوره بقربه من العثور على محبوبته؟!
....
خطواتهما تسابق الزمن وهما يسرعان إلى غرفة مها، لحظات ويتم كشف الرباط عن عينيها لمعرفة النتيجة.
تركاها بالأمس مع أختها وذهبا هما إلى الفندق لقضاء ليلتهما التي لم تحوي الكثير من الحديث هو دخل غرفته بعد أن أوصل أخته إلى غرفتها ولم يلتقيا إلا في الصباح.
وبكلماتٍ مُبعثرة غير مرتبطة تحدثت بسمة عن خوف مها وخجلها الطبيعي وطلبت من أخيها تجنب البقاء في الغرفة حال إزالة الضمادات.
ليبتسم لها بتفهم وإن بدا ساخرًا أكثر.
ونفذ ما طُلب منه، وقف على باب الغرفة بينما بالداخل ترقد مها بجوارها نانا وبسمة وعلى الجانب الآخر شرع الطبيب في إزالة الضمادات.
لترتعش كفيْ مها بخوفٍ بالغ فمدت بسمة يدها تحتضن كفها لتُطمئنها هامسة:
- استبشري خيرًا.
فتمتمت:
- رضيت يا رب.. رضيت يا رب.
- افتحي عينيك ببطء.

قالها الطبيب فترجمت بسمة لها فشرعت في تحريك جفنيها، لكنها قالت بتوتر:
- مش عارفه أفتحها.
أصاب نانا الهلع بينما وقفت بسمة تخبر الطبيب ما قالته فقال:
- أنتِ خائفة.. أنتِ بخير.. افتحي عينيكِ.
جلست بسمة جوارها:
- ماتخافيش يا مها.. افتحي عينيكِ يالا يا مها.
باعدت بين جفنيها بصعوبة لتُعيد غلقهما وفتحهما عدة مرات قبل أن تقول نانا:
- يابنتي انطقي.. شايفه حاجة.
قال الطبيب:
- الرؤية ستكون ضبابية.. ستستعيد كامل بصرها خلال شهر.. المفترض أنها يمكنها رؤية الضوء الذي في الغرفة وطبيعة ما يقْربُها من أشياء.
وضعت بسمة كفها على كتف مها:
- شايفه نور يا مها.. الأوضة منورة.. شايفه نور.
وأخيرًا ثبتت مها عينيها على نقطة ما قبل أن تميل برأسها باتجاه صوت بسمة لتنظر إلى وجهها مباشرةً، نظرة لم ترَها بسمة لسنواتٍ طويلة... مها تنظر لها وكأنها تراها.
فتهدج صوتها وهي تقول:
- شايفاني.. مش هتبقي شيفاني كويس بس شيفاني صح؟.
شهقت مها مرة بعد مرة قبل أن توميء برأسها:
- شيفاكي.. أنا شيفاكي.
صاحت نانا ومعها بسمة وهما يقفزان ليحتضناها بقوة لينخرط الجميع في البكاء.
ومن خلف الباب اتسعت بسمته مع وصول صيحات الفرح من الداخل والتي خالطها صوت البكاء، مد يده ليفتح الباب لكنه تذكر سبب وجوده في الخارج فتراجع عن قراره وهو يبتعد عن الغرفة متمتمًا:
- الحمدلله.. الحمدلله.

أمسك هاتفه ليتصل بجاهين الذي أجابه هذه المرة فقال بفرح:
- العملية نجحت يا جاهين.. نجحت.
أجابه بصيحة فرح:
- الحمدلله.. أبلة بطة.. العملية نجحت.
وصل له صوت فاطمة الفرِح وهيِ تحمد الله وتكبر، حبها لتلك الفتاة أحيانًا يصيبه بالغيرة.
قال لجاهين:
- أنا هقفل.. هكلمك بعدين.
- أبلة بطة عايزة تكلم مها.
- حاضر لما بسمة تيجي هديها الموبيل.
أغلق الخط قبل أن يسمع رد جاهين.
ليجلس على أول مِقعد قابله، فجسده أنهكه التوتر والانتظار.
ليرفع رأسه على نداء باسمه ليجد بسمة تسرع نحوه فوقف وقبل أن يسألها احتضنته بقوة حتى أنه عاد للوراءِ خُطوة فلم يتوقع هذا وهي تردد:
- الحمدلله يا بسام.. مها فتحت.. الحمدلله.. أنا متشكرة ليك أوي أنت اللي نبهتني وساعدتنا.. ربنا مايحرمنيش منك.
اتسعت بسمته وهو يضمها إليه بدوره، هي المرة الأولى التي يحتضنها فيها ولم تكن سيئة.
بل منحته شعورًا لم ينااله من قبل، إحساس مختلف بالدفء والأمان، ليس أمانها هي له بل شعورها بأمانه هو لها.
ربت على كتفها:
- الحمدلله.. حمدلله على سلامتها.
حررته لتنظر إليه فقال:
- هي كويسة.
- آه الحمدلله...ده إحنا عيطنا وأنا اتخضيت للعملية تبوظ بس الدكتور قالي الدموع حاجه طبيعية من العين ومش مؤذية.

- طب المفروض نعمل إيه دلوقتي؟!
- عايزين نضارة شمس طبية وأصلية بقى.. استنضف.
ضحك مردفًا:
- ها وإيه تاني؟!
- واقي للعين مناسب للنوم... والعلاج هنصرفه من هنا وإحنا خارجين.
- هنخرج أمتى؟!
- بكره إن شاء الله.
- طيب هروح أجيب الحاجة... خدي الموبيل وكلمي جاهين علشان يسلموا على مها.
أومأت برأسها، واستدار ليغادر وبعد عدة خطوات نادته مرة أخرى فالتفت لها مستفهمًا فاكتفت بالابتسام فرفع إحدى حاجبيه مستغربًا فقالت:
- أنا حاسه إني بحبك أوي ومبسوطة إنك توأمي.
بادلها الابتسام وليقول:
- وأنا كمان.. وياريتنا ماتفرقناش أبدًا.
زفرت قائلة:
- قدر الله وما شاء فعل.. المهم إننا مع بعض يالا بقى علشان مها لازم تلبس النضارة بالنهار.
هز كتفيه:
- حاضر مائنتِ اللي بتوقفيني.
تركها مسرعًا ولازالت ضحكاتها تعلو شفتيها لتضم كفيها إلى صدرها بسعادةٍ واضحة لتنتبه إلى خاتم خِطبتها الذي أحيانا تنسى أنها ترتديه، رمقته للحظاتٍ قبل أن تمرر أناملها عليه لتهمس:
- تصدق وحشتني... كابن عم يعني.. ماتطمعش.
رفعت رأسها تنظر حولها لتتأكد أن لا أحد يراها وهي تحدث نفسها فيتهمها بالجنون لتعود مسرعةً إلى غرفة مها.
....

قبلت رأس أختها الصغيرة النائمة تتأمل ملامحها، لم تتصور أن حادث تتعرض له أختها يغير حياتها لهذه الدرجة، فمن العمل كمحاسبة تحت التمرين إلى سكرتيرة مكتب المدير التنفيذي للشركة.

غادرت غرفة أختها لتجد والدها يمسك مِسبحته يتمتم بكلمات الذكر، اقتربت منه تُقبل يده:

- ادعيلي يا حج حكم.

ربت على رأسها:

- ربنا يحفظك ويكفيكي شر الطريق.

- آاآمين.

قالتها وهي ترفع كفيها لأعلى:

- أنا ماشية بقى علشان أستلم الشغل الجديد... عايز حاجة؟!

- عايز سلامتك... متتأخريش.

- إن شاء الله.

انطلقت تغلبها حماستها، لا تتوقف عن إلقاء التحيات الصباحية على كل من تلتقيهم في شارعها، أو بالأحرى حارتها.

فهي الفتاة التي تتواصل مع الكل، تتعامل مع الجميع وفي نفس الوقت تُجبرهم على احترامها، لا تتهاون مع من يتجاوز حدوده، وتمد يد العون إذا استطاعت لمن يطلبها.

يقولها أبيها دومًا أن رضاءها عن حياتها سيبقى هو سِر سعادتها، وها قد نالت الجائزة عن ذلك الرضا بوظيفةٍ ومرتب ما كانت لتحلم بهما.

وصلت للشركة لتتخذ طريق مختلف عن المعتاد، استخدمت المِصعد لتصعد إلى الدور الذي يحوي مكتب المدير التنفيذي، لم تلتقِ بأحدٍ في طريقها، الساعة الثامنة إلا دقائق بسيطة فلم يحضر الكثير من الموظفين بعد.

وقفت أمام مكتبها الجديد لتلفت نظرها في الحال عُلبة مربعة تم تغليفها بشكل أنيق كهدية، تذكرت كلماته عن الهدية التي ستنتظرها على مكتبها.

قلبت العلبة بيديها تحاول تخمين ما فيها، لتفتحها بترقب وحماسة قبل أن تفغر فاها حين وجدت واحد من أحدث وأقيم الهواتف الذكية، أمسكته بحرصٍ بالغ تلامس شاشته اللامعة بأناملها.
"عجبك"
انتفضت حتى كاد يسقط منها فاحتضنته بقوة ليقول:
- آسف خضيتك.
فإلتفتت له وهي تضع كفها على صدرها لتهديء من روعها لتنفث في صدرها وهي تُسم الله:
- إيه ده.. مفيش إحم ولا دستور.
- نعم؟.. إحم ولا دستور؟!!
انتبهت لما تقوله، لتلوم نفسها، أتريد أن تخسر الوظيفة من أول يوم.
اعتدلت لتعتذر فأشار لها:
- حصل خير.. عجبتك الهدية.
أومأت برأسها:
- قووي... بس ده غالي أوي.
- لا أبدًا.. إبقي حطي الخط بتاعك فيها بس قصيه الأول في أي محل علشان ينفع يدخل في الفون.
- حاضر.. هوديه للواد ميدو هيظبطهولي.
رفع إحدى حاجبيه:
- الواد ميدو.
- آاه.. ده فاتح دُكان موبايلات بس إيه أرووبة.. بيفهم في كل حاجه.
اتسعت بسمته أكثر وهو يراقب كلماتها بل حتى حركات وجهها، حين تتكلم يشعر وكأنها تحدث صديق قديم لها، ولا يعنيها تلك الفروق التي عليها الانتباه لها.
أشار لها:
- طب تعالي علشان أفهمك إيه مسئووليتك بالظبط.؟

- ألا صحيح.. أنت جيت بدري ليه؟!
ضاقت عيناه ليقول بتجهم:
- إنتَ؟!!
- آسفة قصدي حضرتك.
أزال تجهمه ليعود للابتسام:
- علشان أعرف أحطلك الهدية... يالا ورانا شغل كتير.
أومأت لتهرع خلفه لكنها عادت سريعًا حين نبهها أن تحضر معها كراسة الملاحظات وقلم لتكتب ما سيقوله من ملاحظات.
لتجذب أول كراسة تضع يدها عليها وقلم لتدخل إلى مكتبه لتبدأ مهام وظيفتها الجديدة.
....
البصر.
تلك النعمة الجليلة والتي يتغافل عنها كل مبصر لمجرد أنه وُلد هكذا، غير عابيء بإمكانية أن يفقد تلك النعمة لأي سبب وفي أي وقت.
فقدته طفلة، لم تذنب، لم تخطيء ولكن ابتلاها الله بفقد تلك النعمة، وعلى قدر الإيمان تكون المصيبة، وعلى قدر المصيبة يكون الصبر.
وهي صبرت.. صبرت كثيرًا ولم تعترض يومًا.
فكان الجزاء من جنس العمل.
عاد لها النور، تفتح عينيها وتعيد غلقهما وكأنها تختبرهما مرة بعد مرة، صحيح الصورة غير واضحة ولكنها تستطيع تمييز ما حولها.
ذلك الحائط هناك، تلك المقاعد، الممرضة التي تمر أمامها الآن.
رفعت كفها تطالع أصابعها التي حُرمت رؤيتهم لسنوات، ليغلف وجهها السرور وهي تتمتم بكلمات الحمد.
نظرت لساعة مجاورة لكنها لم تتمكن من رؤية العقارب جيدًا فلم تعرف كم الساعة،
إلتفتت إلى أختها لتجدها تغط في النوم أما بسمة فلا تعلم أين ذهبت.

أنزلت قدميها على الأرض تُتوق للتحرك دون خوف، دون مرشد، دون يدٍ تقودها، وقفت وشعور غريب يملؤها وكأنها تتعلم السير من جديد، وكأنها كانت في عالمٍ آخر وحاليًا تغيّر وعليها التأقلم عليه من جديد.
وكما اعتادت مدت ذراعيها أمامها لتتذكر أنها لم تعد بحاجه لهذا فأخفضتهما ثانية في محاولة للسير بثبات. تأكدت أن حجابها على رأسها وقد وضعت النظارة الواقية التي أمر الطبيب بارتدائها طول وقت النهار.
وصلت للباب لتمسك بمقبضه وتفتحه طلت برأسها للخارج، بدى الجو هادئًا، القليل من الأشخاص يتحركون في المكان ومعظمهم من العاملين، يمرون من أمامها دون اهتمام بالنظر إليها.
وضعت كفها على الحائط لتسير بالتوازي معه، تنظر بعينيها هنا وهناك، تريد أن تستعيد ذاكرة رؤية الأشياء وتميزها.
وجوه تراها لا تستطيع تمييزها لكن هذا لا يُهم يكفي أنها تعلم أن هناك من هم يمرون جوارها لن تكون خائفة بعد الآن من أي هجومٍ مباغت أو لمسةٍ غادرة.
....
جلس في الاستراحة بعد أن أعطى الهاتف لبسمة لتتحدث إلى جاهين الذي طلب منه ذلك، أخذت الهاتف منه وخرجت إلى الحديقة بينما بقي هو مكانه.
رغم كل السعادة التي شعر بها بعد نجاح العملية إلا أنه لا زال حزينًا، لم يستطع حتى أن يدخل إلى غرفتها ليهنئها على سلامتها، حتى الآن صوتها يعلو في رأسه وهي تطلب ألا تراه، مازال يجهل السبب.
عقد حاجبيه ليلوم نفسه، ما الذي يغضبه فلتراها أو لا ، لمَ يهتم؟.
وجاء الجواب أسرع من السؤال..
"لأنك بالفعل تهتم يا أحمق."
زفر بحرارة مستسلمًا لخواطره، نعم هو يهتم، الأمر ليس شفقة ولا مواساة لفتاةٍ تعاني فقد البصر، الأمر تعدى تلك المرحلة دون أن يشعر وفي غفلةٍ منه.
وقف وقد تملكه الضيق، لمَ عليه دومًا أن يبقى في حيرةٍ عما يخص من يهتم لأمرهم، فليذهب إلى غرفتها وليرى كيف ستتصرف؟!

تحرك بالفعل إلى حيث هي، وبخطواتٍ أبطأ من الطبيعي وكأنه يقدم قدم ويؤخر أخرى.
رآها..
تضع كفها على الحائط وكأنها اعتادت الدعم، تُخفي عيونها خلف النظارة التي ابتاعها لها فلم يتمكن من رؤيتها.
لم يستطع إلا الابتسام وهو يراها تتحرك بحرية دون خوف معتاد، بملامح مشرقة وهي تخطو إلى عالم المبصرين باستحياء.
اتجه إليها إلا أن تردده وقلقه من رد فعلها جعله يمر بجوارها بل ويتخطاها ليقف بعدها ويلتفت إليها، فحدث منها ما لم يتوقعه، وقفت بدورها وإلتفتت إليه.
شعر بها تنظر له مباشرة حتى وإن اختفت عينيها خلف تلك النظارات.
استمر موقفهما هذا للحظات أو ربما أكثر قبل أن تحرك شفتيها بحروف اسمه دون صوت لكنه فهم اقترب أكثر ليقف أمامها:
- حمدلله عالسلامة.. ومبروك.
ارتجفت شفتاها دون كلام، فقط تنظر له وكأنها تريد أن تتأكد أنها تراه، تمنت لو اقتربت أكثر لتعرف كيف يبدو بحق، فلاحت لها ابتسامته التي منحها لها وهي تراقبه بصمت.
خفضت بصرها عنه بشكلٍ مفاجيء وتحركت على عجل وكأنها استيقظت من حُلمٍ ما لتمر جواره هاربةً إلى غرفتها.
لكنه تتبعها بإصرار ليضع ذراعه أمامها فأجبرها على الوقوف ليقول بحزم:
- مها.. مالك؟!.. بتعملي كده ليه؟!
ظل بصرها أرضًا ولم ترفعه إليه لتقول:
- لو سمحت سيبني أعدي.. عايزه أرجع لأختي.
- ماشي بس أفهم.. إنتِ بتهربي مني ولا في إيه بالظبط؟!
هزت رأسها بتوتر:
- أهرب إيه.. سيبني أعدي!!

- طب بُصيلي.. مش عايزة تشوفيني ليه؟!
ارتعشت كفيها، أأخبرته بسمة بذلك؟ اضطربت أكثر ولم تعرف كيف تجيب ليعيد السؤال بإلحاح أكبر:
- جاوبيني يا مها.. مش عايزة تشوفيني ليه؟!
ضمت قبضتيها تبعث لنفسها بعض الشجاعة لتقول أخيرًا وكأنها تتحرر مما يُجثم على صدرها:
- مش عايزة أشكر ربنا بذنب.. فهمت عديني بقى.
أزاح ذراعه لتمر فتابعها ببصره وكل علامات عدم الفهم تتلاعب على وجهه.
ليردد كلماتها:
"مش عايزة أشكر ربنا بذنب"
ما الذي يعنيه هذا؟!.. عن أي ذنب تتحدث؟!
"بسام"
وصله نداء أخته ليلتفت لها فرفعت له هاتفه:
- خلاص خلصنا.
التقط الهاتف ولازال شاردًا في كلمات لم يفهمها لتقول بسمة:
- مالك؟!.. في حاجه حصلت؟!
أمسك كفها يجرها خلفه لتتبعه بدهشة، خرج بها من المبنى ليجلسا في الحديقة فسألته بقلق:
- في إيه؟.. الدكتور قالك حاجه؟!
انتابها القلق على مها في الحال فطمئنها:
- لا أبدًا.. كله تمام.
- أومال في إيه؟! قلقتني.
لوى شفتيه للحظة قبل أن يخبرها بكل ما يفكر به منذ أن سمع رفضها لرؤيته إلى ما قالته له الآن.
في البداية استمعت له بدهشة تحول إلى فضول لينتهي على ابتسامة ضاحكة ليقول بغضب:

- إنتِ بتضحكي على إيه؟!
- طب خلاص ماتتعصبش.
- أنا عايز أفهم هي قصدها إيه؟!
- امممممم.. بمعرفتي الوثيقة بمها وعشرتي الطويلة بيها.. اممممممممممم
زفر بضيق:
- بسمة اخلصي.
- أنتَ هتقولي بوسي إمتى زي الباقيين.
- أوووووه.
ضحكت لتشير له ليهدأ:
- طب خلاص هقولك بس الأول قولي أنت.. أنتَ مهتم بمها كده ليه؟... أنتَ معجب بيها؟!
حدق بها دون توقع لهذا السؤال المباشر، أراد أن ينفي، ينكر، يتهرب لكنه اكتفى بالقول بحرج:
- تقريبًا.
انتفض على صيحة الفرحة وهي تضمه إليها ليدفعها قائلًا:
- بس يا بسمة.. إنتِ فرحانه على إيه دي مش طيقاني.
كتمت ضحكاتها وهي تتمتم بكلمات لم يفهمها فضرب رأسه بنفاذ صبر لتقول:
- أنتَ ماتعرفش مها.. دي الفرع المبارك في عيلتنا.. حد كده بنحسه قريب من ربنا وكانت أكتر حد فينا حريص على الحرام والحلال حتى أبسط حاجه فيه.
- ماشي فهمت بس برضو مافهمتش إيه موضوع مش عايزة تشوفني وتشكر ربنا بذنب.
- امممم.. أعتقد أنا فهمت.. مها ربنا كرمها وفتحت عينها تقريبًا خايفة تاخد ذنب لما تشوفك.. أنا فاكرة مرة قالتلي إنها مش زعلانه إنها عامية لأنها بتوفر على نفسها ذنوب كتير ممكن تاخدها بإطلاق بصرها... ساعتها أنا قلتلها فتحي وماتبوصيش على رجاله خالص وضحكنا.
حرك رأسه باستغراب:

- هو أنا بس اللي راجل.. طب ما الدكتور اللي شافته بعد ما فتحت راجل... مشيت في الممرات وشافت برضو رجاله إشمعنى أنا اللي مش عايزة تشوفني.
وكزته بكتفه قائلة:
- لأنهم مايفرقوش معاها يا ناااصح.
تركته بعد جملتها يرتب كل ما يحدث وما قيل، لتتسرب البسمة إلى شفتيه، وشعور لذيذ يملؤه.
مها فتاة غير تقليدية بالنسبة له، لم يرَ أو يلتقي بمن هن مثلها، لها أسلوبها الخاص في التفكير والذي يعجبه بكل تأكيد، هربت منه ليس كُرهًا بل العكس.
وهو الخاطر الذي ما كان ليجول بعقله بأي حال من الأحوال.

وفي اليوم التالي استعد الجميع للسفر، مع الانتباه لكل تعليمات الطبيب والتي حرصت بسمة على كتابتها كي لا تنسَ منها شيئًا.
في الطائرة جلسن الفتيات متجاورين بينما جلس وافي خلفهن بمقعدين وقضوا معظم ساعات السفر ال١٥ نائمين.
ربما الوحيدة التي بقت مستيقظة أطول مدة هي مها التي لا زالت تمتع عينيها بنعمة البصر وهي تنظر في كل ركن حولها.
ومع انتهاء الرحلة ووصولهم إلى المطار كان في استقبالهم في الصالة جاهين وكذلك محمد الذي ذهب معه لاحضارهم.
وكانت أجواء الفرحة محيطة باللقاء ومحمد يهنيء مها بسعادة بالغة على سلامتها ونجاح العملية، محمد الشاب الذي لم تنسَ أنه ساعدها في أول لقاء لهما في حارتهما القديمة، فلم تتمالك عبراتها وهي ترد له تهنئته، تشعر نحوه بمشاعر أخوة قوية ولكنها لا يمكنها تعدي الحدود لو كانت أخته حقًا لضمته إليها لتشكره مرة تلو أخرى على وجوده معها.
وفي الجانب الآخر وقفت تراقب بصمت، وجود محمد أجبرها على الصمت هي تثير غضبه فلا داعي لإفساد تلك اللحظات، فدارت ببصرها تنظر إلى جاهين الذي وقف بجوار بسمة يهمس لها بشيئًا جعل بسمة تشعر بالحرج وهي تبتعد

عنه وتقترب من محمد ومها وتشاركهما الفرح لترتسم الخيبة على وجه جاهين.
لازال يحاول التقرب ولازالت هي لا تساعد، لكنه من البداية يعلم أن الأمر ليس سهلًا وعليه الاستمرار في محاولاته.
- يالا يا جماعة أبلة بطة مستنية على نار.
قالها جاهين ليحرك ذلك الجمع إلى سيارته، وبقي محمد خارجها لتقول بسمة:
- أنتَ مش هتعرف تركب معانا.
- ولا يهمك أنا جيت علشان أطمن على مها هروح بتاكسي وسلميلي على أبلة بطة كتير وحمدلله على سلامتك تاني يا مها.
- الله يسلمك يا محمد.
انطلق جاهين ليعود بهم إلى المنزل التي جلست فاطمة في حديقته في انتظارهم بشوقٍ بالغ، تفتقد الجميع بلا استثناء، صحيح أن قلبها يهفو أكثر لرؤية مها بعد نجاح العملية لكنها تفتقد أيضًا بسمة ونانا فلأول مرة يبتعدان عنها عدة أيام بل وتفتقد بسام الذي لا تراه إلا قليلًا لكن يكفيها أنها تعلم أن سقف واحد يظللهما.
ودون أن تنتبه لحضورها الذي يفرض أجواء من الحزن والهم عليها وقفت سميحة أمامها:
- ياريت تكوني فكرتي في حجة كويسة يا فاطمة.. وخليكِ فاكرة.. إنتوا اللي هتدفعوا التمن.
رمقتها فاطمة بقلة حيلة لتستدير مبتعدة عنها لتسرق منها لحظات سعادة كانت لتقضيها مع عودة أحبائِها وتعيد لها إحساس الخوف الضاري على فلذة كبدها.
ومع دخول سيارة جاهين تمكنت من التغلب على هذا الخوف وهي تتحرك بسرعة قدر استطاعتها لتقترب من السيارة وكانت بسمة أول المترجلين منها لتسرع نحو أمها تحتضنها بشوق حقيقي:
- وحشتيني يا ماما.. مها فتحت يا ماما.. الحمدلله.

قالتها وكأنها تخبر أمها الخبر لأول مرة، لتبتسم أمها من بين عبراتٍ انحدرت على وجنتيها وهي تتمتم بالحمد لله، وقد مدت عنقها لتنظر إلى مها التي تنزل من السيارة برفق ترتدي نظارات شمسية، بقيت مكانها تريد أن تتأكد أن مها تبصر طريقها لتغادر عينيها المزيد من الدموع حين رفعت مها رأسها باتجاهها وهي تسير إليها مباشرة دون مساعدة من أحد لتقف أمامها قائلة:

- أبلة بطة.. أنا شيفاكي.

ضمتها إليها بقوة وقد انخرطت في البكاء معها وهي تحمد الله وتشكره لتشاركهما بسمة ونانا الدموع.

بينما همس جاهين لوافي:

- هما بيجيبوا الدموع دي كلها منين يا عم؟

منحه بسمة باهتة قبل أن يستدير عائدًا للمنزل، أمه التقت بمن يهمهم أمرها ولا يعتقد أنه منهم.

"بسام."

توقف مكانه ليستدير إلى نداءها وهي تخطو إليه، رأته يبتعد فأوقفته، افتقدته هو أيضًا ولن تحرم نفسها ذلك الشعور.

- نعم.

قالها وهو يرمقها بوجه جامد رفعت ذراعيها تضمه إليها وهي تربت على ظهره:

- وحشتني يا حبيبي... وحمدلله عالسلامة.

وعاد جسده يرتجف بين ذراعيها تلك الرجفة المعتادة مع كل ضمه له منها و إن كانت تلك الثالثة فقط، وهذه المرة وبرغم كل تلك الأفكار التي تتخبط برأسه رفع ذراعيه ليحيطهما بها.

- الله يسلمك.

كان الجميع يتابع المشهد بوجوه تحمل أكثر من ملمح ما بين شفقة وسعادة وأمل.

أمل في أن يتمكن الإثنان من استعادة ما فقداه طوال تلك السنوات الماضية.

....

ومع استقرار الجميع في غرفهم أمسكت هاتفها وأخذت ركنًا في الحديقة لتتصل به، لم تسمع صوته لفترة طويلة فلقد سافر هو للعمل وما إن عاد حتى سافرت هي مع أختها.

- ألو.. إزيك؟!

- إيـــــه إنتِ روحتي فين وتليفونك مقفول ليه؟!

- ماأنتَ كنت مسافر وماعرفتش أكلمك إحنا روحنا أمريكا وأختي الحمدلله يارب عملت عملية وفتحت.. خلاص مبقتش عامية.

- بجد... مبروووووك.

قالها بسعادة لم تقرأ في اصطناعها شيئًا ليقول:

- شوفتي وشي حلو عليكِ إزاي؟.

- طبعا يا حبيبي.

- وحشتني أوي كلمة حبيبي... طب إيه مش هنعمل اللي إتفقنا عليه مش هتكلمي بسمة عني وتخليني أقابلها.

- أنا جاتلي فكرة أحلى.

- ها قوولي بسرعة.

- جاهين دلوقتي مديون ليا بحاجه مهمة أوي ووعدني يساعدني مهما كان طلبي.. أنا بقى هطلب منه يقابلك ويقعد معاك وأنتَ تكلمه في موضوع جوازنا وأنا متأكدة إنه مش هيخلف وعده معايا وهيساعدنا.

- نعم يا أختي!!

عقدت حاجبيها فلهجته حملت من السخرية والغضب الكثير ليردف:

- إنتِ مجنونة.. جاهين ده لا يمكن هيقبل بيا أبدًا.

- ليه بس لو على موضوع المنافسة فاأنتَ ممكن تقنعه إنك هتكون معاه مش ضده والمصالح بتتصالح.

- نانا ماتعصبنيش إحنا اتفاقنا أقابل بسمة مش جاهين.. ماتلفيش بيا بقى.

- وهي بسمة هتعمل إيه لو فضل جاهين مش موافق ده هو راجل البيت هنا.

- راجل على نفسه وأهله مش عليكي.. هو إنتِ أخته.
كان يتحدث بعصبية بالغة فقالت:
- طب إهدى أنتَ متعصب ليه؟
- لأنك معطلاني.
- معطلاك؟!!
- قصدي يعني معطلانا .. معطلة جوازنا.
أقنعت نفسها بكلماته رغم أنها شعرت أنه يقصد أمر آخر، فقالت:
- طيب أصبر الأول أكلم جاهين...
قاطعها صارخًا:
- إياكِ.. جاهين مش لازم يعرف أي حاجه ياإما كل حاجه هتبوظ افهمي بقى.
صمتت بحيرة وهو يزفر في الهاتف ليقول:
- بصي ماتعمليش أي حاجه دلوقتي وأنا هكلمك تاني يالا سلام.

كاد يحطم الهاتف وهو يلقيه أرضًا لولا سقوطه على إحدى الوسائد التي تفترش الأرض وهو يسب ويلعن ليقترب تابعه الدائم:
- مالك يا باشا؟
- غبية غبية.. هتبوظلي كل حاجه قال تقول لجاهين قال.
- ماأنا قلتلك نجيب آخرها إزاي.
هز رأسه بغضب:
- ماكنتش عايز أعمل كده.. بس شكلها مفيش طريقة تانية.
- اللي تشوفه يا باشا.
نفث غضبه بزفرات متتالية وهو يفكر في الطريقة المثلى لتنفيذ مخططاته بأقل خسائر ممكنة.

....
تأكدت بسمة أن مها قد أخذت دواءها ووضعت قطرات عينيها قبل أن تغطيهما بالواقي:

- نامي يا مها ريحي من السفر والتعب ولما تصحي تشيلي ده وتلبسي النضارة ولما تنامي ترجعي تلبس ده تاني أوعي تنسي هنمشي على كده ٣ أسابيع.
أمسكت مها بكف بسمة قائلة بامتنان:
-أنا متشكرة ليكِ أوي يا بسمة.. أنا مدينة ليكِ بعمري كله.
جلست جوارها:
- إيه الكلام الكبير ده.. ربنا يبارك في عمرك ويخليكِ لينا إنتِ أختي أختتتتتي.... في واحدة تشكر أختها وتقولها مدينة ومش عارف إيه.
- بجد يا بوسي لولاكِ أنا عمري ماكنت هعرف أعمل العملية دي ولا أشوف تاني.. ربنا يجازيكِ عني كل خير.
مسحت على كتفها برفق، تمنت لو تخبرها أن من أصر على تحمل كل تلك التكاليف هو أخوها لكنها تعلم أنه سيغضب إن فعلت فلقد أصر عليها ألا تخبر أحد وخاصة مها، إلا أن هذا لم يمنعها من قول:
- يا ستي هو أنا تعبت في إيه.. دي فلوس وربنا بعتهالي اللي تعب فيها بسام وجاهين.. إبقي افتكريهم في دعاكِ.
- طـ..طبعا.. فكراهم.
ابتسمت مع التوتر الذي اعتلاها فجأة لتقول:
- شوفتي بسام شبهي صح؟!
- ها..أ.أنا مش شايفه كويس.
- يعني يا مها بالتقريب كده.
تلعثمت أكثر مما أجبر بسمة على الضحك لتضربها مها قائلة:
- بتضحكي على إيه؟!
- يااه يا مها.. لو اللي بفكر فيه يحصل.. أنا هكون أسعد واحدة في الدنيا.
أطرقت رأسها أرضًا وعقلها يحمل العديد من الاحتمالات:
- هو إيه ده اللي بفتكري فيه؟!
رفعت حاجبيها لتقول بلهجة مصطنعة:
- حاجه عيب.. إنتِ مابتحبيش الحاجات دي.

لتضربها مرة أخرى وقد احمرت وجنتيها تمامًا لتضحك بسمة:
- آآاي.. هارتيني... طب أنا بقى هقوله.
- هو مين ده؟!
قالتها وأرادت أن تسحب الواقي عن عينيها فمنعتها بسمة:
- لاا.. إنتِ لسه حاطه القطرة ماتشيليهوش ونامي بقى.
- إستني هنا.. مين ده اللي هتقوليله.
- اللي كل شوية يسأل ويطمن عليكِ.. ويكلمني عنك.
بللت شفتيها لتردد بتلعثم جديد:
- بـ... بسام بيسأل عليا.
شهقت بسمة بطريقة تمثيلية:
- بساااام... أنا جيبت سيرة بسام.. مين بقى قالك إنه بسام.
دفعتها بقوة حتى كادت تسقطها أرضًا:
- إمشي يا بوسي علشان أنام.
- كده برضو أومال فين متشكرة يا بوسي والكلام الكبير ده.
زفرت مها بضيق فضمتها بوسي إلى صدرها وهي تربت على ظهرها:
- خلاص ماتزعليش..ربنا يكتبلك السعادة يا مها لأنك تستاهليها.. وياارب يكتبهالك مع بسام لأنه هو كمان يستاهلك.
- بو.. بوسي إنتِ ... بتقولي إيه؟!
عادت تنظر إلى وجهها الذي اغتالته الحمرة الشديدة:
- بقول اللي أنا حاساه هو مهتم بيكي وإنتِ بتتلخمي مع سيرته يبقى خلاص واضحة.
وضعت مها كفها على صدرها مع تزايد نبضات قلبها بشكل جنوني مرددة:
- مهتم بيا.. هو مهتم بيا.
أمسكت بسمة بكفها:
- جدااااا... من هنا لبكرة.. يلا نامي بقى واضحكي واتفائلي وحبي كمان.. وإن شاء الله كله يكون زي ماإنتِ عايزة وأحسن.

أرادت النهوض فأمسكت بها مها لتضمها إليها بقوة لتضحك بسمة مازحة:
-آاااه... عايزة أتنفس.
فحررتها مها لكن هي من أعادت ضمها إليها مرة أخرى.
لتتركها تنال قسطًا من الراحة ونزلت هي إلى غرفتها وقبل أن تدخلها وصل لها صوته:
- يا عيني على اللي حب ولا طالشي.
إلتفتت ترمقه بعدم فهم :
- هو مين ده؟!
أشار إلى نفسه:
- أنا طبعًا هو في غيري.
ضحكت وهي ترمقه بصمت ليقترب منها:
- قلتهالك ٣ مرات وماردتيش.
ابتعلت ريقها وهي تتفادى النظر إلى عينيه المحدقة فيها بجرأة:
- جاهين!! أنا تعبانه من السفر وهدخل أنام.
إلتفتت لتدلف إلى غرفتها لكنه أمسك بيدها التي على مقبض الباب ليمنعها من فتحه فجذبت يدها بتوتر وإلتفتت له قائلة بغضب:
- إيه ده.. ماتمسكنيش كده تاني.
- ليه بقى إحنا مش اتخطبنا وهنتجوز.
كتفت ذراعيها أمام صدرها وكأنها تضعها كخط دفاع أمامه خاصة مع اقترابه الشديد منها:
- إتخطبنا آه؛... بس لسه ماتجوزناش يبقى مش من حقك تلمسني
مال ناحيتها أكثر:
- خلاص نتجوز.. أنا مش لسه هكون نفسي إنتِ اللي معطلانا.
اجتاحتها حرارة فجأة ليست من الخارج بل من الداخل شعرت وكأن جسدها يشتعل من داخله ولا تعلم السبب، أو ربما تعلم ولكنها لا تريد أن تعترف بأن له أي تأثير عليها.

"جاهين"
انتفضا معًا على صيحة وافي الذي كان في بداية الممر ينظر لهما بغضب لتختفي بسمة هربًا داخل غرفتها بينما زفر جاهين بضيق وهو يتجه إليه:
- إيه يا عم.. بتيجي في أوقات عجيبة.
توقف عن الاقتراب بعد أن لاحت له ملامح وافي الغاضبة جدًا فقال:
- في إيه؟!
- هو إيه اللي في إيه.. أنتَ مالك مقرب منها أوي كده.
- عادي يعني علشان الكلام مايقعش في السكة.
قالها ليضحك بسخرية فاندفع وافي نحوه ففر هو الآخر إلى غرفته وأغلق بابها على الفور:
- افتح يا جاهين.
- إهدي يا كبير مش كده حصل خير.
- طب اخلص افتح عايز أتكلم معاك.
- مافيناش من غدر.
- اخلص بقى.
فتح الباب وأسرع خلف مكتبه يمسك بعدة أقلام:
- هعورك.
ضحك وافي وهو يهز رأسه:
- والله ماعرفلك أنتَ كبير ولا صغير ولا إيه ظروفك بالظبط.
وضع الأقلام يعدل من ثيابه قائلًا باستعلاء:
- كبير غصب عنك.
- طب يا كبير أُقعد عايز أتكلم معاك.
جلس خلف مكتبه قائلًا:
- كلي آذاان صاغية.
فكان حديثه الذي لم يتوقعه جاهين ليدخل في نوبة ضحك مع آخر كلمات وافي الذي عقد حاجبيه من ردة فعله:

- هو إنتوا بتضحكوا على إيه هو أنا بقول نكتة.. تصدق أنا غلطان.
- أصبر بس.. والله أنا فرحان.. بقينا في الهوا سوا.
- هوا إيه يا عم أنت.
- يابني دا أنت واقع ومش حاسس.. صاحبك قديم وفاهم.
صمت وافي مفكرًا في كلماته، أحقًا هو وصل لتلك المرحلة وأصبح يحمل مشاعر لمها؟!
هز رأسه بنفي:
- مش معقول.. مش بالسرعة دي.
- امممممم... طب تقدر تقولي إيه اللي مضايقك من كلامها لو مش كده، وليه فرحت لما اتكلمت مع بسمه وفهمت إنها ممكن تكون معجبة بيك.. واضحة يا عم.
عاد وافي لصمته، لتنفرج شفتيه عن بسمة متقطعة.
لينهض جاهين ويضع يده على كتفه:
- بس مش ده اللي المفروض يشغلك.
نظر له بعدم فهم فأدرف:
- عمتي ممكن تطربق البيت على دماغنا لو عرفت اللي أنتَ بتفكر فيه دلوقتي.
وقف يرمقه بصمت ليكمل:
- عمتي لا يمكن هتقبل بمها دي مش عايزه تقبل بسمة اللي هي بنت أخوها هتقبل ببنت غريبة.
- ماما مش عايزه تقبل بسمة لأن بسمة نفسها مش قبلاها.
مط جاهين شفتيه ليقول:
- مش هجادلك فيها.. الإتنين فعلًا مش طايقين بعض وكل واحدة فيهم ليها أسبابها.. بس مين فيهم اللي ممكن يتصرف بالطريقة اللي تئذي الطرف التاني أعتقد عمتي هي اللي ممكن تئذي.
صاح وافي:
- أنتَ اتجننت يا جاهين.. ماما هتئذي بسمة أختي مش ممكن طبعا.

- يا سيدي مش قصدي أذى جسدي يعني.. بس ما أنتَ شوفت مع أول غلطة مشيتها من الشغل والله أعلم ممكن تمشيها من البيت هنا إمتى؟.
- ماتشغلش بالك أنا هتصرف وهعرف أقربهم لبعض.
"ماأظنش"
قالها جاهين ولم يُبدها له، ليقول:
- ماشي.. بس موضوع مها ده المستحيل بعينه.
- أنت خلاص عملته موضوع.
أحاط جاهين كتفيه قائلًا:
- لأني عارف وافي أخويا وصاحبي مالوش في اللف والدوران وأكيد هيدخل البيت من بابه.. وبابه هو الجواز.
رمقه لحظات وكأنه يستمع لكلمات لم تخطر على باله متمتمًا:
- الجواز؟!!
ابتسم جاهين قائلًا:
- أنا معاك وفضهرك أيًا كان اللي نفسك تعمله.. ماشي.

غادر غرفة جاهين عائدًا لغرفته، كلمات جاهين وضحت له أمور يبدو أنه لم ينتبه لها، بالفعل لو ما بداخله حقيقي وأنه يحمل مشاعر لتلك الفتاة فلا بديل عن الزواج بها.
عقد حاجبيه مرددًا:
- أنا أتجوز مها؟!!
لمَ شعر أنه أمر غير مستساغ أو غير منطقيًا، ولكن لمَ لا؟!
هل يحمل داخله تلك النزعة الأرستقراطية السخيفة؟!
هل يعتقد أنها غير مناسبة له نظرًا لخلفيتها البيئة؟! ولكنه أبدًا لم يشعر بهذا الإختلاف على العكس هي دائمًا خجولة هادئة رقيقة، تشبه نسمة ربيعية هادئة تلطف الأجواء من حوله.
هو من كان يسعى لرؤيتها والتقرب منها، وهي دومًا تخجل وتهرب.

هو من انجذب لها أولًا وأصبحت ردود أفعالها محط نظره على الدوام.
فما الذي يمنع أن يدعم كل تلك المشاعر الإيجابية بالعلاقة الوحيدة التي أحلها الله له وأقسم بينه وبين نفسه منذ بداية شبابه أنه لن يتقرب من فتاة قط إلا لهذا الغرض.
فلمَ لا تكون هي... مها.

....

أشرق صباح اليوم يحمل في بدايته نفحات باردة رُغم أن الصيف لم ينتهي بعد، جلست في شرفتها ولأول مرة يخالط تفكيرها شخص آخر، شخص غير معاذ، الذي طالما استيقظت ونامت تذكره.
والآن نجح جاهين أن يزاحم تلك الذكرى، فرض نفسه على عقلها بل ومشاعرها، لازال إحساس الأمس يُدوي داخلها، دقات قلبها السريعة الحرارة التي اجتاحتها،
وحتى الابتسامة التي ارتسمت على شفتيها حين أرسل لها رسالة قبل أن تغفو.
أمسكت الهاتف لتقرأها ثانية:
"سلامتك من الخضة.. أخوكِ بيجي في أوقات عجيبة لو كان اتأخر شوية بس.. أنا كنت خلاص قريب وكنت... مش هعمل حاجه ^^ بس كنت هقولك بحبك ووحشتيني"
لتعود البسمة تزين شفتيها ثانية، لتنزوي وعقلها يعود لنفس المقارنة الدائمة... جاهين يختلف عن معاذ كثيرًا، معاذ عاشت معه طفولته وصباه فرأته في كل مراحل حياته هو في الحقيقة لم يتغير كثيرًا كان دومًا متهورًا فيما يخصهما معًا مقتنع تمامًا أن لا شيء سيقف بينهما، لطالما اتهمته بالسذاجة وعدم استيعاب الأمور، ولا تعلم هل تغير بعد أن تركته؟.
بالطبع تغير قالتها لنفسها مرارًا، سيكرهها وسيكره كل ما يخصها وحتمًا سيتغير وكان أول ما فعل ارتباطه بأكثر فتاة كانت تسبب ضيقها.
لاحت منها إلتفاته إلى أحدهم وهو يستعد للجلوس على العشب فوجدته هو... جاهين.

الذي يستحق منها فرصة عادلة بحق وليس مجرد محاولة لإثارة غيظ سميحة أو الإنتقام منها، غادرت شرفتها لتنزل إلى الحديقة.
رأته يُطالع كتاب ما جالسًا ومستندًا على شجرةٍ كبيرة فاقتربت.
انتبهت لاسم الكتاب "رباعيات جاهين"
- أنتَ بتقراله علشان اسمك جاهين.
نظر لها وقد تبدلت ملامحه للسعادة في الحال:
- إيه الصباح الجميل ده... بوسي هانم شرفتنا يا مرحبا.. اتفضلي.. الأرض تساع من الحبايب ألف.
ضحكت وهي تجلس بجوراه:
- أنتَ متاكد إنك ماأتربتش في حارة زينا ألفاظك لطيفة أوي.
علم أنها تسخر فقال مازحًا:
- لا مايغركيش أنا ابن بلد ومدقدق.
- طب ماقولتليش.. أنت بتقرأ لجاهين ليه؟!
أغلق الكتاب وهو يمسح بكفه على غلافه:
- صلاح جاهين ده تقريبًا اتربيت مع أشعاره.. بابا كان بيحبه أوي وسماني جاهين على اسمه.. لدرجة إني كنت بحفظ أشعاره من كتر ما بابا كان بيقراهالي.
كانت تستمع له بحرص أعجبه فنظر لعينيها مباشرة ليقول:
- تحبي أسمعك حاجه.
برغم مفاجئتها من طلبه لكنها لم تمانع فأومأت برأسها، فإلتفت لها بجسده كله، ونظر لها نظرة مطولة أربكتها، وكأنه ينتظر هذا الأثر ليردد بصوت أقرب للهمس لولا أنها تسمعه:
أنا اللي بالأمر المحال اغتوى
شوفت القمر نطيت لفوق في الهوا
طلته ماطلتوش إيه أنا يهمني
وليه.. مادام بالنشوى قلبي ارتوى

عجبي!!
حمرة خديها كان الدليل الواضح أن محاولته قاربت النجاح، وليجني المزيد استمر صمته وتحديقه بها بينما هي لا تعي لما ظلت مكانها ترد له نظراته بارتباك برغم ذاك النداء الداخلي الآمر لها بالفرار.
- عجبك؟!
ربما لن يندم على شيء أكثر من تلك الكلمة التي أخرجتها من حالتها تلك، لتهب واقفة كمن انتبهت لأمر مفاجيء:
- أأأه... حلو.. أنا لازم أشوف ماما.. كمل قرايه بقى.
أنهت جملتها ولاذت بالفرار تاركة على وجهه ابتسامة انتصار، ليصدر تنهيدة من قلبه قبل شفتيه يعيد ترديد نفس الكلمات:
- طلته ماطلتوش إيه أنا يهمني وليه.. مادام بالنشوى قلبي ارتوى... الله عليك يا عم جاهين.
استلقى بجسده على خضرة الحديقة الرطبة غير مبالٍ، وابتسامته في اتساع وهو يرسم لملامحها المرتبكة صورة تلو أخرى ويَعدها بمنحها المزيد، فلقد تأكد والأمر أصبح واضح، قلبه يدق لها بل يهفو لرؤيتها حتى لو كان أمر صعب التصديق.
ليضحك قائلًا:
- وعجبي!!
بسمة أصبحت حبيبته.

....

طرق وافي على باب غرفتها لتأذن له بالدخول واستقبلته كعادتها بحبور:
- حبيبي تعال... معلش رجعت متأخر وماشوفتكش إمبارح.. حمدلله عالسلامة.
نهضت تضمه إلى صدرها، ليضمها بدوره قائلًا:
- الله يسلمك... وحشتيني يا ماما.
- أنتَ أكتر يا حبيب ماما.
جلس والتردد سمته فنظرت له لبرهة قائلة:

- خيير.. قول ياله شكلك عايز تقول حاجه ومتردد.
ابتسم لها فهي دومًا تعرف كيف تقرأ تعابير وجهه:
- إيه رأيك لو نخرج أنا وإنتِ وبسمة ونقعد بره مع بعض.. أنا عايزكم تتصالحوا مش عايزكم تفضلوا كده.
قاومت وبشدة أن تنظر له بغضب وضيق ونهضت لتوليه ظهرها كي لا يقرأ هو ما نُقش على ملامحها من رفض، فنهض يقف خلفها:
- ماما علشان خاطري.. بسمة دي أختي وإنتِ أمي ويهمني إنكم تتوافقوا، العلاقة المتوترة اللي بينكم مش عجباني.
- أختك اللي بدأت يا وافي... ولعلمك عمرها ما هتصفالي وأنت أكيد جيتلي أنا الأول روح بقى ليها وقولها الكلمتين دول هترفض ومش بعيد تغلط فيا.
- يعني لو بسمة قبلت هتقبلي.
إلتفتت لتقول بغضب لم تستطع كتمه:
- والله عال.. هستنى أنا إذن الهانم.
- طب أعمل إيه؟!.. هو لا كده ولا كده.
زفرت بضيق لتعود جالسة:
- وافي.. سيب الموضوع ده للزمن يا حبيبي بلاش تضغط عليا فيه دلوقتي.
صمت لحظات وعاد له تردده وتوتره فقالت:
- إيه كلامي مش عاجبك؟!
- لا أبدًا يا ماما بس..
- في إيه يا وافي؟!
قرر أن يتغلب على تردده:
- بعيدًا عن موضوع بسمة فاكرة لما قلتلك إني مهتم بمها.. أنا متأكد دلوقتي إن الموضوع أكبر من كده بس مش هعمل حاجه إلا بموافقتك وقبل ما الموضوع يكبر في عقلي عايز أعرف إنتِ ممكن تقبلي ولا لأ؟!
ضاقت عيناها لتقول ببطء:
- أقبل إيه بالظبط؟!

- يعني لو قلتلك أني.. بفكر.. هي مجرد فكرة.. أني أرتبط بمها هتـ...
قطع حروف كلماتها مع هبتها الصارخة:
- إيـــه... تـرتبط بمين.. أنت اتجننت.
- ماما إهدي لو سمحتي.
- أهدى إيـــه.. ماسمعش كلمة تانيه في الموضوع ده.
- طب اسمعيني.
- مش هسمع.. أسمع أنتَ.. أنا حرمت نفسي من كل حاجه علشانك حتى الجواز رميته ورا ضهري، أنتَ كنت كل حاجه ليا .. أوعى يا وافي تدوس عليا زي ما أبوك عمل.. أوعى.
أطرق رأسه للحظة:
- أنا مش هعمل حاجه من غير موافقتك.
- وأنا لا يمكن أوافق.. انسى.
أوما لها بتفهم حزين، ليستدير مغادرًا غرفتها بينما هي تتلظى في نار غضبها. حدث أسوأ كوابيسها على الإطلاق وهذه المرة ليست بسمة وجاهين بل وافي.. الطفل الذي تصورته التعويض المناسب لخسارتها لأبيه، فهل يعيد الزمن نفسه.
هزت رأسها بعنف:
- لأ.. لأ.
رددتها بعنادٍ لن تسمح لفاطمة أن تفوز بهم جميعًا وينتهي الأمر بها وحيدة كما فعل أخيها الأصغر وهرع خلف تلك الخادمة متناسيًا حقها فيه وكل ما كانت تفعله لأجله، ستجبر فاطمة وفتياتها على الابتعاد إلى الأبد مهما كان الثمن.

....

ومر يوم آخر.
انهمك جاهين ووافي ومعهما محمد- الذي نال المزيد من ثقتهما – في العمل وتنسيق بعض الحسابات الخاصة بإحدى المشاريع الهندسية.
ليقول وافي:
- أنا تعبت.. ماتيجي ننزل ناكل.

رفع محمد يده:
- موااااافق.
- إيه يا عم أنتَ ماصدقت.
قالها جاهين ليضحك محمد:
- بصراحة أنا جوعت.
وقف جاهين ليقول:
- مش هننزل هنطلب الأكل هنا إحنا لسه ماخلصناش.
تمت محمد بضيق:
- حُكم القوي.
ليضحك وافي الذي سمعه بينما قال جاهين:
- أنتَ بتقول إيه؟!
- بقول أنتَ اللي فينا.
ليزيد ضحك وافي بينما يرمقه جاهين بشك.
تعالى رنين هاتف جاهين وكان قريب من محمد الذي أمسكه ولاح له الإسم "نانا"
عقد حاجبيه ونظر لجاهين قائلًا بنبرة بدت غريبة:
- دي نانا.
أمسك الهاتف:
- نانا خير؟!.
فتح الهاتف فوصل له صياحها المفزع حتى أن وافي ومحمد نهضا عن كرسيهما فصوتها كان عاليًا ليقول جاهين بتوتر:
- إيه في إيه؟!!
استمع لها لتتسع عينيه بفزع:
- مستحيل... إنتِ بتقولي إيه... إزاي؟!
قال وافي بقلق بالغ:
- في إيه يا جاهين؟.

حدق بهما بغير تصديق:

- مصيبة..مصيبة.

أمسك محمد بذراعه وقد سقط قلبه بين قدميه:

- مصيبة إيه؟... نانا مالها.

سارة سيف الدين

الفصل الخامس والثلاثون

جالك أوان ووقفت موقف وجود
يا تجود بده يا قلبي يا بده تجود
ماحد يقدر يبقى على كل شيء
مع إن كل شيء موجود
عجبي!!
رباعيات جاهين

سارة بيومي الليثي

أنهت بسمة ونانا تسوقهما في أحد المراكز التجارية الشهيرة، لتخرجا إلى الطريق السريع حيث يقع هذا المركز في طريق سفر.

لملمت نانا حاجياتها لتزفر معترضة:

- في إيه لو يجيبولنا سواق ويبقى قدام البيت على طول ويودينا ويجيبنا بدل مرمطة المواصلات دي.

ضحكت بسمة:

- الله يرحم... مرمطةْ إيه؟ ما إحنا رايحين بتاكس وجايين بتاكس.. ولا نسيتي أيام الكوع بتاع الميكروباص علشان تلحقي كرسي.

- أعوذ بالله... ربنا ما يعِدها أياام.

وقفتا في انتظار مرور أي عربةْ أجرة، خاصة أن الوقت يقارب ساعة الذروة وبالتالي ستنشغل عربات الأجرة بالعمل داخل المدن.

- أهو شوفتي.. حتى التكاسي مفيش.. يابنتي قوليلهم إنك عايزة عربية بسواق أو خلي حد يعلمك السواقة خلينا نخلص.

- ماشي يا نانا ربنا يسهل.. أسكتي بقى.

طالعت الطريق معها فلاحت لهما حافلة ركاب صغيرة وبدت فارغة من الركاب لتقول نانا:

- مانوقف الميكروباص ده ونتفق معاه يودينا.

- لأ طبعًا.

قالتها بسمة بحزم لترد نانا:

- طب يا أختي خلينا ملطوعين كده.

أدارت رأسها لتجد أن الحافلة الصغيرة وقفت أمامهما وقبل أن تعي ما يحدث فُتح بابها العريض واندفع منها إثنان مُلثمان ليمسكا ببسمة من تلابيبها ويجذباها بقوة للداخل.

فانطلقت صراخاتهما في الحال ونانا تتعلق ببسمة لتمنعهما من وضعها في السيارة وكذلك بسمة التي ألقت ما في يدها وهي تدفع أقربهما إليها بكفيها بفزع هائل.

- يا لهووووووي... الحقونا يا ناس... سيبها يا ابن الـ.....

تلقت نانا إثر هذا الصراخ ركلة في بطنها، تحشرج لها صوتها وهي تسقط أرضًا لينجحا في دفع بسمة داخل الحافلة والانطلاق بها في الحال بعد أن ظهر بعض الناس لاستطلاع الأمر.

نظرت نانا للسيارةِ الهاربة والتي تحمل صديقتها بعينين متسعتيين لتصرخ:

- بوووووسييييييي!

فاقترب منها أحدهم:

- في إيه يا آنسة؟.

نظرت له صارخة:

- إنتوا فيييين هو إحنا في صحرا.. خطفوا أختيييييييييي.

كانت لا تزال جالسة أرضًا، أخرجت هاتفها وهي تبكي وتولول، فاتصلت بأول اسم ظهر لها "جاهين" وما إن أجابها حتى صاحت:

- الحقنيييييي....

سألها ما بها فقالت:

- بسمة اتخطفت.
- مستحيل... إنتِ بتقولي إيه؟.. إزاي؟!
- بقولك بسمة اتخطفت خدوها في عربية وجروا دلوقتي من قداااامي... بوسي اتخطفت يا جاهين.
فحدق جاهين بمُحمد ووافي بغير تصديق:
- مصيبة..مصيبة.
أمسك محمد بذراعه وقد سقط قلبه بين قدميه:
- مصيبة إيه؟... نانا مالها؟.
لازال الهاتف في يده وهو يقول:
- بتقول بسمة اتخطفت.
انتفض كلاهما وصرخ وافي:
- إيه!!.. اتخطفت.
جذب محمد الهاتف من كف جاهين:
- نانا.. إنتِ فين؟!
لم تحتاج وقت لتدرك محدثها فزاد نحيبها:
- محمد.. خطفوا بوسي يا محمد الحقني.
- إنتِ فيين؟!
قالها بعصبية بالغة.
- أنا على طريق مصر إسكندرية الصحراوي قدام المول.. أنا خايفة أوي.
تألم قلبه لبكائها:
- إحنا جايين حالًا.. ماتقفيش لوحدك أدخلي جوه.. إحنا جايين على طول.
أعاد الهاتف لجاهين صارخًا:
- يالا يا جماعة واقفين كده ليه.
وكأنهما احتاجا لهذا الأمر لينطلق ثُلاثتهم يهرولون خارجًا تتابعهم نظرات الموظفين المندهشة.

قفزوا إلى سيارةِ جاهين الذي جلس خلف مقودها وانطلق في الحال إلى وجهته بعد أن أخبره محمد بها، بينما قال وافي لجاهين:
- هي قالتلك إيه بالظبط؟!
أجابه بوجه ممتقع:
- بتقول عربية خدت بسمة وجريت.
هز وافي رأسه بعدم تصديق:
- مش ممكن.. يا رب أُستر يا رب.
بدى وكأن الطريق استغرق دهرًا رُغم أن جاهين تعدى السرعة المقررة أكثر من مرة.
ليصلوا إلى المركز التجاري، مترجلين من السيارة واتصل محمد بنانا ليعرف مكانها بالضبط، فعلموا أنها لا زالت على الطريق وحولها جمع من الناس.
أسرعوا إليها، كانت تفترش الأرض وفي حالة يرثى لها.
وصل لها محمد أولًا ليجثو على ركبتيه:
- نانا.
نظرت له بوجهٍ باكٍ مُلطخ بالتراب فأمسكت بقميصه:
- خطفوا بوسي يا محمد.. والله مسكت فيها جامد علشان يسيبوها ضربوني في بطني.
- إنتِ كويسة طيب؟!
بدى أنها لم تسمع كلماته لتعيد نفس ما قالت بصوت أقل علوًا ليقول جاهين:
- شكلهم إيه دول، والعربية شكلها إيه يا نانا؟!
نظرت إليه بعينين زائغتين:
- كانوا مغطيين وشهم.. والميكروباص أبيض ومكنش عليه أرقام.. أنا بصيت عليه كويس... جروا من هنا.. الحقوها أبوس إيديكم.
فقال واحد من الجمع:
- يلحقوا مين زمانهم طاروا!!
فقال آخر:

- روحوا القسم بلغوا بسرعة...
ليتطوع ثالث:
- وهو البوليس هيعملهم إيه... دلوقتي مش بيهتموا بحد.
فقال رابع:
- روحوا وأقعدوا جنب التليفون أكيد هيطلبوا فدية ماهي بقت الموضة في أيامنا دي.
تعلق بصر وافي بالطريق الذي أشارت إليه نانا واختفت عبره أخته، بينما ضاقت عيني جاهين مفكرًا ليقول:
- محمد خُد تاكس وروح نانا أنا ووافي هنعمل بلاغ في القسم وهنرجع البيت ونشوف كده حد هيتصل فعلا ولا لأ؟!!.. يالا.
- حاضر.
قالها محمد وهو يساعد نانا على الوقوف فتطوع أحد الواقفين بإيصالهما ليشكره محمد بلطفٍ بينما عاد جاهين ووافي للسيارة ليذهبا إلى قسم الشرطة.
غلفهما الصمت للحظات قبل أن يقول وافي بحروف مُرتعبة:
- جاهين... بسمة.. هترجع مش كده!!
أومأ جاهين برأسه مطمئنًا بينما قلبه ينتفض رعبًا:
- إن شاء الله يا وافي.. أيًا كان اللي هيطلبوه هندفعه المهم ترجع لنا بالسلامة.
- وافرض مطلبوش حاجه.
ابتلع جاهين غصة في حلقه فهذا الاحتمال يكاد يقتله كمدًا ليردف وافي:
- افرض كانوا من بتوع تجارة الأعضاء وموتوها وخدوا....
- وافي
قاطعة جاهين بأنفاس متقطعة:
- بلاش الكلام ده.. إشمعنى هي يعني؟.. لو كانوا بتوع تجارة أعضاء كانوا خدوا الإتنين مش واحدة.
- وهما يعني عرفوا منين إن بسمة اللي غنية ومعاها فلوس ما يمكن نانا هي اللي غنية إشمعنى خدوا أختي.

- وافي أبوس إيديك أنا مش متحمل.. خلينا نتفائل خير وندعي ربنا يسترها.
وصلا إلى قسم الشرطة وقدما البلاغ وطلبوا منهما بالفعل العودة للمنزل لترقب أي اتصال من المختطفين.

....

برغم ذلك الضباب الذي يشوش رؤيتها، والنظر عبر نظارات شمسية لكنها شعرت وكأنها تملك العالم.
يكفي أنها ترى!!
من يسمعها سينظر لها باستغرابٍ، ليقول كلنا نرى!!
وهذا عيب صاحب كل نعمة، يألفها، يعتاد عليها، فيتصور أنها ملكية خاصة له، لا يمكن أن يخسرها بأي حال من الأحوال.
دارت برأسها تنظر بحب لذلك الوجه الطيب الذي صاحبها دومًا، لا تختلف كثيرًا عن الصورة التي احتفظت بها في عقلها.
فاطمة تلك المرأة الجميلة رغم سنها الكبير، كيف لا وهي كانت من أجمل نساء الحارة ومع ذلك رفضت أن تتزوج مرةً أخرى وأصرت على أن تعمل وتكد لتربي ابنتها بل وبنتيّ جارتها التي تحملت مسؤليتهما رغم فقرها.
بادلتها فاطمة النظر بابتسامتها البشوشة:
- عينك لسه بتوجعك.
- بسيط خالص.. أحسن من الأول.
- طب خدي بالك بوسي أكدت علينا كتير لو حسيتي بأي حاجه غريبة لازم تقولي على طول.
- حاضر يا أبلة بطة.
- ربنا يتم شفاكِ على خير يا حبيبتي.
- آمين يااا رب.
تبادلا الابتسام لينتبها إلى من يعبر الباب الخارجي للمنزل ويدخل للحديقة، فشهقت فاطمة حين انتبهت لنانا التي تجر قدميها جرًا ومحمد يدعمها كي لا

تسقط، هبت لتُسرع نحوهما وتبعتها مها التي استطاعت أن تستشعر أن هناك خطب جلل.
- في إيه يا نانا؟!.. مالها يا محمد.. وبوسي فين؟!
ما إن نطقت اسم بسمة حتى عادت نانا للنحيب أما محمد فنظر لفاطمة وعينيه تحمل همًا كبيرًا، فعادت لتسأل:
- إيه يا بنتي اللي بهدلك كده؟.. حد يرد عليا.
- حاضر يا أبلة بطة هقولك بس تعالوا ندخل.. نانا مش قادرة تقف.
أسرعت مها تساعد أختها مع محمد وفاطمة تتبعهم وإن إلتفتت أكثر من مرة بحثًا عن ابنتها التي لم تظهر بعد فأعادت السؤال بقلق:
- هي بوسي مش كانت معاكِ.
لم يستطع أحد إجابتها ليدلف محمد مع نانا ومها للداخل لتتبعهم فاطمة.
أراح محمد نانا على الأريكة وعقله يحاول العثور على الكلمات المناسبة لهذا الموقف المروع.
لتجلس فاطمة بجوار نانا تربت على كتفها:
- مالك يا بنتي.. هي بوسي سابتك ولا راحت فين؟!
دفنت نانا وجهها بين كفيها لتجهش بالبكاء، ليتها تشبثت بها أكثر، ليتها لم تسقط بعد تلقي الضربة.. ليتها.. ليتها..!!
كررتها كثيرًا بلا طائل، فشلت في انقاذ بسمة وانتهى الأمر.
رفعت فاطمة رأسها لمحمد:
- هو في إيه يا ابني.. وبنتي فين حرام عليكوا أنا قلبي مش مستحمل.
ليصدق حدسها مع تهرب محمد من النظر لعينيها وهو يتلفت يمنة ويسرة ليقول بتلعثم:
- إن شاء الله خير.. هيبقى خير.
مدت يدها تمسك بذراعه:
- هو إيه يا ابني ده اللي خير؟!
- أصل.. أصل.

صاحت بفزع:
- بنتي جرالها حاجه.. اتكلم يا ابني.
- لا إن شاء الله تكون بخير.. يا رب تكون بخير... بس في .. في ناس خطفوها.
شهقت مها بفزع لتحدق فاطمة بوجهه بعينين متسعتين وكأنها تستوعب ما قاله للتو.
ابنتها اختطفت!!
لتردد:
- خطفوها.. خطفوا بنتي.. بنتي أنا اتخطفت.
صرخت وهي تلطم خديها بقوة ليمسك محمد بذراعيها ليمنعها:
- اهدي يا ابلة بطة بالله عليكِ... إدعي ربنا ترجع بالسلامة.
لم تسمع كلماته فلقد كانت بعالم مختلف، عالم مظلم أحاط بها فجأة حين أدرك عقلها أن ابنتها الوحيدة اختفت من حولها.
ليهزها محمد بعنف ويخرجها من هذيانها الصارخ، لتحدق به وقد صمتت فجأة لتضمها مها إلى صدرها وهي تبكي، متوسلة لها أن تهدأ.
لتشاركها النحيب بعد لحظات وهي تردد:
- بنتي... بنتي.
لم يمر الكثير من الوقت ليصل جاهين ووافي ليسأل الأول:
- حد اتصل؟!
أجابه محمد بلا.
أما وافي فوقع بصره على فاطمة المنتحبة لتقبض أصابع باردة على قلبه وتعتصره، وما إن انتبهت فاطمة له حتى رفعت كلتا ذراعيها إليه:
- أختك راحت... أختك راحت يا بساااام.
زاد بكاءها وكذلك بكاء الفتاتان ليقترب وافي منها ويمسك كفها:
- ماتقوليش كده.. هترجع إن شاء الله.

- هو اللي بيتاخد في أيامنا دي بيرجع.. آآه يا بنتي..يارب... يارب مش هستحمل... رجعهالي يا رب.
اقترب منها أكثر ليربت على كتفها فتعلقت بقميصه لتدفن وجهها بجسده وهي لازالت تبتهل لله.
ما إن عاد لها ولدها حتى فقدت ابنتها.
جاهين فقط تابع بصمت، صمت يُخفي أعاصير داخله، كل دقيقة تمر بل كل ثانية تنقله من هاجس سيء لهاجس أسوأ، وقلبه يرتجف خوفًا على محبوبة لم تعرف بعد قدر حبه لها.
تمتم بلسان العاجز:
- يارب.. يارب.
....
أن تصل إلى ذروة الخوف، ليست بتجربة يتعرض لها الجميع، بل هناك من يحيى حياته كلها دون أن يصل لتلك المرحلة.
وهي تعايشها الآن بتفاصيلها، قاومت.. دافعت.. خدشت.. أساءت.. سبت... صرخت.
فعلت كل ما يمكنها حتى أنهكها التعب، وهذا الجبل يجثم على جسدها بكلتا ذراعيه فحسب، لكن ضخامة جسده لم تسمح لها بالكثير من المقاومة فاستطاع تثبيتها في مكانها بسهولة.
ظلت تنظر له برعب هائل وهو يبادلها النظرات بسخرية، وهذا كل ما تمكنت من رؤيته حيث قد أحكموا اللثام على وجوههم، كل ما أدركته أنهم ثلاثة، أحدهم السائق.
ليأتيها صوت آخر:
- خف إيديك لا تموت مننا.
- ماتقلقش يا ريس.
أخيرًا استجمعت بعض شجاعتها لتقول بحروف متقطعة يغلفها الخوف:
- إنتوا ... عا..عايزين.. إ.. إيه؟!

رمقها الرجل بمزيدٍ من السخرية ولم يمنحها رد فأضافت:
- عا... عايزين فلوس... صح؟... طيب هديكوا.. اللي عايزنه.. بس سيبوني.
قالت الكلمة الأخيرة برجاءٍ باكي.
أزال الرجل قناع السخرية عن عينيه وقرر أن يتفحصها بوقاحة جعلتها تنتفض أكثر وأكثر.
ليقرر أن يميل نحوها فجأة لتدخل في نوبة صراخ جديدة قابلها هو بالضحك بصوت أجش وكأنه يمرح فحسب، ليقول أحدهم وبدى صوته مختلف عن الأول.
- ماتتهدي بقى أنا صدعت.
لكنها لم تبالي لتستمر في الصراخ ليظهر لها ملثم آخر يحمل قارورة زجاجية صغيرة، بخ منها على وجهها، ومع الثقل الذي شعرت به برأسها، تأكدت أنه مخدر.
فتمتمت بآخر ما أمكنها قوله في تلك اللحظات:
- أُسترني يا رب.
وأظلمت الدنيا حولها.

....
مرت ساعة كاملة.
ربما هي الأطول في حياتهم جميعًا.
كل واحد منهم يطالع هاتفه كل دقيقة وكأن الاتصال سيكون من عنده.
ليقول جاهين:
- هو تليفون بسمة فين؟!
انتبه الجميع للأمر ليتبادلا النظرات التي توقفت كلها عند نانا التي قالت:
- معاها... ماهي خدوها بشنطتها.. كانت لبساها كروس.
أمسك جاهين هاتفه ليتصل بها، وبرغم أن الأمل يكاد يكون ضعيفًا لكن الكل تعلق بصره وسمعه بهاتفه الذي فعّل سماعته الخارجية.
لتصدم آذانهم العبارة الآلية التقليدية:

"الهاتف المطلوب مغلق أو غير متاح..."
ليزفر جاهين بحرارة بينما فاطمة تعاود البكاء وهي متعلقه بقميص وافي الذي جلس جوارها، لم تفلته من يدها منذ اقترب منها وكأنها تريد أن تتأكد أنها لن تفقده هو الآخر.
رفع الجميع رؤوسهم لسميحة التي انضمت لهم لترمقهم بدهشة، وتمنت لو تتجاهلهم لكن وجود وافي أجبرها على السؤال:
- مالكم؟!.. قعدين كده ليه؟!
استشعر وافي قبضة فاطمة التي اشتدت أكثر على قميصه لينظر لها قبل أن يعاود النظر لسميحة قائلًا:
- إحنا في مصيبة يا ماما.
تغضن وجه فاطمة وهي تسمعه يناديها بهذه البساطة بلقبها الذي يحرمها منه إلى الآن ولم تسمعه منه إلا مرات تُعد على أصابع اليد الواحدة.
ولم يخفَ على سميحة قبضة فاطمة المتعلقة بملابس وافي لترمقها بغيظ وهي تقول:
- مصيبة إيه؟!!
أراد وافي الوقوف لكن فاطمة تعلقت به بقوة فتراجع عن الأمر:
- بسمة أختي اتخطفت.
صاحت سميحة:
- إيـــــه... اتخطفت... يعني إيه اتخطفت؟!
قال جاهين:
- كانت في المول اللي في طريق مصر إسكندرية وناس خدوها في عربية بالعافية ونانا كانت معاها وهي اللي قالتلنا.
شهقت بغير تصديق لتقول:
- بلغتوا البوليس.
- أيوة.. وقالولنا نستنى يمكن يطلبوا فدية.
- فدية!!

ضاق بصرها وكأنها تفكر في الأمر فقال جاهين بحزم:
- أيوة.. وأيًا كان اللي هيطلبوه هندفعه.
- أومال بلغتوا البوليس ليه بقى!!
- أنا مش هغامر بعمر بسمة.. البوليس الأيام دي بطل يعمل حاجه.
رمقته للحظات قائلة:
- معاك حق.. إن شاء الله ترجع بالسلامة... أنا هدخل المكتب أحاول أتصل بناس ممكن يساعدونا.
دار بصرها بينهم للحظة لتوليهم ظهرها متجهة إلى غرفة مكتبها.

"إنتِ اللي خطفتي بنتي يا سميحة!!"
تصلب جسدها في مكانه قبل أن تلتفت لتحدق بفاطمة بذهول مرددة:
- إنتِ بتقولي إيه؟!!
وكان الذهول من نصيب الجميع الذين رمقوا فاطمة بدهشة أعقبها شفقة، هي مكلومة وربما لا تعي ما تقول، الوحيد الذي نظر لها باهتمام كان جاهين، وقد ردد عقله جملة قالتها بسمة يومًا. " تفتكر ممكن تقتلني!! "
قال وافي ليُهديء سميحة:
- أعذريها هي مش فِ وعيها.
صاحت فاطمة مما أجبره على الوقوف والتحديق بها:
- لأ فِ وعيّ... أنا أخيرًا بقيت فِ وعيّ.
وقفت هي الأخرى وهي تصيح لاطمة خدها:
- أنا سمعت كل كلامك... حطيت جذمة في بوءي وسكت، حرمتيني من ابني سنين وكرهتيه فيا وسكت... حتى لما رجعتله فضلتي حرماني منه وبرضو سكت.. وبعد كل ده.. بعد كل الذل اللي عيشته.. بتئذيني في بنتي علشان مارضيتش أمشي من هنا.
هذه المرة انتقلت الدهشة بكاملها لوافي الذي اتسعت عينيه وهو ينقل بصره بينها وبين سميحة التي تغير وجهها كثيرًا لتصيح:

- بتقولي إيه يا مجنونة إنتِ ؟!.
كان قلبها ينتفض بقوة، فآخر ما تصورته أن تنهار فاطمة لتخرج كل أسرار الماضي الآن.
- رجعيلي بنتاااااااااااااااااااي.
صرخت بها وهي تضرب صدرها بهيستريا.
لوحت سميحة بكفها وهي تتراجع خطوات:
- دي اتجننت.. دي أكيد اتجننت.
فرت من أمامها وصراخها المستمر لتدخل إلى غرفتها، وتغلق الباب بعنف لتقف خلفه تضع كفها على صدرها تهديء من روع قلبها.
لن يُصدق.. حتمًا لن يُصدق إنها تهذي... تهذي.
ليس من الجيد مواجهتها الآن، ستصمت وحدها حتمًا... هكذا تمنت!!

وفي الخارج مها ومحمد يحاولان تهدئة فاطمة، بينما تجمد وافي مكانه يرمقها بغير تصديق، لكنها إلتفتت إليه لتمسك بقميصه:
- خليها ترجعلي بنتي.. أنا قلبي مش هيكدب عليه.
هز رأسه بذهول:
- إيه اللي بتقوليه ده... كفاية بقى.. إنتِ فعلا مش فِ وعيك.
هزت هي رأسها بعناد:
- اسمعني بقى لأني سكت كتيــر.. أنا ماسبتكش والله ماسيبتك.. خدتك مني غصب، هي بتكرهني ودايما شايفة إني سرقت منها أخوها اللي كانت بتعتبره ابنها ولما مات حبت تنتقم مني جاتلي وأنتَ عمرك أسبوع ولأنك كنت أضعف من أختك كنت بسيبها هي ترضع عند جارة ليا وأنتَ مكنتش بتفارقني.. شدتك من إيدي وأنا لسه والده وجرح بطني تاعبني حاولت أخدك منها زقتني وقعتني ماقدرتش أتحرك تاني رمِتلي قرشين وقالتلي زي ما حرمتيني من وافي هحرمك منه... والله يا ابني أنا كنت بموت كل يوم ميت مرة ومكنش مصبرني

غير بسمة اللي خُفت عليها من سميحة وجبروتها.. ولما جيت هنا هدتني بناتي.. يأمشي من هنا يا هتئذيهم.
أشارت لمها بأصابع مرتعشة وهي تخرج كل ما في جُعبتها مرة واحدة، وكأنها تخشى العودة والاستسلام لخوفها:
- حتى مها اللي كانت عامية هددتني بيها.. خوفت.. أيوة أمك جبانة.. جبانة لأنها بتحب ولادها وبتخاف عليهم أوي... قولها ترجعلي بنتي.. خلوها ترجعلي بنتاااااي.
كانت كلماتها تسقط كمطارق صلدة على رأسه، يحدق فيها بصمت ووجهه يحمل ملامح من الألم والدهشة والكثير من الصدمة.
أمسك يدها ليبعدها عنه مرددًا:
- مش ممكن... إنتِ كدابة.
"لأ مش كدابة"
قالها جاهين بثقة ليلتفت له وافي بمزيد من الصدمة فأردف:
- أيوة عمتي سميحة عمرها ما اتقبلتهم... وقالتلي ده لوحدي من غير ما تسمعهولك.. كانت عايزاني أديهم فلوس وأخرجهم من البيت والشركة... رفضِت جوازي من بسمة واعتبرتني بتحداها.. حتى قالتها في وشي وف وش بسمة.. أنت الوحيد اللي ماشوفتش الوش التاني لسميحة الشربيني.
وضع كفيه على أذنيه صائحًا:
- بااااس.. أسكتوا... إنتوا كدابين.. كلكم كدابين.
هرول خارجًا إلى الحديقة وأنفاسه تسارع بعضها، يشعر كمن كان يعيش في فقاعة من الأكاذيب انفجرت للتو فأصمت أذنيه وأدمعت عينيه.
أرادت فاطمة اللحاق به فأوقفها جاهين:
- سيبيه دلوقتي... هو محتاج يستوعب كل اللي سمعه.... بس يا أبلة بطة عمتي ممكن تمشيكم تطردكم لكن تسلط ناس يخطفوا بسمة ده اللي مش ممكن.
طالت نظراتها إليه، كيف تخبره أن قلبها هو الذي يحدثها بذلك، لا أحد سيعي ما ستقول.

فتصاعدت آلام قلبها بشكل مفاجيء لتمسك بكتفها الأيسر بتألم واضح فقال جاهين:
- مالك يا أبلة بطة؟!
- دوايا.. هاتولي دوايا.
أحاطها جاهين بذراعيه مناديًا:
- محمد ساعدني نطلعها فوق.
بينما رددت هي:
- بنتي.. رجعولي بنتي.
- حاضر يا أبلة بطة.. بسمة هترجع إن شاء الله.
تحركت مع محمد وجاهين ليصعدا بها الدرج، أرادت مها تتبعهم لكن قلبها أخذها لمكانٍ آخر، اقتربت من مدخل الحديقة تراقبه دون أن ينتبه لها، مطأطيء الرأس كمن يحمل هم السنين.
ليتمنى قلبها لو بإمكانه مواساته كما يجب، أن تربت عليه أو تمسح على رأسه وتخبره أنها هنا لأجله.
أخذتها خُطواتها لتقف أمامه فظل هو على حاله ولم يرفع رأسه إليها قالت بنبرة هادئة حملت حزنًا:
- ماتزعلش نفسك.. إن..
- سِبيني لوحدي.
صاح بها لتنتفض مكانها وهي تعود خطوات للخلف، لم تتوقع هجومًا منه، شعرت بالكثير من الخجل والإحراج، هل تمنح نفسها حق ليس لها؟!
قالت بصوت تهدج:
- أنا آسفة.. ربنا يهون عليك.
أنهت جملتها وعادت مسرعة للداخل، رفع بصره يتتبعها، لتتقطع أنفاسه مقاومًا رغبة عارمة في البكاء.
أكان يعيش وهمًا طول تلك المدة؟!

أحقًا أمه التي ربته وكانت مثله الأعلى في كل شيء، لها هذا الجانب شديد الظلمة.
حرمته من أمه وأخته طوال تلك السنوات بدافع الانتقام فحسب!!، أحُبها له مرضيًا لا أكثر؟!
هب من مكانه ليعود إلى غرفتها مر أمام نانا ومحمد وجاهين الذين بقوا في الردهة بينما صعدت مها لتبقى مع فاطمة.
تتبعته نظراتهم ولم يحاول أحد مخاطبته.
فتح باب غرفتها ليدخل إليها دون استئذان، وجدها تجلس على طرف فراشها لتنظر له بصمت مُقلق، أغلق الباب خلفه ليقترب منها، يتأمل ملامح وجهها التي اعتادها وكانت الأحب إليه على الدوام.
- اللي سمعته محتاج كلام كتير بس مش وقته.. إنتِ بجد ليكِ علاقة بخطف بسمة؟!!
- لأ طبعا.. أنتَ إزاي تفكر كده؟!
- أومال أفكر إزاي؟!... كل حاجه عِشتها معاكِ كانت كذب في كذب.. إيه اللي يجبرني أصدقك.
- أنا اللي ربيتك يا وافي.
- قلتلك مش هتكلم عن ده دلوقتي.. أنا عايز أعرف أختي فين؟!
- ماأعرفش.. بقى ااا ممكن أفكر أأذي بنت أخويا؟.
ضحكة هازئة خرجت من شفتيه فأصابتها في مقتل، هي فقدته بالفعل؟.. وعليها انقاذ ما يمكن انقاذه.
- طيب أنا هكلم ناس ممكن يساعدونا علشان تصدق.. أنا مايهمنيش حد غيرك في الدنيا دي.. صدقني.
- بالظبط.. وعلشان كده مايهمكيش تئذي كل اللي حواليا لمجرد إني أفضل معاكِ وبس.. تكرهيني في أمي اللي حرمتيني منها، تقنعيني أن أُختي مش همها غير الفلوس.. كل ده علشان أفضل أسيرك إنتِ وبس.
- كدابه متصدقهااش.

- كفاااية بقى حرام عليكوا أنا بني آدم.. مش لعبة بتطوحوها لبعض.
إلتفت ليغادر غرفتها فأوقفته برجاء:
- وافي.. حبيبي اسمعني.
إلتفت يرمقها بغضب هادر:
- وافي ده اسم والدي.. أنا اسمي بسام.
خرج من غرفتها صافعًا بابها بعنف، يلهث أمامه لحظات قبل أن يرفع بصره لأعلى ويتجه إليها هي الأخرى أوقفه جاهين:
- وافي اهدى.
دفعه بعيدًا عنه وهو يكمل طريقه إلى الطابق العلوي.
ليقول محمد:
- إنتوا ركزتوا في حاجه تانيه.. المفروض نكون بندور على بسمة.
- وهندور عليها فين؟!
قالها جاهين بضيق ليرد محمد بعصبية:
- في أي حته؟ هنفضل قاعدين كده؟!
تملك الغضب من جاهين وهو يشعر أن محمد يريد اقناعه أن اهتمامه ببسمة أكبر منه فصاح به:
- أنا خايف عليها أكتر منك.. دي بنت عمي وخطيبتي وهتكون مراتي.. فاهم يعني إيه واحده هتكون مراتك تبقى مخطوفة ومش عارف إيه اللي ممكن يحصلها... ماتحاولش تقنعني أنك مرعوب أكتر مني.
وقفت نانا لتشاركهما الصياح:
- إنتوا هتتخانقوا.. كلنا مرعوبين عليها... الحل إيه بقى.. هنفضل قاعدين حاطين إيدينا على خدنا.
زفر جاهين ليقول من بين أسنانه:
- العقل بيقول نستنى لما يتصلوا بينا... هنروح نلف فين وهي كانت على طريق سفر.

كان يقول تلك الكلمات وهو فعليًا يقاوم رغبة قوية في القفز إلى سيارته والبحث عنها في الشوارع، فيعود عقله ويقنعه بعدم جدوى الأمر وأن البقاء هنا أفضل، لعل المختطفين يتصلوا.
فيأتي الهاجس الذي حدثه وافي عنه، ماذا سيفعل إذا لم يتصلوا؟!
ركل كرسي بجواره بعنف أسقطه أرضًا لتفزع نانا وهي تحدق به، ليخرج إلى الحديقة باحثًا عن منفذ هواء ليتفادى الإختناق الذي يشعر به.
يزفر بقوة وصورة بسمة لا تفارق مخيلته، وقلقه يصور له أبشع المشاهد.
أيمكن أن يخسرها بالفعل؟؟
هز رأسه رفضًا لمجرد الفكرة.
متى أصبحت بتلك الأهمية في حياته، لا يعلم ولن يبحث عن إجابة، هو فقط يريد عودتها.
لم يتمالك نفسه ليطلق صرخة قهر عالية مرددًا بعدها:
- بسمة.. إنتِ فيبين؟

وفي الداخل، رن هاتف نانا الموضوع على المنضدة أمامها فهرعت إليه وكذلك محمد لكن عينيه اصطدمت باسم رجل، لتخطف هي الهاتف وتضمه إلى صدرها دون أن ترد فحدجها محمد بنظراته قائلًا:
- مين شهاب ده كمان؟!
الارتباك الذي تلبسها كان واضحًا له وهي تقول:
- أ... ده..
- مين؟!
صاح بها لتنتفض قائلة:
- وأنتَ مالك؟!.. مش خلاص قُلتلي مايخصكيش أنتَ كمان ما يخصكش.. أنا طالعة لأبلة بطة.
فرت من أمامه بينما تمنى للمرةِ المليون أن ينزع قلبه من صدره ويلقيه بطول ذراعه عله يرتاح مما تفعله به تلك الفتاة.

....
الدوار يخف تدريجيًا تحاول تحريك يدها لتفرك جبهتها التي تؤرقها بهذا الثقل، لكنها لم تستطع، وكأنها مثبتتان في مكانهما، فتحت عينيها ببطء تطالع المكان من حولها،
وأول ما رأته سقفٌ قديم متهالك، لم يعتني أحدٌ به لسنواتٍ، مالت برأسها تستوضح مكانها، فأدركت أنها تستلقي على فراشٍ قديم يحمل رائحة جمعت ما بين الأتربة والعفن، اشمئزت وهي تحاول النهوض عنه لتكتشف أنها بالفعل مقيدة اليدين وقد أحاط رسغيها حجابها الذي نزع عن رأسها ليثبت يديها بأحد أركان السرير البارزة فوقها.
حاولت التملص منه مرة بعد مرة بعد أن استعادة كامل وعيها لكنه كان محكمًا، توقفت عن المحاولة وهي ترفع رأسها قدر الاستطاعة تطالع تلك الغرفة التي لا تحوي إلا الفراش الذي ترقد عليه ولا شيء آخر، توقفت عيناها على باب الغرفة المغلق، وعاد رعبها يسيطر عليها مجددًا.
المختطفون في الخارج حتمًا، تذكرت آخر ما أصابها فدارت عيناها بفزع على سائر جسدها وملابسها لتجدها كما هي، اطمئن قلبها قليلًا أنهم لم يفعلوا بها شيء، لكن الخطر لازال قائم.
انتبهت لخطواتٍ عند الباب، فكرت أن تدعي النوم ثانية لكن رعبها أبقى عينيها متسعتين تراقب الباب بفزع.
فُتح الباب بقوة ليدلف الرجل ضخم الجثة الذي كان يمسك بها في السيارة وتبعه آخر
بنفس لثامهما.
حاولت الاعتدال لتجلس لكن يديها المعلقتان خلفها لم تسمحا لها بذلك فضمت ساقيها إليها أكثر.
وقفا أمامها يراقبناها بصمت، مما جعل الرعب يتملكها أكثر وفي محاولة لاثبات العكس.
- قولتلكم معايا فلوس.. اللي إنتوا عايزينه.. بس سيبوني.

قال الرجل الضخم:
- لا خلاص إحنا قابضين.
تصلبت عيناها، تحاول استعياب ما سمعت للتو.
أيعني أنهم قبضوا مالًا ليختطفوها؟؟.
لكمهُ الآخر في كتفه ليسكته وكأنه يبوح بما لا يجب أن يقال.
ليقترب منها بينما يتابعه الضخم ببصره، وقف جوارها ومد يده نحوها لتتراجع برهبة، لكن قيدها لم يمحنها مساحة كافية ليمسك بخصلات شعرها المتهدلة على كتفيها فأدارت رأسها بفزع:
- ماتلمسنيش.
ضحك بصوت جهوري:
- لاا.. أنا أحب أكمل شغلي للآخر.. علشان ربنا يباركلنا في القرشين.
ليشاركه الضخم الضحك الساخر، بينما غالبتها عبراتها في الحال، وشعور العجز والخوف يملأ جنبات روحها.
ليقول الضخم:
- أنا هستناك بره.. دوري بعديك.. ماتتأخرش.
انتفض جسدها مرة بعد مرة وتلك الكلمات تهييء لها مصيرها المحتوم الذي ستلقاه بعد لحظات.
استدار ليغادر بالفعل تاركًا إياها مع هذا الواقف جوارها، الذي ما إن مال ليمسك ساقها حتى حركتها بعشوئية لتركله بقوة، فنال أنفه الضربة القاضية ليشهق بألم وهو يمسك بأنفه التي نزفت في الحال.
وكان هذا كفيلًا ليُشعل فتيل غضبه الهادر،فنزع لثامه وقد لطخت الدماء وجهه، ليقبض بقوة على شعرها لتصرخ بألم:
- بتضربيني يا بنت الـ.....
وكان الجزاء من جنس العمل.
ليوجه لطمة بعد أَخرى إلى وجهها حتى أَدمى شفتيها.

واللحظات التالية أعادتها لذُروة الخوف وهو ينقض عليها بوحشية ليتمكن من تمزيق أزرار قميصها وأصوات صراخها وبكائِها يتعالى أكثر وأكثر، وأملها في النجاة أصبح معدوم لتصرخ باسم خالقها.

ليفتح الباب مرة أخرى ويصيح به الرجل الضخم:

- استنى.

إلتفت إليه بعينين اشتعلتا كجمرتين من نار، ليبدو الرعب في عيني الضخم رغم اختلاف حجمهما الهائل ليقول:

- جالنا تليفون.. في تعليمات جديدة... أنتَ شيلت اللي على وشك ليه؟!

لم يهتم بإجابته، عاد يحدج بسمة بنظراته ليقبض على شعرها مرة أخرى:

- عادي.. قول مالحقتنيش.

- بس أنا لحقتك كده الشغلانه هتطير.

زفر بقوة في وجهها لينفث قائلًا:

- باين أمك دعيتلك قبل ما تخرجي من بيتك.

قام عنها بعد أن لطمها لطمة أخيرة حملت حنقه وغضبه على عدم إتمام ما أراد فعله.

فدارات عيناها في محجريهما وسقطت رأسها فاقدة للوعي.

عدل ثيابه مغادرًا الغرفة قائًلا بسخط:

- قطعت مزاجي إلهي يقطع مزاجك.

- ياعم المهم الشغلانة تخلص صح.. دي كمان فيها فلوس زيادة.

- إشمعنى.

جلس على كرسيْ خشبي والضخم على الآخر ليقول:

- بكرة الصبح بدري هنتصل بنمرة وهنطلب فدية.. وهتكون حلال علينا... غير الفلوس اللي اتفقنا عليها من الأول.

- فدية إيه؟.. بيهرجوا.. هيودونا في داهية.

- ولا داهية ولا حاجه... التعليمات بالظبط إننا نكلمهم سبعه الصبح ونقولهم يجهزوا ٣٠٠ ألف جنيه في خلال نص ساعة ويطلعوا على طريق المريوطية.

- افرض قالولنا مش معانا دلوقتي واستنوا البنك ويقرفونا وفي الآخر يتقبض علينا
- المفروض أنه معاهم.. التعليمات بتقول كده.. الفلوس موجودة في البيت هياخدوها ويجولنا على طول.. ناخد الفلوس ونرميلهم البِت وخلاص على كده.. هيبقى معانا فلوسهم وفلوس العملية الأصلية.. قشطة.
غمز بعينيه:
- قشطة.. ولو إني كنت عايز أعلم عليها.
- ياسيدي بفلوسك إبقى أعمل اللي أنت عايزه مع غيرها وبالمراضية.
مد أنامله يمسح الدماء العالقة بأنفه متأوهًا:
- عورتني بنت الـ...
- وأنتَ اديتها اللي فيه النصيب.. المهم ناخد حقنا.
نهض ليغسل عن وجهه ما أصابه منها، وقرر تقبل الأمر المهم أن ينال المال، الذي هو له كل شيء في هذه الحياة.
....
وقف أمام باب غرفتها لبرهة، حاله من التشتت العاصف بذهنه تجتاحه، مَنْ عليه أن يُصدق؟!، هل يستمع لمن كانت له الأم والأب بل الحياة إن صح اللفظ. أم لمن ظهرت في حياته فجأة تحمل لقب أم بيولوجيًا لكنه لم ينال منها أي شيء؟!
فتح الباب برفق ليطل عليها كانت مها جالسة أرضًا بجوارها بينما هي ساجدة على الأرض تبكي.
مشهد ما إن رأته عيناه حتى وكأن غمامة انقشعت من على عقله.
لتتراص كلماتهم جملة تلو أخرى..
"- وأنا كمان لا يمكن أنسى اللي عملته فيا وفي أمي.
- لكن مافكرتش ليه؟.. ليه قبلت تبعد مين اللي خوفها علشان تبعد؟.
- حماتي.. هو في زي حماتي ولا طيبة حماتي.
- على فكرة.. كل يوم هتفضل فيه بعيد عنها أنا متاكد إنك هتندم عليه مستقبلًا

- مين فيهم اللي ممكن يتصرف بالطريقة اللي تئذي الطرف التاني؟ أعتقد عمتي هي اللي ممكن تئذي."

خطى إلى الداخل، لتستشعر مها وجوده، لم تفقد بعد قدرتها على الاعتماد على حاسة السمع، إلتفتت تنظر له، فوقفت وقررت المغادرة، هو بحاجه للحديث مع فاطمة وعليها الابتعاد.

بالفعل مرت جواره ولم يوقفها، لتغلق الباب خلفها بصمت.

خطى بتؤدةٍ ليجلس بجوارها كانت لا زالت طوال هذا الوقت ساجدة.

استطاع أن يفهم كلماتها الباكية المتوسلة لربها، تردد نفس الجملة بلا كلل.

"استودعتك بنتي يا رب... استودعتك بنتي يا رب"

رق قلبه لحالها وربما لحاله، فشاركتها عيناهُ الدموع، وقلبه يحدثه ربما للمرة الأولى عنها.

أمثلُها من تترك وليدها؟!

أمثلُها من تهجر وتخذل؟!

مد يده نحوها لكنها توقفت في طريقها، لا يعلم أتصلي أم هي ساجدة فحسب؟.

صمت وانتظر.

الى أن رفعت رأسها أخيرًا لتنهي صلاتها. ومع السلام رأته، أتمت سلامها لتعود ببصرها إليه. رأت دموعه على وجنتيه.

هالها هيئته فصرخت:

- عرفت حاجه عن أختك.

لوح ليطمئنها:

- لأ.. لسه.. ماعرفناش.

وضعت كفها على قلبها الذي كاد أن يتوقف للحظة، نهض ليجلب لها كوب ماء ارتشفت منه القليل.

ساد الصمت عليها ليقول أخيرًا:

- ممكن تحكيلي كل حاجه.. عايز أسمعك.

تعلق بصرها به ودموعها لازالت تغرق مقائيها.

لتقول:
- عايز تسمع إيه؟!
- كل حااجه.. من أول ما عرفتي بابا.
أطرقت رأسها للحظة:
- حاضر.. من حقك تعرف كل حاجه.
وسردت هي واستمع هو.
....
ومرت المزيد من الساعات، ذهب جاهين للقسم مرة أخرى وعاد بخفي حنين.
لا جديد.
"استنى اتصال الخاطفين."
حل الليل وكل فرد حمل همه معه وارتكن بركنه.
أراد محمد العودة لمنزله لكن جاهين فتح له غرفة إضافية ليقضي ليلته فيها، وصعد كلًا إلى غرفته.
بقي وافي بغرفة فاطمة لم يغادرها منذ دخلها ولم يقاطعهما أحد، ومها وأختها اختفتا في غرفتهما العلوية ودلف جاهين لغرفته بعد أن أوصل محمد.
ألقى بجسده على فراشه، يرمق السقف بصمت، لو كان منطقيًا أن يملأ الدنيا صراخًا لفعل، يكتم غضبه... قلقه... خوفه.
هب واقفًا وكأن فراشه يحتضن أشواكًا تمزق جسده، غادرغرفته ونزل إلى الحديقة، دار فيها كنمرٍ جريح، لا يجد من يداوي جُرحه ولا يجد رفاهية الزئير ألمًا، أنهكته الحركة والعصبية ليستلقي أرضًا، رفع كفه ينظر إلى خاتم خطبته.
"هحميكِ"
قالها مرارً وبثقة وكأنه يمكنه حمايتها من كل شيء وأي شيء، وها هو، يرقد لا حول له ولا قوة، لا يدري عنها شيئًا.
ليردد بقهر صاحبه عَبرة غادرت عينيه لتعبر عن مدى ما يشعر به:
- فاشل.. فاشل.

وكانت الغفوة التي سعى لها العقل هربًا، ليفتح عينيه على صوت زقزقة عصافير الحديقة، نظر إلى السماء وضوء النهار يلوح في الأفق على استحياء.
ظل مكانه وكأنه لا رغبة عنده لتحريك قيد أنملة.
مرت الليلة، مرت عليه وعليها، لكنه لا يعلم كيف قضتها، عادت الظنون تفعل في عقله الأفاعيل.
ليردد بيأس:
- يارب... تعبت.
اعتدل جالسًا أخيرًا مع شروق الشمس بشكل أوضح، ومع حركته تعالى رنين هاتفه، أمسكه على عجل فليس من المعتاد أن يتلقى اتصالًا في هذا التوقيت.
أرقام غريبة لا يعرفها، أجاب بقلب وجل ليأتيه صوت رجولي:
- اسمع ونفذ بسرعة.
هب واقفًا ليقول:
- مين معايا.
- قدامك نص ساعة وتكون على طريق المريوطية ومعاك ٣٠٠ ألف جنيه وهكلمك تاني بعد ربع ساعة.
بدى واضحًا أنه اتصال من المختطفين:
- أنا عايز أسمع صوتها... خليني أكلمها.
مرت ثوانٍ عليه كسنواتٍ، قبل أن يسمع صوته:
- اتكلمي.
صرخ جاهين:
- بسمة.. بسمة أنتِ سمعاني.
أنفاس متقطعة وصلت لأذنيه قبل أن يأتيه صوتها باكيًا باهتًا:
- جاهين.. الحقني.
- بسمة.. ماتخافيش.
انقطع صوتها فصاح:
- تعرفوا لو عملتوا فيها حاجه.

- قدامك نص ساعة وتكون على طريق المريوطية وهكلمك تاني بعد ربع ساعة أقولك تقابلنا فين بالظبط وماتنساش.. ٣٠٠ ألف جنية.
أراد الصياح به مرةً أخرى لكن الخط انقطع، فاعتصر الهاتف بقبضته، والحيرة تضرب رأسه، من أين سيأتي بهذا المبلغ الآن.
اندفع للداخل وصعد إلى أعلى ليطرق غرفة محمد وكذلك غرفة فاطمة فخرج له محمد في الحال يتبعه وافي وفاطمة التي لحقت بابنها، وبهيئة جاهين المتوترة علموا أن هناك جديد.
- إيه اللي حصل؟.
قالها وافي فرفع جاهين هاتفه:
- كلموني.. وسمعت صوت بسمة.
شهقت فاطمة مرددة اسم ابنتها ليقول محمد:
- وطلبوا إيه؟!
- عايزين ٣٠٠ ألف جنية.. بس دلوقتي حالًا.. هنجيبهم منين؟!
- يعني إيه دلوقتي؟! مفيش بنوك فاتحة وعمرك ماهتسحب مبلغ زي ده من ماكنة صرف.
قالها محمد ليتبعه وافي:
- طب هنعمل إيه؟
هز جاهين رأسه بعصبية:
- مش عارف... دول قالوا بعد ربع ساعة أكون على الطريق.. هجيب الفلوس منيييين؟.
تبادلوا النظرات بعجز وكل منهم يبحث عن حل فلا يجد.
فقال محمد:
- إنتوا ماعندوكش خزنة في البيت ده بتشيلوا فيها مبالغ كبيرة.
نظر جاهين لوافي وقد تلاقت أفكارهما في نقطة واحدة.
سميحة.
ليقول جاهين:

- عمتي.. ساعات بتعمل كده.
- طب مستني إيه؟.. ما تسألها.
قالها محمد وهو يدفعه أمامه ليتحرك بالفعل وتبعه وافي أما فاطمة لم تستطع أن تحرك ساكنًا.
لازالت تظن أن سميحة السبب فكيف تكون هي من يحرر ابنتها.
وقف وافي في الأعلى، يمكنه رؤية غرفة عمته التي طرق جاهين بابها مناديًا، فخرجت له بعد لحظات بعينين منتفختين، فالبكاء كان رفيق ليلتها لتقول:
- في إيه؟... لاقيتوها؟!
- لا يا عمتي.. بس اتصلوا بينا وعايزين ٣٠٠ ألف جنيه دلوقتي حالًا ومفيش بنوك فاتحة هنعمل إيه؟... معاكِ المبلغ ده في خزنتك.
صمتت هُنيهة لتقول:
- أيوة صح.. أنا آخر مرة حطيت ٢٠٠ ألف وكان فيها ٢٠٠ من قبلها.. يعني ٤٠٠.
تهدج صوت جاهين بفرح وأمل:
- الحمدلله... هاتي ٣٠٠ بسرعة... واعتبريهم دين فِ رقبتي.
- أنتَ بتقول إيه... دي بنت أخويا.
خرجت من غرفتها إلى مكتبها حيث توجد خزانتها الخاصة بينما أسرع جاهين لاحضار حقيبة ليحمل فيها النقود.
تابع وافي الموقف بصمت وقد وصلت له كلماتها.."دي بنت أخويا"
سمع من أمه العجيب من الكلام بالأمس، لم يتصور أن تلك هي قصتهما بالفعل، سميحة تكره أمه كما لم تكره أحد في هذا العالم، تعتبرها الفتاة التي سرقت أخيها وتركتها وحيدة، تُحملها مسئولية موته وحرمانها منه إلى الأبد.
أي علاقة تلك؟!
ولماذا كان عليه هو أن يدفع الثمن؟!

خرج جاهين أخيرًا من مكتبها وهو يغلق الحقيبة.

ليقول وافي:
- استنى أنا جاي معاك.
- لأ.. لو شافوا حد معايا هيئذوها.. ادعولنا.
لم ينتظر ليسمع أي اعتراض ليقفز داخل سيارته وينطلق بها، ورغم نسمة الصباح الباردة إلا أن جسده كان ملتهبًا، بل وتعرقت يداه كثيرًا على عجلة القيادة.
دقائق أخرى مرت ينقل عينيه ما بين الهاتف والطريق، ليرن الهاتف أخيرًا فضغط على سماعته الخارجية:
- ألو.. أنا في الطريق أهو.
- خليك بقى في طريق المريوطية لآخر اتجاه سقارة... عربيتك نوعها إيه ولوحتها كام.
أجابه بسرعة ليقول الخاطف:
- هنكلمك تاني.
قطع الاتصال ليضغط جاهين شفتيه بعصبية، وهو يطمئن نفسه أنه أصبح منها قريب، وسينتهي هذا الكابوس بعد قليل.
تابع طريقه، وخف المرور من حولِه كثيرًا فأصبح يسير بمفرده تقريبًا، رن الهاتف ليتلقى أمر بالانحراف يمينًا، إلتفت خلفه ظنًا أن هناك من يتبعه لكنه لم يرَ أحد، نفذ التعليمات وبعد عدة أمتار أبعدته عن الطريق الرئيسي أمره بالتوقف.
أوقف السيارة وصوت أنفاسه هي مؤنسه الوحيد، تدور عينيه في المكان، حمل الحقيبة وغادر السيارة وهو يتلفت يمنة ويسرة، قلبه ينتفض فعليًا بين ضلوعه، يشعر به وكأنه سيغادر صدره.
وأخيرًا وصل لأذناه صوت محرك دراجة بخارية، إلتفت بكل جوارحه لإتجاه قدومها إثنان يجلسان عليها وقفا أمامها ليقول سائقها:
- هات الفلوس.
تعلق جاهين بالحقيبة:

- بسمة فين؟!
- هتلاقيها قدام.... هات الفلوس.
مد يده يجذب الحقيبة بينما جاهين ينظر حيث أشار وقبل أن يقول المزيد انطلقت الدراجة براكبيها فصرخ بهما:
- قدام فيين؟!!
عاد لسيارته يسب ويلعن، حرك سيارته بروية ليتقدم في ذاك الطريق المهجور، مُشرئب العنق يبحث عن أي أثرٍ لوجودها.
ليلوح له في الأفق جسدًا متكومًا أرضًا أسرع بالسيارة أكثر ليقف أمامها، إنها هي...
قفز من سيارته مناديًا بجزع:
- بسمة... بسمة.
منكفئةً على وجهها لا يبدو عليها أي حركة، انتفض قلبه فزعًا وهو يمسك كتفيها ليعدل وضعها بين ذراعيه.
اتسعت عيناه بفزع واحمر وجهه غضبًا، فعلامات الضرب عاثت في وجهها فسادًا، كدمات زرقاء على وجنتيها، تجلط دماء على طرف شفتيها.
ضمها إلى صدره بقوة، ليحيط رأسها بكفه مقبلًا رأسها ومتمتمًا:
- سامحيني... سامحيني.
غصة خانقة دفعت بالعبرة إلى عينيه، لا يعلم أحزنًا على حالها أم فرحة بعودتها؟.
صدر عنها تأوه خافت فأبعدها ليطالع وجهها مناديًا اسمها:
- بسمة... ردي عليا... سمعاني.
انتبه لقميصها الذي يبدو أنه تعرض لهجوم ما لكن ارتدائها قميص قطني أسفله لم يكشف شيء من جسدها.
حمد الله كثيرًا وهو يحملها بين ذراعيه ويريح جسدها في الأريكة الخلفية، وقرر الانطلاق بها إلى أقرب مشفى.

....

كان الجميع في ردهة المنزل ما بين جالس لمتجول في المكان بعصبية، في انتظار اتصال من جاهين الذي انطلق منذ أكثر من نصف ساعة.
رن هاتف وافي لينتفض الجميع وقوفًا وأجاب وافي:
- أيوة يا جاهين... لاقيتها... الحمدلله.
تعالت صيحات الحمد التي خالطها بكاء النساء ماعدا سميحة التي تراقب بصمت،
أردف وافي:
- ماشي إحنا جايين.
إلتفت لهم:
- هيوديها المستشفى علشان نطمن عليها.. يالا.
تبعه الجميع بينما بقيت هي مكانها، تراقب تحركهم للخارج دون أن يلتفت أحد إليها، ولأول مرة ستستشعر أنها أصبحت كضيفٍ غير مرغوب به مع تلك العائلة.
....

كان صباحًا مختلفًا له هو أيضًا، اليوم اجتماع المساهمين المرتقب، اليوم سينال أخيرًا من سما ويلقنها الدرس الأقسى على الاطلاق.
ولن يلومه أحد، لطالما تصرفت معه كرئيسة عمل فحسب وليس كأم، وهو قرر أن يتحدث بنفس لغتها، اللغة الوحيدة التي تفهمها وتدركها.
سيأخذ منها منصبها كما أخذت منه كل أسباب السعادة تِباعًا، سيجعلها تستشعر كيف هو حال من يحرم ممن يحب وهي لم ولن تحب إلا عملها.
أنهى عقد ربطة عنقه وألقى نظرة أخيرة على مظهره الراقي كرئيس مجلس إدارة مرتقب لإحدى كبرى شركات المقاولات في البلاد.
غادرغرفته لينتظر معاذ الذي لم يظهر بعد.
- معااذ.. يلا علشان ماتتأخرش.

أعقب نداءَه ظهوره، تُغلف ملامحه هالة من الوجوم، ربت سامر على كتفه مشجعًا:
- ماتقلقش عليها رغم إنها عمرها ما قلقت علينا... هتعرف تعيش وهتتصرف.. المهم إحنا ناخد مكانا الصح في الشركة بعيدًا عن تسلطها... جه الوقت يا معاذ نكون أحرار بجد.
بادله النظرات للحظة قبل أن يخفض بصره:
- طب يالا.
ضاقت عيني سامر وهو يرى معاذ على تلك الحالة التي كان عليها منذ قررا عمل ذلك الاجتماع، ولم يفهم بعد السبب، هل هو قلق على أمه؟!.
صحيح أنه لم يرتبط بها كثيرًا لكنه يعلم أن أخيه عاطفيًا جدًا ودومًا المشاعر هي أكثر ما يتحكم به، وقلما يحكم عقله المنطق.
صاحبهما الصمت إلى مقر الشركة، ليدخل مع أخيه إلى مكتبه تتبعهما زينة وهي تحمل مدونة كما علمها سامر لتكتب عليها تعليمات اليوم.
- ها يا زينة حد جه؟!
- أيوة يا فندم.. في تلاته وصلوا وأنا كلمت الباقي وقالوا في الطريق.
إلتفت لها مبتسمًا:
- شاطرة يا زينة
نشوةٌ اجتاحتها لمدحه لها في أول النهار، كتبت بهمة كل التعليمات التي أملاها عليها، لتغادر مكتبه على أن تخبره فور تجمع كل المساهمين.
جلس خلف مكتبه يرمق أخاه الذي وقف أمام النافذة الزجاجية كتمثالٍ بلا روح. ليقول:
- مالك؟.. مش عاجبني النهاردة.
إلتفت له معاذ ورمقه بنظرة غير مفهومة:
- سامر.. لو قولتلك لسه عايز ألاقي بسمة هتدورلي عليها.
زم سامر شفتيه وتسلل الغضب إلى حروف كلماته:

- بسمة تاني؟!.. ثم ده وقته ده... النهاردة هنعيش بدماغنا ونبدأ حياتنا من جديد وأنتَ بقى تستقل تقوم تكلمني عن بسمة.. أنتَ هتفوق من الحلم ده إمتي... مش عرفت إنها اتجوزت.
ضاقت عيناه ليعود ويوليه ظهره يطالع الأجواء عبر النافذة الزجاجية دون تعقيب.
ليهز سامر رأسه زافرًا، لا يكف هذا الفتى عن إحباطه، أوحده من أحب في هذا العالم يومًا، لمَ تلك الفتاة تمثل له كل شيء لهذه الدرجة؟.
قطعت أفكاره زينة بدخولها الصاخب الذي اعتاده:
- سامر بيه المساهمين كلهم جم.
- ماشي.. يالا يا معاذ.
قالها ليغادر مكتبه يتبعه معاذ بصمت.
وفي غرفة الاجتماعات جلس على رأس المائدة وعلى الجهة المقابلة جلست سما، ترمقه بحنقٍ واضح ورد عليها بتحدٍ سافر.
واختار معاذ الجلوس في منتصف المائدة ومن حولهم جلس بقية المساهمين الذين هم على يقين أن أرائهم ليست ذات أهميه إذا ما اتفق أي من أصحاب النصيب الأكبر من الأسهم، وهما فقط سامر ومعاذ.
ليبدأ سامر الكلام:
- بما إني صاحب دعوة الاجتماع ده فخليني أبدأ.. أنا عايز يتعمل تصويت على قرار تنحية سما هانم من رئاسة مجلس الإدارة،، وفي المقابل أنا هاخد المنصب ده.. وأعتقد كوني المدير التنفيذي وبباشر كل الشغل الموضوع مش صعب ولا مقلق بالعكس أنا شايف إن فيه مصلحة أفضل وأكبر للشركة.
كانت الأجواء مشحونة بالفعل ليتبادل المساهمين النظرات بينما عينيْ سامر ترمق سما بثبات وهي تعيد له نظراته بغضب حانق.
كانت الإشارات السلبية تكاد تطلق أصواتًا على رأس المحيطين، ليضيف سامر:
- في أي اعتراض على إننا نبدأ التصويت؟.

لم يجب أحد بشيء فقط النظرات المتبادلة هنا وهناك الكل يحسب المكاسب والخسائر، يبدو أنها معركة عائلية بحتة وتم الزج بهم لمجرد أن لديهم بضعة أسهم في تلك الشركة والتي هي ناجحة بالفعل ولا يمكنهم انكار ذلك.

وقف سامر ليقول:

- تمام.. نبدأ التصويت.. أنا موافق.

قالها وهي يرفع كفه بمحاذاة صدره ونظر إلى معاذ قائلًا:

- صوتك يا معاذ.. لأنك معايا في نسبة الأسهم.

تعلقت الأبصار بمعاذ الذي لم يغير وضعه منذ جلس، ينظر إلى المائدة أمامه بلا أي انفعالات، عقد سامر حاجبيه حين طال صمته:

- معاذ... ماترد.. موافق؟!

رفع رأسه أخيرًا لينظر إلى أخيه الذي أراد تكذيب عينيه حين قرأ في نظرة أخيه اعتذار واضح.

ليلتفت معاذ إلى سما قائلًا:

- لأ.. مش موافق.

تجمد سامر مكانه للحظة وكأن أحدهم قد سكب عليه دلوًا من الماء البارد، قابله جسده بكثير من النيران المشتعلة بصدره.

وقد جحظت عيناه على وجه أخيه الصامت والذي لم يلتفت له حتى، وقد انتابت الدهشة الجميع، فلقد تصوروا أن سامر لن يتحدث في الأمر قبل أن يتأكد من موقف أخيه،... صاح سامر بشكل مفاجيء:

- معااذ.. أنت بتقول إيه؟!

هبت سما من مكانها تدافع عن مدللها الذي استجاب لها بلهجةٍ شامتة:

- إيــه.. كلنا سمعنا رأيه.. ماتحاولش تُجبره على حاجه تانية، وطبعا برفض معاذ يبقى استكمال التصويت مالوش داعي... اسمع بقى قراري أنا كرئيسة لمجلس الإدارة.. من النهاردة كل صلاحياتك كمدير تنفيذي هتتنقل لمعاذ وأنت بقى كفاية عليك أرباح أسهمك اللي هتلاقيها في حسابك كل سنة... اتفضل بقى من هنا.

ارتجفت شفتاه للحظة، وزاغ بصره بغيرِ هدىً، وداخله بناءً كاملًا يتهدم.
وصوت أبيه يتردد صداه بعقله:
" ماتسبش معاذ لسما ياسامر...أخوك أمانة في رقبتك "
وهو لم يفعل، نفذ الوصية للنهاية، لم يتنازل عنه، لم يتخلَ، بل حرم نفسه من أن يستقل عن أمه كي لا يتركه لها ويذهب، ظل قربه قدر استطاعته، أنقذه من مخططاتها.
فلمَ فعلها معاذ بهذه السهولة؟!.
طالع أخاه بألم وغير تصديق، بينما الآخر يفر حتى من مواجهته.
عاد صوتها الصاخب إلى أذنيه:
- خير مستني حاجه؟!
بأي شيء اشترت صوته تلك الماكرة، وبأي ثمن باعه ذلك الجاحد؟!
إلتفت مغادرًا يلمم خيبته في أخ ظنه له ظهر فإذا به هو طاعنه.
دخل مكتبه تتابعه نظرات زينة المندهشة وقد انتفخت أوداجه مما يعلن عن عاصفة غضب توشك على الإنفجار.
دخلت خلفه ليقف أمام مكتبه لحظات قبل أن يُطلق صيحة تبعها دفعه بكلتا يديه لكل ما على سطح المكتب ملقيًا به أرضًا لتضرب زينة صدرها:
- يالهوي... ليه كده يا سامر بيه إيه اللي حصل؟!
أتبعت كلماتها محاولتها لرفع ما أسقطه أرضًا فصرخ بها:
- اطلعي بره.
ألقت ما في يدها لتتقهقر بخوفٍ حقيقي، فلأول مرة تراه هكذا، وكما يقولون اتقِ شر الحليم إذا غضب، وهذه المرة الأولى التي تلقى فيه عاصفة غضبه.
وفي تقهقرها اصطدمت به، ليتجاوزها مناديًا باسمه، فاستدار سامر إليه بوجهٍ يكاد ينفجر ورغم هيئته المخيفة استمر في التقدم نحوه ليقول:
- سامر.. أنا آسف.. أنا قلتلها إن ده مكانك أنا لا يمكن أخده منــ...
ألم الصفعة أسكته وقوتها أطاحت بوجهه.
- يالهوي!!

هذه المرة قالتها وهي تلطم خدها.
فنظر معاذ لسامر بذهول مؤلم، ليقبض سامر على قميصه ويدفعه للخلف فأوقف الحائط تقهقره وهو يرتطم فيه بعنف.
ليصيح عليه بغضب هادر:
- أنت إزاي تعمل فيا كده.. ياندل يا حيوااااان.
وأعاد الصفعة بقوة أكبر وتلقاها معاذ بصمت، فهو يستحق أضعاف هذا، ويعلم هذا علم اليقين.
لتقول زينة:
- استهدوا بالله يا جماعة دي أكيد عين وصابتكم.
لم يبدو أن أحدًا منهما يشعر بتواجدها، ليستمر صياح سامر:
- بقى أنت... أنت اللي تعمل فيا كده.. دا أنا كنت موقف حاجات كتير في حياتي علشان خاطرك.. كنت مستعد أشيل كل بلاويك على دماااغي.. وفي الآخر أنت اللي تضربني في ضهري.. أنت يا عيل يا اللي لحد امبارح كنت بتعيطلي علشان أساعدك... عملت فيا كده ليه.. اشترتك بإيه؟!!
قال كلمته الأخيرة وهو يضرب جسد أخيه بالحائط عدة مرات، ولازالت لطمات زينة على خدها تتكرر وهي تحاول تهدئته.
- هتلاقيلي بسمة.
قالها بهمس وصل لأذني سامر ولم يصل لزينة التي تمنت لو سمعت ما قال، أما سامر فقد تجمدت أصابعه على قميص أخيه لترتخي قبضته وتسقط ذراعيه على جانبيه.
غامت عيناه للحظة وغلفها الخواء.
بسمة!!
غدر به من أجل وهم عايشه سنوات.
كشر عن أنيابه ثانية ليدفعه للحائط مجددًا، وهو يرفع قبضته وهي تحمل كل ما اعتمل بصدره لكن شيئًا ما أعاقه.

إلتفت ينظر بجمرتين من نار إلى زينة التي سمحت لنفسها أن تمسك ذراعه لتمنعه من ضرب أخيه قائلة:

- بلاش تعمل حاجه هتندم عليها بعدين... ده أخوك الصغير.

طوح ذراعه صارخًا:

- ابعدي!!

دفعته كانت بالقوة التي ألقتها أرضًا فاصطدم كتفها بأحد المقاعد الضخمة لتتأوه بألم، فاستعاد وعيه للحظة وهو يحدق بها ثم إلتفت لأخيه الذي أغلق جفناه ينتظر دوره.

فوصل له صوت أخيه:

- الضرب في الميت حرام.. وأنت مُت خلاص.

حرره أخيرًا ليغادر المكان ليجلس معاذ أرضًا وعبراته تغادر عينيه بصمت، بينما ترمقه زينة بغيظ.

- عملت إيه يا منيل؟!!

الفصل السادس والثلاثون

كرباج سعادة وقلبي منه انجلد
رمح كأنه حصان ولف البلد
ورجع لي نص الليل وسألني ليه
خجلان تقول إنك سعيد يا ولد
عجبي!!
رباعيات جاهين

القهر.. الغدر.. الخيانة.
نصال طاعنة أدمت روحه، نَكتت قلبه بنكة سوداء فأظلمته، أنفاسه خالطها لهيب غضبه فأضحت دخانًا، والوجع مؤلم حد البكاء.
بصعوبة تماسك في خطواته وحافظ على اعتدال قامته، بينما داخله شعور وكأن انحناء ظهره تراه أعينهم بيسر.
كيف لا وقد أضحى وحيدًا وخسر كل شيء، حتى الأخ الذي فعل كل شيء لأجله ألقى به خلف ظهره وكأنه يتخلص من ورقة قديمة ألقاها بطول ذراعه.
كل ما ناله من أمه كان مؤلمًا لكن ما أصابه من أخيه كان قاتلًا.
وصل لسيارته، جلس خلف مقودها وقد أغلق بابها، وأخيرًا أصبح وحده.
فك ربطة عنقه سعيًا للتنفس، استرخى جسده بانهاك وهو يلقي بذراعيه على جانبيه، أسند رأسه على مسند المقعد، اعتصر جفنيه بحثًا عن عبرات تطفيء ناره فلم يجد، حتى رفاهية البكاء بعيدة المنال.
اكتفى ببكاء روْحِه، أغلق عينيه وتمنى... تمنى لو أمكنه العودة.
الإبقاء على حلمه وليترك معاذ لأمه ويبتعد، ألم يكن حاله حينها أفضل.. أسعد.. أقل وجعًا.

طرقات متتالية على زجاج سيارته أجبرته على فتح عينيه مال برأسه يسارًا فلم يرَ أحد ليعاد الطرق مرةً أخرى فمال برأسه يمينًا ليجدها تُلوح له وفمها الثرثار يردد كلمات لم يسمعها، ظل ينظر لها بخواءٍ وكأن الحياة فارقت عينيه،
فضربت الزجاج بقوة أكبر فمد يده يضغط بأنامله زر قفل الباب، فتحته لتدخل رأسها للسيارة:
- أنتَ كويس؟!!
لازال صوتها صاخبًا كعادتها، ظل ينظر لها بصمت فكررت السؤال بصوت أعلى وكأنها تحادث ضعيف سمع.
- سامر بيه.. أنتَ كويس؟!!
- لأ.
قالها باقتضابٍ ليدير بصره عنها ويعيد إغلاق جفنيه مسترخيًا، رمقته لحظات بتردد قبل أن تجلس على المقعد المجاور دون أن تُغلق باب السيارة لتقول ما أرادت قوله:
- معلش.. إنتوا برضو أخوات والدم عمره ما يبقى ميه.
ظل على حاله، فلوت شفتيها لتردف:
- أنا مش حشريه ولا بتدخل في خصوصياتك.. أنا بس لما بعز حد.. يوووه قصدي يعني لما أهتـ.... يوووه المهم يعني ببقى عايزة أطمن... وأنا مش عارفه إيه اللي حصل بينك وبين أخوك..بس أكيد عمل مصيبة وأنتَ اللي هتشيلها.
صمتت للحظة تراقب ردة فعله فلا جديد:
- بس لامؤاخذة يعني.. أنت السبب.
قالتها وهي تثبت قدميها على الأرض استعدادًا للفرار لو دخل في نوبة غضب جديدة لكنه اكتفى بفتح عينيه ليُحدق بسقف السيارة، فشجعها هذا على الاستمرار:
- هتقولي ليه؟!... هقولك ليه.. أنا من ساعة ما شوفتك وأنتَ ماشي تصلح وراه.. يعمل المصيبة وأنت تجري تظبط.. يوقع في مشكلة أنت تجري تحل..

يوم بقى ما يتصرف كعيل وميبقاش أد المسؤولية إبقى لوم نفسك الأول لأنك أنتَ نفسك ماحملتوش مسؤولية قبل كده وبتعامله كعيل.. صحيح ده خوف منك على أخوك الصغير بس ده عيبين الغلط.. لو كل مرة تلطع على وشه ألم زي اللي اديتهوله من شوية يمكن كان اتعدل.

صمتت ولم يعلق، تنهدت قائلة:

- معلش أنا أصلي كده اللي في قلبي على لساني.. أنا هرجع المكتب بقى أنت مش هتمشي.

لم يمنحها ردًا فغادرت السيارة.

هل قالت غير الحقيقة؟!

كيف لم ينتبه لهذا من قبل؟!

هو من ربى هذا الشاب الأناني الذي لا يهتم إلا بما يخصه، فلم يكن لسما اليد الكُبرى عليه، على العكس.. كان معاذ مسؤوليته، فتخاذل عن متابعته لوقت طويل بسبب العمل وها هي النتيجة.

نالت من كانت معه كل اهتمامه، أصبحت تلك الفتاة هي الدنيا وما فيها له، قيمتها تفوق قيمته هو كثيرًا، رغم بعدها عنه كل تلك السنوات.

التفت ليحدق بآخر خطواتها وهي تختفي داخل البناية، تلك الفتاة تملك خصال لم يخالطها يومًا، لكنها خصال مفيدة رغم إزعاجها الدائم.

اعتدل يشعل محرك سيارته مبتعدًا، باحثًا عن راحة لا يعلم إن كان حقًا سينالها يومًا.

....

وكيف لغريقٍ عادت له روحه أن يصف ما يعتمل داخله، أحقًا أصبحت روحه... نعم ولا يبالي، فلتكن ذلك وأكثر، بسمة عادت وهي بخير ولن تضيع منه مرةً أخرى.

كم أراد أن يُبقيها بين ذراعيه فلا تفارقه، أن يكون هو درعها الواقي بحق،

ولكن.. يحدث ما يخبرنا أن قُدراتنا ستبقى دومًا محدودة، وأن العون الحقيقي هو مِن الله فقط.

"إحنا هنعين للبنات بودي جارد"

قالها وافي وهو يجلس جواره فالتفت له مدعمًا كلماته:

- آه طبعا.. إن شاء الله... هي لسه نايمة.

أومأ وافي برأسه:

- أيوة.. بسبب المهدئ أكيد

ضم جاهين قبضته كاتمًا غضبًا تأجج داخله كلما تذكر الحالة التي وجدها بها، ولم يكن هذا فقط ما آلمه كثيرًا، بل أكثر ما أفزعه حين فتحت عينيها صارخة لتُسرع لها فاطمة والفتيات وكذلك هو ووافي بينما محمد يراقب من بعيد بحسرة.

وكان أول رد فعل لها حين حاول الاقتراب منها لطمئنتها أن صرخت فيه بأن يبتعد عنها، ولا يلمسها وهي تتعلق بفاطمة سعيًا للحماية وفاطمة تضمها لصدرها، تمسح على رأسها مُرددة آيات من الذكر الحكيم.

رأى في عينيها رعب هائل، أتصورته واحد من خاطفيها، أم أن ماحدث قررت أن تعاقبه عليه؟، ولها كل الحق، أليس هو من قالها بثقة زائفة؟!، أنه سيحميها فلمَ لم يستطع.

- لو سمحتم.

التفت للصوت ليجد الطبيب الذي تابع حالتها فور دخولها، وقفا للاستماع له فأردف:

- إحنا ماحبيناش نكلمكم في الموضوع على طول بس علشان الإجراءات القانونية تبقى سليمة لازم نعرضها على الطب الشرعي.

عقد جاهين حاجبيه بينما قال وافي:

- أفندم الطب الشرعي.. هو ده مش في حالات القتل بس.

هز الطبيب رأسه:

- لا طبعًا يا فندم.. الطب الشرعي بيساعد ف أي نوع من أنواع الجرائم البشرية والاغتصاب منها.
قال جاهين بغضب:
- اغتصاب إيه؟!.. ماحدش عملها حاجه.
- يا فندم دي حاجه الحكم فيها للطب مش لينا إحنا.
استفزت جاهين كلمات الطبيب الباردة ليعلق وافي:
- أنت بتقول إيه؟.. هدومها زي ما هي اغتصاب إزاي بقى.. ماحدش هيلمس أختي ومش هنعرضها على أي طب شرعي.
زفر الطبيب بنفاذ صبر:
- براحتكم ده إجراء قانوني أنا مايخصنيش فيه حاجه.. كلامكم مع المباحث عن إذنكم.
التفت مغادرًا ليقول وافي بدهشة ممتزجة بالكثير من الضيق:
- ده إيه البارد ده؟!!
أما جاهين فعاد جالسًا باذلًا المزيد من الجهد للتحكم بأعصابه، فآخر ما ينقصه أن يسمح لهم بوضعها تحت يد رجل آخر يعبث بجسدها بحجة الطب الشرعي.
جلس وافي جواره:
- هو الإجراء ده لازم.. يعني البوليس هيجي يقول كده برضو.
- ولا لازم ولا حاجه... لو قلنالهم مش عايزين ما هيصدقوا وهيأيدوها ضد مجهول.. عندهم شغل كتير بناقص.
- يعني إيه إحنا هنسيب العيال دي؟!
- وأنتَ فاكر يعني لو سيبناهم يكشفوا عليها ويحققوا معها هيجيبوهم.. ياعم كبر دماغك.. المهم إنها رجعتلنا بالسلامة... قوم شوفها كده لسه نايمة ولا صحيت.
لم يجادل وافي بل يكاد يصدق على كل كلمة قالها ابن عمه، ذهب لغرفة بسمة التي بقيت فيها فاطمة ومها ونانا بينما رحل محمد إلى الشركة بعد أن اطمئن عليها ليتابع العمل في ظل غيابهما.

انضم إليهن ليجدها لا زالت نائمة وإن كانت الدموع لم تفارق أهدابها لتقول فاطمة حال رؤيته:

- حتى وهي نايمة بتعيط.. منها لله.. حسبي الله ونعم الوكيل!!

عقد وافي حاجبيه يرمقها بصمت، لا يمكنه تصديق ما ترمي إليه، سميحة لن تفعلها أبدًا.

- ماما... إنتِ أكيد غلطانة.. هي لا يمكن تعمل كده ثم هي كمان دفعت الفدية.

أشاحت فاطمة بوجهها بعيدًا فقلبها يحدثها أن الأمر كله بتخطيطٍ منها وإن كانت لم تفهم ما مغزى كل هذا، وهذه الحيرة تُجبرها على السكوت.

زفر بيأس وخرج ليخبر جاهين أن بسمة لازالت نائمة، فعاد معه ليراها، فلن يحتمل أن يقترب منها ثانية وهي مستيقظة لتبعده صارخة.

كانت مُستلقية وفاطمة تداعب رأسها الذي غطته لدخول جاهين عليهن، وقع بصره عليها ولم يغادرها، يريد أن يسكن عقلها للحظة ويعلم ما الذي يدور فيه، أن يعبر لذاكرتها ويعلم ما الذي ارتكبه هؤلاء الأوغاد بحقها.

أصبحت كدمات وجهها أكثر وضوحًا لعينيه وأكثر ألمًا لقلبه.

واختار الجميع الصمت،احترامًا لحزنه، لنظرته التي حملت الكثير من الوجع والألم، وربما الندم.

لترتسم الابتسامة الحزينة على شفتي فاطمة، فلقد رأت في عينيه حبًا لم ترَ مثله إلا حين كان ينظر لها وافي حينما تم طردها وأمها من المنزل في الماضي، وكأنه يعتذر لها أنه لم يستطع حمايتها ويعدها بالأفضل.

كما هو جاهين الآن؟!

ولأول مرة يرتاح قلبها لقبولها له، هذا الفتى يعشق ابنتها بحق، وهو وحده الذي يمكن أن تستأمنها عليها.

شعرت بتوتره وتقهقره للخلف فنظرت لابنتها لتلاحظ ارتجاف جفنيها فقالت:

- ماتقلقش يا بني.. دي بتحلم.

عاد ليقترب بتوجس، شفتاها ترتجفان أثناء نومها، لعلها تستعيد تلك الذكريات السيئة والتي لن تغادر عقلها بسهولة، كيف له أن يمحيها من ذاكرتها تمامًا فتهنأ ولا تشعر بالخوف ثانية.
"معاذ"
تصلب مكانه للحظة وهي يحدق بها وكأنه يتأكد مما سمع لكنها لم تكررها، رفع رأسه بتلقائية إلى فاطمة التي حدقت بابنتها بدهشة، أما وافي فقال:
- هي قالت اسم .. ولا أنا بيتهيألي.
خفضت مها رأسها وكأنها لا تريد لأحد أن يسألها، بينما قالت نانا:
- دي.. دي نايمة.. بتخرف.
رمقها جاهين للحظة قائلًا:
- هي تعرف حد إسمه معاذ؟!
فلوحت بيديها:
- ميين.. معاذ مين؟.. لأ طبعًا.. إيه السؤال الغريب ده؟!
قال وافي متطوعًا:
- يمكن تكون سمعت الاسم ده وهي مخطوفة.. حد منهم اسمه معاذ.
شعرت بكلام وافي ببعض الإقناع فدعمته قائلة:
- أيووة.. هي بالظبط زي ما بيقول بسام.. تلاقيها سمعت الإسم ده... الله أعلم يعني.
تحسر قلب فاطمة على ابنتها، تصورت أنها تمكنت من نسيان هذا الفتى ولكن يبدو أن هذا ليس صحيحًا، وهذه كارثة في حد ذاتها، كيف تسمح لنفسها بالتفكير في آخر بعد اتمام خطبتها لجاهين.
ستحدثها في الأمر فيما بعد، حين تسترد عافيتها تمامًا.
أطرق جاهين رأسه للحظة وإن لم يرتاح قلبه لما قيل، من معاذ هذا الذي تنطق باسمه في هذيانها، ربما كما قال وافي سمعت هذا الاسم وقت الاختطاف.
- جاهين يا ابني.. روح ارتاح أنت وبسام.. أدينا قاعدين معاها أهو والناس هنا كويسة ومش مقصرين لو احتاجنا حاجه هنكلمك على طول.

وافق وافي على كلماتها ليقول:
- ماشي.. هنريح وهنعدي عليكم بالليل تاني ونشوف مين هيروح معانا.. مش معقولة تباتوا كلكم هنا.
أومأت فاطمة له بالإيجاب فخرج وصحب جاهين معه للعودة للمنزل ونيل قسط من الراحة.

....

جلست على فراشها تتقلب بملل، بماذا أخطأت لتخسر وظيفتها، وهل حقًا لن يعود سامر للعمل بالشركة؟.
تأففت وهي تتذكر كلمات سما لها، كلمات مهينة لا تحمل إلا كل حقد، ولا تعلم أهو حقدًا عليها أم فقط حقدًا على من عَيَنها؟!.
واستبدلتها بسهولة بنفس الموظفة التي طردها سامر والحجة أنها تتقن عملها وتدري عنه أكثر منها، فلمَ لم تعيدها للحسابات إذن؟
لوت شفتيها بضيق:
- روحي يا شيخة منك لله.. تقعدي كده ولا تكسبي ولا تربحي.
- بتدعي على مين يا زينة؟.
قالها عبد الحكم وهو يقترب منها فاعتدلت قائلة:
- ها.. لا أبدًا يا بابا.. هدعي على مين يعني؟!
ابتسم وتجاوز الأمر ليقول:
- يابنتي اللي حصل حصل.. إنتِ اشتغلتي شهرين معاهم ممكن ينفعوكي في التقديم لشغل تاني.. جربي هتخسري إيه؟!.
- أصل يا بابا عدي يومين بس وأنا قلت يمكن...
صمتت لعدم جدوى ما تقول، هي تنتظر اتصاله، نعم لا يمكنها انكار هذا.
توقعت.. وترقبت.. ولكن لا شيء.
هاتفها صامت كالجثة الهامدة، لقد نساها بسهولة فما يحمله من هموم أكبر من أن يتذكرها.

ربت أباها على كتفها وكأنه يدري ما تفكر فيه:
- اطلعي يا زينة ودوري على شغل تاني وربنا هيكرمك.
أومأت في استسلام:
- حاضر يا بابا.
وقف مغادرًا تتبعه نظراتها الحزينة، سعادة عاشتها ولم تدم، لم تتصور أن الرجل الذي رأته لأول مرة وتمنت أن توجه له كل أنواع الشتائم، هو نفسه من تترقب اتصال منه الآن.
اتصال وصل لها بالفعل لتحدق في شاشة هاتفها بذهول تتأكد أنها لا تهذي:
- ألو!!
قالتها بسرعة ولهفة واضحة وأتاها صوته الهاديء:
- إزيك يا زينة؟!
- أنا الحمدلله.. إزيك أنت.. أقصد إزي حضرتك؟!
وكأنها رأت ابتسامته الهادئة وهو يجيبها:
- الحمدلله بخير.. عاملة إيه؟.. والشغل أخباره إيه؟!
مصمصت شفتها لتطلق ذلك الصوت المميز:
- شغل إيه؟؟.. ما الهانم طردتني!!
- نعـــم.. طردتك إزاي يعني؟!
- أنا عارفه.. رجعت تزعق وتشخط وإني ماعنديش خبره وهتجيب الأحسن مني اللي كانت شغاله قبلي وقالتي بالسلامة.. بعد ما سمعتني من المنقي خيار.
- إيه.. سمعتك إيه؟!!
- أأأ.. لا قصدي يعني ...مش مهم.. المهم إني مشيت في نفس اليوم اللي حضرتك خرجت فيه.. هو فعلًا مش هترجع الشغل تاني؟.
- حاليًا أه.. وعموما ولا يهمك.
- لا عادي ما أنا هقدم على وظايف تانية .. وربنا يكرم.
- لأ ماتقدميش.

لو أمكنه رؤيتها وهي تتراقص على الفراش فرحة لربما انقلب على ظهره ضاحكًا خاصة أنها قالت عكس ما تُبدي:
- ليه.. ما أنا لازم أدور على شغل؟!
وصل لها زفرته لتكتم ضحكاتها:
- ما إنتِ شغاله معايا يا زينة.. أنا صحيح سيبت الشركة بس مش سامر اللي يقعد من غير شغل.. قريب قوي هكلمك تاني وهقولك هنعمل إيه.. ومرتبك ماشي زي ما هو.
- خلاص يا سامر بيه.. اللي تشوفه.
- تمام.. سلميلي على عم حكم وسومة.. سلام.
- يوصل إن شاء الله..سلام.
أنهت المكالمة لتُلقي الهاتف بفرحه عارمة وهي تقف لتقفز على فراشها بجنون مطلقة صيحات متتالية.
....

كانت عودة تحمل مشاعر كثيرة، عادوا جميعًا للمنزل، تخالطهم مشاعر الفرح بعودة بسمة معهم، رغم أنها لم تتحدث إليهم قط، فقط تستيقظ فزعة من نومها تصرخ وتبكي حتى تهدأ، الكوابيس لا تترك لها الكثير من الوقت لتنال نومًا هادئًا.
ليكتب لها الطبيب بعض المهدئات وأخبرهم إن استمرت حالتها فعليهم عرضها على طبيب نفسي، حذرهم من الحديث معها في الأمر والابتعاد عن أي شيء قد يذكرها به وكذلك محاولة شغلها بأي أمور أخرى مفرحة.
استمر جاهين في تفادي الظهور أمامها وبقدر ما كان يؤلمه هذا إلا أنه أفضل من أن يرى بُغضها له حتى وإن كان مؤقتًا.
فقط يسرق لحظات يراها فيها حين تغط في النوم، وكم من مرة تمنى أن يلامس وجهها ويهمس لها بمدى حبه له، وأنه سيفعل ما بوسعه كي لا يخسرها ثانية، لا بل تمنى أن يطلب منها الغفران، المسامحة على تقصيره غيرالمقصود.

وكل ما كان يناله لحظات يراها فيها ثم يبتعد.
ولولا استجابتها لفاطمة والفتيات لأصر على عرضها على طبيب نفسي، لكنهم أرجعوا الأمر إلى أنها لا تريد الحديث إلى أي رجل.
ومر يوم تلو آخر والحال على ما هو عليه.
ومن الجانب الآخر وافي يتجنب سميحة تمامًا كما هو واضح للجميع، ربما قرر أن يمنح نفسه بعض الوقت قبل أن يقرر كيف سيتعامل معها، وهو لم يتدخل.
سميحة بالنسبة له تشغل حيز آخر.. شكوك فاطمة تجاهها تشغله، لكن عدم وجود أي نفع منها يوقفه.
سميحة لن تفعل هذا بابنة أخيها ومن ستكون زوجة ابن أخيها الآخر، لن تفعل هذا أبدًا.
عقله يرفض تمامًا مجرد التشكيك في هذا وإلا ما ظل صامت.
انتفض في مكانه مع صوت صراخها الذي أضحى يميزه مهما بعد عنه، هب عن الأرض العشبية التي كان يرقد عليها كعادته، هرع للداخل ليصل إلى أعلى في قفزتين.
تحول صراخها لبكاء مسموع يخالطه صوت فاطمة الراجية لها أن تهدأ، ليرى وافي يتقهقر للخلف وهو يغلق باب غرفة أخته ويستند برأسه على بابها يعتصر مقبضه في قبضته، أسرع له جاهين:
- في إيه.. إيه اللي حصل؟!
هز وافي رأسه:
- مستحيل.. ماما لا يمكن تعمل كده.
- ماما مين.. بتتكلم عن مين.. أبلة بطة ولا عمتي؟.
تحرك وافي لغرفته ليتبعه جاهين بنفاذ صبر:
- ماتتكلم يا وافي بسمة مالها؟!
استقرا داخل غرفته بالفعل، ابتلع وافي ريقه بصعوبة قائلًا:
- بتقول إنهم كانوا قابضين.
- هما مين دول؟!

قال وافي بعصبية:
- اللي خطفوها.. كانوا قابضين يا جاهين سمعت بودنها.. كانوا قابضين علشان يخطفوها..و..و.
عقد جاهين حاجبيه حتى كادا أن يلتصقا:
- وإيه؟!!.. ماتتكلم.
- و..و يعتدوا عليها.. كانوا قابضين فلوس علشان يعملوا كده.
وعادت القبضة الباردة تستولى على قلب جاهين بقوة وهو يحدق في وافي بغير تصديق.
- يعني إيه؟.. يعني هما فعلًا... فعلًا..
لم يستطع نطقها وكيف له أن يفعل؟!!
- لأ.. بتقول سابوها فجأة.
زفر براحة قد لا يدركها وافي نفسه قبل أن يلقي بجسده على فراش وافي جالسًا يتنفس الصعداء فأردف وافي:
- بسمة مصرة إن.. إن ماما اللي عملت كده.
- مش ممكن... مش للدرجة دي؟!
- ما أنا قلتلها كده... وأول ما قلت كده صرخت زي ما سمعت كده ودخلت في حالة انهيار.
عقد جاهين حاجبيه مفكرًا:
- هي قالتلك حاجه تاني غير كلمة قابضين دي؟!
- لأ ماقلتش.
- أومال متأكدة كده ليه؟!
- مأعرفش... مأعرفش
كررها وافي بحيرة، فعقد جاهين أصابعه أمام وجهه مستندًا على ركبتيه:
- هي محتاجه تغير جو.. تقريبا لسه في حالة صدمة.. إيه رأيك لو ناخدهم كلهم ونسافر نروح مارينا أو بورتو ونقعد يومين.. أعتقد ده هيساعدها كتير.
- موافق جدًا.. أيوة صح هي لازم تغير جو.

وقف قائلًا:
- طب خلاص قولهم يجهزوا نفسهم بكرة الخميس نطلع بعد الضهر ناخده هو والجمعة والسبت ونيجي الأحد الصبح.
أيده وافي ليغادر جاهين غرفته.

"اللي خطفوها كانوا قابضين"
كلمات لم تبرح عقله للحظة، من هذا الذي قد يدفع مالا ويزج بهؤلاء المرتزقة ليختطفوها بل وليعتدوا عليها أيضًا، أغلق عينيه يحاول أن يبعد عنها كل التخيلات التي تصاحب تلك الأفكار، بسمة نجت.. هي بخير وهذا يكفي.
لكن هناك هاجس ما يُلح عليه، يجب أن يبحث في الأمر ولا يتركه يمر مرور الكرام، ماذا لو أعادوا الكَرة؟!
....
نذل .. حقير.. لا خُلق له.
بل وأكثر!!
كل تلك المعاني تملأ رأسه ولا يستطيع إسكاتها، اتصل به مرارًا لا يجيب، ذهب إلى الشقة طرق بابها كثيرًا لا مجيب، سيارته أمامه الآن ينظر لها بصمت ثم يرفع رأسه إلى البناية الشاهقة.
هذه المرة الخامسة التي يأتيه فيها ولا يرد عليه أبدًا.
أمسك هاتفه ليترك له رسالة صوتية جديدة.
"سامر.. أرجوك سامحني.. أنا عارف إن غلطي كبير.. بس أنت لازم تعذرني.. طب أنا عايز أشوفك.. عايز أتكلم معاك.. سامر أرجوووك رد عليا... أنا مش هاخد مكانك أُقسملك مش هاخده.. ارجع يا سامر.. ارجع الشركة أنا اتكلمت مع ماما وهي قالت يرجع لو عايز.. ارجع يا سامر علشان خاطري.. طب علشان خاطر بابا الله يرحمه.. ارجع."
لم يجد ما يضيفه فضغط زر الارسال، ظل مكانه يستند على سيارة أخيه في انتظار أي رد.. وانتظر.. وانتظر.. وأخيرًا رسالة مكتوبة إلى هاتفه:

"سامر أخوك مات.. انساه.. وحقي هجيبه لوحدي"
ظل يحدق في الكلمات لبرهة رافضًا تصديقها، تغلبت عليه مشاعره كالعادة ففاضت عيناه بالعبرات.
لمَ هو أحمق هكذا؟!
خسر بسمة والآن خسر سامر.. ولا يمكنه أن يثق بأمه!!
أي نوع من العقول يملك في رأسه.
انتبه إلى هاتفه الذي علا رنينه، أجاب بعد أن علم المتصل:
- أيوة يا ماما.
- أنت فين؟!.. أنت مش مستوعب أنت بقيت إيه؟!.. المدير التنفيذي..ماينفعش تفضل بره طول الوقت تعالى عالشركة على طول وشوف شغلك يا معاذ أحسن والله هوريك الوش اللي مبتحبوش.. سامعني.
أغلقت الخط بوجهه، لتزيد حسرته على أخ كان له سند فهده بيديه.
اتجه إلى سيارته يجر أذيال الخيبة، ولم ينتبه لتلك الزوج من العيون التي تتابعه من أعلى، بنظرة حملت حزنًا وصدمة لم تبارحه بعد، ليعيد تشغيل رسالة أخيه الصوتية ويسمعها.
ولا يعلم لماذا؟!.. أيفتقد صوت أخيه الأصغر، أم يريد أن يستشعر مدى حزنه وندمه على ما فعل به؟!.
أوقف الرسالة في منتصفها وهو يلقي الهاتف على الأريكة.
- خلاص يا معاذ.. أنت اللي جيبت آخرها.. ماتلومش غير نفسك وكلكم هتشوفوا سامر تاني خالص.

....
برغم سعادته بقبولها السفر، إلا أنها لم تسمح له بعد بالاقتراب والحديث معها، كلما لاح لها أشاحت بوجهها عنه.
كانت تسير أمامه في اتجاههم إلى المنزل الصيفي الصغير المطل على البحر في هذا الساحل الأنيق والذي هو ملك العائلة بالفعل.
هزيلة... شاحبة.. واهنة.

فقدت الكثير من عنفوانها واندفاعها الدائمان، فماذا لو كان وصل الأمر إلى المرحلة الأسوأ ونالوا منها، ربما لأصبحت جسدًا بلا روح، لديه الكثير ليقوله لها، فقط لو تسمح له.

استقروا بالداخل، وافي وجاهين في غرفة معًا، وفاطمة وبسمة في غرفة ونانا ومها في غرفةٍ ثالثة.

لم يكن السفر متعبًا فقرر الجميع الجلوس على الشاطيء قبل المغيب، وبعد أن استقر النسوة ذهب وافي وجاهين لإحضار الطعام والشراب اللازمين ليومين.

كانت جلسة هادئة لم يتحدث فيها أحد كثيرًا فقط نانا التي تعبر عن إعجابها بالمكان وهي تحاول أن تشارك بسمة الحوار لتخرجها من حالة الصمت التي استسلمت لها بسمة.

ونجحت في هذا ليصل صوت بسمة الباهت قليلًا إلى جاهين الذي سعد بهذا، فلقد افتقد سماع صوتها كثيرًا.

كانت لحظة الغروب جذابة بقوة فصمت الجميع لمتابعتها، كلًا يحمل في عقله ما يكفيه من أفكار.

كان أكثرها ضراوة مع الصامتة على الدوام.

بسمة.. لا تتوقف عن استعادة لحظات الرعب تلك التي مرت بها، عقلها يأخذها من احتمال لآخر، أحيانا يصور لها أنهما نجحا فيما أرادا ونالا منها، ويعيد لها ذاكرتها ووعيها بالرفض وأنها بالفعل نجت، لينقلها بعد ذلك لمحاولة إيجاد الدليل.

سميحة هي المختطفة لا تستطيع أن تزيل ذلك الاحتمال من رأسها لكن كما قالت أمها... " وهتستفيد إيه؟!!"

نعم.. أين الإفادة؟.. لو استطاعت أن تجدها لارتاحت كثيرًا، ودمرت سميحة تلك تدميرًا.

رفعت بصرها نحوه، تعلم أنه دومًا يراقبها حين يكون قريبًا، داخلها الكثير من الغضب لا تعلم أين توجهه، فضلت الصمت وعدم الحديث كي لا تنطق بكلام موجع، ألم يعدها بحمايتها؟! وهي لا تلومه على الحادث فكيف كان سيعلم؟!

لكن اللوم كله على أن لا أحدًا منهم يُصدقها، لا أحد يريد أن يشكك في سميحة وهذا يزيد غضبها كثيرًا.
منحها نظرة محبة حين التقت أعينهما لتدير بصرها عنه وكأنها ترفضه.
زفر وهو يقف ليقول وافي:
- رايح فين؟!
- هتمشى شوية.
ابتعد بخطوات قصيرة لتقول نانا:
- استنى خد بوسي معاك... ماتقومي تتمشي شوية.
قالتها وهي توكزها في ذراعها، فالتف والأمل يداعبه لتقطعه هي بكلمة مقتضبة:
- لأ.
لتلوي نانا شفتيها ليستدير جاهين وقد بدت خطواته سريعة وعصبية.
بينما قالت مها:
- مابلاش اقترحاتك اللي بتقلب نكد دي.
ضحك وافي لينظر له الجميع بدهشة، أكان ما قالته مها مضحك لهذه الدرجة؟.
شعر بسخافة موقفه فنهض بحرج:
- أنا هتمشى مع جاهين باين عليه اضايق.
أسرع للحاق بابن عمه بينما خفضت مها بصرها وقد زادت حمرة خديها لتنظر فاطمة لها للحظات قبل أن تبتسم في ود.
لتلتفت إلى ابنتها:
- إنتِ هتتكلمي مع جاهين أمتى؟!
لم تجيب بسمة فتدخلت نانا:
- إنتِ بتعاقبيه ولا حاجه.. طب هو ذنبه إيه؟.. ده كان بيمووووت يا بوسي وإنتِ مخطوفة.. مش هقدر أوصفلك حالته كانت عاملة إزاي ولا عصبيته وقلقه وخوفه، وحتى في المستشفى بعد ما صحيتي وصرختي فيه بطل يدخل إلا وإنتِ

نايمة.. يالهوي على نظرته ليكِ... هيييييييييح... تحسي كده إن نفسه ياخدك في حضنه.
- ماتبطلي كلامك ده.
قالتها مها بنزق فأردفت نانا:
- في إيه... ده خطيبها وهيبقى جوزها.
- برضو مش من حقِك تتكلمي بالطريقة دي.
- مش من حقٍك!!
قلدتها وهي تزفر بضيق:
- الله يكون في عون اللي هياخدك يا شيخة.. هيتجوز واحد صاحبه... أنا داخله.
زفرت مها بلا تعليق بينما فاطمة علقت بصرها بابنتها الصامتة، كم تتمنى أن تدخل إلى علقها وتدري ما فيه من أفكار، فهي لا تشاركها بالكثير، وكانت تستعيض بالفتاتان والآن حتى الفتاتان لا تشركهما بشيء.
استمر جلوسهما لدقائق أخرى لتطلب بسمة الدخول فقامت مها معها بينما فاطمة ظلت هي مكانها.
ومر بعض الوقت ليظهر على قرب منها الشابان وهما يعودان أدراجهما، انتبها إليها فاتجه جاهين للمنزل بينما اقترب وافي منها ليجلس جوارها:
- مدخلتيش ليه يا ماما؟!
اتسعت بسمتها على الفور، كم اشتاقت لأن يقولها لها دون تردد، دون وجل، دون مجاملة.
- كنت مستنياك.. جاهين زعل.
- هو زعلان بس مُتفهم.. ومش مستعجل على بسمة.
- ربنا يهديها ليه.
ابتسم وافي لها بحب، لتراقب ملامح وجهه التي ما عادت تفارقها كما سبق، هو دومًا قريب، ذاك القرب الذي حلمت به طويلًا.
لتتذكر أول لحظات لقاءَهما والتي كانت قمة البرود منه وقمة الشوق منها.

ترقرقت عيناها بالدموع فبدى الضيق على وجهه:
- في إيه.. مالك؟!
مدت يدها تربت على وجنته، تلامس ملامح وجهه:
- ياما سمعت صوتك وأنتَ جاي من المدرسة مع أختك بتشتكي أو بتحكي.. ياما اتخيلت صورتك وأنتَ بتكبر يوم ورا يوم.. نفسي أعوض كل ده.. نفسي أرجع الزمن وكل يوم خسرته وأنتَ بعيد عني يابني.. نفسي أنا اللي أأكلك وأشربك وأربيك وأكبرك.. نفسي في حاجات كتيييير قوي.
انهمرت عبراتها بغزارة، فكانت كنقاط حامية على قلبه، كم تألمت وهو ساعد في هذا؟!.. ولكن أليس هي من استسلمت؟!.
لم يحب أبدًا كونها لم تحارب لأجله، لكنه في النهاية اقتنع بأن شخصيتها ما كانت لتسمح بغير ذلك.
كانت تنتفض فعليًا أمامه، جلس على ركبتيه أمامها، مد ذراعيه أحاطها وضمها إليه أراح رأسه على صدرها الحاني، ربت على ظهرها، فزاد بكاءها لم يعرف كيف يتصرف، مشاعر جمة تتضارب بعقله وقلبه.
ضمها إليه بقوة هامسًا بصوته الحزين:
- وأنا في ابتدائي كنت تلميذ كسلان بسبب مرضي وفوت سنتين دراسة.
كانت تستمع له ببسمة شفقة وحزن ليردف وهو لا يزال يضمها:
- وفي إعدادي العلاجات بقت أحسن وحالتي كمان فكنت بقيت أشطر ومجتهد في دراستي.. وفي الثانوية...
استمرت كلماته وهي تستمع، وكأنه قرر أن يجعل ماضيه جزء منها كما تريد، سيخبرها بكل ما يذكره، وكلما تذكر شيء آخر سيقصه عليها.
أناملها تتداعب خصلات شعره وصوت بكاءها المكتوم لازال يصله، فكانت الغصة التي اقتطعت كلماته ليقبض بأصابعه على ملابسها وقد شاركها البكاء بصمت:

- وحشتيني قوي يا أمي.. وحشتيني.. حلمت كتير بإني في حضنك.. بإن أنتِ اللي بتخففي وجعي.. كان نفسي تكوني جنبي ومعايا كان نفسي يا أمي... سامحيني.
دفعته عنها لتنظر لوجهه الذي أغرقته العبرات، رفعت أناملها تزيحها عن خديه لتهز رأسها نفيًا:
- لأ.. سامحني أنتَ.. سامحني إني مادفعتش عن حقك فيا وحقي فيك.. سامحني إني ماكنتش قوية وحميتك من اللي بعدتك عني.. سامحني إني ماكنتش الأم اللي تعرف تخربش لما حد يقرب لولادها.
كل جملة لحقتها شهقة بكاء منها وتربيتة كف منه، ليضمها له ثانية وينال منها شهيق ليعرف أخيرًا تلك اللفظة التي سمعها كثيرًا في صغره..
رائحة الأم والتي لا يخطئها أي طفل.
وكما توقع، رائحة دافئة.. حنونة.. وذات عبير هادئ.
ومن خلفهما شاركتهما هي أيضًا البكاء، لتعود للداخل وقد استقرت الفرحة بقلبها، أمها البديلة نالت ما تمنت وعاد لها طفلها، بسام عاد لفاطمة.
وغلبتها مشاعرها التي دومًا تخفيها، بسام.. أصبح قريب.. قريب جدًا.
فهل أضحى لها مكان بجواره كما تتمنى؟!.

ومرت الليلة الأولى هنا.
بسام وفاطمة كانا أول المستفيدان فهل سيستفيد المزيد من الحاضرين إلى هذا المكان؟!، هل سيكون البحر هو الشاهد الأول على زواره حين يخرج كل من فيهم مكنون صدره.

....
في صباح اليوم التالي
استيقظ جاهين على نداء فاطمة الخائف، فاعتدل ليتأكد مما يسمع وكذلك انتبه وافي من نومه، فخرجا لها وهي تقف على باب المنزل.
- في إيه يا أبلة بطة؟!

قالها جاهين بقلق فأجابت:
- بوسي.. صحيت ملقيتهاش جنبي.. دورت عليها في كل حته وبره لفيت حوالين البيت كله وبرضو مالقتهاش.
تبادلا جاهين ووافي النظرات، ليقول الآخر:
- يمكن بتتمشى على البحر ولا حاجه.
- أيوة يا ابني بس هي من ساعة اللي حصل وإحنا مش بنسيبها لوحدها.. شوفها راحت فين؟!
- حاضر يالا يا جاهين.
هرعا إلى الشاطيء ليشير وافي إلى اليمين:
- إمشي أنتَ من هنا وأنا همشي العكس.
اتجه كلا إلى وجهته على طول الشاطيء، جاهين تمَلَكه القلق الذي رآه على وجه فاطمة، فآخر ما يتصوره أن تؤذي بسمة نفسها بسبب حالتها تلك.
وهذا ما قرأه في عينيْ فاطمة، هي تخشى على بسمة من أن تُلحق بنفسها الضرر.
وكان لهذا الهاجس الدافع ليهرول على الشاطيء بدلًا من المشي وعيناه تتلفت هنا وهناك.
لمَ كلما تصور أنها أضحت قريبة يخشى فجأة أنه قد يخسرها وإلى الأبد.
تسمر مكانه يُكذب عينيه التي اتسعت عن آخرها وهو يراها هناك، تتوغل في ماء البحر بلا توقف، صرخ بكل ما اعتمل داخله من قلق وما ينشأ الآن من خوف:
- بسمااااااااا.
لم تتوقف، لم تلتفت، وكأنها لم تسمع شيئًا.
هرول إليها وهو يجتاز البحر خلفها لم يكرر ندائه فهي ليست هنا، هكذا شعر.
خطواتها كانت بطيئة والمياة وصلت إلى خصرها، لحق بها ليجذبها من ذراعها لتنتفض وهي تصطدم بصدره بينما يصيح:
- بتعملي إيه يا مجنونة؟!!

التفتت تحدق به بفزع:
- في إيه؟؟
استغرب سؤالها:
- هو إيه اللي في إيه.. هتموتي نفسك؟
دفعته عنها لتعود أدراجها بعصبية:
- هموت نفسي إيه بس؟!!
صرخ من خلفها:
- أومال كنتي ناوية على إيه؟!
لم تهتم بالرد وأكملت خروجها الشاق من الماء، لكنها انتبهت إلى نصفها السفلي الذي ابتل تمامًا فألصق عباءتها بجسدها. فتوقفت وتقهقرت للماء ثانية بينما جاهين أصبح بجوارها يتابعها بدهشة، أفقدت عقلها أم ماذا؟!
- إنتِ بتعملي إيه؟!
- أنتَ إيه اللي جابك.. وصحيتوا بدري ليه.. هرجع إزاي دلوقتي.. اتفضل اسبقني وأنا همشي وراك وإياك تبص ناحيتي.
ظل يحدق بها بغير استيعاب، ما الذي أصابها؟!
- جاهين هدومي غرقانه مايه ولازقه في جسمي.. ممكن تبعد.
أخيرًا استوعب القليل من كلماتها، لكنه لازال لا يعي ما الذي كانت تنوي بدخولها إلى عمق البحر هكذا.
خلع قميصه الذي لم يكن ابتل بعد، ومد يده لها:
- لما تخرجي أربطي ده على وسطك.
التقطته منه ليسبقها بعدة خطوات وما أن أصبحت خارج الماء حتى عقدت القميص على خصرها.
وقبل أن تتحرك التفت لها قائلًا:
- ممكن أفهم بقى.. إنتِ كنتي ناوية على إيه؟!

رفعت نظرها إليه وربما هي المرة الأولى منذ ذلك الحادث تنظر له دون مواربة. حدقت به للحظات ولا تعلم لمَ استعادة كل شيء في تلك اللحظة، كلماته لها بحمايتها، الاختطاف، الضرب، محاولة الاعتداء.

لتبرق عيناها فجأة بالدموع وهي تمر بجواره هاربة.

أمسك ذراعها فأوقفها:

- بسمة مش عايزك تهربي مني.. عايزك تهربي ليا.

نظرت له ولم تستطع أن توقف عبراتها عن النزول، فنظر لها بحزن بالغ:

- أنا آسف.. سامحيني.

هذه المرة كان عدم الفهم من نصيبها، علاما يعتذر؟!

اكتفت بالصمت ليكمل هو:

- وعدتك أحميكِ وفشلت.. اللي حصل كان فوق طاقتي ولا خطر في بالي أبدًا إنه ممكن يحصل.. وعلشان كده خايف أوعدك تاني.. بس هقولك إني دايمًا هحاول.. دايمًا هكون جنبك على أد ما أقدر... صدقيني.. على أد ما أقدر.

حرر ذارعها فاستدرات مسرعة في العودة بينما ظل مكانه للحظاتٍ قبل أن يخلع قميصه القطني ويهرع إلى الماء ربما تطفيء ذاك اللهيب المستعر داخله.

....

هدأت الأجواء بعودة بسمة والتي أخبرتهم أنها أرادت التجول وحدها قليلًا، مرت الساعات التالية بشكل طبيعي.

وبينما الكل بالمنزل أرادت مها أن تخرج للشاطيء، وبالفعل وصلت له والسعادة تداعبها، خلعت نعليها ووقفت تداعب الماء والرمال بقدميها، سرعان ما تناست نفسها ودخلت في لعبة مرح مع البحر، تخطوا إليه وما أن جاءها الموج تقهقرت بسرعة قبل أن تلمسها الماء، مرة تفوز ومرة ينال البحر من أقدامها لتضحك بعدها.

ومن خلف النافذة شاركها الضحك لكن بقلبه فقط، مع ابتسامة عريضة على شفتيه.

شعر بأنامل توضع على كتفه فانتفض ملتفتًا لتضحك فاطمة:
- بسم الله.. اتخضيت كده ليه؟!
- لا أبدًا.. ماتخضيتش.
نقلت بصرها إلى حيث كان وليدها ينظر، لتتسع بسمتها في الحال وهو تعود لتراقبه بنظرةٍ ذات مغزى فأراد التهرب بقوله:
- مش عايزين حاجه أروح أشتريها.
- لأ مش عايزين.
قالتها وهي لازالت تمنحه نفس النظرة التي تحولت لحنان جارف وهي تقول:
- تعرف إن مها دي أطيب قلب ممكن تقابله في حياتك.
تابعت تلك الصغيرة مهما كبرت لتردف:
- دايما جواها عيلة.. بس عيلة عاقلة..ما أعرفش إزاي؟! كانت هي الإيد اللي بتطبطب عليا في كل وقت.. بوسي ساعات قلبها كان يجمد عليا وتتخانق لكن مها عمرها.. عمرها ما زعلتني.
استمع لكلماتها التي راقت له وهو يتابع مها بدوره وهي لازالت تلاعب مياة البحر.
- يا بخت اللي هتكون من نصيبه.
التفت سريعًا يحدق بأمه وقد أصابه الارتباك فكتمت ضحكتها قائلة:
- إيه رأيك... أكلمهالك؟!
عاد خطوة للوراء مستنكرًا:
- تـ..تكلمهالي؟!.. مش فاهم.
- مالك اتخضيت كده ليه.. هو أنا لو هختار لإبني مش لازم أختار صح.. ومها دي عين الصح.. والحمدلله ربنا كرمها وردلها بصرها.
- ماماا.. بتقولي أيه بس؟!
مطت شفتيها:
- يا سلام يعني أنت مش مهتم بيها خالص.. مش في دماغك يعني؟!
- ها.. أ.. أنا.. طب مايمكن هي اللي ترفض.

- إيـــه.. ترفض.. مها حبيبتي عمرها ما رفضتلي طلب.. ثم هي هتلاقي أحسن منك فين؟!
لم يجد بدا من الضحك وهو يضرب كفًا بكف:
- دلوقتي اقتنعت أكتر إن بقالي أم.. وأصبح شغلها الشاغل تجوزني... ياماما إهدي شوية هو أنا هطير منك.
- خير البر عاجله.. أنا اطمنت على أختك عايزة أطمن عليك أنت كمان وعلى مها برضو ماهي بنتي... وعقبال يا رب ما ربنا يهديكي يا نانا وأطمن عليها مع محمد.
- محمد مين؟!
- متغيرش الموضوع.
تبًا.. لم يُجدي الأمر نفعًا فزفر قائلًا:
- ماما بلاش تحرجي البنت؟!
- إحراج إيه... دي تربيتي وأنا عارفاها كويس.. ثم أنا مش هغصبها.. لو قالت لأ يبقى خلاص.
التقى حاجبيه وقد ضايقه هذا الاحتمال بينما هي تتابعه بنظرة خبير، هو يكابر ليس إلا لتردف:
- ثم أي أم في الدنيا ممكن تدور على عروسة لابنها أنا مش بعمل حاجه غريبة وماتقلقش مش هقولها أني قلتلك هفهمها أني باخد رأيها هي الأول علشان الاحراج يا سيدي.. كويس كده؟!!
"أي أم في الدنيا!!"
انتبه لها ربما للمرة الأولى رغم أعوامه الثلاثة والعشرون لم تحدثه سميحة أبدًا في الزواج.
- تعرفي إن ماما سميـ.. قصدي عمتي ماكلمتنيش أبدًا في موضوع الجواز قبل كده.
شعرت بالشفقة على وليدها ولسانه يحتار ما بين لقب أم وعمة، ربتت على صدره:

- قولها زي ما تحب..المهم إنك رجعتيلي.. هي ربتك ٢٣ سنه صعب تنسى ده أو لسانك يغيره.
- إنتِ بجد طيبة قوي يا أمي.
ابتسمت له بحنو:
- يعني خلاص أكلم مها.
- أوووووه.. هو جاهين فين.. يا جاهين؟!
تركها باحثًا عن ابن عمه لتضحك وهو يفر من أمامها لتلوي شفتيها:
- صبيان أخر زمان.. ده بيتكسف ده ولا إيه؟!
ولم تنتظر بل أسرعت للخارج حيث بقيت مها مكانها اقتربت منها لتقول:
- حبيبتي عاملة إيه؟!
التفتت لها مها لتحاول النهوض:
- لااا.. خليكي ده أنا هقعد جنبك.
ضحكت مها:
- هتقعدي على الأرض.
- يا سلام... ماطول عمرنا قاعدين عليها.. ولا علشان شوفنا يومين على الكنب والسراير هننسى الأرض وقعدتها.. والله ماكان في أحلى من قعدة الأرض.
أنهت جملتها وهي تجلس بجوار مها التي احتضنت ذراعها ووضعت رأسها على كتفها لتربت فاطمة بحنان على رأسها:
- ربنا يفرح قلبك ويراضيكي يا مها.
- آمين.. ويخليكي ليا وميحرمنيش منك أبدًا يا أبلة بطة.
- بت يا مها.. أنتوا مش بتقولوا ماما ليه وخلاص.. قولي ماما من هنا ورايح.
ضحكت مها:
- إنتِ بالنسبة لي ماما سواء قلتلها أو لأ.. يا ماما بطة.
- في حاجه كده كنت عايزة أخد رأيك فيها.
اعتدلت مها تنظر إليها ولازالت محتفظة بنظارتها الشمسية:
- خير.

- عندي ليكِ عريس.
ظلت تحدق بها للحظات مرددة بدهشة:
- عريس!!
- أه عريس.. شابة قمر زيك إيه اللي يمنع يجيلها عريس.
صمتت مفكرة، أي شخص هذا الذي قد تقدم لها، والقلب يهفو لشخص بعينه والعقل يستنكر أنه قد يقدم على تلك الخطوة.
- مين ده؟!
سألتها باهتمام فقالت فاطمة بمكر:
- حد أعرفه.. المهم إنتِ موافقة على المبدأ.
عقدت مها حاجبيها وقد تسرب الشك إلى قلبها أكثر، لو كان بسام لقالتها فاطمة بفرح لكن يبدو أنه شخص آخر.
- مش لما أعرف مين الأول.. وأصلا لسه بدري!!
قالتها بنزق لتكتم فاطمة ضحكتها:
- لسه بدري ليه بقى.. ده عريس لقطة خديها مني كلمة.. يالا بقى خليني أفرح بيكِ زي بسمة وعقبال نانا كمان.
زفرت بضيق:
- في إيه بس يا أبلة بطة.. هو أنا مضيقاكِ في حاجه.
- لا أبدًا كل الحكاية عايزة أطمن على ابني وبنتي.
رفرفت بجفنيها لتستوعب ما سمعت مرددة:
- ابنك.. وإيه علاقته بالموضوع؟!
ضربت فاطمة كتفيها برفق:
- يا بت خليكِ ناصحة.. العريس هو ابني.. ها .. إيه رأيك فيه بقى؟.
وهل كانت بحاجه إلى رد، فملامح الفرح والخجل التي اجتمعت بوفرة على وجه مها لم تمنحها أي وقت لإنتظار أي رد.
- ها قلتي إيه؟!

وبدلا من أن تقول شيئًا هبت واقفة وهي تخفي وجهها خلف كفيها مسرعة للداخل وفاطمة تناديها:
- يا مها... بت يا مها.. طب قوميني طيب.
لكنها كانت اختفت بالداخل بالفعل، لتضحك فاطمة على ردة فعلها والسعادة تغمرها وتملأ قلبها على وليدها وفتاة بمثابة ابنةٍ لها.

وفي المساء لم تقدر أن تصبر بعد أن تناولوا العشاء وقفت لتصفق بكفيها:
- عايزة أقول حاجه مهمة.
انتبه لها الجميع بفضول وما أن نظرت لبسام ومها بابتسامة رضا حتى أطرقت مها رأسها أرضًا بخجل واضح، بينما بسام يطالع أمه بتوجس... ستفعلها؟!.. لا لن تفعلها!!
- بسام طلب مني مها وأنا وافقت.
ظل الكل مكانه للحظة وكأنه يعي ما سمع وكأنت أول القافزين فرحًا نانا والتي أطلقت زغرودة طويلة وقوية لتقول بعدها:
- يااااااه... ألف مبروك يا مها ألف مبروووووك.
قالتلها وهي تحتضن أختها التي اختفى لونها الحقيقي خلف رداء أحمر قاني من كثرة الحرج.
ولأول مرة تبتسم بسمة منذ ما حدث مرددة:
- أحلى خبر سمعته.. ألف مبروك يا مها ومبروك ليك أنتَ كمان يا بسام.
كان بسام يتلقى ضمة صدر قوية من جاهين مباركة ليتقبلها بضحك مرتبك:
- الله يبارك فيكم.
طالعتهم فاطمة بسرور وابتهاج، كانت واثقة أن ما تفعل هو ما يريده هؤلاء الإثنان حتى لو تهربا منه، وهي تريد أن ترى فرحتها بهما، بل وفرحة ابنتها التي تثق أن خبر كهذا سيجبرها على خرق جدار صمتها وحزنها الدائم.
عليهم أن يطووا تلك الصفحة ويبدؤوا من جديد.
تأملت عائلتها التي كبرت، بعودة ابنها وابن عمه إليها.

لترتسم ملامح الرضا على وجهها بأريحية، ولم يتبقى غير حديثٍ طويل مع بسمة لتعجل بزواجها بجاهين وبهذا لن يتبقى لها غير نانا ومحمد.
وحينها فقط لن تقلق إن ضعف قلبها وقرر الراحة للأبد، يكفي أن بالها ارتاح على أعز ما لها في هذه الدنيا، وحينها فقط ستتمنى اللقاء بمن علمها الحب وتركها قبل أن تشبع منه.

....

بعد كل ما فعلت أصبحت وحيدة في منزلها الكبير، خواء رهيب يملأ جوارحها، صعدت درجات السلم إلى غرفة فاطمة التي كانت لأخيها حتى ولو لم يدخلها أبدًا.
وقفت في منتصفها تطالع صوره التي ملأت المكان.
تكابح عبرات تنوء بها عينيها، لتقترب من أكبر إطار حوى صورة له، وكلمات بسام تتردد في عقلها " وافي ده اسم بابا.. أنا اسمي بسام"
أحقًا انتهت القصة هنا.
الفتى الصغير.. الشاب الغُر الذي ربته وكان لها كل شيء قرر فجأة أن يكون مع فاطمة وينساها، كما فعل أبيه بالضبط.
ألم يخبروها أن الأم هي من تُربي؟... ولقد ربت.. ربت لسنوات وسنوات، فإذا بأخيها يتركها لأجل فاطمة، وها هو الصغير الذي ربته أيضًا لسنوات، ذهب للأم التي ولدت وترك الأم التي ربت.
"إنتِ غلط يا سميحة"
تراءت لها صورته وهو يؤنبها كما فعل سابقًا.
"ليه حاطة فاطمة في كفه وإنتِ في كفه.. إنتِ أختي الكبيرة اللي ربتني وبحبها وبحترمها وهي البنت اللي حبتها ونفسي تكون مراتي.. ليه المقارنة الظالمة دي؟! ليه بتجبريني أختار بينكم... أنا عايزكم أنتوا الاتنين.. لكن أنتِ عايزاني أنا لوحدي.. تبقي غلطانه... غلطانه يا سميحة"
هزت رأسها لتدافع من جديد:
- تقوم ترمي كل حاجه تخصني ورا ضهرك وتروحلها.

شهقت وقد غلبتها عبراتها:
- وبعدين تموت وتفارقني من غير حتى ما أشوفك... توجعني قوي كده.. ليه؟!!.. أنا عملت فيك إيه؟! أنا عمري ما حبيت حد أدك.. أنت كنت ابني بجد... بس ما هو كمان كان ابني بجد وبرضو راحلها.. دايمًا هي اللي بتكسب... دايمًا.
انتبهت لصوت محرك سيارة تدخل إلى الحديقة، استنتجت أنهم عادوا، هبت من مكانها لتسرع إلى غرفتها قبل أن يدخلوا إلى المنزل ونجحت في ذلك.
لتسمع صوت جاهين الذي هنأهم بالوصول سالمين ويشاركه وافي التحية.
مسحت عبراتها بأناملها وهي تنصت لصوته، كم تفتقده لم يحدثها منذ عادت أخته، هل صدق أن لها يد في هذا الأمر؟.
تثق أنه لن يصدق هذا عليها أبدًا.
طرقات على بابها جعلتها تنتفض وهي تسرع إلى المرآة تحاول إخفاء آثار الدموع قبل أن تأذن للطارق بالدخول، فتح الباب ليحدق بها وما أن رأته حتى غامت عينيها سريًعا بالدموع:
- وافي.. حبيبي.. أخيرًا افتكرتني.
دخل وأغلق الباب خلفه وظل مكانه لتقترب هي، فأوقفها بأن رفع كفه أمام صدره قائلًا:
- حبيت إنك تعرفي مني أنا.. إن شاء الله خطوبتي أنا ومها بعد أسبوعين من دلوقتي.. وجاهين مصر ماتكونش على الضيق زي خطوبته.. يعني هنعزم ناس وكده وأنا وافقت.. شوفي حابه تعزمي مين وقوليله.
أراد الالتفات فأوقفته صائحة:
- وافي!!
أغلق عينيه ليتنفس بعمق محاولًا السيطرة على نفسه فأردفت:
- يعني خلاص.. نسيت كل حاجه.. مسحتني من حياتك.. بقيت حد تقوله خبر زي ده زي أي حد غريب.
التفت لها متسائلًا:

- لو سألتك كنتي هتوافقي؟!!
ارتجفت شفتاه ليبتسم ساخرًا:
- طبعًا لأ.. زي مارفضتي جواز ماما وبابا.. واعتبرتيني التعويض المناسب.. وكأني جماد لا روح فيه ولا حياة قررتي تعوضي نفسك بيها عن أخوكِ اللي مات... واتعاملتي معايا بنفس الطريقة حتى اسمه بتناديني بيه.. لأول مرة أكره إنك بتناديني باسمه لأنك مش بتنادي عليا أنا.. إنتِ بتنادي على الحلم اللي راح منك ونفسك تشوفيه فيا... تعرفي أنا حاسس إنك كنتي محتاجه معالجة نفسية بعد ما خسرتي بابا يمكن ساعتها ما كناش كلنا هنعاني بالطريقة دي.
معالجة نفسية!!
أيتهمها بالجنون الآن؟!!
- أنتَ شايفني مجنونة!!
- العفو.. أنا قصدي أنك مافصلتيش.. ماعرفتيش تعملي حاجز بين وافي أخوكِ وابنه والنتيجة إنك بتعيدي نفس الغلط وكأنك ماتعلمتيش أبدًا.. أنا لا يمكن هنسى إنك اللي ربتيني ووصلتيني للي أنا فيه دلوقتي.. بس برضو مش عارف أنسى إنك السبب في حرماني من أمي وأختي ومدى العذاب اللي عاشوه بسبب تصرفك الأناني ده... ومش عارف هسامحك عليه ولا لأ؟!!
كتمت شهقاتها بأناملها ليغادر الغرفة وقد حمل داخله ألمًا قد يكون أضعاف ما تشعر به، كيف لا وهي كانت كل شيء.. الأم.. الأب.. الأخت... القدوة.
نعم سميحة كانت له كل ذلك، والآن كل تلك الصور تحطمت وتناثرت أمام عينيه في لحظة.

الفصل السابع والثلاثون
والأخير

يوم قلت آه.. سمعوني قالوا فَسَد
ده كان جدع قلبه حديد واتحسد
رديت على اللايمين أنا وقلت.. آه
لو تعرفوا معنى زائير الأسد.
عجبي!!
رباعيات جاهين

بدأ الإعداد لحفل الخطبة في المنزل كما خططوا، على أن يتم استقبال المدعوين في الحديقة التي تم إعدادها بشكل جيد واستغلال كل مساحه فيها.
مها العروس..
هربت كثيرًا من لقاء بسام ولو مصادفة، الخجل كان يعتريها في كل لحظة تلمحه أو تسمع صوته، ولا تعلم كيف ستمضي الأيام القادمة بعد أن تتم خطبتهما.
تمنت لو تم عقد القران بدلًا من الخطبة كي تشعر بأريحية أكثر في التعامل لكنه لم يقترح هذا ولا أي أحد آخر، فكيف لها هي أن تفعل؟!.
تخشى الإفلات وتعدي الخطوط التي تلتزمها دومًا، هي تحبه وتخشى أن تتهاون في ذلك فتعاقب بالحرمان منه، كيف لا وهو لها نعمة من الله تخاف كثيرًا أن تسيء لربها فتُحرم منها.
وبرغم كل تلك الأفكار لم يسعها غير الفرحة، السعادة والابتهاج.
حلمٌ تراءى لها وها هو سيصبح حقيقة، ليس حُلمٌ فحسب بل كل شيء في حياتها...

عاد لها بصرها والرجل الوحيد الذي امتلكت مشاعر نحوه سيكون خطيبها، فأي نعم تلك التي تنهال من الله عليها.

"مها"

التفتت لأختها التي دخلت إليها للتو:

- ياله البودي جارد جه وهيودينا نشتري فساتين الخطوبة.

هزت مها رأسها:

- إنتِ برضو مصرة تشتري حاجة جديدة ده تالت فستان سهرة تشتريه ما تلبسي اللي كنتي لبساه في خطوبة بوسي هو حد شافه.

- يا ستي إنتِ مالك.. هتدفعي حاجه من جيبِك.. بوسي كمان هتشتري.

- دي فلوسها وهي حره فيها.. تكلفيها ليه إنتِ كمان.

لوت شفتيها باعتراض:

- أيوة يا أختي.. بكرة إنتِ كمان تتجوزي بسام وتقوليلي فلوسي ومش فلوسي.

عقدت مها حاجبيها:

- بلاش الكلام ده يا نانا.. دي مش فلوسي دي فلوسه هو.

- يا عبيطة ما أنتِ هتبقي مراته يعني مفيش فرق.

أنهت جملتها وهي ترفع كفيها إلى السماء:

- عقبالي يا رب.. نولهالي يا رب.

رمقت أختها بيأس، تمنت لو تغيرت ولو قليلًا بعد استعادة بصرها، ولكنها لا زالت كما هي، المال هو كل ما يشغلها، متناسية المشاعر الطيبة والحب الصادق اللذان سيمنحاناها السعادة الحقيقية.

- نانا.

نظرت لها في انتظار الرد:

- محمد أترقى أهو وبقى مدير مكتب زي ما سمعت من بوسي.. وكمان وعدوه بشقة كويسة قريبة من الشركة ومرتبه أكيد ممتاز... مش كفاية عند بقى.

مطت شفتيها:

- يا سلام يا ختي.. يعني إنتِ تاخدي صاحب الشركة وبوسي تاخد شريكه وأنا اللي أصوم أصوم وأفطر على مدير مكتب.
أرادت الصياح في وجه أختها التي رفعت كفها أمام وجهها:
- مها.. بلاش.. مش ناقصين نكد... ياله علشان نروح نشتري الحاجة.. ورانا لف كتير.
تركتها لتنتظرها بالأسفل مع بسمة التي رأتها نانا تقف على باب المنزل الداخلي تنظر للخارج بنظرة بدت متوترة فاقتربت منها:
- مالك؟!
نظرت لها للحظات قبل أن تقول:
- لا أبدًا.
حروفها تقطر خوفًا كنظرة عينيها الآن.
أشفقت نانا عليها لتضم كتفها إليها:
- ماتقلقيش إن شاء الله مش هيحصل حاجه وحشة تاني.
نظرة لها بامتنانٍ وهو توميء برأسها، لتنضم لهما مها وينطلقن مع الحارس الشخصي.
....
أنهى جاهين اتصاله الثالث في خلال ساعة واحدة مع الحارس الشخصي، للاطمئنان على الفتيات، ربما هو أكثر ارتعابًا من الجميع، فعدم معرفة الجناة يسبب له هاجس بأن الأمر قد يتكرر.
حاول الانهماك في العمل مع وافي والتركيز فيه حتى عودتهن.
لينضم لهما محمد قائلًا:
- سمعتوا آخر الأخبار؟!
- خيييير.
قالها جاهين بترقب فأكمل محمد:
- سامر ساب الشركة بتاعته.
اعتدل وافي لينتبه أكثر بينما عقد جاهين حاجبيه مرددًا:

- ساب الشركة بتاعته.. أنتَ بتقول إيه .. هيسبها إزاي يعني؟!
- آه والله والمدير التنفيذي دلوقتي أخوه اللي اسمه... آآه.. معاذ.. وسامر نفض ايده منهم خالص.
سأل جاهين باهتمام:
- أنتَ عرفت الكلام ده منين.. وإزاي يعني نفض إيده.. يا ابني ما تقول كل الكلام على بعضه.
- عرفت منين؟!.. مش أنا اللي ماسك حسابات المقاولة اللي بينا وبروح عندهم، النهاردة الصبح عرفت.. كل الشركة بتتكلم عن الخناقة اللي حصلت بين سامر ومعاذ وأمهم.. اللي سامر بعدها خد بعضه ومشي من الشركة خالص وأخوه خد مكانه.
ردد جاهين بغير تصديق:
- مش ممكن... سامر ساب شركته.. دي تقريبا حياته كلها.
- ده اللي بيقولوه وفعلا سامر مابيروحش وأخوه هو اللي قاعد في مكتبه حاليًا.
أمسك جاهين هاتفه ليتحرك مبتعدًا:
- رايح فين؟!
قالها وافي فأجابه:
- هكلم سامر.
وقف في الممر ليجري اتصاله، وما أن جاءه الرد حتى سلم عليه قائلًا:
- عامل إيه يا بوص.. أخبارك؟!
- الحمدلله.. تمام يا جاهين.. أنتَ عامل إيه؟!
- الحمدلله.. آآآ.. أنا سمعت كلام غريب كده.
جاوبه الصمت فأردف:
- سامر أنتَ سيبت شركتك فعلًا.
استمر صمته للحظات أخرى قبل أن يقرر جاهين الإعتذار على السؤال لكنه قال:

- أيوة.. حاليًا.. بس يعني مسيري هرجع.
- آه أكيد طبعًا.. أنا برضو قلت كده.. بس حبيت أطمن عليك.. ولو في أي حاجه أقدر أعملها.
- متشكر يا جاهين أكيد لو احتجت حاجه هتكون أول حد يخطر في بالي.. كله تمام... المهم أخبار الشغل اللي بينا إيه.. ماشي زي ما هو؟!
- آه .. ماشي زي ما هو.
- كويس أوي.. طيب سلام بقى وأكيد هنتقابل.
- يا ريت.. أنا بعت دعوة لشركتكم علشان حفل خطوبة وافي ابن عمي بس كده الدعوة مش هتوصلك.. ماتقولي أنتَ فين وأنا أبعتهالك.
- ألف مبروك.. واعذرني أنا مش في مود حفلات خالص.
- الله يبارك فيك.. ولا يهمك عمومًا لو قدرت تيجي أكيد هنتشرف بيك.
- متشكر أوي.. ياله أسيبك بقى.
- ماشي... مع السلامة.
قلب الهاتف في يده للحظة وعقله يبحث عن التفسير المناسب، لكنه لم يجد، هز كتفيه ليعود إلى العمل.
واطمأن بعدها على عودة الفتيات إلى المنزل ليقرر هو أيضًا الذهاب مع وافي لشراء بدلات الحفل.
وحين أراد محمد الإنصراف أوقفه جاهين:
- ما تيجي معانا.
- رايحين فين؟!
- هنشتري بدل حفلة الخطوبة.. تعال أنتَ كمان مش هتشتري؟!... أنتَ في مقام أخو العروسة.
صمت مفكرًا للحظة وبمقارنة حسابية بسيطة، تأكد أنهما سيتعاملان مع محلات ذات علامة تجارية باهظة الثمن فحاول الإعتذار:
- آه.. هروح طبعًا بس بكره هبقى أشتري من مكان أعرفه.
ابتسم وافي وقد فطن للأمر وكذلك جاهين الذي قال:

- ماتيجوا نطقم يا شباب نجيب نفس البدل بس بألوان مختلفة وتبقى علامة مميزة للعيلة.. والله فكرة.. تعال معانا يا عم أنا هحاسب على بدلتك.
رفع محمد كفه بحرج:
- لاااا.. مش للدرجة.. أنا هتصرف.. روحوا أنتوا.
تدخل وافي:
- خلاص بقى تعالى.. أنت فعلا في مقام أخو مها.. أنا كمان هحاسب..النص على جاهين وبكده هتبقى بسيطة ومش هنحس بيها.
- يا جماعة بلاش إحراج.. محسسني أنكم عاملين حفلة تبرعات على بدلتي.
ضحك جاهين قائلًا:
- ضحكتني.. ياله يا عم ما فيش وقت.
جرَه جاهين معه ليقول مازحًا:
- طب بدل أنتوا الاتنين هتدفعوا.. ياريت بقى بالمرة تشوفولنا حد تالت يدفع حق الجذمة والكرافته والقميص.
عاد وافي للضحك وكذلك جاهين الذي قال:
- أعوووذ بالله.. أهو الطمع ده اللي جايبنا ورا.

....
لا شيء يدعو للسعادة، يومه كئيب للغاية، يحاول الإندماج في العمل قدر أستطاعته لكن وجوده على مكتب أخيه يشعره دومًا بحقارة فعلته.
زفر بحنق يطالع هاتفه الذي صمت عن أي شيء سوى صراخ أمه عليه من حين لآخر، يعض أصابع الندم بلا توقف، خسر متنفسه الوحيد في تلك الحياة بسبب حلمه الدائم.. بسمة، فهل ستفي بوعدها له وتعيدها وتقبل بزواجهما.
يرجو ذلك وإلا بهذا سيخسر كل شيء.
دخلت دون انتباه منه لتجلس أمام مكتبه بينما هو شارد تمامًا.
- سرحان أوي كده ليه؟!
انتبه لوجودها فقال بتجهم:
- لا أبدًا.

- أنا مبسوطة منك استوعبت الشغل وبقيت بتقول رأيك... دراستك السنين اللي فاتت مارحتش هدر.
- سامر اللي كان بيعلمني.. أنا بنفذ اللي كان بيقوله.
لم تعقب فأردف:
- سامر مابيردش على تليفوناتي.. ومش عارف أشوفه من ساعة اللي حصل.
لوحت كفها بلامبالاة:
- بكره يرجع.. سيبه... ثم هو بيحبك أوي مسيرك تتصالح معاه.
- وعلى أد ما بيحبني تلاقيه بيكرهني دلوقتي.
- ماتكبرش الموضوع هو لسه في الشركة بس أنا عارفه مخه مش هيرجع إلا بمزاجه.. فسيبه وخلاص.. المهم ركزلي في الشغل ولو أي حاجه وقفت قدامك كلمني على طول.
- ووعدِك ليا... نسيتيه.
رمقته للحظات قائلة:
- أديهم بيدوروا... بس أنتَ عرفت البنت دي منين... واحده ساكنة في السيدة قابلتها فين دي؟!
صمت هُنيهة قبل أن يقول:
- لما تلاقيها هقولك.. بس أيًا كان ... هتجوزها.
- ماشي يا ابن شاكر.. أما نشوف أخرتها معاك.
قامت لتغادر لكنها عادت والتفتت إليه:
- اسمع جات دعوة لينا علشان حفل خطوبة لحد من شركائنا أخوك كان بيروح المناسبات دي..روح بداله.. الدعوة هتلاقيها عند السكرتارية.
أومأ لها بصمت لتغادر المكتب، استلقى أكثر في كرسيه.
سامر كان يفعل الكثير بينما هو ماذا كان يفعل في حياته؟!، ذهب ليدرس لسنوات وعندما عاد لم يفكر إلا ببسمة، وماذا يفعل إن كانت بسمة بالفعل عالمه الخاص.. بل والوحيد.

كيف لهم أن يدركوا أنها فقط من كانت تسمعه حين يشكو أو حتى يفرح، كيف لهم أن يفهموا أنها وحدها من كانت تسعده وهي أيضًا فقط من كانت تحزنه.
يلومه سامر الآن على أنه يبحث عن الفتاة التي أخذت أدوارهم في حياته دون أي مقاومة منهم.
كانت الصديقة والأخت والأم والحبيبة!!
فقط لو يعلمون، لربما ساعدوه جميعًا في العثور عليها.
تصرف بنذالة... يعلم هذا، وتصور أنه سيجد الوقت لإصلاح الأمور، بعد أن يعثر عليها.
كل شيء متوقف في حياته على تِلك البَعد.. بعد أن يعثر على بسمة!!
....
ينقر بأصابعه على مقود السيارة التي صفها جانبًا في انتظارها، رفضت تمامًا أن يدخل بالسيارة إلى منطقتها، لتعلو البسمة شفتيه وهو يتذكر كلماتها.
"لاا.. تدخل المنطقة إيـــه... أنتَ عايز سيرتي تبقى على كل لسان.. والشبهة تلبسني!!"
هز رأسه مرددًا:
- شبهه.. بقى أنا شبهه يا زينة... ماشي.
ليعاود الضحك متذكرًا ردودها التلقائية التي أحيانا تخلوا من أقل متطلبات اللياقة الاجتماعية، تلك الفتاة لها حِسٌ مختلف وطابع مميز، وربما هذا ما يجعله متمسكًا بها رغم افتقارها للخبرةِ اللازمة واضطراره إلى تعليمها كل شيء بنفسه.
نقرات صغيرة على نافذة سيارته، ليراها تُلوح له بكفيها وكأنها تشير لرجل ضعيف البصر، فتح الباب لتدلف إلى السيارة قائلة بصوتها المميز ذو النبرة العالية:
- مساء الخير يا سامر بيه.
- مساء النور... خلاص الحج حكم وافق.
- يووووه.. بالعاافية.. مش مقتنع خالص بحكاية سكرتيرة حسب الطلب دي.

دارت ببصرها في السيارة:
- وده بقى المكتب بتاعنا... لا بس حلو.
ابتسم لينطلق بالسيارة لتقول:
- هو إحنا هنروح فين؟!
- هقابل حد أعرفه كان شغال في شركة مقاولات.. عايز يعمل مكتب هندسي وأنا بفكر أدخل معاه شريك.
رفعت إحدى حاجبيها:
- مكتب.. بتقول مكتب.. يعني بالعقل كده تبقى صاحب شركة مقاولات أد الدنيا.. تسيبها وتشارك واحد في مكتب.
تغاضى عن أسلوبها الساخر:
- أومال يعني فاكرة أني هخرج من شركة مقاولات أد الدنيا وهدخل في واحدة تانية زيها.. أكيد لأ.. وأنا مش هقعد حاطط إيدي على خدي مستني أرباحي من الشركة.. أنا مابعرفش أعيش من غير شغل.
- يعني خلاص مش هترجع شركتك؟!
- هرجع طبعًا بس مش دلوقتي.
- يا سلام.. فتسلي نفسك وتصرف على مكتب هندسي.
رمقها بنظرة جانبية مع إصرارها على السخرية من قراراته، لتتفادى النظر له قائلة:
- خلاص هسكت.
- المكاتب الهندسية بتكون مفيدة لينا... يعني في الآخر المكتب ده ممكن يبقى من المكاتب التابعة لشركتنا.. مش هيخَسّر.
أومأت برأسها دون تعقيب ليقول:
- سجلي كل الملاحظات اللي هنقولها والنقط اللي هنتفق عليها... ماتفوتيش حاجه.
- حاضر.

قالتها بحماسه لتعلو شفتيه البسمة وعاد لصمته وكذلك هي، داخلها سعادة كبيرة لا تدري سببها، ربما تمسكه بها وبالعمل معه.
شخصًا آخر كان لا يهتم بآمرها، فقد ساعدها من قبل بما فيه الكفاية فلمَ يكون مسئوولًا عنها؟.
رفعت بصرها خلسة تسترق النظرات إليه عبر المرآة..
هادئ.. رزين.. ووسيـ....
خفضت بصرها حين انتبه لها وقد اعتلاها الحرج والكثير من اللوم على ما تفعل، شعرت بنظراته تخترقها قبل أن يبطيء من حركة السيارة:
- وصلنا.
فركت كفيها لتتغلب على ارتجافهما غير المفهوم، وما أن توقفت السيارة حتى أسرعت بالنزول منها تستنشق بعض نسمات الهواء لتتغلب على حالتها تلك.
- يالا يا زينة.
- حاضر.
أسرعت تتبعه ليدخلا إلى أحد المطاعم الكبيرة، ليتحول الأمر إلى غداء عمل، وهنا شعرت بكارثة أخرى على المحك.
عليها الجلوس إلى مائدة طعام فخمة، لوت شفتيها حتى كادت تلاصق أذنها وعيناها تتسعان ولأول مرة تنتبه إلى ملابسها التي لا تليق على الإطلاق بالمكان، من الجيد أن ألوانها متناسقة وهادئة مما حفظ لها ماء وجهها حتى الآن.
جلست إلى المائدة التي يبدو تم حجزها مسبقًا فما أن رأى أحد العاملين سامر حتى استقبله بترحاب، وكادت تضحك حين أزاح العامل لها الكرسي لتجلس كما تشاهد على التلفاز، ورغم أن الأمر تقليدي ولكنه منحها شعور الأميرة التي يقوم الناس على خدمتها.
دارت بعينيها في المكان وعطره الآخاذ يتسلل إليها، ودون شعور منها قالت:
- يالهووووي.. إيه ده.
- أحم.. وطي صوتك يا زينة.

- لا مؤاخذة.. أصل أول مرة أدخل مكان زي ده..يالهووووي.
تمالك سامر نفسه وهو يكتم ضحكاته:
- خلاص بقى.. الراجل جاي... هناكل الأول وبعدين نتكلم في الشغل.
لوت شفتيها مرة أخرى وقد قام سامر لاستقبال ضيفه.
- أهلًا باشمهندس اتفضل.
جلس الرجل والذي بدى أصغر عمرًا من سامر، منظاره الطبي يمنحه هيئة راقية، أشار سامر إليها:
- زينة.. هتكون سكرتيرتي.. لو تم الموضوع هتكون سكرتيرة المكتب.
أومأ الرجل برأسه ليحيِها فردت التحية بنفس الطريقة، وأشار سامر لإحضار الطعام التي قررت زينة ألا تلمسه وهذه أقل الخسائر.
لاحظ سامر عدم اقترابها من طبقها فقال:
- ماتاكلي يا زينة!!
- أصل أنا.. شبعانه.. قصدي يعني اتغديت قبل ما أنزل ماكنتش أعرف أنه غداء عمل وإلا كنت عملت حسابي.. اتفضلوا انتوا ولو حابين تتكلموا في الشغل اتكلموا.
لم يعقب سامر لكنه قال:
- طيب اكتبي الملاحظات اللي هنتفق عليها.
أومأت برأسها وداخلها دموع الندم على طعام لا تعلم إن كانت ستأكل مثله ثانية لكن بنظرتها إلى المكان وطريقة الحاضرين في الأكل فضلت ألا تسيء لنفسها ولسامر أكثر.
وتغاضت عن صوت معدتها التي تكركر في سبيل الانتباه لكلمات سامر وضيفه، وحمدت الله أنها أدت المهمة كما يجب.

....
تحول المنزل إلى هالة من الأضواء المبهجة، والتي تم توزيعها بشكل مدروس ومميز، كذلك توزيع الموائد العالية للتخلي عن فكرة المقاعد كي تكون المساحة

المتاحة أكبر لحركة المدعوين الذين تم تحديد عددهم مسبقًا ببطاقات دعوة مما منع الحضور إلا بها.
وداخل المنزل كان مخصص للعائلة فلم يتم فتح بابه لاستقبال المدعوين إلا في الناحية التي تتيح لهم استخدام دورة المياة المخصصة للضيوف.

وقف بسام يعدل ربطة عنقه وبسمة تقف قبالته وهي تساعده وتبتسم بسعادة حقيقية:
- أنا فرحانه أوي يا بسام.. بجد فرحانه أوي.
أمسك كتفيها وضمها إلى صدره:
- مصدقك والله.
أبعدها برفق ناظرًا لوجهها:
- إن شاء الله الفرحة الكبيرة تكون في يوم واحد.. إيه رأيك بفكر في الموضوع من امبارح... نتجوز في يوم واحد أنا ومها وإنتِ وجاهين.. مش فكرة حلوة.
نظرت له للحظة قائلة:
- آه حلوة.
لم يشعر بأي حماسه من جانبها فزم شفتيه:
- إيه الرد الهادي ده؟!!
- يا سيدي مستعجل على إيه؟ طب نعدي الخطوبة الأول.
- طيب.. تمام كده.
أشارت بابهامها علامة القبول.
لتتركه وتذهب إلى حيث مها ونانا في غرفة فاطمة، بينما يتعالى صوت نانا باعتراض:
- يعني أنا راضية ذمتك ده هيكون منظر عروسة.
دخلت بسمة وأغلقت الباب خلفها:
- في إيه يا نانا؟!

- أنا مش عارفه وافقتم إزاي؟!.. يعني إيه عروسة ماتحطش مكياج.. هتجننوني.
- ماخلاص يا نانا.. ماهي مصرة؟!
- وإنتوا بتسمعوا كلامها ليه؟!
قالت مها بضجر:
- إنتِ مالك.. أنا حرة.
زفرت نانا بضيق وهي تغادر الغرفة بينما اقتربت بسمة تحيط وجه مها بكفيها:
- والله جميلة وزي القمر من غير حاجه يا مها.. ربنا يسعدك حبيبتي... بس لو حطينا شوية..
- بووووسي.
قاطعتها مها بلوم.
- خلاص خلاص..
طرقات على الباب مع صوت جاهين:
- ممكن نبدأ نظهر.. المعازيم وصلوا.
أجابته فاطمة:
- حاضر يا ابني هننزل أهو... يالا يا بنات بقى.
تسمرت مها مكانها تقاوم ارتجاف جسدها كله، لتنتبه فاطمة لها فأحاطت كتفها بذراعها.
- مالك يا حبيبتي؟!
- ها.. لا أبدًا.. أصلي.. أنا مكسوفة أوي.
ضحكت فاطمة وكذلك بسمة التي قالت:
- طب دي خطوبة في الآخر هترجعي أوضتك.. أومال لو فرح بقى وكل المعازيم عارفين أنك هتكوني معاه هتعملي إيه؟!
ضربتها مها بقوة:
- إيه الهزار البايخ ده؟!
لامتها فاطمة:

سارة سيف الدين

- أُسكتي يا بوسي.. إنتِ بتوتريها زيادة.. ياله يا حبيبتي إحنا كلنا حواليكي أهو.
تحركت مها معها بالفعل، وإن كانت تقدم قدم وتؤخر الأخرى، كانت الردهة خالية فكل المدعوين في الحديقة.
وقفت نانا خلف النافذة الزجاجية تتابع المدعوين الذين بدأت الحديقة تعج بهم، التفتت إليهن قائلة:
- ياله بينا.
خرج ثلاثتهن تتبعهن فاطمة وعلى وجهها بسمة سعادة وفرح ببناتها.
وعلى الجانب الآخر وقف الشباب الثلاثة متجاورين، وقد ارتدوا بالفعل بدل متشابهة التصميم مختلفة الألوان، اختار بسام الأسود بينما جاهين الكحلي ومحمد الرمادي.
خفضت مها عينيها سريعًا حين التقت بعيني بسام، ليتقدم نحوها ويقودها إلى حيث الأريكة المشتركة لهما ومن خلفه تقدم جاهين من بسمة والسعادة تعلو ملامحه قائلًا:
- ماتيجي نقلع الدبل ونلبسهم تاني.. إحنا حفلتنا كانت عالضيق.
رمقته للحظات قبل أن تبتسم بهدوء:
- ياسلام.
- طب تعالي نقف جنبهم ونعمل منظر.
اتجهت صوب مها وبسام.
لتبقى نانا مكانها تنظر له وينظر لها، قبل أن يقرر أن يشيح ببصره عنها وهو يقترب من مكان العروسين لتهنئتهما.
تتبعته عينيها التي حملت لأول مرة الكثير من الحزن والندم، مع نغزة مؤلمة لقلبها.
محمد شاب حسن الطلة يحمل صفات الرجولة الحقيقية، فأي حمقاء هي لتلفظه بعيدًا عنها هكذا.

ولطالما كرهت الجواب، إنه الطمع.. الرغبة في الحياة الأفضل، وهذا ما لن يتمكن محمد من منحه لها.
ليس لأنه ارتدى مثل جاهين وبسام الآن يعني أنه أصبح في مكانتهما وهي تعلم هذا جيدًا.
رنين هاتفها أخرجها من أفكارها لمحت الإسم فاخترقت الصفوف لتذهب إلى أبعد نقطة.
- ألو... أنتَ مش جاي؟!
- قلتلك ماجتليش دعوة.
- غريبة... أنا قلت أكيد هتوصلك.
- ما أنتِ لو كنتي ناصحة كنتى بعتهالي إنتِ .
- ماكنش معايا دعوات.. هو أنا هعزم مين يا حسرة.
- نفسي تكوني مفيدة مرة.
قالها بضيق واضح فتجهم وجهها وقبل أن تعقب قال:
- برضو مش هتيجي تشوفي الشقة.
- أنا دلوقتي مش بعرف أخرج خالص مها خلاص فتحت مبقتش بعرف أزوغ منها.. ثم أنت عايزني آجي ليه.. قلتلك استنى أكلم جاهين قلبت الدينا وقلت لأ.
- أيوة طبعًا لأ.. اقفلي.. اقفلي يا نانا.. بقيتي كئيبة.
أغلق الخط قبل أن ترد لتلوي شفتيها بضيق، شهاب تغير، لم يعد يتحدث لها برفق كالسابق، أهذه محاولته في التخلص منها؟!
ولمَ لا؟!.. دومًا شعرت أن له غاية من تعرفه عليها وتصورت أنها قد تنال قلبه، ولكنه لم ينال غايته فالحل التخلص منها الآن.
ظلت ترمق الهاتف بضيق قبل أن تقول بحنق:
- ياله في دااهية.

....

علم أنه سيكون سعيدًا لكنه تخطى مراحل توقعه بكثير، عينيه تسبح على ملامح وجهها، كما توقع احتفظت بملامحها الرقيقة بلا أي إضافات كما رآها أول مرة، وهل تحتاج؟!
هي تمتلك وجه مليح بما يكفي لأن يتعلق به ولا يمل.
أضف إلى هذا تلك الحُمرة الربانية التي تعلو وجهها لتعبر عن خجلها الواضح، اتسعت بسمته ليقول:
- مبروك.
ضمت قبضتيها أكثر وأكثر حتى تعرقا.
سعيدة بكل تأكيد، حتى تلك الكلمة لا تفي مشاعرها حقًا، تريد أن تنظر إليه وتقول الكثير، لكن حياءها منعها فاكتفت بالرد:
- الله يبارك فيك.
تهلل وجهه لكلمتها البسيطة، وكيف لتلك الفتاة أن تملك ذلك التأثير عليه؟!
ربما رقتها... حنانها.. خجلها.
وربما أكثر وأكثر.
هو يعلم أنه بحاجة لها، عاش عمره وحيدًا رغم كل من حوله والآن اختارها لتكون سكنه، مؤنسه، ولديه يقين بأنها ستنجح في هذا تمامًا.
لم ينسَ كيف كانت تُعامل فاطمة منذ البداية، لم ينسَ كيف كان يغار منها أحيانًا، يضحك من داخله حين يتذكر ذلك، أكانت غيرة منها أم عليها؟!!
على لسانه الكثير من الكلام ربما أولها، الشكر والامتنان لها أن قبلت أن تكون له ويكون لها.
أخرجه جاهين من أفكاره:
- فين يا عم الدبل؟!
صمت بسام ليتذكر:
- أعتقد نسيتها في الأوضة.
- في عريس ينسى الدبل بتاعته.. مها أنا بقول تغيري رأيك... إحنا لسه على البر.

قالها جاهين، ضحكت فاطمة:
- معلش روحي يا بوسي هاتيهم.
أشار جاهين:
- لأ خليكي هجبهم أنا.
اتجه من فوره إلى داخل المنزل وقبل أن يصعد الدرج انتبه لسميحة التي تراقب من خلف النافذة، رمقها للحظات قبل أن يتسلل شعور بالشفقة عليها إلى قلبه، فعاد لها قائلًا:
- عمتي.. واقفة كده ليه.. اطلعي الناس بتسأل عليكي.
التفتت تنظر له بعينين غرقتا حزنًا:
- بس هو مسألش.. ولا حتى اهتم.
أطرق رأسه للحظة:
- اديله وقته يا عمتي اللي حصل مش سهل.. إنتِ فعلا حرمتيه من عيلته.
ضاقت عينيها تنظر له بضيق فأردف:
- لكن ده وافي.. أطيب واحد فينا... أنا متأكد أنه مسيره يصفى ويسامح... المهم إنتِ كمان تصفي وتسامحي.. ماينفعش تفضلي شايفة مرات عمي وبنتها أعداء بيحاولوا يخطفونا منك.
أشاحت ببصرها مرددة:
- ما خلاص خدوكوا.. وبسمة حققت كل اللي هي عايزاه.
- يوووووه تاني يا عمتي.. مفيش فايدة.
تركها ليصعد الدرج وداخله غضبًا يحاول تلافيه، هذا ليس اليوم المناسب لذلك.
دلف لغرفة وافي ليجد العلبة المخملية على مكتبه علت شفتيه البسمة وهو يلتقطها، فتحها لينظر إلى خاتمين أنيقين استقرا داخلها، لتتسع بسمته أكثر وأكثر وهو يتذكر يوم خطبته، برغم أن سعادته كانت ناقصة فبسمة لازالت في عالم آخر بعيدًا عنه، ينتظر بشغف اليوم الذي تفتح قلبها له، حينها سيقتحمه ويغزوه ولن يبرحه أبدًا.
فقط لو تترك له فرجة بسيطة.

....

ضرب محمد كفًا بكف.

- الأخ اللي راح يجيب الدبل طفش ليه؟!

أشارت له بسمة:

- أنا هشوفه.. ثم أنتوا مستعجلين على لبس الدبل ليه؟!

أطرقت مها رأسها خجلًا أكثر وهو يراقبها بنظرة محب صادق.

تركتهما بسمة لتتجه إلى المنزل.

توقفت مكانها للحظة وهي تراها تقترب، ضاقت عينيها وهي تنظر لها بكره وحقد بالغين، لم ترَها منذ تلك الحادثة، لم تهتم تلك المرأة حتى بزيارتها، وكيف تفعل وهي الجانية، لا شك لديها بأنها المحرضة على كل ما حدث، حتى بعد أن أخبروها أنها من دفعت المال، زاد الشك داخلها أنها خلف كل تلك المؤامرة الدنيئة.

رأتها سميحة فأشاحت ببصرها عنها لتمر جوارها دون اهتمام فقالت بسمة:

- إزاي قدرتي تعملي كده.. ده انا بنت أخوكِ.. شرفي هو شرفك.

انتفضت سميحة وهي تدور ببصرها في المكان خشية أن يسمعها أحد:

- هششششش.. إ..إنتِ بتخرفي بتقولي إيه؟!

- إنتِ اللي عملتيها يا سميحة.. إنتِ اللي عملتي فيا كده.

زفرت بضيق وهي تخفض صوتها:

- إنتِ أكيد اتجننتي زي أمك.

- ماهو علشان أنا وأمي أكتر اتنين اتعذبوا بسببك مصدقين.. بس تعرفي أنا من جوايا نفسي تطلعي بريئة.. مش قادرة أصدق أنك ممكن تعملي فيا كده.. مهما كرهتيني أنا وأمي لا يمكن تعملي فيا كده.. بس مش قادرة أخرجك من دماغي... عقلي مصر أنك إنتِ اللي وراها... كنتِ عايزة إيه من ورا المصيبة دي يا سميحة.. ردي عليا.

أدارت ظهرها عنها بنية الابتعاد:

- أنا ماليش علاقة بالموضوع ده خالص.. ثم إنتِ الحمدلله طلعتي منها سليمة عايزة إيه تاني؟.
- الرعب مالي عينيكِ شايفاه كويس حتى وإنتِ بتهربي تبصيلي... مسيري أعَرفهم أنك إنتِ اللي ورا المصيبة دي.. هلاقي الدليل يا سميحة وهتشوفي.
أسرعت سميحة الخطى لتبتعد عنها، بينما تلاحقها عيني بسمة الغاضبة، لتدور الأخيرة وتكمل طريقها إلى المنزل، لم تنتبه أثناء استدارتها فاصطدمت بأحد المدعوين فنظرت له معتذرة:
- آسفة.
وأسرعت الخطى إلى المنزل.
دلفت إليه لتدور ببصرها في المكان قبل أن تنادي:
- جاهين.. أنتَ لسه فوق.
"بوسي!!"
التفتت لترد على المنادي باسمها، لتلتقي عينيها بآخر من كانت لتتوقع أن تراه ثانية.
اتسعت عيناها بذهول وهي تحدق به بغير تصديق وكل خلية في جسدها تنتفض.
- معاذ!!

....
بقى في سيارته للحظات قبل أن يقنع نفسه بالنزول، لم ولن تستهويه تلك الحفلات أبدًا، وكان سامر كالعادة يقوم بهذا عنه.
في الحقيقة سامر كان يقوم بكل شيء عنه، ليكتشف في تلك الأيام القليلة أن دوره انحصر على البقاء حيًا وحسب.
أمسك هاتفه يطالع آخر رسالة وصلته من أخيه، والتي حملت في معانيها ما يعني أنه انتهى بالنسبة له، يفتقده كثيرًا لكنه لا يدري كيف يصحح خطأه.
تنفس بعمق ليتخلص من كل تلك المشاعر المتضاربة، غادر سيارته وقدم بطاقة الدعوة وانضم إلى حفل عائلة الشربيني.

كان المكان مكتظ بالمدعوين، واستطاع أن يميز بعضهم فلقد كان يراهم في حفلات منزله أيضًا.
دس يديه في جيبه ليستند إلى شجرة خلفه يتابع الجموع بصمت، مال برأسه فرأى تجمع صغير فاستنتج أن العروسين وسطه.
تحرك باتجاهه ليقدم التهاني ويثبت حضوره، كانت خطواته بطيئة خالية من أي مظاهر بهجة أو فرح، وما الذي لديه ليفرح به؟!!
"أسفة"
اخترقت تلك الحروف أذنه فشعر برغبة عارمة في الالتفات لصاحبتها، دار برأسه ليجدها تعتذر لأحدهم على ما يبدو اصطدمت به أثناء سيرها السريع.
تصلب جسده، انقطعت أنفاسه واتسعت عينيه عن أخرهما وهو يحدق في وجهها الذي استدار في لحظة لتكمل طريقها بسرعة.
غامت الدنيا من حوله ولم يعد يسمع إلا صوت أنفاسه، نفس الوجه، نفس العينين، نفس دقة القلب التي تتزايد الآن بوتيرة سريعة وهو يراقبها تبتعد.
"بوسي!!"
لو كان للكلمة ميزان حرارة لسجلت تلك الحروف الأربعة الرقم القياسي.
أسرع خلفها كالمنوم، يصطدم بمن يعترضه ولا يكترث المهم أن يلحق بها، دقات قلبه قاربت قرع الطبول، عيناه تكاد تغادر محجريها لتلحق بها، تنفسه صار متقطعًا.
حلمه أصبح حقيقة.. هذه المرة لا يتوهم... إنها هي!!
اندفع إلى المنزل التي دخلته ولم يبالِ، وصل له صوتها تنادي أحدهم ولم يهتم بسماع هذا، حرر لسانه أخيرًا ليناديها بشوق حملته كل السنين الماضية.
- بوسي!!
انتظر التفاتها وكأن بينهما دهر، لكنها استدارت تنظر له وعلى وجهها كل علامات الذهول التي أكدت له حدسه، لم ولن يخطئها أبدًا.
- معاذ!!

قالتها واخترقت قلبه قبل أذنيه، ليردد:
-بوسي.. إنتِ بوسي.. أيوة.. مش ممكن تكوني غيرها.
أما هي فقدت القدرة على الكلام، تحدق به فحسب لتتأكد أنها لا تحلم، معاذ هنا!! في منزلها.
وكانت اللحظة التالية أكبر دليل على أنها لا تحلم، لقد اندفع نحوها بقوة ليعتصرها بين ذراعيه مرددًا:
- بوسي.. أنا مش مصدق... إزاي تعملي فيا كده... إزاي قدرتي تعملي فيا كده.
استسلمت للحظة من أثر المفاجأة لتنتفض بعدها وكأنها تستعيد وعيها للتو:
- يالهوي... ابعد يا معاذ.
كررتها بهستيريا وهي تحاول إبعاده عنها:
- يا مجنون حد هيشوفنا.. سيبني.
حررها ليضم وجهها بين كفيه يستشعر وجودها أمامه:
- أسيبيك... بعد ما لاقيتك تقوليلي أسيبك.. إنتِ عملتي كده ليه..روحتي فين؟!.
أزاحت كفيه عن وجهها ورفعت رأسها لأعلى مع تذكرها أن جاهين هنا، لتمسك بذراعه وتجره معها:
- تعالى.. تعالى معايا بس... هنروح في داهية.
طاوعها لتدخل معه إلى أول غرفة فُتح بابها لها لتدفعه للداخل وتدخل خلفه وتغلق الباب.
التفتت له فأمسك بذراعيها يضغطهما بقوة قائلًا:
- انتِ اختفيتي ليييييييه؟!!
تملصت منه وقد رأت غضبه البالغ:
- معاذ سيبني.
- أسيبك.. بطلي تقولي الكلمة دي.. ولا علشان إنتِ اختارتي تسيبني يبقى خلاص.. بقى دي أخرتها.. أخرت حبي ليكِ كل السنين دي.. إزاي قدرتي تعملي فيا كده.. إزاااي؟!
طالت نظراتها له وهي تتابع كلماته التي مست قلبها ألمًا، أيلومها هي؟!

ألا يعلم كم عانت وكم لازالت تعاني؟!
ألا يعلم كم بكت وتمنت أن تصل إليه غير عابئة بما قد يفعله أخوه... نعم.. أخوه.
- أخوك!!
ابتلع ريقه بصعوبة وهو يحدق بها لتلقي الحقيقة التي طالما استشعرها ولم يتأكد منها.
- أخوك هو اللي أجبرني أبعد.. هدد أمي ووعدها بمرتب شهري المهم تاخدني وتبعد وإلا.... تفتكر كنت المفروض أعمل ايه؟!.. أقولها لا معلش روحي في داهية علشان خاطري.
- سامر!!
- أيوه سامر بيه.
"جاهين... أنت بتعمل إيه... يالا.. جبت الدبل؟!"
وضعت أناملها على فمه بعد أن وصل لهما نداء محمد الذي استطاعت تميزه، وعلمت أن جاهين أيضًا يقف في الردهة، أشارت لمعاذ بالصمت وعدم الكلام أرهفت سمعها حتى هدأت الأصوات فتأكدت من خروجهما.
فتحت الباب بروية ثم التفتت لمعاذ:
- مش هينفع نتكلم هنا... دي خطوبة أخويا لازم أخرج.
- إيـــه أخوكِ!!
- مش وقته.. هات تليفونك.
أخرج لها هاتفه وعينيه متعلقة بها بدهشة، لتضرب أزاره بأرقام هاتفها وتُجري اتصالا:
- كده نمرتك معايا.. لما الليلة تخلص والناس تنام هكلمك.. أُخرج أنتَ دلوقتي وامشي.. روح على طول...ماينفعش تفضل هنا.
ظل ينظر لها بشك، فدفعته:
- يالا قبل ما حد يرجع.
التفت لها بعد أن أصبح خارج الغرفة:

- لو ماتصلتيش يا بوسي.. هتلاقيني هنا من الصبح.. وإنتِ حرة.
- هتصل والله هتصل... يالا بقى.
للحظة تناسى كل شيء وتذكر فقط أنها أمامه بالفعل مد يده يلامس وجنتها وعلى ملامحه سعادة بالغة، دفعته بقوة:
- يا ربي... هتفضحنا إمشي.
استجاب لها أخيرًا رغم عدم رغبته في أن تغيب عن عينيه للحظة، تابعته وهو يسرع الخطى مغادرًا المنزل بل والمكان كله، لتخرج هي أيضًا وهي تحسن من هيئة حجابها الذي كاد معاذ أن يدمره باحتضانه لها بقوة.
جسدها ينتفض فعليًا وتحاول جاهدة أن تبدو طبيعية، عقلها أصبح في حالة شتات مفاجيء يقاتل كي تبقى منتبهة لما يجري حولها، أسرعت حيث يجلس العروسين.
انتبهت لها نانا:
- كنتِ فين كل ده؟!
قالت بتوتر لم تتمكن من اخفاءها:
- كـ..كنت بظبط الحجاب.
- وإيه اللي لخبطه؟!
رفعت رأسها تنظر لجاهين الذي كانت لهجته في قولها باردة لكنها ليست ببرودة نظرته لها، لتسري رجفة باردة في كل أوصالها وهي تتهرب من النظر إليه كأنها ضُبطت بالجرم المشهود.
رآهما... لا مستحيل لم يرَهما... ليس بالرجل الذي يسكت عن شيء كهذا.
- مالك يا بسمة؟!.
سألها بسام الذي لاحظ شحوب وجهها، يبدو أن الدماء التي هربت من كفها هربت من وجهها أيضًا فجعلته شاحبًا، هزت رأسها:
- لا مفيش.. لبستوا الدبل؟!
- إزاي يعني هنلبسها وإنتِ مش موجوده هو أنا عندي كام توأم.
حاولت الابتسام له لتقول:

- طب يالا.
قالت نانا بنزق:
- ما الهانم مش عايزاه يلبسها.. بتقول أبلة بطة أو إنتِ .
ضحكت فاطمة:
- خلاص أنا فاهمة مها حبيبتي.. قعديني وسطيكم وأنا ألبسهالكم.
أشار محمد:
- طب نوسع بقى علشان المعازيم كمان يشوفوا اللحظة التاريخية دي.
خفضت مها رأسها أكثر وأكثر، حتى أتعبتها من كثرة انحناءها خجلًا، لتربت فاطمة على كتفها:
- ارفعي راسك يا بنتي.. ماتخليش الكسوف يحرمك تشوفي اللحظات الحلوة دي.
رفعت رأسها بالفعل وحمدت الله أن بصرها لم يعد بالكامل بعد فما كانت لتحتمل أن تكون محط أنظار كل هؤلاء البشر الذين لم تتضح ملامحهم لها.
أمسكت فاطمة بأناملها لتُلبسها خاتم خطبتها بدلا من بسام الذي استند بذقنه على كتف أمه يتابع المشهد، لتربت فاطمة على وجنته وتقبله وتعتدل وتلبسه هو الآخر خاتمه.
مشهد يحمل من السعادة الكثير وفاطمة تضم الاثنان إليها وتقبلهما.
لكنه حمل لشخصٍ آخر كل معاني الألم والأسى، سميحة تقف في الجوار تراقب كأي ضيفٍ مدعو للحضور.
استقرت بسمة ساخرة حزينة على شفتيها، اليوم الذي تصورت أنها ستعيشه يومًا، مر دون أن يكون لها أي دور فيه، تقف في الخلفية بل حتى أبعد ما يكون عن الخلفية.
ألن يبحث عنها؟!... ألن يرفع بصره هنا وهناك ليتذكر من ربته وكانت له أم؟!.. أنَساها حقًا بتلك السرعة؟!
اختبأت أكثر حين وجدت عيناه تدور في المكان، وتسللت سعادة غابت لأيام إلى قلبها.

هو يبحث عنها بكل تأكيد.
رأته يشير إلى جاهين الذي مال فاستمع إليه ورفع رأسه يبحث هو الآخر، تحركت بما سمح لهما برؤيتها وإن ادعت أنها تنظر لمكان آخر.
اتجه صوبها جاهين مناديًا:
- عمتي.
التفتت له فنظر لها لبرهة بهيئة بدت غريبة عليها لتعقد حاجبيها فتحدث قائلًا:
- وافي بيدور عليكِ.. تعالي علشان ناخد الصور الجماعية.
تبعته بقلبٍ وجل، تخشى مما قد تقوله تلك الفتاة أو أمها، ولأول مرة تستشعر كم أصبحت ضعيفة وكم أصبحتا قويتان.
انتبهت فاطمة لقدومها، تماسكت.. نعم كثيرًا.
لم ترد أن تفسد ذلك اليوم على وليدها، تلك المرأة ربته لسنوات وهو لن ينسى هذا مطلقًا ولا تستطيع أن تجبره على فعل ذلك.
حاولت أن تتنحى لكنه أمسك كفها قائلًا:
- ماما ماتبعديش تاني أبدًا.
ترقق الدمع في عينيها في لحظة، كلمته رغم بساطتها، إلا أنها حركت نياط قلبها بقوة، ضمت أنامله بكفها تمنت أن تضمه بقوة لكن الجمع الغفير منعها.
أفسح لها المجال لتجلس بينهما بينما أشار لسميحة أن تقترب، جلست جواره وهي تقبله وتبارك له ولعروسه، وإن لم تستطع أن تغلف مباركتها بسعادة حقيقية، يعلم هذا ولن يهتم به الآن.
تجمع العديد لإلتقاط الصور التذكارية مع العروسين، تراجع محمد ليترك لهم مساحة فتلامس كتفه بها، التفت لها ليتجهم وجهه ويديره بعيدًا، مابها ملاصقة له هكذا؟!!
- عقبالك.
قالتها بصوتٍ هادىء لا يمثلها أو على الأقل لا يمثل عادتها، فضحك ساخرًا:
- ان شاء الله ... قريب.

لو كان وجه لها صفعة على وجهها ما كانت لتؤلم قلبها مثل كلمته تلك، لتحدق به بذهول مرددة:
- قريب.. أنت هتخطب؟!!
هز كتفيه بلا مبالاة:
- أكيد طبعا هخطب.. هستلم شقة جديدة من الشركة.. مرتبي الحمدلله معقول.. إيه اللي يجبرني أفضل عايش لوحدي.. تعبت من الوحدة.. تعبت.
تفحصت ملامح وجهه تبحث عن أي دليل على مزاحه فلم تجد غير كل جدية، عقدت حاجبيها قائلة بعند:
- يعني خلاص.. مابقتش بتحبني وهتخطب.
أغلق عينيه للحظة وكأنه يستعيد رباطة جأشه ليلتفت لها بنظرة نارية:
- إنتِ وصلتيني لمرحلة بكره فيها حبي ده.. مش أنا اللي تقربيله بمزاجك وترميه بمزاجك.. إنتِ نهيتيها وأنا كمان نهيتها.. قصتنا انتهت يا نادرة.. لاا مش نادرة ولا حاجه كان زمان... قصتنا انتهت يا نانا.. عن إذنك.
تركها وعاد لجمع العروسين ضاحكًا مازحًا، تلاحقه نظراتها التي حملت حسرة لم تعد من حقها، أضاعته بيديها فعلامَ الحزن الآن؟.
أحقًا سيتزوج بغيرها؟!
لمَ هذا الأمر مؤلم هكذا؟!.. لعله تألم أضعاف ما تشعر به الآن بكل أفعالها السخيفة معه؟!
شعورها الدائم أنه سيبقى لها لم يعد له وجود، محمد سيرتبط بغيرها وسيكمل حياته.
يبدو أنه حان الوقت لتذوق وبال أمرها.
قاومت عَبرة قلما تتحرر من عينيها لتندب حبًا أضاعته بعندها البالغ وطمعها الذي لا حدود له.

....

أنهى عدة اتصالات وآخرهم مع زينة لتحديد اللقاء لرؤية ومعاينة المكتب الهندسي الذي سيتم تأجيره لبدء العمل.

اتكأ بظهره على مِسند مقعده ليغلق عينيه طالبًا لحظات من الاسترخاء، الهم يُجثم على صدره، لا طعم للسعادة في أي مما يفعل، الوحدة تكاد تقتله.
رغم أنه عاش كثيرًا وحيدًا لكن وجود معاذ معه، حديثه له من حين لآخر، شعوره بأن له أخ أصغر يهتم بأمره، كفل له الشعور بالأُلفة والأُنس، أما الآن فحتى هذا الأخ غدر به وقلبه يحمله منه الكثير من الغضب، يعلم أنه لم يكرهه ولن يكرهه.. لكنه لا يستطيع أن يغفر له تلك الغدرة.
هز رأسه بيأس:
- وكل ده علشان بسمة.. اللي أنا بعدتها عنه.
أفلت ضحكة ساخرة، وكأنه ينال عقابًا على فِعله أقدم عليها منذ سنوات، ولازالت متعلقة برقبته حتى الآن.
اعتدل فجأة مع طرقات عنيفة على باب شقته، هرع من خلف مكتبه مسرعًا وهو يصيح:
- مين بيخبط كده؟!
- افتح أنا معااذ.
انتفض قلبه فزعًا على أخيه ليفتح الباب بسرعة:
- معاذ.. في إيه؟!
سأله بفزعٍ واهتمام ليرى في عينيْ أخيه نظرة مقت غير عادية قبل أن يوجه معاذ لكمةً قوية إلى وجه سامر أجبرته على الارتداد لخلف وهو يحدق في أخيه بذهول ليندفع معاذ إليه محاولًا ضربه ثانية لكن سامر استطاع تفادي ذلك وأمسك هو بقميص أخاه وألقاه أرضًا بعنف صارخ:
- أنتَ اتجننت!!.
هب معاذ من مكانه ليهجم على أخيه ثانية ويقول بصراخ أكبر:
- أيوة اتجننت وأنتَ السبب... حرام عليك ليه عملت فيا كده.
تعلق بملابس سامر يهزه بعنف بينما يحاول الأخير أن يُخلص نفسه من أصابع معاذ التي تعلقت به:
- عملت إيه يا ابني أنت... سيبني.

دفعه معاذ بكل قوته ليضرب به الحائط خلفه:
- تصدق أنك تستاهل كل حاجه عملتها فيك كنت ندمان بس دلوقتي خلاص.. ولسه يا سامر.. والله لأندمك على اللي عملته فيا.
حاول ضربه ثانية لكن سامر تفاداه بدوره ليركله في بطنه ويجبره على الابتعاد عنه:
- اطلع بره يا ندل.. بعد كل اللي عملته علشانك تكلمني أنا كده.
أمسك معاذ بموضع الألم ليعتدل بعد انحناءه:
- عملت أيه... قولي عملت أيه؟.. ضيعت مني بوسي.. هو ده كل اللي أنت عملته.
استشاط سامر غضبًا ليصرخ:
- أنت واحد مجنون .. مريض بواحده عمرك ما هتلاقيها.
- بس أنا لاقيتها.
قالها بتشفي صارخ ليردف:
- كنت أنت.. في الآخر برضو طلعت أنت.
أشار إلى صدره مرددًا بآسى:
- شوفتني بتعذب كل ده وماهمكش.. قلبي كان موجوع وبيتقطع ومفرقش معاك.. لدرجة دي أنا ماسواش عندك حاجه.
جز سامر أسنانه ليقول:
- أطلع بره.. أنت واحد غبي.. أنا كل حاجه عملتها في حياتي كان علشان أحميك بيها.
اندفع معاذ ناحيته مجددًا:
- كدااااااب.
استقبله سامر بضربة في وجهه أجبرته على السقوط أرضًا، اختلاف البنية الواضح بينهما جعل تغلب سامر عليه أيسر بكثير.
مال سامر ليسحب أخيه بقوة من الأرض:
- اطلع بره... أنا مش عايز أشوف وشك تاني... خلي الهانم بتاعتك تنفعك.

نجح سامر في إلقاء معاذ خارج المنزل، بينما الأخير يمسح خيط الدم الرفيع الذي سال من طرف شفتيه قبل أن ينهض وهو يشير لأخيه:
- أنت فعلًا مت بالنسبة لي.. مت.
ضرب سامر الباب بعنف ليغلقه في وجه أخيه، ليستند عليه بذراعيه لاهثًا وكأنه كان في ماراثون طويل، ليردد:
- غبي .. غبي.
سار بخطوات هادئة وألقى بجسده على أقرب مقعد.
أخيرًا عثر على الإجابة التي طالما كان مشتت بينها.
هل أخطأ بما فعل مع معاذ وفتاته؟!
نعم.. أخطأ كثيرًا، ربما كان عليه التصرف بطريقة أخرى.
....
انتهى الحفل وعاد الهدوء للمنزل، أراد بسام أن يبقى مع مها قليلًا لكنها فرت لأعلى مع أول فرصة ورغم خيبة الأمل التي شعر بها لكنه لازال سعيدًا بمخطوبته.
أعلنت فاطمة ارهاقها هي الأخرى لتصعد إلى غرفتها وكذلك اختفت كل من بسمة ونانا لم يبقى في الردهة إلا محمد وبسام وجاهين الذي لازال وجهه يحمل تعبيرات لم يستطع أحد تفسيرها فمال محمد على بسام هامسًا:
- هو جاهين ماله.. فجأة كده قلب.
هز بسام كتفيه:
- والله ما أعرف.
ثم التفت لجاهين قائلًا:
- جاهين أنت كويس.
رمقه للحظات بنفس النظرة المتجهمة ليقول:
- أيوة.. مبروك أنا طالع أوضتي.
عقد بسام حاجبيه وتبادل نظرات الدهشة مع محمد الذي قال:
- إبقى اطمن عليه.. أنا ماشي بقى.

- ماشي يا محمد تعبت معانا النهاردة.
- عيب عليك ده فرح أختي.. وبالمناسبة دي أحب أقولك إياك تزعل أختي.
ضحك بسام قائلًا:
- حاضر مش هزعلها.. ولو إنها مش مدياني فرصة أعمل أيه حاجه.
- ما أنت اللي عبقري... ياراجل كنت خليتها كتب كتاب على طول وريحت دماغك.
- عندك حق.. نبقى نصلح الغلطة دي قريب.
تبادلا الابتسام، ليسلم عليه مغادرًا.
تنفس بسام بعمق ومشاعر البهجة تداعبه بوفرة.
- وافي.
نادته بها فالتفت وقد تجهم وجهه للحظة:
- ممكن تناديني بسام.
قالها بحزم فأطرقت رأسها للحظة:
- للدرجة دي مش عايز حاجه مني حتى اسمك.
- ده مش اسمي.. ده اسم بابا.. ياريت تبدأي تعامليني على أني بسام مش وافي.
- أنت خلاص كرهتني.
صمت برهة ليقول:
- أكيد لأ يعني... مش معقولة هكره الست اللي ربتني عمري كله.. بس لسه مصدوم فيكِ.
اقتربت منه قائلة برجاء:
- طب أعمل إيه؟.. عايزني أعمل إيه علشان نرجع زي الأول!!
- كفاية كره... لسه حاسس بكرهك لأهلي... كفاية.
أومأت برأسها:
- حاضر هعمل كل اللي أنت عايزه.. بس ارجعلي زي الأول.. ارجعلي يا وافي.
هز رأسه بعناد:

- بسام.. اتعودي تقوليلي بسام.
أجهشت في البكاء بشكل مفاجيء وكأنها كانت تكتمه داخلها:
- حاضر.. حاضر.. بسام.. هقولك بسام.
دفنت وجهها بين كفيها باكية، فحن قلبه لها وتألم، اقترب منها أكثر، فتح ذراعيه يضمها إليه:
- خلاص ماتعيطيش.
ما أن شعرت به حتى ضمته إليها بقوة، كأنه طفلًا ضاع منها واستردته، تضع يدها على ظهره تارة وعلى مؤخرة رأسه تارة، افتقدته كثيرًا وأرادت أن تشعره بهذا.
ربت على ظهرها هامسًا:
- إهدي... إهدي يا ماما.
زاد بكاءها حين ناداها بلقبها المعتاد كم خافت أن تُحرم منه إلى الأبد حين أصر على مناداتها له ببسام، لكنها نجت.. بالفعل نجت واحتفظت بلقبها الأثير على لسانه.
....
استمعتا لها بذهول وهي تقص عليهما ما حدث.
معاذ عاد، كان هنا بالفعل ورآها ورأته.
هزت نانا رأسها:
- سبحاااان الله.. يعني الأيام تلف تلف ويقابلك هنا.. الدنيا دي صغيرة فعلًا.
قالت مها:
- عمومًا ده مش هيغير حاجه إنتِ مخطوبة لجاهين دلوقتي قوليله كده خليه يبعد.
تلك النظرة التي طلت من عينيها وكانت واضحة لنانا ومها جعلتهما تتبادلان النظر لتقول نانا:
- إنتِ ناوية على إيه بالظبط؟.. ماداهية لا تكوني عايزه ترجعيله.
هبت مها بغضب:

- أكيد لأ مستحيل طبعًا.. إنتِ لا يمكن تعملي كده في جاهين ثم إنتِ كده هتئذينا كلنا.
دعمتها نانا:
- آآ طبعًا.. هي مش ممكن تغلط الغلطة الغبية دي.
كانت تراقبهما بصمت لتردف نانا:
- إنتِ ساكته كده ليه؟.. ماتفهمينا بتفكري في إيه؟!
تنهيدة غادرت حنجرتها:
- أنا حاسه إني مش عارفه أفكر.. حاسه أني دماغي اتشلت.. من ساعة ما شوفته وأنا أعصابي هربت مني... أنتوا مش متخيلين إحساسي.. ده معاذ.. حلم عمري.. عارفه يعني إيه حلم يتجسد قدامك ومش مسموحلك تلمسيه... عارفه يعني إيه أمنية حياتك تتحقق ومش مسموحلك حتى تُبصيلها.. ده حلم حياتي الوحيد.
- حلم.. حلم يا بوسي.. لكن جاهين ده الواقع.
قالتها مها بإقرار لتشخص بسمة ببصرها بعيدًا:
- بس أنا محبتش جاهين يمكن كنت بدأت أرتاحله.. لكن دايما ذكرى معاذ بيني وبينه.
عقدت نانا حاجبيها:
- كلامك مش بيطمن.. إنتِ بجد هتسيبي جاهين هتشمتي فيكِ سميحة يا هبلة.
لوحت مها بكتفيها:
- سميحة مين إنتِ كمان.. بوسي.. بلاش جنان.. معاذ ده خلاص إنتهى إنتِ مخطوبة دلوقتي لراجل تاني... راجل بجد.
وقفت لتستدير لتتبعها مها قائلة برجاء:
- بوسي.. بلاش تاخدي قرار ممكن تندمي عليه طول عمرك.. أفتكري أيا كان قرارك هيأثر على العيلة دي كلها.
منحتها نظرة خاوية لتكمل طريقها، لتعود مها إلى أختها قائلة:
- أنا مش مطمنة.

ضربت نانا كفًا بكف:
- أنا لحد دلوقتي مش مصدقة.. معقولة معاذ لسه بيدور عليها.. أومال اللي شوفناه ده كان إيه.. تهيؤات.
- شوفتوا.. شوفتوا أيه؟!
- بوسي كانت عايزة تروح الفيلا شجعتها وروحنا.. شوفناه مع بنت تانية كده من عينته وكان حاضنها.. والله كان حاضنها.
تمتمت مها بالاستغفار لتقول:
- أنا عمري ما اقتنعت بموضوع معاذ ده... ربنا يهديكِ يا بوسي.. يااارب.
- دي تبقى مصيبة وطبت على دماغنا لو المجنونة دي سابت جاهين ده مش هو بس هيقلب عليها.. ده أخوها وعمتها ومرات عمها ومش بعيد أبلة بطة كمان.. دي هتخرب الدنيا على الآخر.
- ربنا يستر.
رددتها مها مرارًا وداخلها خوف من تبعات موقف بسمة، هي حائرة لم تختار معاذ بعد لكنها تمنت أن تكون واثقة مما تريد أكثر، الأمر لا يحتمل التجربة، ليس لها أن تترك جاهين على سبيل تجربة الحياة مع معاذ، الأمر سيكون نهائي وقاسي جدًا.
دعت من قلبها أن يُلهم الله صديقتها الصواب كي لا تندم.. وقت لا ينفع الندم.
....
ستختار..
هل وصل بها الحال لأن تقارن بين شخصين لتختار بينهما.
معاذ أم جاهين؟!
معاذ.. الذي كفته عندها مليئة بالكثير، طفولتها، مراهقتها، بداية شبابها.
الحب الأول الذي طالما قرأت عنه في الروايات الرومانسية، وعايشته بكل تفاصيله. الرهبة التي تتملكها حين تتسلل لرؤيته، نجاحها في ذلك لتتحول رهبتها لسعادة مضاعفة، ليست فقط سعادتها كل شيء يخصه كانت مشاعرها فيه مضاعفة.

حين قرأت عن المراهقة علمت أن هذا طبيعة المرحلة وأن المشاعر دومًا تكون في أقصى معدل لها، فهل يعني هذا أنها لن تمتلك تلك المشاعر مرة أخرى؟.
هي تفتقدها كثيرًا، تفتقد تلك الدقات التي تتوالى بين ضلوعها لمرآه والحديث معه، تفتقد لهفته عليها وكلماته التي كان يحدثها بها دومًا، تفتقد حبه وجنونه، تفتقد تهوره وسعيه خلفها في أي وقت.
تفتقد كل شيء يخصه.
وكانت رؤيتها له منذ ساعات كفيلة بأن تُحيي الكثير من تلك المشاعر التي تصورت أنها نجحت في التخلص منها، ضمته لها التي أربكتها، عينيه التي احتضنتها أكثر من ذراعيه.
فانتفض قلبها ليضخ كل ذكرياته القديمة مناديًا في حقه بالمزيد.
وجاء العقل ليخوض معركته هو مدافعًا عن اختياره..
جاهين.
الرجل وكفى..
لم يجادل عقلها بالكثير من الكلام، فهو دومًا يختار أبسط الكلمات وأوجزها، لطالما كان جاهين رجلًا معها ومع أمها منذ اللحظة الأولى لها معه، هو من كان يقف بالمرصاد لعمته قبل أن تتصالح مع أخيها، ولتكون منصفة أكثر لولا جاهين ما استطاعت المكوث في هذا المكان ولا حتى دخوله.
ولكن هل هذا كافيًا؟!!
زفرت لتدلف إلى غرفتها وتغلق بابها عليها استندت عليه وهي تفرك وجهها بقوة، هل تشعر بالحيرة فعلًا أما إنها تقاوم اختيار قد حسم بالفعل؟!
دقات على بابها جعلتها تلتفت بدهشة، أعادت نانا أو مها للحديث معها ثانية؟!، فتحت الباب ليسقط قلبها بين قدميها فعليًا وهي تحدق بوجهه الجامد، تلك النظرة التي تلبسته فجأة ولم يتخلَ عنها بعد ذلك حتى أنها تكاد تجزم أنه رآها مع معاذ بالفعل.
....

جلس على طرف فراشه وقد أسند رأسه على كفيه، دار في غرفته كثيرًا حتى شعر بالدوار، يكاد يفقد عقله في محاولة لتفسير ما رآها فأصابه بلطمة لم يتصور أن يتعرض لها يومًا.
أغلق عينيه هربًا من صورة طبعت في عقله فأضحت واضحة للعين وإن أغلقهما، لتعيد تفاصيل ما رآها بكل ما حملته من مشاعر.

سمع صوتها تناديه لتعلو الضحكة شفتيه ليتلكأ فلعلها تصعد إليه، سيخبرها ثانية أنه يحبها، أنه كاد يفقد عقله حين اختطفت وابتعدت عن ناظريه، وصل إلى الدرج ليعقد حاجبيه حين رآها تنظر لهذا الشاب الذي تذكره على الفور.. معاذ شاكر الأخ الأصغر لسامر شاكر.

اتسعت عينيه وارتد خطوةً للخلف مختبئًا خلف الجدار وهي تردد اسمه بينما الآخر يقول:
"بوسي.. إنتِ بوسي.. أيوة.. مش ممكن تكوني غيرها."
هرع إليها يضمها إلى صدره، انتفض جاهين وأراد التحرك لإنقاذها لكن استسلامها له صدمه.. ألجمه.. صلب جسده.
بسمة التي انتفضت فور أن لمس يدها تركت هذا الأخرق يضمها لصدره بهذه البساطة.
وكانت الكلمات التي وصلت لأذنيه على لسان معاذ أكثر دهشة وذهولًا له.
" بوسي.. أنا مش مصدق... إزاي تعملي فيا كده... إزاي قدرتي تعملي فيا كده؟."
أخفى جسده الذي كان ينتفض بقوة وتلك الحرارة الرهيبة تسري في كل أوصاله ليتابع المشهد باحثًا عن تفسير.
"يا مجنون حد هيشوفنا.. سيبني."
حررها ليضم وجهها بين كفيه وهو يغلي في مكانه، يالوقاحته يلمسها كيفما يريد وهي لا تُبدي غضبًا.

" أسيبك... بعد ما لاقيتك تقوليلي أسيبك.. إنتِ عملتي كده ليه..روحتي فين؟."
كلماته محيرة إلى أبعد الحدود، ما الذي يربط بسمة بمعاذ؟..
متى وكيف وأين التقيا؟!!
أخفى نفسه تمامًا حين لاحظ استدارتها ناحيته، وكأنها أخيرًا تذكرت أن الرجل الذي خُطبت له في الأعلى.
"تعالى.. تعالى معايا بس... هنروح في داهية."
وأخر ما رآه دخولها لغرفة مكتب سميحة وإغلاق الباب خلفها، وقف على نهاية الدرج ينظر للباب يتمنى اختراقه بعينيه، نزل درجات السلم وقد احترقت أعصابه عن آخرها وشعر وكأنه يتحرك لا إراديًا.
وحينها فقط تذكر...
"معاذ"
الاسم الذي رددته في نومها.
"معاذ"
ذلك الحائل الذي لم يستطع تفسيره أو التعرف عليه.
"معاذ"
الرجل الذي ملك محبوبته دون حتى أن يدري عنه شيئًا.
اقترب من الباب الذي اختفيا خلفه، عروق رقبته تنتفض غضبًا، وطعنة غدر إلى قلبه تزداد وخزًا.
"جاهين... أنتَ بتعمل إيه... يالا.. جِبت الدبل؟!"
التفت إلى محمد الذي اقترب منه وهو يشير له بالتحرك سائلًا عن بسمة أيضًا، للحظة نسيَ أين هو وما الذي يحدث.
إنه يوم خطبة وافي!!
أمسك محمد بذراعه يحثه على الحركة، تحرك معه بالفعل وعينيه لا تبرح ذاك الباب، هل فقد عقله ليتركهما هكذا؟!
أليس من المفترض أن يحطم هذا الباب على رؤوسهما، أن يوجه لها صفعة بعد أخرى، يؤلمها كما فعلت للتو.

لكنه ببساطة انسحب، عاد لبسام وعروسه ولكنه لم يعد كما تركهما، حالة جمود تام سيطرت عليه، تعلق بصره بباب المنزل ليرى هذا الوغد ينسل منه إلى الخارج وابتسامته تكاد تشق وجهه شقًا.
ابتسامة تمنى أن يمحيها بقبضاته المتتالية على فكه.
ألا يعلم أنها له؟!.. ألا يعلم أنها فتاته؟!
وها هي الأخرى تظهر، تعدل من حجابها الذي انحصر عن رأسها بسببه، ضم قبضته بقوة حتى ابيضتا، هل سمحت له بالمزيد حين أغلق عليهما الباب؟، ضمها لصدره في الخارج، احتضن وجهها بكفيه فما الذي فعله حين أغلقت عليهما الباب؟!.
زفر لهيبًا من صدره، هو يتماسك قدر استطاعته، اليوم يوم وافي ومها عليه أن يصبر، فقط القليل وبعدها سترى جاهين لم تلقَ مثله من قبل.

هب واقفًا عن فراشه الذي جلس عليه طويلًا اقترب من باب غرفته حين شعر بأحدهم بالخارج، إنها هي بالتأكيد عائدة من غرفة الفتاتان.
شرع بابه برفق ليراها تدلف إلى غرفتها.
هذا يكفي لن يصبر ، لابد من المواجهة، ليسكت ذلك الصراخ الصادر عن عقله باستمرار.
خرج من غرفته ليقف أمام بابها، طرقه وانتظرها، فتحته لتنظر له بهلع.
رأى الفزع في عينيها فور رؤيته، إنها حتى لا تحاول أن تكون طبيعية.
ابتعلت ريقها بصعوبة مرددة:
- جاهين.. خير.. في حاجه؟!
نطقت حروفها وكأنها تحمل حجرًا من مكان لآخر وهو على حاله ينظر لها فحسب، فكررت سؤالها بارتباك أكثر، فدفع الباب لترتد للخلف وأغلقه خلفه ليتكأ عليه بظهره وقد كتف ذراعيه.
اتسعت عيناها ذهولًا من فعلته لتقول وهي تشير إليه:
- أنت بتعمل إيه... لو سمحت افتح الباب وأُخرج.. مايصحش تقفله علينا.

رأت بسمته الساخرة تزين شفتيه وهو يقول:
- لا يا شيخة.. مايصحش ليا.. بس يصح لغيري!!
وكأن كلمته ضربت قلبها بقوة حتى كادت توقف نبضه لتتسع عينيها أكثر وأكثر:
- أ.... أنت بتقول.. إيه؟!!
تحرك نحوها لتتقهقر هي للخلف مع كل خطوة يقدم عليها تقابلها هي بخطوة معاكسة، دقات قلبها تكاد تصم أذنيها، لقد رءاهما!!
كلماته... هيئته... لا توحي بعكس ذلك، أعليها الاستمرار في الإنكار أم فلتواجه الأمر وتنهي تلك القصة؟.
انتفضت حين أمسك بكلتا ذراعيها بقوة بين أصابعه:
- تعرفيه من فين ومن إمتى؟!!
جحظت عينيها كثيرًا وهي ترى في عينيه غضبًا لم ترَ مثله من قبل:
- هو.. هو مين؟!
هزها بقوة:
- بطلي استعبااااط.
أفلتت منها صرخة مع شعور بالخطر يجتاحها، جاهين ليس على طبيعته.
حاولت التملص من بين أصابعه التي أطبقت على ذراعيها ككلابتين.
- سيبني.
- انطقي... تعرفي معاذ ده من إمتى؟!.
حدجته بنظراتها، فليكن ستلقي كل شيء في وجهه:
- أعرفه من زمان.. من زمااان أوي.. معاذ ده عمري اللي فات كله.
ارتجفت جفناه وقد خفت قبضته عن ذراعيها لكنها لم تتمكن من الإفلات ، وبعينين حملت ذهولًا خالطه الكثير من الغضب العارم.
- يعني إيه الكلام ده؟!!
قاومت أنفاسها المتسارعة:
- سيبني الأول.

صرخ بها:
- انطقي أنا على آخري.
أغلقت عينيها لحظة لتكمل ما بدأت فما من مجال للعودة الآن، هربت من النظر إليه، لم تملك الشجاعة الكافية لتلقي باعترافها وهي تنظر في عينيه:
- معاذ ده اللي معرفتش أخرجه من قلبي وأدخلك مكانه.. معاذ ده الراجل الوحيد اللي حبيته ولسه بحبه.
هل فقدت عقلها؟!
ألا تعلم كم تقتله تلك الكلمات؟!
كيف تقولها بهذه البساطة؟!
تهدج صوته وملامحه تتبدل ما بين دهشة وحزن وألم:
- طب وافقتي تتخطبيلي ليه.. وافقتي ليييه؟!
نجحت أخيرًا في التخلص من قبضتيه وارتدت للخلف حتى أنها اصطدمت بمرآتها العريضة التي تحتل مساحة من الحائط لتقول بعناد:
- أنت عارف كويس أوي إني ماحبِتكش ووافقت عليك بعقلي وبس... وكان كفاية عليا أوي أشوف قهرة سميحة وأنا باخدكم كلكم منها.
صاحت حين اندفع نحوها رافعًا كفه في الهواء وكاد أن يلطم خدها بقوة إلا أن يده تسمرت في طريقها وهو يرشقها بنظراته وقد اكفهر وجهه ووصل سخطه إلى مدى ربما لم يصله في حياته.
أخفت وجهها لتحميه، لكن لم يصِبها شيء، نظرت له لتجده ينزع خاتمها وألقاه أمامها ليلتفت مغادرًا، تلاحقه أصوات نحيبها وشهقاتها المتتالية التي تعالت رويدًا رويدًا.

ما أن غادر غرفتها حتى ترنح للحظه فاستند بكفه إلى الحائط طالبًا الدعم، ليعتدل بعدها ناصبًا ظهره، ليس هو من تكسره امرأة حتى لو كانت أول من أحب في حياته.

وكأن كفوف عدة تطبق على عنقه، شهق في سبيل النجاة من الاختناق فلم يفلح، أكمل طريقه إلى نهاية الممر نزل الدرج متعلقًا بسوره بقوة، لن يسقط رغم شعوره بأن أحمال العالم قد أُلقيت على ظهره، غصة تملكت من حلقه، أطبق شفتيه خوفًا من صرخة قهر تريد الإفلات.

لازالت حُمرة وجهه الغاضبة واضحة للعيان، فلم تخفَ عليها وهي تغادر غرفة مكتبها، تعلق بصرها به وهو ينزل الدرج بهيئة غير معتادة، ظلت مكانها للحظة فلاحظت ترنح منه أعقبه جلوس على آخر درجات السلم وقد أطرق رأسه.

اقتربت منه بقلق:

- في إيه يا جاهين؟!!

رفع رأسه لها فرأت بها الكثير من الخذلان والندم، لم تفهم لمن يوجههما، فأعادت سؤالها باصرار، لتنفرج شفتيه عن بسمة حزن ساخرة:

- طلعتي صح في الآخر وأنا اللي كنت أعمى.. إنتِ صح يا عمتي.. إنتِ صح!!

دارت عينيها في محجريهما بعدم فهم:

- مش فاهمة... صح في إيه؟!

خفض رأسه وبعد هُنيهة قال:

- قالتهالي في وشي.. كل همها تاخدنا منك وتوجعك.. أنا كنت مجرد وسيلة لانتقامها منك.

برقت عينيها ببريق الفائز بصيدٍ ثمين:

- أنت بتتكلم عن مين؟!

صاحبت كلماتها تلك كلمات أخرى قالتها يومًا ولم ينسَها..

"دي مش همها غير إنها تضايقني... بكرة لما تاخد القلم الصح أبقى أفتكر كلام عمتك "

استند على سور الدرج واقفًا ليزفر قائلًا:

- ياريتني صدقتك من الأول.. أنا خدت القلم يا عمتي... بس طلع بيوجع أوي.. أوي!!
مر بجوارها ليخرج إلى الحديقة تتبعه بعينيها التي لازالت تشع ببريق مزج بين المكر والسعادة.
لترفع رأسها ناظرة لأعلى وقد امتدت الفرحة إلى شفتيها مردده:
- غبية أوي يا بنت فاطمة... والله الفرصة جاتلي تاني لحد عندي وهعرف أرجعهم زي ما خدتيهم مني.
استدارت لتدخل إلى غرفتها وأصداء ضحكتها الساخر لم تتجاوز حنجرتها، لكنها وكأنها تسمعها بوضوح.
....

ظلت مكانها على الأرض بعد أن خرج من غرفتها، تبكي وتبكي.. ولازالت لا تعلم ما كل هذا البكاء؟!.
ضغط عصبي هائل عايشته منذ لحظات، فكأن بكاءَها يخفف من وطئته، مدت أناملها تلتقط خاتمه الفضي الذي ألقاه أمامها.
استقر في كفها فضمت قبضتها عليه بقوة، صاحبه المزيد من البكاء.
لمَ قلبها يؤلمها هكذا؟!
أشفقةً عليه أم حزنًا على ما قد يحدث بعد ذلك؟!
لمَ تهورت وتحدثت إليه بتلك الطريقة؟!
هو لا يستحق منها هذا، كان يمكنها إخباره بما تريد دون أن تسبب له الجرح البالغ هذا.
ضربت رأسها بكفها تلوم حالها واندفاعها.
رن هاتفها لتلتفت إليه زحفت على ركبتيها حتى وصلت لفراشها حيث يستقر، مدت يدها ولديها يقين باسم المتصل وكان هو...
معاذ.

ظلت ترمق الهاتف بصمت حتى انتهى الرنين الذي ما لبث عاد يصدح باصرار تدرك أنه لن يتوقف أو ينتهي.. معاذ كما هو وكأن الزمن لم يغير به شيء.

صعدت على الفراش تجلس على طرفه وأجابت:

- ألو..

- بوسي... مش قُلتي هتتصلي.. مش هينفع نتكلم في التليفون لازم نتقابل.

- اهدى يا معاذ.. مش هينفع دلوقتي خالص.

- إيه ده.. إنتِ بتعيطي؟!!

لم يكن صعبًا أن يكتشف هذا من نبرة صوتها الباكية لتردف ببكاء أعلى:

- معاذ مش هينفع نتكلم خالص بجد سيبني دلوقت.

- أسيبك يعني إيه بقالي خمس سنين سايبك.. أنا لازم أقابلك إيه حكاية أخوكِ دي.. أنا عايز أعرف كل حاجه.

- حاضر... هقولك بس أُصبر عليا.. أنا اتخطبت لابن عمي.

- إيــــه؟!... اتخطبتي.. إنتِ إزاي تعملي كده؟!

- خلاااص.. فسختها بعد ما شوفتك فسختها.. أنا ماعرفتش أحب غيرك.

لم تستطع رؤية الفرحة التي ارتسمت على ملامحه وهي تردف:

- ومكنتش محتاجة وقت علشان أعرف ده... أنا اخترت... اخترتك أنتَ.

صاحبت حروفها الأخيرة شهقات بكاءها، ليقول:

- طب بتعيطي ليه؟!

هزت رأسها ولازالت تبكي:

- مش عارفه.

وصلت لها ضحكته وهو يردد:

- بحبك يا مجنونة.

- وأنا كمان.

- هصبر أد إيه لحد ما أشوفك.

- معلش البيت هيبقى حريقة بسبب فسخ الخطوبة أصبر بقى عليا شوية.

- أنا صِبرت كتير أوي بس علشان خاطرك هصبر كمان.. كفاية إني رجعت أسمع صوتك من تاني... وحشتيييني أوي.
مسحت عبراتها بأناملها:
- وأنتَ كمان.. معاذ اقفل دلوقتي في أقرب فرصه هبقى أكلمك أنا.. مع السلامة.
أغلق الهاتف بعد أن أسمعها المزيد من كلمات شوقه لها.
ألقت الهاتف بجوارها ولازالت عبراتها تهطل في صمت، لمَ لازال قلبها مرتبكًا، متوترًا.. أليس من المفترض أن تشعر بالسعادة فقط؟.
معاذ الذي حلمت به لسنوات عاد لها أخيرًا.
فما بال قلبها المحير هذا لا يرسى على برٍ ويهدأ له بال؟.
....
داعب خاتم الخطبة الذي زين خنصره مبتسمًا، وكأن الأمر كان حلمًا مر على خاطره لحظة فأضحى واقعًا ومصدر لسعادته.
أمسك هاتفه وفكر في محادثتها، لكنه تراجع لعلها نائمة الآن.
أحقًا ستنام، لمَ هرب النوم منه هو من فرط سعادته بها؟.
غادر فراشه وخرج للشرفة فانتبه على الفور لجاهين الذي جلس على أحد المقاعد وقد طأطأ رأسه واستند بكوعيه على ركبتيه، رمقه للحظات متذكرًا هيئته التي تبدلت فجأة أثناء الحفل ولم يعلم السبب... هو يعاني من شيء ما.
عاد للداخل وغادر غرفته لينزل إليه.
وقف خلفه للحظات قبل أن يقول:
- جاهين.. أنت كويس؟.
ظل جاهين على حاله فجذب بسام كرسيًا آخر وجلس بجواره:
- جاهين.. مالك؟.. أنت مش طبيعي ومن ساعة الحفلة حاسس أنك قلبت فجأة كده.. في حاجة حصلت؟.
رفع رأسه ينظر لابن عمه، ضاقت عينيه فلأول مرة يبغض هذا التشابة الكبير بينه وبين بسمة، زفر مشيحًا بوجهه بعيدًا.

ليعقد بسام حاجبيه:
- جاهين.. في أيه؟!.. أنا ضايقتك في حاجة.
- سيبني في حالي يا وافي.
عقد بسام ذراعيه ليقول بإلحاح:
- مش هسيبك واتفقنا تناديني بسام.
التفت له صائحًا:
- بساام.. سيبني.
عاد بسام للوراء فلم يتوقع هجومه:
- إيه ده.. مالك؟!.. ماتفهمني.. أنا مش هسيبك إلا لما أفهم.
زفر عدة زفرات متتالية، أيكون وضيعًا بما يكفي ليقص له اكتشافه المخزي بأخته الوحيدة؟، تلك الخائنة التي لم تعيره أدنى اهتمام أو تفكير، وذنبه الوحيد أنه أحبها بصدق، بينما هي تهرع لرجل آخر بل وتلقي تلك الحقيقة بوجهه دون أدنى خجل.
مال بسام ناحيته يقول باصرار وحرص على أخ وصديق:
- جاهين.. من إمتى بنخبي على بعض.. في إيه؟!!
لكلماته بلسم على قلبه لكنه كانت تكوي جرحًا سببته أخته منذ لحظات، كيف لتلك الجاحدة أن تكون توأم لهذا الشاب؟.
نظر له بعينين حملت الكثير من الحزن والأسى لينظر له بسام بقلق بالغ منتظرًا منه التفسير.
- أنتَ ليه شبهها أوي كده.. مع إنها مش شبهك في أي حاجة.
يتحدث عن بسمة بالتأكيد، هذا ما خطر على عقل بسام ليقول:
- بسمة.. هي بسمة ضايقتك؟!!
اتكأ بظهره على مسند مقعده ناظرًا للسماء:
- كارت.. كنت مجرد كارت بتلعب بيه في لعبة انتقامها اللي مش عارف خلصت ولا لسه.. ولما خلاص بقيت كارت محروق.. رمتني.
التفت لبسام ساخرًا:

- يا خوفي لأنتَ كمان تكون كارت ترميه وقت ما تحب.
هز بسام رأسه بحيرة:
- إيه الكلام ده يا جاهين أنا مش فاهم حاجة؟!!
وقف جاهين مرددًا بحسرة بالغة:
- عمتي كان عندها حق.. أختك كان كل همها تنتقم منها وتاخدنا.. ولما عملت كده خلاص خلصت.. لعبتها خلصت.. وكنت أنا أول واحد ترميه من إيدها.
خفض بسام بصره لأصابع جاهين اليُمنى وبالفعل لم يجد خاتم خطبته وقف بدوره ليقول بتوتر:
- إيه اللي أنتَ بتقوله ده.. بسمة لا يمكن تعمل كده!!
تحول أساه لضحكة ساخرة تقطر ألمًا:
- تصدق.. عملت اللي أوحش من كده.. أنا مابقاش رااجل لو سمحت لدبلتها تفضل في إيدي... وياريت بقى ماتكلمنيش في الموضوع ده تاني.. ماتخلينش أكرهك بسببها.
التفت بسام لشرفة أخته فرأى غرفتها لازالت مضاءة بينما تحرك جاهين من أمامه ليعود للمنزل دون أن يضيف كلمةً أخرى.
ضم بسام قبضتيه بقوة وعقله يحاول أن يجد التفسير المنطقي لكلمات جاهين في حق بسمة.
لكن أكثر كلمة أوجعته ...
"أنا مابقاش راجل لو سمحت لدبلتها تفضل في إيدي"
زفر بحنق وقرر الصعود لغرفتها، وصل للممر ليرى باب غرفة جاهين يغلق للتو، أسرع الخطى ليطرق باب غرفة أخته التي لم تجِب فطرقه ثانية:
- بسمة.. إنتِ صاحية؟.
وصل له صوتها باهتًا بالإيجاب.
فتح الباب ليجدها على فراشها، بحاله شبه مزرية، بكاءها لازال عرضًا مستمرًا، عيناها حمراوتان، شعرها متطاير بغير اهتمام.
وقف يرمقها بدهشة للحظات قبل أن يتملكه الضيق:

- ممكن تفهميني إيه اللي حصل؟!!
أشاحت بوجهها عنه، فليس لديها ما تقوله، اقترب منها ليجذبها من ذراعها لتنظر إليه:
- بُصيلي هنا وبطلي عياط وفهميني.. إنتِ عملتي إيه.. عملتي إيه لجاهين؟!!
وبرغم تأنيب ضميرها لا تريد الاعتراف بخطئِها قالت بعناد:
- مابحبوش هو الجواز بالعافية.
فغر فاه بغير تصديق ليعتدل ناظرًا لها:
- إنتِ .. إنتِ قلتي إيه؟... عافية !!... هو مين اللي غصبك إنتِ مش وافقتي بمزاجك؟!! حد فينا غصبك؟!!
- كنت فاكرة إني هحبه... كنت فاكره إني هعرف أعيش معاه.. بس خلاص.. انتهينا الخطوبة اتفسخت وكل واحد هيروح لحاله.
انفجر بركان غضبه مع برودها القاتل في الكلام.
- هو إحنا بنهزر.. ولا فعلًا زي ما قال.. كنتي بتلعبي علشان تنتقمي من ماما سميحة.
وقفت لتدير ظهرها عنه:
- افهموا اللي تفهموه... أنا مش هتجوز واحد مابحبوش.
أمسك معصمها يديرها إليه لتنظر إلى وجهه وقد انتفخت أوداجِه سَخطًا:
- طب ليه؟.. ليه من الأول وافقتي.. لو كنتِ عايزة تنتقمي كنتي انتقمي مني أنا... ائذيني أنا.. لكن جاهين ليه... لييييه؟!..
أطاحت بأصابعه الممسكة بها بعيدًا:
- سيبوني في حالي بقى.. سيبووووني.
هز رأسه بغير تصديق، والألم يتمكن منه، كيف تفعل هذا بأخاه وصديقه بل وكان أبيه في وقت من الأوقات.
وما الذي عليه فعله الآن؟!
يغضب على توأمه الوحيدة أم يواسي ابن عمه على ما جنته أخته بحقه؟!!.
- لييه؟.. ليه جاهين؟!

لم يجد غير تلك الكلمات ليكررها، علها تفهم، علها تدرك أنها أخطأت بحق الشخص الخطأ.
أعطته ظهرها ولم تجِب وقف مكانه لبرهه قبل أن يغادر غرفتها هو الآخر،
دلف إلى غرفته وقد ملأ الحزن صدره بعد أن كانت السعادة تصول فيه وتجول.

وفي لحظة وبدون ترتيب سالت دمعة من عيون الثلاثة..
ثلاثه من عائلة الشربيني..
حملت كل دمعة معنى مختلف.
بكت صدعًا سببته في العائلة ولا تعلم كيف ستدرأه.
بكى ألمًا خلفته أخته في قلبه وقلب رفيق عمره.
بكى غدرًا لم يتوقعه ممن أحب.

إلى اللقاء مع الجزء التاني
تمت بحمد الله
٢٠١٧